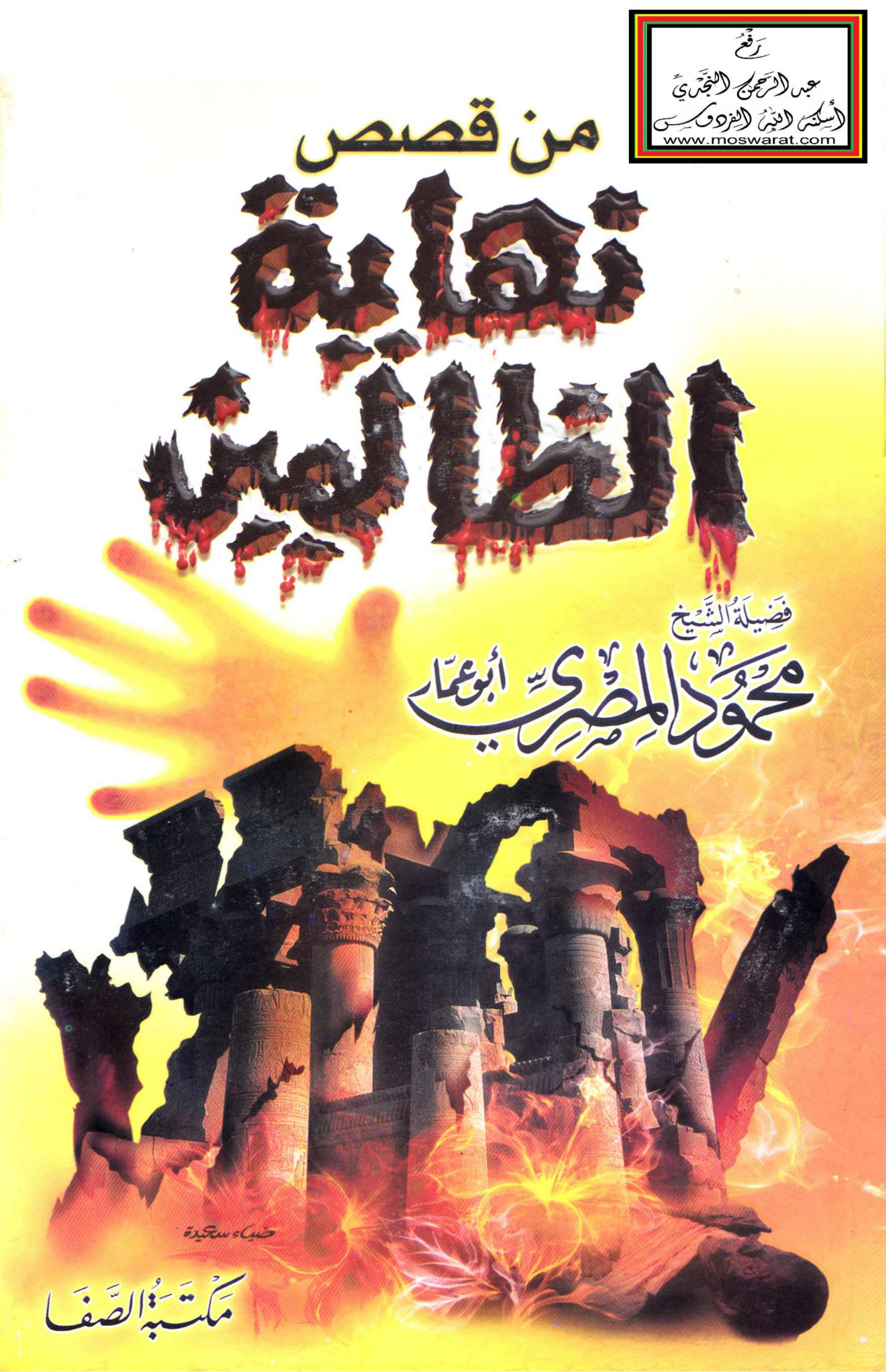
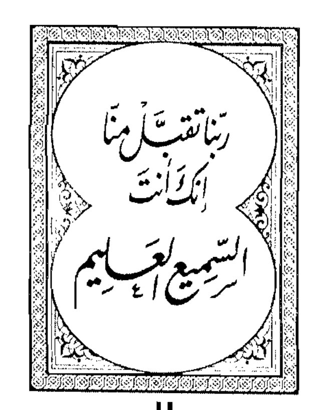


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com
من قصص
نهاية الظالمين
فضيلة الشيخ
محمود المصري
أبو عمار
ضياء سعيدة
مكتبة الصفا


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


من قصص
نهاية الظالمين

بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى

١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

رقم الإيداع: ٢٠١٢/١٤١٢٠

مكتبة الصفا
للنشر والتوزيع

أولاد الحاج عويس أمين صالح

١٢٧ ميدان الأزهر، أمام الجامع الأزهر، القاهرة ت ٢٥١٤٧٣٢٠
درب الأتراك، خلف الجامع الأزهر ت ٠١٠١٤٣١١١٤ للفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤



مكتبة الصفا للنشر والتوزيع
تليفون ٢٥١٤٧٣٢٠ - تليفاكس ٢٥١٤٧٩٧٤


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢)﴾[1]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا (١)﴾[2].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (٧١)﴾[3].

أما بعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد ﷺ، وشر الأمور مُحدثاتها، وكل مُحدثة بدعة وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة فى النار.

وبعد:

* فلقد بدأ الظلم منذ بداية الخلق عندما وقعت أول جريمة فى هذا الكون وذلك عندما قتل قابيل أخاه هابيل... وانتشر الظلم بعد ذلك بين الناس وظل يتصاعد حتى وصل إلى أعلى درجاته فى العصر الجاهلى قبل بعثة النبى محمد ﷺ، الذى جاء ليحذر الكون كله من عواقب الظلم الوخيمة فى الدنيا والآخرة.

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٢).

(٢) سورة النساء: الآية (١).

(٣) سورة الأحزاب: الآيتان (٧٠، ٧١).

فالظلم إيذانٌ بهلاك الأمم.. وهو يجلب غضب الرب وسخطه ... ودعوة المظلوم على الظالم لا تُرد ... والظالم يُحْرَم من محبة الخالق جل وعلا ومن محبة الخلق ... والظالم يُحرم من نعمة الهداية ... وإن لم يتحلل الظالم من تلك المظالم فإنه يأتِي يوم القيامة مُفلسًا من الحسنات التى تُوزَّع على كل مَن ظلمهم ... فالظلم ظُلمات يوم القيامة.

* ومن هنا جاءت الحاجة الماسة للحديث عن الظلم فى هذا الزمان، وفى كل زمان والتحذير من عواقبه الوخيمة.

سواء كان أظلم الظلم - وهو الشرك بالله (جل وعلا)- أو كان ظلم العباد فيما بينهم.

وقد رأينا كيف كانت النهاية المؤلمة لتلك الأنظمة الفاسدة التى كانت تحكم الشعوب بمطارق من الحديد، وإذا بهم يسقطوا ويصبحوا جميعًا خلف قضبان الحديد.

إنه قصاص الدنيا ... غير ما ينتظرهم من القصاص يوم القيامة بين يدى الحق (جل وعلا) الذى قال فى محكم التنزيل: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾[(٢)].

بل حسبُك أن تتأمل معى قوله تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[(٣)]... وتالله لو لم ينزل فى حق الظالمين إلا تلك الآية لكانت

(١) سورة طه: الآية (١١١).
(٢) سورة الأنبياء: الآية (٤٧).
(٣) سورة الشعراء: الآية (٢٢٧).

كافية؛ لأن تردع أى ظالم عن ظلمه للناس من حوله.

وأقول: إن كان الله ﷻ سيُدخل امرأة النار؛ لأنها حبست هِرة (قطة) فماذا يكون مصير من يظلم أهل التوحيد والإيمان.

* فلا يغتر الظَّالمُ بإمهال الله لهُ؛ فإنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يُمهل ولا يهمل.

ففى «الصحيحين»(١) من حديث أَبِى مُوسَى رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيُمْلِى**(٢) **لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ**»(٣) قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾(٤).

* **أخي الحبيب ... أختي الفاضلة:**

ها أنا أسطِّر هذه الرسالة والتى سمَّيتها (نهاية الظالمين) لنحذر جميعًا من الوقوع فى مظالم العباد ... ومَن وقع فى مظلمة فليتحلل منها الآن قبل أن يموت على ذلك.

* ومن أجل ذلك: جاءت وصية النبى ﷺ كما فى الحديث الذى رواه البخارى أن النبى ﷺ قال: «**مَنْ كَانَتْ لِأَخِيهِ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ مِنْ عِرْضٍ أَوْ مَالٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ الْيوْمَ، قَبْلَ أَنْ يؤْخَذَ مِنْهُ يوْمَ لا دِينَارٌ وَلا دِرْهَمٌ، فَإِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يكُنْ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْ سَيئَاتِ صَاحِبِهِ فَجُعِلَتْ عَلَيهِ**»(٥).

فإنه لن يدخل الجنة ظالم إلا إذا تحلل من مظلمته أو عفا عنه المظلوم

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٦) كتاب تفسير القرآن، واللفظ له، ومسلم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) الإملاء: الإمهال والتَّأخير وإطالةُ العُمُر، مُشتَقٌ من الملوة - مُثَلَّثة، وهى المُدَّةُ من الزَّمَان.

(٣) لم يُفْلِتْهُ: لم يطلقه.

(٤) سورة هود: الآية (١٠٢).

(٥) صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٩) كتاب المظالم والغصب.

وتنازل عن مظلمته.

قال ﷺ: «يَخْلُصُ(١) المُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ(٢) بَينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَينَهُمْ فِى الدُّنْيا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِى دُخُولِ الجَنَّةِ، فَوَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيدِهِ، لأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِى الجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِى الدُّنْيا»(٣).

* فأسأل الله (جل وعلا) أن يُجيرنى وإياكم من الظلم بكل أنواعه وأن يحشرنا يوم القيامة فى الفردوس الأعلى ... إنه ولى ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار



(١) يَخلُص: ينجو ويسلم.

(٢) القنطرة: الجسر.

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٥٣٥) كتاب الرقاق.

عاقبة الظلم

في الدنيا والآخرة



تعريف الظلم

* **الظلم لغة:**

«الظُّلْمُ اسْمٌ مِنْ ظَلَمَهُ ظَلْمًا مِنْ بَابِ ضَرَبَ وَمَظْلِمَةً بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكَسْرِ اللَّامِ وَتُجْعَلُ الْمَظْلِمَةُ اسْمًا لِمَا تَطْلُبُهُ عِنْدَ الظَّالِمِ كَالظُّلَامَةِ بِالضَّمِّ وَظَلَّمْتُهُ بِالتَّشْدِيدِ نَسَبْتُهُ إلَى الظُّلْمِ وَأَصْلُ الظُّلْمِ وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ وَفِي الْمَثَلِ مَنْ اسْتَرْعَى الذِّئْبَ فَقَدْ ظَلَمَ»(١).

ويقول الجوهرى: ظَلَمَهُ يظْلِمُهُ ظُلْمًا. وَمظلمة، وأَصْلُه: وَضْعُ الشَّيءِ فِي غَيرِ مَوْضِعِهِ.

وَقِيلَ: الظُّلْمُ التَّصَرُّفُ فِيمَا لَا يمْلَكُ التَّصَرُّفُ فِيهِ، وَيقَالُ فِي مُجَاوَزَةِ الحَقِّ. وَيقَالُ فِي الكَثِيرِ والقليلِ. ولهَذا يُستَعْمَلُ فى الذَّنبِ الكبيرِ والذَّنبِ الصَّغيرِ.

* **الظلم اصطلاحًا:**

التَّصَرُّفُ فى حقِّ الغيرِ بغير حقٍّ، أو مُجَاوزَةُ الحقِّ(٢).

وقيل: الظُّلْمُ: وضعُ الشَّيء فى غير موضعِهِ، وفى الشَّريعَةِ: عِبارَةٌ عن التَّعَدِّى عن الحقِّ إلى الباطلِ، وهو الجَورُ، وقيل: هو التَّصَرُّفُ فى مِلك الغير ومُجَاوَزَةُ الحدِّ(٣).

وقيل: وضع الشىء بغير مَحلِّه بنقص أو زيادة أو عُدول عن زمنه(٤).

وَقال الرَّاغِبُ: الظُّلْمُ هو الانحِرافُ عن العَدْلِ ولذلك حُدَّ بأنه وضعُ

---

(١) المصباح المنير (١٤٦).

(٢) دِليل الفالحين (١/ ٥١٤).

(٣) التعريفات للجرجانى (٤٨).

(٤) التوقيف على مهمات التعاريف (٢٣١).

الشىء فى غير موضعِهِ المخصُوص به، وقد يُسمَّى هذا الانحرافُ جَورًا، ولمَّا كانتِ العدَالةُ تجرى مجرَى النُّقْطَةِ من الدَّائرَةِ فإنَّ تَجاوُزَها من جهةِ الإفْرَاطِ عُدوانٌ وطُغيانٌ والانحرافُ عنها فى بعض جوانبها جَورٌ وظلمٌ، والظلمُ أعمُّ هذه الألفاظِ استعمالًا[١].

* * *

(١) الذريعة (٣٧٥).

درجات الظلم

قال الرَّاغِبُ: لمَّا كان الظُّلْمُ ترك الحق الجارى مجرى النُّقْطة من الدائرة صار العدولُ عنها إمَّا قريبًا وإمَّا بعيدًا، فمن كان عنه (عن الحق) أبعدَ كان الرُّجوعُ إليه أصعب، ولذلك قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾[1]. تنبيهًا إلى أن الشَّيطانَ متى أَمْعَن بهم فى البُعد من الحقِّ صَعُبَ عليهم حينئذٍ الاهتداء[2].

وعلى هذا فمن كان إليه (أى: إلَى الحقِّ) أقرَبَ كان الرُّجُوعُ إليه أسهلَ، ومن ثمَّ فليحذَر الظَّالِمُ المُبتدئُ من التَّمادى فى ظُلْمِهِ حتى يعطِى لنفسِهِ فُرصَةَ الرُّجُوع إلى الحقِّ.

* * *

(١) سورة النساء: الآية (٦٠).

(٢) الذريعة (٣٥٧).

أنواع الظَّلمة

أمَّا أنواع الظَّلمة فثلاثةٌ:

١ - الظَّالم الأعظمُ، وهو الَّذى لا يدخلُ تحت شريعة الله تعالى وإياه عنى بقوله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[1].

٢ - الظَّالمُ الأوسطُ، وهُو الَّذى لا يلتزمُ حُكمَ السُّلطانِ «أى فيما وضعهُ السُّلطانُ من أنظِمَةٍ لتَيسيرِ الحياةِ ولا يتعارضُ مع أحكامِ الشَّرعِ».

٣- الظَّالمُ الأصغرُ، وهُو الَّذى يتعطَّلُ عن المكَاسِبِ والأعمالِ، فيأخُذُ منافع النَّاس، ولا يعطيهم منفعةً، ومن خرجَ عن تَعَاطى العدلِ بالطَّبعِ وبالخُلُقِ والتَّخلُّق والتَّصَنُّعِ والرِّياء والرَّغبةِ والرَّهبة فقد انسلخ عن الإنسانية، ومتى صار أهل كل صُقْعٍ على ذلِكَ فتَهَارَشُوا وتَغَالَبُوا وأكل قويهم ضعيفهم، ولم يبقَ فيهم أثرُ قَبُول لمن يمنَعُهم ويصدُّهم عن الفساد فقد جرَتْ عادةُ الله سُبحانه فى أمثالهم هلاكُهُم واستئصالُهُم عن آخِرِهم[2].

* * *

(١) سورة لقمان: الآية (١٣).

(٢) الذريعة (٣٥٨).

أقسام الظلم

ينقسم الظلم إلى ثلاثة أقسام:

أولاً: ظلم لا يغفره الله تعالى وهو الإشراك به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

قال تعالى عن لقمان الحكيم ووصاياه لولده: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾(١). وما سُمِّى الظلم شركًا إلا لأن الشرك وضع العبادة فى غير موضعها، والظلم وضع الشيء فى غير موضعه، ويقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾(٢) وقد شق ذلك على الصَّحابة، وقالوا: أيُّنا لا يظلم نفسه؟ ففسَّرها لهم النبى ﷺ بأنَّ المُراد الشِّرك.

فقد روى البخارى عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾، قُلْنَا: يا رَسُولَ اللهِ، أَيُّنَا لاَ يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: لَيسَ كَمَا تَقُولُونَ: ﴿لَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ أى: بِشِرْكٍ، أَوَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾(٣).

* قال ابن سعدى رَحِمَهُ اللَّهُ فى شرحه لهذه الآية: «قال الله تعالى فاصلًا بين الفريقين ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟﴾ أى: يخلطوا ﴿إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ الأمن من المخاوفِ والعذاب والشقاء، والهدايةُ إلى الصراط المستقيم.

فإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بظلم مطلقًا، لا بشركٍ، ولا بمعاصٍ، حصل

(١) سورة لقمان: الآية (١٣).

(٢) سورة الأنعام: الآية (٨٢).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٦٠) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٢٤) كتاب الإيمان.

لهم الأمن التام، والهداية التامة. وإن كانوا لم يلبسوا إيمانهم بالشرك وحده، ولكنهم يعملون السيئات، حصل لهم أصل الهداية، وأصل الأمن، وإن لم يحصل لهم كمالها.

ومفهوم الآية الكريمة: أن الذين لم يحصل لهم الأمران، لم يحصل لهم هداية، ولا أمن، بل حظهم الضلال والشقاء»[١].

ثانيا: ظلم لا يتركه الله تعالى وهو ظلم العبد لغيره:

فإن الظلم بين العباد محرَّمٌ، والاعتداء على حقِّ الغير ممنوع. ومِن عَدل الله تعالى أَخذه حقّ المظلوم من الظالم حتى بين الحيوانات.

ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يوْمَ الْقِيامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ، مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ**».

ومن اعتدى على غيره بالضرب اقتص منه يوم القيامة.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: «**مَنْ ضَرَبَ بِسَوْطٍ ظُلْمًا اقْتُصَّ مِنْهُ يوْمَ الْقِيامَةِ**»[٢].

وثروة الإنسان ورأس ماله يوم القيامة حسناته، فإذا كانت عليه مظالم للعباد فإنهم يأخذون من حسناته بقدر ما ظلمهم، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيئاتهم فتُطرح فوق ظهره ... ففى صحيح البخارى عَنْ أَبِى هُرَيرَةَ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْ مِنْهُ اليوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيهِ**»[٣].

---

(١) تفسير كلام المنان/ لابن سعدى (٢٤٠).

(٢) صحيح: رواه البيهقى (٨/ ٤٥)، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٦٣٧٤).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٩) كتاب المظالم والغصب.

وأولئك المعتدون على غيرهم هم المفلسون الذين يضعون أجرهم فى ميزان غيرهم، وينقلونه فى صحيفة خُصمائهم ويهلكون أنفسهم.

عَنْ أَبِى هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ**»؟ قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا يا رَسُولَ اللهِ مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِى مَنْ يأْتِى يوْمَ الْقِيامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيامٍ وَزَكَاةٍ، وَيأْتِى وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا فَنِيتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يقْضِى مَا عَلَيهِ أُخِذَ مِنْ خَطَاياهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّارِ**»[1].

ولذا يعيش المؤمن فى مراقبة دائمة لربه لا يضع جوارحه إلا فيما يُرضى الله تبارك وتعالى ويمنعها عما يُغضب الله، وأهل الجنة لا يدخلون الجنة حتى يُنقّوا من المظالم.. فعَنْ أَبِى سَعِيدٍ الْخُدْرِى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «**إِذَا خَلَصَ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ حُبِسُوا بِقَنْطَرَةٍ بَينَ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيتَقَاصُّونَ مَظَالِمَ كَانَتْ بَينَهُمْ فِى الدُّنْيا حَتَّى إِذَا نُقُّوا وَهُذِّبُوا، أُذِنَ لَهُمْ بِدُخُولِ الجَنَّةِ**». رواه البخارى.

والجنة دار السلام أعدها الله لمن سَلِم المسلمون من لسانه ويده، فهل يعى الظالمون عاقبة أمرهم؟ وهل يخففون من أوزارهم ويحافظون على حسناتهم ويعلمون أن للمظلوم ناصرًا ينصره، وقويًّا يدافع عنه، وعدلًا يأخذ له حقه.

ثالثًا: ظلم يغفره الله تعالى، وهو ظلم العبد نفسه:

من تقصيرها فى واجب، أو وقوعها فى محذور، وقد قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب.

مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴾[١]، فقد قسم الله تعالى هذه الأمة الموفقة ثلاثة أقسام، وذكر من أقسامها: الظالم لنفسه.

يقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: «يقول الله تعالى: ثم جعلنا القائمين بالكتاب العظيم، المصدق لما بين يديه من الكتب، الذين اصطفينا من عبادنا، وهم هذه الأمة، ثم قسمهم إلى ثلاثة أنواع، فقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو: المفرط فى فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات... واستطرد رحمه الله فى ذكر بقية الأقسام»[٢].

ويقول الشيخ عبد الرحمن بن سعدى رحمه الله: «﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ أى: بالمعاصى، التى هى دون الكفر. فكلهم اصطفاه اللّه تعالى، لوراثة هذا الكتاب، وإن تفاوتت مراتبهم، وتميزت أحوالهم، ولكلٍّ منهم قسط من وراثته، حتى الظالم لنفسه، فإن ما معه من أصل الإيمان، وعلوم الإيمان، وأعمال الإيمان، هو من وراثة الكتاب»[٣].

وحتى يَسلم العبد من ظلم نفسه لا بد من محاسبتها ومجاهدتها لتعرف الواجب فتتبعه، والمحذور فتجتنبه، ولتكن محاسبته لنفسه أعظم من محاسبة شريك شحيح لشريكه.. وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوها قبل أن توزنوا، وتأهبوا ليوم العرض، يومئذ تُعرضون لا تخفى منكم خافية. وقد فتح الله تعالى باب التوبة للتائبين، ولن يُغلَق حتى تطلع الشمس من مغربها أو حتى تبلغ الروح

(١) سورة فاطر: الآية (٣٢).

(٢) تفسير ابن كثير جزء ٣.

(٣) تفسير ابن سعدى جزء ٦.

الحلقوم، فليبادر الظالم لنفسه إلى التوبة الصادقة والإنابة الجازمة، فإن الله توَّاب رحيم،... قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ فى فتح المجيد كلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فمن سَلِم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد. وظلمه لنفسه بما دون الشرك. كان له الأمن التام والاهتداء التام. ومن لم يَسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق. بمعنى أنه لا بد أن يدخل الجنة كما وُعد بذلك: وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذى تكون عاقبته إلى الجنة..». إلخ.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «والظلم عند الله عَزَّ وَجَلَّ يوم القيامة له دواوين ثلاثة: ديوان لا يغفر الله منه شيئًا وهو الشرك بالله وديوان لا يترك الله تعالى منه شيئا وهو ظلم العباد بعضهم بعضًا، وديوان لا يعبأ الله به شيئًا وهو ظلم العبد نفسه بينه وبين ربه عَزَّ وَجَلَّ فإن هذا الديوان أخف الدواوين وأسرعها محوًا»[١].

* * *

(١) الوابل الصيب، نقلًا من كتاب «اتق دعوة المظلوم» للشيخ سعد بن سعيد الحجرى (ص ١٣- ١٦) بتصرف.

صور من الظلم الأعظم (الشرك)

* وها هى صورٌ من الظلم الأعظم:

(١) الشرك في الربوبية:

وهو اعتقاد أن غير الله ﷻ يخلق أو يرزق أو يدبر شيئًا فى هذا الكون من دون الله ﷻ أو مع الله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - كشرك أهل التعطيل والفلاسفة ومن يقولون بقدم العالم، وكشرك النصارى الذين يقولون: إن الله سبحانه ثالث ثلاثة، وكشرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور وحوادث الشر إلى الظُّلمة ... إلخ.

(٢) الشرك في الألوهية:

وهو اعتقاد شريك لله تعالى فى الإلهية والطاعة والعبادة، وهو شرك الجاهليين فى القديم والحديث، وهذا النوع من الشرك له صور كثيرة لا تخرج فى مجملها عن النوعين الآتيين:

(أ) الشرك في العبادة والنسك:

ومنها: الخوف، والرجاء، والنذر، والذبح، والركوع، والسجود، والدعاء، وغير ذلك مما يصرفه المشركون إلى أوليائهم من الأحياء والأموات[١].

(ب) الشرك في الطاعة والاتباع:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾[٢].

أى: أنَّكم متى أطعتموهم فى شركهم بتحليلهم الحرام، وتحريمهم

---

(١) انظر: «الظلم حقيقته والتحذير منه» لعبد العزيز الجليل (ص ٧، ٨).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٢١).

الحلال - فإنكم مشركون مثلهم.

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾[1].

أي: اتخذوا علماءهم أربابًا من دون الله، يُحِلُّون لهم ما حرَّم الله، ويحرمون عليهم ما أَحَلَّ الله.

(٣) الشّركُ في الأسماء والصّفات:

ويكونُ الشِّركُ في الأسْمَاء والصِّفات بالتَّحريف، والتَّعطيل، والتَّمثيل، والتَّكييف.

وفيما يأتي تبيينُ كلِّ واحدٍ منهم على حدةٍ:

(أ) **التحريف:** جَاء القُرآنُ الكريمُ بذمِّه، قال الله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[2].

وحكمُهُ: «التَّحريفُ والانحرَافُ على مَراتب: فقد يكونُ كُفرًا، وقد يكونُ فسقًا، وقد يكونُ معصيةً، وقد يكونُ خطَأً»[3].

(ب) **التعطيل:** هُوَ نفي صِفَات الله تعالى، وإنكارُ قيامِهَا بذاتِه[4].

وَحُكْمُ التَّعطيل: قَد يكونُ ناقضًا لأصلِ التَّوحيدِ، أو لكمالِهِ، وقد يكونُ دونَ ذلكَ.

ومِنَ التَّعطيلِ ما هُوَ شرٌّ من الشِّركِ،... قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتَّعطيل شرٌّ من الشِّرك، فَإن المُعطِّل جاحدٌ للذَّاتِ، أو لكمالها، وهو جحدٌ لحقيقة

(١) سورة التوبة: الآية (٣١).
(٢) سورة النساء: الآية (٤٦).
(٣) «شرح الطحاوية» (١/ ١٣).
(٤) انظر «بدائع الفوائد» (١/ ١٦٩)، و«التنبيهات السّنية» (ص٢٣).

الألوهية، والمُشرك مقرٌّ بالله، لكن عَبدَ معه غيرَهُ؛ فهو خيرٌ من المُعطِّل للذَّات والصِّفات»[1].

(جـ) **التمثيل**: هو كفر؛ لأنه تكذيب لقول الله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾[2].

قال نُعيم بن حمَّاد (شيخُ البخارى): «من شبَّه اللهَ بخلقه كَفَرَ، ومن جحد ما وصفَ اللهُ به نفسه كَفَرَ، وليسَ فيما وصفَ اللهُ به نفسَهُ، أو وَصَفَهُ به رسُولُهُ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ تشبيهٌ»[3].

وقال إسحاقُ بن رَاهَويهِ: «من وصف الله، فشبَّه صفاتَهُ بصفَاتِ أحدٍ من خلق الله - فهو كافرٌ بالله العظيم»[4].

(د) **التكييف**: هو حكاية كيفية الصِّفة، كقول القائل: كيفية يد الله - أو نُزوله إلى السَّماء الدُّنيا- كذا وكذا»[5].

وحُكمُهُ: أنه حرامٌ، لأنَّه من القول على الله بغير علم، ولأن الله أخبرنا عن صِفَاتِهِ، ولم يخبرنا عن كيفيتها، فالسُّؤال عن ذلك من البدَعِ، زِدْ على ذلك أن تكلُّف السُّؤال عن الكيفية طريقٌ إلى الشِّرك والضَّلال، ما من ذلك بُدٌّ[6][7].

* * *

---

(١) «التنبيهات السنية» (ص٢٣).

(٢) سورة الشورى: الآية (١١).

(٣) «الأسماء والصِّفات» للبيهقى (ص٤٠٨).

(٤) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنة والجماعة» للالكائى (٩٣٧)، و«شرح الطحاوية» (١/ ٨٥).

(٥) «فتح رب البرية بتلخيص الحموية» (ص٢٢).

(٦) البُدُّ - بالضمِّ-: الفِرَاق.

(٧) «ظلمات الظلم»/ لأبى عبد الله فيصل الحاشدى (ص٢٥-٣٠) بتصرف.

مجالات الظلم وأنواعه

* نحن نعلم أن أنواع الظلم كثيرة ... وإن كان أشد أنواع الظلم هو الشرك بالله (جل وعلا) إلا أن هناك أنواعًا من الظلم لا بد أن نقف على بعضها:

* **فمن أنواع الظلم:**

مجاوزة العبد للحدود التى حدَّها الله تعالى... كما قال ﷻ: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[1].

* ومن أنواع الظلم:

ترك الحكم بما أنزله الله ﷻ،... كما قال تبارك وتعالى:

﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[2].

* ومن أنواع الظلم:

المماطلة فى إعطاء الحقوق إلى أهلها مع القدرة على الوفاء بها إليهم، وفى مثل هذا يقول النبى ﷺ:

«لَيُّ الْوَاجِدِ يحِلُّ عِرْضَهُ وَعُقُوبَتَهُ»[3] أى: مطل الغنى.

وفى لفظ للحديث: «لَيُّ الْوَاجِدِ ظُلم».

* ومن أنواع الظلم:

الافتراء على الله كذبًا، أو التكذيب بآياته، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

---

(١) سورة الطلاق: الآية (١).

(٢) سورة المائدة: الآية (٤٥).

(٣) حسن: رواه أبو داود، والنسائى، وابن ماجه، وأحمد، وحسنه الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى صحيح الجامع (٥٤٨٧).

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ﴾(١).

وقال ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا﴾(٢).

* ومن أنواع الظلم:

الصد عن المساجد، أو منع أن يُذكَر فيها اسم الله تعالى بتعطيلها عن أداء دورها فى حياة المسلمين من دروس العلم النافعة، والمشاركة فى اجتماعيات الناس.

كما قال جل شأنه:

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ﴾(٣).

* ومن أنواع الظلم:

كتم الشهادة مما يؤدى إلى ضياع حقوق البعض من أموال أو دماء، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ﴾(٤).

* ومن أنواع الظلم:

التذكير بآيات الله تعالى ثم الإعراض عنها، والتكذيب بالصدق، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا ﴾(٥).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ ﴾(٦).

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٣٧). سورة يونس: الآية (١٧).

(٢) سورة الأنعام: الآية (١٥٧).

(٣) سورة البقرة: الآية (١١٤).

(٤) سورة البقرة: الآية (١٤٠).

(٥) سورة السجدة: الآية (٢٢).

(٦) سورة الزمر: الآية (٣٢).

* ومن أنواع الظلم:

ترك الصلاة ، ومنع الزكاة، والإفطار فى رمضان بلا عذر، وترك الحج مع القدرة..

* ومن أنواع الظلم:

عقوق الوالدين، وقطع الأرحام، والفرار من الجهاد فى سبيل الله تعالى.

* ومن أنواع الظلم:

الكبر، والفخر، والخيلاء، والعجب، والتيه، وشهادة الزور.

* ومن أنواع الظلم:

أخذ الرشوة على الحكم، والنميمة، والغيبة، ومنع فضل الماء.

* ومن أنواع الظلم:

الأخذ من أرض الغير، ولو كان شبراً.

* ومن أنواع الظلم:

أن يكلف الأستاذ فى زماننا تلميذه بأخذ الدروس بالأموال لديه، وإلا فهو غير ناجح، وإن كان من المجتهدين، القائمين بكل الواجبات.

* ومن أنواع الظلم:

أن يظلم الرجل المرأة حقها من الصَّداق، والنفقة، والكسوة.

* ومن أنواع الظلم:

موالاة الرجل لأهله وأقاربه إذا كانوا مشركين بالله عز وجل، كما قال تبارك وتعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾[1].

---

(١) سورة التوبة: الآية (٢٣).

* ومن أنواع الظلم:

أن يستأجر إنسان إنسانًا فى عملٍ ما، ثم لا يعطيه أجره، أو ينقصه شيئًا.

* ومن أنواع الظلم:

أكل مال اليتيم، والضعيف، والنساء، والناس بالباطل والزور[١].

* * *

(١) الظلم والظالمون/ الشيخ مجدى فتحى السيد (ص٤٠-٤٥) بتصرف.

أشد الناس ظلمًا بين العباد

الإمام الظَّلوم أشد الناس ظلمًا عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، إذ أن ظلمه يؤدى إلى فساد العباد وخراب الديار.

فالحاكم العادل نعمة من الله تعالى، والحاكم الظالم نقمة على رعيته.

لذا يروى لنا أبو أمامة الباهلى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيقول: قال ﷺ:

«صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِى لا تَنَالُهُمَا شَفَاعَتِى: إِمَامٌ ظَلُومٌ غَشُومٌ، وَكُلُّ غَالٍ مَارِقٍ»(١).

* الإمام الظلوم: هو الذى يتآمر على وطنه، ثم يدَّعى الوطنية؟!

الإمام الظلوم: هو الذى يسرق أموال الأمة، ثم يدَّعى أنه أمين ومؤتمن!!

الإمام الظلوم: هو الذى يوالى أعداء الله، ثم يدَّعى أنه يفعل ذلك للصالح العام!!

الإمام الظلوم: صاحب لسان كذوب، ويدٍ باطشة، وعقل مخرف.

هذا الإمام الظلوم لرعيته، الغاشم فى أفعاله يُحرَم من خير عظيم، وباب أمل ورجاء جليل، ألا وهو شفاعة إمام المرسلين، وخاتم النبيين ﷺ.

فإن من أعظم الرذائل التى يقع فيها الإمام هو ظلم رعيته، ولهذا كان يقال: مهما كان فى الملك فلا ينبغى أن تكون فيه خصالٌ خمس:

لا ينبغى أن يكون حديدًا، فإنه إذا كان حديدًا مع القدرة هلكت الرعية.

ولا ينبغى أن يكون كذَّابًا، فإنه إذا كان كذَّابًا فوعد خيرًا لم يُرجَ، أو أوعد بشرٍّ لم يُخَف منه.

---

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الكبير وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٧٩٨).

ولا ينبغي أن يكون حسُودًا، فإنه إذا كان حَسُودًا لم يُشرف أحدًا، ولا يصلح الناس إلا على أشرافهم.

ولا ينبغي أن يكون جبانًا، فإنه إذا كان جبانًا ضاعت ثغوره، واجترأ عليه عدوه.

ولا ينبغي أن يكون بخيلًا، فإنه إذا كان بخيلًا لم يناصحه أحد، ولا تصلح الولاية إلا بالمناصحة[1][2].

* * *

(١) عيون الأخبار / لابن قتيبة (١/ ٦٧).

(٢) الظلم والظالمون (ص٦٢-٦٣) بتصرف.

حكم الظلم

* قال الإمام الذهبى: الظلم يكون بأكل أموال النَّاس وأخذها ظلمًا، وظلمُ النَّاس بالضرب والشتم والتعدى والاستطالة على الضعفاء، وقد عدَّه الكبيرة السادسة والعشرين، وبعد أن ذكر الآيات والأحاديث التى تتوعد الظالمين، نقل عن بعض السلف قوله: لا تظلم الضعفاء فتكون من شرار الأقوياء، ثم عدَّد صورًا من الظلم منها:

- أخذ مال اليتيم.
- المماطلة بحقٍّ على الإنسان مع القدرة على الوفاء.
- ظلم المرأة حقها من صداق ونفقة وكسوة.
- ظلم الأجير بعدم إعطاء الأجرة[١].

وقال الإمام ابن تيمية: «... والظلم مَنهيٌّ عنه نهيا مطلقًا؛ ولهذا جاءت أفضل الشرائع والمناهج بتحقيق هذا كله وتكميله، فأوجب الله العدل لكل أحد، على كل أحد، فى كل حال»[٢].

وقال أيضًا: «والظلم كله من أمراض القلوب، والعدل صِحَّتُها وصلاحُها»[٣].

* * *

(١) الكبائر (١٠٤، ١١٠) بتصرف.
(٢) الرد على المنطقيين (١/ ٤٢٥).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٠).

تنزيه الله (سبحانه) عن الظلم

نزَّه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نفسه -جلَّ في علاه- عن الظلم في آيات كثيرةٍ فمنها: قال - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ -: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾[٣].

وَقالَ تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾[٤].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيل: الظلم: أن يحمل عليه سيئات غيره، والهضم: أن ينقص من حسنات نفسه»[٥].

وعن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ فيما روى عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنه قال: «**يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا؛ فلا تظالموا**»[٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصواب الذي دلت عليه النصوص أن الظلم الذي حرمه الله على نفسه وتنزَّه عنه فعلًا وإرادة - هو ما فسره به سلف الأمة وأئمتها: أنه لا يُحمَّل المرء سيئات غيره، ولا يُعذَّب بما لم تكسب يداه،

---

(١) سورة آل عمران: الآية (١٠٨).

(٢) سورة النساء: الآية (٤٠).

(٣) سورة الكهف: الآية (٤٩).

(٤) سورة طه: الآية (١١٢).

(٥) «التحفة العراقية» (ص ٧٨).

(٦) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

ولم يكن سعى فيه، ولا ينقص من حسناته، فلا يُجازَى به أو ببعضها، إذا قارنها - أو طرأ عليها - ما يقتضى إبطالها - أو اقتصاص المظلومين منها، وهذا الظلم الذى نفى الله - تعالى - خوفه عن العبد بقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾﴾[١].

قال السلف والمفسرون: لا يخاف أن يُحمَل عليه من سيئات غيره، ولا يُنقَص من حسناته ما يتحمل، فهذا هو المعقول من الظلم، ومن عدم خوفه»[٢].

فانظر ترَ، وتأمل تجدْ أن الله - جلَّ فى عُلاه - حرم الظلم على نفسه، ونزَّه نفسه عنه وجعله بين عباده محرمًا، ونهى عن الظلم، فحَرِىٌّ بالمؤمن أن يفرَّ منه فراره من الأسد، فمن أطاع هواه واغتر بحلم الله عنه - فالجزاء من جنس العمل، طال الزمن أو قصر فإن الله - جل فى علاه - يمهل ولا يهمل.

وإذا الظلوم استوطأ[٣] الظلم مركبًا — وَلَجَّ[٤] عُتوًّا[٥] - فى قبيح اكتسابه
فكِلْهُ[٦] إلى صَرف الزمان[٧] وعدله — سيبدو له ما لم يكن فى حسابه[٨]

* * *

(١) سورة طه: الآية (١١٢).
(٢) «مفتاح دار السعادة» (٢/ ١٠٨).
(٣) استوطأ المركب: وجده وطيئًا، أى: سهيلًا ذليلًا.
(٤) لَجَّ فى الأمر: تمادى عليه، وأبى أن ينصرف عنه.
(٥) العتو: مجاوزة الحد فى الاستكبار.
(٦) كله: اتركه، وبابه وعد، ووكولًا - أيضًا -.
(٧) صرف الزمان - بالفتح -: نوائبه ونوازله، والجمع صُروف.
(٨) ظلمات الظلم/ للحاشدى (١٤ - ١٧).

طبيعة البشر الظلم والجهل

ولا بد أن نعلم أن الأصل فى الإنسان الظلم والجهل حتى يُطهر الله قلبه ويوفقه لأن يكون رحيمًا عادلًا.

ومما يدل على أن الظلم من طبيعة البشر قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤)﴾[1]، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما قول من يقول: الأصل فى المسلمين العدالة فهو باطل، بل الأصل فى بنى آدم الظلم والجهل، كما قال – تعالى –: ﴿وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾.

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإنسان خُلق فى الأصل ظَلومًا جَهولًا، ولا ينفكُّ عن الجهل والظلم إلَّا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويلهمه رشده، فمن أراد به خيرًا، علمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علمه، فخرج به عن الظلم، ومن لم يُرد به خيرًا، أبقاه على أصل الخلقة، فأصل كل خير هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم، وقد جعل الله – سبحانه – للعدل المأمور به حدًّا، فمن تجاوزه كان ظالمًا معتديًا، وله من الذم والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه»[3].

* * *

(١) سورة إبراهيم: الآية (٣٤).
(٢) سورة الأحزاب: الآية (٧٢).
(٣) إغاثة اللهفان (٢/ ١٣٦، ١٣٧).

أقسام ظلم العباد[1]

وكما يكون الغش فى المعاملات، يكون فى كل شىء يكون فيه الغش، فيكون فى النصيحة وفى العلم، وفى سياسة الناس بشرع الله، فمن وثق به الناس واختاروه إمامًا لهم، ثم لم يُحِطهم بنُصحه ورعايته، وتحكيم شرع الله - فهو غاشٌّ لهم.

ففى «الصحيحين»[2] من حديث معقل بن يسار المزنى رضي الله عنه فى مرضه الذى مات فيه، قال إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد يسترعيه الله رعية، يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته - إلا حرم الله عليه الجنة**».

* وظلم العباد يكون بأمرين:

١ - ظلمهم في دينهم:

ويكون ظلمهم فى دينهم بصرفهم عن دينهم الحق وعقيدتهم وأخلاقهم بإثارة الشبهات التى ينحرف بها العبد عن عقيدته الصافية، فيقع فى الكفر والبدعة، أو بكتمان الحق، أو لبسه بالباطل، فيقع فى الزيغ والضلال، أو إثارة الشهوات التى توقع العبد فى الرذيلة والفسق والفجور، فهذا كله من الظلم العظيم للناس فى دينهم وأخلاقهم[3].

٢ - ظلمهم في النفس والعقل:

وينقسم قسمين:

أ - منعهم حقوقهم.

---

(١) بتصرف من كتاب «ظُلمات الظلم» لأبى عبد الله فيصل الحاشدى (حفظه الله).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٥٠) كتاب الأحكام، ومسلم (١٤٢) كتاب الإيمان، واللفظ له.

(٣) انظر «الظلم» لعبد العزيز الجليل (ص ٩).

ب - فعل ما يضر بهم[١].

*** صور من ظلم العباد في النفس والعقل:**

وهذا الظلم لا يخرج عن صورتين:

١ - ظلم باللسان.

٢ - ظلم بالفعل.

* * *

(١) هذا ما يشير إليه شيخُ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله - كما فى «الفتاوى» (١٠/ ٣٧٣).
«وإضرار العبدُ فى دينه ودنياه هو ظلم الناس، فالظلم للغير يستحق صاحبه العقوبة فى الدنيا لا محالة، لكفِّ ظلم الناس بعضهم عن بعض».
ثم هو نوعان:
أحدهما: منع ما يجلب لهم من الحق، وهو التفريط.
الثانى: فعل ما يضر بهم، وهو العدوان.

صور من ظلم العباد باللسان

١ - الغيبة:

والغيبة من أعظم ظلم اللسان للعباد، وهى آفة خطيرة، ولقد عرَّفها النبى ﷺ بقوله - كما فى «صحيح مسلم»، من حديث أبى هريرة رضي الله عنه: «**أتدرون ما الغيبة؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم. قَال: «**ذِكرك أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيت إن كان فى أخى ما أقول؟

قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتَّه**»[1].

وذكرك أخاك بما يكره، سواء كان ذلك فى بدنه، أو دينِهِ، أو دُنياه، أو نفسه، أو خُلُقه، أو ماله، أو ولده، أو زوجه، أو خادمه، أو ثوبه، أو حركته، أو طَلَاقته، أو عُبُوسته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته باللسان، أو الإشارة، أو الرمز، كما قال النووى رحمه الله.

والغيبة محرمة بإجماع المسلمين، وهى من كبائر الذنوب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿**وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُۚ**﴾[2].

وَعَنْ أَبِى بَرْزَةَ الْأَسْلَمِى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ، وَلَمْ يدْخُل الإِيمَانُ قَلْبَهُ، لا تَغْتَابُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلا تَتَّبِعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ اتَّبعْ عَوْرَاتِهِمْ، يتَّبِع اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ يتَّبِع اللهُ عَوْرَتَهُ، يفْضَحْهُ فِى بَيتِهِ**»[3].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٩) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) سورة الحجرات: الآية (١٢).

(٣) صحيح: رواه أبو داود، وأحمد، وصححه الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٧٩٨٤).

٢ - النميمة:

والنميمة: هى السعى بين الناس على جهة الإفساد، وهى من أعظم ظلم العباد؛ لأنها تقود إلى العداوة والبغضاء، ومن أنواع السحر؛ لأنها تشارك السحر فى التفريق بين الناس، وتغيير قلوب المتحابين، وتلقيح الشرور (١).

وهى محرمة بإجماع المسلمين.. تَظاهر على تحريمها الكتاب وصحيح السنة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾(٢).

وفى «الصحيحين»(٣) من حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا يدخل الجنة نمام**»(٤).

ولهما(٥)، أيضًا من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرج النبى ﷺ من بعض حيطان المدينة، فسمع صوت إنسانين يُعذَّبان فى قبورهما، فقال: «**إنَّهُمَا يُعذَّبان، وما يُعذَّبان فى كبير(٦) وإنه لكبير كَان أحدُهما لا يستترُ من البول(٧) وكان الآخر يمشى بالنميمة**»، ثم دعا بجريدة، فكسرها كسرتين -أو ثنتين-، فجعل كسرة فى قبر هذا، وكسرة فى قبر هذا، فقال: «**لعله يُخفَّف عنهما ما لم ييبسا**».

---

(١) انظر «فتح المجيد» (ص ٣٢٥).

(٢) سورة القلم: الآية (١١).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٥٦) كتاب الأدب، ومسلمٌ (١٠٥) كتاب الإيمان، واللفظ له.

(٤) قال الحافظ فى «الفتح» (١٠/ ٤٧٣): «لا يدخل الجنة أى: فى أول وهلة، كما فى نظائره».

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٥٥) كتاب الأدب، ومسلم (٢٩٢) كتاب الطهارة.

(٦) وما يُعذَّبان فى كبير: أى ليس بكبير فى مشقة الاحتراز، وقيل: ليس بكبير فى اعتقادهما وزعمهما.

(٧) لا يستتر من البول: لا يجعل بينه وبين بوله سترة، يعنى: لا يتجنبه ويتحرز منه.

فانظر كم من الوعيد الشديد يقع فيه النمام،... فمنه أنه لا يدخل الجنة، ومنه أنه يُعذَّب فى قبره جزاءً وفاقًا، والجزاء من جنس العمل.

فإذا حُملت إليك نميمةٌ، وقيل لك: فلان يقول فيك - أو يفعل فيك - كذا - فعليك ستة أمور[1]:

الأول: ألا تصدقه؛ لأن النمام فاسق.

الثانى: أن تنهاه عن ذلك، وتنصحه وتُقبِّح له فعله.

الثالث: أن تبغضه فى الله - تعالى -؛ فإنه بغيض عند الله - تعالى -، ويجب بغض من أبغضه الله - تعالى-.

الرابع: ألا يظن بأخيه الغائب السوء.

الخامس: ألا يحمله ما حُكى له على التجسس والبحث عن ذلك.

السادس: ألا يرضى لنفسه ما نهى النمام عنه، فلا يحكى نميمته عنه، فيقول: فلان حكى كذا، فيصير به نمامًا، ويكون آتيًا ما نَهى عنه.

٣ - اللعن والسب والشتم والتفحش في القول:

لعن المؤمن من الظلم،... ومن صفات المؤمن ألا يكون لعَّانًا، ولا طعَّانًا[2]، ولا فاحشًا، ولا بذيئًا.

ومما يدلُّ على أن لعن المؤمن من الظلم ما جاء فى «الصحيحين»[3] من حديث ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لعن المؤمن كقتله»**.

---

(١) انظر: «شرح النووى على مسلم» (٢/ ١١٣) نقلًا عن الغزالى.

(٢) طعَّانًا: أى وقَّاعًا فى أعراض الناس بالذم، والغيبة، ونحوهما، وهو فَعَّالٌ مِن طَعَن فيه، وعليه بالقول بطعن - بالفتح والضم-: إذا عابه.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٤٧) كتاب الأدب، ومسلم (١١٠) كتاب الإيمان.

ومما يدل على أن اللعن ليس من صفات المؤمن ما أخرجه الترمذى[(١)] من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ليس المؤمنُ بالطعان، ولا باللعان، ولا الفاحش، ولا البذى»**.

٤ - شهادةُ الزور:

شهادة الزور من أعظم ظلم العباد، وهى دليل على ضعة النفس، وحقارة الشأن، وخُبث الطوية، وهى من أكبر الكبائر.

ففى «الصحيحين»[(٢)] من حديث أبى بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»** (ثلاثًا).

قلنا: بلى، يا رسول الله.

قال: **«الإشراك بالله، وعقوق الوالدين** - وكان متكئًا فجلس، فقال -**ألا وقول الزور، وشهادة الزور، ألا وقول الزور، وشهادة الزور»** فما زال يقولها، حتى قلت: لا يسكت.

وأضرار شهادة الزور كثيرة، فمنها:

أ - تضليل الحاكم عن الحق، والسبب فى الحكم بالباطل، ولذلك قال رسول الله ﷺ (كما فى «الصحيحين»[(٣)] من حديث أم سلمة رضي الله عنها): **«إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلىَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن[(٤)] بحجته من بعض، فأقضى على نحو ما أسمع»**.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وأحمد، وصححه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٥٣٨١).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٥٩٧٦) كتاب الأدب، واللفظ له، ومسلم (٨٧) كتاب الإيمان.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٧١٦٩) كتاب الأحكام، - واللفظ له -، ومسلم (١٧١٣) كتاب الأقضية.

(٤) ألحن بحجته: أعلم بها وأفطن لها وأجدل.

ب - الظلم لمن شهد له؛ لأنه ساق إليه ما ليس بحق بسبب شهادة الزور، فوجبت له النار.

ففى «الصحيحين» من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فمن قضيت له بحق أخيه شيئًا بقوله، فإنما أقطع له قطعة من النار؛ فلا يأخذها**».

ج - الظلم لمن شهد عليه، فيتعرض الشاهد لدعوة المشهود عليه بغير الحق ظلمًا، ودعوة المظلوم مستجابة.

د - قد يُطلب من شاهد الزور اليمين على صحة شهادته، فيتعرض لغضب الله ومقته.

ففى «صحيح مسلم» [1] من حديث أبى أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**من اقتطع [2] حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة**»، فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا، يا رسول الله؟

قال: «**وإن كان قضيبًا من أراك**» [3].

هـ - تخليص المجرمين من عقوبة الجريمة.

و - تزكية المشهود له، وهو ليس أهلًا لذلك [4].

٥ - قذف المحصن أو المحصنات:

قذف المحصن أو المحصنات من أعظم الظلم الذى توعد الله فاعله بالعذاب العظيم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٣٧) كتاب الإيمان.

(٢) اقتطع: أخذ.

(٣) الأراك: شجرٌ من الحمض معروف، يستاك بأعواده،... الواحدة أراكةٌ.

(٤) انظر: «مجلة البحوث»، بحث قدمه الشيخ عبد الله القصير بتصرف.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1].

وفى «الصحيحين»[2]، من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبى ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**»[3]، قالوا: يا رسول الله، وما هن؟، قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولِّى يوم الزحف، وقذف المحصنات[4] المؤمنات الغافلات[5]**».

قال ابن حجر الهيثمى رَحِمَهُ اللَّهُ: «أجمع العلماء على أن المراد من الرمى فى الآية الرمى بالزنا، وهو يشمل الرمى باللواط: كيا زانية، أو بغية، أو قحبة، أو لزوجها: كيا زوج القحبة، أو لولدها: كيا ولد القحبة، أو لبنتها: كيا بنت الزنا، فهذا كله قذف للأم، أو لرجل: يا زانى، أو منكوح»[6].

٦ - السخرية:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾[7].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «ينهى - تعالى - عن السخرية بالناس، وهو

---

(١) سورة النور: الآيتان (٢٣-٢٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٦٦) كتاب الوصايا، ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

(٣) الموبقات: المهلكات.

(٤) المحصنات بفتح الصاد وكسرها: المراد بهن هنا العفائف.

(٥) الغافلات: أى عن الفواحش، وما قُذفن به.

(٦) «الزواجر عن اقتراف الكبائر» (١/ ١٠٤).

(٧) سورة الحجرات: الآية (١١).

احتقارهم والاستهزاء بهم، كما ثبت فى «الصحيح»[1]، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**الكبر: بطر الحق**[2] **وغمص الناس**» ويُروى: «**غمط الناس**».

والمراد من ذلك احتقارهم واستصغارهم، وهذا حرام، فإنه قد يكون المُحتقَر أعظم قدرًا عند الله تعالى، وأحب إليه من الساخر منه المُحتقِر له»[3].

٧ - إفشاء السر:

ومن الظلم البيِّن أن يستودعك أخوك سره، ثم تصبح تنشره؛ لأن السر أمانة، وإفشاؤه ضَرْبٌ من ضُروب الخيانة.

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا حدَّث الرجل بالحديث، ثم التفت - فهى أمانة**»[4].

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٩١) كتاب الإيمان، عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) بطر الحق: دفعه وإنكاره ترفُّعًا وتجبُّرًا.

(٣) «تفسير ابن كثير» (٤/ ٢٠٥).

(٤) حسن: رواه أبو داود، والترمذى، وحسنه الألبانى فى «صحيح الجامع» (٤٨٦)، و«الصحيحة» (١٠٩٠).

صور من ظلم العباد بالفعل

١ - القتل:

القتل من أشد أنواع ظلم العباد، وهل هناك ظلم للعباد أعظم من القتل؟

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[١].

وعن أبى الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلا من مات مشركًا، أو مؤمن قتل مؤمنًا متعمدًا**»[٢].

وفى «صحيح البخارى»[٣] من حديث عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «**لن يزال المؤمن فى فُسحة من دينه، ما لم يُصب دمًا حرامًا**».

٢ - السحر بجميع أنواعه:

والسحر من أعظم أنواع الظلم؛ فالسحر كفر، وظلمٌ للمسحور والساحر فى وقت معًا،... فكم حصل بسببه من تفريق بين زوجين! وكم جُنَّ من أُناس!، وكم من رجل قد انتحر، وقذف نفسه من حالق[٤] (جبل) بسبب السحر الذى لا يستطيع التخلص منه!!.

وعن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قيل: يا رسول الله، وما هن؟ قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى**

---

(١) سورة النساء: الآية (٩٣).

(٢) صحيح: رواه أبو داود، والنسائى فى «الكبرى»، وابن حبان، والحاكم، وصححه الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى «الصحيحة» (٥١١).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٦٨٦٢) كتاب الديات.

(٤) حالق: جبل عالٍ.

حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والتولِّي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات»[١].

قال الإمام الذهبي: «الساحر لا بد وأن يكفر؛ إذ ليس للشيطان الملعون غرض في تعليمه الإنسان السحرَ إلَّا ليشرك بالله، وترى خلقًا كثيرًا من الضُّلَّال يدخلون في السحر، ويظنونه حرامًا فقط، وما يشعرون أنه الكفر، وحَدُّ الساحر القتل؛ لأنه كفر بالله، أو مضارع[٢]، وهو من السبع الموبقات، وقد جُعل من الشرك لاعتقاد الجُهَّال أن ذلك يؤثر بخلاف ما قدر الله - تعالى -»[٣].

٣ - الحكم بغير ما أنزل الله:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝٤٤﴾[٤].

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۝٤٥﴾[٥].

وقال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ۝٤٧﴾[٦].

ولكن إن استحلَّ ذلك، واعتقده جائزًا، فهو كفر أكبر، وظلم أكبر، وفسق أكبر، يُخرج من الملة، أما إن فعل ذلك من أجل الرشوة، أو مقصد

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٢٧٦٦) كتاب الوصايا، ومسلم (٨٩) كتاب الإيمان.

(٢) مضارع: مشابه.

(٣) «الكبائر» (١٤/ ١٦) باختصار وتصرف يسير.

(٤) سورة المائدة: الآية (٤٤).

(٥) سورة المائدة: الآية (٤٥).

(٦) سورة المائدة: الآية (٤٧).

آخر، وهو يعتقد تحريم ذلك - فإنه آثم، يُعتبر كافرًا كفرًا أصغر، وظالمًا ظلمًا أصغر، وفاسقًا فسقًا أصغر، لا يُخرجه من الملة، كما أوضح ذلك أهل العلم فى تفسير الآيات المذكورة [١].

٤ - اقتطاع شيء من الأرض بدون حق:

ومن الظلم: اقتطاع شىءٍ من الأرض بغير حقٍّ ولو كان شبرًا.

ففى «صحيح البخارى» [٢] من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من أخذ شيئًا من الأرض بغير حقه، خُسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**».

٥ - السرقة:

من الظلم النهب والسرقة.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٩﴾ ﴾ [٣].

وفى «الصحيحين» [٤] من حديث أبى هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق السرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نُهبة يَرفعُ الناس إليه فيها أبصارهم وهو مؤمن**».

٦ - الربا:

الربا من أكبر الكبائر، ومن أعظم الظلم؛ لما فيه من أكل المال بالباطل،

---

(١) انظر: «فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء» (١/ ٥٤٠).

(٢) صحيح: رواه البخارى (٣١٩٦) كتاب بدء الخلق.

(٣) سورة المائدة: الآيتان (٣٨-٣٩).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٦٧٧٢) كتاب الحدود - واللفظ له -، ومسلم (٥٧) كتاب الإيمان.

وضرر المحتاجين، وقد جاء الوعيد الشديد لمن تعامل بالربا، وتُوعِّد من لم ينتهِ عن التعامل بالربا بحربٍ من الله.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ ﴾[١].

وفى «صحيح مسلم»[٢] من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «لعن رسول الله ﷺ آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: «**هم سواء**».

٧ - الغدر والخيانة:

الغدر والخيانة من الظلم، فإذا وعدت أخاك موعدًا، فعليك بالوفاء، وإذا أعطيته عهدًا على شيءٍ، فمن الإيمان الوفاء بالعهد، ومن الخيانة أن تُحدِّث أخاك بحديث هو لك مصدق، وأنت له مكذب.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴾[٣].

وفى «الصحيحين»[٤] من حديث أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**».

وفى «الصحيحين»[٥] - أيضًا - من حديث أبى سعيد الخدرى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**لكل غادر لواء يوم القيامة، يُرفع بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة**».

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (٢٧٨-٢٧٩).

(٢) **صحيح**: رواه مسلم (١٥٩٨) كتاب المساقاة.

(٣) سورة الأنفال: الآية (٥٨).

(٤) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣٣) كتاب الإيمان، ومسلم (٥٩) كتاب الإيمان.

(٥) **متفق عليه**: رواه البخارى (٣١٨٧) كتاب الجزية، ومسلم (١٧٣٦) كتاب الجهاد والسير، واللفظ له.

٨ - مماطلة من له عليه حق:

إذا كان لأخيك عليك حق من دَين أو نحوه، فإذا حان وقت الأداء، وجاء يطالبك بحقه مع قدرتك على الوفاء - فلا تماطله ولا تَعِدْهُ؛ فإن المماطلة فى هذه الحالة من الظلم.

قال ﷺ: «**مطلُ الغنى ظُلمٌ**»[1].

٩ - عدم العدل بين الأولاد:

عدم العدل بين الأولاد من الظلم.

ففى «الصحيحين»[2] من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: طلَبَتْ عَمرة بنت رواحة إلى بشير بن سعد أن ينحلنى نُحْلًا[3] من ماله ، وأنه أبَى عليها، ثم بدا له بعد حول - أو حولين - أن ينحلنيه، فقال لها: الذى سألت لابنى كنت منعتك، وقد بدا لى أن أنحله إياه. قالت: لا والله، لا أرضى حتى تأخذ بيده، فتنطلق به إلى رسول الله ﷺ فتُشهده.

قال: فأخذ بيدى، فانطلق بى إلى رسول الله ﷺ فقصَّ عليه القصة، فقال له النبى ﷺ: «**هل لك معه ولد غيره؟**» قال: نعم. قال: «**فهل آتيت كل واحد منهم مثل الذى آتيت هذا؟**» قال: لا. قال: «**فإنى لا أشهد على هذا؛ هذا جَور**[4]**، أَشْهِد على هذا غيرى، اعدلوا بين أولادكم فى النُّحل، كما تحبون أن يعدلون بينكم فى البر واللُّطف**».

والعدل بين الأولاد ليس فى النُّحل فقط بل في كل شىء يكون فيه العدل، حتى فى التقبيل.

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٢٨٧) كتاب الحوالات، ومسلم (١٥٦٤) كتاب المساقاة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٥٠) كتاب الشهادات، ومسلم (١٦٢٣) كتاب الهبات.

(٣) النُّحل - بالضم -: العطية والهبة ابتداء من غير عوض ولا استحقاق.

(٤) الجور: الظلم.

١٠ - الغش:

الغش من الظلم، وهو فى المعاملات بين الناس بحرٌ لا ساحل له، وقَلَّ أن يَسْلَم منه أحد، اللهم إلا من عصمه الله بالورع.

ففى «صحيح مسلم»[١] من حديث أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مَرَّ على صُبرة[٢] طعام، فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بَللًا، فقال: «**ما هذا: يا صاحب الطعام؟**» قال: أصابته السماء، يا رسول الله، قال: «**أفلا جعلته فوق الطعام، كى يراه الناس؟!، من غَشَّ فليس منى**».

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (١٠٢) كتاب الإيمان.

(٢) الصُّبرة - بالضم - الطعام المجتمع كالكومة، والجمع صُبَرٌ.

إياك وظلم العباد

الظلم صفة قبيحة، ورذيلة كريهة، فمن ثمارها خراب الديار، وذهاب بركة الأعمار، وغضب الجبار، ودخول النار.

وما أهلك ربنا الأمم السابقة إلا لأنهم سلكوا مسالك الظالمين، فأزهقوا الأنفس البريئة، وعذَّبوا الصالحين، وما نقموا منهم إلا أن آمنوا برب العالمين.

ونسى أهل الظلم أن وراءهم ربًّا عظيمًا، قويًّا جليلًا، ذا انتقام وكبرياء، يراقب أعمالهم، ويعلم بأفعالهم، ويرى ظلمهم، وسيأخذهم إن عاجلًا أو آجلًا بما قدمت أيديهم، وما ربنا بظلَّام للعبيد،... وما ظلمهم ربنا سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ شيئًا، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

قال تعالى: «**يا عبادى، إنى حرمت الظلم على نفسى، وجعلته بينكم مُحرمًا فلا تظالموا**»[1].

وأيضًا فهو الحكيم، المالك، وما يفعله المالك فى مُلكه لا اعتراض عليه، إذ له التصرف فى ملكه بما يريد[2].

وهذا الفعل وتلك الصفة التى حرمها الله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ على نفسه، لو يدرك خطورتها، وبشاعتها المرء، لتنصَّل منها ومن أهلها، بل ولو رأى ما أُعد لمن اتصف بها لتمنى لو كان له ملء الأرض ذهبًا ليفتدى به.

كما قال سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦۗ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[3].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) تفسير القرطبى (١٥/ ٢٤١).

(٣) سورة يونس: الآية ٥٤.

فمصيبة أهل الظلم أنهم ينسون أن القوة لله جميعًا، وأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى شديد العذاب،... وهذا النسيان، أو ذلك الغرور ما كان أن يتواجد فى حياتهم، لو تدبروا فى قوله عَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾[(١)].

ففى هذه الآية توعد الله تعالى المشركين به، الظالمين لأنفسهم، وقال بعضهم: تقدير الكلام لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذٍ أن القوة لله جميعًا، أى أن الحكم له وحده لا شريك له، وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته، وسلطانه[(٢)].

من نظر فى تلك الآية القرآنية، وتأمل فى معانيها، وتعرَّف على أسرارها رأى الخير الكثير.

فمن أسرار الآية تقدير الكلام على النحو التالى: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا فى حال رؤيتهم العذاب، وفزعهم منه، واستعظامهم له، لأقروا أن القوة لله[(٣)].

ومع كل تلك الدلائل البينات، والآيات المحكمات، فأهل الظلم لا يرتدعون وعن بغيهم لا ينتهون، والسبب الأصلى: اتباعهم للهوى، فإنه يُعمى، ويُصِم.

كما قال الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾[(٤)].

---

(١) سورة البقرة: الآية: (١٦٥).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٢).

(٣) تفسير ابن عطية (١/ ٢٣٥).

(٤) سورة الروم: الآية ٢٩.

وهم بفعلهم هذا قد تعدوا حدود الله تعالى، وظلموا أنفسهم، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[1][2].

* * *

(١) سورة النحل: الآية: (١١٨).

(٢) الظلم والظالمون (١٠ - ١٣) بتصرف.

النبي ﷺ يحذر أمته من الظلم

* فى الحديث القدسى الذى رواه مسلم يخبر النبى ﷺ عن رب العزة – جل وعلا– أنه قال: «**يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم مُحرمًا فلا تظالموا...**»(١).

* ولما أرسل النبى ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن أوصاه ببعض الوصايا الغالية وكان من بينها ـ كما فى «الصحيحين» ـ: «**... واتقِ دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»(٢).

* وفى «الصحيحين» أن النبى ﷺ قال: «**إن الله ليُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته**. ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾» (٣)(٤).

* وفى «الصحيحين» أن النبى ﷺ قال: «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه...**» (٥).

* وفى «الصحيحين» أن النبى ﷺ قال: «**من ظلم قيد شبرٍ من الأرض طُوِّق من سبع أرضين**»(٦).

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٧٧) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٨) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.

(٣) سورة هود: الآية (١٠٢).

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٤٦٨٦) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٥٨٣) كتاب البر والصلة والآداب.

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٥٨٠) كتاب البر والصلة والآداب.

(٦) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٥٣) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٦١٢) كتاب المساقاة.

* وفى الصحيحين أن النبى ﷺ قال: «**لا تُقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها لأنه كان أول مَن سَنَّ القتل**»(١).

* وأخبر النبى ﷺ أن الله ﷻ سيحكم بين الدواب فى تلك المظالم التى كانت بينها فى الدنيا... فما ظنكم بالمظالم التى بين العباد. قال ﷺ - كما روى مسلم -: «**لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء**»(٢)... والجلحاء هى التى ليس لها قرن.

* ومن أجل ذلك أمرنا النبى ﷺ أن نتحلل من المظالم قبل أن نلقى الله ﷻ فقال ﷺ: «**من كانت له مظلمة لأخيه من عرضه أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم تكن له حسنات أُخذ من سيئات صاحبه فحُمل عليه**»(٣).

* **قال عمر بن عبد العزيز**: «إذا دعتك قدرتك على ظلم الناس، فاذكر قدرة الله تعالى عليك، ونفاد ما تأتى إليهم وبقاء ما يأتون إليك»(٤).

* **وفى بعض المأثورات**: «إذا كان يوم القيامة يجتمع الظلمة وأعوانهم ومن ألاق لهم دواة وبرى لهم قلمًا، فيُجعلون فى تابوتٍ ويُلقون فى جهنم»(٥).

* ويا لها من حسرة عندما يرى الظالم حسناته وهى تُوزَّع على كل من ظلمهم فقد قال ﷺ - كما عند مسلم -: «**أتدرون ما المفلس؟**» قالوا: المفلس

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٣٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٦٧٧) كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات.
(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨٢) كتاب البر والصلة والآداب.
(٣) صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٩) كتاب المظالم والغصب.
(٤) سير أعلام النبلاء (٥/ ١٣١).
(٥) بصائر ذوى التمييز (٣/ ٥٤٣) - والكبائر للذهبى (ص:١١٢).

فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال ﷺ: «إن المفلس من أمتى من يأتى يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتى وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه، أُخذ من خطاياهم، فطرحت عليه، ثم طُرِح فى النار»[1].

* وحسبنا أن نتأمل قول الحق -جل وعلا-: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[2].

اتقوا دعوة المظلوم

* قال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم، فإنها تُحمل على الغمام، يقول الله: وعزتى وجلالى لأنصرنك ولو بعد حين»[3].

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة»[4].

فهى سريعة الوصول.

وقال ﷺ: «اتقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافرًا، فإنه ليس دونها حجاب»[5].

وقال ﷺ: «دعوة المظلوم مستجابة وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه»[6].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٥٨١) كتاب البر والصلة والآداب.

(٢) سورة طه: الآية (١١١).

(٣) حسن: رواه أحمد (٧٩٨٣)، وحسنه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى السلسلة الصحيحة (٨٧٠).

(٤) صحيح: رواه الحاكم عن ابن عمر، كما نص على ذلك العجلونى فى كشف الخفاء (١/ ٣٨)، وصححه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى صحيح الترغيب والترهيب (٢٢٢٨).

(٥) حسن: رواه أحمد (١٢١٤٠)، وحسنه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى السلسلة الصحيحة (٧٦٧).

(٦) حسن: رواه أحمد (٨٥٧٧)، والطيالسى فى مسنده (١/ ٣٠٦)، وحسنه العلامة الألبانى رَحِمَهُ اللهُ فى صحيح الجامع (٣٣٨٢).

* قال المناوى:

الظلم: هو مجاوزة الحد والتعدّى على الخلق، وقال الراغب: هو لغة وضع الشيء فى غير موضعه المختص به بنقص أو زيادة أو عدول عن وقته أو مكانه، وأقبح أنواعه ظلم من ليس له ناصر إلا الله؛ قال ابن عبد العزيز: إياك! إياك أن تظلم من لا ينتصر عليك إلا بالله!

إن الظلم فى الدنيا ظلمات على أصحابه بمعنى أنه يورث ظلمة فى القلب، فإذا أظلم القلب تاه وتحير وتجبر، فذهبت الهداية والبصيرة، فخرب القلب، فصار صاحبه فى ظلمة يوم القيامة، فالظلمة معنوية، وقيل: حسية، فيكون ظلمه ظلمات عليه فلا يهتدى فى القيامة بسببه، وغيره من المؤمنين يسعى نوره بين يديه. وإنما ينشأ الظلم من ظلمة القلب، فإذا سعى المتقون بنورهم احتوشت ظلمات ظلم الظالم، فغمرته فأعمته، حتى لا يغنى عنه ظلمه شيئًا[1].

ومن أحسن ما قيل:

إذا ظالمٌ استحسن الظلم مذهبًا ... ولجّ عُتُوًا فى قبيح اكتسابه

فكله إلى ريب الزمان فإنه ... ستبدى له ما لم يكن فى حسابه

فكم قد رأينا ظالمًا متجبرًا ... يرى النجم تيهًا تحت ظل ركابه

فلما تمادى واستطال بظلمه ... أناخت صروف الحادثات ببابه

وعوقب بالظلم الذى كان يقتفى ... وصبّ عليه الله سوط عذابه[2]

---

(١) فيض القدير (١١/ ١٣٤).

(٢) فتح القدير (٢/ ٣٦٦).

وبالمثال يتضح المقال

وكما يقال: وبالمثال يتضح المقال... فتعالوا بنا لنتعايش بقلوبنا مع هاتين القصتين لنرى كيف يستجيب الحق - جل وعلا- لدعوة المظلوم.

* ففى الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن أروى بنت أويسٍ ادَّعت على سعيد بن زيد أنه أخذ شيئًا من أرضها فخاصمته إلى مروان بن الحكم. فقال سعيد: أنا كنت آخذ من أرضها شيئًا بعد الذى سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: وما سمعت من رسول الله ﷺ؟ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من أخذ شبرًا من الأرض ظلمًا طُوِّقه إلى سبع أرضين**». فقال له مروان: لا أسألك بيِّنة بعد هذا. فقال: اللهم إن كانت كاذبة فأعم بصرها واقتلها فى أرضها. فما ماتت حتى ذهب بصرها. ثم بينا هى تمشى فى أرضها إذ وقعت فى حفرة فماتت(١).

* وفى الحديث الذى رواه البخارى عن جابر بن سمرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «شكا أهل الكوفة سعدًا إلى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فعزله واستعمل عليهم عمارًا فشكوا حتى ذكروا أنه لا يُحسن يُصلى فأرسل إليه، فقال: يا أبا إسحاق إن هؤلاء يزعمون أنك لا تحسن تصلى قال أبو إسحاق: أما أنا والله فإنى كنت أصلى بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أخرم عنها، أصلى العشاء فأركد فى الأُوليين وأخفُّ فى الأُخريين قال: ذاك الظن بك يا أبا إسحاق، فأرسل معه رجلًا - أو رجالًا - إلى الكوفة فسأل عنه أهل الكوفة ولم يدع مسجدًا إلا سأل عنه ويثنون معروفًا حتى دخل مسجدًا لبنى عبس، فقام رجل منهم يقال له

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٥٢) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (١٦١٠) كتاب المساقاة.

أسامة بن قتادة يُكنَّى أبا سعدة قال: أما إذ نشدتنا فإن سعدًا كان لا يسير بالسرية ولا يقسم بالسوية ولا يعدل فى القضية. قال سعد: أما والله لأدعون بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذبًا قام رياء وسمعة فأطِل عمره وأطل فقره وعَرِّضهُ للفتن، وكان بعد إذا سُئل يقول: شيخ كبير مفتون أصابتنى دعوة سعد. قال عبد الملك: فأنا رأيته بعدُ قد سقط حاجباه على عينيه من الكبِرَ، وإنه ليتعرض للجوارى فى الطرق يغمزهن[1].

اعلم أن الجزاء بالمرصاد

يقول الإمام ابن الجوزى فى (صيد الخاطر):

اعلم أن الجزاء بالمرصاد، إن كانت حسنة أو كانت سيئة.

ومن الاغترار أن يظن المذنب إذا لم ير عقوبة أنه قد سومح وربما جاءت العقوبة بعد مدة.

وقّل من فعل ذنبًا إلا قوبل عليه، قال الله ﷻ: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾[2].

آدم لم يُسامَح بلقمة، ودخلت النار امرأة فى قطة.

وأنت....

تصلُ الذنوبَ إلى الذنوب وترتجى ... دَرَج الجنان ونيل فوز العابدِ

ونسيت أن الله أخرج آدمًا ... منها إلى الدنيا بذنبٍ واحدِ

يونس عليه السلام خرج عن قومه بغير إذنه، فالتقمه الحوت.

وقال آخر: قد عبت شخصًا قد ذهب بعض أسنانه فانتثرت بعض

(١) صحيح: رواه البخارى (٧٥٥) كتاب الأذان.

(٢) سورة النساء: الآية (١٢٣).

أسنانى، ونظرت إلى امرأة لا تحلّ لى، فنظر إلى زوجتى من لا أريد.

وكان بعض العاقين ضرب أباه وسحبه إلى مكان، فقال له الأب: حسبك، إلى ههنا سحبت أبى.

وقال ابن سيرين: عيرت رجلًا بالإفلاس فأفلست. ومثل هذا كثير من أعجب ما سمعت فيه عن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام، أن المقتفى غضب عليه، وأمر بأن يؤخذ منه عشرة آلاف دينار فقال: ما يؤخذ منى عشرة، ولا خمسة، ولا أربعة. قالوا: من أين لك؟ قال: إنى ظلمت رجلًا فألزمته ثلاثة آلاف دينار، فما يؤخذ منى أكثر منها. فلما أدى ثلاثة آلاف دينار وَقَّعَ الخليفة بإطلاقه ومسامحته فى الباقى.

وأنا أقول عن نفسى: ما نزلت بى آفة، أو غمّ، أو ضيق صدر إلا بذنب أعرفه حتى يمكننى أن أقول: هذا بالشىء الفلانى.

فينبغى للإنسان أن يترقب جزاء الذنوب، فقلّ أن يسلم منه فالويل لمن عرف مرارة الجزاء الدائم، ثم آثر لذة المعصية لحظة.

* قال محمود الورّاق:

إنى وهبت لظالمى ظلمى	وغفرت ذاك له على علمى
ورأيته أسدَى إلىّ يدا	فأبان منه بجهله حلمى
رجعت إساءته علىّ له	حُسنًا فعاد مضاعف الجرمِ
وغدوتُ ذا أجر ومحمدة	وغدا بكسب الذم والإثمِ
فكأنما الإحسان كان له	وأنا المسىء إليه فى الحكمِ
ما زال يظلمنى وأرحمه	حتى بكيتُ له من الظلمِ[1]

(١) نزهة المجالس وأنس المجالس لابن عبد البر (١/ ٣٦٩).

أنواع الظلم

قال بعض الحكماء: الظلم ثلاثة:

الأول: ظلم بين الإنسان وبين الله تعالى، وأعظمه الكفر والشرك والنفاق، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[١]، وإياه قصد بقوله: ﴿أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢].

والثانى: ظلم بينه وبين الناس، وإياه قصد بقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣]، وبقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾[٤].

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه، وإياه قصد بقوله: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[٥]، وقوله: ﴿ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾[٦].

وكل هذه الثلاثة فى الحقيقة ظلم للنفس، فإن الإنسان فى أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه[٧].

الجهل والظلم.. أصل كل شر

* قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: «الإنسان خُلق فى الأصل ظلومًا جهولًا، ولا ينفك عن الجهل والظلم إلا بأن يعلمه الله ما ينفعه، ويلهمه رشده، فمن

---

(١) سورة لقمان: الآية (١٣).
(٢) سورة هود: الآية (١٨).
(٣) سورة الشورى: الآية (٤٠).
(٤) سورة الشورى: الآية (٤٢).
(٥) سورة فاطر: الآية (٣٢).
(٦) سورة القصص: الآية (١٦).
(٧) المفردات (ص: ٣١٥، ٣١٦).

أراد به خيرًا علمه ما ينفعه، فخرج به عن الجهل، ونفعه بما علمه فخرج به عن الظلم ومن لم يرد به خيرًا أبقاه على أصل الخلقة. فأصل كل خيرٍ هو العلم والعدل، وأصل كل شر هو الجهل والظلم». وقد جعل الله سبحانه للعدل المأمور به حدًّا، فمن تجاوزه كان ظالمًا معتديًا، وله من الذم والعقوبة بحسب ظلمه وعدوانه)[1].

حقًا إنها سُنة ربانية

* قال الإمام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الناس لم يتنازعوا فى أن عاقبة الظلم وخيمة، وعاقبة العدل كريمة، ولهذا يُروى: أن الله ينصر الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا ينصر الدولة الظالمة، ولو كانت مؤمنة»[2].

* * *

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٣٦، ١٣٧) بتصرف.

(٢) الحسبة (ص:١٧٠).

خوف النبي ﷺ من المظالم

إن الخوف من المظالم ملأ قلوب الأنبياء والصالحين رُعبًا وخوفًا من قصاص يوم القيامة.

* فها هو النبى ﷺ يطلب من أحد أصحابه أن يقتص منه خوفًا من أن يلقى الله (ﷻ) يوم القيامة بأى مظلمة.

* **عن محمد بن على بن الحسين أبى جعفر الباقر:** «أن النبى ﷺ كان يتخطى بعرجون فأصاب به سواد بن غُزية الأنصارى فقال: «يا رسول الله أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل فأقدنى»[١]، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه فقال: «**استقد**» قال: فاعتنقه فقبَّل بطنه، فقال: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**».

قال: «يا رسول الله، حضر ما ترى فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يحس جلدى جلدك... فدعا له رسول الله ﷺ بخير، وقال له خيرًا»[٢].

* ولذا كان النبى ﷺ يقول: «**اللهم إنى أتخذ عندك عهدًا لن تُخلفنيه؛ فإنما أنا بَشَرٌ، فأيما مؤمن آذيته، أو شتمته، أو جلدته، أو لعنته، فاجعلها له صلاةً وزكاة وقربة بها إليك يوم القيامة**»[٣].

* * *

---

(١) أقدنى: خذ لى الحق من نفسك.

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة (٢/ ٩٥)، وسنده حسن إلا أنه مرسل، وبسنده ما جاء عن عبد الله ابن جبير الخزاعى فى مجمع الزوائد (٦/ ٢٨٩)، وقال الهيثمى: رواه الطبرانى ورجاله ثقات على ما فى عبد الله بن جبير من ضعف كما جاء فى التهذيب (٥/ ١٦٨).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٦٣٦١) كتاب الدعوات، ومسلم (٢٦٠١) كتاب البر والصلة والآداب.

العدل في حياة النبي ﷺ

وإذا أردنا أن نتكلم عن العدل فلا نستطيع أبدًا أن ننسى أستاذ البشرية كلها الذى ربَّاه الحق - جل وعلا- وصنعه على عينه ليربى به الأمم والأجيال - بأبى هو وأمى ﷺ - وسأكتفى بذكر بعض المواقف من عدل النبى ﷺ وذلك؛ لأن الحديث عن عدل النبى ﷺ يحتاج إلى مجلدات ومع ذلك فلن نستطيع أن نوفيه حقه ﷺ.

* قال ﷺ: **«إن المقسطين عند الله على منابر من نورٍ، الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا»**[(١)].

* **وها هى صورة عالية من عدل النبى ﷺ:**

فعن عائشة رضي الله عنها أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ؟ فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حِب رسول الله ﷺ؟ فكلمه أسامة، فقال رسول الله ﷺ: **«أتشفع فى حد من حدود الله تعالى؟»** ثم قام فاختطب ثم قال: **«إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها»**[(٢)].

* إن الإمام العادل يضع نُصب عينيه قول رسول الله ﷺ وهو القدوة والأسوة: **«إنى لأرجو أن أفارقكم ولا يطلبنى أحد منكم بمظلمة ظلمته»**[(٣)].

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٧) كتاب الإمارة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٧٥) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٦٨٨) كتاب الحدود.

(٣) صحيح: رواه ابن ماجه، وأحمد، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٢٤٨٠).

وهذه صورة لعدل النبى ﷺ بين أصحابه

* لقد كان النبى ﷺ يحذر أصحابه من أن يأتى واحد منهم إلى النبى ﷺ فيتكلم كلامًا جميلًا ليأخذ حق أخيه.

* (عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إنكم تختصمون إلىَّ ولعل بعضكم أن يكون أَلْحَن بحجته من بعض فأقضى له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار**»)[١].

* وكان النبى ﷺ لا يشهد على أى شىء فيه ظلم أبدًا.

* (عن عامر قال: سمعت النعمان بن بشير رضي الله عنهما وهو على المنبر يقول: أعطانى أبى عطية، فقالت عمرة بنت رواحة: لا أرضى حتى يشهد رسول الله ﷺ، فأتى رسول الله ﷺ فقال: إنى أعطيت ابنى من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتنى أن أُشهدك يا رسول الله. قال: «**أعطيت سائر ولدك مثل هذا؟**». قال: لا، قال: «**فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم**» قال: فرجع فرد عطيته)[٢].

* وكان يوصى أصحابه دائمًا أن يتقوا الله فى إخوانهم ولا يظلم بعضهم بعضًا.

* عن أبى ذر قال: كان بينى وبين رجل كلام وكانت أمه أعجمية فنلت منها، فذكرنى إلى النبى ﷺ فقال لى: «**أساببت فلانًا؟**» قلت: نعم. قال: «**أفَنِلْت من أمه؟**» قلت: نعم. قال: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**». قلت: على

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٦٨٠) كتاب الشهادات، ومسلم (١٧١٣) كتاب الأقضية.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٥٨٧) كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها.

حين ساعتى هذه من كبر السن؟! قال: «**نعم، هم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فمن جعل الله أخاه تحت يده فليُطعمه مما يأكل وليُلبسه. مما يلبس، ولا يكلفه من العمل ما يغلبه، فإن كلفه ما يغلبه فليُعنه عليه**»(١).

* بل ها هو ﷺ يقدم نفسه للقصاص.. وهو مَن هو؟

هو رسول الله ﷺ وخير خلق الله أجمعين.

فبينما كان رسول الله ﷺ يعدل صفوف جيشه، مر بسواد بن غزية، وهو خارج عن الصف فطعن فى بطنه بعود كان فى يده قائلًا: «**استو يا سواد**»، وهنا قال سواد: أوجعتنى يا رسول الله، وقد بعثك الله بالحق والعدل، ثم طلب من الرسول ﷺ أن يعطى القصاص من نفسه قائلًا: أقدنى، فلم يتردد ﷺ، وكشف عن بطنه ﷺ ليقتضى منه سواد قائلًا له: «**استقد**».

ولكن سوادًا بدلًا من أن يطعن فى بطن الرسول قصاصًا، أخذ يقبلها، فقال له الرسول ﷺ: «**ما حملك على هذا يا سواد؟**».

قال: يا رسول الله حضر ما ترى - يعنى القتال - فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك، فدعا له الرسول ﷺ بخير.

وهذه صورة مشرقة لعدله بين أزواجه

* عن عائشة رضي الله عنها قالت (لعروة بن الزبير): يا ابن أختى كان رسول الله ﷺ لا يفضل بعضنا على بعض فى القسم، من مكثه عندنا، وكان قلَّ يوم إلا وهو يطوف علينا جميعًا، فيدنو من كل امرأة من غير مسيس حتى يبلغ إلى التى هو يومها فيبيت عندها...»(٢).

---

(١) صحيح: رواه البخارى (٦٠٥٠) كتاب الأدب.

(٢) حسن: رواه أبو داود، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (١٤٧٩).

* وكان النبى ﷺ عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت - التى النبى ﷺ فى بيتها - يد الخادم فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبى ﷺ فلق الصحفة، ثم جعل يجمع فيها الطعام الذى كان فى الصحفة ويقول: «**غارت أمكم**»، ثم حبس الخادم حتى أتى بصحفة من عند التى هو فى بيتها فدفع الصحفة الصحيحة إلى التى كُسرت صحفتها وأمسك المكسورة فى بيت التى كسرت[1].

بل هذا عدله ﷺ مع المشركين

فقبل وفاة النبى ﷺ بعامين أرسل أسامة بن زيد رضي الله عنهما على سرية خرجت للقاء بعض المشركين الذين يناوئون الإسلام والمسلمين وكانت تلك أول إمارة يتولاها أسامة.

قال أسامة رضي الله عنه: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الحرقة من جهينة قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلًا منهم. قال: فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، قال: فكف عنه الأنصارى فطعنته برمحى حتى قتلته. قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبى ﷺ قال: فقال لى: «**يا أسامة، أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟**» قال: قلت: يا رسول الله إنه إنما كان متعوذًا، قال: «**قتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟**» قال: فما زال يكررها علىَّ حتى تمنيت أنى لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[2].

* وفى رواية **قال**: فوالذى بعثه بالحق ما زال يرددها على حتى لوددت أن ما مضى من إسلامى لم يكن، وأنى كنت أسلمت يومئذ، وأنى لم أقتله؛

(١) صحيح: رواه البخارى (٥٢٢٥) كتاب النكاح.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٢٦٩) كتاب المغازى، ومسلم (٩٦) كتاب الإيمان.

قال: قلت: أنظرنى يا رسول الله، أعاهد الله أن لا أقتل رجلًا يقول لا إله إلا الله أبدًا، قال: «**تقول بعدى يا أسامة**»، قال: قلت بعدك.

وإذا بهذا الدرس العظيم ينتفع به أسامة رضي الله عنه.

فإنه لما حدثت الفتنة بين (على) و(معاوية) رضي الله عنهما اعتزل أسامة تلك الفتنة وقال: «لا أقاتل أحدًا يقول: لا إله إلا الله».

وعن أبى مسعود الأنصارى قال: كنت أضرب مملوكًا لى فسمعت قائلًا من خلفى يقول: «**اعلم أبا مسعود، اعلم أبا مسعود**» فالتفتُّ فإذا أنا برسول الله ﷺ فقال: «**لله أقدر عليك منك عليه**» قال أبو مسعود: فما ضربت مملوكًا بعد ذلك(١).

* وها هو ﷺ يحرص على هداية هذا الغلام اليهودى فى أثناء مرضه.

فقد روى الإمام البخارى، عن أنس رضي الله عنه قال: كان غلام يهودى يخدم النبى ﷺ فمرض، فأتاه النبى ﷺ يعوده، فقعد عند رأسه، فقال له: «**أسلِم**». فنظر إلى أبيه، وهو عنده، فقال له: أطع أبا القاسم، فأسلم، فخرج النبى ﷺ وهو يقول: «**الحمد لله الذى أنقذه من النار**»(٢).

النبى ﷺ يدعو الكون كله للعدل

لقد كان النبى ﷺ يدعو الكون كله للتحلى بخلق العدل لتسود المحبة بين الناس أجمعين.

فها هو ﷺ يقول: «**إذا حكمتم فاعدلوا وإذا قتلتم فأحسنوا فإن الله عز وجل**

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٦٥٩) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه البخارى (١٣٥٦) كتاب الجنائز.

محسنٌ يحب المحسنين»[١].

ويخبر النبى ﷺ أن العدل صدقة تُكتب فى ميزان العبد.

قال ﷺ: **«كل سُلامى من الناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس: يعدل بين الناس صدقة..»**[٢].

وأخبر النبى ﷺ أن الإمام العادل لا تُرد دعوته فقال ﷺ: **«ثلاثة لا تُرد دعوتهم: الإمام العادل...»**[٣].

بل وأخبر النبى ﷺ أن العدل من أعظم أسباب النجاة فقال ﷺ: **«ثلاثٌ كفارات، وثلاثٌ درجات، وثلاثٌ منجيات، وثلاثٌ مهلكات... وأما المنجيات: فالعدل فى الغضب والرضا...»**[٤].

* وأخبر النبى ﷺ أن أهل العدل يكونون يوم القيامة فى ظل عرش الرحمن فقال ﷺ: **«سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...»**[٥].

* بل وأخبر أن أهل العدل يكونون يوم القيامة على منابر من نور فقال ﷺ: **«إن المقسطين عند الله على منابر من نور: الذين يعدلون فى حكمهم وأهلهم وما وُلُّوا»**[٦].

---

(١) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط (٦/ ٤٠)، وقال الهيثمى فى المجمع (٥/ ٣٥٦): رواه الطبرانى فى الأوسط ورجاله ثقات، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٤٩٤).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٢٧٠٧) كتاب الصلح، ومسلم (١٠٠٩) كتاب الزكاة.

(٣) ضعيف: رواه أحمد، وضعفه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الضعيفة (١٣٥٨).

(٤) حسن: رواه الطبرانى فى الأوسط (٦/ ٤٧)، وحسنه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٣٠٤٥).

(٥) متفق عليه: رواه البخارى (٦٦٠) كتاب الأذان، ومسلم (١٠٣١) كتاب الزكاة.

(٦) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٧) كتاب الإمارة.

* بل وأخبر أنهم من أهل الجنة فقال ﷺ: «**أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذى قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيالٍ**»[١].

ولقد أمر رسول الله ﷺ بالعدل مع عامة الناس وخاصتهم حتى الوالد فى ولده فقال: «**اتقوا الله واعدلوا بين أولادكم فى العطاء**»[٢].

وأمر الزوج بالعدل بين الزوجات، بل أمر الإنسان نفسه أن يعدل بين نفسه فإذا انقطعت شراك إحدى نعليه فعليه خلع الأخرى، وقال: «**لينعلهما معًا أو ليحفهما معًا**»[٣].

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٦٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٥٨٧) كتاب الهبة وفضلها والتحريض عليها.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٥٨٥٥) كتاب اللباس، ومسلم (٢٠٩٧) كتاب اللباس والزينة.

صور مشرقة من عدل الصحابة رضي الله عنهم وخوفهم من الظلم

ولقد سار أصحاب الرسول ﷺ على نفس الطريق الذى سار عليه النبى ﷺ فكانوا مضرب الأمثال فى العدل (رضى الله عنهم وأرضاهم).

صدِّيق الأمة الأكبر رضي الله عنه

وها هى صورة مشرقة لعدل أبى بكر الصديق رضي الله عنه:

* **فمن عدل الصديق:** أنه سوّى بين رعيته فى العطاء وقسمة المال، واعتبر أن سابقة بعضهم فى الخيرات إنما يثاب عليها فى الدار الآخرة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «قسم أبى أول عام الفىء، فأعطى الحر عشرة، وأعطى المملوك عشرة، والمرأة عشرة، وأمتها عشرة، ثم قسم فى العام الثانى، فأعطاهم عشرين عشرين»(١).

وقال سهل بن أبى حثمة رضي الله عنه: «قدم مال فى خلافة الصديق، فكان أبو بكر يقسمه على الناس نقرًا؛ فيصيب كل مائة إنسان كذا وكذا، وكان يسوى بين الناس فى القسم، الحر والعبد، والذكر والأنثى، والصغير والكبير فيه سواء»(٢).

فاروق الأمة عمر رضي الله عنه

كان الفاروق رضي الله عنه حريصًا على العدل غاية الحرص ولذا كان ينتقى

---

(١) أخرجه ابن سعد (٣/ ١٩٣) فى الطبقات.

(٢) أخرجه ابن سعد (٣/ ٢١٢-٢١٣) فى الطبقات.

(الولاة) انتقاءً فكان لا يعطى الولاية لمن يحرص عليها، بل كان يعطيها لأهل الزهد والعفاف والتقوى، وكان يحرص على أن يتابعهم ويوصيهم بالناس خيرًا.

* عن أبى عثمان قال: استعمل عمر رضي الله عنه رجلًا من بنى أسد على عمل، فدخل ليسلم عليه فأتى عمر ببعض ولده فقبَّله، فقال الأسدى: أتُقبل هذا يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما قبلت ولدًا لى قط!! فقال عمر: فأنت والله بأولاد الناس أقل رحمة، لا تعمل لى عملًا أبدًا، فرد عهده أو قال: فما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء، ثم قال: مزق الكتاب، فإن إذا لم يرحم أولاده، فكيف يرحم الرعية[1].

لله دَرُّك من إمام

* وذات يوم يتلقى الفاروق هدية من الحلوى، ولا تكاد توضع بين يديه -حتى يسأل الرسول الذى جاء يحملها: ما هذا؟ قال: حلوى يصنعها أهل أذربيجان، وقد أرسلنى بها إليك عتبة بن فرقد ـ وكان واليًا على أذربيجان ـ فذاقها عمر، فوجد لها مذاقًا شهيًّا، فعاد يسأل الرسول: أَكُل المسلمين هناك يطعمون هذا؟ قال الرجل: لا... وإنما هو طعام الخاصة. فقال عمر للرجل:أين بعيرك؟ خذ جملك هذا وارجع به لعتبة، وقل له: عمر يقول لك، اتق الله، وأشبع المسلمين مما تشبع منه..!!

* وفى عام الرمادة أمر يومًا بنحر جزور، وتوزيع لحمه على أهل المدينة، وعند الغداء، وجد عمر أمامه سنام الجزور وكبده، وهما أطيب ما فيه..! فقال: من أين هذا؟ قيل: من الجزور الذى ذُبح اليوم، قال: «بخ بخ»

---

(١) أخرجه عبد الرزاق والبخارى فى الأدب المفرد، وحسّن إسناده الشيخ الألبانى (٧٢).

بئس الوالى أنا إن طعمت طيبها، وتركت للناس كراديسها»، يعنى عظامها، ثم نادى خادمه (أسلم)، وقال له: يا أسلم، ارفع هذه الجفنة وائتنى بخبز وزيت.

لله درك من إمام وعاهل منقطع النظير، وصاحب العدل فى ذراه العالية التى تتقطع الأنفاس دون بلوغها.

وأنا والله ما نسيتها بعد!!!

وعن إياس بن سلمة عن أبيه قال: مر عمر بن الخطاب رضوان الله عليه، وأنا فى السوق وهو مارٌّ فى حاجة له، ومعه الدِّرة قال: هكذا أمط عن الطريق يا سلمة، قال: ثم خفقنى بها خفقة، فما أصاب إلا طرف ثوبى، فأمطت عن الطريق، فسكت عنى حتى كان فى العام المقبل فلقينى فى السوق فقال: يا سلمة أردت الحج العام؟ قلت: نعم يا أمير المؤمنين، فأخذ بيدى، فما فارقت يدى يده حتى دخل بى بيته، فأخرج كيسًا فيه ستمائة درهم فقال: يا سلمة استعن بهذه، واعلم أنها من الخفقة التى خفقتك عام أول، قلت: والله يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها! قال: وأنا والله ما نسيتها بعد.

يا عمر.. عدلت فأمنت فنمت!!!

أرسل قيصر روما رسولًا إلى عمر بن الخطاب لينظر أحواله ويشاهد أفعاله، فلما دخل المدينة سأل أهلها وقال: أين ملككم؟ فقالوا: ما لنا ملك، بل لنا أمير قد خرج إلى ظاهر المدينة، فخرج الرسول فى طلبه، فرآه نائمًا فى الشمس على الأرض فوق الرمل الحار وقد وضع جبته كالوسادة والعرق يسقط من جبينه وقد بلَّ الأرض، فلما رآه على هذه الحال وقع

الخشوع فى قلبه وقال: رجل لا يقر للملوك قرار من هيبته وتكون هذه حاله! ولكنك يا عمر عدلت فأمنت فنمت، وملكنا يجور فلا جرم أنه لا يزال ساهرًا خائفًا، أشهد أن دينك الدين الحق ولولا أننى أتيت رسولًا لأسلمت، ولكنى أعود وأُسلم».

صفحة ناصعة من عدل عثمان رضي الله عنه

وها هى صفحة ناصعة البياض من عدله رضي الله عنه.

عثمان الرحيم الذى تشع الرحمة فى حياته، وتكون نبراسًا لكل تصرفاته، يغضب على خادم له يومًا، فيفرك أذنه حتى يوجعه... ثم سرعان ما يدعو خادمه ويأمره أن يقتص منه فيفرك أذنه... ويأبى الخادم، ويأمره فى حزم فيطيع: «اشدد يا غلام، فإن قصاص الدنيا أرحم من قصاص الآخرة».

وهذا على بن أبى طالب رضي الله عنه

قال على بن أبى طالب رضي الله عنه على المنبر فى يوم الجمعة: «أيها الرعاء، إن لرعيتكم حقوقًا: الحكم بالعدل، والقسم بالسوية، وما من حسنة أحب إلى الله من حكم إمام عادل»[1].

* وعن على بن الأرقم، عن أبيه قال: رأيت عليًّا، وهو يبيع سيفًا له فى السوق، ويقول: من يشترى منى هذا السيف، فوالذى فلق الحبة لطالما كشفت به عن وجه رسول الله ﷺ، ولو كان عندى ثمن إزار ما بعته[2].

* كان رضي الله عنه يمشى فى أسواق الكوفة وهو خليفة المسلمين، فيرشد

(١) التمهيد لابن عبد البر (٢/ ٢٨٤).

(٢) أخرجه ابن أبى شيبة (٨/ ١٥٧) فى المصنف.

الضال ويعين الضعيف ويلتقى بالشيخ المسن الكهل، فيحمل عنه حاجته، ولا يسكن قصر الإمارة ويقول: «قصر الخبال هذا، لا أسكنه أبدًا».

* لما طُعن رضي الله عنه ، وهو يتهيأ للصلاة، بعد أن مر بشوارع الكوفة يوقظ أهلها لصلاة الفجر... قال لبنيه بعد أن علم قاتله: «أحسنوا نُزله وأكرموا مثواه، فإن أعش، فأنا أولى بدمه قصاصًا أو عفوًا، وإن أَمُت، فألحقوه بى، أخاصمه عند رب العالمين، ولا تقتلوا بى سواه، إن الله لا يحب المعتدين».

وهذا معاذ بن جبل رضي الله عنه

* عن يحيى بن سعيد أن معاذ بن جبل كانت له امرأتان. فإذا كان يوم إحداهما لم يتوضأ فى بيت الأخرى. ثم توفيتا فى السقم الذى بالشام، والناس فى شغل، فدُفنتا فى حفرة فأسهم بينهما أيتهما تُقدَّم فى القبر.

معاوية بن أبى سفيان رضي الله عنه

ترجم له الذهبى بقوله: «أمير المؤمنين ملك الإسلام معاوية بن أبى سفيان أعدل الملوك وأحلمهم».

وعن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه قال: ما رأيت أحدًا بعد عثمان أقضى بحق من صاحب هذا الباب، يعنى معاوية.

رحلة العدل مع عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

* إنه عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى الراشد الذى يقول فيه مالك ابن دينار: يقولون: مالك زاهد!.. أى زهد عندى؟ إنما الزاهد عمر بن عبد العزيز، أتته الدنيا فاغرة فاها، فتركها جُملة!

أجل، فلم يكن فى خلافته سوى قميص واحد يلبسه، فكان إذا غسلوه جلس فى المنزل حتى ييبس، وهو الذى نشأ وشب فى أحضان النعيم.

ودخل على امرأته يومًا فسألها أنْ تُقرضه درهمًا يشترى به عنبًا، فلم يجد عندها شيئًا.. فقالت له: أنت أمير المؤمنين وليس فى خزائنك ما تشترى به عنبًا؟! فقال: هذا أيسر من معالجة الأغلال والأنكال غدًا فى نار جهنم.

وقد اجتهد فى مدة ولايته ـ مع قصرها ـ حتى رد المظالم، وصرف إلى كل ذى حقٍّ حقه، وكان مناديه ينادى فى كل يوم: أين الغارمون؟ أين الراغبون فى الزواج؟ أين اليتامى؟ أين المساكين؟ حتى أغنى كلًا من هؤلاء.

ومع عدله وزُهده، وردِّه للمظالم، وشدته على نفسه وأقاربه كان يناجى ربه فيقول: اللهم إن عمر ليس أهلًا أن تناله رحمتك، ولكن رحمتك أهلٌ أن تنال عمر.

وأثنى عليه رجل فقال له: جزاك الله عن الإسلام خيرًا يا أمير المؤمنين. فقال: بلى جزى الله الإسلام عنى خيرًا.

حصّن مدينتك بالعدل
ونقّ طُرقها من الظلم

* كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: «أما بعد، فإن مدينتنا قد خربت، فإن يَرَ أمير المؤمنين أن يقطع لنا ما نرمّها به فعل».

فكتب إليه عمر: «أما بعد، فقد فهمت كتابك، وما نكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابى هذا فحصّنها بالعدل، ونقّ طرقها من الظلم

فإنه مَرمّتها، والسلام»[١].

* وكتب إليه واليه على خُراسان يستأذنه فى أن يرخّص له باستخدام بعض القوة والعنف مع أهلها قائلًا فى رسالته له: «إنهم لا يُصلحهم إلا السيف والسوط» فكان رده التقى الحازم: «كذبت.. بل يصلحهم العدل والحق، فابسط ذلك فيهم، واعلم أن الله لا يُصلح عمل المفسدين».

* قال سفيان الثورى: «أئمة العدل خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلى وعمر بن عبد العزيز»، وقال: «لا أوافق رأى أحد أحب إلىَّ من عمر بن عبد العزيز؛ لأنه كان إمام هدى»[٢].

لوددت أن الناس كلهم يُسلمون

وكان رَضِوَاللَّهُعَنْهُ لا ينسى المهمة الأولى فى حياة المسلم وهى أن يُعبّد الناس أجمعين لله رب العالمين.

كما قال ربعى بن عامر رَضِوَاللَّهُعَنْهُ لرستم قائد الفرس: نحن قومٌ ابتعثنا الله لنُخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

* فها هو رَضِوَاللَّهُعَنْهُ يرسل إليه عدى بن أرطاة واليه على العراق: «إن الناس قد دخلوا فى الإسلام أفواجًا حتى خشيت أن يقل الخراج، فيجيبه الخليفة المقسط العظيم بكلماته الوضيئة: «إن الله بعث محمدًا هاديًا ولم يبعثه جابيًا، والله لوددت أن الناس كلهم يسلمون، حتى نكون أنا وأنت حراثين، نأكل من كسب أيدينا!».

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ١٩٢).

(٢) سيرة ومناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى (ص: ٧٤).

حتى الدواب كان لها نصيب من رحمته

كتب عمر إلى واليه على مصر: «أما بعد، فقد بلغنى أن الحمَّالين فى مصر يحملون على ظهور الإبل فوق ما تطيق... فإذا جاءك كتابى هذا، فامنع أن يُحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل».

أصلحت ما بينى وبين ربى
فأصلح الله ما بين الذئب والغنم

روى أنه دخل عليه راعى غنم فقال له: يا أمير المؤمنين لقد حدث عندى شىء عجيب، قال له: وما ذاك؟ فقال الراعى: إن الذئب يأتى كل ليلة لينام فى حضن الغنم. فقال: لا عجب فى ذلك فلقد أصلحت ما بينى وبين ربى فأصلح الله ما بين الذئب والغنم.

السلطان العادل جلال الدولة
ملك شاه بن ألب أرسلان

كان رَحِمَهُ اللَّهُ مُحبًّا للعدل والإنصاف، فركب يومًا إلى الصيد فلقيه سوادى يبكى، فقال: ما لك؟ قال: لقينى ثلاثة غلمان فأخذوا حمل بطيخ كان معى، هو ما أملك وهو بضاعتى، فقال له: امض إلى العسكر، فهناك قبة حمراء، فاقعد عندها ولا تبرح إلى آخر النهار، فأنا أرجع، وأعطيك ما يغنيك، فلما عاد السلطان، قال: للشرابى: قد اشتهيت بطيخًا ففتش العسكر وخيمهم على شىء من ذلك، ففعل الشرابى، فوجد البطيخ، فقال: عند من رأيتموه، فقيل: فى خيمة الحاجب فلان، فقال: أحضروه، فأُحضر، فقال له: من أين

لك هذا؟ قال: الغلمان جاءوا به فقال: أريدهم الساعة؟ فمضى وقد أحسوا بالشر فهربوا خوفًا من أن يقتلهم، وعاد فقال: قد هربوا لما علموا أن السلطان يطلبهم، فقال: أحضروا السوادى، فأُحضر، فقال له: أهذا الذى أخذ بطيخك منك؟ قال: نعم... قال: خذه، وهذا الحاجب مملوك لى، وقد سلمته إليك، ووهبته لك، حين لم يحضر الذين أخذوا بطيخك، والله لئن خليته لأضربن عنقك، فأخذ السوادى بيد الحاجب، فأخرجه، فاشترى الحاجب نفسه من السوادى بثلاثمائة دينار، فعاد السوادى إلى السلطان، فقال: يا سلطان قد بعت المملوك الذى وهبته لى بثلاثمائة دينار، قال: ورضيت؟ قال: نعم، قال: اقبضها وأمن مصاحبًا... وكان هذا السلطان يقف للمرأة والضعيف.

وجاء رجلان قد ظُلما فاستغاثا إليه، فقال: خذا بيدى واحملانى إلى الوزير فامتنعا، فقال: لا بد، فأخذ كل واحد منهما بيد ومشى معهما، فبلغ ذلك الوزير نظام الملك فقام حافيًا وتلقاه، وقال: ما هذا؟ قال: أنت الذى أحوجتنى إلى هذا؟ أنا أنصبتك لتدفع عنى الظلم، فإذا لم تدفع عنى أخذانى يوم القيامة هكذا»[1].

السلطان العادل: مظفر حليم الكجراتى

قال عنه الشيخ أبو الحسن الندوى فى كتابه «المسلمون فى الهند»:

«السلطان الفاضل العادل، المحدث الفقيه: مظفر حليم الكجراتى، الذى روى عنه التاريخ من نوادر الإخلاص والإيمان، والاحتساب

---

(١) «الشفاء فى مواعظ الملوك والخلفاء» لابن الجوزى (ص: ٨٥، ٨٦) ـ تحقيق فؤاد عبد المنعم. انظر ترجمته فى «سير أعلام النبلاء» (٢١/ ٦٨-٧٢).

والتقوى، والعمل بالعزيمة، والعدل والإيثار، والحمية فى الدين، والتبحر فى العلم ما يندر وجوده فى سير كبار الزهاد والربانيين وكبار المخلصين، فضلًا عن الملوك والسلاطين».

كان غاية فى التقوى والعزيمة والعفو والتسامح عن الناس، ولذلك لقّبوه بالسلطان الحليم، وكان يقتضى آثار السنة السنية فى كل قول وفعل، ويعمل بنصوص الأحاديث النبوية، وكثيرًا ما يذكر الموت ويبكى، ويكرم العلماء ويبالغ فى تعظيمهم.

* **قال الآصفى**: وفى سنة إحدى وثلاثين وتسعمائة خرج السلطان إلى مصلى العيد للاستسقاء وتصدّق، وتفقّد ذوى الحاجة على طبقاتهم وسألهم الدعاء، ثم تقدّم للصلاة، وكان آخر ما دعا به كما يقال: «اللهم إنى عبدك ولا أملك لنفسى شيئًا، فإن تك ذنوبى حبست القطر عن خلقك فهذه ناصيتى بيدك! فأغثنا يا أرحم الراحمين» قال هذا ووضع جبهته على الأرض واستمر ساجدًا يكرر قوله: يا أرحم الراحمين، فما رفع رأسه إلا وهاجت ريح ونشأت بحرية ببرق ورعد ومطر، ثم سجد لله شكرًا، ورجع من صلاته بدعاء الخلق له وهو يتصدّق وينفح بالمال يمينًا وشمالًا.

وكان رَحِمَهُ اللهُ **يقول**: نظرت فيما أوثر به أولى الاستحقاق من الإنفاق فإذا أنا بين إفراط فى صرف بيت المال وتفريط فى منع أهله، فلم أدر إذا سُئلت عنهما بم أجيب.

وفى آخر أيامه وكان يوم الجمعة قال: أما صلاة الظهر فأصليها عندكم، وأما صلاة العصر فعند ربى فى الجنة إن شاء الله تعالى، ثم أذن للحاضرين فى صلاة الجمعة واستدعى مصلاه وصلى، ودعا الله سبحانه بوجهٍ مقبل

عليه وقلب منيب إليه، دعاء مَن هو مفارق القصر مشرف على القبر، ثم كان آخر دعائه: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾[1] وقام من مصلاه وهو يقول: أستودعك الله، اضطجع على سريره وهو مجتمع الحواس ووجهه يلتفت إلى القبلة وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفاضت نفسه والخطيب على المنبر يدعو له، وفى ذلك عبرة لمن ألقى السمع وهو شهيد[2].

عودة إلى العدل فى زمن المهدى

وبعد غياب العدل عن دنيا الناس سنوات يرجع مرة أخرى بظهور المهدى المنتظر الذى يملأ الأرض كلها عدلًا وقسطًا.

* قال رسول الله ﷺ: **«يكون فى آخر الزمان خليفة، يَقسم المال ولا يَعُدُّه»**[3].

* وقال رسول الله ﷺ: **«لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لَطَوَّل الله ذلك اليوم، حتى يُبعث فيه رجل من أهل بيتى، يواطئ اسمه اسمى، واسم أبيه اسم أبى، يملأ الأرض قسطًا وعدلًا كما مُلئت ظلمًا وجورًا»**[4].

* * *

(١) سورة يوسف: الآية (١٠١).

(٢) الإعلام (٤/ ٣١٦-٣٢٥) بتصرف.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٩١٣) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٤) صحيح: رواه أبو داود (٤٢٨٢) كتاب المهدى، والترمذى (٢٢٣١) كتاب الفتن، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٣٠٤).

انتشار العدل والأمن والبركات فى عهد عيسى عليه السلام

قال رسول الله ﷺ: «**والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، وإمامًا عدلًا، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها**»[1].

ولأن الكون كله قد أسلم واستسلم لله - جل وعلا - فإن الإنسان كلما ازداد طاعة لله كلما سخّر الله له الكون كله.

فقد جاء فى حديث النواس بن سمعان الطويل فى ذكر الدجال ونزول عيسى وخروج يأجوج ومأجوج فى زمن عيسى عليه السلام ودعائه عليهم وهلاكهم، وفيه قوله ﷺ: «**ثم يرسل الله مطرًا لا يُكنُّ منه بيتُ مدر ولا وبر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة** - المرآة - **ثم يقال للأرض أنبتى ثمرتك، ورُدى بركتك، فيومئذ تأكل العصابة** - مجموعة من الرجال - **من الرمانة، ويستظلون بقحفها** - قشرتها - **ويبارك فى الرَّسل** - اللبن - **حتى إن اللقحة من الإبل لتكفى الفئام من الناس، واللقحة من البقر لتكفى القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفى الفخذ من الناس**»[2].

* وفى رواية أحمد بسندٍ صحيح قال ﷺ: «**... وتقع الأمنة على الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل، والنمار مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان بالحيات لا تضرهم**»[3].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٤٤٨) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٥٥) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٣٧) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

(٣) صحيح: رواه أحمد (٩٠١٧)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى السلسلة الصحيحة (٢١٨٢)

من عقوبات الظالمين في الدنيا

لقد أعد الله تعالى فى الدنيا العديد من العقوبات للظالمين، جزاءً وفاقًا، وما ظلمهم الله تعالى شيئًا، ولكنهم كانوا أنفسهم يظلمون.

*** فمن عقوبة الله تعالى للظالمين فى الدنيا:**

محق البركة، وخراب البيوت. فمهما كان الظالم غنيًّا فأمواله لا بركة فيها، ومهما كان عالى البنيان فهى أقرب إلى الانهيار بسبب ظلم العباد.

قال تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓا۟﴾[1].

خاوية: أى: خالية من أهلها خرابًا، ليس به ساكن.

«وإخواء البيوت وخرابها مما أخبر الله تعالى به فى كل الشرائع أنه مما يعاقب به الظَّلَمة.

وفى التوراة: «**ابن آدم لا تظلم يُخْرَب بيتك**»[2].

*** ومن عقاب الله تعالى للظالم فى الدنيا:**

أن يسلط عليه ظالمًا غيره، أقوى وأشد منه، ليذوق مما كان يسقيه لغيره، وفى الأخبار: «من لم يعرفنى سلطت عليه من لا يعرفه».

ولقد تمثَّل الشاعر هذا المعنى فقال:

فما من يدٍ إلا يدُ الله فوقها ... وما ظالم إلا سيبلى بظالم

*** ومن عقاب الله تعالى للظالم فى الدنيا:**

أنه يحيا فى الدنيا، ويعلم فى قرارة نفسه أن الله ﷻ لا يحبه، بل يلعنه ويبغضه، كما قال جلَّت قدرته:

---

(١) سورة النمل: الآية (٥٢).

(٢) تفسير ابن عطية (٤/ ٢٦٥).

﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[١] .

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٢] .

إن الظالم ملعون بنص القرآن الكريم، فكيف يحبه رب العالمين؟!

قال تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٣] .

ولعن الظالم أى: الإبعاد والطرد من الخير والرحمة.

وهذا يعنى أن الظالم خرج من تحت رحمة ربه وعاش تحت سخطه، وذلك يعنى بالضرورة البعد عن الأمن والطمأنينة، والعيش فى رعبٍ وخوف من غضب الله تعالى[٤] .

* ولا بد أن نعلم أن الظالم لا يرى فلاحًا ولا نجاحًا فى حياته ...

قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٥] .

* والظلم إيذان بهلاك الظالمين .. فقد قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡقُرَىٰٓ أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَعَلۡنَا لِمَهۡلِكِهِم مَّوۡعِدٗا﴾[٦] .

* وقال تعالى: ﴿هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٧] .

* بل إن الظالم يُحرَم من نعمة الهداية ... فقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٨] .

---

(١) سورة الشورى: الآية (٤٠).

(٢) سورة آل عمران: الآية (٥٧).

(٣) سورة هود: الآية (١٨).

(٤) الظلم والظالمون (٤٧-٤٨) بتصرف.

(٥) سورة يوسف: الآية (٢٣).

(٦) سورة الكهف: الآية (٥٩).

(٧) سورة الأنعام: الآية (٤٧).

(٨) سورة الأحقاف: الآية (١٠).

ومن عقوبات الله تعالى للظالمين في الدنيا:

شدة السكرات عند الممات، والتقبيح والذم كما قال جل شأنه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

* * *

(١) سورة الأنعام: الآية (٩٣).

من عقوبات الظالمين في الآخرة

إن كل ما يلقاه الظالم فى الدنيا من العقوبة لا يساوى شيئًا من عقوبة الآخرة، بل لا يُقاس أصلًا بين الدنيا والآخرة.

بل قد يعيش الظالم، ويُعمر، ويرحل عن الدنيا، ولا نراه يعانى من عقوبة الله فى الدنيا، ولماذا؟

أمهله الله تعالى حتى يرى العذاب كله فى يوم القيامة حيث الحسرة والندامة،... وعذاب الآخرة أشد وأبقى.

يقول الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ:

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنتُمْ فِى مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا۟ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ ۖ وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[1].

---

(١) سورة إبراهيم: الآيات (٤٢-٥٢).

وقد أعد الله سبحانه للظالمين من العذاب ما لا يعلمه إلا هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال عَزَّوَجَلَّ:

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾[1].

ومن الآيات القرآنية التى تُجلِّى حقيقة الذل والهوان الذى يُصَبُّ على أهل الظلم.

قول الله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّ ۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾[2].

إن أهل الظلم مع فقدهم للهداية الربانية يفقدون مع ذلك النصير، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾[3].

أى: فذوقوا عذاب النار جزاءً على مخالفتكم للأنبياء فى مدة أعماركم، فما لكم اليوم ناصر ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب، والنكال، والأغلال[4].

وكذلك لا يجد أهل الظلم لهم أى حميم، أو شفيع لهم فيُطاع، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[5][6].

---

(١) سورة الكهف: الآية (٢٩).

(٢) سورة الشورى: الآيات (٤٤-٤٦).

(٣) سورة فاطر: الآية (٣٧).

(٤) تفسير ابن كثير (٣/ ٥٦٠).

(٥) سورة غافر: الآية (١٨).

(٦) الظلم والظالمون (١٥-١٧) بتصرف.

وقفة لطيفة

* قد علمنا فيما سبق أن أنواع الظلم ثلاثة:

(١) ظلم لا يغفره الله (جل وعلا): وهو الشرك بالله ... وذلك لمن مات على الشرك ... أما من تاب وأعلن التوحيد لله (جل وعلا) فإن الله ﷻ يتوب عليه ويبدل سيئاته إلى حسنات ... قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا۟ فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَـٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَـٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾[2].

(٢) ظلم لا يتركه الله (جل وعلا): وهو ظلم العبد لغيره .. فهذا الظلم جعل الله مغفرته إلى المظلوم .. فهو صاحب الحق فى العفو أو القصاص.

(٣) ظلم العبد لنفسه بالذنوب والمعاصى دون الشرك .. فهذا يحتاج إلى توبة صادقة ليغفر الله له الذنوب والمعاصى.

ولما كنت قد تكلمت عن التوبة فى بعض الكتب السابقة فسوف يقتصر حديثى فى هذا الكتاب على النوعين الأولين:

أ- **الظلم الأكبر وهو الشرك بالله (جل وعلا)** لنرى كيف كانت نهاية الكفار الذين ماتوا ولم يؤمنوا بالله (جل وعلا).

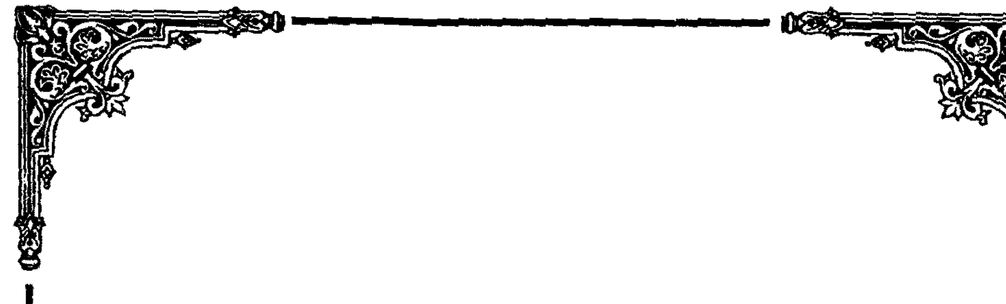
ب- **ظلم العبد لغيره**.. وذلك لنرى كيف كانت عقوبة الظالمين فى الدنيا .. هذا بخلاف ما يدخره الله لهم فى الآخرة.

---

(١) سورة الأنفال: الآية (٣٨).

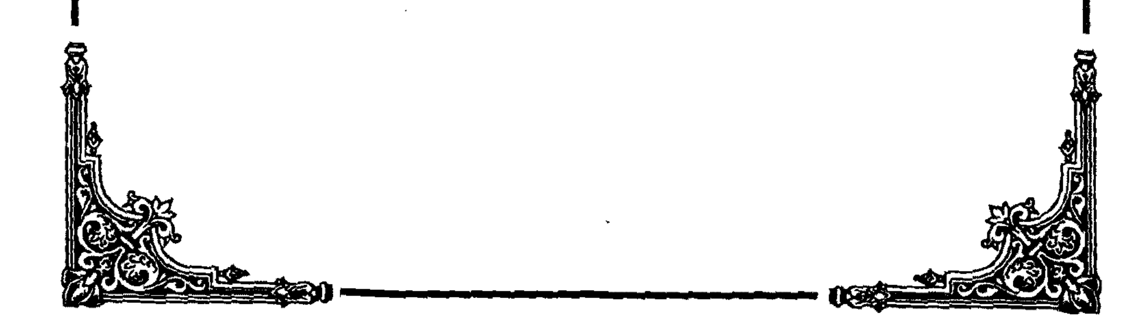
(٢) سورة الفرقان: الآيات (٦٨-٧٠).





نهاية المشركين والكفار

(فكلاً أخذنا بذنبه)



فكلاًّ أخذنا بذنبه
(نهاية المشركين والكفار)

قال تعالى حاكيا عن لقمان أنه قال لابنه وهو يعظه: ﴿ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾[١].

* فلما كان الشرك بالله (جل وعلا) هو أظلم الظلم فإن الله سلَّط أنواعًا وأصنافًا من العقوبات على تلك الأمم التى أشركت بالله (جل وعلا) وكفرت به.. ولذا قال تعالى: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٢].

* يقول الشيخ الشنقيطى رَحِمَهُ اللَّهُ فى كتابه القيم «أضواء البيان»:

أغرق الله فرعون وقوم نوح، وأخذ ثمود بالصيحة، وعادًا بالريح، وقوم لوط بقلب قُراهم، كما أخذ جيش أبرهة بطيرٍ أبابيل، فهل فى ذلك مناسبة بين كل أمة وعقوبتها، أم أنه للتنويع فى العقوبة؛ لبيان قدرته تعالى وتنكيله بالعصاة لرسل الله... والواقع أن أى نوع من العقوبة فيه آية على القدرة، وفيه تنكيل بمن وقع بهم، ولكن تخصيص كل أمة بما وقع عليها يثير تساؤلا[٣].

قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ

---

(١) سورة لقمان: الآية (١٣).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٤٠).

(٣) أضواء البيان (٨/ ٤٤١-٤٤٢).

كَانَ عَـٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَـٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴾[1].

* فتعالوا بنا لنرى كيف أهلك الله ﷻ تلك الأمم الظالمة التى أشركت بالله (جل وعلا) وماتت على ذلك ولم تَتُب من شركها وكفرها بالله (جل وعلا).

* * *

(١) سورة الروم: الآيتان (٩-١٠).

نهاية إبليس

* قال ﷺ: **«لما خلق الله آدم تركه ما شاء الله أن يدعه، فجعل إبليس يطيف به، فلما رآه أجوف عرف أنه لا يتمالك»**(١).

ذلك لنعلم أن عداوة إبليس لنا قديمة ولن تنتهى حتى قيام الساعة فمنذ أول لحظة يولد فيها الإنسان وإذا بالشيطان يعلن عداوته له كما أخبر بذلك الصادق ﷺ حيث قال: **«ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه»**(٢).

- بل ويظل فى حربه السافرة لبنى آدم حتى الموت.. ويوم القيامة يخطب خطبته الشهيرة فى النار ليملأ قلوب العصاة والكافرين حسرة فيزدادوا عذابًا فوق العذاب كما أخبر بذلك العزيز الوهاب:

﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾(٣).

إبليس يرفض السجود لآدم (عليه السلام)

لما خلق الله آدم (عليه السلام) ونفخ فيه الروح عطس وتحرك جسده ودبَّت فيه الحياة وأصبح إنسانًا يتنفس ويرى ويسمع.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٦١١).

ومعنى: لا يتمالك، لا يملك نفسه ويحبسها عن الشهوات وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقيل: لا يملك نفسه عند الغضب، - والمراد: كل بنى آدم-.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٣٦٦).

(٣) سورة إبراهيم الآية: (٢٢).

ففتح آدم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عينيه فرأى الملائكة كلهم ساجدين له - سجود تحية وليس سجود عبادة -... ماعدا واحدًا يقف بعيدًا ويرفض السجود لآدم (عَلَيْهِ السَّلَامُ).. وهو إبليس اللعين.

* لقد حكى الله ﷻ قصة رفض إبليس السجود لآدم فى أكثر من سورة، قال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾[1] [2].

وقال فى سورة «ص»: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[3]... قال تعالى: ﴿فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ﴾[4].

* وهكذا امتنع إبليس عن السجود، فطرده الله سبحانه، وأبعده، وأهبطه إلى الأرض طريدًا ملعونًا شيطانًا رجيمًا.

* * *

(١) سورة الأعراف: الآيات: (١٢ - ١٦).

(٢) ﴿الصَّاغِرِينَ﴾: الأذلاء المُهانين، ﴿أَنظِرْنِي﴾: أخِّرنى وأمهلنى فى الحياة.
﴿أَغْوَيْتَنِي﴾: أضللتنى، ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ﴾: لأترصدنهم ولأجلسنّ لهم.

(٣) سورة ص : الآيتان: (٧٥، ٧٦).

(٤) سورة ص : الآيتان: (٧٧، ٧٨).

لأقعدن لهم صراطك المستقيم

ولما طُرد إبليس من رحمة الله (جل وعلا) ولعنه الله إلى يوم الدين قام إبليس وأعلن عداءه لبنى آدم وطلب من الله (ﷻ) الإنظار - التأجيل -: ﴿ قَالَ أَنظِرْنِيٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴾[1].

* ﴿ قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴾[2].

يخبر تعالى أنه لما أنظَر إبليس، أخذ فى المعاندة والتمرد فقال: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ أى: أقسم بإغوائك لى، لأقعدن لهم صراطك المستقيم، والصراط المستقيم هو كل طرق الخير التى تؤدى إلى رضاه تعالى، من إسلام وهجرة وجهاد وجميع الطاعات التى يرضى عنها سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ

وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ﴾ أى: يأتيهم من كل وَجهِ وَجِهَةٍ، ليزل أقدامهم عن طرق الطاعات، ويعدد لهمَ الغوايات أشكالًا وألوانًا، حتى يوقعهم فى المعاصى.

* قال ﷺ: **«إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوى عبادك ما دامت أرواحهم فى أجسادهم، فقال الرب: وعزتى وجلالى لا أزال أغفر لهم ما استغفرونى»**[3].

* وكشف الشيطان عن حقده على آدم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وذريته فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان: (١٤-١٥).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان: (١٦-١٧).

(٣) حسن: رواه أحمد (١٠٨٥١)، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (١٦٥٠).

﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[(١)].

فهو يقسم بعزة الله على إغواء كل بنى آدم ماعدا عباد الله المخلصين فقال تعالى: ﴿قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[(٢)].

* إنها معركة قديمة ولن تنتهى أبدًا بين الشيطان وبين بنى آدم ولذلك يجب علينا أن نعتصم بالله وأن نعبده حق العبادة حتى يعصمنا جميعًا من كيد الشيطان.

وقفة لطيفة

ظن كثير من الناس أن إبليس كان من الملائكة لأنه كان يعيش معهم.. وهذا خطأ كبير لأنه يخالف النص القرآنى.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾[(٣)].

* * *

(١) سورة ص: الآيتان: (٨٢، ٨٣).

(٢) سورة ص: الآيتان: (٨٤، ٨٥).

(٣) سورة الكهف: الآية: (٥٠).

هلاك قوم نوح وابنه

لقد كان بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون كلها على التوحيد فلم يكن فى هذا الوقت على وجه الأرض مشرك واحد ولم يظهر الشرك إلا فى قوم نوح (عليه السلام).

فعن ابن عباس أنه قال: «**كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام**»[1].

فكان أول مَن عَبَدَ الأصنام على هذه الأرض قوم نوح، وكان الناسُ قبلهم على عقيدة التوحيد والإيمان بالله الواحد القهار، لا يعرفون وثنيةً، ولا يعبدون أصنامًا.

كيف بدأت قصة الشرك

كان هناك خمسة من الرجال الصالحين من أجداد قوم نوح (عليه السلام) وكانوا يُعلمون الناس الدين الحق ويدعونهم إلى عبادة الله (جل وعلا) ويساعدون الفقراء ويعطفون على اليتامى حتى أحبهم الناس وكانت لهم مكانة عالية بين قومهم فى ذلك الزمان.

وكانت أسماء هؤلاء الرجال الخمسة الصالحين هى: (ودٌّ، سواع، يغوث، يعوق، نسرٌ).

* ومرت الأيام ومات هؤلاء الخمسة الصالحون فحزن الناس عليهم حزنًا شديدًا وقام بعضهم وأشار على من حوله فى أن يصنعوا تماثيل لهؤلاء الخمسة الصالحين على سبيل التكريم والذكرى ولينظروا إليهم فتكون

---

(١) صحيح: رواه الحاكم (٣/ ٧٣٤)، وصححه الألبانى رحمه الله فى الصحيحة (٣٢٨٩).

عونًا لهم على طاعة الله.

* ومرت السنوات .. ومات هؤلاء الناس الذين نحتوا تلك التماثيل وجاء أبناؤهم ثم أحفادهم ونسجوا القصص والأساطير والحكايات حول هذه التماثيل وأصحابها وزيَّن لهم الشيطان ذلك وأوهم الناس أن هذه التماثيل آلهة تملك النفع والضر فبدأ الناس يعبدون تلك التماثيل فكان لابد فى هذه الفترة من إرسال رسول كريم يدعو الناس إلى التوحيد وإلى ترك عبادة الأصنام .. فأرسل الله (ﷻ) إليهم رسولًا كريمًا هو نوح (عليه السلام).

عن ابن عباس رضي الله عنهما فى تفسير ود، وسواع، ويغوث، ويعوق، ونسر: أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابًا، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، فلم تُعبدَ، حتى إذا هلك أولئك، وتنَسَّخ العلم عُبدت[1].

فأرسل إليهم نوحًا أول رسول للبشر، وهو أحد أولى العزم من الرسل، ودعا نوح قومه إلى عبادة الله وحده وسلك إلى آذان قومه وقلوبهم وعقولهم بشتَّى الأساليب، ومتنوع الوسائل، فى دأب طويل، وفى صبر جميل، وفى جهد نبيل ألف سنة إلا خمسين عامًا.

لا يأس ولا قنوط

وراح نوح عليه السلام يواصل جهوده النبيلة الخالصة الكريمة لهداية قومه، بلا مصلحة له، ولا منفعة؛ ويحتمل فى سبيل هذه الغاية النبيلة ما يحتمل من إعراض واستكبار واستهزاء .. ألف سنة إلا خمسين عامًا.. وعدد المستجيبين له لا يكاد يزيد، ودرجة الإعراض والإصرار على الضلال

(١) فتح البارى (٨/ ٥٣٥).

ترتفع وتزداد! ثم عاد فى نهاية المطاف يقدم حسابه لربه الذى كلفه هذا الواجب النبيل وذلك الجهد الثقيل! عاد يصف ما صنع وما لاقى.. وربه يعلم. وهو يعرف أن ربه يعلم ولكنها شكوى القلب المُتعَب فى نهاية المطاف، إلى الجهة الوحيدة التى يشكو إليها الأنبياء والرسل والمؤمنون حقيقة الإيمان.. إلى الله[1] ..

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾[2].

رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديّارًا

* لَبِث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله فى كل وقت، يمضى قرنٌ بعد قرن، فلا يستجيبون له، حتى مضى قرون ثلاثة على ذلك من حاله وحالهم، وتمادوا فى المعصية، وعظمت فى الأرض منهم الخطيئة، واشتد على نوح منهم البلاء، فلا يأتى زمنٌ إلا كان أخبث من الذى قبله، وظل نوح عليه السلام صابرًا يتحمل أذاهم فى سبيل الله عز وجل عسى أن يثوبوا إلى رشدهم، ويرجعوا عمّا هم عليه من العناد والضلال والفساد والإفساد.

* وانطلق الكافرون يزيدون من عذابهم لنوح .. صاروا يضايقونه أكثر من قبل .. أعرضوا إعراضًا كاملًا.. ضربوه وهو يناجى ربه وهو ساجد فى يوم من الأيام..

---

(١) الظلال (٦/ ٣٧١٢).

(٢) سورة نوح: الآيات: (٥ - ٩).

بل ذكروا أن نوحًا عليه السلام بينما هو ساجد يومًا من الأيام، إذ مر به رجل من كفار قومه وعلى عنقه حفيد له، فقال الجد للحفيد محذرًا وموصيًا:

يا بنى هذا هو الشيخ الكذاب الذى دعانا إلى عبادة ربٍ لا نعرفه، وأوعدنا وعيدًا بلا أمد، فاحذر منه حتى لا يضلك.

فقال الحفيد له: إذا كان على هذه الحالة فِلمَ تركتموه حيًّا إلى الآن؟

فقال له الجد: وما كنا نصنع به؟

فقال الحفيد: أنزلنى حتى ترى ما أصنع به..

فأنزله جده، فأخذ صخرة وأهوى بها إلى رأس نوح فشجَّه[1].

فلما سمع نوح عليه السلام قول الحفيد، وحواره مع جده، ورأى فعلته التى فعل، علم إذ ذاك أن الحفيد أطغى وأخبث من الجد، فدعا فى تلك السجدة، وتوجه إلى الله عز وجل فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[2].

وها هو يصنع سفينة النجاة

قال تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾[3].

لقد حزن نوح على استسلامهم للكفر وانقيادهم للشيطان بعد كل هذا الجهاد، وبعد كل هذا العناء، وبعد كل هذا التوجيه، والتنوير، والإنذار، والإطماع، والوعد بالمال والبنين والرخاء، بعد هذا كله كان العصيان،

---

(١) تفسير القرطبى (٩/ ٤٦)، و(١٨/ ٣١٢) بشىء من التصرف.

(٢) سورة نوح: الآيتان: (٢٦، ٢٧).

(٣) سورة هود: الآية: (٣٦).

وأوحى الله إلى نبيه نوح ما قصَّه فى كتابه: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(١).

﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾(٢) برعايتنا وتعليمنا.

﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۚ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾(٣) .. فقد تقرر مصيرهم وانتهى الأمر فيهم. فلا تخاطبنى فيهم .. لا دعاء بهدايتهم، ولا دعاء عليهم.

* ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾(٤).

* بدأ نوح عليه السلام بتنفيذ أمر ربه فى اتخاذ الفلك - السفينة - ولم يكن لنوح ولا لغيره معرفة بصنع السفينة، لذا فقد أوحى الله إليه بطريقة صُنعها، وعلمه كيف ينبغى أن تكون..قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾(٥).

* وشرع نوح عليه السلام يصنع الفلك تحت أمر الله ووحيه، وأعد العدة لذلك، وأخذ فى تنفيذ المهمة الربانية ويبدو أن امرأته كانت تراه وهو ينقل الأخشاب، ومن ثم يبدأ العمل فى صناعتها على شكل سفينة .. ولكن ليس قرب البحر، أو قرب نهر كبير، مما أثار دهشة امرأته واستغرابها، وراحت تسأله فى تهكم: ماذا تصنع بهذه الأخشاب يا نوح؟!

(١) سورة هود: الآية: (٣٦).

(٢) سورة هود: الآية: (٣٧).

(٣) سورة هود: الآية: (٣٧).

(٤) سورة هود: الآيتان: (٣٨، ٣٩).

(٥) سورة هود: الآية: (٣٧).

فقال نوح عليه السلام: سفينة أنجو بها ومن معى من المؤمنين إذا جاء أمرُ الله.

فقالت فى سخرية شديدة: وأين الماء الذى تجرى عليه سفينتك؟

* ويشارك ملأ الكفار فى السخرية بنوحٍ كلما رأوه ينجزُ قسمًا من السفينة، كانوا يقولون له ساخرين متسافهين ضاحكين: يا نوح، صرت بعد النبوة نجارًا، إن هذا لشىء عُجاب!

ظل نوح عليه السلام يتابع عمله، ولا يعبأ بسخرية الساخرين، فلما أغرقوا فى سخريتهم ورميهم إياه بالجهل قال لهم مُذكرًا: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾[1][2].

قال: إن تسخروا منا لهذا العمل ومباشرة أسباب الخلاص من العذاب، فإنا نسخر منكم لما أنتم فيه من الإعراض.

إن تسخروا منا فى الدنيا، فإنا نسخر منكم فى الدنيا والآخرة، فى الدنيا عند الغرق، وفى الآخرة عند الحرق.

انتهى صنع السفينة، وجلس نوح عليه السلام، ينتظر أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، أوحى الله جل جلاله إلى نوح أنه إذا فار التنور فهذه علامة على بدء الطوفان، - التنور: الفرن الذى يُخبز فيه الخبز - ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾[3].

وجاء اليوم الرهيب، فار التنور، وأسرع نوح يفتح سفينته ويدعو المؤمنين به، وهبط جبريل عليه السلام إلى الأرض، وأمر الله نوحًا عليه السلام أن يأخذ معه فى السفينة ذكرًا وأنثى من كل كائن حى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ

(١) سورة هود: الآية: (٣٨).

(٢) نساء الأنبياء (ص: ٦٩، ٧٠) بتصرف.

(٣) سورة هود: الآية: (٤٠).

زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ ﴾[١].

فحمل نوح إلى السفينة من كل حيوان وطير ووحش زوجين اثنين، بقرةً وثورًا، فيلًا وفيلة، عصفورًا وعصفورة، نمرًا ونمرة، إلى آخر المخلوقات، لضمان بقاء نوع الحيوان والطير على الأرض، وبدأ صعود السفينة، فوضع نوح فى الدور الأسفل من السفينة الحيوانات والوحوش، واستقر هو والمؤمنون فى الدور الأوسط، أما الطيور فقد استقرت فى الدور الثالث، وكان عدد المؤمنين قليلًا.. قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾[٢].

لم تكن زوجة نوح مؤمنة بالله فلم تصعد معه إلى السفينة، وكان أحد أبنائه يُخفى كفره ويُبدى الإيمان أمام أبيه نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلم يصعد هو الآخر، وكانت أغلبية الناس غير مؤمنة هى الأخرى، فلم تصعد، وصعد المؤمنون... قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: آمن من قوم نوح ثمانون إنسانًا[٣].

فدعا ربه أنى مغلوب فانتصر

ويصور الله (عَزَّ وَجَلَّ) لنا هذا المشهد المهيب عندما قام نوح (عَلَيْهِ السَّلَامُ) يرفع أكُفَّ الضراعة إلى الله (عَزَّ وَجَلَّ).

* ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴾[٤].

وكأنه يقول لربه (عَزَّ وَجَلَّ) بلسان الحال: انتهت طاقتى... انتهى جهدى،

(١) سورة هود: الآية: (٤٠).
(٢) سورة هود: الآية: (٤٠).
(٣) ابن الإسلام (ص: ٥٦، ٥٧).
(٤) سورة القمر: الآية: (١٠).

انتهت قوتى، وغُلبت على أمرى ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ انتصر أنت يا ربى.
انتصر لدعوتك، انتصر لحقك انتصر لمنهجك انتصر أنت فالأمر أمرك،
والدعوة دعوتك، وقد انتهى دورى!

وما تكاد هذه الكلمة تُقال، وما يكاد الرسول يسلم الأمر للواحد القهار، حتى تشير اليد القادرة القاهرة إلى عجلة الكون الهائلة الساحقة .. فتدور دورتها المدوية المجلجلة: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾[1] .. والتقى الماء المنهمر بالماء المتفجر من الأرض .. ﴿عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾.. التقيا على أمر مقدر.

ارتفعت المياه من فتحات الأرض، انهمرت من السماء أمطار غزيرة بكميات لم تَر مثلها الأرض، فالتقت أمطار السماء بمياه الأرض، وصارت ترتفع ساعة بعد ساعة، فقدت البحار هدوءها، وانفجرت أمواجها تجور على اليابسة، وتكتسح الأرض، وغرقت الكرة الأرضية للمرة الأولى فى المياه.

وكتب الله النجاة للمؤمنين

* نجا المؤمنون جميعهم عندما صعدوا السفينة، ووقاهم الله شر ذلك الطوفان، وجعل لهم ودًّا، وغرق الكافرون الساخرون وأهلكهم الله ﷻ .. فإذا الصمت يخيم.. لا حس ولا حركة، ولا صوت للكافرين.

يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين

وأما نوح (عليه السلام) فإنه لما ركب السفينة وأدخل فيها المؤمنين وأهله – كما أمره الله – وإذا به يرى ابنه (يام) (ويقال له: كنعان) فى جهة خارج

---

(١) سورة القمر: الآيتان: (١١، ١٢).

السفينة فأخذ يناديه لعله يلحق بقافلة المؤمنين.

﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَـٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾[1].

﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ ﴾: أنهى الموج حوارهما فجأة، نظر نوح فلم يجد ابنه، لم يجد غير جبال الموت التى ترتفع وترفع معها السفينة، وتفقدها رؤية كل شيء غير المياه، وشاء الله أن يغرق الابن بعيدًا عن عين الأب، رحمة منه بالأب، واعتقد نوح أن ابنه مؤمن، وتصور ابنه أن الجبل سيعصمه من الماء، فغرق ولم يعلم أنه من الكافرين.

واستمر الطوفان، استمر يحمل سفينة نوح، وبعد ساعات من بدايته، كانت كل عين تطرف على الأرض قد هلكت غرقًا، لم يعد باقيًا من الحياة والأحياء غير هذا الجزء الخشبى من سفينة نوح، وهو ينطوى على الخلاصة المؤمنة من أهل الأرض، وأنواع الحيوانات والطيور التى اختيرت بعناية[2].

بُعدًا للقوم الظالمين

لقد استمر هذا الطوفان مدة من الزمان لا نعرفها ثم أمر الله (جل وعلا) السماء أن تكف عن المطر وأمر الأرض أن تستقر وتبتلع الماء ﴿ وَقِيلَ يَـٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ وَيَـٰسَمَآءُ أَقْلِعِى وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾[3].

(١) سورة هود: الآيتان: (٤٢، ٤٣).
(٢) ابن الإسلام (ص: ٥٨).
(٣) سورة هود: الآية: (٤٤).

ثم أوحى الحق (جل وعلا) إلى أخشاب سفينة نوح (عليه السلام) أن ترسو على جبل الجودى.

﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ أى: ابتلعته الأرض فى جوفها وغار من سطحها.

وقيل: إن نوحًا عليه السلام ومن معه ركبوا السفينة فى عاشر شهر رجب، فساروا فيها مائة وخمسين يومًا واستقرت بهم على الجودى شهرًا وكان خروجهم من السفينة فى يوم عاشوراء من المحرم[1].

﴿وَقِيلَ بُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ بُعدًا لهم من الحياة فقد ذهبوا .. وبعدًا لهم من رحمة الله فقد لعنهم الله .. وبُعدًا لهم من الذاكرة فقد انتهوا بعد ما طهر الطوفان الأرض منهم وغسلها.

* * *

(١) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٤٦، ٤٤٧).

عاقبة امرأة نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾[١].

كانت «واعلة» امرأة نوح ظالمة لنفسها ولزوجها نبى الله عليه السلام وقد رَدَّ الله عليها ظلمها بعدما عرض عليها نبيه الإيمان إلا أنها أبت الإيمان وأعرضت عنه ومالت كل الميل إلى الكفر وأخذت تَسخر من زوجها وتستهزئ به، وكانت تخبر الناس أنه مجنون، وذلك أنها قالت له: أما ينصرك ربك؟ فقال لها: نعم، قالت: فمتى؟ قال: إذا فار التَّنُّور. فخرجت تقول لقومها: يا قوم والله إنه لمجنون، يزعم أنه لا ينصره الله إلا أن يفور هذا التنور ... وهذه هى خيانتها، ولم تخنه فى نفسها؛ لأن الله كرَّم الأنبياء وأزواجهم وعصمهم من ذلك[٢].

فكان جزاء هذه المرأة الغرق فى الدنيا والحرق فى الآخرة فإن الله عز وجل أخبر أنها من أهل النَّار.

* * *

(١) سورة التحريم: الآية (١٠).

(٢) تفسير الطبرى.

هلاك قوم عاد

عندما نجَّى الله (جل وعلا) نوحًا (عليه السلام) ومن آمن معه من المؤمنين عاشوا زمانًا على التوحيد والإيمان ولم يكن بينهم كافر واحد.

لقد شاهدوا كيف نجاهم الله من الطوفان فازدادوا شكرًا لله وعاشوا على طاعته بل كانوا يُعلمون أولادهم الإيمان والتوحيد حتى ينشأوا فى طاعة الله (جل وعلا).

* ولكن بعد مرور السنوات الطويلة وموت الآباء والأجداد نسى الأحفاد وصايا الآباء والأجداد ونسوا وصايا نبى الله نوح (عليه السلام).

فكثرت المعاصى وازداد الأمر سوءًا فلقد عاد الناس مرة أخرى إلى الشرك وعبادة الأصنام بعد أن زيَّن لهم الشيطان فعل ذلك.

* فلقد قال أحفاد قوم نوح (عليه السلام): لا نريد أن ننسى آباءنا الذين نجاهم الله من الطوفان وتعالوا نصنع لهم تماثيل لنذكرهم بها.

* ولم يعبدوها فى بداية الأمر ولكن ظل الأمر يتطور يومًا بعد يوم حتى وقعوا فى عبادة الأصنام والتماثيل مرة أخرى وعاد الظلام والشرك إلى الأرض مرة أخرى.

* فأرسل الله (جل وعلا) إلى هؤلاء القوم نبيه هودًا (عليه السلام) ليأخذ بأيديهم إلى الإيمان والتوحيد مرة أخرى.

وكان هود (عليه السلام) من قبيلة يقال لها (عاد) وكانوا عُربًا يسكنون الأحقاف - وهى: جبال الرمل - وكانت باليمن بين عمان وحضرموت بأرض مُطلة على البحر وكانوا كثيرًا ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام.

كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴾[1]، وكانوا أول من عَبَدَ الأصنام بعد الطوفان، وقد أعطاهم الله بسطة فى الجسم.

قال تعالى: ﴿ فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ﴾[3]، فجعلهم أشد أهل زمانهم فى الخلقة والشدة والبطش.

قال تعالى: ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ۝ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴾[4]، أرسل الله إليهم نبيه هودًا، يدعوهم إلى عبادة الله وحده، فلما أبوْا إلا الكفر بالله ﷻ أهلكهم الله.

عنادٌ واستكبار

ومع كل ما بذله هود (عليه السلام) من أجل هداية قومه إلا أنهم استكبروا ورفضوا أن يدعوهم واحد منهم واتهموه بالسفاهة والكذب.

﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾[5].

هكذا جُزافًا بلا تدبُّر ولا دليل!

﴿ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾[6].

(١) سورة الفجر: الآيتان (٦، ٧).
(٢) سورة فصلت: الآية (١٥).
(٣) سورة الأعراف: الآية (٦٩).
(٤) سورة الشعراء: الآيتان (١٢٨، ١٢٩).
(٥) سورة الأعراف: الآية (٦٦).
(٦) سورة الأعراف: الآيتان (٦٧-٦٨).

وها هم يستعجلون العذاب

وظل هود (عليه السلام) يدعوهم إلى الله (عز وجل) بلا يأس ولا قنوط وظل ينصحهم ويحدوهم إلى التوبة مما هم فيه من الشرك والكفران ليدخلوا إلى جنة التوحيد والإيمان.

ولكن الفطرة حين تنحرف لا تتفكر ولا تتدبر ولا تتذكر .. وهكذا أخذت الملأ العزة بالإثم، واستعجلوا العذاب: ﴿ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[1].

- وهنا وصل هود (عليه السلام) مع هؤلاء العُتاة إلى طريقٍ مسدود فلقد حَقَّ عليهم العذاب وآن الأوان لكى يعرف الكون كله عاقبة هؤلاء الكافرين المكذبين.

وحان وقت الهلاك

وجاءت اللحظة الحاسمة لإهلاك أمة من الأمم التى عتت عن أمر ربها واستكبرت وأبت أن تقبل الحق الذى جاء به نبيها من عند الحق (جل وعلا).

* قام هود يدعو : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً ۚ فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[2].

* * *

---

(١) سورة الأعراف: الآية (٧٠).

(٢) سورة المؤمنون: الآيات (٣٩-٤١).

تفاصيل هلاكهم

لما رفض قوم عاد أن يتركوا عبادة الأصنام وأن يعبدوا الله (جل وعلا) بل وسخروا من نبى الله هود (عليه السلام) واستعجلوا نزول العذاب أمسك الله عنهم المطر ثلاث سنين وبدأ الجفاف ينتشر فى الأرض فلم تعد السماء تُمطر قطرة واحدة.

فأسرع قوم عاد إلى هود (عليه السلام) ليسألوه: ما هذا الجفاف؟! فأخبرهم أن الله قد غضب عليهم وسيُنزل عليهم العذاب إلا إذا تابوا وعادوا إلى الله وتركوا عبادة الأصنام ..

فسخروا من هود (عليه السلام) وازدادوا عنادًا وسخريةً وكفرًا.

* وكان الجفاف يزداد يومًا بعد يوم حتى اصفرت الأشجار الخضراء ومات الزرع وكاد الناس أن يهلكوا جميعًا.

* وكان الناس قد تعودوا أنهم إذا حدث عندهم قحط وجدب فإنهم يذهبون إلى الحرم - بمكة - فيطلبوا الفرج من الله (جل وعلا)- فأرسلت عادٌ وفدًا من سبعين رجلًا ليذهبوا إلى الحرم ويسألوا الله أن يرسل عليهم المطر حتى تعود الحياة مرة أخرى.

* وذهب الوفد إلى الحرم وكان العماليق مقيمين هناك وكان سيدهم اسمه معاوية بن بكر فنزلوا عنده شهرًا كاملًا يشربون الخمر ويستمعون الغناء من جاريتين عند معاوية بن بكر.. فلما طالت مدة إقامتهم عند معاوية أراد أن يخبر القوم بأنهم لابد أن يعودوا إلى قومهم حتى لا يموتوا من شدة الجدب.. فكتب أبياتًا من الشعر ليفهموا من خلالها أنهم لا بد أن يرجعوا إلى قومهم وجعل الجاريتين تغنيان بعض الأبيات الشعرية.

* فعند ذلك تذكر الوفد أنهم لا بد أن يذهبوا الآن إلى الحرم ليسألوا الله أن يرسل عليهم المطر.

فقام واحد منهم اسمه (قيل بن عنز) فدعا فجاءت ثلاث سحابات: سحابة بيضاء وأخرى حمراء والثالثة سوداء.

ثم ناداه منادٍ من السماء: اختر لنفسك ولقومك سحابة من هذا السحاب، فاختار السحابة السوداء ظنًّا منه أنها أكثر السحاب ماءً.

فناداه هذا المنادي وقال: لقد اخترت الدمار لقومك فلن يبقى منهم أحد أبدًا.

وسارت السحابة السوداء إلى قوم عاد فلما رأوها استبشروا أن يكون فيها الماء ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾[١]، فلم تترك شيئًا أمامها إلا دمرته.. وكانت أول من رأت هذا الدمار امرأة اسمها فهد فلما رأت هذا الدمار صاحت ثم صعقت فلما أفاقت قالوا لها: ماذا رأيت، قالت: رأيت ريحًا فيها شُهب النار.

فسخرها الله عليهم سبع ليالٍ وثمانية أيام متتابعات فلم تدع أحدًا من قوم عاد إلا أهلكته.

تغير الجو فجأة، من الجفاف الشديد والحر إلى البرد الشديد القارس، بدأت الرياح تهب، اهتز كل شيء، اهتزت وتزلزلت الأشجار والنباتات والرجال والنساء والخيام، واستمرت الريح، ليلة بعد ليلة، ويومًا بعد يوم،

---

(١) سورة الأحقاف: الآيتان: (٢٤، ٢٥).

كل ساعة كانت برودتها تزداد، وبدأ قوم هود يفرون، أسرعوا إلى الخيام واختبؤوا داخلها، اشتد هبوب الرياح واقتلعت الخيام واختبؤوا تحت الأغطية، فاشتد هبوب الرياح وتطايرت الأغطية، كانت الرياح تمزق الملابس وتمزق الجلد وتنفذ من فتحات الجسم وتدمره، لا تكاد الريح تمس شيئًا إلا قتلته ودمرته، وجعلته كالرميم.

استمرت الرياح مُسلطة عليهم سبع ليال وثمانية أيام لم تر الدنيا مثلها قط، ثم توقفت الريح بإذن ربها.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾[١].

وقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٨) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾[٢].

لم يعد باقيًا من قوم هود إلا ما يبقى من النخل الميت، مجرد غلاف خارجي لا تكاد تضع يدك عليه حتى يتطاير ذرات في الهواء[٣].

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ (٦) سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ (٧) فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴾[٤].

* * *

(١) سورة الأحقاف: الآيتان: (٢٤ ، ٢٥).

(٢) سورة القمر: الآيات: (١٨ - ٢٠).

(٣) ابن الإسلام (ص: ٦٩، ٧٠).

(٤) سورة الحاقة: الآيات: (٦- ٨).

نجاة هود (عليه السلام) والمؤمنين

قال تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾[١].

لما جاء أمرنا بتحقيق الوعيد، وإهلاك قوم هود، نجينا هودًا والذين آمنوا معه برحمة مباشرة منا، خلصتهم من العذاب العام النازل بالقوم، واستثنتهم من أن يصيبهم بسوء. وكانت نجاتهم من عذاب غليظ حلَّ بالمكذبين.

﴿ وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (٥٩) وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِّعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾[٢]

* وهكذا تكون العاقبة الطيبة دومًا للمؤمنين ... ويكون الدمار والهلاك للمجرمين والكافرين الذين يكفرون برب العالمين (جل وعلا).

* * *

(١) سورة هود: الآية: (٥٨).

(٢) سورة هود: الآيتان: (٥٩، ٦٠).

هلاك قوم ثمود

* لقد أهلك الله (ﷻ) قوم عاد لما كفروا بربهم ثم جاءت أمة أخرى من بعد (عاد) - وهم قوم ثمود - ولكنهم ما جاءوا ليعتبروا بهلاك الأمم من قبلهم فيؤمنوا بالله (ﷻ) وإنما جاءوا ليستكملوا مسيرة الكفر والشرك التى بدأها قوم نوح (عليه السلام) ووقع فيها قوم عاد فأهلكهم الله بذنوبهم ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾[١].

* وقوم ثمود هم قوم نبى الله صالح (عليه السلام).

* وكانوا يسكنون فى منطقة تُسمَّى (الحِجْر) فى شمال الجزيرة العربية بين الحجاز وتبوك.

* وكان قوم ثمود قد أنعم الله عليهم بالخيرات والنعم الكثيرة فكانوا يعيشون فى مكان يظلله النخيل والأشجار وتنتشر فيه الكثير من العيون والمياه العذبة فكانوا فى سعادة ونعيم حتى أنهم كانوا يقيمون القصور الفخمة فى السهول.. ولم يكتفوا بذلك بل نحتوا البيوت الفارهة فى الجبال.

وكانوا يستطيعون أن يعيشوا فى سعادة غامرة ونعيم لا يزول لولا أنهم كفروا بنعمة الله (جل وعلا) وضلوا الطريق وعبدوا الأصنام من دون الله (جل وعلا).

نبى الله صالح (عليه السلام) يدعوهم إلى التوحيد

بعث الله إليهم صالحًا من أشرفهم نسبًا، وأوسعهم حلمًا، وأصفاهم عقلًا، فدعاهم إلى عبادة الله، وحضَّهم على توحيده،... فهو الذى خلقهم

(١) سورة الكهف: الآية: (٤٩).

من تراب؛ وعمَّر بهم الأرض، واستخلفهم فيها، وأسبغ عليهم نعمه[١]، ظاهرةً وباطنةً، ثم نهاهم أن يعبدوا الأصنام فهى لا تملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا تغنى عنهم من الله شيئًا[٢].

* وبدأ يُذكرهم بأن هذا النعيم لا يدوم لأحدٍ فإن الدنيا قنطرة يعبر عليها العبد إلى آخرته ولذلك قال لهم صالح (عليه السلام): ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ (١٤٦) فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ (١٤٧) وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ (١٤٨) وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ (١٤٩) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٥٠) وَلَا تُطِيعُوٓا۟ أَمْرَ ٱلْمُسْرِفِينَ (١٥١) ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾[٣].

فلما قام صالح (عليه السلام) وذكَّرهم بنعم الله (عز وجل) عليهم وأمرهم أن يتوجهوا بالعبادة لفاطر السماوات والأرض كانت النتيجة أنهم تعجبوا أن يأتيهم رجل فيطلب منهم أن يتركوا دين الآباء والأجداد.

﴿ قَالُوا۟ يَٰصَٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾[٤].

صالح (عليه السلام) يستمر فى دعوتهم

واستمر نبى الله صالح (عليه السلام) فى دعوة قوم ثمود ولم ييأس من هدايتهم.. وبالفعل آمن معه عدد قليل من الضعفاء ولكن أكثر الناس أصروا على كفرهم بالله (جل وعلا) ولم يكتفوا بذلك بل اتهموا نبى الله

---

(١) أسبغ عليهم نعمه: أتمَّها، وأكملها.

(٢) قصص القرآن / مجموعة من العلماء (ص: ٥٦، ٥٧) بتصرف.

(٣) سورة الشعراء: الآيات: (١٤٦ - ١٥٢).

(٤) سورة هود: الآية: (٦٢).

صالحًا (عليه السلام) بالسحر والجنون ومع ذلك لم يلتفت لتلك الاتهامات بل استمر فى دعوته رجاء أن يهديهم الله على يديه.

وها هم يطلبون الآيات

فلما وجدوا أنفسهم لا يملكون أى حُجة أمام الحُجج الساطعة والكلمات الناصعة التى تخرج من فم صالح (عليه السلام) والتى تدعوهم إلى توحيد البارى (جل وعلا) .. وإذا بهم يطلبون منه الآيات ظنًّا منهم أنه سيعجز عن أن يأتيهم بآية من عند ربه (عز وجل).

وقد ذكر المفسرون: أن ثمودًا اجتمعوا يومًا فى ناديهم[١] فجاءهم رسول الله صالح فدعاهم إلى الله، وذكَّرهم وحذرهم ووعظهم وأمرهم، فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ناقةً، من صفتها كيت وكيت.

وذكروا أوصافًا سموها ووصفوها وأن تكون عُشراء طويلة[٢]، ومن صفتها كذا وكذا، فقال لهم النبى صالح عليه السلام: أرأيتم إن أجبتكم إلى ما سألتم على الوجه الذى طلبتم، أتؤمنون بما جئتكم به وتصدقونى فيما أُرسلت به؟ قالوا: نعم، فأخذ عهدهم ومواثيقهم على ذلك.

ثم قام إلى مُصلاه فصلى لله عز وجل ما قُدِّر له، ثم دعا ربه عز وجل أن يجيبهم إلى ما طلبوا. فأمر الله عز وجل تلك الصخرة أن تنفطر عن ناقة عظيمة عُشراء، على الوجه المطلوب الذى طلبوا، أو على الصفة التى نعتوا.

فلما عاينوها كذلك رأوا أمرًا عظيمًا ومنظرًا هائلًا، وقدرة باهرة ودليلًا

---

(١) ناديهم: مكان اجتماعهم وسُمى بذلك لنداء الناس فيه على بعض... انظر لسان العرب جـ ٦/ ٤٣٨٩ «ندى» دار المعارف.

(٢) يعنى: حامل فى الشهر العاشر وعلى وشك الولادة.

قاطعًا وبرهانًا ساطعًا، فآمن كثير منهم، واستمر أكثرهم على كفرهم وضلالهم وعنادهم(١).

ناقة مباركة

وظلت هذه الناقة تعيش بينهم زمانًا فى أمانٍ وذلك لأن صالحًا (عليه السلام) حذرهم من أن يمسوها بسوء فيحل عليهم عذاب الله وسخطه.

وأخبرهم بأن هذه الناقة ستشرب من الماء يومًا وهم يشربون يومًا .. ففى اليوم الذى يشربون فيه تمتنع الناقة عن الماء وفى اليوم الذى تشرب فيه الناقة يمتنعون عن الماء ويحلبون لبن الناقة الذى كان يكفيهم أجمعين.

قال صالح (عليه السلام): ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٞ لَّهَا شِرۡبٞ وَلَكُمۡ شِرۡبُ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٖ فَيَأۡخُذَكُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾(٢)

وعقروا الناقة

فلما طال عليهم هذا الحال اجتمع علماؤهم، واتفق رأيهم على أن يعقروا هذه الناقة، ليستريحوا منها ويتوافر عليهم ماؤهم، وزين لهم الشيطان أعمالهم ..

قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾(٣).

وكان الذى تولى قتلها منهم رئيسهم: قَدَّار بن سالف.

---

(١) تفسير الطبرى (٨/ ١٥٨، ١٥٩).

(٢) سورة الشعراء: الآيتان: (١٥٥، ١٥٦).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٧٧).

*** وما هى قصة قتل الناقة:**

كان صُنيم بن هراوة قد تزوج بامرأة غنية اسمها صَدوق، فلما آمن كان يستخدم ماله فى الإنفاق على نبى الله صالح والمؤمنين، فعاتبته صدوق لأنها كانت كافرة.

ثم أخذت أولادها فخبأتهم عند أبناء عمها، فقال صنيم: رُدى علىَّ أولادى. فرفضت، فتحاكما إلى أبناء عمه وكانوا مؤمنين فردوا عليه أولاده.

فازدادت صدوق كراهية لصالح عليه السلام الذى أنفق زوجها المال عليه، وآمن به، وفرق بينها وبين أولادها.

وكان لها صديقة اسمها عُنيزة بنت غُنيم، وكانت كافرة هى الأخرى وكان لها غنمٌ تخرج لترعى، فإذا رأت الغنم ناقة صالح هربت من أمامها، ولا تجد الأغنام ماءً تشربه، فاغتاظت عُنيزة.

وجمع بينها وبين صدوق كراهية صالح والمؤمنين معه واتفقتا على قتل الناقة.

وكُلما عرضتا المال على رجل ليقتل الناقة يرفُض لأنه رأى أن فى هذا عمل فظيع فهى ليست ناقة عادية، وإنما هى آيةٌ من عند الله.

ولكن رجلًا واحدًا هو مُصرعُ بن مهرج كان يحب صدوقًا ويريدها لنفسه، فوافق على قتل هذه الناقة، ثم خرج يبحث له عن أعوان لارتكاب هذه الجريمة الفظيعة، فوافقه صديقه قدار بن سالف وكان عزيزًا فى قومه.

ثم انطلقا حتى صار عدد عصابتهم تسعة رجال يُفسدون فى الأرض ولا يُصلحون، وتزعَّمهم قدار بن سالف أشقى القوم(١).

---

(١) قصص الأنبياء للأطفال/ أ. حامد أحمد (ص: ١٣٩ - ١٤٢) باختصار.

* انطلق هؤلاء الرجال التسعة الأشرار فى تلك المهمة التى ستجلب عليهم غضب الله وسخطه وعذابه .. ذهبوا ليقتلوا الناقة.

بحثوا عنها حتى وجدوها قادمة من البئر فقام أحدهم وهو قدار بن سالف فرماها بسهم فأصاب ساقها فخرت ساقطة على الأرض وأصدرت صوتًا لولدها لتحذره ليهرب من هؤلاء المجرمين .. ثم قام الرجل وطعنها ثم ذبحها وسالت دماء الناقة على الأرض فلما رآها ولدها هرب إلى أعلى الجبل.

وحان وقت الهلاك

ولما علم نبى الله صالح (عليه السلام) بما حدث خرج غاضبًا على قومه وقال لهم: ألم أحذركم من أن تمسوا الناقة بسوء؟ فانتظروا العذاب الذى سيأتيكم من عند الله (جل وعلا).

كيف نزل العذاب على الكافرين

* لقد وعدهم صالح (عليه السلام) أن ينزل بهم العذاب بعد ثلاثة أيام.. وكانوا قد قتلوا الناقة يوم الأربعاء وأصبحت ثمود يوم الخميس - وهو اليوم الأول من أيام المُهلة - ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام وأصبحوا فى اليوم الثانى من أيام التأجيل - وهو يوم الجمعة - ووجوههم محمرة، وأصبحوا فى اليوم الثالث من أيام المتاع - وهو يوم السبت - ووجوههم مسودة. فلما أصبحوا من يوم الأحد وقد تحنطوا وقعدوا ينتظرون نقمة الله وعذابه، عياذًا بالله من ذلك، لا يدرون ماذا يفعل بهم، ولا كيف يأتيهم العذاب،... وأشرقت الشمس.

فجاءتهم صيحة من السماء ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت الأنفس في ساعة واحدة ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾[١] صرعى لا أرواح فيهم، ولم يفلت منهم أحد، لا صغير ولا كبير، ولا ذكر ولا أنثى إلا جارية كانت مُقعدة - واسمها: كلبة ابنة السَّلق. ويقال لها: الزريقة. وكانت كافرةً شديدة العداوة لصالح - عليه السلام - فلما رأت ما رأت من العذاب أُطلقت رجلاها، فقامت تسعى كأسرع شيء، فأتت حيًّا من الأحياء، فأخبرتهم بما رأت وما حلَّ بقومها، ثم طلبت منهم شربة ماء فلما شربت ماتت[٢].

* أما الذين آمنوا بسيدنا صالح، فكانوا قد غادروا المكان مع نبيهم ونجوا،... قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآۗ أَلَآ إِنَّ ثَمُودَاْ كَفَرُواْ رَبَّهُمْۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾[٣].

* * *

(١) سورة الأعراف: الآية: (٧٨).
(٢) قصص الأنبياء (ص: ١٥٤).
(٣) سورة هود: الآيات: (٦٦ - ٦٨).

قوم إبراهيم عليه السلام

* قال تعالى: ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[١] هذه بداية قصة إبراهيم أى: اقصص عليهم يا محمد خبر (إبراهيم) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴾[٢] أى: حين قال لأبيه وعشيرته أى شىء تعبدون؟ سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبين لهم سفاهة عقولهم فى عبادة ما لا ينفع، ويقيم عليهم الحجة ﴿ قَالُوا۟ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴾[٣] أى: نعبد أصنامًا فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار، ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾[٤] أى: قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ: هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء: ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾[٥] أى: وهل يبذلون لكم منفعة، أو يدفعون عنكم مضرة؟ ﴿ قَالُوا۟ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾[٦] أى: وجدنا آباءنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم.

﴿ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾[٧] أى: قال إبراهيم: أفرأيتم هذه الأصنام التى عبدتموها من دون الله أنتم وآباؤكم الأولون؟ ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٨] أى: فإن هذه الأصنام أعداء لى لا أعبدهم، ولكن أعبد الله رب العالمين فهو وليى فى الدنيا والآخرة.

(١) سورة الشعراء: الآية: (٦٩).
(٢) سورة الشعراء: الآية: (٧٠).
(٣) سورة الشعراء: الآية: (٧١).
(٤) سورة الشعراء: الآية: (٧٢).
(٥) سورة الشعراء: الآية: (٧٣).
(٦) سورة الشعراء: الآية: (٧٤).
(٧) سورة الشعراء: الآيتان: (٧٥، ٧٦).
(٨) سورة الشعراء: الآية: (٧٧).

وها هو (عليه السلام) يحطم أصنامهم

كان من عادة هؤلاء القوم أن يقيموا احتفالًا سنويًا ضخمًا بمناسبة أحد أعيادهم .. يقضون أيامه خارج المدينة.

وكان كل أهل المدينة يخرجون إليه بعد أن يضعوا طعامًا كثيرًا فى المعبد الذى فيه الأصنام التى يعبدونها حتى إذا رجعوا أكلوا هذا الطعام فقد باركته الآلهة - كما زعموا - !!!

ولما أرادوا الذهاب إلى عيدهم طلبوا من سيدنا إبراهيم (عليه السلام) أن يذهب معهم ليشاركهم فى هذا العيد فرفض أن يذهب معهم وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾[1] أى: مريض.. حتى لا يذهب معهم.

وذهب أهل المدينة لهذا الاحتفال وأصبحت المدينة خالية، واستقر هو فى بلدهم ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمۡ﴾[2] أى: ذهب إليها مسرعًا مستخفيًا، فوجدها فى مكان كبير، وقد وضعوا بين أيديهم أنواعًا من الأطعمة قربانًا إليها. فقال لها على سبيل التهكم والازدراء: ﴿أَلَا تَأۡكُلُونَ ۝٩١ مَا لَكُمۡ لَا تَنطِقُونَ ۝٩٢ فَرَاغَ عَلَيۡهِمۡ ضَرۡبَۢا بِٱلۡيَمِينِ﴾[3] لأنها أقوى وأبطش وأسرع وأقهر، فكسرها بقدوم فى يده كما قال تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمۡ جُذَٰذًا﴾[4] أى: حطامًا، كسرها كلها ﴿إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمۡ لَعَلَّهُمۡ إِلَيۡهِ يَرۡجِعُونَ﴾[5] قيل: إنه وضع القدوم فى يد الكبير، إشارة إلى أنه غار أن تُعبد معه هذه الصغار[6].

---

(١) سورة الصافات: الآية: (٨٩).

(٢) سورة الصافات: الآية: (٩١).

(٣) سورة الصافات: الآيات: (٩١-٩٣).

(٤) سورة الأنبياء: الآية: (٥٨).

(٥) سورة الأنبياء: الآية: (٥٨).

(٦) قصص الأنبياء / للحافظ ابن كثير (ص: ١٦٩).

* لقد كان هذا الصنم هو أكبر أصنامهم حجمًا وأعظمهم قدرًا عند هؤلاء المشركين .. فوضع إبراهيم (عليه السلام) القَدوم فى يده ثم انصرف وهو يتمنى أن يرى أهل المدينة هذا المشهد ليعلموا يقينًا أن هذه الأصنام لا تنفع ولا تضر بل ولا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها.

عادوا فرأوا المفاجأة

وبعد يوم طويل من الاحتفال بيوم عيدهم .. عاد هؤلاء القوم وأسرعوا إلى المعبد ليأكلوا الطعام الذى باركته الآلهة - كما زعموا - وإذا بهم يرون المفاجأة التى لم تخطر على بالهم.

لقد وجدوا الأصنام مُحطمة قطعًا صغيرة ومع ذلك لم يفهموا أن هذه الأصنام لا تستطيع حتى أن تدافع عن نفسها فكيف تصلح أن تكون آلهة!!

* قاموا فقالوا وهم فى شدة الغضب: ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1].

ثم تذكروا أن إبراهيم (عليه السلام) هو الذى توعَّد أصنامهم فقالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾[2] أى: سمعناه يتكلم عن هذه الأصنام ويعيبها ويتوعدها.

* وفى التو واللحظة صدر الأمر بإحضار إبراهيم (عليه السلام) فقالوا للجنود: ﴿فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾[3].

* وأحضر الجنود سيدنا إبراهيم (عليه السلام) إلى المعبد وقالوا له فى غضب

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٥٩).

(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٦٠).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٦١).

وانفعال: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾[١].

* فأشار إبراهيم (عليه السلام) إلى الصنم الكبير الذى تركه ولم يحطمه بل وضع عليه الفأس .. وقال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾[٢]، وهنا أخذوا يفكرون: لقد تحطمت الآلهة ومع ذلك لم يستطع كبيرهم هذا أن يدافع عنهم ولا حتى عن نفسه .. إذًا فهى حجارة لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ولا تبصر .. فكيف يعبدونها؟ .. لقد ظلموا أنفسهم بعبادة هذه الأصنام ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[٣] لقد اعترفوا فيما بينهم لما ألقى إبراهيم (عليه السلام) عليهم الحجة والبرهان ولكنهم سرعان ما ارتدوا إلى الضلال مرة أخرى واستكبروا أن يكون إبراهيم صادقًا فيما يقول ويرى الناس أنهم قد أخطأوا فعادوا مرة أخرى يتكلمون بكل إصرار وعناد وقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾[٤] أى: لقد علمت يا إبراهيم أن هذه لا تنطق، فكيف تأمرنا بسؤالها؟!

فعند ذلك قال لهم الخليل عليه السلام: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[٥][٦].

واختاروا له أفظع قتلة، وهى: الإحراق فى النار، وليس فى أى نار، بل

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦٢).
(٢) سورة الأنبياء: الآية: (٦٣).
(٣) سورة الأنبياء: الآية: (٦٤).
(٤) سورة الأنبياء: الآية: (٦٥).
(٥) سورة الأنبياء: الآيتان: (٦٦، ٦٧).
(٦) قصص الأنبياء/ للحافظ ابن كثير (ص: ١٧٠).

بنوا بنيانًا شاهقًا، ووضعوا فيه كميات كبيرة من الحطب شارك القوم كلهم في جمعها.

قال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾[١] [٢].

* لقد انتشر هذا الخبر في المملكة كلها وجاء الناس من المدن والقرى والجبال ليشاهدوا مشهد إلقاء خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) في النار.

* وبدأ القوم في جمع الحطب من جميع ما يمكنهم من الأماكن فمكثوا مدة يجمعون له، حتى إن المرأة منهم كانت إذا مرضت تنذر لئن عوفيت لتحملن حطبًا لحريق إبراهيم، ثم حفروا حفرة عظيمة فوضعوا فيها ذلك الحطب وأطلقوا فيه النار، فاضطرمت وتأججت والتهبت وعلا لها شرر لم يُر مثله قط.

ثم وضعوا إبراهيم عليه السلام في كفة منجنيق[٣] صنعه لهم رجل من الأكراد يقال له «هيزن» وكان أول من صنع المجانيق، فخسف الله به الأرض فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة[٤] .. وهكذا كان جزاؤه من جنس عمله: أراد وضع إبراهيم عليه السلام في المنجنيق، ليرفعه إلى أعلى ويهوى به إلى أسفل فخُسف به إلى أسفل جزاءً وفاقًا.

* لقد وضعوا إبراهيم (عليه السلام) في المنجنيق بعد أن قيدوا يديه ورجليه واشتعلت النار في الحفرة وتصاعد اللهب إلى السماء .. وكان الناس في هذه اللحظة يقفون بعيدًا عن تلك الحفرة لشدة اللهب الذي يخرج منها.

---

(١) سورة الصافات: الآية: (٩٧).

(٢) فتح الباري (٧/ ٢٠٦).

(٣) منجنيق: آلة تُرمى بها الحجارة في الحرب.

(٤) قصص الأنبياء (ص: ١٧١).

* وهنا أصدر كبير الكهنة أمره بإطلاق إبراهيم فى النار، فجاء جبريل (عليه السلام) ووقف عند رأس إبراهيم (عليه السلام) وقال له: يا إبراهيم ألك حاجة؟

فقال إبراهيم (عليه السلام): أما إليك فلا.. وأما إلى ربى فحسبى الله ونعم الوكيل.

قلنا يا نار كونى بردًا وسلامًا على إبراهيم

وانطلق المنجنيق ليلقى إبراهيم (عليه السلام) فى حفرة النار.

ووقع إبراهيم (عليه السلام) فى النار .. وفى تلك اللحظة كان خازن المطر يقول: متى يأمرنى الله بأن أرسل المطر ليطفئ تلك النار فكان أمر الله أسرع ﴿ قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾[1].

جزاء الوزغ

حتى الوزغ كان جزاؤه من جنس عمله؛ إذ كان مشاركًا لهم.

عن أم شريك أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الوزغ[2]، وقال: «وكان ينفخ على إبراهيم»[3] ووقع فى حديث عائشة: أن إبراهيم لما أُلقى فى النار لم يكن فى الأرض دابة إلا أطفأت عنه، إلا الوزغ، فإنها كانت تنفخ عليه، فأمر النبى ﷺ بقتلها[4].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٦٩).

(٢) سام أبرص.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٣٣٥٩) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (٢٢٣٧) كتاب السلام.

(٤) صحيح: رواه ابن ماجه وأحمد، وصححه الألباني في الصحيحة (١٥٨١).

هلاك النمرود بن كنعان

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[١].

لقد كان هناك ملك يحكم أرض بابل بالعراق اسمه النمرود بن كنعان وكان فى قمة الظلم والطغيان حتى أنه كان يدَّعى أنه إله هذا الكون.

ولما سمع عن إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وأنه يدعو إلى عبادة الله (جل وعلا) خاف النمرود على مُلكه وأراد أن يعقد مناظرة مع إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ليثبت له أنه هو إله هذا الكون.

ووقف إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) ليناظره .. وقف إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وكله يقين وثقة فى الله (جل وعلا) أنه سينصره على هذا الكافر الذى يدعى أنه إلـٰه هذا الكون.

قال النمرود: يا إبراهيم أنا إله هذا الكون فهل يستطيع إلهك أن يفعل شيئًا لا أستطيع القيام به.

قال إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾.

فنظر إليه النمرود بكل كبر وغطرسة وقال له: ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾ فأصدر النمرود أوامره وجيء برجلين قد حُكم عليهما بالإعدام فأمر بإعدام أحدهما وعفا عن الثانى وقال: ها أنا قد أحييت هذا الرجل الذى كان سيموت!!

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٥٨).

- لم يعلم النمرود ما يقصده إبراهيم (عليه السلام).

فلما رأى إبراهيم (عليه السلام) غباء النمرود وتحايله قال له كلمة أذهلته فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ فبهت الذى كفر وأحس بالضعف والعجز والمهانة.

* لقد أحس النمرود لأول مرة بعجزه وضعفه .. وبذلك انتصر خليل الرحمن إبراهيم (عليه السلام) لأن الحق معه .. والله يؤيده وينصره.

* وفى رواية: قال زيد بن أسلم: أول جبار كان فى الأرض نمرود، فكان الناس يخرجون فيمتارون من عنده الطعام، فخرج إبراهيم يمتار مع من يمتار، فإذا مَرَّ به ناس قال النمرود: مَن ربكم؟ قالوا: أنت حتى مَرَّ إبراهيم، فقال له: من ربك؟ قال: ﴿ٱلَّذِي يُحْيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ﴾ قال: فردَّه بغير طعام، قال: فرجع إبراهيم على أهله فمرَّ على كثيب من رمل أعفر، فقال: ألا آخذ من هذا فآتى به أهلى فتطيب أنفسهم حين أدخل عليهم؟ فأخذ منه فأتى أهله، قال: فوضع متاعه ثم نام، فقامت امرأته إلى متاعه، ففتحته، فإذا هى بأجود طعام رأته، فصنعت له منه، فقربته إليه، وكان عهده بأهله أنه ليس عندهم طعام، فقال: من أين هذا؟ قالت: من الطعام الذى جئت به،... فعلم أن الله رزقه، فحمد الله[1].

* * *

(١) تفسير الطبرى (٣/ ١٨).

وهكذا كان هلاك النمرود

وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار، ملكًا يأمره بالإيمان بالله، فأبى عليه، ثم دعاه الثانية، فأبى عليه، ثم دعاه الثالثة فأبى، وقال: اجمع جموعك، وأجمع جموعى.

فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس، فأرسل الله عليه ذبابًا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس، وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم، وتركتهم عظامًا بادية، ودخلت واحدة منها فى منخر الملك فمكثت فى منخره أربعمائة سنة عذَّبه الله تعالى بها. فكان يضرب رأسه بالمرازب فى هذه المدة كلها، حتى أهلكه الله عز وجل بها[1].

* * *

(١) قصص الأنبياء/ للحافظ ابن كثير: (ص: ١٧٧، ١٧٨).

درسٌ عظيم من سارة لجبار من الجبابرة

لقد استمر إبراهيم (عليه السلام) فى دعوته المباركة.. فلما وجد قلوب القوم مغلقة لا تستقبل الخير ولا تريد أن تُقبل على الله (جل وعلا) قرر إبراهيم (عليه السلام) الهجرة إلى أرض مصر لعله يجد قلوبًا تستجيب لدعوته وترجع إلى الخالق (جل وعلا).

خرج إبراهيم (عليه السلام) ومعه زوجته سارة وكانت من أجمل نساء الأرض فلما وصلا إلى مصر وصلت الأخبار إلى ملك مصر أن رجلًا وصل إلى مصر ومعه امرأة هى أجمل نساء أهل الأرض فطمع الملك أن يفوز بها لنفسه وكان هذا الملك الظالم قد وضع قانونًا لنفسه وهو أنه يجوز له أن يأخذ المرأة من زوجها ويقتل زوجها ولكن لا يجوز له أن يأخذ المرأة من أخيها أو أبيها.

فجاء الوحى إلى إبراهيم (عليه السلام) يخبره بذلك.. فقال لسارة: إن سألك الملك فقولى له أنك أختى فما على هذه الأرض مؤمن غيرى وغيرك.

وأرسل الملك جنوده ليأتوا إليه بسارة وأمرهم أن يسألوا إبراهيم (عليه السلام) عنها فإن كان زوجها فاقتلوه.. فلما سألوا إبراهيم فقال لهم: إنها أختى... وكان يقصد بذلك أنها أخته فى الإسلام لأنه لم يكن هناك أزواج على الإسلام فى الأرض كلها إلا إبراهيم وسارة.

قال لرسول ذلك الملك إنها أخته عندما سأله عنها، لينجو من بطشه، وقد أرسل إبراهيم بزوجته إلى ذلك الطاغية كما طلب منه، ثقة منه برعاية الله وحفظه، بعد أن أوصاها أن لا تخبر الملك بصلتها الحقيقية به، وقد بيَّن لها إبراهيم وجهة نظره فى ذلك، فهى أخته فى الإسلام إذ لم يكن على وجه

الأرض مؤمن غيرهما.

أرسل إبراهيم بزوجته إلى الطاغية، وفزع إلى الصلاة، يدعو ربه، ويلتجئ إليه، وقد حفظ الله خليله فى زوجه سارة، كما حفظ سارة فى نفسها.

لما عرفت السيدة سارة أن ملك مصر فاجر ويريدها له أخذت تدعو الله قائلة: اللهم إن كنت تعلم أنى آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط علىَّ الكافر.

* فلما أدخلها الجنود عليه وانصرفوا قام هذا الملك الظالم يريد أن يلمسها فأُصيبت يده بالشلل وتجمدت فى مكانها فأخذ يصرخ وسمع الجنود صوت صُراخه وجاءوا لينقذوه لكنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا أى شىء.

هنا خافت سارة من الجنود أن يقتلوها بسبب ما فعلته بالملك فقالت: يا رب أَذهب عنه الشلل حتى لا يقتلونى بسببه .. فاستجاب الله لدعائها.

لكن مع ذلك لم يتبِ هذا الملك الظالم ويعتبر بما حدث له فقام وهجم عليها مرة أخرى فأُصيبت يده بالشلل .. فقال لها الملك: فُكينى ولن أقترب منك .. فدعت له ففكَّه الله (جل وعلا).

ولكن الملك عاد للمرة الثالثة فأُصيبت يده بالشلل فقال لها الملك: فُكينى وسوف أُطلق سراحك وأكرمك. فدعت الله (ﷻ) ففكه.

فصرخ الملك فى جنوده وأعوانه وقال لهم: أبعدوها عنى فإنكم لم تأتونى بإنسان بل أتيتمونى بشيطان.

فأطلقها وأعطاها أَمة اسمها هاجر .. فعادت سارة إلى زوجها إبراهيم (عليه السلام) سالمة غانمة.

قوم لوط عليه السلام

* كان لوط عليه السلام معاصرًا لإبراهيم عليه السلام وهو ابن أخيه وكان إبراهيم عليه السلام يحب لوطًا حبًّا شديدًا.

* آمن لوط بعمه إبراهيم عليه السلام واهتدى بهديه وسار على دربه، كما ذكر الله تعالى فى القرآن: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾(١).

خرج لوط عليه السلام من أرض بابل فى العراق مع عمه إبراهيم تابعًا له على دينه مهاجرًا معه إلى الشام.. ثم مضوا إلى مصر .. ثم عادوا إلى الشام، فنزل إبراهيم فلسطين، ونزل لوط الأردن.

واستقر لوط (عليه السلام) بمدينة (سدوم)، وقد كان أهلُها ذوى أخلاق فاسدة، ونوايا سيئة، لا يتعففون عن معصية، ولا يتناهون عن منكر فعلوه، وكانوا من أفجر الناس، وأقبحهم سيرة، وأخبثهم سريرة: يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، ويتربصون لكل سارٍ، فيجتمعون عليه من كل حدب وصوب، ويسلبونه ما حمل، ثم يتركونه يندب حظه، ويبكى ضياع ماله، لا يردهم عن ذلك دين، ولا يصدهم حياء، ولا يستمعون لنصيحة من عاقل.

إنهم أناس يتطهرون!!

لقد دعاهم لوط عليه السلام إلى عبادة الله، ونهاهم عن تعاطى الفواحش، وإتيان الذكور وقطع السبيل.. ولكن المفاجأة كانت كبيرة .. لم يستجيبوا لدعوة الحق، ولم يؤمنوا بدعوة لوط، بل لم يؤمن منهم رجل واحد .. ولم يتركوا ما نُهوا عنه .. بل استمروا على حالهم، وغرقوا فى غيّهم وضلالهم .. وأصروا وامتنعوا عن قبول أى كلام .. وتابعوا المسير فى طريق المعاصى .. وأعرضوا عن لوطٍ وعن دعوته.

(١) سورة العنكبوت: الآية: (٢٦).

وقف سيدنا لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ بين قومه يدعوهم إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال لهم فى رحمة ورفق: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾[1].

ونهاهم لوط (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عن الفواحش والمنكر، وبيَّن لهم أن الإنسان العاقل المبصر لا يرتكب الفاحشة، ولا يأتى المنكر أبدًا،.... قال لهم مستنكرًا: ﴿أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ النِّسَاءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾[2].

فتنادوا: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾[3].

وكان القوم يرتكبون الفواحش علانية فى ناديهم، لم يحاولوا أن يستتروا أو يداروا المنكر.

وجاهد لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ كثيرًا، لينقذ قومه ويهديهم إلى الحق، ولكن لم يؤمن به سوى أهله فقط، وللأسف لم تؤمن به زوجته، رغم ذلك لم ييأس سيدنا لوط (عَلَيْهِ السَّلَامُ)، كان يدعو قومه دون ملل سنوات طويلة.

* قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾[4].

رب انصرنى على القوم المفسدين

سأل لُوط ربه أن ينصره على هؤلاء القوم المفسدين ويُوقع بهم العذاب الأليم، وطلب منه أن يجزيهم على كفرهم وعنادهم، ويعاقبهم على بغيهم وفجورهم.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٦١- ١٦٣).

(٢) سورة النمل: الآيتان: (٥٤، ٥٥).

(٣) سورة النمل: الآية: (٥٦).

(٤) سورة العنكبوت: الآية: (٢٩).

استجاب الله دعاءه، وحقق سؤاله، وبعث ملائكته إلى أهل هذه القرية الظالم أهلها، ليُنزلوا بهم ما يستحقون من عقاب.

قال المفسرون: لما خرج الملائكة من عند إبراهيم - وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل - أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم، فى صور شبانٍ حِسان، اختبارًا من الله تعالى لقوم لوط وإقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطًا عليه السلام وذلك عند غروب الشمس، فخشى إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشرًا من الناس، انطلق أمامهم، وجعل يُعرِّض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية وينزلون فى غيرها، فقال لهم فيما قال: والله يا هؤلاء ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء. ثم مشى قليلًا، ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال: وكانوا قد أُمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك[1].

امرأة لوط تدل القوم على أضياف زوجها

* بلغ لوطٌ وضيوفه بيته، وفى منزله هبط الضيوف، نزل هؤلاء الذين أنعم الله عليهم بُحسن الوجوه، وجمال الأشكال، لم يكن هناك فى القرية من يعلم بقدوم هؤلاء غير لوط وامرأته بالإضافة إلى ابنتيه .. لم يشعر بالضيوف أحدٌ من أهل القرية .. شكر لوطٌ ربه وحمده على ذلك.

* رأت امرأة لوط هؤلاء الضيوف. جُنَّ جُنونها. ماذا تفعل لتخبر قومها؟! إنه صيد ثمين، وستكون منزلتها عندهم كبيرة .. يا لها من سعادة!

* ولم تكتفِ امرأةُ لوطٍ بكفرها، وخيانة دين الله الذى يدعو إليه زوجها، وإنما كانت تدل على لوط، وتغرى به أكابر المجرمين ليكذبوه

(١) قصص الأنبياء (ص: ٢٣٣، ٢٣٤) باختصار.

ويصدوه عن سبيل الله.

وحُكم عليها فى محكمة العدل الإلهية بالنار، ومن قبلها امرأة نوح، وقد ذكرهما الله بقوله: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴾(١).

وجاءه قومه يُهرعون إليه

قال تعالى: ﴿ وَجَآءَهُۥ قَوْمُهُۥ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾(٢).

* بسرعة الرياح انتشر الخبر فى القرية كانتشار النار فى الهشيم، أشعلت امرأة لوط نارًا ليعلم أهل القرية بخبر الأضياف، ثم تسللت وانسلت إلى قومها فى ناديهم لتخبر من لم يروا نارها التى أشعلتها، قالت لفوج منهم: إنى رأيتُ رجالًا لم أر أحسن منهم وجوهًا وهم عند لوط الآن .. وإن بناته هناك يعدون الطعام لهم، فهلموا قبل فوات الأوان .. ثم انتقلت إلى آخرين وقالت لهم: إنَّ لوطًا قد أضاف الليلة فتيةً ما رؤى مثلهم جمالًا، ولا أطيب رائحة، فأسرعوا قبل أن يرتحلوا.

وجاء القوم مسرعين، فخرج سيدنا لوط إلى قومه، فطالبوه بالرجال الثلاثة الذين يستضيفهم فى منزله، فوقف يخاطبهم: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓۖ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾(٣)؟!

وحاول قدر طاقته أن يحمى ضيوفه، ولكنه أدرك أنه رجل وحيد، لن

(١) سورة التحريم: الآية: (١٠).

(٢) سورة هود: الآية: (٧٨).

(٣) سورة هود: الآية: (٧٨).

يستطيع أن يهزم رجال قومه كلهم.

دخل لوط غاضبًا وأغلق باب بيته، وضع المزلاج فى الباب ووقف يستمع إلى الضحكات والضربات التى تنهال على الباب.

وعندما ضاقت واستحكمت حلقاتها وبلغ الكرب أشُدَّه .. كشف الرسل للوط عن الركن الشديد الذى يأوى إليه: ﴿قَالُواْ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾(١) (٢).

لا تجزع يا لوط ولا تخف، نحن من الملائكة، ولن يصل إليك هؤلاء القوم، انكسر الباب فجأة، واندفع الإعصار المحموم داخل بيت لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ، نهض جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، وأشار بيده إشارة سريعة، ففقد القوم أبصارهم، وراحوا يتخبطون داخل الجدران فخرجوا من البيت وهم يظنون أنهم يدخلونه، طمست إشارة جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أبصارهم، قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُواْ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾(٣).

التفتت الملائكة إلى لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ وأوصوه أن يصحب أهله أثناء الليل ويخرج، وسيسمعون أصواتًا مروعة تزلزل الجبال، لا يلتفت منهم أحد، كى لا يصيبه ما يصيب القوم، سبحان الملك الجبار سبحانه، أى عذاب هذا؟، هو عذاب من نوع غريب!! يكفى لوقوعه بالمرء مجرد النظر إليه، أفهموه أن امرأته كانت من الغابرين، امرأته كافرة مثلهم وستلتفت خلفها فيصيبها ما أصابهم.

---

(١) سورة هود: الآية: (٨١).

(٢) الظلال (٤/ ١٩١٤).

(٣) سورة القمر: الآيتان: (٣٧، ٣٨).

اخرج يا لوط فقد جاء أمر ربك، سأل لوط الملائكة: أيُنزل الله العذاب بهم الآن، أنبأوه أن موعدهم مع العذاب هو الصبح: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾[١]؟!

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[٢] [٣].

وهذا كله موجود فى القرآن، والجديد الذى لم يُذكر فى القرآن أن الذى نجا من أهله من عذاب الله بناته الثلاث، فسار بأهله إلى أرض الشام، فماتت ابنته الكبرى أثناء مسيره فى أرض الشام، فأخرج الله عندها عين ماء يقال لها: الورية، ثم انطلق مبتعدًا عن ديار المعذَّبين فماتت الصغرى، وخرج فى المكان الذى توفيت فيه عين ماء تدعى الرعزية، ولم يبق من بناته معه إلا ابنته الوسطى[٤].

﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾[٥].

قال العلماء: اقتلع جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، بطرف جناحه مُدنهم السبع من قرارها البعيد، رفعها جميعًا إلى عنان السماء حتى سمعت الملائكة فى السماء أصوات ديكتهم ونباح كلابهم، ثم قلب المدن السبع وهوى بها فى الأرض، أثناء السقوط كانت السماء تمطرهم بحجارة من الجحيم، حجارة صلبة قوية يتبع بعضها بعضًا، ومعلمة بأسمائهم، كل واحد منهم يصيبه حجره

---

(١) سورة هود: الآية: (٨١).

(٢) سورة هود: الآية: (٨١).

(٣) ابن الإسلام (ص: ١١٣).

(٤) صحيح القصص النبوى (ص: ٦٥).

(٥) سورة هود: الآيتان: (٨٢، ٨٣).

الخاص به، نزل عليه خصيصًا من السماء فيهلكه فورًا، ومقدرة عليهم، استمر الجحيم يمطرهم، وانتهى قوم لوط تمامًا، لم يعد هناك أحد، نُكست المدن على رؤوسها، وغارت فى الأرض، حتى انفجر الماء من الأرض، هلك قوم لوط ومُحيت مدنهم.

كان لوط عليه السلام يسمع أصواتًا مروعة، وكان الهواء خلفه يتمزق، وكان يحاذر أن يلتفت خلفه[1].

ويقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، ويقال: إنها خرجت مع زوجها وبناتها، ولكنها لما سمعت الصيحة وسقوط البلدة، التفتت إلى قومها وخالفت أمر ربها قديمًا وحديثًا، وقالت: واقوماه! فسقط عليها حجر فدمغها وألحقها بقومها، إذ كانت على دينهم، وكانت عينًا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان.

* ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴾[2].

انطوت صفحة قوم لوط، انمحت مدنهم وأسماؤهم من الأرض، سقطوا من ذاكرة الحياة والأحياء، وطُويت صفحة من صفحات الفساد.

* وستبقى بحيرة قوم لوط وآثار ديارهم عبرة للظالمين حيثما كانوا، وإن من أبشع أنواع الحمق أن يغفل المشركون المتجبرون فى الأرض عن قدرة الله وشدة بطشه، ويركنوا إلى حولهم وقوتهم، وعليهم أن يتذكروا أن الله جلَّت قدرته الذى أهلك قوم لوط بثوانٍ معدودات قادر على إهلاكهم وتمزيق مُلكهم مهما قويت شوكتهم وكثر عددهم.

(١) ابن الإسلام (ص: ١١٤).

(٢) سورة الذاريات: الآيات: (٣٥-٣٧).

نهاية يأجوج ومأجوج

كان فى سالف الزمان ملكٌ مؤمن عادل اسمه (ذو القرنين) وكان ذو القرنين يعيش فى زمن نبى الله إبراهيم (عليه السلام) وقد آمن ذو القرنين مع إبراهيم (عليه السلام) وطاف معه حول الكعبة حين بناها .. وقد تعلم الخير الكثير والعلم الوفير من إبراهيم (عليه السلام).

* وكان ذو القرنين يتمنى أن يصبح العالم كله على الإيمان والتوحيد ومن أجل ذلك جهَّز جيشًا كبيرًا ليخرج به ليدعو الناس إلى عبادة الله وتوحيده.. فأكرمه الله (عز وجل) وهيأ له كل الأسباب التى تعينه على تبليغ هذه الدعوة المباركة.

فطاف ذو القرنين مشارق الأرض ومغاربها وهزم كل الجيوش التى قابلته وحكم الناس بالعدل والرحمة ولم يظلم أحدًا أبدًا حتى ملك الأرض كلها بفضل الله (سبحانه وتعالى) الذى آتاه كل ما يحتاج إليه من التمكين والجنود والآلات الحربية وآلات الحصار وهيأ له كل أسباب النصر والتمكين.

* واستمر ذو القرنين فى رحلته المباركة لينشر العدل والرحمة بين الناس ويعلمهم الإيمان والتوحيد.

ومن أجل ذلك تعلم كل لغات العالم حتى يستطيع أن يدعو كل شعب بلغته التى يعرفها .. وقد يسَّر الله له أسباب كل شىء: من معرفة اللغات إلى معرفة الطرق والبلاد .. إلى غير ذلك.

ووصل ذو القرنين إلى منطقة بين جبلين كبيرين عند بلاد الترك فوجد هناك قومًا متخلفين لا يكادون يعرفون لغةً غير لغتهم... وكانت لغتهم

غريبة وصعبة حتى أن ذا القرنين لم يستطع أن يفهمهم إلا بواسطة تُرجمان.

وبعدما تكلم معهم ذو القرنين علم أنهم يعيشون مأساة حقيقية وذلك لأنهم يعيشون بالقرب من جبلين متجاورين .. ومن وراء الجبلين تعيش أمة متوحشة وهم قوم يأجوج ومأجوج ..وهم من ذرية يافث بن نوح (عليه السلام).. وكان لهم أشكال وأحجام عجيبة .. وكانوا كفارًا لا يؤمنون بالله (جل وعلا).. بل كانوا لصوصًا يعيشون على السلب والنهب والسرقة.

وكان هؤلاء القوم المساكين الذين لقيهم ذو القرنين يعيشون مأساة حقيقية وذلك لأن قوم يأجوج ومأجوج كانوا إذا دخل الليل خرجوا من وراء الجبلين إلى هؤلاء القوم فأكلوا زروعهم وثمارهم وسرقوا مواشيهم وأغنامهم حتى أصبح هؤلاء الناس جوعى لا يجدون طعامًا ولا شرابًا بسبب ما يفعله يأجوج ومأجوج.

* فلما علم ذو القرنين من الترجمان قصة هؤلاء القوم قرر أن يقف بجانبهم وأن يساعدهم بشرط أن يؤمنوا بالله (جل وعلا).

فآمنوا بالله ووحدوه وبدؤوا يعرضون على ذي القرنين عرضًا مُغريًا.

﴿ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾[1].

وبعد تفكير عميق رأى ذو القرنين أن أفضل وسيلة هي أن يردم الحاجز الذي بين الجبلين.

وبالفعل بنى ذو القرنين سدًّا عظيمًا كان سببًا في نجاة هؤلاء القوم من بطش يأجوج ومأجوج.

---

(١) سورة الكهف: الآيتان: (٩٤-٩٥).

كيف كانت نهاية يأجوج ومأجوج

* لقد أخبرنا النبى ﷺ عن كيفية خروجهم.

وذلك أنهم يحاولون فى كل يوم أن يهدموا هذا السد.. فيحفرون فى السد كل يوم حتى إذا رأوا شعاع الشمس قال زعيمهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا.

فيعودون فى اليوم التالى فيجدوه قد عاد كما كان قبل أن يحفروه ولا يزالون على تلك الحالة حتى يأتى الموعد الذى حدده الله لخروجهم فيذهبون إلى السد ويحفرونه حتى إذا رأوا شعاع الشمس قال زعيمهم: ارجعوا فستحفرونه غدًا إن شاء الله.

وكأن كلمة «إن شاء الله» هى كلمة السر.. فإذا بهم يعودون فى اليوم التالى فيجدون السد على هيئته كما تركوه بالأمس فيحفرونه ويخرجون على الناس ويعيثون فى الأرض فسادًا.

فلا يتركوا شيئًا من الزروع والحبوب والثمار والماشية والأغنام إلا أكلوه.. بل ويشربون الماء كله فلا يتركون للناس نقطة ماء واحدة.

ويصبح الناس فى همٍّ وغمٍّ لا يعلمه إلا الله.

ويكون فى هذا الوقت قد نزل نبى الله عيسى عليه السلام وقتل المسيح الدجال وأصبح كل الناس مؤمنين.

وهنا يأمر الله عيسى عليه السلام بأن يأخذ مَن معه من المؤمنين ويتحصنوا فى جبل الطور حتى لا يصل إليهم يأجوج ومأجوج.

ويدخل عيسى عليه السلام ومَن معه من المؤمنين جبل الطور ويُخلصون فى الدعاء واللجوء إلى الله من أجل أن يُخلِّص الأرض من يأجوج ومأجوج.

*وفى تلك اللحظة كانت قبائل يأجوج ومأجوج تدمر كل خيرات الأرض من طعام وشراب وزروع وثمار.

فإذا نظروا حولهم فلم يجدوا أحدًا قالوا: لقد قهرنا أهل الأرض وبقى أهل السماء... فيأخذ كل واحدٍ منهم حربته فيرميها إلى السماء فترجع إليه وفيها آثار الدماء - وهم لم يقتلوا أحدًا من أهل السماء ولكنه فتنة لهم - فيقولون: لقد قهرنا أهل السماء.

وبينما هم على تلك الحالة من الفساد والإفساد والغرور إذ بعث الله عليهم حشرات أو ديدان اسمها (النغف) فتقتلهم جميعًا ولا تترك منهم أحدًا.

وكان من الممكن أن يخسف الله بهم الأرض أو يُسقط عليهم السماء أو يرسل لهم جبريل عليه السلام فيدمرهم... لكنه أرسل عليهم حشرة حقيرة مثلهم لتقضى عليهم.

* وفى هذه الأثناء يقول عيسى عليه السلام أريد رجلًا يحتسب نفسه فى سبيل الله فيخرج ليعرف لنا ماذا حدث ليأجوج ومأجوج.

فيخرج رجل مؤمن وينظر فيجدهم جميعًا موتى وقد أنتنت الأرض من ريحهم فيرجع الرجل ويبشر عيسى عليه السلام وإخوانه المؤمنين فيسجدون شكرًا لله جل وعلا.

ثم يدعو عيسى عليه السلام أن يخلص الله الأرض من جثث هؤلاء المفسدين فيرسل الله طيرًا من السماء فتأخذ جثثهم ثم يرسل الله المطر من السماء فيغسل الأرض ويجعلها فى غاية الحسن والجمال.

* ثم يعيش المسلمون مع عيسى عليه السلام أجمل حياة فيأمر الله الأرض أن تُخرج بركتها ويأمر السماء أن تُنزل بركتها.

فتجتمع الجماعة من الرجال على الرمانة الواحدة فلا يكملوها

وتجتمع الجماعة من الرجال على حليب بقرة واحدة فلا يكملوه... ويكون الأمان قد انتشر فى الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والذئاب مع الغنم.. وحتى يلعب الصبيان بالحيات والثعابين فلا تضرهم.

❊ ❊ ❊

مَدْيَن قوم شعيب عليه السلام

* كان أهل مَدْيَن قومًا عربًا يسكنون مدينتهم (مدين) التى هى قريبة من أرض معان من أطراف الشام، مما يلى ناحية الحجاز قريبًا من بحيرة قوم لوط، وكانوا بعدهم بمدة قريبة، ... ومدين قبيلة عُرفت بهم، وهم من بنى مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل[١].

وكان أهل مدين كفارًا يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة، وهى شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها.

وكانوا من أسوإ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويُطففون فيهما، ويأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص[٢].

* وكانوا فوق ذلك يقطعون الطريق ويُخيفون المارة ويُرهبونهم.

فبعث الله فيهم رجلًا منهم وهو رسول الله شعيب عليه السلام فدعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن تعاطى هذه الأفاعيل القبيحة من بخس الناس أشياءهم، وإخافتهم لهم فى سُبلهم وطرقاتهم، فآمن به بعضهم وكفر أكثرهم، حتى أحلَّ الله بهم البأس الشديد، وهو الولى الحميد[٣].

دعوة إلى التوحيد

وعلى الرغم من أن قوم مدين وقعوا فى مخالفات كثيرة إلا أن شعيبًا (عليه السلام) بدأ معهم بأهم قضية فى الكون كله.. ألا وهى قضية التوحيد

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ١٦٦).

(٢) قصص الأنبياء (ص: ٢٤٤).

(٣) قصص الأنبياء (ص: ٢٤٤).

والعقيدة؛ لأن الله يغفر الذنوب جميعًا ما عدا الشرك فكان لا بد أن ينقذهم من الشرك أولًا ثم ينتقل إلى مرحلة أخرى فينهاهم عن سائر المخالفات التى يقعون فيها.

* قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾[1].

دعوة خالصة

وكان شعيب (عليه السلام) يوضح لهم أنه لا يريد من وراء دعوته مالًا ولا جاهًا ولا دنيا وإنما يريد أن يأخذ بأيديهم من ظلمات الشرك والكُفران إلى أنوار التوحيد والإيمان.

فدعوته خالصة ليس فيها شائبة من شوائب الدنيا الفانية.

قال تعالى: ﴿ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ (١٧٧) إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (١٧٨) فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ (١٧٩) وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[2].

وها هو ينهاهم عن المنكر

وأخذ شعيب (عليه السلام) يواجه قومه بانحرافاتهم وهو يدعوهم بكل رحمة وشفقة فقد كان يستجيش مشاعرهم بقوله: ﴿يَٰقَوْمِ ﴾[3] وكأنه يقول لهم: أنا رجل منكم فلماذا لا تعبدون الله الذى خلقنى وخلقكم لتفوزوا الفوز الكبير فى الدنيا والآخرة فأنا لا أريد لكم إلا الخير والسعادة.

(١) سورة الأعراف: الآية: (٨٥).

(٢) سورة الشعراء: الآيات: (١٧٦-١٨٠).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٨٥).

فبدأ (عليه السلام) يواجههم بكل الآثام التى يفعلونها فقال لهم: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ (١٨١) وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ (١٨٢) وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (١٨٣) وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾(١).

* وقال لهم فى موضع آخر: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾(٢).

قال ابن عباس: كانوا يقعدون على الطرقات المفضية إلى شعيب فيتوعدون من أراد المجىء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه على نحو ما كانت تفعله قريش مع رسول الله ﷺ(٣).

عناد واستكبار

﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾(٤).

* لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان، وبإيفاء الكيل والميزان، ردّوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا:

---

(١) سورة الشعراء: الآيات: (١٨١ - ١٨٤).

(٢) سورة الأعراف: الآيتان: (٨٥، ٨٦).

(٣) البحر (٤/ ٣٣٨).

(٤) سورة هود: الآية: (٨٧).

أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التى عبدها آباؤنا؟ إن هذا لا يصدر عن عاقل.... ﴿أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ﴾ أى: وتأمرك بأن نترك تطفيف الكيل والميزان. ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾.

فطنة وذكاء

فى هذه اللحظة أدرك شعيب عليه السلام أن قومه يسخرون منه وذلك لأنهم كانوا يعتقدون أن الدين لا دخل له بالحياة اليومية وأنهم لهم الحق فى أن يتعاملوا بأى صورة محرمة فى البيع والشراء وسائر المعاملات دون أن يتدخل الدين فى ذلك.

* لم يغضب شعيب عليه السلام لنفسه أبدًا بل تلطَّف معهم وتجاوز سخريتهم ولم يعاتبهم وانطلق فى دعوتهم إلى الحق وإلى طريق الفلاح والنجاح.

تهديد ووعيد

وبعد كل هذا النصح والشفقة وإذا بهم يقومون ويهددون شعيبًا عليه السلام:
﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾(١).

﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ أى: قالوا لنبيهم شعيب على وجه الاستهانة: ما نفهم كثيرًا مما تحدثنا به.

﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ أى: لا قوة لك ولا عزَّ فيما بيننا ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ أى: ولولا جماعتك لقتلناك رميًا بالأحجار ﴿وَمَآ أَنتَ

---

(١) سورة هود: الآية: (٩١).

عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ أى: لست عندنا بمكرم ولا محترم حتى نمتنع من رجمك... ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَهۡطِيٓ أَعَزُّ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾[١]؟ هذا توبيخ لهم أى: أتتركوننى لأجل قومى ولا تتركوننى إعظامًا لجناب الرب تبارك وتعالى؟ فهل عشيرتى أعز عندكم من الله وأكرم؟

﴿وَٱتَّخَذۡتُمُوهُ وَرَآءَكُمۡ ظِهۡرِيًّاۖ﴾[٢] أى: جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه.

﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ مُحِيطٞ﴾[٣] أى: إنه (جل وعلا) قد أحاط علمًا بأعمالكم السيئة وسيجازيكم عليها.

﴿وَيَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾[٤] تهديدٌ شديدٌ أى: اعملوا على طريقتكم إنى عامل على طريقتى؛ كأنه يقول: اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة، فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة ﴿سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾[٥] أى: سوف تعلمون الذى يأتيه عذاب يذله ويهينه ﴿وَمَنۡ هُوَ كَٰذِبٞۖ﴾[٦] أى: وتعلمون من هو الكاذب ﴿وَٱرۡتَقِبُوٓاْ إِنِّي مَعَكُمۡ رَقِيبٞ﴾[٧] أى: انتظروا عاقبة أمركم إننى منتظر معكم[٨].

---

(١) سورة هود: الآية: (٩٢).
(٢) سورة هود: الآية: (٩٢).
(٣) سورة هود: الآية: (٩٢).
(٤) سورة هود: الآية: (٩٣).
(٥) سورة هود: الآية: (٩٣).
(٦) سورة هود: الآية: (٩٣).
(٧) سورة هود: الآية: (٩٣).
(٨) صفوة التفاسير (٢/ ٣٠، ٣١).

واستمروا فى الوعيد والتهديد

وكانوا كل يوم يزدادون عنادًا واستكبارًا وإصرارًا على الكفر الذى عاشوا عليه حتى إنهم لم يعرفوا قدر هذا النبى الكريم ولا منزلته العالية السامقة.

ووصل بهم الأمر إلى نهايته.. فها هم يعرضون على شعيب (عليه السلام) إما أن يُطرد خارج البلاد، وإما أن يترك الإيمان والتوحيد ويدخل معهم فى ملتهم الباطلة التى تقوم على الشرك بالله عز وجل.

﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَـٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾[1] .

صدع شعيب بالحق، مستمسكًا بملته كارهًا أن يعود فى الملة الخاسرة التى أنجاه الله منها .. واتجه إلى ربه وملجئه ومولاه يدعوه ويستنصره ويسأله وعده بنصرة الحق وأهله، ﴿قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَـٰرِهِينَ﴾[2].

أى: أتجبروننا على الخروج من الوطن أو العودة فى ملتكم ولو كنّا كارهين لذلك؟

﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۚ عَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا ۚ رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَـٰتِحِينَ﴾[3].

عندئذ يتوجه الملأ الكفار من قومه إلى المؤمنين به يخوفونهم

(١) سورة الأعراف: الآية: (٨٨).

(٢) الظلال (٣/ ١٣١٨).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٨٩).

ويهددونهم. ليفتنوهم عن دينهم: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴾[١].

وها هم يستعجلون نزول العذاب

وكعادة الأمم الكافرة فإنهم لا يعرفون قدر عظمة الله - عز جل- ولا يخشونه حق الخشية؛ ولذلك نجدهم يستعجلون نزول العذاب ظنًّا منهم أنه لا يقدر أحدٌ على عذابهم حتى ولو كان فاطر السماوات والأرض - جل وعلا-!! - تعالى الله عما يقولون عُلوًّا كبيرًا.

فها هم يقولون لشعيب (عليه السلام): ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾[٢].

وها هو مشهد نزول العذاب

فاستجاب الله عز وجل دعاء شعيب عليه السلام، وآزره بنصره، وابتلاهم بالحر الشديد، فكان لا يروى ظمأهم ماءٌ، ولا تمنعهم ظلال، ولا تقيهم الأسراب والمنازل،... ففروا هاربين، وخرجوا من ديارهم مسرعين، ولكنهم فروا من قضاء الله وقدره إلى قضاء الله وقدره.

قال تعالى: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا

(١) سورة الأعراف: الآية: (٩٠).
(٢) سورة الشعراء: الآيات: (١٨٥ - ١٨٧).
(٣) سورة الشعراء: الآيات: (١٨٩ - ١٩١).

وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ ﴾[١].

أى: ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيبًا والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منَّا لهم ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ أى: وأخذ أولئك الظالمين صيحةُ العذاب .. صاح بهم جبريل صيحة فخرجت أرواحهم من أجسادهم ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَـٰرِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾ أى: موتى هامدين لا حراك بهم.

قال ابن كثير: وذكر ههنا أنه أتتهم (صيحة)، وفى الأعراف (رجفة)، وفى الشعراء ﴿عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ﴾، وهم أمةٌ واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها.

* وقال تعالى فى سورة الأعراف: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَـٰثِمِينَ﴾[٢].

فها هنا ذكر تعالى أنهم أخذتهم رجفة، أى: رجفت بهم أرضهم، وزُلزلت زلزالًا شديدًا أزهقت أرواحهم من أجسادهم، وصيَّرت حيوان أرضهم كجمادها، وأصبحت جثثهم هامدة، لا أرواح فيها ولا حركات بها، ولا حواس لها.

جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات

وقد جمع الله عليهم أنواعًا من العقوبات، وأشكالًا من البليّات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات، سلط الله عليهم رجفة شديدة أسكتت الحركات... وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظُلة أرسل عليهم منها

(١) سورة هود: الآيتان: (٩٤، ٩٥).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (٩١).

شرر النار من سائر أرجائها والجهات.

* وقوله: ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾[1] ذكروا أنهم أصابهم حرٌّ شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم فى الأسراب[2]، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيها أرسلها الله ترميهم بشرر وشُهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح.

ويُسدل الستار على تلك الأمة

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾[3].

ففى ومضة ها نحن نراهم فى دارهم جاثمين، لا حياة ولا حراك. كأن لم يعمروا هذه الدار، وكأن لم يكن لهم فيها آثار!

﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾[4] [5].

أى: أعرض عنهم موليًا عن محلتهم بعد هلكتهم قائلًا: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ﴾ أى: قد أديت ما كان واجبًا علىَّ

---

(١) سورة الشعراء: الآية: (١٨٩).

(٢) الأسراب: جمع سرب وهو القناة الجوفاء وجحور الثعالب والأسود وغيرها، والمراد أنه لا ينفعهم دخولهم فى تلك الأماكن.

(٣) سورة الأعراف: الآية: (٩٢).

(٤) سورة الأعراف: الآية: (٩٣).

(٥) الظلال (٣/ ١٣٢٢).

من البلاغ التام والنصح الكامل، وحرصت على هدايتكم بكل ما أقدر عليه وأتوصل إليه، فلم ينفعكم ذلك، لأن الله لا يهدى من يضل وما لهم من ناصرين، فلست أتأسف بعد هذا عليكم، لأنكم لم تكونوا تقبلون النصيحة، ولا تخافون يوم الفضيحة.

* * *

هلاك فرعون

قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ ﴾[1].

أي: تجبَّر وعتا وطغى وبغى، وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى، وجعل أهلها شيعًا، أي: قسم رعيته إلى أقسام، وفِرق وأنواع، ويستضعف طائفة منهم، هم شعب بنى إسرائيل الذين هم من سلالة نبى الله يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الله. وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض.

وقد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر، يستعبدهم ويستخدمهم فى أخس الصنائع والحِرف وأردئها وأدناها ومع هذا ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴾[2] [3].

علم أن هلاك مُلكه على يد غلام من بنى إسرائيل

وكان هذا الملك الجبار يفعل كل هذا فى بنى إسرائيل لأن بنى إسرائيل كانوا يذكرون فيما بينهم أنه سيخرج من بنى إسرائيل غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه فوصل هذا الخبر لفرعون فأحس أن هناك خطرًا على عرشه ومُلكه من وجود بنى إسرائيل فى مصر.

ولم يكن يستطيع أن يطردهم لأن عددهم كان يزيد على مئات الألوف

---

(١) سورة القصص: الآية: (٤).

(٢) سورة القصص: الآية: (٤).

(٣) قصص الأنبياء (ص ٣٣٨).

فلو طردهم لتحالفوا مع أعدائه ضده وفى ذلك خطر يهدد مُلكه فى مصر.

فابتكر طريقة جهنمية للقضاء على بنى إسرائيل وهى أن يُسخرهم فى الأعمال الشاقة الخطيرة من ناحية .. ومن ناحية أخرى قرر أن يُذبح كل طفل ذكر يولد فى بنى إسرائيل ويترك الإناث حتى لا يتكاثر الرجال وبذلك تضعف قوتهم وينقص عدد الذكور ويزداد عدد الإناث.

إنها العناية الإلهية

ولكن القبط (أهل مصر) قالوا لفرعون: لو أنك قتلت كل ذكور بنى إسرائيل فإننا لن نجد بعد ذلك من يخدمنا ويقوم بتلك الأعمال الشاقة... فأصدر فرعون قرارًا جديدًا بأن يقتلوا الأطفال الذكور عامًا ويتركوا عامًا.

فحملت أم موسى (عليه السلام) بهارون فى العام الذى لا يُقتل فيه الذكور وولدته علانية بلا خوف .. فلما كان العام الذى يُقتل فيه الذكور وُلد موسى (عليه السلام) فخافت عليه من القتل فكانت تُرضعه فى السر واتخذت له تابوتًا فربطته فى حبل وكانت دارها على النيل مباشرة فكانت تُرضعه فإذا خافت عليه وضعته فى ذلك التابوت (الصندوق الخشبى) وأرسلته فى البحر وهى تمسك بطرف الحبل حتى لا يضيع منها.

لا تخافى ولا تحزنى

فى ظل هذا الجو المشحون بالخوف وُلد موسى (عليه السلام) .. فكانت أمه فى غاية الخوف عليه لا تدرى ماذا تصنع إلى أن جاء الأمر من الله (جل وعلا).

﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[١].

* إن جنود فرعون ينتشرون فى كل مكان ولو رأوا موسى (عليه السلام) لقتلوه فى التو واللحظة.

* وهنا قامت أم موسى لتمتثل أمر الله (جل وعلا) فأخذت موسى وأرضعته ثم ألقته فى هذا الصندوق الخشبى وكلها يقين وثقة فى الله أنه سيرد إليها ولدها مرة أخرى.

ألقت أم موسى الصندوق فى النهر وفيه موسى (عليه السلام) .. وهى تعلم أن الله (عز وجل) أرحم بموسى منها.

* سقط الصندوق فى الماء .. وجاء الأمر من الخالق (جل وعلا) لماء النيل أن يحمل هذا الصندوق بكل رحمة وحنية لأن هذا الطفل الرضيع سيكون بعد ذلك رسولًا من أولى العزم الخمسة.

موسى (عليه السلام) يصل إلى قصر فرعون

ووصل الصندوق إلى الشاطئ أمام قصر فرعون.

وفى تلك اللحظة كانت زوجة فرعون تمشى فى حديقة قصرها الكبير .. وكانت تختلف تمامًا عن فرعون فهى امرأة رقيقة ورحيمة وهو كان جبارًا..

* وكانت تتمنى أن يرزقها الله ولدًا يملأ عليها حياتها فلقد كانت لا تُنجب ولم تكن تعلم أنها ستسعد فى هذا اليوم بأعظم مفاجأة فى حياتها.

---

(١) سورة القصص: الآية (٧).

فعندما ذهبت الجوارى ليأتين بالماء من النهر وجدن هذا الصندوق فأخرجنه من النهر وحملنه إلى زوجة فرعون ففتحت الصندوق وما إن رأت موسى (عليه السلام) حتى أحست بحبه يملأ قلبها .

صرخت زوجته وهى تضم موسى إلى صدرها أكثر: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[1] تذكر فرعون عدم قدرة زوجته على الإنجاب، فاستجاب لرغبتها وسمح لها أن تربى هذا الطفل فى قصره.

أم موسى (عليه السلام) تبكى لفراقه

وفى تلك الفترة كانت أم موسى (عليها السلام) على الرغم من ثقتها فى وعد الله (جل وعلا) بأن يرد إليها ابنها إلا أنها كانت تبكى لفراق طفلها الرضيع لكن الله برحمته ثبتها وربط على قلبها وألهمها الصبر والثبات.

الله (جل وعلا) يرد موسى إلى أمه

بعد ساعات معدودات بدأ موسى (عليه السلام) فى البكاء من شدة الجوع فأمرت زوجة فرعون بإحضار المراضع فجاءت مرضعة من القصر وأخذت موسى لتُرضعه فرفض أن يرضع منها .. فأمرت زوجة فرعون بإحضار مرضعة ثانية وثالثة وعاشرة وهو يرفض فى كل مرة أن يرضع فاحتارت زوجة فرعون وخافت عليه أن يموت.

* وفى تلك اللحظة كانت أم موسى فى بيتها تبكى على فراق طفلها وكاد قلبها أن يذوب حزنًا وكمدًا على فراق ابنها.

---

(١) سورة القصص: الآية (٩).

* لكنها أمرت أخت موسى (عليه السلام) وقالت لها: اذهبى بكل هدوء وحذر إلى مكان قريب من قصر فرعون وحاولى أن تعرفى أخبار موسى واحذرى أن يشعر أحدٌ بك.

* وهنا ذهبت أخت موسى بكل حذر وهدوء لتعلم ما الذى حدث، وهناك سمعت بكاء موسى فسألت بعض الحرس فأخبروها بأن هذا الطفل يرفض كل المراضع .. فقالت أخت موسى لحرس فرعون: هل أدلكم على أهل بيت يُرضعونه ويكفلونه ويهتمون بأمره على أكمل وجه؟

ففرحوا بذلك وذهبوا ليخبروا زوجة فرعون التى جاءت وهى فى قمة سعادتها وطلبت منها أن تذهب فورًا لتُحضر المرضعة.

* عادت أخت موسى إلى أمها لتبشرها بهذه البشرى الغالية وأحضرت أمها معها إلى قصر فرعون.

واستأذنت الحرس فأذنوا لها ودخلوا إلى قصر فرعون.

وجاءت زوجة فرعون وقدمت موسى إلى أمه وقالت لها: أرضعيه.

فقامت أمه لتُرضعه فرضع منها وهنا تهلل وجه زوجة فرعون وقالت: خذيه عندك فى البيت وأرضعيه حتى تفطميه ثم أعيديه إلينا بعد ذلك وسنعطيك على ذلك أجرًا عظيمًا .. فوافقت أم موسى على ذلك.

* عادت أم موسى تحمل طفلها الحبيب وهى لا تصدق نفسها .. يكاد قلبها أن يطير من شدة الفرح.

* وهكذا ردَّ الله (جل وعلا) موسى لأمه كى تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

موسى (عليه السلام) يتربى فى قصر فرعون

وبعدما أتمت أم موسى رضاعته ذهبت به إلى زوجة فرعون وأسلمته لها فكان من أحب الناس إلى قلب زوجة فرعون .

* عاش موسى (عليه السلام) فى قصر فرعون حتى كبر .. وكان بيت فرعون يضم أعظم خبراء فى التربية والتدريس لأن مصر فى هذا الوقت كانت أكبر دولة فى الأرض وكان فرعون أقوى ملك فى الأرض.

فشاء الله أن يتلقى موسى (عليه السلام) أفضل أنواع التدريس والتربية وأن يتم ذلك كله فى بيت عدو الله فرعون.

كيف كانت بداية النهاية لفرعون

دعاه موسى إلى عبادة الله عز وجل ، فأعرض واستكبر ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾[1].

أمام فرعون .. وجهًا لوجه

بدأ موسى (عليه السلام) يخاطب قلب فرعون بكلمات رقيقة لعل قلبه أن يلين وأن يؤمن برب العالمين.

بدأ موسى يحدثه عن رحمة الله وجنته وأنه لا يريد منه أن يتنازل عن ملكه بل يريد أن يضيف له ملكًا أعظم من ملكه فى جنات النعيم إن آمن وأسلم لله (جل وعلا).

---

(١) سورة الزخرف: الآية (٥١).

لم ينتفع فرعون بتلك الآيات

* ولجأ فرعون إلى القوة والسلطان وهدد موسى (عليه السلام) إن اتخذ إلهًا غيره فعند ذلك قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ﴾[1] أى: ببرهان قاطع واضح ﴿قَالَ فَأْتِ بِهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ﴾[2] أى: ظاهر فى غاية الجلاء والعظمة، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مروع ﴿وَنَزَعَ يَدَهُ﴾[3] أى: من جيبه ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[4] أى: تتلألأ كقطعة من القمر[5].

وقال فى موضع آخر: ﴿قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ﴾[6].

ومع هذا كله لم ينتفع فرعون - لعنه الله - بشىء من ذلك، بل استمر على ما هو عليه، وأظهر أن هذا كله سحر، وأراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته ومن هم فى رعيته وتحت قهره ودولته، كما سيأتى بيانه فى موضعه، من إظهار الله الحق المبين والحجة الباهرة القاطعة على فرعون وملئه، وأهل دولته وملته .. ولله الحمد والمنة[7] .

---

(١) سورة الشعراء: الآية (٣٠).
(٢) سورة الشعراء: الآيتان (٣١، ٣٢).
(٣) سورة الشعراء: الآية (٣٣).
(٤) سورة الشعراء: الآية (٣٣).
(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٣٢٩-٣٣٠)
(٦) سورة الأعراف: الآيات (١٠٦-١٠٨).
(٧) قصص الأنبياء (ص: ٣٦٢) بتصرف.

موعدكم يوم الزينة

* قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى (٥٩) ﴾[١].

وها هو فرعون يجمع السحرة

﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾[٢].

يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، وكانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة فُضلاء فى فنهم فجمعوا له من كل بلد ومن كل مكان فاجتمع منهم خلق كثير وجمٌّ غفير.

كانوا اثنين وسبعين ساحرًا مع كل ساحر منهم حبال وعصى.

وحضر فرعون وأُمراؤه وأهل دولته وأهل بلده عن بَكرة أبيهم. وذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم.

قال تعالى: ﴿ فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٣٨) وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنتُم مُّجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ ٱلسَّحَرَةَ إِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴾[٣].

* أما السحرة فقد كانوا فى غاية الحرص على المال والقرب من فرعون: ﴿ فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ قَالُوا۟ لِفِرْعَوْنَ أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ (٤١) قَالَ

---

(١) سورة طه: الآيات (٥٦-٥٩).

(٢) سورة طه: الآية (٦٠).

(٣) سورة الشعراء: الآيات (٣٨-٤٠).

نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾[١].

وحضر السحرة ومعهم من فنون السحر الكثير والكثير وكانوا فى غاية الثقة أنهم سيغلبون موسى (عليه السلام).

ولذلك بدأوا كلامهم مع موسى بأن خيَّروه وقالوا له: ﴿إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ ﴾[٢].

وهنا تظهر ثقة موسى بنصر ربه (جل وعلا) فقال لهم: ﴿بَلْ أَلْقُوا۟ ﴾[٣] فألقى السحرة عصيهم وحبالهم وأقسموا بعزة فرعون الطاغية.

﴿ فَأَلْقَوْا۟ حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا۟ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾[٤].

رمى السحرة بعصيهم وحبالهم فإذا المكان يمتلئ بالثعابين فجأة.

﴿سَحَرُوٓا۟ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ ﴾[٥].

*لقد سحروا أعين الناس فجعلوها ترى شيئًا خلاف الحقيقة وأثاروا الرهبة والخوف فى قلوب الناس حتى إن موسى (عليه السلام) أحس بخوفٍ شديد.

*وفى تلك اللحظة يثبته ربه (جل وعلا) ويُذكره بأن معه القوة الكبرى.

﴿ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾[٦].

---

(١)سورة الشعراء: الآيتان (٤١-٤٢).

(٢)سورة طه: الآية (٦٥).

(٣)سورة طه: الآية (٦٦).

(٤)سورة الشعراء: الآية (٤٤).

(٥)سورة الأعراف: الآية (١١٦).

(٦)سورة طه: الآيتان (٦٨-٦٩).

وهكذا سجد السحرة لفاطر السماوات والأرض

وألقى موسى .. ووقعت المفاجأة الكبرى.

وذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها، صارت حية عظيمة ذات قوائم، وعنق عظيم وشكل هائل مزعج، بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا سراعًا وتأخروا عن مكانها وأقبلت هى على ما ألقوه من الحبال والعصى، فجعلت تلقفه واحدًا واحدًا فى أسرع ما يكون من الحركة، والناس ينظرون إليها ويتعجبون منها، وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم وحيَّرهم فى أمرهم، واطلعوا على أمر لم يكن فى خلدهم ولا بالهم ولا يدخل تحت صناعتهم وأشغالهم، فعند ذلك وهنالك تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا ليس بسحر ولا شعوذة، ولا محال ولا خيال، ولا زور ولا بهتان ولا ضلال، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق، الذى ابتعث موسى (عليه السلام) وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة، وأنارها بما خلق فيها من الهدى وأزاح عنها القسوة، وأنابوا إلى ربهم وخروا له ساجدين، وقالوا جهرة للحاضرين ولم يخشوا عقوبة ولا بلوى: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾[1].

لقد تحيَّر فرعون فلا يدرى ماذا يصنع مع نبى الله موسى (عليه السلام).

وإذا بالملإ والأكابر من قوم فرعون يتآمرون مع فرعون على موسى وقومه: ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ ﴾[2].

إنهم يتآمرون ويحرضون فرعون الطاغية على موسى ومن آمن معه

---

(١) سورة طه: الآية (٧٠).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢٧).

فيقولون له: هل ستترك موسى وقومه يعبدون الله ويتركون عبادة آلهتك وأنت الإله العظيم.

* فما كان من فرعون إلا أن انفعل وأحس بأن دعوة موسى (عليه السلام) تمثل خطرًا عظيمًا على مُلكه فأصدر هذا القرار الوحشى: ﴿قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾[1].

* ولم يكن هذا التعذيب جديدًا على بنى إسرائيل فقد كان فرعون يُقتل ذكور بنى إسرائيل عند ولادتهم.

* وهنا بدأ موسى (عليه السلام) يوصى المؤمنين بالصبر والاحتساب والاستعانة بالله (جل وعلا) ويخبرهم بأن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة لمن يتقى الله ويخشاه.

﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

* حاول موسى (عليه السلام) تثبيتهم كثيرًا ليُخرج الخوف من قلوبهم إلا أنهم كانوا قد نفد صبرهم وبدأوا يشتكون من العذاب الذى حلَّ بهم.

﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[3].

وكأنهم يقولون: لقد أوذينا كثيرًا قبل مجيئك فلما جئتنا لم يتغير أى شىء فما زال العذاب يحل بنا فى كل وقت وحين.

فأخذ موسى (عليه السلام) يُصبرهم ويُذكرهم بالله ويفتح أمامهم باب الأمل فى أن يُهلك الله فرعون ومن معه ويستخلفهم فى الأرض.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٧).
(٢) سورة الأعراف: الآية (١٢٨).
(٣) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

﴿قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾(١).

إقامة الحجة قبل الهلاك

لقد مضى فرعون فى غيِّه وضلاله وتهديده .. فقتل الرجال واستحيا النساء وسلط على بنى إسرائيل أشد أنواع القهر والعذاب.

وفى نفس الوقت كان موسى (عليه السلام) يُصبِّر قومه الذين آمنوا معه.

وهكذا ظل فرعون فى ضلاله وظلمه لهؤلاء المؤمنين.. وفى المقابل ظل موسى وقومه يصبرون على الابتلاء ويرجون الفرج من عند الله (جل وعلا).

* فجاء الفرج من عند الله فابتلى فرعون وقومه بأشد أنواع البلاء لعلهم يتذكرون أو يفيقون .. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾(٢).

* لقد قدَّر الله (جل وعلا) أن يشدد على آل فرعون البلاء لأنهم يستحقون ذلك .. ولكى يصرفهم الله عن تدبير المكائد لموسى (عليه السلام) ومن معه من المؤمنين الذين عذبهم فرعون وآذاهم أشد الإيذاء.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٢٩).

(٢) سورة الأعراف: الآيات (١٣٠-١٣٣).

فسلط الله على فرعون وأتباعه من الفراعنة، أعوام الجدب والقحط .. فلقد أجدبت مياه النيل وأجدبت الأرض من حوله ونقصت الثمار وجاع الناس.

﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ ﴾[1] كثرة الأمطار المغرقة المتلفة للزروع والثمار.

﴿وَٱلْجَرَادَ ﴾[2] وأما الجراد فمعروف مشهور وهكذا فإن الجراد جند الله أرسله الله على فرعون وقومه، حتى إنه كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم ومساكنهم، وأكل الشجر والثمر والزروع.

﴿وَٱلْقُمَّلَ ﴾ وقد أرسل الله عليهم القمل.

وأما القُمل فهو السوس.

فدخل معهم البيوت والفُرش، فلم يقر لهم قرار، ولم يمكنهم معه الغمض ولا العيش.

﴿وَٱلضَّفَادِعَ ﴾ ثم أرسل الله عليهم الضفادع فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلا يكشف أحد ثوبًا ولا طعامًا إلا وجدوا فيه الضفادع قد غلبت عليه حتى إن الرجل إذا هَمَّ أن يتكلم وثب الضفدع فى فيه - فى فمه - .

﴿وَٱلدَّمَ ﴾[3] ثم أرسل الله عليهم الدم فصارت مياه آل فرعون دمًا، لا يستقون من بئر ولا نهر، ولا يغترفون من إناء إلا عاد دمًا.

---

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٣).

(٢) سورة الأعراف: الآية (١٣٣).

(٣) فتلك هي التسع آيات التي ذكرها الله (جل وعلا) في سورة الإسراء ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ﴾ [الإسراء: ١٠١] هي: العصا واليد والسنين ونقص الثمرات والطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم.

﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ أى: كل هذه الآيات الظاهرات أرسلها الله عليهم، ليؤمنوا فما آمنوا .. هذا كله ولم ينل بنى إسرائيل من ذلك شىء بالكلية.

* وهنا طلب آل فرعون من نبى الله موسى أن يدعو لهم ربه (جل وعلا) من أجل أن ينقذهم من هذا البلاء.. وكانوا يعطوه العهود والمواثيق فى كل مرة أن يرسلوا معه بنى إسرائيل إذا رفع عنهم هذا البلاء.

* فأخذ موسى (عليه السلام) يدعو الله بأن يكشف ويرفع عنهم البلاء والعذاب .. وما إن ينكشف البلاء حتى ينقضوا العهود والمواثيق ويرجعوا إلى ما كانوا عليه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾(١).

دعاء من القلب

ولما تيقن موسى (عليه السلام) من أن فرعون وأتباعه لن يقبلوا الحق الذى جاء به وأنهم جحدوا بآيات الله ظُلمًا وعُلوًّا وتكبرًا وإذا به يدعو عليهم بهذا الدعاء. ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾ قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾(٢).

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً﴾ أى: من أثاث الدنيا ومتاعها ﴿وَأَمْوَٰلًا﴾ أى: جزيلة كثيرة ﴿فِى﴾ هذه ﴿ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ﴾

(١) سورة الأعراف: الآية (١٣٥).
(٢) سورة يونس: الآيتان (٨٨-٨٩).

أى: ليفتتن بما أعطيتهم مَن شئت من خلقك؛ ليظن من أغريته أنك إنما أعطيتهم هذا لحبك إياهم، واعتنائك بهم. ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾[1] أى: أهلكها. ﴿وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾[2] أى: اطبع عليها ﴿فَلَا يُؤْمِنُواْ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[3] وهذه الدعوة كانت من موسى عليه السلام غضبًا لله تعالى ولدينه، على فرعون وملئه الذين تبين له أنهم لا خير فيهم ولا يجيء منهم شيء، كما دعا نوح عليه السلام فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾[4][5].

* وهكذا توجه نبى الله موسى (عليه السلام) إلى الله بهذا الدعاء .. فما كان منه (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ) إلا أنه استجاب دعاءه، وقال له: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا﴾[6] ثم أمره الحق (جل وعلا) بأن يستقيم هو وأخوه هارون عليهما السلام فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[7].

وجاء الأمر بالخروج ليلاً إلى أرض فلسطين

* جاء الأمر الإلهى إلى موسى (عليه السلام) ومن معه بالخروج ليلًا من أرض مصر إلى أرض فلسطين .. وكانت هذه الخطوة هى بداية النهاية حيث كان بعدها هلاك فرعون وأتباعه فتعالوا بنا، لنرى كيف كانت نهاية هذا الطاغية الذى ادَّعى الألوهية.

---

(١) سورة يونس: الآية (٨٨).
(٢) سورة يونس: الآية (٨٨).
(٣) سورة يونس: الآية (٨٨).
(٤) سورة نوح: الآيتان (٢٦، ٢٧).
(٥) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٤٢١).
(٦) سورة يونس: الآية (٨٩).
(٧) سورة يونس: الآية (٨٩).

* أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يخرج من مصر مع بنى إسرائيل، وأن يكون رحيلهم ليلًا، بعد تدبير وتنظيم لأمر الرحيل، ونبأه أن فرعون سيتبعهم بجنده، وأمره أن يقود قومه إلى ساحل البحر (وهو فى الغالب عند التقاء خليج السويس بمنطقة البحيرات).

وبلغت الأخبار فرعون أن موسى قد صحب قومه وخرج، فأرسل أوامره فى مدن المملكة لحشد جيش عظيم، ليدرك موسى وقومه، ويفسد عليهم تدبيرهم: ﴿ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (٥٣) إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥) وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴾[١].

إن فرعون هنا يعلن التعبئة العامة، وهذا من شأنه أن يشكل صورة فى الأذهان، أن موسى وقومه يشكلون خطرًا فعليًّا على فرعون وملكه، فكيف يكون إلهًا من يخشى فئة صغيرة يعبدون إلهًا آخر؟!

لذلك كان لا بد من تهوين الأمر وذلك بتقليل شأن قوم موسى وحجمهم ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴾[٢] لكننا نطاردهم لأنهم أغاظونا، وعلى أى حال، فنحن حذرون مستعدون ممسكون بزمام الأمور.

فأرسل فرعون فى المدائن حاشرين

وهكذا خرج موسى عليه السلام وأتباعه امتثالًا لأمر الله (عز وجل) .. خرج بهم بعدما استعاروا من قوم فرعون حُليًّا كثيرًا.

* جيَّش فرعون الجيوش، وجمع الجموع، وخرج مسرعًا بجيشه يطارد موسى وقومه .. لقد خرجوا يتبعون خُطا موسى وقومه ويقفون

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (٥٣-٥٦).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٥٤).

أثرهم، فكان خروجهم هذا هو الأخير، وكان إخراجًا لهم من كل ما هم فيه من جنات وعيون وكنوز، فلم يعودوا بعدها لهذا النعيم! لذلك يذكر هذا المصير عقب خروجهم من أجل قتل المؤمنين، تعجيلًا بالجزاء على الظلم والبطر والبغى.

﴿ فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾[1].

وقطع موسى الطريق حتى وقف أمام البحر، وبدأ جيش فرعون يقترب، وظهرت أعلامه، وامتلأ قوم موسى بالرعب، كان الموقف حرجًا وخطيرًا، إن البحر أمامهم والعدو وراءهم وليس معهم سفن أو أدوات لعبور البحر، كما أنه ليست أمامهم فرصة واحدة للقتال، إنهم مجموعة من النساء والأطفال والرجال غير المسلحين، سيذبحهم فرعون عن آخرهم.

صرخت بعض الأصوات من قوم موسى: سيدركنا فرعون ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾[2][3].

موسى (عليه السلام) .. وثقته بربه (جل وعلا)

لقد بلغ الكرب مداه، وإن هى إلا دقائق تمر ثم يهجم الموت ولا مناص ولا معين!

ولكن موسى الذى تلقَّى الوحى من ربه، لا يشك لحظة، وملء قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة وإن كان لا يدرى كيف تكون.

---

(١) سورة الشعراء: الآيات (٥٧-٥٩).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٦١).

(٣) ابن الإسلام (ص: ٢٠٥، ٢٠٦).

فهى لا بد كائنة والله هو الذى يوجهه ويرعاه.

﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[١].

كلا .. فى شدة وتوكيد .. كلا لن نكون مدركين.. كلا لن نكون هالكين.. كلا لن نكون مفتونين .. كلا لن نكون ضائعين ﴿ قَالَ كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴾[٢].

بهذا الجزم والتأكيد واليقين[٣].

لم يكن موسى يدرى كيف ستكون النجاة، لكن قلبه كان ممتلئًا بالثقة بربه، واليقين بعونه، والتأكد من النجاة، فالله هو الذى يوجهه ويرعاه، وفى اللحظة الأخيرة، يجىء الوحى من الله ﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ﴾[٤] فضربه، فوقعت المعجزة ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾[٥] وتحقق المستحيل فى منطق الناس، لكن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ إن أراد شيئًا قال له: كُن فيكون.

ظهر طريق يابس وسط البحر، الأمواج كالسورين على جنبتى الطريق، وهرع موسى وقومه يسيرون فى هذا الطريق الممهد داخل البحر والأمواج من حولهم، سبحان الملك!! ﴿ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴾[٦].

غرق فرعون .. فهل من معتبر؟

ووصل فرعون إلى البحر، شاهَدَ هذه المعجزة،... شاهد فى البحر

(١) سورة الشعراء: الآية (٦٢).

(٢) سورة الشعراء: الآية (٦٢).

(٣) الظلال (٥/ ٢٥٩٨).

(٤) سورة الشعراء: الآية (٦٣).

(٥) سورة الشعراء: الآية (٦٣).

(٦) سورة الشعراء: الآية (٦٥).

طريقًا يابسًا يشقه نصفين، وموسى وقومه يسيرون فى هذا الطريق اليابس فى وسط البحر فى أمان تام، ووقف فرعون يتأمل موسى وقومه والأمواج من حولهم والأرض يابسة تحت أقدامهم، ولم يفكر لحظة، أسرع خلفهم يطاردهم، وطمع فرعون فى إدراكهم، فأمر جيشه بالتقدم، وحين انتهى موسى من عبور البحر، وأوحى الله إلى موسى أن يترك البحر على حاله ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾[١]، وكان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد قدَّر إغراق فرعون وإنهاء أمره، فما أن صار فرعون وجنوده فى منتصف البحر، حتى أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ البحر، فانطبقت الأمواج على فرعون وجيشه، وغرق فرعون وجيشه، غرق العناد ونجا الإيمان بالله.

ولما عاين فرعون الغرق، ولم يعد يملك النجاة قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٢] سقطت عنه كل الأقنعة الزائفة، فلم يكتف بأن يعلن إيمانه، بل والاستسلام أيضًا ﴿ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[٣] لكن بلا فائدة، فليس الآن وقت اختيار، بعد أن سبق العصيان والاستكبار.

﴿ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾[٤] ؟!

انتهى وقت التوبة المحدد لك وهلكت، انتهى الأمر ولا نجاة لك، سينجو جسدك وحده، لن تأكله الأسماك، ولن يحمله التيار بعيدًا عن الناس، بل سينجو جسدك، لتكون آية لمن خلفك، وكان جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يضع

---

(١) سورة الدخان: الآية (٢٤).

(٢) سورة يونس: الآية (٩٠).

(٣) سورة يونس: الآية (٩٠).

(٤) سورة يونس: الآية (٩١).

فى فم فرعون الطين وهو يحاول النجاة من الغرق حتى لا ينجو،... فعن النبى ﷺ قال: «**لما أغرق الله فرعون قال: آمنت أنه لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل، فقال جبريل: يا محمد! فلو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر، فأدسه فى فيه مخافة أن تدركه الرحمة**»[١].

﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾[٢].

أُسدل الستار على طغيان فرعون، ولفظت الأمواج جثته إلى الشاطئ، بعد ذلك، نزل الستار تمامًا على الفراعنة، لا يحدثنا القرآن الكريم عما فعلوه بعد سقوط نظام فرعون وغرقه مع جيشه، لا يحدثنا عن ردود فعلهم بعد أن دمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يُشيدون، لا نعلم عنهم شيئًا أبدًا، وكأنهم سقطوا تمامًا من التاريخ والأحداث: ويتحدث فقط عن المؤمنين الذين صاحبوا موسى خطوة بخطوة[٣].

فاليوم ننجيك ببدنك

لتكون لمن خلفك آية

قال تعالى: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ ﴾[٤].. ويا لها من آية والله.

---

(١) صحيح: رواه الترمذى (٣١٠٧)، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٢٠٦).

(٢) سورة يونس: الآية (٩٢).

(٣) ابن الإسلام (ص: ٢٠٦-٢٠٧).

(٤) سورة يونس: الآية (٩٢).

قال ابن عباس وغير واحد: شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنه لا يموت، فأمر الله البحر فرفعه على مرتفع، قيل: على وجه الماء، وعليه درعه التى يعرفونها من ملابسه .. ليتحققوا بذلك من هلاكه، ويعلموا قدرة الله عليه. ولهذا قال: ﴿ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ ﴾ أى: مصاحبًا درعك المعروفة بك، ﴿لِتَكُونَ ﴾ أى: أنت آية ﴿لِمَنْ خَلْفَكَ ﴾ أى: من بنى إسرائيل ومَن بعدهم، ودليلًا على قدرة الله الذى أهلكك [١].

قال تعالى: ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [٢].

* يقول القشيرى:

تكبَّر فرعون بغير حق فأقمأه الله بحق، وتجبّر بغير استحقاق، فأذله الله باستحقاق، ﴿ وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٣].

أبَى إلا أن يدوم جحوده وعناده، فأغرقه الله فى البحر، كما أغرق قلبه فى بحر الكفر [٤].

«من لا يرحم لا يرحم».

هذا الطاغية الذى ذبح الطفولة وملاحتها وبراءتها المحبوبة، ولثغتها

---

(١) تفسير عبد الرزاق (١١٦٨)، تفسير الطبري (١١/ ١١٣، ١١٤).

(٢) سورة الدخان: الآيات (٢٥-٢٩).

(٣) سورة القصص: الآيتان (٣٩-٤٠).

(٤) لطائف الإشارات للقشيرى (٥/ ٥٤).

التى تبتسم لها القلوب والوجوه، كذا لم يُرحم فى دنيا ولا آخرة.

يقول رسول الله ﷺ: «**قال لى جبريل: لو رأيتنى وأنا آخذ من حمأ البحر**[١]**، فأدسُّه فى فِيِّ فرعون مخافة أن تدركه الرحمة**»[٢].

قال تعالى: ﴿ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾[٣]. واللعنة طرد من الرحمة.

صار مآله إلى الطين المنتن،... ألم يقل يومًا لهامان: يا هامان، أوقد لى على الطين.

واليوم كما يقول الله تعالى: ﴿ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ﴾[٤].

* **يقول صاحب الظلال:**

ضربة واحدة فإذا هم هالكون، ومن التعالى والتطاول والاستكبار إلى الهُوِىِّ فى الأعماق والأغوار جزاءً وِفاقًا[٥].

ضاعت عزة فرعون واقتداره على البغى والظلم، ضاعت العزة الباطلة، وسقط الاقتدار الموهوم، وأخذه الله أخذ عزيز مقتدر صدقًا، أخذهم أخذًا شديدًا يناسب ما كانوا عليه من ظلم وبطش وجبروت.

لما تطاول فرعون وقال: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ ...﴾[٦]، فكان الهوى إلى الأعماق والأغوار، ونتن الطين فى فمه يوم الغرق فى عاشوراء

---

(١) حمأ البحر: طينه الأسود المنتن.

(٢) صحيح: رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس، وصححه الألبانى فى السلسلة الصحيحة (٢٠١٥).

(٣) سورة القصص: الآية (٤٢).

(٤) سورة الأعراف: الآية (١٣٦).

(٥) الظلال (٣/ ١٣٦٠).

(٦) سورة القصص: الآية (٣٨).

جزاء للقولة الفاجرة.

﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ﴾.

يقول الله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[1].

* قال ابن كثير:

الغرق فى اليم، ثم النقلة منه إلى الجحيم. فإن أرواحهم تُعرَض على النار صباحا ومساءً إلى قيام الساعة، فإذا كان يوم القيامة اجتمعت أرواحهم وأجسادهم فى النار.

* قال تعالى: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾[2].

قالها فرعون لقومه الذين استخفهم، ويعنى بها نبى الله موسى، وهو الشريف الرئيس الصادق البار المرشد، فكان جزاؤه من جنس قولته، أنه هو المهين الحقير خلقة ودينًا ومالًا..

* قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾[3].

يقول القشيرى:

لا لشرفهم جعلهم أئمة، ولكن لسبب تلفهم قدَّمهم فى الخزى والهوان على كل أمة، ولكن لم يُرشدوا إلّا إلى الضلال، ولم يدلوا الخلق إلا على المحال، وما حصلوا إلا على سوء الحال، وما ذاقوا إلا خزى الوبال،

---

(١) سورة غافر: الآية (٤٦).

(٢) سورة الزخرف: الآية (٥٢).

(٣) سورة القصص: الآيتان (٤١-٤٢).

أفاضوا على مُتبعيهم من ظلمات قلوبهم، فافتضحوا فى خِسَّة مطلوبهم.

كانوا فى الدنيا مُبعَدين عن معرفته، وفى الآخرة مُبعَدين عن مغفرته، فانقلبوا من طرد إلى طرد، ومن هجر إلى بُعد، ومن فراق إلى احتراق.

يقول سيد قطب فى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...﴾[١].

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ...﴾ فيا بئساها من دعوة! ويا بئساها إمامة الهزيمة فى الدنيا والهزيمة فى الآخرة، جزاء البغى والاستطالة، وليست الهزيمة وحدها، إنما هى اللعنة فى الأرض، والتقبيح فى يوم القيامة، و﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾ ترسم بذاتها صورة القبح والفضيحة والتشنيع، وجو التَّقزُّز والاشمئزاز، ذلك فى مقابل الاستعلاء والاستكبار فى الأرض، وفتنة الناس بالمظهر والجاه والتطاول على الله وعلى عباد الله[٢].

* وقال تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (٩٨) وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ﴾[٣].

قاد فرعون قومه إلى الضلال فى الحياة.

* قال ابن كثير:

وكما أنهم اتبعوه فى الدنيا، وكان مقدمهم ورئيسهم، كذلك هو يَقْدُمهم يوم القيامة إلى نار جهنم فأوردهم إياها، وشربوا من حياض رَدَاها، وله فى ذلك الحظ الأوفر من العذاب الأكبر[٤].

---

(١) سورة القصص: الآيتان (٤١-٤٢).

(٢) الظلال (٥/ ٢٦٩٥).

(٣) سورة هود: الآيتان (٩٨-٩٩).

(٤) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٧٧).

* يقول سيد قطب:

لما كانوا تبعًا لفرعون فى هذا الأمر ، يمشون خلفه ، ويتبعون خطواته الضالة بلا تدبُّر ولا تفكر ، ودون أن يكون لهم رأى ، مستهينين بأنفسهم، متخلين عن تكريم الله لهم بالإرادة والعقل وحرية الاتجاه واختيار الطريق . . لما كانوا كذلك فإن السياق يقرر أن فرعون سيقدمهم يوم القيامة ويكونون له تبعًا .

وبينما نحن نسمع حكاية عن الماضى ووعدًا عن المستقبل ، إذا المشهد ينقلب ، وإذا المستقبل ماضٍ قد وقع ، وإذا فرعون قد قاد قومه إلى النار وانتهى فأوردهم النار، أوردهم كما يورد الراعى قطيع الغنم .

ألم يكونوا قطيعًا يسير بدون تفكير؟ ألم يتنازلوا عن أخص خصائص الآدمية وهى حرية الإرادة والاختيار؟ ﴿فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ . ويا بئساه من ورد لا يروى غلة ، ولا يشفى صدى ، إنما يشوى البطون والقلوب : ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ .

﴿وَأُتْبِعُواْ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾ هذه النار هى الرفد والعطاء والمنة التى رفد بها فرعون قومه!! ألم يعد السحرة عطاء جزيلًا ورفدًا مرفودًا . . فهذا رفده لمن اتبعه . . النار . . ﴿وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ﴾ . و﴿بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ﴾![1][2] .

* * *

(١) فى ظلال القرآن لسيد قطب (٤/ ١٩٢٤).

(٢) الجزاء من جنس العمل (١/ ٢١٧-٢٢١) بتصرف - للدكتور / سيد حسين العفانى.

نهاية قارون

كان هناك رجل من بنى إسرائيل اسمه قارون.

وكان هناك قرابة تربطه بنبى الله موسى (عليه السلام)... فهو ابن عمه.

وكان فى بداية أمره عالمًا وعابدًا فى صومعته.

وظل على تلك الحالة زمانًا إلى أن أغواه الشيطان بترك العبادة والإقبال على الدنيا وزينتها.

أصبح قارون مقبلًا على الدنيا.. فكثر ماله وزادت كنوزه فانشغل بها وبالمحافظة عليها وأخذ يفكر كل يوم كيف يُنمِّى ثروته حتى أصبح عنده ثروة لا تخطر على قلب بشر حتى أن مفاتيح الخزائن التى كان يملكها لا يستطيع الرجال الأقوياء أن يحملوها فكيف بالكنوز التى فى تلك الخزائن.

وذكروا أنه لما كثر مال قارون، وأوجب الله الزكاة على بنى إسرائيل، جاء قارون إلى موسى عليه السلام واتفق معه أن يدفع له الزكاة: عن كل ألف دينار دينارًا، وعن كل ألف درهم درهمًا، وعن كل ألف شاةٍ شاة وهكذا.

ولما رجع قارون إلى بيته، وحسب الزكاة الواجبة عليه، وجدها قد بلغت مبلغًا عظيمًا. فلم تسمح له نفسه بإخراج هذه الزكاة. فمكر بموسى عليه السلام.

فاتفق قارون مع جماعة من المنافقين على أن يتآمروا على نبى الله موسى (عليه السلام).

فأمرهم قارون بأن يأتوا بامرأة سيئة من بغايا بنى إسرائيل لتفترى على موسى (عليه السلام) وتزعم أنه فعل بها الفاحشة.

فجاءوا بها وعرض عليها قارون ألف دينار ذهبى على أن تخرج أمام

الناس وتزعم أن موسى (عليه السلام) قد فعل بها الفاحشة.

فلما كان الغد، جمع قارون بنى إسرائيل.

ثم أتى موسى وقال له: إن بنى إسرائيل قد اجتمعوا لك، ينتظرون خروجك. فاخرج إليهم لتعظهم وتُذكرهم.

فخرج إليهم موسى عليه السلام، فخطبهم قائلًا: يا بنى إسرائيل: من سرق قطعنا يده، ومن افترى جلدناه ثمانين جلدة، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له زوجة رجمناه حتى يموت.

فقال له قارون: وإن كنت أنت؟ قال: وإن كنت أنا!.

فقال قارون: إن بنى إسرائيل يزعمون أنك فعلت الفاحشة مع فلانة.

قال موسى: أنا؟ قال: نعم!.

قال موسى: ادعوها، فإن قالت بهذا، فهو كما قالت.

* فلما جاءت ووقفت أمام الناس قال لها موسى (عليه السلام):

أسألك بالذى أنزل التوراة وفلق البحر وخلق الكون.. هل أنا فعلت بكِ الفاحشة؟!!!

فلما نظرت المرأة إلى نبى الله موسى (عليه السلام) استحيت من هيبة منظره ووقاره وقالت: لا والله ما فعلت شيئًا من ذلك ولكن قارون جعل لى ألف دينار ذهبى على أن أقول للناس إنك فعلت الفاحشة معى.

فلما قالت هذا الكلام فُضح قارون ووضع رأسه فى الأرض وسكت الناس جميعًا وخجلوا من أنفسهم أن يقال مثل هذا الكلام البذىء فى حق نبى كريم من أنبياء الله (جل وعلا).

فخرَّ موسى ساجدًا لله يبكى، ويقول: يا رب إن عدوك هذا قد آذانى،

وسبَّنى وأراد فضيحتى، اللهم إن كنتُ رسولك فاغضب لى وسلِّطنى عليه.

فأوحى الله إليه: ارفع رأسك. وأْمُر الأرض بما شئتَ، تطعْك.

فقال موسى: يا بنى إسرائيل، إن الله قد بعثنى إلى قارون، كما بعثنى إلى فرعون، فمن كان معه فليلبث مكانه، ومن كان معى فليعتزل عنه.

فاعتزلوا عن قارون، ولم يبق معه إلا رجلان.

ثم قال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى كعابهم. ثم أخذتهم إلى جنوبهم.

ثم أخذتهم إلى أعناقهم، وقارون وصاحباه يتضرعون إلى موسى عليه السلام، ويناشدونه بالله وبالرحم.

ثم قال موسى: يا أرض خذيهم، فانطبقت الأرض عليهم.

وإن الله يخسف بقارون وصاحبيه كل يوم قامة، وإنه يجلجل بهم فيها، لا يبلغون قعرها إلى يوم القيامة».

* ولقد ذكر الله (عز وجل) قصة قارون فى كتابه فقال (جل وعلا):

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ

وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ ۖ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾[1].

❊ ❊ ❊

(١) سورة القصص: الآيات: (٧٦-٨٣).

السامري

لما انتهى موسى (عليه السلام) من ميقات ربه وانحدر من قمة الجبل وهو يحمل ألواح التوراة التى كتبها الله له وكان فى قمة سعادته بتكليم ربه وتكريمه له وإذا به يعلم من ربه (جل وعلا) نبأً يسوؤه فعاد إلى قومه غضبان أسفًا.

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ (٨٣) قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ غَضۡبَٰنَ أَسِفٗاۚ﴾[1].

* لقد تذكر موسى (عليه السلام) المعاناة التى عاشها مع بنى إسرائيل وكيف أنه تعب فى تعليمهم وتربيتهم وتثبيتهم .. وكان يظن أنهم يسيرون على أثره.

* وكانت فتنة السامرى قد وقعت بمجرد خروج موسى إلى ميقات ربه.... وتفصيل هذه الفتنة أن بنى إسرائيل لما خرجوا من مصر أخذوا معهم الكثير من حُلى الفراعنة وذهبهم.

فقد كانت نساء بنى إسرائيل قد استعرن هذا الذهب للتزين به، فلما أرادوا الخروج حملوه معهم فلما كتب الله لهم النجاة من بطش فرعون وتعذيبه سألوا علماءهم عن حكم هذا الذهب الذى أخذوه من الفراعنة بغير حق، فأمرهم العلماء بالتخلص من الذهب.. فاستجابت النساء وألقوا بهذا الذهب والحُلِى وقذفوا بها لأنها حرام.. فأخذها السامرى وكان أحد علمائهم وصنع منها تمثالًا على شكل عجل وكان السامرى عنده مهارة عجيبة فى النحت فصنع عجلًا مجوفًا من الداخل وأخذه ووضعه فى اتجاه

(١) سورة طه: الآيات: (٨٣-٨٦).

الريح فإذا دخل الهواء من الفتحة الخلفية وخرج من الأنف أحدث صوتًا يشبه صوت خوار العجول الحقيقية.

ويقال: إن السرَّ فى هذا الخوار أن السامرى كان قد رأى جبريل (عليه السلام) عندما نزل إلى الأرض وكان راكبًا فرسًا - وذلك فى معجزة شق البحر - فأخذ قبضة من التراب الذى سار عليه الفرس وخلطها بالذهب الذى صنع منه العجل الذهبى فلما صنعه خار العجل كالعجول الحقيقية.

وخرج السامرى على بنى إسرائيل ليريهم هذا العجل الذهبى.

فسألوه: ما هذا الذى صنعته يا سامرى؟

قال: هذا إلهكم وإله موسى.

قالوا: كيف يكون هذا إلهه وقد ذهب موسى لميقات إلهه.

قال السامرى: لقد نسى موسى...، ذهب للقاء ربه هناك، بينما ربه هنا.

وهبَّت موجة من الرياح فدخلت من دُبر العجل الذهبى وخرجت من فمه فخار العجل، وصاح بنو إسرائيل مهللين كالأطفال،... وعَبَد بنو إسرائيل هذا العجل.

* وفى يوم من الأيام خرج هارون (عليه السلام) على بنى إسرائيل فوجدهم يعبدون العجل الذهبى فغضب غضبًا شديدًا، وأخذ ينهاهم عن هذا المنكر الأكبر ويحذرهم ويهددهم ويُذكرهم بالله (جل وعلا) ولكن القوم انقسموا إلى فريقين: فمنهم القلة المؤمنة الصابرة الذين ثبتوا على الحق وعلموا أنه ليس هناك من يستحق العبادة إلا الله (جل وعلا) .. ولكن أكثر الناس عبدت العجل الذهبى من دون الله (جل وعلا).

* وظل هارون (عليه السلام) ينصح لهم ويقول لهم: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ

وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِي ﴾[١] .

هذا ليس ربكم ولا رب موسى .. فربكم هو الرحمن الرحيم.

ولكن القوم لم يستجيبوا لهارون (عليه السلام).. فأخذ هارون يُذكرهم بما أكرمهم الله به من إنقاذهم من بطش فرعون وإنقاذهم من البحر وإغراق فرعون أمام أعينهم لكنهم رفضوا كل ذلك وقالوا كلمتهم الأخيرة.

﴿ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴾[٢] .

* وقف القوم يرقصون حول العجل الذهبى .. وإذا بموسى (عليه السلام) يرجع وهو فى قمة الغضب والحزن فسمع صياح القوم وهم يرقصون حول العجل وما إن رأوه حتى توقفوا جميعًا ودبَّ الرعب فى قلوبهم وساد صمت عجيب فصرخ فيهم موسى قائلًا: ﴿بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓ ﴾[٣] .

بئس ما صنعتم فى غيابى .. بئست الخيانة أن تغيروا دينكم بهذه السهولة.

* وفى تلك اللحظة من الغضب العارم الذى انتاب موسى (عليه السلام) وإذا به يُلقى الألواح غضبًا على قومه الذين أشركوا بالله (جل وعلا).

ثم اتجه موسى نحو هارون وهو فى قمة الغضب لله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ) وأمسك هارون من شعر رأسه وشعر لحيته وجذبه بشدة قائلًا له: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾[٤] .

كأنه يريد أن يقول: حتى أنت يا هارون!!... كيف عصيت أمرى؟..

---

(١) سورة طه: الآية: (٩٠).

(٢) سورة طه: الآية: (٩١).

(٣) سورة الأعراف: الآية: (١٥٠).

(٤) سورة طه: الآيتان: (٩٢، ٩٣).

كيف تسكت على هذه الفتنة الكبيرة؟ .. كيف تركتهم يعبدون العجل ولم تُنكر عليهم أو تخرج وتتركهم؟

*وإذا بهارون يتحدث إلى أخيه موسى ويرجو منه أن يترك رأسه ولحيته وهو يذكره بأنهما أبناء أُمٍّ واحدةٍ، ليكون ذلك أدعى لاستحضار كل مشاعر الرحمة والحنان.

﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾[1].

وهنا أدرك موسى أنه قد تعجَّل فى حُكمه على أخيه هارون وأنه نسى فى غضبه أن هارون نبى كريم لا يمكن أن يرضى بوقوع القوم فى الشرك وأنه قد أنكر عليهم لكنه لم يستطع وحده أن يوقف هذا الطوفان من الشرك .. فترك موسى رأس أخيه ولحيته واستغفر الله لنفسه ولأخيه: ﴿ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾[2].

جزاء السامرى

وهنا علم موسى (عليه السلام) أنه لا بد أن يقضى على الفتنة من جذورها ولذلك توجه إلى السامرى الذى صنع لهم العجل الذهبى ليعبدوه وهو فى قمة الغضب ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴾[3]؟ ..ما حملك على ما صنعت؟

قال السامرى بكل عُجب وغرور: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ ﴾[4] ..

(١) سورة طه: الآية: (٩٤).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥١).

(٣) سورة طه: الآية: (٩٥).

(٤) سورة طه: الآية: (٩٦).

وهذه هى لغة أهل الكبر .. بصرت ولم يُبصروا .. وفهمت ولم يفهموا .. وعرفت ولم يعرفوا!!

* ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾[1] .. زعم أنه رأى جبريل (عليه السلام) وهو راكب فرسًا فلا تضع قدمها على شىء إلا دبَّت فيه الحياة .. وأنه قبض حفنة من التراب الذى سار عليه جبريل وألقاها على الذهب ﴿فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾[2].

* هكذا يعترف السامرى أن نفسه الأمارة بالسوء هى التى سولت له أن يصنع هذا العجل الذهبى حتى يوقع الناس فى الشرك بالله (جل وعلا).

* ولذلك لم يناقشه نبى الله موسى (عليه السلام) فى هذا الكلام؛ لأنه كلام لا يستحق الرد عليه وإنما أخبره بثمرة هذا العمل الخبيث والجريمة المنكرة وأخبره بحكم الله فى هذه الجريمة: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ...﴾[3].

* قال ابن كثير:

هذا دعاء عليه أن لا يمس أحدًا؛ معاقبة له على مَسِّه ما لم يكن له مَسُّه[4].

قال القرطبى: «قال الحسن: جعل الله عقوبة السامرى ألا يماسَّ الناس، ولا يماسوه؛ عقوبة له، ولما كان منه إلى يوم القيامة»[5] .. لا أَمِسُّ ولا أُمَسُّ.

---

(١) سورة طه: الآية: (٩٦).

(٢) سورة طه: الآية: (٩٦).

(٣) سورة طه: الآية: (٩٧).

(٤) البداية والنهاية لابن كثير (١/ ٢٦٩).

(٥) تفسير القرطبى (٦/ ٤٢٨١).

تميم كرهط السامرى وقوله ألا لا يريد السامرى مساسًا

قال ابن كثير: أى: كما أخذت ومسست ما لم يكن لك أخذه ومسه من أثر الرسول، فعقوبتك فى الدنيا أن تقول: ﴿لَا مِسَاسَ﴾ أى: لا تماس الناس ولا يماسونك[١]. فمن كان يمسه تصيبه الحمى.

قال الألوسى، مبينًا كون الجزاء من جنس العمل: إنه لما أنشأ الفتنة لما كانت ملامسته سببًا لحياة الموات، عوقب بما يضاده؛ حيث جُعلت ملامسته سببًا للحمى التى هى من أسباب موت الأحياء، وقيل: عوقب بذلك ليكون الجزاء من جنس العمل. نَبَذَ فَنُبِذ، فإن ذلك التحامى أشبه شىء بالنبذ. اهـ[٢].

قال تعالى: ﴿ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴾[٣].

ففى هذه الآية بيان للكيفية التى نسف بها موسى العجل، فقد أمر ببرده بالمبارد، كى يرى بنو إسرائيل تفاهة العجل الذى عبدوه، وتحول العجل إلى مسحوق دقيق كان يُذرَى فى النهر الذى كانوا بجانبه،... ومن عجيب صنع الله أن كل الذين عبدوا العجل اصفرَّت وجوههم عندما شربوا من ماء النهر، وأصبحت بلون الذهب[٤].

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/ ٣٠٧).
(٢) روح المعانى للألوسى (١٦/ ٢٥٦).
(٣) سورة طه: الآية (٩٧).
(٤) صحيح القصص النبوى (١١٠) بتصرف.

بلعام بن باعوراء

قال تعالى: ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[1].

﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا ﴾ أى: واتل يا محمد على اليهود خبر وقصة ذلك العالم، الذى علمناه علم بعض كتب الله، فانسلخ من الآيات كما تنسلخ الحية من جلدها، بأن كفر بها وأعرض عنها.

﴿فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾ أى: فلحقه الشيطان واستحوذ عليه حتى جعله فى زمرة الضالين الراسخين فى الغواية، بعد أن كان من المهتدين، قال ابن عباس: هو «بلعم بن باعوراء» كان عنده اسم الله الأعظم ... وقال ابن مسعود: هو رجل من بنى إسرائيل بعثه موسى إلى ملك «مَدْيَن» داعيًا إلى الله فرشاه الملك، وأعطاه المُلك على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه، ففعل وأضل الناس بذلك[2].

﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أى: لو شئنا لرفعناه إلى منزلة العلماء الأبرار، ولكنه مال إلى الدنيا وسكن إليها، وآثر لذاتها وشهواتها على الآخرة، واتبع ما تهواه نفسه فانحطَّ أسفل سافلين.

---

(١) سورة الأعراف: الآيتان (١٧٥، ١٧٦).

(٢) التسهيل (٢/ ٥٤).

﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ أي: فمثله فى الخسة والدناءة كمثل الكلب إن طردته وزجرته فسعى لهث ، وإن تركته على حاله لهث ، وهو تمثيل بادى الروعة ظاهر البلاغة.

﴿ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ أى هذا المثل السيئ، هو مثل لكل من كذب بآيات الله ،... وفيه تعريض باليهود فقد أوتوا التوراة وعرفوا صفة النبى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وانسلخوا عن حكم التوراة.

﴿فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أى: اقصص على أمتك ما أوحينا إليك ، لعلهم يتدبرون فيها ويتعظون !!!![1]

* يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

آتاه الله آياته ، فانسلخ منها ، وتعرَّى عنها ولصق بالأرض ، واتَّبع الهوى؛ فاستولى عليه الشيطان؛ وأمسى مطرودًا من حِمى الله ، لا يهدأ ولا يطمئن ولا يسكن إلى قرار .

إنسان يؤتيه الله آياته ، ويخلع عليه من فضله ، ويكسوه من علمه ، ويعطيه الفرصة كاملة للهدى والاتصال والارتفاع . . ولكن ها هو ذا ينسلخ من هذا كله انسلاخًا . ينسلخ كأنما الآيات أديم له متلبس بلحمه؛ فهو ينسلخ منها بعنف وجهد ومشقة ، انسلاخ الحى من أديمه اللاصق بكيانه . . أو ليست الكينونة البشرية متلبسة بالإيمان بالله تلبس الجلد بالكيان؟

ها هو ذا ينسلخ من آيات الله؛ ويتجرد من الغطاء الواقى ، وينحرف عن

---

(١) صفة الصفوة (١/ ٤٤٧-٤٤٨).

الهدى ليتبع الهوى؛ ويهبط من الأفق المشرق فيلتصق بالطين المعتم؛ فيصبح غرضًا للشيطان ، فيتبعه ويلزمه ويستحوذ عليه ...مشهد مفزع بائس نكد . . إذا نحن بهذا المخلوق ، لاصقًا بالأرض ، ملوثًا بالطين . ثم إذا هو مسخ فى هيئة الكلب ، مشهد اللهاث القَلِق الذى لا ينقطع ولا يطمئن أبدًا، والذى لا يترك صاحبه سواء وعظته أم لم تعظه، فهو منطلق فيه أبدًا.

مسخ شائه الكيان، هابط عن مكان الإنسان إلى مكان الحيوان، مكان الكلب الذى يتمرغ فى الطين، وكان له من الإيمان جناح يرف به إلى عِلِّيين، وكان من فطرته الأولى فى أحسن تقويم، فإذا هو ينحط منها إلى أسفل سافلين.

قال محمد بن إسحاق: عن سالم أبى النضر؛ أنه حدث: أن موسى، عليه السلام، لما نزل فى أرض بنى كنعان من أرض الشام، أتى قوم بلعام إليه فقالوا له: هذا موسى بن عمران فى بنى إسرائيل، قد جاء يُخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل، وإنَّا قومك، وليس لنا منزل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادعُ الله عليهم. قال: ويلكم! فلم يزالوا به يرققونه ويتضرعون إليه، حتى فتنوه فافتتن، فركب حمارة له متوجهًا إلى الجبل الذى يطلعه على عسكر بنى إسرائيل، وهو جبل حُسْبان، فلما سار عليها غير كثير، ربضت به، فنزل عنها فضربها، حتى إذا أذلقها[1] قامت فركبها. فلم تَسِر به كثيرًا حتى ربضت به، فضربها حتى إذا أذلقها أَذِن الله لها فكلَّمته حُجة عليه، فقالت: ويحك يا بلعام: أين تذهب؟ أما ترى الملائكة تردنى عن وجهى هذا؟ أتذهب إلى نبى الله والمؤمنين لتدعو عليهم؟ فلم ينزع

(١) الإذلاق: أن يبلغ منه الجَهد.

عنها يضربها، فخلى الله سبيلها حين فعل بها ذلك. فانطلقت به حتى إذا أشرفت به على رأس حُسبان، على عسكر موسى وبنى إسرائيل، جعل يدعو عليهم، ولا يدعو عليهم بشرٍّ إلا صرف لسانه إلى قومه، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف لسانه إلى بنى إسرائيل. فقال له قومه: أتدرى يا بلعام ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا! قال: فهذا ما لا أملك، هذا شىء قد غلب الله عليه! قال: واندلع[1] لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت منى الآن الدنيا والآخرة، ولم يبق إلا المكر والحيلة، فسأمكر لكم وأحتال، جَمِّلوا النساء وأعطوهن السِّلَع، ثم أرسلوهن إلى العسكر يبعنها فيه، ومُروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنهم إن زنى رجل منهم واحد كُفِيتموهم، ... فافعلوا.

فلما دخل النساء المعسكر، مرت امرأة من الكنعانيين اسمها «كسبى ابنة صور، رأس أمته» برجل من عظماء بنى إسرائيل، وهو «زمرى بن شلوم»، رأس سبط بنى سمعان بن يعقوب بن إسحاق، عليهم السلام، فقام إليها، فأخذ بيدها حين أعجبه جمالها، ثم أقبل بها حتى وقف بها على موسى، عليه السلام، فقال: إنى أظنك ستقول هذا حرام عليك؟ قال: أجل، هى حرام عليك، لا تقربها. قال: فوالله لا نطيعك فى هذا. ثم دخل بها قبته فوقع عليها. وأرسل الله، عز وجل، الطاعون فى بنى إسرائيل[2].

* قال ابن كثير:

وأرسل الله، عز وجل، الطاعون فى بنى إسرائيل، وكان فنحاص بن العيزار بن هارون، صاحب أمر موسى، وكان غائبا حين صنع زمرى بن شلوم ما

(١) خرج من الفم، واسترعى كلسان الكلب.

(٢) مختصر تفسير ابن كثير (٢/ ٢٥٤).

صنع، فجاء والطاعون يجوس فى بنى إسرائيل، فأخبر الخبر، فأخذ حربته، وكانت من حديد كلها، ثم دخل القبة وهما متضاجعان، فانتظمهما بحربته، ثم خرج بهما رافعهما إلى السماء، والحربة قد أخذها بذراعه، واعتمد بمرفقه على خاصرته، وأسند الحربة إلى لَحْييه -وكان بكر العيزار -وجعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك... ورُفع الطاعون[1].

* * *

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٥١٢).

أصحاب السبت

كان من تعليم نبى الله موسى (عليه السلام) أن يتفرغ قومه بنو إسرائيل عن أعمالهم يومًا من كل أسبوع فلا يعملون فيه أى عمل من أعمال الدنيا بل يُفرغون أنفسهم لعبادة الله (جل وعلا)... وكان ذلك اليوم هو يوم السبت.

* ومرت الأيام.. وما زال بنو إسرائيل على عادتهم يقدسون يوم السبت ويتفرغون فيه لعبادة الله (جل وعلا).... ومرت أجيال وراء أجيال ومازالوا جميعًا يقدسون يوم السبت بالعبادة والتقرب إلى الله (جل وعلا).

وفى قرية من قراهم على شاطئ البحر الأحمر يقال لها أَيْلَة كان يسكن قوم من سلالة بنى إسرائيل فى زمن داود عليه السلام، وكان عليهم أن يلتزموا سُنَّة آبائهم وأجدادهم، فيسيروا على عبادة الله فى يوم السبت، فكانوا لا يزاولون فيه عملًا من أعمال دنياهم من صيد، أو متاجرة، أو صناعة.

* وكانوا يعيشون على صيد الأسماك والحيتان... فكانت الأسماك والحيتان تغيب طوال الأسبوع ولا تظهر إلا فى يوم السبت الذى حرَّم الله فيه الصيد على بنى إسرائيل.. وكان ذلك فتنة لهم وامتحانًا من الله لصبرهم وإيمانهم.

* لكن أكثرهم فشلوا فى هذا الاختبار وخالفوا أمر الله (جل وعلا).

فلقد وسوس الشيطان فى نفوس طائفة من أهل القرية، وزين لهم اصطياد الأسماك.

ولكن كيف يتحايلون على أمر الله؟ هداهم شيطانهم إلى حيلة شيطانية ماكرة.

وأرشدهم إلى طريقة اصطادوا فيها الأسماك يوم السبت!

لقد احتالوا على اصطيادها فى يوم السبت بأن نصبوا الحبال والشباك وحفروا الحُفر التى يجرى معها الماء إلى مصائد قد أعدُّوها إذا دخلها السمك، لا يستطيع أن يخرج منها، ففعلوا ذلك فى يوم الجمعة فإذا جاءت الحيتان مسترسلة يوم السبت، عُلِّقت بهذه المصايد فإذا خرج يوم السبت أخذوها.

لقد أقبلوا على الصيد، فاصطادوا كثيرًا بلا تعب ولا عناء، ثم صنعوا به ما شاؤوا، وما اشتهوا من مطبوخ ومشوىّ، وأقبلوا يُشبعون نهمهم، ويملؤُونَ بطونهم.

علم المتقون منهم بما فعل هؤلاء الفساق المستهترون؛ فخرجوا إليهم ووعظوهم، وحذَّروهم، فما زادهم ذلك إلا استهتارًا وإمعانًا فى غيّهم، وانسياقًا فى ضلالهم، فثارت ثائرة المؤمنين، وحاصروا القرية بسلاحهم، يمنعون هؤلاء المارقين من دخولها؛ لأنهم خارجون عن طاعة الله آثمون فاسقون.

* اشتد ذلك على الفساق، وشقَّ عليهم أن يمتنعوا عن الصيد فى يوم السبت؛ مع كثرة الحيتان فيه، دون غيره من الأيام، فقالوا للمؤمنين منهم: إن القرية لنا ولكم، ولا حقٍ لكم فى دفعنا عنها، والانفراد بها دوننا، ولا أحد يُلزمنا بتركها لكم، إنها موطننا، وموئلنا، ومحطُّ رزقنا، لا سبيل إلى تركها، ولا مفرَّ لنا إلى غيرها، فإنْ صممتم على رأيكم، فلتقاسمونا القرية، ولْنَبْنِ حيطانًا بيننا وبينكم؛ حتى يعيش كُلٌّ منا على ما يشتهى وكما يريد.

ارتضى المؤمنون أن يقاسموهم القرية، وأن يقيموا سدًّا يحجبُ عنهم هؤلاء العصاة المخالفين لأمر الله (جل وعلا).

* انفردت كل طائفة، وشُغل الفساق بلهوهم وصيدهم، وحفروا نُهَيْرات تصل البحر بقريتهم، فإذا كانت ليلة السبت سارت الحيتان فيها إلى أبواب دُورهم، فإذا غربت شمس السبت، وهمَّت الحيتان بالرجوع حجزوها بسدود أقاموها تعترض مجرى النُّهَيْرات؛ فلا تملك الحيتان أن تتسرب إلى البحر.

* استمر هؤلاء الفُساق فى لهوهم ومخالفتهم لأمر الله (جل وعلا) وكثرت أموالهم وجهروا بمعصيتهم دون خوف أو إحساس بالذنب.

وانقسم أهل القرية إزاء تصرف الفريق المعتدى إلى فريقين:

الفريق الأول: هم الصالحون الدُّعاة، قاموا بواجبهم فى الدعوة، وأنكروا على المتحايلين على أوامر الله تحايلهم وعدوانهم وصيدهم يوم السبت.

الفريق الثانى: هم الساكتون، سكتوا على عُدْوان المعتدين.

وتوجهوا باللوم والإنكار على الصالحين الدُّعاة، بحجة أنه لا فائدة من نصح ووعظ قوم هالكين معذَّبين.

أجاب المصلحون على اللائمين الساكتين، بأنهم يهدفون من الإنكار إلى الإعذار أمام الله وأداء الواجب، ثم لعل القوم المعتدين يتقون.

* فلما ازداد إصرار هؤلاء الفاسقين على مخالفتهم لأمر الله (جل وعلا)، قام فريق من أهل القرية ينهون المعتدين عن السوء والعدوان.

وقالوا لهم: لا نبيت معكم الليلة فى القرية.

فخرجوا منها، وباتوا على مشارفها.

وفى الصباح: نظروا إلى أهل القرية المعتدين والساكتين، فلم يخرج منهم أحد، ولم يُفتح لهم بيت، فتعجبوا. وبعثوا رجلًا منهم يستطلع الخبر،

فنظر فى دار فإذا أهلها قردة، ونظر فى دار أخرى فإذا جميع أهلها قردة. وهكذا باقى البيوت!

فرجع إلى جماعته فأخبرهم، فجاؤوا وفتحوا الأبواب، وإذا جميع أهلها قردة! فجعل الرجل منهم يومئ إلى القرد: أأنت فلان؟ فيومئ القرد برأسه: أن نعم، وهو يبكى.

فقالوا لهم: لقد حذرناكم!

وفتحوا الأبواب، فخرجوا وانطلقوا إلى البرية وماتوا.

* وهكذا تكون دائمًا النهاية المؤلمة لكل من خالف أمر الله (جل وعلا).

* * *

قاتلة يحيى بن زكريا

قال الحافظ ابن كثير: روى الحافظ ابن عساكر فى «المستقصى فى فضائل الأقصى» عن قاسم مولى معاوية، قال: كان ملك هذه المدينة - يعنى: دمشق - هداد بن هدار وكان قد زوَّج ابنه بابنة أخيه أربل ملكة صيدا، وقد كان من جملة أملاكها سوق الملوك بدمشق وهو الصاغة العتيقة، قال: وكان قد حلف بطلاقها ثلاثًا ثم إنه أراد مراجعتها، فاستفتى يحيى بن زكريا فقال: لا تحل لك حتى تنكح زوجًا غيرك، فحقدت عليه وسألت من الملك رأس يحيى بن زكريا؛ وذلك بإشارة أمها، فأبى عليها، ثم أجابها إلى ذلك، وبعث إليه - وهو قائم يصلى فى مسجد جيرون - من أتاه برأسه فى صينية، فجعل الرأس يقول: لا تحل له، لا تحل له حتى تنكح زوجًا غيره، فأخذت المرأة الطبق، وحملته على رأسها، وأتت به أمها، وهو يقول كذلك، فلما تمثلت بين يدى أمها خُسف بها إلى قدميها، ثم إلى حقويها [1] وجعلت أمها تولول، والجوارى يصرخن ويلطمن وجوهن، ثم خُسف بها إلى منكبيها، فأمرت أمها السياف أن يضرب عنقها؛ لتتسلى برأسها، ففعل، فلفظت الأرض جثتها، عند ذلك ، ووقعوا فى الذل والفناء، ولم يزل دم يحيى يفور حتى قدم بختنصر فقتل عليه خمسة وسبعين ألفًا [2].

* * *

(١) الحقو: الكِشحُ.
(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٢/ ٥١).

نهاية أصحاب القرية الظالمة

وها هى النهاية المؤلمة لأصحاب القرية الذين أرسل الله إليهم ثلاثة من الرسل فكذبوهم جميعًا وأبوا أن يهتدوا إلى طريق الخير والصلاح فجاء إليهم رجلٌ منهم يذكرهم بالله فقتلوه فنزل عليهم العذاب الأليم من عند الملك (جل وعلا).

قال تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ (١٧) قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ (٢٠) ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ (٢٣) إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ (٢٧) ۞ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ (٢٩) يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) ﴾[1].

---

(١) سورة يس: الآيات: (١٣-٣٢).

وتعالوا بنا لنتأمل سويًا كيف كان هلاكهم:

فقد جاءهم جبريل بالصيحة، فأهلكهم جميعًا.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ۝٢٨ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾[1].

يخبر تعالى أنه انتقم من قومه بعد قتلهم إياه غضبًا منه تبارك وتعالى عليهم؛ لأنهم كذَّبوا رسله وقتلوا وليه ويذكر عز وجل أنه ما أنزل عليهم من أجل إهلاكهم جندًا من الملائكة بل الأمر كان أيسر من ذلك.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ أى: فصاح عليهم - جبريل عليه السلام - صيحة واحدة ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ عن آخرهم لم تبق بهم روح تتردد فى جسد.

* قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل عليه السلام فأخذ بعضادتى الباب الذى لبلدهم، ثم صاح بهم صيحة واحدة فإذا هم خامدون، أى: قد أُخمدت أصواتهم، وسكنت حركاتهم، ولم يبق منهم عين تطرف.

يا حسرة على العباد

قال تعالى: ﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾[2].

أى: يا حسرتهم على أنفسهم وندامتهم يوم القيامة إذا عاينوا العذاب كيف ضيعوا أمر الله تعالى وفرطوا فى جنبه ولكن لا تنفعهم إذ ذاك الحسرات فسوف يلقون العذاب الأليم؛ لأنهم: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أى: يكذبونه ويسخرون منه ويجحدون ما أُرسل به من الحق.

---

(١) سورة يس: الآيتان: (٢٨-٢٩).

(٢) سورة يس: الآية: (٣٠).

ثم قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾[١] أي: ألم يتعظوا بمن أهلك قبلهم من المكذبين بالرسل كيف لم يكن لهم إلى الدنيا رجعة، فكيف هم يعودون...؟!

﴿ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾[٢] وإن جميع الأمم الماضية والآتية ستحضر للحساب بين يدى الله جل وعلا فيجازيهم بأعمالهم خيرها وشرها.

* وهكذا تكون نهاية كل من كفر بالله (جل وعلا).

* * *

---

(١) سورة يس: الآية: (٣١).

(٢) سورة يس: الآية: (٣٢).

أصحاب الأخدود

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ (٤) ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ (٥) إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ (٦) وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (٧) وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ (٨) ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (٩) إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ (١٠) ﴾[1].

* يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ومضوا فى ضلالتهم سادرين، لم يندموا على ما فعلوا ﴿ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ وينص على الحريق، وهو مفهوم من عذاب جهنم، ولكنه ينطق به وينص عليه؛ ليكون مقابلًا للحريق فى الأخدود، وبنفس اللفظ الذى يدل على الحدث، ولكن أين حريق من حريق؟! فى شدته أو مدته؟! وحريق الدنيا يوقدها الخلق، وحريق الآخرة يوقدها الخالق، وحريق الدنيا لحظات وتنتهى، وحريق الآخرة آباد لا يعلمها إلا الله، ومع حريق الدنيا رضا الله عن المؤمنين، وانتصار لذلك المعنى الإنسانى، ومع حريق الآخرة غضب الله، والارتكاس الهابط الذميم[2].

* وقال الألوسى: ﴿ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ﴾ بسبب كفرهم، ﴿ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴾ بسبب فتنتهم المؤمنين والمؤمنات، وفى جعل ذلك جزاء للفتنة من الحُسن ما لا يخفى[3].

---

(١) سورة البروج: الآيات: (٤-١٠).

(٢) فى ظلال القرآن (٦/ ٣٨٧١).

(٣) روح المعانى للألوسى (٣٠/ ٩١).

* وقال القرطبى:

روى أبو صالح عن ابن عباس أن النار ارتفعت من الأخدود، فصارت فوق الملك وأصحابه، أربعين ذراعًا فأحرقتهم[(١)].

* وقال القِمِّى النيسابورى فى قوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ . عذاب جهنم، وعذاب الحريق مختلفان فى الدركة الأولى لكفرهم، والثانى لأنهم فتنوا أهل الإيمان، وجوَّز أن يكون الحريق فى الدنيا، لما روى أن النار انقلبت عليهم فأحرقتهم[(٢)].

* قال ابن كثير:

قال ابن أبى حاتم: عن صفوان بن عبد الرحمن بن زهير، قال: كانت الأخدود فى اليمن زمان تُبع، وفى القسطنطينية زمان قسطنطين، حين حرَّف النصارى قبلتهم عن دين المسيح والتوحيد، فاتخذوا أتونًا وأُلقى فيه النصارى الذين كانوا على دين المسيح والتوحيد، وفى العراق فى أرض بابل بختنصر الذى صنع الصنم وأمر الناس أن يسجدوا له، فامتنع دانيال وصاحباه عزريا وميشائيل، فأوقد لهم أتونًا وألقى فيها الحطب والنار، ثم ألقاهما فيه، فجعلها الله عليهما بردًا وسلامًا، وأنقذهما منها، وألقى الذين بغوا عليهما، وهم تسعة رهط فأكلتهم النار[(٣)].

* وقال ابن كثير:

روى ابن أبى حاتم عن الربيع - هو ابن أنس - فى قوله تعالى: ﴿قُتِلَ

---

(١) تفسير القرطبى (١٠/ ٧٠٨٠).

(٢) تفسير غرائب القرآن، ورغائب الفرقان، للعلامة القمى النيسابورى، مطبوع على هامش الطبرى (٩/ ٣٦) طبعة دار الريان للتراث.

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٤).

﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ سمعنا أنهم كانوا قومًا فى زمان الفترة، فلما رأوا ما وقع فى الناس من الفتنة والشر وصاروا أحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون، اعتزلوا إلى قرية سكنوها، وأقاموا على عبادة الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فكان هذا أمرهم حتى سمع بهم جبار من الجبارين، وحدث حديثهم، فأرسل إليهم، فأمرهم أن يعبدوا الأوثان التى اتخذوا، وإنهم أبوا عليه كلهم، وقالوا: لا نعبد إلا الله وحده لا شريك له، فقال لهم: إن لم تعبدوا هذه الآلهة التى عُبدت، فإنى قاتلكم. فأبوا عليه، فخدَّ أخدودًا من نار، وقال لهم الجبار ووقفهم عليها فقال: اختاروا هذه أو الذى نحن فيه، فقالوا: هذه أحب إلينا، وفيهم نساء وذرية ففزعت الذرية، فقالوا لهم - أى آباؤهم -: لا نار من بعد اليوم، فوقعوا فيها، فقُبضت أرواحهم من قبل أن يمسهم حرها، وخرجت النار من مكانها فأحاطت بالجبارين، فأحرقهم الله بها، ففى ذلك أنزل الله ﷻ: ﴿قُتِلَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡأُخۡدُودِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾[(١)].

* وها هو النبى ﷺ يحكى لنا قصتهم وكيف كانت نهاية الظالمين وكيف كانت عاقبة المتقين.

عَنْ صُهَيبٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «كَانَ مَلِكٌ فِيمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَكَانَ لَهُ سَاحِرٌ، فَلَمَّا كَبِرَ، قَالَ لِلْمَلِكِ: إِنِّى قَدْ كَبِرْتُ، فَابْعَثْ إِلَيَّ غُلامًا أُعَلِّمْهُ السِّحْرَ، فَبَعَثَ إِلَيهِ غُلامًا يعَلِّمُهُ، فَكَانَ فِى طَرِيقِهِ، إِذَا سَلَكَ رَاهِبٌ فَقَعَدَ إِلَيهِ وَسَمِعَ كَلامَهُ، فَأَعْجَبَهُ فَكَانَ إِذَا أَتَى السَّاحِرَ مَرَّ بِالرَّاهِبِ وَقَعَدَ إِلَيهِ، فَإِذَا أَتَى السَّاحِرَ ضَرَبَهُ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى الرَّاهِبِ، فَقَالَ: إِذَا خَشِيتَ السَّاحِرَ، فَقُلْ:

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٩٦).

حَبَسَنِى أَهْلِى، وَإِذَا خَشِيتَ أَهْلَكَ فَقُلْ: حَبَسَنِى السَّاحِرُ، فَبينَمَا هُوَ كَذَلِكَ إِذْ أَتَى عَلَى دَابَّةٍ عَظِيمَةٍ قَدْ حَبَسَتِ النَّاسَ، فَقَالَ: الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يمْضِى النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ، فَأَتَى الرَّاهِبَ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ لَهُ الرَّاهِبُ: أَى بُنَى أَنْتَ الْيَوْمَ أَفْضَلُ مِنِّى، قَدْ بَلَغَ مِنْ أَمْرِكَ مَا أَرَى، وَإِنَّكَ سَتُبْتَلَى، فَإِنِ ابْتُلِيتَ فَلَا تَدُلَّ عَلَىَّ، وَكَانَ الْغُلَامُ يبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَيدَاوِى النَّاسَ مِنْ سَائِرِ الْأَدْوَاءِ، فَسَمِعَ جَلِيسٌ لِلْمَلِكِ كَانَ قَدْ عَمِى، فَأَتَاهُ بِهَدَايا كَثِيرَةٍ، فَقَالَ: مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيتَنِى، فَقَالَ: إِنِّى لا أَشْفِى أَحَدًا إِنَّمَا يشْفِى اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِاللهِ دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ، فَآمَنَ بِاللهِ فَشَفَاهُ اللهُ، فَأَتَى الْمَلِكَ فَجَلَسَ إِلَيهِ كَمَا كَانَ يجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيكَ بَصَرَكَ؟ قَالَ: رَبِّى، قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيرِى؟ قَالَ: رَبِّى وَرَبُّكَ اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يزَلْ يعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الْغُلَامِ، فَجِىءَ بِالْغُلَامِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: أَى بُنَى قَدْ بَلَغَ مِنْ سِحْرِكَ مَا تُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، وَتَفْعَلُ وَتَفْعَلُ، فَقَالَ: إِنِّى لا أَشْفِى أَحَدًا، إِنَّمَا يشْفِى اللهُ، فَأَخَذَهُ فَلَمْ يزَلْ يعَذِّبُهُ حَتَّى دَلَّ عَلَى الرَّاهِبِ، فَجِىءَ بِالرَّاهِبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى، فَدَعَا بِالْمِئْشَارِ، فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِىءَ بِجَلِيسِ الْمَلِكِ فَقِيلَ لَهُ: ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَوَضَعَ الْمِئْشَارَ فِى مَفْرِقِ رَأْسِهِ، فَشَقَّهُ بِهِ حَتَّى وَقَعَ شِقَّاهُ، ثُمَّ جِىءَ بِالْغُلَامِ فَقِيلَ لَهُ ارْجِعْ عَنْ دِينِكَ، فَأَبَى فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ إِلَى جَبَلِ كَذَا وَكَذَا، فَاصْعَدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَإِذَا بَلَغْتُمْ ذُرْوَتَهُ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ، وَإِلَّا فَاطْرَحُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ فَصَعِدُوا بِهِ الْجَبَلَ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَرَجَفَ بِهِم الْجَبَلُ

فَسَقَطُوا، وَجَاءَ يمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَدَفَعَهُ إِلَى نَفَرٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: اذْهَبُوا بِهِ فَاحْمِلُوهُ فِي قُرْقُورٍ، فَتَوَسَّطُوا بِهِ الْبَحْرَ، فَإِنْ رَجَعَ عَنْ دِينِهِ وَإِلَّا فَاقْذِفُوهُ، فَذَهَبُوا بِهِ، فَقَالَ: اللهُمَّ اكْفِنِيهِمْ بِمَا شِئْتَ، فَانْكَفَأَتْ بِهِم السَّفِينَةُ فَغَرِقُوا، وَجَاءَ يمْشِي إِلَى الْمَلِكِ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟ قَالَ: كَفَانِيهِمُ اللهُ، فَقَالَ لِلْمَلِكِ: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي، فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبْدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ، فَقَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، فَأُتِي الْمَلِكُ فَقِيلَ لَهُ: أَرَأَيتَ مَا كُنْتَ تَحْذَرُ؟ قَدْ وَاللهِ نَزَلَ بِكَ حَذَرُكَ، قَدْ آمَنَ النَّاسُ، فَأَمَرَ بِالْأُخْدُودِ فِي أَفْوَاهِ السِّكَكِ، فَخُدَّتْ وَأَضْرَمَ النِّيرَانَ، وَقَالَ: مَنْ لَمْ يرْجِعْ عَنْ دِينِهِ فَأَحْمُوهُ فِيهَا، أَوْ قِيلَ لَهُ: اقْتَحِمْ، فَفَعَلُوا حَتَّى جَاءَتِ امْرَأَةٌ وَمَعَهَا صَبِي لَهَا فَتَقَاعَسَتْ أَنْ تَقَعَ فِيهَا، فَقَالَ لَهَا الْغُلَامُ: يا أُمَّهْ اصْبِرِي فَإِنَّكِ عَلَى الْحَقِّ»(١).

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٣٠٠٥) كتاب الزهد والرقائق.

المرأة التي دخلت النار في هرة (قطة)

كان فى بنى إسرائيل امرأة قاسية القلب، لا ترحم أى أحد حولها حتى ولو كان هرة (قطة) ضعيفة وفى يوم من الأيام خرجت هذه المرأة القاسية من بيتها لقضاء بعض حوائجها، فوجدت هرة ضعيفة تسير فى الطريق، فأخذتها ووضعتها فى البيت وأغلقت عليها الباب.

ظنت الهرة فى بداية الأمر أن هذه المرأة سترحمها وتقدم لها الطعام والشراب وتتركها لتنام فى هذا البيت الجميل.

لكن الذى حدث أن المرأة حبست الهرة فى البيت وتركتها بلا طعام ولا شراب.

اشتد الجوع والعطش بتلك الهرة، فظلت تصرخ ليل نهار والمرأة تسمع صوتها ومع ذلك لم تستجب لنداء الهرة ولم ترحمها بأن تأتى إليها بالطعام والشراب أو أن تتركها لتبحث عن رزقها فى مكانٍ آخر.

ولعلها وقد حبستها كانت تموء ليل نهار، وهى تعانى الجوع والعطش، وصوت الهرة فى هذه الحال يحمل الاستجداء والاستغاثة، وهو صوت مميز يدركه العارفون بأصوات الحيوان، ولكن قلب هذه المرأة المتحجر لم يستجب لنداء الهرة، ولم يقبل رجاءها وتوسلها، وبقى الصوت يخفت حتى انقطع، وماتت الهرة تشكو إلى ربها ظلم الإنسان، وقسوته وتحجر قلبه.

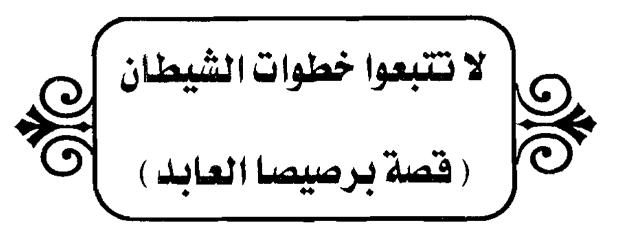
لقد كان بإمكان تلك المرأة إن كانت تريد القطة فى منزلها أن تقدم لها ما يحفظ حياتها من الطعام والشراب، وقد أخبرنا الرسول ﷺ أننا نؤجر فى الإحسان إلى البهائم، فإن أبت أن تقدم لها ما يحفظ حياتها، فعليها أن

تخلى سبيلها، وتتركها تنطلق فى أرض الله الواسعة، فلن تعدم وجود ما يقيتها، ويحفظ حياتها، خاصة وأن الله قد جعل لها رزقًا فيما يلقيه الناس من بقايا الطعام، وما تصطاده من الحشرات والهوام.

فأخبر النبى ﷺ أن هذه المرأة دخلت النار بسبب ظلمها لتلك الهرة ولقد رأى الرسول ﷺ هذه الهرة وهى تهاجم تلك المرأة فى النار، فتُحدث بها خدوشًا فى وجهها وجسدها جزاءً على ما صنعت بها فى الدنيا [1].

* * *

(١) حكايات عمو محمود / محمود المصرى - الجزء الأول (ص: ٧٠ - ٧١) بتصرف.



قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ ﴾[1].

ولقد وردت هذه القصة [2] عن وهب بن منبه رَحِمَهُ اللَّهُ أن عابدًا كان فى بنى إسرائيل اسمه (برصيصا) وكان من أعبد أهل زمانه، وكان فى زمانه ثلاثة إخوة لهم أخت، وكانت بكرًا ليس لهم أخت غيرها، فخرج البعث أى إلى الحرب على ثلاثتهم فلم يدروا عند مَن يخلفونها ولا من يأمنون عليها ولا عند من يضعونها .

قال: فأجمع رأيهم على أن يخلفوها عند عابد بنى إسرائيل، وكان ثقة فى أنفسهم، فأتوه فسألوه، أن يخلفوها عنده فتكون فى كنفه وجواره إلى أن يرجعوا من غَزاتهم، فأبَى ذلك وتعوَّذ بالله عَزَّ وَجَلَّ منهم ومن أختهم قال: فلم يزالوا به حتى أطاعهم فقال: أنزلوها فى بيت حذاء صومعتى، قال: فأنزلوها فى ذلك البيت ثم انطلقوا وتركوها، فمكثت فى جوار ذلك العابد زمانًا ينزل إليها بالطعام فى صومعته فيضعه عند باب الصومعة ثم يغلق بابه ويصعد إلى صومعته ثم يأمرها فتخرج من بيتها فتأخذ ما وضع لها من الطعام.

قال: فتلطَّف له الشيطان فلم يزل يُرغبه فى الخير ويعظم عليه خروج الجارية من بيتها نهارًا ويخوفه أن يراها أحد فيعلقها فلو مشيت بطعامها

(١) سورة الحشر: الآيتان: (١٦-١٧).

(٢) تلبيس إبليس / ابن الجوزى.

حتى تضعه على باب بيتها كان أعظم لأجرك، قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بطعامها ووضعه على باب بيتها ولم يكلمها، قال: فلبث على هذه الحالة زمانًا، ثم جاءه إبليس فرغَّبه فى الخير والأجر وحضَّه عليه، وقال: لو كنت تمشى إليها بطعامها حتى فى بيتها كان أعظم لأجرك قال: فلم يزل به حتى مشى إليها بالطعام ثم وضعه فى بيتها، فلبث على ذلك زمانًا، ثم جاءه إبليس فرغَّبه فى الخير وحضَّه عليه، فقال: لو كنت تكلمها وتحدثها فتأنس بحديثك فإنها قد استوحشت وحشة شديدة، قال: فلم يزل به حتى حدَّثها زمانًا يطلع إليها من فوق صومعته، قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك فقال: لو كنت تنزل إليها فتقعد على باب صومعتك وتحدثها وتقعد هى على باب بيتها فتحدثك كان آنس لها، فلم يزل به حتى أنزله وأجلسه، على باب صومعته يحدثها وتحدثه وتخرج الجْارية مِن بيتها حتى تقعد على باب بيتها، قال: فلبثا زمانًا يتحدثان.

ثم جاءه إبليس فرغَّبه فى الخير والثواب فيم يصنع بها وقال: لو خرجت من باب صومعتك ثم جلست قريبًا من باب بيتها فحدثتها كان آنس لها، فلم يزل به حتى فعل، قال: فلبثا زمانًا، ثم جاءه فرغَّبه فى الخير وما له عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حسن الثواب فيما يصنع بها، وقال له: لو دنوت منها وجلست عند باب بيتها فحدثتها ولم تخرج من بيتها ففعل فكان ينزل من صومعته فيقف على باب بيتها فيحدثها فلبثا على ذلك، ثم جاءه إبليس فقال: لو دخلت البيت، فجعل يحدثها نهارها كله فإذا مضى النهار صعد إلى صومعته، قال: ثم أتاه إبليس بعد ذلك فلم يزل يزينها له حتى ضرب العابد على فخذها وقبَّلها فلم يزل به إبليس يُحسنها فى عينه ويُسوِّل له حتى وقع عليها فأحبلها. فولدت له غلامًا.

فجاء إبليس فقال: أرأيت إن جاء إخوة الجارية وقد ولدت منك كيف تصنع .. لا آمن أن تفتضح أو يفضحوك فاعمد إلى ابنها فاذبحه وادفنه فإنها ستكتم ذلك عليك مخافة إخوتها أن يطلعوا على ما صنعت بها، ففعل، فقال له: أتراها تكتم إخوتها ما صنعت بها وقتلت ابنها، قال: خذها واذبحها وادفنها مع ابنها فلم يزل به حتى ذبحها وألقاها فى الحفرة مع ابنها وأطبق عليهما صخرة عظيمة وسوَّى عليهما وصعد إلى صومعته يتعبد فيها فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، حتى أقبل إخوتها من الغزو، فجاءوا فسألوه عنها فنعاها لهم وترحَّم عليها وبكاها، وقال: كانت خير امرأة وهذا قبرها فانظروا إليه، فأتى إخوتها القبر فبكوا أختهم وترحَّموا عليها فأقاموا على قبرها أيامًا ثم انصرفوا إلى أهاليهم.

فلما جَنَّ عليهم الليل وأخذوا مضاجعهم جاءهم الشيطان فى النوم على صورة رجل مسافر فبدأ بأكبرهم فسأله عن أختهم، فأخبره بقول العابد وموتها وترحُّمه عليها، وكيف أراهم موضع قبرها، فكذبه الشيطان، وقال: لم يَصْدُقكم أمر أختكم أنه قد أحبل أختكم وولدت منه غلامًا فذبحه وذبحها معه فزعًا منكم وألقاهما فى حفيرة احتفرها خلف باب البيت الذى كانت فيه عن يمين من دخله فإنكم ستجدونها كما أخبرتكم هناك جميعًا، وأتى الأوسط فى منامه فقال له مثل ذلك، ثم أتى أصغرهم فقال له مثل ذلك.

فلما استيقظ القوم أصبحوا متعجبين مما رأى كل واحد منهم، فأقبل بعضهم على بعض يقول كل واحد منهم: لقد رأيت الليلة عجبًا فأخبر بعضهم بعضًا بما رأى، فقال كبيرهم: هذا حلم ليس بشىء فامضوا بنا

ودعوا هذا عنكم، قال أصغرهم: والله لا أمضى حتى آتى إلى هذا المكان فأنظر فيه.

قال: فانطلقوا جميعًا حتى أتوا البيت الذى كانت فيه أختهم ففتحوا الباب وبحثوا الموضع الذى وُصف لهم فى منامهم فوجدوا أختهم وابنها مذبوحين فى الحفيرة كما قيل لهم، فسألوا عنها العابد فصدق قول إبليس فيما صنع بهما.

فاستَعْدوا عليه مَلِكهم فأُنزل من صومعته، وقُدِّم ليُصلَب، فلما أوثقوه على الخشبة أتاه الشيطان، فقال له: قد علمت أنى أنا صاحبك الذى فتنتك بالمرأة حتى أحبلتها، وذبحتها وابنها فإن أنت أطعتنى اليوم وكفرت بالله الذى خلقك وصوَّرك خلصتك مما أنت فيه، قال: فكفر العابد، فلما كفر بالله تعالى خلَّى الشيطان بينه وبين أصحابه فصلبوه.

قال تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ إِذۡ قَالَ لِلۡإِنسَٰنِ ٱكۡفُرۡ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّنكَ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾[1].

* * *

(١) سورة الحشر: الآية: (١٦).

قوم سبأ

كان هناك رجل فى بلاد اليمن اسمه (سبأ)، وكان أول من مَلَك اليمن.. وكان اسمه الحقيقى «عبد بن يشجُب»، وسُمِّى «سبأ» لأنه أول ملك من العرب سبى أعداءه.

* وكانت بلاد سبأ فى نِعم كثيرة غامرة، فقد أعطاهم الله جل وعلا من كل شىء وأغدق عليهم من كل النعم.

فأقاموا حضارة متقدمة من أعظم الحضارات فى هذا الوقت.

وكان لهم وادٍ عظيم تأتيه السيول الكثيرة من كل مكان فأنشؤوا سدًّا منيعًا عند مدينة (مأرب).. سُمِّى ذلك السد بسدِّ مأرب وكان ذلك السد بين جبلين.

وأخذوا يتحكمون فى مياه السد فى رى أراضيهم وبساتينهم التى كانت عن يمين ذلك الوادى وشماله حتى تمكنوا من إنشاء الجنات والبساتين التى امتلأت عن آخرها بالأشجار والثمار والفواكه والخضروات حتى كانت المرأة تضع مكتل على رأسها وتمر وسط تلك الجنات فيمتلئ مكتلها بالفاكهة والخضروات دون أن تقطف شيئًا من على الأشجار وذلك لكثرتها ونُضجها.

ولم يكن ببلدهم شىء من الذباب أو البعوض أو البراغيث، أو شىء من الهوام، وذلك لاعتدال الهواء، وصحة المزاج وعناية الله بهم ليعبدوه ويوحدوه.

وفوق كل ذلك فقد وعدهم الله جل وعلا إن شكروه أن يغفر لهم

ويرحمهم.. ولهذا قال: ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾[١].

* ومن النعم التى أنعم الله بها عليهم: أن الله لما علم احتياجهم فى تجارتهم ومكاسبهم إلى أن يذهبوا إلى الأرض المباركة هيأ الله لهم الأسباب التى تجعلهم يسافرون إليها فى أمن وأمان ويُسر وسهولة.

- والأرض المباركة: قيل: هى أرض الشام، وقيل: هى أرض صنعاء.

فكانت القرى متواصلة بحيث يسافر الرجل فلا يشعر بوحشة ولا خوف لأن القرى كلها كانت بجوار بعضها من كثرة أشجارها وزروعها وثمارها بحيث يسافر المسافر فلا يحتاج إلى أن يحمل الماء أو الطعام فإنه لا ينزل فى مكان إلا وجد الطعام والشراب والثمرات وكان يَقيل فى قرية ويبيت فى أخرى ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[٢].

* فأعرضوا عن المُنعم، وعن عبادته، وبطروا النعمة، وملُّوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا، أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التى كان السير فيها متيسرًا.

* «وظلموا أنفسهم» بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة، التى أطغتهم، فأبادها عليهم.

وكان من ملوكهم «بلقيس» التى جرت لها قصة مع نبى الله سليمان

(١) سورة سبأ: الآية: (١٥).

(٢) سورة سبأ: الآيتان: (١٨-١٩).

عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، انتهت بإسلامها لله، ودخولها فى دينه، كما أشارت إلى ذلك سورة «النمل».

لكن أهل «سبأ» بعد موت بلقيس، كفروا بالله، وأشركوا به، وبطروا وبغوا وطغوا. فحقَّت عليهم سنَّة الله، وأوقع الله بهم العذاب. حيث دمَّر الله «سد مأرب» وأرسل عليهم ما كان وراءه من ماء، فكان سيلًا عظيمًا مدمِّرًا، سمَّاه القرآن «سيل العَرِم». أغرق الجنات والبساتين، وأهلك الأشجار والثمار، وأزال الله عنهم تلك النعم، بسبب ما كسبوا.

كيف كان إهلاكهم؟

أما عن تفاصيل إهلاكهم فقد ذكرها المؤرخون فقالوا: إن سبب تدمير السد إن الله ﷻ لمَا رأى أن أهل سبأ قد كفروا به وبغوا ولم يشكروه على نعمه، سلط عليهم الفأر وأخذت تنخر فى السد.

فقام أهل سبأ وجعلوا على كل مكان من السد هرًّا (أى: قطًّا) للحراسة.

فلما جاء موعد الهلاك تغلبت الفئران على القطط ونخروا فى السد ليهدموه.

فشاهد ذلك أحد زعمائهم وهو (عمرو بن عامر) فأيقن بقرب الهلاك.

فجلس يفكر فى وسيلة يستطيع من خلالها أن يحصل على ثمن أراضيه وأملاكه فدعا ابن أخيه وقال له: إذا جلست الليلة فى نادى القوم فائتنى وقل لى أمام الناس: لماذا لا تعطينى مالى؟ فإنى سأقول لك: ليس عندى مال لك، ولا ترك أبوك شيئًا، وإنك لكاذب. فإذا أنا كذَّبتك فكذِّبنى، واردد علىَّ ما قلت لك، فإذا فعلتَ ذلك فإنِّى سأشتمك، فاشتمنى. فإذا شتمتنى لطمتك، فإذا أنا لطمتك فقم إلىَّ فالطمنى.

فقال له ابن أخيه: ما كنتُ لأستقبلك يا عم بذلك! فقال له: بلى افعل فإنى أريد بها صلاحَك وصلاح أهل بيتك، فقال الفتى: نعم.

فجاء فقال ما أمره به عمه حتى لطمه، فتناوله الفتى فلطمه! فقال الرجل: يا بنى فلان: أُلطَم فيكم؟... مستحيل أن أسكن فى بلد لطمنى فيه فلان أبدًا. من يشترى منى دورى وأرضى وعقارى. فلما عرفوا منه الجد اشتروا منه كل ما يملك.

ولما صار المال معه وجهّز نفسه وأهله للخروج والسفر، نادى قومه وقال لهم: أى قوم: إن العذاب قد أظلكم، وزوال أمركم قد اقترب.

فمن أراد منكم دارًا جديدًا، وجملًا شديدًا، وسفرًا، فليلحق بعُمان. ومن أراد منكم الخمر والخمير والعصير فليلحق ببُصرى.

ومن أراد منكم النخل والنخيل فليلحق بيثرب (المدينة المنورة فيما بعد) فخرج بعضهم وتفرقوا فى البلاد.. فمنهم من ذهب إلى عُمان ومنهم من ذهب إلى بُصرى ومنهم من ذهب إلى يثرب (وهم الأوس والخزرج).

أما «سبأ» فإن الله أرسل عليها «السيل» حيث تمكنت الفئران من هدم «سد مأرب» فاجتاحت مياهُ «سيل العرم» ما يملكونه من جنات، وأتلفت أشجارهم ومزروعاتهم.

وبادت تلك الحضارة وزالت وانقرضت، بسبب كفرهم وبطرهم، ولهذا قال تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴾[1].

---

(١) سورة سبأ: الآيتان: (١٦-١٧).

فبدلًا من تلك الجنات والثمرات والفواكه بدلنا تلك النعمة إلى رديء الثمار والأشجار، فقال تعالى: ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾.

والخمط: هو الثمر المر، وقيل: هو البشع الذى لا يؤكل، والأثل: شجر يشبه الطرفاء من شجر البادية لا ثمر له.

والسدر: هو شجر النبق وكان أجود هذه الأشجار.

* فلما أصابهم ما أصابهم، تفرقوا وتمزقوا، بعد ما كانوا مجتمعين، وجعلهم الله أحاديث يتحدث بهم الناس فى مجالسهم، وكان يُضرب بهم المثل فيقال: «تفرقوا أيدى سبأ» فكل أحد يتحدث بما جرى بهم.

ولكن لا ينتفع بالعبرة فيهم إلا من قال الله فيهم: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾[1] صبَّار على المكاره والشدائد، يتحملها لوجه الله، ولا يتسخطها بل يصبر عليها، شكور لنعمة الله تعالى يُقر بها، ويعترف، ويثنى على من أولاها، ويصرفها فى طاعته.

ولقد ذكر الله جل وعلا قصة سبأ فى سورة سماها بسورة سبأ، فقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِى إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ

(١) سورة سبأ: الآية: (١٩).

مُمَزَّقٍۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّكُلِّ صَبَّارٖ شَكُورٖ ﴿١٩﴾ وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ﴾[1].

* * *

(١) سورة سبأ: الآيات: (١٥-٢١).

عمرو بن لُحى الخزاعي

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**أول من غيَّر دين إبراهيم عمرو بن لُحى بن قمعة بن خندف أبو خزاعة**»(١).

وفى حديث عبد الله بن محمد بن عقيل عن الطفيل بن أُبى بن كعب عن أبيه، مرفوعًا: «**وهو أول من حمل العرب على عبادة الأصنام**»(٢).

* **قال ابن هشام:**

حدثنى بعض أهل العلم أن عمرو بن لُحى خرج من مكة إلى الشام فى بعض أموره، فلما قَدِم مآب من أرض البلقاء، وبها يومئذ العماليق، وهم ولد عملاق، ويقال: ولد عمليق بن لاوز بن سام بن نوح، رآهم يعبدون الأصنام، فقال لهم: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتُمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطونى منها صنمًا، أسير به إلى أرض العرب فيعبدونه، فأعطوه صنمًا يقال له (هُبَل، فقدِم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه»(٣).

* وقد ذكر السهيلى وغيره، أن أول من لبَّى هذه التلبية عمرو بن لحى، وأن إبليس تبدَّى له فى صورة شيخ، فجعل يلقنه ذلك فيسمع منه، ويقول كما يقول واتبعه العرب فى ذلك، ولم يقف شيطانه عند هذا الحد، وابتدع - لعنه الله - لهم أشياء فى الدين غيَّر بها دين الخليل فاتبعه العرب فى ذلك.

---

(١) حسن: أخرجه ابن أبى عاصم، والطبرانى فى الكبير والأوسط، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٦٧٧).

(٢) حسن: أخرجه الحاكم وابن أبى عاصم، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبى، وحسنه الألبانى، في الصحيحة (١٦٧٨).

(٣) الروض الأنف للسهيلى (١/ ٣٥٠).

* قال ابن إسحاق:

كانت كنانة وقريش إذا هَلَّوا قالوا: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك.

ولما وليت خزاعة البيت، وصار أمره إليهم، كانوا قوم سوء فى ولايتهم.

* يقول الحافظ ابن كثير:

وذلك لأن فى زمانهم كان أول عبادة الأوثان بالحجاز، وذلك بسبب رئيسهم عمرو بن لُحى - لعنه الله - فإنه أول من دعاهم إلى ذلك، وكان ذا مالٍ جزيل جدًّا، يقال: إنه ملك عشرين ألف بعير... ومما ذكر الأزرقى والسهيل: إنه ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة، وكسى عشرة آلاف حُلّة فى كل سنة، يطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل، ويَلتُّ لهم السويق، قالوا: وكان قوله وفعله فيهم كالشرع المتبع، لشرفه فيهم، ومحلته عندهم، وكرمه عليهم [(١)].

* فتأمل معى كيف كان جزاء هذا الرجل الذى غيَّر الدين وبدَّل الملة قال ﷺ: «**رأيت عمرو بن عامر الخزاعى يجر قُصبه فى النار وكان أول من سيَّب السوائب وبحَّر البَحيرة**» [(٢)].

وقال ﷺ: «**رأيت عمرو بن لُحى بن قَمْعَة بن خندف، أخا بنى كعب، وهو يجر قُصبه فى النار**» [(٣)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أول مَن سيَّب السوائب، وعبد الأصنام أبو خزاعة عمرو بن عامر، وإنى رأيته فى النار يجر**

---

(١) البداية والنهاية (٢/ ١٧٤ - ١٧٧) بتصرف.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٥٢١) كتاب المناقب، ومسلم (٢٨٥٦) كتاب الجنة وصفة نعيمها.

(٣) صحيح: رواه مسلم (٢٨٥٦) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

أمعاءه فيها»[1].

وعن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأكثم بن الجون الخزاعى: «**يا أكثم، رأيت عمرو بن لحى بن قمعة بن خندف يجر قُصبه في النار، فما رأيت رجلًا أشبه برجل منك به، ولا بك منه**». فقال أكثم: عسى أن يضرنى شبهه يا رسول الله ؟ قال: «**لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه كان أول من غيَّر دين إسماعيل، فنصب الأوثان، وبحَّر البحيرة، وسيَّب السائبة، ووصل الوصيلة، وحمى الحامى**»[2].

* قال المناوى:

لكونه استخرج من باطنه بدعة جَرَّ بها الجريرة إلى قومه [3]، فكذا يجر أمعاءه فى النار، والجزاء من جنس العمل.

* * *

(١) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٢٠٢٤).
(٢) حسن: رواه ابن أبى عاصم فى الأوائل، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٦٧٦).
(٣) فيض القدير (٤/ ٩).

أصحاب الفيل

كان هناك رجل اسمه أبرهة... وكان أبرهة الحبشى قد كلفه حاكم الحبشة النجاشى بأن يكون أميرًا على صنعاء (فى اليمن).

وكان أبرهة نصرانيًّا... وكذلك كان النجاشى حاكم الحبشة.

وكان يسمع كثيرًا عن الكعبة وبيت الله الحرام..

وأن العرب يحجون إلى هذا البيت، فامتلأ قلبه حقدًا على العرب وجلس مع نفسه يفكر كيف يصرف العرب عن هذا البيت.

وبعد تفكير عميق هداه شيطانه إلى أن يبنى كنيسة كبيرة فى صنعاء سماها «القُلَّيس» لم يرَ الناس مثلها فى زمانهم.

ثم كتب إلى النجاشى حاكم الحبشة قائلًا له: إنى قد بنيت لك أيها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك أبدًا... وإنى لن أهدأ أبدًا حتى أصرف إليها حج العرب بدلًا من أن يحجوا إلى الكعبة.

* وكان أبرهة الحبشى قد سخَّر أهل اليمن فى بناء هذه الكنيسة الخسيسة وسخرهم فيها أشد أنواع التسخير.

وكان من تأخر عن العمل حتى تطلع الشمس يقطع يده لا محالة.

وجعل ينقل إليها من قصر بلقيس رخامًا وأحجارًا وأمتعة عظيمة وركَّب فيها صُلبانًا من ذهب وفضة.

وجعل فيها منابر من عاج وأبنوس وجعل ارتفاعها عظيمًا جدًّا واتساعها باهرًا.

* ولكنه رأى أن العرب لا تتجه إلا إلى البيت العتيق، ورأى أهل اليمن أنفسهم يَدَعون البيت الذى بناه، وينصرفون إلى مكة؛... واشتد غيظُ

العرب، واشتعلت نيران الحقد فى نفوسهم فقام رجل من كنانة فخرج من أرضه حتى وصل إلى صنعاء ودخل الكنيسة فى وقت لم يكن فيها أحد وقضى حاجته فى الكنيسة وترك فيها تلك النجاسات وخرج.

فلما علم أبرهة بذلك، غضب غضبًا شديدًا وقال: من صنع هذا؟

فقيل له: صنعه رجل من أهل هذا البيت الذى تحجُّه العرب بمكة لما سمع بقولك إنك تريد أن تصرف حجَّ العرب إلى بيتك هذا فغضب فجاء فأحدث فيها.

فغضب أبرهة عند ذلك وحلف ليسيرن إلى البيت حتى يهدمه.

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت.

ثم سار وخرج معه بالفيل وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقًّا عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام.

فخرج إليه رجل كان من أشراف أهل اليمن وملوكهم يقال له ذو نفر.

فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام وما يريده من هدمه وإخرابه. فأجابه من أجابه إلى ذلك، ثم عرض له فقاتله.

فهُزم ذو نفر وأصحابه وأُخذ له ذو نفر فأُتى به أسيرًا.

فلما أراد قتله قال له ذو نفر: يا أيها الملك لا تقتلنى فإنه عسى أن يكون بقائى معك خيرًا لك من القتل. فتركه ولم يقتله وحبسه عنده فى وثاق وكان أبرهة رجلًا حليمًا.

* ومضى أبرهة فى طريقه يريد هدم الكعبة.

ولما وصل إلى أرض (خثعم)، خرج له رجل اسمه نُفيل بن حبيب

الخثعمى ومعه رجال أقوياء من قبيلة خثعم «وهما: شهران وناهس» مع جماعة أخرى من قبائل العرب، فقاتلوا أبرهة الحبشى، فهزمهم أبرهة وأخذ نُفيل بن حبيب أسيرًا.

فلما أراد قتل نُفيل، قال له نُفيل: أيها الملك! لا تقتلنى، فإنى سأعمل معك وسأكون لك دليلًا فى أرض العرب أدلك على الطريق. فتركه أبرهة وخلَّى سبيله على أن يكون دليلًا له يُعرفه الطريق.

* فلما وصل أبرهة إلى بلاد الطائف، خرج إليه رجل اسمه مسعود بن معتب بن مالك ومعه جماعة من رجال ثقيف، فقالوا له: أيها الملك: إنما نحن عبيدك وسوف نكون طوع أمرك وسنرسل معك أيضًا مَنْ يدلك على الطريق إلى الكعبة..

* وسار أبرهة حتى وصل إلى مكان اسمه (المغمس) فأرسل رجلًا من الحبشة يقال له: الأسود ابن مفصود حتى وصل إلى مكة، فأخذ أموال تهَامة من قريش وغيرهم وأخذ مائتى بعيرٍ لعبد المطلب بن هاشم (جَدّ النبى ﷺ)... وكان عبد المطلب كبير قريش وسيدهم.

فأرادت قريش وكنانة وهذيل ومن كان من الحرم أن يقاتلوا أبرهة ولكنهم أحسوا بأنهم لن يقدروا عليه فتركوا ذلك.

* وهناك بعث أبرهة رجلًا اسمه: حناطة الحميرى إلى مكة وطلب منه أن يسأل عن سيد أهل هذا البلد... وأن يخبره بأن أبرهة ما جاء ليقاتلهم وإنما جاء لهدم الكعبة، فإن تركوه يهدم الكعبة، فلن يتعرض لهم.. وإن تعرضوا له فسوف يقتلهم.

ثم قال له أبرهة: فإن وجدت سيد أهل مكة لا يريد حربى فائتنى به، فلما

دخل حناطة مكة، سأل عن سيد قريش وشريفها، فقيل له: عبد المطلب بن هاشم.

فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة.

فقال له عبد المطلب: والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام.

فإن كان الله (عز وجل) سيحفظ بيته ويحميه من أبرهة فهو بيته وحرمه وإن يترك أبرهة يهدمه فليس عندنا أحدٌ يستطيع أن يمنع أبرهة.

* فقال له حناطة: انطلق معى إليه فإنه قد أمرنى أن آتيه بك.

فانطلق معه عبد المطلب ومعه بعض بنيه حتى وصل إلى جيش أبرهة، فسأل عن (ذى نفر)؛ لأنه كان صديقًا له، فعلم أنه محبوس عند أبرهة، فلما دخل عليه قال له: يا ذا نفر هل عندك حيلة نتخلص بها من أبرهة؟

فقال ذو نفر: وهل أملك أى حيلة وأنا رجل أسيرٌ عنده أنتظر أن يقتلنى فى أى وقت... لكنى أعرف شابًّا طيبًا اسمه: أنيس وهو سائس الفيل، فسوف أرسل إليه وأوصيه بك وأعرفه قدرك ومكانتك وأطلب منه أن يستأذن لك لتدخل على أبرهة وتكلمه وسأجعله يشفع لك عند أبرهة بخير إن استطاع.

فقال عبد المطلب: يكفينى هذا يا صديقى.

فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له: عبد المطلب سيد قريش وصاحب عين مكة، يطعم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال، فاستأذن له عليه وانفعه عنده بما استطعت.

قال: أفعل.

فكلم أنيس أبرهة فقال له: أيها الملك! هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك وهو صاحب عين مكة وهو الذى يُطعِم الناس بالسهل والوحوش فى رؤوس الجبال، فائذن له عليك، فليكلمك فى حاجته، فأذن له أبرهة قال: وكان عبد المطلب أوسم الناس وأعظمهم وأجملهم، فلما رآه أبرهة أجلَّه وأكرمه عن أن يجلسه تحته وكره أن تراه الحبشة يُجلسه معه على سرير مُلكه.

فنزل أبرهة عن سريره، فجلس على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جانبه، ثم قال لترجمانه: قل له ما حاجتك؟ فقال له ذلك الترجمان... فقال: حاجتى أن يرد علىَّ الملك مائتى بعير أصابها لى، فلما قال له ذلك، قال أبرهة لترجمانه: قل له لقد كنت أعجبتنى حين رأيتك، ثم قد زهدت فيك حين كلمتنى.

أتكلمنى فى مائتى بعير أصبتها لك وتترك بيتًا هو دينك ودين آبائك قد جئت لأهدمه، لا تكلمنى فيه؟

فقال له عبد المطلب: إنى أنا ربُّ الإبل وإن للبيت ربًّا يحميه.

فقال أبرهة: لا يستطيع أحدٌ مهما كان أن يحمى البيت منى أبدًا.

فقال عبد المطلب: أنت وما تريد.

وهنا أمر أبرهة جنوده فردُّوا على عبد المطلب مائتى بعير.

* فلما خرج عبد المطلب، ذهب إلى قريش وأخبرهم الخبر وأمرهم أن يخرجوا فورًا من مكة وأن يتحصنوا فى رؤوس الجبال.

* ثم قام عبد المطلب وأخذ بحلقة باب الكعبة وقام معه نفرٌ من قريش يدعون الله ويطلبون منه النصر على أبرهة وجنده.

* فلما أصبح أبرهة، تهيأ لدخول مكة وهيأ فيله المرعب وجيشه الكبير وكان اسم الفيل: (محمود).

فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل، ثم أخذ بأذنه فقال: ابرك محمود وارجع راشدًا من حيث أتيت، فإنك فى بلد الله الحرام وأرسل أُذنه. فبرك الفيل... أى: سقط على الأرض.

* وهنا خرج نفيل بن حبيب يجرى حتى صعد الجبل.

وأما أبرهة وجنوده فقد ضربوا الفيل؛ ليقوم من مكانه؛ فأبى فضربوا رأسه بالفأس ليقوم فأبى.

فوجهوه راجعًا إلى اليمن فقام يهرول ويجرى..

ووجهوه إلى المشرق، فقام يهرول ويجرى.

فلما وجهوه إلى مكة، سقط على الأرض وبرك فى مكانه.

* **وهنا كانت المفاجأة الكبرى.**

لما أصر أبرهة وجنوده على هدم الكعبة، أرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف... مع كل طائر منهم ثلاثة حجارة يحملها... حجرٌ فى منقاره وحجران فى رجليه أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدًا إلا أهلكته.

فخرجوا هاربين مرعوبين يبحثون عن الطريق ويسألون عن نُفيل بن حبيب؛ ليدلهم على الطريق إلى اليمن.

* وأُصيب أبرهة فى جسده وخرجوا به تسقط أناملُهُ أُنملة أُنملة.. كلما سقطت أنملة، اتبعتها منه مِدّة تسيل قيحًا ودمًا حتى وصلوا به إلى صنعاء، فانصدع صدره عن قلبه حتى مات.

* وأما أبو رغال الذى بعثته قبيلة ثقيف مع أبرهة ليدله على الطريق إلى مكة، فقد مات فى الطريق بمكان يقال له: (المغمس) فكان العرب يرجمون قبره بالحجارة بعد موته.

* وأما قائد الفيل وسائسه فقد أعمى الله أبصارهما فكانا يجلسان فى الطرقات بمكة يسألون الناس الطعام والشراب.

* وهذا كله جزاء من تعرض لهدم بيت الله الحرام.

فلقد حمى الله بيته الحرام؛ لأنه سيكون قبلة لسيد ولد آدم محمد بن عبد الله ﷺ الذى وُلد فى نفس العام (عام الفيل).

* * *

وقفات لطيفة

*لما أراد أبرهة هدم البيت حجرًا حجرًا، كذلك سقط أنملة أنملة.

لما أراد تصديع البيت فكذا انصدع صدره عن قلبه.

لما زها وعتا بنفسه، وخرج بقوته يريد مكة، فالآن يعود إلى بلاده مثل فرخ الطائر.

والجزاء من جنس العمل.

* قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[1].

*لما تتابعوا على البيت أرسل الله عليهم طيرًا أبابيل، يتبع بعضها بعضًا.

ولما أرادوا نقض البيت، وهدمه حجرًا حجرًا عذبهم الله بالحجارة.

والجزاء من جنس العمل.

* يقول الشنقيطي في أضواء البيان:

وكذلك جيش أبرهة، لما جاء مُدلًّا بعدده وعُدته، وجاء معه بالفيل أقوى الحيوانات، سلط الله عليه أضعف المخلوقات والطيور ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾[2].

* ويقول سيد قطب رحمه الله:

ومما تعظم به القدرة أن يُؤخَذ من استعزَّ بالفيل - وهو أضخم حيوان

(١) سورة الفيل: الآيات (٣ - ٥).

(٢) سورة الفيل: الآيات (٣ - ٥).

من ذوات الأربع جسمًا - ويهلك بحيوان صغير، لا يظهر للنظر، ولا يُدْرَك بالبصر، حيث ساقه القدر،.... لا ريب عند العاقل أن هذا أكبر وأعجب وأبهر[١].

* * *

(١) الظلال (٦/ ٣٩٧٦).

كفار قريش

وهل يستطيع أى مسلم أن ينسى ما فعلته قريش مع النبى ﷺ من صدٍّ عن سبيل الله وإيذاء للنبى ﷺ وأصحابه وقتل وتشريد حتى اضطر النبى ﷺ وأصحابه إلى الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة المنورة ودموع النبى ﷺ على خديه وهو يقول: «**والله إنك لأحب بلاد الله إلى الله وإنك لأحب بلاد الله إلى رسول الله ولولا أن قومى أخرجونى منك ما خرجت**»[(١)].

إنهم الذين آذوا النبى ﷺ أشد الإيذاء واتهموه فى عرضه ودبروا أكثر من مؤامرة لقتل النبى ﷺ.

وقالوا عنه لما مات ابنه أنه الأبتر فقال جل وعلا: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[(٢)].

* يقول سيد قطب رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إن الدعوة إلى الله والحق والخير لا يمكن أن تكون بتراء، ولا يمكن أن يكون صاحبها أبتر، كيف وهى موصولة بالحى الباقى...؟! إنما يُبتر الكفر والباطل والشر، ويُبتر أهله مهما بدا فى لحظة من اللحظات أنه طويل الأجل ممتد الجذور، وصدق الله العظيم، وكذب الكائدون الماكرون[(٣)].

كيف كان جزاء كفار قريش؟

كان الجزاء هو الخزى والذل والعار.

فلقد نصر الله نبيه ﷺ نصرًا مؤزرًا على هؤلاء المجرمين فقُتل منهم مَن

(١) صحيح: رواه الترمذى، بنحوه، وصححه الألبانى فى المشكاة (٢٧٢٤).

(٢) سورة الكوثر الآية: ٣.

(٣) الظلال (٦/ ٣٩٨٩).

قُتل وأُسر منهم مَن أسر.

ودارت الأيام حتى عاد النبى ﷺ فاتحًا منتصرًا ودخل مكة وقد وقف مَن تبقَّى من كفار قريش وهم فى غاية الذل والهوان والخوف فقال لهم نبى الرحمة ﷺ: «**ما تظنون أنى فاعلٌ بكم**» قالوا: خيرًا، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم. قال ﷺ: «**اذهبوا فأنتم الطُّلقاء**»[1].

لقد مات منهم الكثير على الكفر وكانت نهايتهم جهنم وبئس المصير على عداوتهم للنبى ﷺ ولدعوته.

وها هو مشهد من مشاهد الخزى لهم فى الدنيا وهم يُلقَون فى القليب بعد هزيمتهم فى غزوة بدر.

فلقد انتهت غزوة بدر بهزيمة المشركين ومقتل سبعين رجلًا منهم واستُشهد من المسلمين أربعة عشر رجلًا... وأسر المسلمون سبعين من المشركين.

فأمر النبى ﷺ بصناديد قريش وأئمة الكفر منهم أن يُقذَفوا فى بئرٍ خَرِبة من آبار بدر ثم وقف ينادى عليهم:

«**يا أبا جهل بن هشام! يا أمية بن خلف! يا عتبة بن ربيعة! يا شيبة بن ربيعة! أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقًّا؟ فإنى قد وجدت ما وعدنى ربى حقًّا**».

فسمع عمر قول النبى ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يسمعوا وأنَّى يجيبوا وقد قُتلوا؟

---

(١) قال الألبانى رَحِمَهُ اللَّهُ فى الدفاع عن الحديث النبوى (ص ٣٢): هذا الحديث على شهرته ليس له إسناد ثابت وهو عند ابن هشام معضل وقد ضعفه الحافظ العراقى كما بينته فى (تخريج فقه السيرة) (ص ٤١٥).

قال: «والذى نفسى بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا» ثم أمر بهم فسُحبوا فأُلقوا فى قليب بدر [١].

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٨٧٥) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.



إنَّا كفيناك المستهزئين

الإنسان ضعيف بنفسه، تُقعده الشوكة على الفراش مع صغرها وعدم خطورتها،... كيف وقد سلط الله البعوضة على النمرود حتى أقلقت راحته ونغَّصت معيشته، وسلط الجراد والقُمَّل والضفادع على فرعون فعجز أمامها، وهى من أصغر المخلوقات وأحقرها، ولذا كانت «لا حول ولا قوة إلا بالله » كنز من كنوز الجنة يقولها المؤمن ليستمد العون والقوة والحَوْل من الله الواحد القهار، فشُرعت عند سماع الأذان وهو يقول: «حى على الصلاة حى على الفلاح» لتكون بإذن الله تعالى سببًا من أسباب أداء الصلاة جماعة فى المسجد. وعونًا بعد الله على القيام بالعمل بيُسر وسهولة.

إلا أن الشيطان يستهوى كثيرًا من الناس إذ يقودهم إلى الهلاك، عندما يصور لهم أن التدبير لهم والتصرف لهم، والملك فى الوجود كله لهم، وأمر العباد لهم، وما علم المغرورون بالشيطان أنه سرعان ما يتنكر لهم، ويجحد ولاءهم، ويعلن التبرؤ منهم.

ورسالة الرسول ﷺ رسالة خالدة تعرضت من أول وهلة إلى الأذى والصد والإعراض، ووُضع فى طريقها العقبات الكثيرة، وأُوذى صاحبها أشد الإيذاء،... وكان من أكابر المجرمين ورؤساء المعرضين عن الهدى خمسة من رؤساء قريش وهم: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهرى، والأسود بن المطلب أبو زمعة، والحارث بن الطلاطلة، والعاص ابن وائل السهمى، ما تركوا وسيلة من وسائل الأذى إلا عملوها ولا بابًا من أبواب التجريح إلا ولجوه، وقد تكفل الله تعالى

لرسوله بالحفظ والعصمة والكفاية،... قال تعالى: ﴿ إِنَّا كَفَيْنَٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[(١)]، وقال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[(٢)].

ولما اشتد أذى هؤلاء وغيرهم رفع النبي ﷺ أمرهم إلى ربه ليكفيه شرهم، فسلط الله تعالى على كل واحد ما يشغله حتى هلك به، ولا يظلم ربك أحدًا،... قال ابن كثير فى البداية والنهاية الجزء الثالث: قال سفيان عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: المستهزئون هم: الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث الزهرى، والأسود بن المطلب أبو زمعة، والحارث بن الطلاطلة، والعاص بن وائل السهمى، فأتاه جبريل فشكاهم إليه رسول الله ﷺ وهو يعلم أن جبريل مخلوق ليس له حول ولا قوة إلا بالله، غير أنه مُرْسَل من العلى العظيم، وقد أمدَّه الله بقوة عظيمة ... له ستمائة جناح يسد بها ما في الأفق فأشار ﷺ إلى الوليد، فأشار جبريل إلى جرح فى قدم الوليد أصابه قبل ذلك بسنين عندما مَرَّ برجل من خزاعة وهو يريش نبلًا له فأصاب أنمله فقطعها، فانتقض عليه الجرح، فلا زال يَصُبّ دمًا حتى مات منه، ولطالما مشت تلك القدم المجروحة آلاف الخطوات لإطفاء نور الله، ولأذية رسول الله، وللكيد للإسلام، وللتعاون على الإثم والعدوان، ولوضع الآثام فى القلوب والمعاصى فى الجوارح، فقطعها الله تعالى، وجعلها سببًا فى وفاة صاحبها ليريح المسلمين منه، ويطهر الأرض من رجسه.

(١) سورة الحجر: الآية (٩٥).

(٢) سورة الزمر: الآية (٣٦).

وأما الأسود بن عبد يغوث: فأشار جبريل إلى عنقه ثم قال للرسول ﷺ كُفيته فخرج فى رأسه قروح مؤلمة آذته كثيرًا ... ما كان ينام منها ولا يستلذ لطعام ولا لشراب، ولا زالت به حتى قتلته، وقيل أصيب بمرض فى بطنه حتى سَدَّ دُبره، فكان يتغوط من فمه حتى مات، وسبحان الله العظيم الذى لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، لننظر كيف أشغل هذا الرجل برأسه الذى كان يخطط به ضد المسلمين، ويسب به المسلمين ويؤذيهم حتى بَتر الله ذاك الرأس، وكيف جعل الكلام الذى يخرج من فمه ضد الصالحين وهو لا يرتدع ولا يرقب فيهم إلَّا ولا ذمة، جعله الله يرى أثر ذاك الكلام غائطًا يتزقمه ونتنًا يتشدق به، وطعامًا يطعمه، وهكذا كل من أخرج الكلام السيئ من فمه ليعلم أنه بمثابة إخراج غائطه فلا يغتر وليعتبر، وليحمله عفو الله تعالى على التوبة والإنابة ولا يظن أن الإمهال إهمال، فإن الله بكل شىء عليم.

وأما الأسود بن المطلب فأشار جبريل إلى رأسه وقال كُفيته: فأعمى الله تعالى بصره، وأصبح لا يبصر ... وسبب ذلك أنه نزل تحت سَمُرة فجعل يقول: يا بنى ألا تدفعون عنى قد قُتلت قالوا: ما نرى شيئًا فردَّدها وقال: امنعونى فإنى أُقتل، قالوا: والله ما رأينا شيئًا، قال: فإنَّ طَعن الشوك فى عينى قد أعماها علىَّ فجعل يضرب برأسه الجدار ليسكن ألم العين من مرارة الشوك، فلا يزداد إلا ألمًا وكم نظرت تلك العين إلى خطط الكفار فقالت حسنًا ما تفعلون، وكم استكشفت أخبار الرسول ﷺ لتؤذيه، وكم أبغضت أهل الطاعة وأحبت أهل المعصية.

وأما الحارث بن الطلاطلة: فأشار جبريل إلى بطنه ثم قال: كُفيته، فأخذه

الماء الأصفر فى بطنه حتى أهلكه إذ ترك الطعام والشراب، وكل لذة مشغولًا بمغصٍ شديد، واحتقان فى البطن، يتلوى كما تتلوى الحية حتى قتله بطنه، وقيل: بل أصيب فى رأسه حتى سال القيح من رأسه ومات.

وأما العاص بن وائل السهمى: فقد أشار جبريل إلى أخمصه وقال: كُفيته، فخرج على حمار له يريد الطائف فربض به على شُبرقة فدخلت شوكة فى أخمص قدمه فلا زالت به حتى مات من ألمها بعد أن تعطل عن المشى وترك المشاركة لأهل الكفر(١).

وقد كفى الله رسوله هؤلاء وغير هؤلاء ممن حاربوا الدعوة وأرادوا الفتنة وحاولوا إضلال الناس، وحالوا بين عباد الله وبين منهج الله، دُعاة على أبواب جهنم، وهكذا كل من أراد إطفاء نور الله وإهلاك عباد الله الصالحين، فإن الله له لبالمرصاد(٢).

* * *

(١) البداية والنهاية جزء ٣، تفسير القرطبى جزء ١٠، تفسير ابن كثير جزء ٢.

(٢) اتق دعوة المظلوم (ص ٦٩، ٧٢).

أبو جهل (فرعون هذه الأمة)

لقد كان أبو جهل من أشد الناس عداوة للنبى ﷺ وأصحابه فلقد كان يعاديه ويستعدى الناس جميعًا عليه ﷺ.

إيذاء أبى جهل للنبى ﷺ

عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه [١] بين أظهركم؟ - أى: هل يصلى ويسجد - قالوا: نعم.

فقال: واللات والعزى! لئن رأيته يفعل ذلك لأطأن على رقبته أو لأعفرنَّ وجهه فى التراب. قال فأتى رسول الله ﷺ وهو يصلى، من أجل أن يطأ على رقبته، قال: فوجدوه فجأة يرجع إلى الوراء ويتقى بيديه. قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بينى وبينه لخندقًا من نار وهولًا وأجنحة.

فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا منى لاختطفته الملائكة عضوًا عضوًا**»[٢].

موقفه يوم بدر .. ونهايته الأليمة

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بَطَرًا وَرِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٧﴾ ﴾[٣].

* يقول ابن إسحاق:

لما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عِيره، أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم تمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم، فقد نجَّاها الله، فارجعوا، فقال

---

(١) يعفر وجهه: أي: يسجد ويلصق وجهه بالعفر، وهو التراب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٧٩٧) كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

(٣) سورة الأنفال: الآية (٤٧).

أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرًا - وكان بدر موسمًا من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام - فنقيم عليه ثلاثًا، فننحر الجَزور، ونُطعم الطعام، ونسقى الخمر، وتعزف علينا القِيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدًا، فامضوا.

فكان جزاؤهم من جنس عملهم، وصاروا حديث الناس في الذلِّ والهوان.

قال تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِن تَنتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَعُودُوا نَعُدْ وَلَن تُغْنِيَ عَنكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ ﴾[1].

قال الآمدى عن مطرف فى قوله تعالى: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ ﴾، قال: قال أبو جهل: اللهم أَعِن أعزَّ الفئتين، وأكرم القبيلتين، وأكثر الفريقين، فنزلت: ﴿ إِن تَسْتَفْتِحُوا ... ﴾ الآية.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثعلبة: أن أبا جهل قال حين التقى القوم: اللهم، أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرف، فأَحْنِهِ[2] الغداة، فكان هو المستفتح[3].

وقال الطبرانى عن رفاعة بن رافع قال: لما رأى إبليس ما فعل الملائكة بالمشركين يوم بدر، أشفق أن يخلص إليه، فتشبث به الحارث بن هشام وهو يظن أنه سراقة بن مالك فوكز فى صدر الحارث، ثم خرج هاربًا حتى

---

(١) سورة الأنفال: الآية (١٩).

(٢) أي اجعل حينه غدًا.

(٣) رواه أحمد وابن إسحاق، والنسائى، والحاكم وقال: صحيح على شرط الشيخين ولم يُخرجاه، انظر البداية والنهاية (٣/ ٢٨٢).

ألقى نفسه فى البحر، ورفع يديه فقال: اللهم إنى أسألك نظرتك إياى، وخاف أن يُخْلص القتل إليه، وأقبل أبو جهل فقال: يا معشر الناس، لا يهولنكم خذلان سراقة بن مالك، فإنه كان على ميعاد من محمد، ولا يهولنكم قتل شيبة وعتبة والوليد، فإن عجلوا .. فواللات والعُزى، لا نرجع حتى نفرقهم فى الجبال، فلا ألفين رجلًا منكم قتل رجلًا، ولكن خذوهم أخذًا، حتى تُعرفوهم سوء صنيعهم من مفارقتهم إياكم، ورغبتهم عن اللات والعزى، ثم قال أبو جهل متمثلًا:

ما تنقم الحرب الشموس منِّى
بازل عامين حديث سنٍّ
لمثل هذا ولدتنى أمى

ولكن سرعان ما تبدَّى له حقيقة هذه الغطرسة، فما لبث إلا قليلًا حتى أخذت الصفوف تتصدع أمام تيارات هجوم المسلمين،... نعم بقى حوله عصابة من المشركين، ضربت حوله سياجًا من السيوف وغابات من الرماح، ولكن عاصفة هجوم المسلمين بدَّدت هذه السياج، وأقلعت هذه الغابات، وحينئذ ظهر هذا الطاغية، ورآه المسلمون يجول على فرسه، وكان الموت ينتظر أن يشرب من دمه بأيدى غلامين أنصاريين[١].

* عن عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: (بينما أنا واقف فى الصف يوم بدر، نظرت عن يمينى وشمالى، فإذا أنا بين غلامين من الأنصار حديثة أسنانهما، تمنيت لو كنت بين أضلع منهما[٢]، فغمزنى[٣] أحدهما فقال:

(١) الرحيق المختوم (ص ٢٣٢).
(٢) أضلع: أقوى وأعظم وأشد.
(٣) غمزنى: قرصنى.

يا عم هل تعرف أبا جهل؟ قال: قلت: نعم وما حاجتك إليه يا ابن أخى؟ قال: أُخبرت أنه يسب رسول الله، والذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده، حتى يموت الأعجل منا.

قال: فتعجبت لذلك، فغمزنى الآخر فقال مثلها.

قال: فلم أنشب[١] أن نظرت إلى أبى جهل يزول فى الناس فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذى تسألان عنه، قال: فابتدراه بسيفيهما حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ فأخبراه. فقال: «**أيكما قتله؟**» فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، فقال: «**هل مسحتما سيفيكما؟**» قالا: لا. فنظر فى السيفين فقال: «**كلاكما قتله**»، وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح... والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومعاذ بن عفراء»[٢].

فرعون هذه الأمة

* عن أنس رضي الله عنه قال: «قال رسول الله ﷺ يوم بدر: «**من ينظر ما صنع أبو جهل؟**» فانطلق ابن مسعود فوجده قد ضرباه «أبناء عفراء حتى برد[٣]، فأخذ بلحيته فقال: أنت أبو جهل، قال: وهل فوق رجل قتله قومه أو قال: قتلتموه»[٤].

* وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أدركت أبا جهل يوم بدر صريعًا، فقلت: أى عدو الله قد أخزاك الله؟

قال: وبما أخزانى؛ من رجل قتلتموه. ومعى سيف لى، فجعلت أضربه

---

(١) أنشب: ألبث.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٣٩٨٨) كتاب المغازى، ومسلم (١٧٥٢) كتاب الجهاد.

(٣) برد: قارب على الموت وكان فى النزع الأخير.

(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٣٩٦٣) كتاب المغازى، ومسلم (١٨٠٠) كتاب الجهاد.

ولا يحتك فيه شيء، ومعه سيف له جيد، فضربت يده فوقع السيف من يده فأخذته، ثم كشفت المِغفر عن رأسه فضربت عنقه، ثم أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «**الله الذى لا إله إلا هو؟**».

قلت: الله الذى لا إله إلا هو.

قال: انطلق فاستثبت ... فانطلقت وأنا أسعى مثل الطائر، ثم جئت وأنا أسعى مثل الطائر أضحك فأخبرته.

فقال رسول الله ﷺ: «**انطلق**» فانطلقت معه فأريته، فلما وقف عليه ﷺ قال: «**هذا فرعون هذه الأمة**»(١).

* * *

(١) أخرجه الهيثمى فى المجمع (٦/ ٧٩) وقال: رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن وهب بن أبى كريمة وهو ثقة، قال عنه فى التقريب (٢/ ٦١٢): صدوق من العاشرة فيكون الحديث حسنًا.

أبو لهب وامرأته حمَّالة الحطب

وأبو لهب هذا الذى أفرد الله ذكره من كفار قريش، هو أحد أعمام رسول الله ﷺ، واسمه عبد العُزى بن عبد المطلب، وكُنيته أبو عتبة، وإنما سُمِّى أبا لهب؛ لإشراق وجهه، ولتلهُّب وجنتيه، وكأن كنيته من جنس عمله ومآله إلى ذات اللهب، فوافقت حاله كنيته فحسن ذكره بها، وامرأته أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهى أخت أبى سفيان.

ولقد كان أبو لهب كثير الأذية لرسول الله ﷺ والبغض له، والازدراء به. والتنقُّص له ولدينه.

وانظر إلى نموذج من نماذج كيد أبى لهب لدعوة الرسول ﷺ، التى عاداها من اليوم الأول للدعوة.

روى الإمام أحمد، عن ربيعة بن عبَّاد من بنى الدِّيَل - وكان جاهليًّا، فأسلم - قال: رأيت النبى ﷺ فى الجاهلية، فى سوق ذى المجاز وهو يقول: «**يا أيها الناس، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**» والناس مجتمعون عليه، ووراءه رجل وضىء الوجه أحول ذو غديرتين، يقول: إنه صابئ كاذب. يتبعه حيث ذهب، فسألت عنه فقالوا: هذا عمه أبو لهب.

وروى محمد بن إسحاق عن ربيعة بن عبَّاد الدَّيلى قال: إنى لمع أبى غلام شاب، أنظر إلى رسول الله ﷺ يتبع القبائل، ووراءه رجل أحول وضىء ذو جمة يقف رسول الله ﷺ على القبيلة فيقول: «**يا بنى فلان، إنى رسول الله إليكم، آمركم أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئًا وأن تصدقونى وتمنعونى حتى أنفذ عن الله ما بعثنى به** » وإذا فرغ من مقالته قال الآخر من خلفه: يا بنى فلان، هذا يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزى، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيس، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا

تسمعوا له وتتبعوه فقلت لأبى: من هذا؟ قال: عمه أبو لهب [١].

قال تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ [٢].

روى البخارى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبى ﷺ خرج إلى البطحاء فصعد الجبل فنادى: «**يا صباحاه**» فاجتمعت إليه قريش، فقال: «**أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مُصبِّحكم أو مُمسيكم أكنتم تصدقونى؟!**» قالوا: نعم. قال: «**فإنى نذيرٌ لكم بين يدى عذاب شديد**». فقال أبو لهب: ألهذا جمعتنا؟ تبًا لك. فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [٣].

وفى رواية: فقام ينفض يديه وهو يقول: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [٤].

*** فانظر كيف كان جزاؤه من جنس عمله:**

من أول يوم ينفرد هذا الكافر بالكيد للرسول ﷺ وتَتبُّع خُطاه، والرد على مقالته، فأفرد الله ذكره، وشهره بكنيته دون بقية صناديد الكفر من قريش.

ولما قال للرسول ﷺ: تبًّا لك وقام ينفض يديه، فتنزل السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبى لهب وامرأته، وتولى الله سبحانه عن رسول الله ﷺ أمر المعركة.

قال: تبا لك، فكان الجزاء ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ دعاءٌ بدعاء، ولفظٌ بلفظ.

---

(١) رواه أحمد والطبرانى.

(٢) سورة المسد: الآيات: (١-٥).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٩٧٢) كتاب التفسير.

(٤) صحيح: رواه البخارى (١٣٩٤) كتاب الجنائز.

نفض يديه، فجاء ذكر اليدين: ﴿تَبَّتْ يَدَآ﴾ ... واحدة بواحدة...

* ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ﴾.

قال ابن عباس: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يعنى ولده.

وروى عن عائشة ومجاهد وعطاء والحسن وابن سيرين مثله. لما دعا الرسول ﷺ قومه إلى الإيمان، قال أبو لهب: إن كان ما يقول ابن أخى حقًّا، فإنى أفتدى نفسى، يوم القيامة من العذاب بمالى وولدى.

ولما أجمع بنو هاشم بقيادة أبى طالب على حماية النبى ﷺ ولو لم يكونوا على دينه؛ تلبية لدافع العصبية القبلية، خرج أبو لهب على إخوته، وحالف عليهم قريشًا، وكان معهم فى الصحيفة التى كتبوها بمقاطعة بنى هاشم، وتجويعهم كى يُسلِّموا لهم محمدًا ﷺ: وكان قد خطب بنتى الرسول ﷺ رقية وأم كلثوم، لولديه قبل بعثة النبى ﷺ فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما، حتى يُثقل كاهل محمد ﷺ بهما!

* **قال الله ﷻ لنبيه محمد ﷺ:** ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾[١].

عن عطاء: نزلت فى أبى لهب، وذلك حين مات ابن الرسول ﷺ.

فذهب أبو لهب إلى المشركين وقال: بُتر محمد الليلة. فأنزل الله فى ذلك: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾.

ولم يقضِ الله له ولا لامرأته أن يؤمنا، ولا لواحد منهما ولا ظاهرًا ولا باطنًا، ولا سرًّا ولا معلنًا؛ فكان هذا من أقوى الأدلة الباهرة على النبوة الظاهرة[٢].

---

(١) سورة الكوثر: الآية: (٣).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٥٣٧).

كيف كانت نهاية ابنه

* وكان أبو لهب قد زوَّج ولديه عُتبة وعُتيبة ببنتى رسول الله ﷺ رقية وأم كلثوم قبل البعثة فلما كانت البعثة أمرهما بتطليقهما بعنف وشدة، حتى طلَّقاهما»[١].

* قال الشهاب : والذى صححه أهل الأثر أن أولاده ، لعنه الله ، ثلاثة : متعب وعتبة وهما أسلما ، وعُتيبة - مُصغرًا - وهذا هو الذى دعا عليه النبى ﷺ لما جاهر بإيذائه وعداوته ، وردَّ ابنته وطلقها ؛ وقال صلوات الله عليه وسلامه : «**اللهم سلِّط عليه كلبًا من كلابك**». وفيه يقول حسان رضي الله عنه :

من يرجعُ العامَ إلى أهلِهِ فما أكِيلُ السَّبْعِ بالراجعِ[٢]

* قال ابن كثير: روى ابن عساكر فى ترجمة عتبة بن أبى لهب من طريق محمد بن إسحاق عن هبار بن الأسود قال: كان أبو لهب وابنه عتبة قد تجهزا إلى الشام، فتجهزت معهما، فقال ابنه عتبة: والله لأنطلقن إلى محمد ولأوذينه فى ربه - سبحانه - فانطلق حتى أتى النبى ﷺ فقال: يا محمد، هو يكفر بالذى دنا فتدلى، فكان قاب قوسين أو أدنى.

فقال النبى ﷺ: «**اللهم، ابعث إليه كلبًا من كلابك**».

ثم انصرف عنه فرجع إلى أبيه، فقال: يا بنى ما قلت له؟

فذكر ما قال له.

قال: فما قال لك؟

قال: قال: «**اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك**».

---

(١) تفهيم القرآن (٦/ ٥٢٢).

(٢) محاسن التأويل للقاسمى (١٧/ ٦٢٩٢).

قال: يا بنى والله ما آمن عليك دعاءه[١].

وفى رواية عروة بن الزبير: أن عتبة بن أبى لهب وكان تحته بنت رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى الشام، فقال: لآتين محمدًا فلأوذينه.

فأتاه فقال: يا محمد، هو كافر بالنجم إذا هوى، وبالذى دنا فتدلى، ثم تفل فى وجه رسول الله ﷺ وردَّ عليه ابنته وطلقها، فقال رسول الله ﷺ: «**اللهم سلط عليه كلبًا من كلابك**».

وكان أبو طالب حاضرًا، فوجم لها وقال: ما كان أغناك يا ابن أخى عن هذه الدعوة، فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره[٢].

فسرنا حتى نزلنا الشراة[٣]، وهى مأسدة[٤]، فنزلنا إلى صومعة راهب، فقال: يا معشر العرب ما أنزلكم هذه البلاد، فإنها تسرح الأُسد فيها كما تسرح الغنم، فقال لنا أبو لهب: إنكم قد عرفتم كِبر سنى وحقى، وإن هذا الرجل قد دعا على ابنى دعوة والله ما آمنها عليه، فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة، وافرشوا لابنى عليها ثم افرشوا حولها، ففعلنا فجاء الأسد فشم وجوهنا، فلما لم يجد ما يريد؛ تقبَّض، فوثب فإذا هو فوق المتاع فشم وجهه ثم هزمه هزمة[٥]، ففضح[٦] رأسه، فقال أبو لهب: قد عرفت أنه لا ينفلت عن دعوة محمد.

---

(١) ابن كثير (٨/ ٤٢١)، وقال الحافظ ابن حجر فى فتح البارى (٤/ ٣٩): حسن.

(٢) القرطبى (٩/ ٦٢٥٣).

(٣) الشراة: صقع بالشام بين دمشق ومدينة الرسول ﷺ. وفى اللسان: موضع تُنسب إليه الأسد. يقال للشجعان: ما هم إلا أسود الشرى، والشرى طريق فى سلمى كثير الأسد.

(٤) الأرض كثيرة الأسود.

(٥) أى ضربه ضربة.

(٦) أى: شدخه.

فانظر أخى يرحمك الله .. لما تفل فى وجه رسول الله ﷺ أتى الأسد، فشم وجهه، وفضح رأسه، لم يأكله من يديه أو رجليه، وإنما وجه بوجه.

* * *

إيذاء زوجة أبي لهب للنبي ﷺ

وكانت امرأة أبى لهب - أم جميل، أروى بنت حرب بن أمية أخت أبى سفيان - لا تقلّ عن زوجها فى عداوة النبى ﷺ فقد كانت تحمل الشوك وتضعه فى طريق النبى ﷺ وعلى بابه ليلًا، وكانت امرأة سليطة تبسط فيه لسانها، وتطيل عليه الافتراء والدَّس، وتثير حربًا شعواء على النبى ﷺ ولذلك وصفها القرآن بحمالة الحطب، ولما سمعت ما نزل فيها وفى زوجها من القرآن أتت رسول الله ﷺ وهو جالس فى المسجد عند الكعبة، ومعه أبوبكر الصديق، وفى يدها حجارة، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول الله ﷺ فلا ترى إلا أبا بكر، فقالت: يا أبا بكر أين صاحبك؟ قد بلغنى أنه يهجونى، والله لو وجدته لضربت بهذا الحجر فاه، أما والله إنى لشاعرة، ثم قالت:

مُذممًا عصينا. وأمره أبينا. ودينه قلينا.

ثم انصرفت، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال: ما رأتنى، لقد أخذ الله ببصرها عنى[1][2].

وروى الحافظ عن ابن عباس قال: لما نزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ جاءت امرأة أبى لهب .. ورسول الله ﷺ جالس، ومعه أبو بكر. فقال له أبو بكر: لو تَنَحَّيت لا تُؤذيك بشىء. فقال رسول الله ﷺ: «**إنه سَيُحال بينى وبينها**». فأقبلت حتى وقفت على أبى بكر فقالت: يا أبا بكر، هجانا

---

(١) ابن هشام (١/ ٣٣٥، ٣٣٦).

(٢) رواه البيهقى (٢/ ١٩٥) والحاكم (٢/ ٣٦١) وصححه ووافقه الذهبى، وانظر صحيح السيرة النبوية للعلامة الألبانى رحمه الله (ص ١٣٧ - ١٣٨).

صاحبك. فقال أبو بكر: لا ورب هذه البنية ما نَطَق بالشعر ولا يتفوه به. فقالت: إنك لمُصدَّق، فلما ولَّت قال أبو بكر، رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ما رأتك؟ قال: «لا .. **ما زال ملك يسترني حتى ولَّت**»[١].

نهاية أم جميل (زوجة أبي لهب)

فبعد أن كانت تأتى كل يوم بحزمة كبيرة من الشوك وترميه فى طريق النبى ﷺ... جاء اليوم الذى كان فيه هلاكها.

فبينما هى تحمل حزمة من الشوك فتعبت فجلست لتستريح فجذبها المَلَك من خلفها فخنقها بحبلها.

قال ابن كثير عن أم جميل:

«كانت عونًا لزوجها على كفره وجحوده وعناده، فلهذا تكون يوم القيامة عونًا عليه فى عذابه فى نار جهنم، ولهذا قال: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ﴾[٢] يعنى: تحمل الحطب فتلقى على زوجها، ليزداد على ما هو فيه، وهى مهيأة لذلك، مستعدة له»[٣].

قال سعيد بن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة، فقالت: لأنفقنَّها فى عداوة محمد، فأعقبها الله بها حبلًا فى جِيدها من مسد النار.

وعن الثورى: هى قلادة من نار طولها سبعون ذراعًا. والجزاء من جنس العمل[٤].

---

(١) ابن كثير (٨/ ٥٣٧).

(٢) سورة المسد: الآيتان: (٤، ٥).

(٣) تفسير ابن كثير (٤/ ٥٣٥).

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٥٣٦).

* يقول سيد قطب فى الظلال:

أبو لهب. ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴾. ستصلاها وفى عنقها حبل من مسد، تناسق فى اللفظ ، وتناسق فى الصورة. فجهنم هى نار ذات لهب. يصلاها أبو لهب! وامرأته تحمل الحطب وتلقيه فى طريق محمد لإيذائه، والحطب مما يوقد به اللهب. وهى تحزم الحطب بحبل. فعذابها فى النار ذات اللهب أن تُغلَّ بحبل من مسد. ليتم الجزاء من جنس العمل[1].

كيف كانت نهاية أبي لهب

شاء الله أن يموت أبو لهب بعد غزوة بدر.. ولكن تأمل كيف كان موته عبرة لمن يعتبر.

لقد أصيب بمرض شديد اسمه العدسة وكان من الأمراض الشديدة المُعدِية وكانت قريش تخشى من ذلك المرض.

فلما أُصيب بهذا المرض ومات تركه ابناه بعد موته ثلاثة أيام ما دفناه حتى أنتن حتى قال لهما رجل من قريش:

ويحكما، ألا تستحيان أن أباكما قد أنتن فى بيته لا تدفنانه؟ فقالا: إنا نخشى عدوة هذه القرحة. فقال: انطلقا فأنا أعينكما عليه، فوالله ما غسلوه إلا قذفًا بالماء عليه من بعيد ما يدنون منه، ثم احتملوه إلى أعلى مكة، فأسندوه إلى جدارٍ، ثم رجموا عليه بالحجارة.

* * *

(١) الظلال (٦/ ٤٠٠٠).

الوليد بن المغيرة

قال تعالى عن هذا المجرم العاتى الذى كان من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرْطُومِ﴾[١].

﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ أى ولا تُطع يا محمد كثير الحلف بالحق والباطل، الذى يُكثر من الحلف مستهينًا بعظمة الله.

﴿مَّهِينٍ﴾ أى فاجر حقير.

﴿هَمَّازٍ﴾ أى مغتاب يأكل لحوم الناس بالطعن والعيب.

﴿مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ أى يمشى بالنميمة بين الناس ، وينقل حديثهم ليوقع بينهم وهو الفتان ، وفى الحديث الصحيح: «**لا يدخل الجنة نمام**»[٢].

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أى بخيل ممسك عن الإنفاق فى سبيل الله.

﴿مُعْتَدٍ أَثِيمٍ﴾ أى ظالم متجاوز فى الظلم والعدوان ، كثير الآثام والإجرام ... وجاءت الأوصاف [حلاف ، هماز ، مشاء ، مناع] بصيغة المبالغة للدلالة على الكثرة.

﴿عُتُلٍّ﴾ أى جافٍ غليط ، قاسى القلب ، عديم الفهم.

﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ أى بعد تلك الأوصاف الذميمة التى تقدمت.

﴿زَنِيمٍ﴾ أى ابن زنا ، وهذه أشد معايبه وأقبحها ، أنه لصيق دَعِيٌّ ليس له نسب صحيح ... قال المفسرون : نزلت فى «الوليد بن المغيرة» فقد كان

---

(١) سورة القلم: الآيات (١٠-١٦).

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٦٠٥٦) كتاب الأدب، ومسلمٌ (١٠٥) كتاب الإيمان، واللفظ له.

دَعيًّا فى قريش وليس منهم ، ادَّعاه أبوه بعد ثمان عشرة سنة - أى تبناه ونسبه لنفسه بعد أن كان لا يُعرف له أب - قال ابن عباس : لا نعلم أحدًا وصفه الله بهذه العيوب غير هذا ، فألحق به عارًا لا يفارقه أبدًا ، وإنما ذُمَّ بذلك لأن النطفة إذا خبثت خبث الولد ، وروى أن الآية لما نزلت جاء الوليد إلى أمه فقال لها : إن محمدًا وصفنى بتسع صفات ، كلها ظاهرة فىَّ ، أعرفها غير التاسع منها!! يريد أنه ﴿زَنِيمٍ﴾ فإن لم تَصْدُقينى ضربت عنقك بالسيف ، فقالت له : إن أباك كان عِنِّينًا - أى لا يستطيع معاشرة النساء - فخفت على المال فمكَّنت راعيًا من نفسى ، فأنت ابن ذلك الراعى ، فلم يعرف أنه ابن زنا حتى نزلت الآية[1].

﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ أى لأنه كان ذا مال وبنين ، كَفَر بالله وقال فى القرآن ما قال ، وزعم أنه أساطير الأولين ؟[2] وكان ينبغى أن يقابل النعمة بالشكر ، لا بالجحود والتكذيب.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أى إذا قُرئت آيات القرآن على ذلك الفاجر ، قال مستهزئًا ساخرًا : إنها خرافات وأباطيل المتقدمين ، اختلقها محمد ونسبها إلى الله ، قال تعالى ردًّا عليه متوعدًا له بالعذاب ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أى سنجعل له علامة على أنفه بالخطم عليه ، يُعرَف بها إلى موته ، وكَنَّى بالخرطوم عن أنفه على سبيل الاستخفاف به ، لأن الخرطوم للفيل والخنزير ، فإذا شُبِّه أنف الإنسان به كان ذلك غاية فى الإذلال والإهانة ، كما يُعبَّر عن شفاه الناس بالمشافر ، وعن أيديهم

(١) انظر تفسير الجلالين وحاشية الصاوى عليه (٤/ ٢٣٣).

(٢) اختار الطبرى وابن كثير هذا المعنى أن الآية متعلقة بما بعدها أى: لأنه ذو مال وبنين يتكبر بماله وبنيه ويقول إن القرآن خرافات وأباطيل.

وأرجلهم بالأظلاف والحوافر ، قال ابن عباس : سنخطم أنفه بالسيف[1] فنجعل ذلك علامة باقية على أنفه ما عاش ، وقد خُطم يوم بدر بالسيف.

قال الإمام الفخر: لما كان الوجه أكرم موضع فى الجسد ، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه ، ولذلك جعلوه مكان العزة والحمية، واشتقوا منه الأَنَفة ، وقالوا فى الذليل : رَغِم أنفه ، فعبَّر بالوسم على الخرطوم عن غاية الإذلال والإهانة ، لأن السمة على الوجه شَين ، فكيف على أكرم موضع من الوجه[2][3]! !

* قال سيد قطب رَحِمَهُ اللَّهُ:

وقد قيل: إنه الوليد بن المغيرة ، وإنه هو الذى نزلت فيه كذلك آيات من سورة المدثر : ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ [المدثر: ١١]... الآيات.

ورُويت عنه مواقف كثيرة فى الكيد لرسول الله ﷺ وإنذار أصحابه ، والوقوف فى وجه الدعوة ، والصدِّ عن سبيل الله.

وهذه الحملة القرآنية العنيفة فى هذه السورة ، والتهديدات القاصمة فى السورة الأخرى ، وفى سواها ، شاهد على شدة دوره سواء كان هو الوليد أو الأخنس والأول أرجح ، فى حرب الرسول والدعوة ، كما هى شاهد على سوء طويته ، وفساد نفسه ، وخلوها من الخير .

فهو ﴿زَنِيمٍ ﴾، وهذه خاتمة الصفات الذميمة الكريهة المتجمعة فى عدو من أعداء الإسلام وما يعادى الإسلام ويصر على عداوته إلا أُناس من هذا الطراز الذميم.

---

(١) واختار غيرهما أن الآية متعلقة بما سبق أى لا تطعه بسبب كثرة ماله وولده.

(٢) تفسير الفخر الرازى (٣٠/ ٨٦).

(٣) صفوة التفاسير (٣/ ٤٠٢-٤٠٣).

ومن ثَمَّ يجيء التهديد من الجبار القهار ، يلمس في نفسه موضع الاختيال والفخر بالمال والبنين؛ كما لمس وصفه من قبل موضع الاختيال بمكانته ونَسَبِه .

ويسمع وعد الله القاطع : ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ .

والتهديد بوسمه على الخرطوم يحوى نوعين من الإذلال والتحقير .

الأول: الوسم كما يوسم العبد . .

والثاني: جعل أنفه خرطومًا كخرطوم الخنزير!

إنها القاصمة التي يستأهلها عدو الإسلام وعدو الرسول الكريم صاحب الخلق العظيم[1] .

* قال الفخر الرازي:

﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ أن في الآية احتمالًا آخر عندي ، وهو أن ذلك الكافر إنما بالغ في عداوة الرسول وفي الطعن في الدين الحق بسبب الأنفة والحمية ، فلما كان منشأ هذا الإنكار هو الأنفة والحمية كان منشأ عذاب الآخرة هو هذه الأنفة والحمية ، فعبَّر عن هذا الاختصاص بقوله : ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ .

وقال تعالى عنه: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِآيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ ٱلْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾[2] .

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٦٣-٣٦٦٤).

(٢) سورة المدثر: الآيات (١١-٢٩).

﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ وهو أسلوب بليغ فى التهديد ، كما نزلت فيه الآيات المتقدمة فى سورة نون.

وهو الذى أذى رسول الله ﷺ وكاد له ، فإن صناديد قريش لما برموا برسول الله ، وضاقت عليهم الحيل فى إسكاته ، وإطفاء نور دعوته ، لجأوا إلى الوليد ، فأشار عليهم بأن يُلقِّبوه ﷺ بالساحر ، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم ، أن ينادوا بذلك فى مكة ، فجعلوا ينادون أن محمدًا ساحر ، فحزن لذلك رسول الله ﷺ فنزلت الآيات الكريمة ، فى معرض تهديده وتخويفه ، ليكون ذلك أدعى للكسر من كبريائه ، ثم قال تعالى :

﴿ وَجَعَلۡتُ لَهُۥ مَالٗا مَّمۡدُودٗا ﴾ أى جعلت له المال الواسع المبسوط ، من الإبل ، والخيل ، والأغنام والبساتين النضرة ، قال البيضاوى : ﴿مَّمۡدُودٗا ﴾ أى مبسوطًا كثيرًا ، وكان له الزرع والضرع والتجارة[1] قال ابن عباس : كان ماله ممدودًا ما بين مكة والطائف ، وقال مقاتل : كان له بستان لا ينقطع نفعه شتاءً ولا صيفًا[2].

﴿وَبَنِينَ شُهُودٗا﴾ أى وأولادًا مقيمين معه فى بلده ، يحضرون معه المحافل والمجامع ، يستأنس بهم ولا يتنغص عيشه لفراقهم ... قال المفسرون : كان له عشرة بنين لا يفارقونه سفرًا ولا حضرًا ، وكان مستأنسًا بهم ، وله بهم عِزٌّ ومنعة ، أسلم منهم ثلاثة « خالد ، وهشام ، والوليد »[3].. وبعد أن ذكر من مظاهر النعم المال والبنين ، عاد فعمَّم الخيرات الدنيوية التى أنعم

---

(١) تفسير البيضاوى (٢/ ٤٩٢).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٨).

(٣) ذكر بعض المفسرين تبعًا للزمخشرى أن الذين أسلموا «خالد، وعمارة، وهشام» والصحيح أنه الوليد فأما عمارة فإنه مات كافرًا. وانظر حاشية الشهاب (٨/ ٢٧٤).

بها الله عليه فقال : ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا﴾ أى بسطت بين يديه الدنيا بَسطًا ، ويسَّرت له تكاليف الحياة ، ومظاهر الجاه والعز والسيادة ، فكان فى قريش عزيزًا منيعًا ، وسيدًا مُطاعًا.

﴿ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ﴾ أى ثم بعد هذا العطاء الجزيل ، يطمع أن أزيد له فى ماله وولده ، وقد كفر بى ! ! قال الفخر الرازى : لفظ ﴿ثُمَّ﴾ هنا للإنكار والتعجب ، كما تقول لصاحبك : أنزلتك دارى ، وأطعمتك وأكرمتك ثم أنت تشتمنى! ![1] أى ومع كل هذا الإنعام والإكرام فقد كفر وجحد ، وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان ، ويقابله بالطاعة والإيمان ، عكس الأمر وقابله بالجحود والكفران.

﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ وزجرٌ ... أى ليرتدع هذا الفاجر الأثيم ، عن ذلك الطمع الفاسد ، ثم علل ذلك بقوله:

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا﴾ أى لأنه معاند للحق ، جاحد بآيات الله ، مكذب لرسوله ، فكيف يطمع بالزيادة هذا الشقى العنيد ؟

﴿سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا﴾ أى سأكلفه وأُلجئه إلى عذاب صعب شاق لا يُطاق ، تضعف عنه قوته ، كما تضعف قوة من يصعد فى الجبل ، قال القرطبى : ﴿صَعُودًا﴾ صخرة ملساء يُكلَّف صعودها ، فإذا صار فى أعلاها حدر فى جهنم، فيهوى ألف عام قبل أن يبلغ قرارها[2] وفى الحديث : «**الصَّعود جبل من نار ، يصعد فيه الكافر سبعين خريفًا ، ثم يهوى فيه كذلك أبدا**»[3] .

﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ أى إنه فكر فى شأن النبى والقرآن ، وأجال رأيه وذهنه

---

(١) التفسير الكبير (٣٠/ ١٩٩).

(٢) تفسير القرطبى (١٩/ ٧٢).

(٣) أخرجه الترمذى والحاكم وصححه.

الثاقب ، ثم رتَّب وهيأ كلامًا فى نفسه ، ماذا يقول فى القرآن ؟ وبماذا يطعن فيه ؟ قال تعالى دعاءً عليه :

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أى قاتله الله وأخزاه ، على تلك الكلمة الحمقاء التى أجالها فى نفسه ، حيث قال عن القرآن : إنه سحر ، وقال عن محمد : إنه ساحر ، وفى الآية استهزاء به وتهكُّم ، حيث قدر ما لا يصح تقديره ، ولا يسوغ أن يقوله عاقل ... قال فى البحر : يقول العرب عند استعظام الأمر والتعجب منه : قاتله الله ، ومرادهم أنه قد بلغ المبلغ الذى لا يُحسَد عليه ، ويُدعَى عليه من حُسَّاده ، والاستفهام فى قوله : ﴿كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ؟ فى معنى ما أعجب تقديره وما أغربه ؟ كقولهم أى رجل هذا ؟ أى ما أعظمه[1].

﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ كرر العبارة تأكيدًا لذمِّه وتقبيحًا لحاله ، ولغاية التهكم به ، كأنه قال : قاتله الله ما أروع تفكيره ، وأبدع رأيه الحصيف[2]؟ حيث قال عن القرآن إنه سحر يُؤْثَر ... قال المفسرون : مر الوليد بالنبى ﷺ وهو يصلى ويقرأ القرآن ، فاستمع لقراءته وتأثر بها ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من (بنى مخزوم) فقال : والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ، ما هو من كلام الإنس، ولا من كلام الجن ، والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدِق ، وإنه ليعلو وما يُعلَى عليه، ثم انصرف إلى منزله ، فقالت قريش : لقد صبأ والله الوليد ، ولتصبأن قريش كلها! فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فانطلق حتى جلس إلى جانب الوليد حزينًا ، فقال له الوليد : ما لى أراك حزينًا يا ابن أخى ؟ ! فقال : كيف

(١) البحر المحيط (٨/ ٣٧٤).

(٢) هذا كما قال الزمخشرى: ثناء عليه بطريق الاستهزاء والتهكم بمعنى أن ما أتى به فى غاية الركاكة والسقوط.

لا أحزن ، وهذه قريش تجمع لك مالًا ، ليعينوك به على كبر سنك ، ويزعمون إنك زينت كلام محمد ، وصبأت لتصيب من فضل طعامه ، وتنال من ماله ! ! فغضب الوليد وقال : ألم تعلم قريش أنى من أكثرهم مالًا وولدًا؟! وهل شبع محمد وأصحابه من الطعام ، حتى يكون لهم فضل طعام؟ ثم قام مع أبى جهل حتى أتى مجلس قومه فقال لهم : تزعمون أن محمدًا مجنون فهل رأيتموه يخنق ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه تكهَّن قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه نطق بشِعرٍ قط ؟ قالوا : اللهم لا ، قال : تزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه كذبًا قط ؟ قالوا : اللهم لا ، فقالت قريش للوليد : فما هو ؟ ففكر فى نفسه ثم قال : ما هو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده؟ وما هذا الذى يقوله إلا سحر يُؤْثَر ، فذلك قوله تعالى : ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ الآيات[1] لقد تركنا الوليد يفكر ويقدر ، ولنرجع إليه لنرى ماذا فعل بعده ؟ قال تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أى أجال النظر مرة أخرى متفكرًا فى شأن القرآن.

﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ أى ثم قطَّب وجهه وكلحه ضيقًا بما يقول.

﴿وَبَسَرَ﴾ أى وزاد فى القبض والكلوح كالمهتم المتفكر فى أمر يدبره ، قال فى التسهيل : البسور تقطيب الوجه وهو أشد من العبوس[2].

﴿ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ أى ثم أعرض عن الإيمان ، وتكبر عن اتباع الهدى والحق.

---

(١) انظر تفسير القرطبى (١٩/ ٧٣)، والخازن (٤/ ١٧٦)، والتفسير الكبير (٣٠/ ٢٠١)، وانظر السيرة النبوية لابن هشام.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل (٤/ ١٦١).

﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ﴾ أى فقال : ما هذا الذى يقوله محمد إلا سحر ينقله ويرويه عن السحرة.

﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾ أى ليس هذا كلام الله ، وما هو إلا كلام المخلوقين ، يخدع به محمد القلوب ، ويؤثر فيها كما يؤثر السحر بالمسحور ... قال الألوسى : هذا كالتأكيد للجملة الأولى ، لأن المقصود منهما نفى كونه قرآنا أو من كلام الله تعالى، ولذلك لم يعطف عليها بالواو، وفى وصف إشكاله واستنباطه هذا القول السخيف ، استهزاء به ، وإشارة إلى أنه عن الحق بمعزل ، ويظهر من تتبع أحوال الوليد ، أنه إنما قال ذلك عنادًا وحمية جاهلية ، لا جهلًا بحقيقة الحال[1]، ألا ترى ثناءه على القرآن ، ونفيه عنه جميع ما نسبوا إليه من الشعر ، والكهانة ، والجنون!!

﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾ أى سأُدخله جهنم يتلظى حرها ، ويذوق عذابها.

﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ﴾؟ استفهام للتهويل والتفظيع أى وما أعلمك أى شىء هى سقر ؟

﴿لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ﴾ أى لا تُبقى على شىء فيها إلا أهلكته ، ولا تترك أحدًا من الفُجار إلا أحرقته، قال ابن عباس: لا تُبقى من الدم والعظم واللحم شيئًا، فإذا أُعيد خلقهم من جديد ، تعاود إحراقهم بأشد مما كانت وهكذا أبدا[2].

﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ أى تلوح وتظهر لأنظار الناس من مسافات بعيدة ، لعظمها وهولها ، كقوله تعالى : ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلۡجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ﴾ قال الحسن : تلوح لهم من مسيرة خمسمائة عام حتى يروها عيانًا[3] فهى بارزة إلى

---

(١) روح المعانى (٢٩/ ١٢٤).

(٢) التفسير الكبير (٣٠/ ٢٠٢).

(٣) اختار بعض المفسرين أن معنى ﴿لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ﴾ أى: محرقة للجلود مسودة لها، تلفح الجلد لفحة فتدعه أسود من الليل وإن «البشر» جمع بشرة وهى جلدة الإنسان الظاهرة، والظاهر ما =

أنظارهم، يرونها من غير استشراف ولا مدِّ أعناق ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ أي: خزنتها الموكَّلون عليها تسعة عشر ملكًا من الزبانية الأشداء كقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[1] قال ابن عباس: «ما بين منكبى الواحد منهم مسيرة سنة، وقوة الواحد منهم أن يضرب بالمقمع، فيدفع بتلك الضربة سبعين ألف إنسان فى قعر جهنم»[2].

اتفق المفسرون على أن هذه الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريش، وكان ذا سنٍّ فيهم، وقد حضرَ الموسمُ، فقال لهم: يا معشرَ قريش، إنه قد حضر هذا الموسمُ، وإن وفود العرب ستَقْدُم عليكم فيه، وقد سَمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأيًا واحدًا، ولا تختلفوا فيكذِّب بعضُكم بعضًا، ويردُّ قولُكم بعضُه بعضًا؛ قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس، فَقُلْ وأقم لنا رأيًا نقول به؛ قال: بل أنتم فقولوا أسمع؛ قالوا: نقول كاهن، قال: والله ما هو بكَاهنٍ، لقد رأينا الكُهَّان فما هو بَزَمْزَمة[3] الكاهن ولا سَجْعه[4]؛ قالوا: فنقول مجنون؛ قال: ما هو بمَجْنون، لقد رأينا الجنُون وعرفناه، فما هو بخَنقه[5] ولا تخالجه[6] ولا وَسْوسِته[7] قالوا: فنقول شاعر؛

= ذكرناه؛ لأن الله تعالى ذكر من وصفها ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ فأى فائدة فى وصفها بتسويد البشرة بعد ذلك، وما اخترناه هو ما رجحه القرطبى ونسبه إلى ابن عباس وكذلك ما رجحه الإمام الفخر الرازى والله أعلم.

(١) سورة التحريم: الآية (٦).

(٢) صفوة التفاسير (٣/ ٤٥١-٤٥٣).

(٣) زمزمة الكاهن : كلام خفى لا يُفهم.

(٤) سجعه : أن يجعل لكلامه المنثور نهايات كنهاية الشعر.

(٥) ختقه : الاختناق الذى يصيب المجنون.

(٦) التخالج: اختلاج الأعضاء وتحركها عن غير إرادة.

(٧) الوسوسة: ما يلقيه الشيطان فى نفس الإنسان.

قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كلّه رَجَزَه[١] وهَزَجهَ وقَرِيضَهُ ومَقبُوضَهُ ومَبْسُوطَه، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول ساحر؛ قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السُّحّار وسحْرَهم، فما هو بنفَثِهِم[٢] ولا عَقْدِهم؛ قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إنَّ لقوله لَحَلاوةً، وإن أصْلَهَ لَعَذقٌ[٣] وإن فَرْعه لَجنَاة وما أنتم بقائلين من هذا شيئًا إلا عُرف أنه باطل، وإنَّ أقرب القول فيه لأنْ تقولوا ساحر، جاء بقولٍ هو سحر، يُفَرِّق به بين المرء وأبيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، فتفرّقوا عنه بذلك، فجعلوا يجلسون بسبُل[٤] الناس حين قَدِموا الموسمَ، لا يمرُّ بهم أحدٌ إلا حَذَّروه إياهُ، وذكروا لهم أمرَه، فأنزل الله تعالى: فى الوليد ابن المغيرة وفى ذلك من قوله:

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴾[٥][٦].

عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن الوليد بن المغيرة جاء رسول الله ﷺ، فقرأ عليه القرآن، فكأنه رقد له[٧]، فبلغ ذلك أبا جهل فأتاه فقال: يا عم،

---

(١) رجزه، وهزجه، وقريضه، ومقبوضه ومبسوطه كل هذه أنواع وبحور للشعر.

(٢) بنفثهم ولا عقدهم: هذه إشارة إلى ما كان يفعل الساحر إذ كان يأخذ خيطًا فيعقده ثم ينفث عليه ... ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴾ أراد الساحرات.... والنوافث: السواحر حين ينفث فى العُقد بلا ريق.

(٣) عذقه : العذق: الكثير الشُّعَب والأطراف ومن رواه (عذق) فمعناه كثير الماء والعُذُق: كل غصن له شعب وأيضًا : النخلة عند أهل الحجاز [لسان مادة/ عذق] .

(٤) سُبُل: السبل طريق الناس، واحدها سبيل وهو الطريق وما وضح منه..

(٥) سورة المدثر: الآيات: (١١-١٦).

(٦) السيرة النبوية/ لابن هشام (١/ ٢٢٢، ٢٢٣) .

(٧) رقد له: خضع له.

إنَّ قومك يريدون أن يجمعوا لك مالًا فقال: لِمَ؟ قال: ليعطوكه، فإنك أتيت محمدًا لتعرض ما قبله.

قال: قد علمت قريش أنى من أكثرها مالًا.

قال: فقل فيه قولًا يبلغ قومك إنك مُنكِرٌ له.

قال: وماذا أقول؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار منى، ولا أعلم برجزه[1]، ولا بقصيده منى، ولا بأشعار الجنِّ، والله ما يشبه الذى يقول شيئًا من هذا، والله إنَّ لقوله الذى يقول لحلاوة، وإن عليه لطلاوة[2]، وإنه لمثمرٌ أعلاه[3]، مغدق أسفله[4]، وإنه ليعلو ولا يُعلَى، وإنه ليحطم ما تحته[5].

قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه.

قال: قف عنى حتى أفكر فيه، فلما فكَّر، قال: إن هذا إلا سحرٌ يُؤْثَر. يأثره عن غيره، فنزلت: ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ ﴾[6][7].

* * *

(١) الرجز: نوع من أنواع الشعر.

(٢) الطلاوة: الحسن والرونق.

(٣) مثمر أعلاه: كثير الفائدة.

(٤) مغدق أسفله: كثير الخير والبركة.

(٥) يحطم: يسيطر على ما تحته.

(٦) سورة المدثر: الآيات: (١١-١٣).

(٧) رواه الحاكم فى المستدرك: (٢/ ٧٠٥) وقال: صحيح على شرط البخارى، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبى.

عقبة بن أبي معيط

ومن يستطيع أن ينسى هذا الشقى عقبة بن أبى معيط - لعنه الله - الذى فعل بالنبى ﷺ ما لم يفعله أحدٌ معه أبدًا فقد رمى سلى الجزور على ظهره وذهب إليه مرة أخرى فخنقه وتَفَلَ فى وجهه ... وذهب إليه مرة ثالثة ووضع رجله على عنق رسول الله ﷺ وهو يصلى ... فقُتل يوم بدرٍ كافرًا ليذهب إلى مزبلة التاريخ.

إيذاء عقبة بن أبي معيط للنبي ﷺ

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحابٌ له جلوس، وقد نُحرت جَزور[1] بالأمس، فقال أبوجهل: أيكم يقوم إلى سلا[2] جزور بنى فلان فيأخذه فيضعه فى كتفى محمد إذا سجد.

فانبعث أشقى القوم عقبة بن أبى معيط فأخذه، فلما سجد النبى ﷺ وضعه بين كتفيه، قال فاستضحكوا[3]، وجعل بعضهم يميل على بعض، وأنا قائم أنظر، لو كانت لى منعة طرحته عن ظهر رسول الله ﷺ... والنبى ساجد، ما يرفع رأسه، حتى انطلق إنسان فأخبر فاطمة. فجاءت فطرحته عنه، ثم أقبلت تشتمهم، فلما قضى النبىُّ صلاته رفع صوته ثم دعا عليهم.

وكان إذا دعا دعا ثلاثًا، وإذا سأل سأل ثلاثًا، ثم قال: «**اللهم عليك**

---

(١) الجزور: الناقة.

(٢) سلا: اللفافة التى تكون فى بطن الناقة وسائر الحيوان، وهى من الأدمى المشيمة.

(٣) استضحكوا: حملوا أنفسهم على الضحك والسخرية ثم أخذهم الضحك جدًّا، فجعلوا يضحكون ويميل بعضهم على بعض.

بقريش» ثلاث مرات.

فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته،... ثم قال:

«اللهم عليك بأبى جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، وعقبة بن أبى معيط» فوالذى بعث محمدًا ﷺ بالحق! لقد رأيت الذين سمَّى صرعى يوم بدر[1].

* بلى وفى يوم من الأيام دعا عقبة بن أبى معيط زعماء قريش إلى الطعام ودعا رسول الله ﷺ معهم.. فوافق النبى ﷺ عسى أن يسمعوا كلام الله.. فلما قدّم له عقبة الطعام رفض النبى ﷺ أن يأكل حتى ينطق عقبة الشهادتين.. فنطق عقبة الشهادتين من وراء قلبه حتى يأكل النبى ﷺ.. فأكل النبى ﷺ ودعاهم إلى الله ثم انصرف وكان هناك صديق لعقبة بن أبى معيط مسافرًا وهو أُبى بن خلف.. فلما عاد قال له المشركون: لقد أسلم عقبة وصبأ ودخل فى دين محمد ﷺ... فذهب إليه مُغضبًا وقال له: كيف تُسلم وتترك دين الآباء والأجداد... لن أكلمك حتى تكفر بمحمد وتذهب لتؤذيه.

فذهب عقبة إلى النبى ﷺ وجذبه من ثوبه وخنقه خنقًا شديدًا وتفل فى وجه النبى ﷺ حتى جاء أبو بكر ودافع عن رسول الله ﷺ فمات عقبة بن أبىٍ معيط يوم بدرٍ كافرًا ونزل فيه قول الله (ﷻ): ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾[2].

* بل لقد حاولوا قتل النبى ﷺ أكثر من مرة ونجّاه الله (ﷻ).

---

(١) رواه البيهقى (٢/ ١٩٥)، والحاكم (٢/ ٣٦١).

(٢) سورة الفرقان: الآيات: (٢٧-٢٩).

فتل عقبة بن أبي معيط
(في طريق العودة إلى المدينة)

هذا الشقى الذى آذى رسول الله ﷺ، وانفرد بما لم يفعله أحد ووضع رجله على عنق أطهر الخلق رسول الله ﷺ فقُطعت عنقه جزاءً وفاقًا.

لما أمر النبى ﷺ بقتل عقبة قال: أتقتلنى يا محمد من بين قريش؟

قال: «**نعم، أتدرون ما صنع هذا بى، جاء وأنا ساجد خلف المقام، فوضع رجله على عنقى وغمزها فما رفعها حتى ظننت أن عينيَّ ستندران، وجاء مرة أخرى بسلا شاة، فألقاه على رأسى وأنا ساجد، فجاءت فاطمة فغسلته عن رأسى**».

وذهب عقبة إلى مزبلة التاريخ، وأُطيح بعنقه جزاء كفره وعناده وحسده للإسلام ورسوله ﷺ.

* * *

أُبي بن خلف

لقد مضى الكلام عن عقبة بن أبى معيط ... وقد عرفنا من خلال الحديث عن هذا الهالك أنه كاد أن يُسلم لولا عودة صديقه الحميم أُبى بن خلف الذى لما سمع بخبر إسلامه طلب منه أن يذهب ليؤذى النبى ﷺ ليُثبت له أنه لم يُسلم بعد.

عن أبى هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيه** - يشير إلى رباعيته - **اشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله ﷺ فى سبيل الله**»[1].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: «**اشتد غضب الله على مَنْ قتله النبى فى سبيل الله، اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه نبى الله ﷺ**»[2].

* قال ابن إسحاق: كان أُبى بن خلف يلقى رسول الله ﷺ بمكة، فيقول: يا محمد، إن عندى العَوذَ، فرسًا أعلفه فى كل يوم فرقًا[3] من ذرة، أقتلك عليه، فيقول رسول الله ﷺ: «**بل أنا أقتلك إن شاء الله**»[4].

* قال ابن كثير: عن عروة بن الزبير قال: كان أُبى بن خلف أخو بنى جمح، قد حلف وهو بمكة ليقتلن رسول الله ﷺ، فلما بلغت رسول الله ﷺ حلفته قال: «**بل أنا أقتله إن شاء الله**». فلما كان يوم أُحد أقبل أُبى فى الحديد مُقَنَّعًا، وهو يقول: لا نجوت إن نجا محمد، فحمل على رسول الله ﷺ يريد

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠٧٣) كتاب المغازى، ومسلم (١٧٩٣) كتاب الجهاد والسير.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٤٠٧٤) كتاب المغازى.

(٣) بفتح الراء وإسكانها: مكيال يسع تسعة عشر منًّا، وقيل: اثنا عشر منًّا..

(٤) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة: أحد ١٦٢.

قتله، فاستقبله مصعب بن عمير أخو بنى عبد الدار يقى رسول الله ﷺ بنفسه، فقتل مصعب بن عمير، وأبصر رسول الله ﷺ ترقوة أُبى بن خلف من فُرجة بين سابغة الدرع والبيضة، فطعنه فيها بالحربة فوقع إلى الأرض عن فرسه، ولم يخرج من طعنته دم، فأتاه أصحابه فاحتملوه، وهو يخور خوار الثور.

فقالوا له: ما أجزعك، إنما هو خدش؟

فذكر لهم قول رسول الله ﷺ: «أنا أقتل أُبيًّا».

ثم قال: والذى نفسى بيده، لو كان هذا الذى بى بأهل ذى المجاز لماتوا أجمعون.

* وفى رواية: أنه لما رجع إلى قومه، وقد خدشه الرسول ﷺ بالحربة خدشًا غير كبير، قال: قتلنى والله محمد.

قالوا له: ذهب والله فؤادك، والله ما بك من بأس.

قال: إنه قد كان قال بمكة: أنا أقتلك، فوالله لو بصق علىَّ لقتلنى، فكان هذا الشقى هو الوحيد الذى قتله رسول الله ﷺ بيده الكريمة(١).

* * *

(١) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة: أحد ١٦٣.

النضر بن الحارث

وبعد أن أقام النبى ﷺ ببدر ثلاثة أيام تحرك بجيشه ومعه الأسرى من المشركين والغنائم التى غنمها المسلمون منهم.. وفى الطريق قسَّم النبى ﷺ الغنائم بين المسلمين بعد أن أخذ خُمس الغنائم.

وعندما وصل إلى الصفراء أمر بقتل النضر بن الحارث - وكان هو حامل لواء المشركين يوم بدر، وكان من أكابر مجرمى قريش، ومن أشد الناس كيدًا للإسلام، وإيذاءً لرسول الله ﷺ فضرب عنقه على بن أبى طالب.

❊ ❊ ❊

عبد الله بن قمئة

* قال ابن حجر:

ومجموع ما ذُكر من الأخبار أنه شُجّ وجهه، وكُسرت رباعيته، وجُرحت وجنته وشفته السفلى من باطنها، ووهى منكبه من ضربة ابن قمئة وجُحشت ركبته[1].

عن أبى سعيد الخدرى: أن عبد الله بن قمئة جرحه - أى: الرسول ﷺ - فى وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر فى وجنته ﷺ.

فماذا كان جزاء هذا الشقى؟!

قال عبد الرحمن بن زيد بن جابر: إن الذى رمى رسول الله ﷺ بأُحد، فجرحه فى وجهه، قال: خذها منى وأنا ابن قمئة، فقال: «**أقمأك الله**».

قال: فانصرف إلى أهله فخرج إلى غنمه فوافاها على ذروة جبل، فدخل فيها فشد عليه تيسها فنطحه نطحة أرداه من شاهق الجبل فتقطع.

وفى الطبرانى من حديث أبى أمامة قال: رمى عبد الله بن قمئة رسول الله ﷺ يوم أُحد، فشج وجهه وكسر رباعيته، فقال: خذها وأنا ابن قمئة، فقال رسول الله ﷺ، وهو يمسح الدم عن وجهه: «**ما لك، أقمأك الله**». فسلط الله عليه تيس جبل، فلم يزل ينطحه حتى قطَّعه قطعةً قطعةً.

وكان جزاؤه من جنس عمله.

فانظر رحمك الله .. لم يرسل الله ﷻ إلى ابن قمئة مَلَكًا لينتقم لنبيه ﷺ، وإنما سلط عليه تيسًا قطَّعه، وألقاه من فوق الجبل، لهوانه على الله.

(١) فتح البارى (٧/ ٤٣١).

أبو عامر الفاسق

يخلق الله ما يشاء ويختار، وله الحكمة فى كل شىء وهو أعلم بعباده يعطى من يشاء ويمنع من يشاء، يُعز من يشاء ويذل من يشاء، بيده الخير وهو على كل شىء قدير،... يحسب بعض الناس أن النبوة مال يرثه من أى مكان كان أو سلعة يمكن لكل من أرادها أن يحظى بها وما علم أولئك أن النبوة من عند الله وحده، وأنه الذى يختار من يشاء من عباده ويرسل بالرسالة من هو أهل لها وينبئ بالنبوة من يستحقها، وقد غرَّ الشيطان بعض مَن لا خَلاق له فنفث فى قلوبهم أحقيتهم بالنبوة وأهليتهم للرسالة وزرع فى قلوبهم الحقد الدفين، والبغض المبين لأهل الحق والإيمان.

ومن هذا الصنف: رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وقد سُمى بعد الإسلام بأبى عامر الفاسق، لفسقه وكفره، وكان متنصرًا قبل الإسلام، وقرأ علم أهل الكتاب، وصاحب رهبانية فى الجاهلية، وله شرف فى قومه كبير، فلما قَدِم رسول الله ﷺ مهاجرًا إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت للإسلام كلمة عالية وأظهرهم الله تعالى يوم بدر، شَرق اللعين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة وظاهَر بها وخرج فارًّا إلى كفار مكة، يحرضهم ويتفق معهم على حرب رسول الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقَدِموا عام أُحد فكان من أمر المسلمين ما امتحنهم الله تعالى به، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع فى إحداهن رسول الله ﷺ، وأصيب ذلك اليوم فجُرح وجهه وكُسرت رباعيته اليمنى السفلى، وشُجَّ رأسه صلوات الله وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر فى أول المبارزة إلى قومه من الأنصار

فخاطبهم واستمالهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله به عينًا يا فاسق يا عدو الله، ونالوا منه وسبُّوه فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومى بعدى شر [1]، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن، فأبى أن يُسلم وتمرَّد فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيدًا طريدًا فنالته هذه الدعوة، وذلك أنه لما فرغ الناس من أُحد ورأى أمر رسول الله ﷺ فى ارتفاع وظهور ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبى ﷺ فوعده ومنَّاه وأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ، ويغلبه ويرده عما هو فيه.

وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا ومقرًّا يستقرون فيه، ووكر سوء ينفثون منه سمومهم فشرعوا فى بناء مسجد الضرار وطلبوا من الرسول ﷺ أن يصلى فيه فوعدهم بذلك بعد عودته من تبوك، فعصمه الله من ذلك إذ نزل عليه جبريل عليه السلام يخبره بقصد المنافقين ويأمره بهدمه، فأرسل ﷺ مالك بن الدخشم ومعن بن عدى وقيل أخاه عاصمًا وقال: انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرِّقاه فذهبا فحرقاه وهدماه.

ولا يزال أعداء الإسلام من المنافقين الملحدين والمبشرين المستعمرين يقيمون أماكن باسم العبادة وما هى لها، وإنما المراد بها الطعن فى الإسلام وتشكيك المسلمين فى معتقداتهم وآدابهم وكذلك يقيمون مدارس باسم الدرس والتعليم ليتوصلوا بها إلى بَثِّ سمومهم بين أبناء المسلمين وصرفهم عن دينهم وكذلك يقيمون المنتديات باسم نشر

(١) السيرة النبوية لابن هشام جزء ٣.

الثقافة والغرض منها خلخلة العقيدة السليمة من القلوب والقيم الخلقية من النفوس، ومستشفيات باسم المحافظة على الصحة والخدمة الإنسانية والغرض منها التأثير على المرضى والضعفاء وصرفهم عن دينهم، وقد اتخذوا من البيئات الجاهلة والفقيرة ولا سيما فى بلاد إفريقيا وغيرها ذريعة للتوصل إلى أغراضهم الدنيئة التى لا يقرها عقل ولا شرع وكل هذه أخطر بكثير من مسجد الضرار الذى حاربه الله ورسوله أشد محاربة.

والناس يحبون الإسلام ويرغبونه، ويسرعون فى الاستجابة له لوجود الفطرة التى جُبلوا عليها ولكنهم يحتاجون إلى الدعوة والبلاغ والتوجيه والإرشاد، وقد ذكر لى بعض الثقات ولا أتهمه وروايته موثوقة أن النصارى يعملون فى تنصير الأندونيسيين وقد نَصَّروا الكثير بالمال والكساء والدواء وغيرها، وقالوا لهم بعد فترة إننا سنعمل على ترفيهكم وننقلكم إلى أحسن بلد تريدونه حتى تتنزهوا وتطمئنوا فقالوا نريد ان تنقلونا إلى مكة حيث البلد الحرام، فحزن النصارى وعلموا أن أمر الله غالب، وأن الإسلام يعلو ولا يُعلَى عليه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴾[١].

وقد كان لهذا الفاسق ابن اسمه حنظلة ترك زوجته فى أول ليلة عرسه، وترك اللذة والدنيا كلها وأجاب داعى الجهاد لإعلاء كلمة الله، وقد رزقه الله تعالى الشهادة وحملته ملائكة الله تعالى إلى السماء لتغسله بماء المُزن فى صحاف الذهب فسبحان من يُخرج الحى من الميت، ولقد عاش هذا الفاسق مُعذَّبًا مُشرَّدًا لا يأنس بأهل ولا عشيرة ولا يتلذذ بعيش ولا طمأنينة،

---

(١) سورة الصف: الآية (٩).

وما ظلمه الله تعالى ولكنه هو الظالم لنفسه، وهو الجانى عليها، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله وما بغيه إلا على نفسه.

مات طريدًا فى بلاد الشام بعيدًا عن أهله وعن عشيرته، عذَّبه الله بالغربة المذمومة فى الدنيا، وله عند الله عذاب أشد وأبقى، وهذا جزاء من تُسوِّل له نفسه بإطفاء نور الله والنَّيل من عباد الله والتخطيط لقتل أولياء الله، فماذا استفاد هذا البليد إلا التشريد وعدم الاستقرار والخزى فى الحياة الدنيا، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا يُنصرون.

وإن كان هذا الفاسق الفاجر أراد العزة فليعلم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون فلتمُت القلوب المريضة بالنفاق ولتحيا القلوب المليئة بالإيمان، ومن أراد أن يطفئ نور الله بفيه فإن الله سيُغلق فاه ويقطع صوته ويكسر ظهره ويفتت قلبه داخل جوفه حسرة وندامة ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ ﴾[1] [2].

❊ ❊ ❊

(١) سورة الصف: الآيتان: (٨-٩).

(٢) اتق دعوة المظلوم (ص ٤٧، ٥٠).

اللهم اكفني عامر بن الطفيل

رسالة الإسلام رسالة عالمية، ليست لقريش وحدها، ولا لأهل مكة فقط، ولا لأهل يثرب ولا لثقيف، ولكنها للناس كافة، ولذلك بُعث النبي ﷺ للناس كافة، وكان النبى يُبعَث إلى قومه خاصة، وتعدَّت رسالته ﷺ الإنس إلى الجن الذين استمعوا لقراءته وآمنوا برسالته، وولوا إلى قومهم منذرين، ودعوا إلى الدخول فى دين محمد ﷺ الذى يدعو إليه.

وقد رغّب ﷺ فى إسلام الكثير من القبائل، ففى شهر صفر عام ٤ هـ وفد أبو براء عامر بن مالك الذى يُلقَّب «بمُلاعب الأسِنَّة» قَدِم على رسول الله ﷺ وطلب منه وفدًا لدعوة قومه إلى الإسلام وهو مع ذلك لم يُسلم، ولم يبتعد عن الإسلام، فأرسل الرسول ﷺ معه سبعين حافظًا من حُفَّاظ القرآن الكريم يُلقَّبون بالقُرّاء، يشتغلون فى النهار بجمع الحطب وبيعه والتصدق على أهل الصُّفَّة، وأهل الحاجة من المسلمين، فإذا جَنَّ عليهم الليل صفّ كل واحدٍ فى محرابه يناجى ربه ولا ينامون إلا قليلًا.

ومضى هؤلاء الصفوة - وكل الصحابة رضي الله عنهم صفوة - حتى وصلوا إلى بئر معونة، موضع من بلاد هذيل، وذهب حرام بن ملحان بخطاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، فلما رأى الكتاب لم ينظر إليه محتقرًا إياه وساخرًا من مُرسِله، وأوعز إلى رجل من قومه بقتل حرام فاستغفله من خلفه فطعنه، قال حرام بعد تجرُّعه لمرارة الموت: «فُزت ورب الكعبة» أى فزت بالشهادة التى أطلبها، وخرجت من أجلها، ثم استصرخ عامر قومه بنى عامر على القُراء فأبوا لأنهم فى ذمة أبى براء فاستعدى عليهم قبائل بنى سليم «رِعل وذكوان والقارة وعُصية» فأحاطوا بالصحابة حتى قتلوهم

جميعًا وما نجى إلا من كان فى ضيعة للقوم كعمرو بن أمية الضمرى والمنذر بن محمد بن عقبة وكعب بن زيد.

فحزن الرسول ﷺ، على قتلهم حزنًا شديدًا لم يخفف هذا الألم إلا التأسّى بأنهم شهداء مضوا إلى ربهم، وقد رضى عنهم، ونرجوا أن تكون أرواحهم فى حواصل طيرٍ خُضر تطير بها فى الجنة حيث تشاء، ومن شدة وَجْد الرسول ﷺ على هؤلاء القتلى بقى يَقْنُت على هؤلاء القبائل الأربع فى صلاة الفجر شهرًا كاملًا.

وقد نعاهم ﷺ، لأصحابه فقال: «**إن أصحابكم قد أُصيبوا وأنهم سألوا ربهم فقالوا ربنا أخبر إخواننا عنا بما رضينا عنك ورضيت عنا فأنزل الله فيهم قرآنًا كان يُتلى ثم نُسخ ... فيه «بلِّغوا عنَّا قومنا أنَّا لقينا ربنا فرضى عنا وأرضانا**»[1].

ولما قَدِمت الوفود إلى المدينة فى سنة تسع للهجرة قَدِم عامر بن الطفيل مع قومه بنى عامر وقال يا محمد ما لى إن أسلمت قال: «**لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم**»، قال: لا تعطينى الأمر بعدك؟ قال: «**لا**». وكان قد اتفق عامر مع أربد بن قيس على قتل الرسول ﷺ على أن يقوم عامر بإشغال الرسول ﷺ بالكلام ويقوم أربد بضربه بالسيف، وقام ﷺ مع عامر ليسمع كلامه، ومضى أربد لتنفيذ خطته الإبليسية ولما قرب من الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وأراد سَلَّ السيف أيبس الله يده على السيف وسحب بصره فأصبح لا يبصر إلا عامر بن الطفيل ولا يرى رسول الله ﷺ، وانتظره عامر يقتل فما فعل، فأنهى عامر المكالمة ثم رجع إلى أربد وقال له: أيها الجبان

(١) صحيح: رواه البخارى (٣٠٦٤) كتاب الجهاد والسير.

ما كنت أظن أنه يوجد أشجع منك بل وما كنت أخشى أحدًا من الإنس سواك، وأما اليوم فإنك أذل من البعوضة. فقال: ولِمَ؟ قال: لماذا لم تقتله؟ قال: يا عامر يبست يدى على السيف لا تتحرك والله ما رأيت بينى وبينك أحدًا ولو ضربت بالسيف لضربتك أنت... وما علم هؤلاء أن الله يعصم رسوله، ويحفظه وينصره ولو كادته المخلوقات جميعًا، فإنها لا تضره شيئًا كيف وهو الذى يقول ﷺ، فى تعليمه لابن عباس: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ ينْفَعُوكَ لَمْ ينْفَعُوكَ إِلَّا بِشَىءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَو اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يضُرُّوكَ لَمْ يضُرُّوكَ إِلَّا بِشَىءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيكَ**»(١).

وقد قال عامر: يا محمد والله لأملأن المدينة عليك خيلًا جُردًا وشبابًا مُردًا، قال ﷺ: «**اللهم اكفنى عامر بن الطفيل، واهدِ قومه**»، فخرج حتى إذا كان بظهر المدينة صادف امرأة من قومه يقال لها: سلولية فنزل عن فرسه ونام فى بيتها فما استيقظ إلا فى الصباح وفى عنقه غدة كغدة البعير تحمل مرضًا شديدًا انتشر فى جسده عبر عروقه وشرايينه، فما زالت به تمصُّه مصًّا حتى نشف بدنه، وخارت قواه، وهزل جسده، ثم سقط من على بعيره ميتًا إلى جهنم وبئس المصير.

وأما أربد فقد رجع إلى قومه فسألوه فقال: مات سيدكم عامر بن الطفيل، قالوا: لا نسألك عن هذا فقد علمناه ولكن نسألك ما الذى وجدتم عند محمد، وما الذى يدعو إليه، قال: إنه يدعو إلى عبادة إله لو كان بين يدى لرميته بالنبل، فما بقى بعد هذه المقالة إلا يومين اثنين ثم خرج ببعير له ليبيعه فى السوق فلما توسَّط الطريق أرسل الله عليه صاعقة من السماء

---

(١) صحيح: رواه الترمذى، وصححه الألبانى رحمه الله فى المشكاة (٥٣٠٢).

أحرقته هو وبعيره .. وإن فى الكون جنودًا كثيرة جعلهم الله للدفاع عن هذا الدين، وعن أهله، وما أمر الغُدَّة التى سلبت جسد عامر بن الطفيل حتى قتلته إلا أكبر دليل، وما أمر الصاعقة التى قتلت أربد بن قيس إلا دليل آخر(١).

ولو أن المحاربين لله ورسوله والمعاندين لأوليائه تذكروا أمثال هذه القصص لارتدعوا وعلموا أن أنفسهم بيد غيرهم، وأنهم مُعرَّضون للفناء والأخذ ما بين لحظة وأخرى، ولكنها الغفلة التى أوقعت الناس فى أحضان الهلاك، وقيود الإفلاس، والله من ورائهم محيط(٢).

* * *

(١) البداية والنهاية جزء ٥، السيرة النبوية لأبى شهبة جزء ٢، دلائل النبوة للبيهقى جزء ٥، والله يعصمك من الناس لأحمد الجدع.

(٢) اتق دعوة المظلوم (ص/ ٧٦-٧٩).

كافرٌ خُسف به في غزوة أُحد

وها هو رجل من المشركين قام ليصدع بكلمات الكفر في أرض المعركة فخسف الله به الأرض.

عن بريدة رضي الله عنه قال: «أن رجلًا قال يوم أُحد: اللهم إن كان محمدًا على الحق فاخسف بي قال: فخُسف به»[1].

❊ ❊ ❊

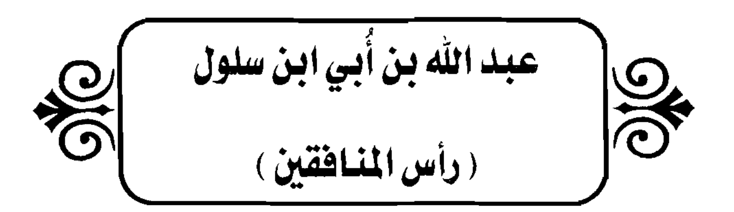
(١) كشف الأستار عن زوائد البزار رقم (١٧٩٩)، وقال الهيثمي في المجمع (٦/ ١٢٢): رواه البزار ورجاله رجال الصحيح.

مُعذبة زنيرة

كانت زِنِّيرة فتاة صغيرة مملوكة عند امرأة مشركة فى قريش، لما أسلمت قامت سيدتها تعذبها بالليل والنهار، وذات يوم جمعت الجوارى وأمرتهن أن يضربْنَها على رأسها، حتى فقدت البصر، فإذا عطشت قالت: أعطونى ماءً. قالت: الماء أمامك فابحثى عنه... وفي يوم من الأيام قالت لها سيدتها: يا زنيرة، إن كان ربك الذى تؤمنين به حقًّا كما تزعمين، ادعيه فليرد عليك بصرك لكى ترى الماء والطعام. فرفعت يديها إلى الله، وقالت: اللهم، إنى أسألك أن ترد علىَّ بصرى: فأبصرت، وإذا بسيدتها تصرخ، وتصيح من رأسها وارأساه. وتقول للجوارى: احملن النعال والقباقيب، واضربونى على رأسى. فضربنها حتى فقدت البصر. وهكذا ينتقم الله لأوليائه والجزاء من جنس العمل[1].

❊ ❊ ❊

(١) شريط بعنوان: حلاوة الإيمان. للشيخ أحمد القطان.



عبد الله بن أبي ابن سلول
(رأس المنافقين)

كان هذا الرجل من أشد الناس عداوة لرسول الله ﷺ .. فلم يَفْتُر لحظة واحدة عن عداوته للنبى ﷺ وإيذائه له ولكنه كان لا يجهر بذلك بل كان يدبر له المكائد والمؤامرات سرًّا.

وها هى أول تلك المؤامرات التى دبرها ضد النبى ﷺ .. وذلك عندما هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة هربًا من إيذاء قريش له ولأصحابه وحرصًا منه على أن يقيم للإسلام دولة فى يثرب (المدينة المنورة) فازدادت قريش غيظًا وحقدًا على أن فاتهم المسلمون ووجدوا لأنفسهم مأمنًا ومقرًّا بالمدينة، فكتبوا إلى عبد الله بن أُبى ابن سلول، وكان إذ ذاك مشركًا بصفته رئيس الأنصار قبل الهجرة -فمعلوم أنهم كانوا مجتمعين عليه، وكادوا يجعلونه ملكًا على أنفسهم لولا أن هاجر رسول الله ﷺ، وآمنوا به- كتبوا إليه وإلى أصحابه المشركين يقولون لهم فى كلمات باتة:

إنكم آويتم صاحبنا، وإنا نُقسم بالله لَتُقَاتِلُنَّهُ أو لتُخْرِجُنَّه، أو لنسيرن إليكم بأجمعنا، حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم.

وبمجرد بلوغ هذا الكتاب قام عبد الله بن أُبى ليمتثل أوامر إخوانه المشركين من أهل مكة -وقد كان يحقد على النبى ﷺ لما يراه أنه استلبه مُلكه- يقول عبد الرحمن بن كعب: فلما بلغ ذلك عبد الله بن أُبى ومن كان معه من عَبَدة الأوثان؛ اجتمعوا لقتال رسول الله ﷺ فلما بلغ ذلك النبى ﷺ

لقيهم، فقال: «**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت تكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تقاتلوا أبناءكم وإخوانكم؟!**» فلما سمعوا ذلك من النبى ﷺ تفرقوا[١].

* امتنع عبد الله بن أبى ابن سلول عن إرادة القتال عند ذاك؛ لما رأى خورًا فى أصحابه، ولكن يبدو أنه كان متواطئًا مع قريش، فكان لا يجد فرصة إلا وينتهزها لإيقاع الشر بين المسلمين والمشركين، وكان يضم معه اليهود؛ ليعينوه على ذلك، ولكن تلك هى حكمة النبى ﷺ التى كانت تطفئ نار شرهم حينًا بعد حين[٢].

* عن أسامه بن زيد قال: «إن النبى، ركب حمارًا، عليه إكاف[٣] تحته قطيفة فدكيه[٤]، وأردف وراءه أسامة، وهو يعود سعد بن عبادة فى بنى الحارث بن الخزرج، وذاك قبل وقعة بدر، حتى مَرَّ بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عَبَدة الأوثان، واليهود، فيهم عبد الله بن أُبى، وفى المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عُجاجة الدابة[٥]، خمَّر عبد الله بن أُبى أنفه[٦] بردائه ثم قال: لا تُغبِّروا علينا.

فسلَّم عليهم النبى ﷺ ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن.

---

(١) أخرجه عبد الرزاق فى «المصنف» (٥/ ٩٧٣٣)، ومن طريقه أبو داود (٣٠٠٤)، والبيهقى فى «دلائل النبوة» (٣/ ١٧٨) وإسناده صحيح.

(٢) انظر فى هذا الصدد صحيح البخارى (٨/ ٤٩٠٠، ٤٩٠٧).

(٣) إكاف: هو للحمار بمنزلة السرج للفرس.

(٤) قطيفة: دثار مخمل.

(٥) عجاجة الدابة: ما ارتفع من غبار حوافرها.

(٦) خمَّر أنفه: غطاه.

فقال عبد الله بن أُبى: أيها المرء! لا أحسن من هذا، إن كان ما تقول حقًّا، فلا تؤذنا فى مجالسنا، وارجع إلى رَحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال عبد الله بن رواحة: اغشنا فى مجالسنا، فإنا نحب ذلك، قال: فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود، حتى هَمُّوا أن يتواثبوا.

فلم يزل النبى ﷺ يُخفضهم[1]، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال: «**أى سعد ألم تسمع إلى ما قال أبو حُباب؟**» يريد عبد الله بن أُبى «قال كذا وكذا» قال: اُعف عنه يا رسول الله واصفح.

فوالله! لقد أعطاك الله الذى أعطاك ولقد اصطلح أهل هذه البَحيرة أن يتوِّجوه، فيعصبوه بالعصابة، فلما ردّ الله ذلك بالحق الذى أعطاكه، شرق بذلك[2]، فذلك فعل به ما رأيت، فعفا عنه النبى ﷺ»[3].

وكان رأس المنافقين يدافع دائمًا عن اليهود ويواليهم ... فها هو يشتد فى مخاطبة النبى ﷺ عندما حاصر النبى ﷺ يهود بنى قينقاع بسبب ما فعلوه مع تلك المرأة المسلمة

* وورد فى سبب ذلك ما رواه ابن هشام قال: كان أمر بنى قينقاع أن امرأة من العرب قَدِمت بجلب لها فباعته بسوق بنى قينقاع، وجلست إلى صائغ هناك مَنهم فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها فلما قامت انكشفت سوأتها فضحكوا بها، فصاحت، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، وكان يهوديًّا فشدَّت اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على

---

(١) يخفضهم: يسكنهم ويسهل الأمر بينهم.

(٢) شرق بذلك: غُص ومعناه حسد النبى.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤٥٦٦) كتاب التفسير، ومسلم (١٧٩٨) كتاب الجهاد والسير.

اليهود فأُغضب المسلمون فوقع الشر بينهم وبين بنى قينقاع»[١].

قال ابن إسحاق: فحاصَرَهُمْ رسولُ الله ﷺ حتى نَزلوا على حُكْمه، فقام إليه عبدُ الله بن أُبَى ابن سَلول، حين أمكنه الله منهم، فقال: يا محمد، أَحْسِن فى مَوالىَّ (وكانوا حُلفاء الخَزْرج) قال: فأبى عليه رسول الله ﷺ فقال: يا محمد، أَحسِن فى موالىَّ، قال فأعرض عنه، فأدخل يده فى جيب درع رسول الله ﷺ.

فقال له رسولُ الله ﷺ: «**أَرْسلْنى**»، وغَضبَ رسولُ الله ﷺ حتى رأوا لوجهه ظُلَلا، ثم قال: «**ويحك! أَرْسلْنى**»، قال: لا، والله لاَ أرسلك حتى تُحسن فى موالىَّ، أربع مائة حاسر وثلاث مائة دارع قَد منَعونى من الأحمر والأسود، تَحْصِدهم فى غَداة واحدة، إنَى والله امرؤ أخشَى الدوائر؛ قال: فقال رسولُ الله ﷺ: «**هُم لك**»[٢].

* وفى غزوة أُحد كان لرأس المنافقين عبد الله بن أُبى ابن سلول هذا الموقف المخزى وذلك عندما خرج النبى ﷺ لغزوة أُحد لملاقاة المشركين فانخذل رأس المنافقين وعاد بثلث الجيش ليكون سببًا فى ضعف جيش المسلمين وقلة عددهم.

* وها هو مرة أخرى فى غزوة بنى المصطلق يحاول أن يثير الفتنة بين المسلمين ليقتل بعضهم بعضًا.

قال البخارى فى باب قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٣].

---

(١) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (٣/ ١٣٧).

(٢) تاريخ الطبرى (٢/ ٤٩)، إمتاع الأسماع للمقريزى (ص ١٠٤).

(٣) سورة المنافقون: الآية (٨).

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كنا فى غَزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار.

فقال الأنصارى: يا للأنصار، وقال المهاجرى: يا للمهاجرين فسمع ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ما بال دعوى جاهلية؟**» قالوا: يا رسول الله كسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار فقال: «**دعوها فإنها منتنة**» فسمع بذلك عبد الله بن أُبى فقال: فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأَعزُّ منها الأذل، فبلغ النبى ﷺ فقال عمر: يا رسول الله دعنى أضرب عنق هذا المنافق.

فقال النبى ﷺ: «**دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**»، وكانت الأنصار أكثر من المهاجرين حين قَدِموا المدينة، ثم إن المهاجرين كثروا بعد»[(١)].

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: «خرجنا مع النبى ﷺ فى سفر أصاب الناس فيه شدة، فقال عبد الله بن أُبى لأصحابه: لا تنفقوا على مَن عند رسول الله حتى ينفضُّوا من حوله. وقال: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فأتيت النبى ﷺ فأخبرته، فأرسل إلى عبدالله بن أُبى فسأله، فاجتهد يمينه ما فعل، قالوا: كذب زيد رسول الله ﷺ فوقع فى نفسى ما قالوا شدة حتى أنزل الله ﷻ تصديقى فى قوله: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ فبعث إلىَّ النبى فقرأ فقال: «**إن الله قد صدَّقك يا زيد**»[(٢)].

---

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٠٥) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٥٨٤) كتاب البر والصلة.

(٢) متفق عليه: رواه البخارى (٤٩٠٣) كتاب تفسير القرآن، ومسلم (٢٧٧٢) كتاب صفات المنافقين.

* قال ابن إسحاق:

فبينا رسول الله ﷺ على ذلك الماء، وَرَدَتْ واردةُ الناس، ومع عمر بن الخطاب أجيرٌ له من بنى غفار، يقال له: جَهْجاه بن مسعود[١]، يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجُهنى[٢]، حليف بنى عوف بن الخزرج على الماء، فاقتتلا، فصرخ الجُهنى، يا معشر الأنصار، وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين، فغضب عبد الله بن أُبى ابن سلول، وعنده رهط من قومه فيهم: زيد بن أرقم، غلام حَدَث، فقال: أَوَ قَد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا، والله ما أعُدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول: سَمِّن كَلبك يأكلك، وأما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذلّ.

ثم أقبل على مَن حضره من قومه، فقال لهم: هذا ما فعلتم بأنفسكم: أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحوَّلوا إلى غير داركم... فسمع ذلك زيد بن أرقم، فمشى به إلى رسول الله ﷺ، وذلك عند فراغ رسول الله ﷺ من عدوّه، فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب، فقال: مُر به (عبَّاد بن بشر) فليقتله، فقال له رسول الله ﷺ: **«فكيفَ يا عمر إذا تحدّث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه؟ لا، ولكن أذِّن بالرحيل»** وذلك فى ساعة لم يكن رسولُ الله ﷺ يرتحل فيها فارتحل الناس[٣].

---

(١) جهجاه بن مسعود: وقيل ابن قيس وقيل ابن مسعود الغفارى شهد بيعة الرضوان بالحديبية عاش إلى خلافة عثمان وقال ابن السكن مات بعد عثمان بأقل من سنة. [الإصابة (١/ ٢٦٥)، أسد الغابة (١/ ٣٦٥)].

(٢) سنان بن وبر الجهنى: سنان بن وبرة أو وبر الجهنى حليف بنى الحارث بن الخزرج. قال ابن أبى حاتم عن أبيه هو الذى سمع عبد الله بن أُبى يقول: لئن رجعنا إلى المدينة (الإصابة (٢/ ١٣٥)، (وأسد الغابة: (٢/ ٤٦٣).

(٣) متفق عليه: رواه البخارى فى (٣٥١٨) كتاب المناقب، ومسلم (٢٥٨٤) كتاب البر والصلة.

وقد مشى عبد الله بن أُبى ابن سلول إلى رسول الله ﷺ حين بلغه أن زيد ابن أرقم قد بلَّغه ما سمع منه، فحلف بالله: ما قلت ما قال، ولا تكلمت به - وكان فى قومه شريفًا عظيمًا- فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل،... حدبًا على ابن أُبى ابن سلول، ودفعًا عنه.

قال ابن إسحاق: فلما استقلَّ رسول الله وسار، لقيه أُسيد بن حُضير، فحيَّاه بتحية النبوة وسلَّم عليه، ثم قال: يا نبى الله، والله لقد رُحتَ فى ساعة مُنكرة، ما كنت تروح فى مثلها، فقال له رسول الله ﷺ: «**أَوَ ما بَلَغَكَ ما قال صاحبكم؟**» قال: وأى صاحب يا رسول الله؟ قال: «**عبد الله بن أُبى**»، قال: وما قال؟ قال: «**زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليُخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلّ**»، قال: فأنت يا رسول الله، والله تُخرجه منها إن شئت، هو والله الذليلُ وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفُق به، فوالله لقد جاءنا الله بك، وإنَّ قومه لَينظمون له الخَرز ليتوّجوه، فإنه ليرى أنك قد استلبته مُلكًا[١].

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك، حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأرض فوقعوا نيامًا، وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ليشتغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أُبى إلى أن قال: وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه، ويأخذونه ويُعنفونه، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب حين بلغه ذلك من شأنهم: «**كيف ترى يا عمر، أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأرعدت**[٢]

(١) السيرة لابن هشام (٣/ ٢٦٥).

(٢) لأرعدت له أنف: انتفخت واضطربت أنوفهم حمية وعصبية.

له أنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته».

قال: قال عمر: «قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري»[1].

موقف عظيم في الولاء والبراء

وها هو موقف عظيم فى الولاء والبراء يسطِّره على جبين التاريخ هذا الصحابى الجليل عبدالله بن عبد الله بن أُبى ابن سلول -وهو ابن رأس المنافقين- ومع ذلك كان صحابيًّا جليلًا.

قال عبد الله بن عبد الله بن أُبى ابن سلول، يا رسول الله بلغنى أنك تريد قتل أبى فإن كنت تريد ذلك فمُرنى بقتله فوالله إن أمرتنى بقتله لأقتلنَّه، وإنى أخشى يا رسول الله، إن قتله غيرى أن لا أصبر عن طلب الثأر فأقتل به مسلمًا فأدخل النار، وقد علمت الأنصار أنى من أبر أبنائها بأبيه.

فقال له رسول الله ﷺ خيرًا ودعا له وقال له: «**بِرَّ أباك، ولا يرَ منك إلا خيرًا**»، فلما وصل رسول الله ﷺ والمسلمون إلى المدينة من تلك الغزاة وقف عبد الله بن عبد الله بن أُبى لأبيه بالطريق وقال: والله لا تدخل المدينة حتى يأذن لك رسول الله ﷺ بالدخول.

فأَذِن رسول الله ﷺ بدخوله[2].

---

(١) سيرة ابن هشام: (٢/ ٢٩٠-٢٩٢) والحديث رجاله ثقات ولكنه مرسل - وابن جرير الطبرى فى تاريخه (٢/ ٦٠٥)، وله شاهد مرسل من طريق عروة عند ابن أبى حاتم قال فيه ابن حجر، أنه مرسل جيد فتح البارى: (٨/ ٦٤٩)، وأصله فى الصحيحين كما سبق من حديث زيد بن أرقم، وجابر بن عبد الله وبهذا يكون الحديث حسنًا لغيره.

(٢) الدرر فى اختصار المغازى والسير (١٨٩: ١٩٠).

* بل هناك موقف آخر نذكره -مع أنه لم يكن فى تلك الغزوة-:

عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: مَرَّ رسول الله ﷺ بعبد الله بن أُبى ابن سلول وهو فى ظل أُطم[1] فقال ابن سلول: غبَّر علينا ابنُ أبى كبشة[2] فقال ابنه عبد الله بن عبد الله بن أُبى ابن سلول رضي الله عنه ، يا رسول الله والذى أكرمك لئن شئت لآتينك برأسه؟ فقال: «**لا. ولكن بِرَّ أباك وأحسن صُحبته**»[3].

* وفى التفسير عند ابن كثير:

ذكر عكرمةُ وابن زيد وغيرهما: أن الناس لما قفلوا راجعين إلى المدينة، وقف عبدُ الله بن عبد الله هذا على باب المدينة، واستلَّ سيفه، فجعل الناس يمرون عليه، فلما جاء أبوه عبد الله بن أُبى قال له ابنه: وراءك. فقال: ما لك؟ ويلك. فقال: والله لا تجوز من هاهنا حتى يأذنَ لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل. فلما جاء رسول الله ﷺ -وكان يسير ساقة[4]- فشكا إليه عبد الله بن أُبى ابنه، فقال ابنه عبد الله: والله يا رسول الله لا يدخلها حتى تأذن له. فأذن له رسول الله ﷺ، فقال: أما إذ أذن لك رسول الله ﷺ فَجُز الآن.

* وكان رأس المنافقين هو الذى تولَّى كبره وخاض فى عِرض أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فى حادثة الإفك، واتهمها بأنها فعلت الفاحشة مع صفوان بن المُعطَّل السُّلَمى رضي الله عنه .. وأشاع رأس المنافقين هذا الكلام بين الناس فى المدينة ليؤذى النبى ﷺ فى عِرضه ... إلى أن أنزل الله عز وجل براءتها

---

(١) الأطم: البناء المرتفع: انظر المعجم الوسيط جـ١ ص ٢٠.

(٢) أبى كبشة: أبو كبشة هو زوج حليمة السعدية مرضعة الرسول وذلك من باب التنقيص.

(٣) أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد (جـ٩/ ٣١٨) وقال: رواه البزار ورجاله ثقات.

(٤) أي: فى مؤخرة الجيش.

من فوق سبع سماوات.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١]. جزاءً وفاقًا لكل من استطال في أعراض المؤمنات.

وهكذا كان رأس المنافقين عبد الله بن أُبى ابن سلول لا يترك فرصة لعداوة النبى ﷺ وإيذائه إلا اغتنمها فكان جزاؤه أن يموت على النفاق .. وقد قال تعالى عن المنافقين: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾[٢].

* * *

(١) سورة النور: الآيتان (٢٣-٢٤).

(٢) سورة النساء: الآية (١٤٥).



نهاية عدو الله
(خالد بن سفيان الهذلي)

بعد أن شهد عبد الله بن أنيس غزاة أُحد مع رسول الله ﷺ، سوَّلت نفس أحد الأعراب ويُدعى: سفيان بن خالد بن نبيح الهذلى أن يجتاح المدينة المنورة، وقد تجمع من حوله كثير من الأعراب ومن شذَّاد الآفاق، من بنى هذيل ومن غيرهم، يريدون إطفاء نور الله بأفواههم.

كان يجمع هؤلاء الطمع، وسوء الطباع، والانغماس فى الشهوات، وفى المحرمات والفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحتى لقد سألت جماعة من هذيل رسول الله ﷺ حين أرادوا الإسلام أن يبيح لهم فاحشة الزنى... وبدأت ساعة الصفر لنهاية هؤلاء الأشرار بزعامة رئيسهم ورأسهم سفيان ابن خالد الهذلى.. ولكن مَن للقضاء على رأس الأفعى، وجرثومة الوباء والبلاء؟! هنالك يبرز فى ميدان الفدائية، وساحة الفروسية، البطل المغامر الجرىء عبد الله بن أنيس الجهنى، ذلك الذى لا يهاب أحدًا إلا الله ﷻ، فاستدعاه رسول الله ﷺ... وسيَّره إلى خالد بن سفيان بن نبيح الهذلى يوم الاثنين؛ لخمس خَلَوْنَ من شهر المحرم، على رأس خمسة وثلاثين شهرًا من الهجرة، ليقتله وليلحقه بأبى جهل بن هشام، وعتبة بن ربيعة، وأُبى بن خلف، وأكابر المجرمين، وذلك بعد أن استفاضت الأخبار على رسول الله ﷺ أن هذا الخبيث الفاجر الأفاك يريد حرب رسول الله ﷺ والمسلمين، وهو يجمع الجموع لهذا الهدف الخبيث الدنىء[1].

(١) فرسان من عصر النبوة (ص: ٧٢٧، ٧٢٨).

ويا لها من منقبة عظيمة تتوارى أمامها الكلمات خجلًا وحياءً، فكما خرج (عبد الله بن أنيس) ليدافع عن حبيبه ﷺ فها هو الحبيب ﷺ يدفع إليه تلك العصا لتكون آية بينه وبين (عبد الله بن أنيس) يوم القيامة.

فتعالوا بنا نعيش، بل ولنتعايش مع هذا المشهد المهيب.

قال عبد الله بن أنيس: دعانى رسول الله ﷺ، فقال: «**إنه قد بلغنى أن ابن سفيان بن نبيح الهذلى يجمع لى الناس ليغزونى، وهو بنخلة أو بعُرنة، فائته فاقتله**». قلت: يا رسول الله، انعتْهُ لى حتى أعرفه. قال: «**إنك إذا رأيته أذكرك الشيطان، وآية ما بينك وبينه أنك إذا رأيته وجدت له قُشعريرة**». قال: فخرجت مُتوشحًا سيفى، حتى دُفعت إليه وهو فى ظُعُن يرتاد لهنّ منزلًا وحيث كان وقت العصر؛ فلما رأيته وجدتُ ما قال رسول الله ﷺ من القُشعريرة، فأقبلت نحوه، وخشيتُ أن تكون بينى وبينه بمحاولة تشغلنى عن الصلاة، فصليت وأنا أمشى نحوه، وأُومئ برأسى، فلما انتهيت إليه، قال: من الرجل؟ قلت: رجل من العرب سمع بك وبجمعك لهذا الرجل، فجاءك لذلك. قال: أجل، إنى لفى ذلك. قال: فمشيت معه شيئًا، حتى إذا أمكننى حملت عليه بالسيف، فقتلته، ثم خرجت، وتركت ظعائنه - نساءه - مُنكبَّات عليه؛ فلما قدمت على رسول الله ﷺ فرآنى، قال: «**أفلح الوجه**»؛ قلت: قد قتلته يا رسول الله، قال: «**صدقت**» ثم قام بى، فأدخلنى بيته، فأعطانى عصًا، فقال: «**أمسك هذه العصا عندك يا عبد الله بن أنيس**». قال: فخرجتُ بها على الناس، فقالوا: ما هذه العصا؟ قلت: أعطانيها رسول الله ﷺ. وأمرنى أن أمسكها عندى. قالوا: أفلا ترجع إلى رسول الله ﷺ فتسأله لِمَ ذلك؟ قال: فرجعت إلى رسول الله ﷺ فقلت: يا رسول الله، لِمَ أعطيتنى

هذه العصا؟ قال: «آيةٌ بيني وبينك يوم القيامة، إن أقل الناس المتخصرون يومئذ»، قال: فقرنها عبد الله بن أنيس بسيفه، فلم تزل بسيفه حتى مات، ثم أمر بها فضُمَّت فى كفنه، ثم دُفنا جميعًا[١].

* * *

(١) رواه أحمد (١٥٦١٧)، بلفظه، وأخرجه أبو داود (١٢٤٩) كتاب الصلاة مختصرًا، والبيهقي بلفظ أحمد، وقال الساعاتي في الفتح الرباني (٧/ ٢٨): حسَّن الحافظ إسناده. قشعريرة: رعدة وارتعاش كارتعاش المحموم. يرتاد: يطلب. المتخصرون: المتكئون على المخاصر، وهي العصي.

صحابي يقتل من سبت النبي ﷺ

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ : أَنَّ أَعْمَى كَانَتْ لَهُ أُمُّ وَلَدٍ تَشْتُمُ النَّبِيَّ - ﷺ - وَتَقَعُ فِيهِ فَيَنْهَاهَا فَلاَ تَنْتَهِي وَيَزْجُرُهَا فَلاَ تَنْزَجِر - قَالَ - فَلَمَّا كَانَتْ ذَاتَ لَيلَةٍ جَعَلَتْ تَقَعُ فِي النَّبِيِّ ﷺ وَتَشْتِمُهُ فَأَخَذَ الْمِغْوَلَ[1] فَوَضَعَهُ فِي بَطْنِهَا وَاتَّكَأَ عَلَيهَا فقتَلَهَا، فَوَقَعَ بَينَ رِجْلَيهَا طِفْلٌ فَلَطَخَتْ مَا هُنَاكَ بِالدَّمِ فَلَمَّا أَصْبَحَ، ذُكِرَ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ فَجَمَعَ النَّاسَ فَقَالَ: « **أَنْشُدُ اللهَ رَجُلًا فَعَلَ مَا فَعَلَ لِي عَلَيهِ حَقٌّ إِلاَّ قَامَ** ». فَقَامَ الأَعْمَى يَتَخَطَّى النَّاسَ وَهُوَ يَتَزَلْزَلُ حَتَّى قَعَدَ بَينَ يدَيِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يا رَسُولَ اللهِ أَنَا صَاحِبُهَا كَانَتْ تَشْتِمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ فَأَنْهَاهَا فَلاَ تَنْتَهِي وَأَزْجُرُهَا فَلاَ تَنْزَجِر وَلِي مِنْهَا ابْنَانِ مِثْلُ اللُّؤْلُؤَتَينِ وَكَانَتْ بِي رَفِيقَةً فَلَمَّا كَانَتِ الْبَارِحَةَ جَعَلَتْ تَشْتِمُكَ وَتَقَعُ فِيكَ، فَأَخَذْتُ الْمِغْوَلَ فَوَضَعْتُهُ فِي بَطْنِهَا، وَاتَّكَأْتُ عَلَيهَا حَتَّى قَتَلْتُهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « **أَلاَ اشْهَدُوا أَنَّ دَمَهَا هَدَرٌ** »[2].

وعن ابن سعد عن عبد الله بن معقل قال: نزل ابن أمِّ مكتوم على يهودية بالمدينة كانت ترفقه وتؤذيه فى النبى ﷺ، فتناولها فضربها فقتلها، فرفع ذلك إلى النبى ﷺ فقال: أما والله إن كانت لترفقنى، ولكن آذتنى فى الله ورسوله، فقال النبى ﷺ: «**أبعدها الله فقد أبطلتُ دمها**»[3].

(١) سيف قصير دقيق.

(٢) صحيح: رواه أبو داود والنسائى، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (٤/ ٢١٠) من طريق قبيصة بن عقبة قال حدثنا يونس بن أبي إسحاق عن أبي إسحاق عن عبد الله بن معقل مرفوعًا. ورواه أبو داود (٤٣٦١) والنسائي (٤٠٨١) من حديث ابن عباس، بدون ذكر ابن أم مكتوم. صححه الألبانى فى «إرواء الغليل» (١٢٥١)، وضعفه فى ضعيف أبى داود (٩٣٧).

مسيلمة الكذاب

كـذَّاب اليمامـة، وكـان يُـدعَى رحمـان اليمامـة، ادَّعـى النبـوة فى عهـد رسول الله ﷺ قصدته سجاح لمَّا ادَّعت النبوة بجنودها؛ لأخذ اليمامة منه، فهابه قومها، وقالوا: إنه قد استفحل أمره وعظم، فقالت لهم فيما تقوله: عليكم باليمامة، دفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، لا تلحقكم بعدها ملامة. قال: فعمدوا لحرب مسيلمة، فلما سمع بمسيرها إليه خافها على بلاده، فبعث إليها يستأمنها، ويضمن لها أن يعطيها نصف الأرض الذى كان لقريش لو عدلت، فقد ردّه الله عليك فحباك به، وراسلها، ليجتمع بها فى طائفة من قومه، فركب إليها فى أربعين من قومه، فلما خلا بها عرض عليها ما عرض من نصف الأرض، وقبلت ذلك، قال مسيلمة: سمع الله لمن سمع، وأطعمه بالخير إذا طمع، ولا يزال أمره فى كل ما يسر مجتمع، رآكم ربكم فحياكم، ومن وحشته أخلاكم، ويوم دينه أنجاكم فأحياكم ... إلى آخر الهراء، وإلى آخر ما فعل اللعين مما يعف القلم عن ذكره ... فلما رجعت سجاح إلى قومها قالوا: ما أصدقك؟ فقالت: لم يَصْدُقنى شيئًا، فقالوا: إنه قبيح على مثلك أن تتزوج بغير صداق، فبعثت إليه تسأله صَداقًا، فقال: أرسلى إلىَّ مؤذنك، فبعثته إليه - وهو شَبَثُ بن ربعى - فقال: نادِ فى قومك أن مسيلمة بن حبيب رسول الله قد وضعت عنكم صلاتين، مما أتاكم به محمد - يعنى صلاة الفجر وصلاة العشاء الآخرة - ثم أسلمت بعد ذلك سجاح.

هذا الكذَّاب الذى كذب على الله ورسوله، فشانه الله وفضحه بكذبه، فما يسمَّى إلا مسيلمة الكذاب، وكفى به جزاءً فى الدنيا، فكيف بالقتل وقد

قتله وحشى العبد؟... فكيف بيوم القيامة، ﴿ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَـٰدُ هَـٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[2].

روى البخارى أَنَّ مُسَيلَمَةَ، كَتَبَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم:

مِنْ مُسَيلِمَةَ رَسُولِ اللهِ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، سَلَامٌ عَلَيكَ.

أَمَّا بَعْدُ .. فَإِنِّى قَدْ أُشْرِكْتُ فِى الْأَمْرِ مَعَكَ، وَإِنَّ لَنَا نِصْفَ الْأَرْضِ وَلِقُرَيشٍ نِصْفَهَا، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ يعْدِلُونَ. فَكَتَبَ إِلَيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ:

« **بسم الله الرحمن الرحيم، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى مُسَيلِمَةَ الْكَذَّابِ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يورِثُهَا مَنْ يشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** ».

قَدِمَ هذا اللعين المدينة وافدًا إلى رسول الله ﷺ، وقد وقف عليه رسول الله ﷺ، فسمعه وهو يقول: إن جعل لى محمد الأمر من بعده اتبعته. فقال له: «**لو سألتنى هذا العود - لعرجون فى يده - ما أعطيتكه، ولئن أدبرت ليعقرنَّك الله، إنى لأراك الذى أُريت فيه ما أُريت**». وكان رسول الله ﷺ قد رأى فى المنام كأن فى يديه سوارين من ذهب، فأهمَّه شأنهما، فأوحى الله إليه فى المنام: انفخهما، فنفخهما فطارا، فأوَّلهما بكذابين يخرجان، وهما صاحب صنعاء، وصاحب اليمامة، وهكذا وقع فإنهما ذهبا وذهب أمرهما، أما الاسود فذُبح فى داره، وأما مسيلمة فعقره الله على يدى وحشى بن

---

(١) سورة الزمر: الآية: (٦٠).

(٢) سورة هود: الآية: (١٨).

حرب، رماه بالحربة فأنفذه كما تُعقر الإبل، وضربه أبو دجانة على رأسه ففلقه، وذلك بعقر داره فى حديقة الموت، وقد قُتل قبله وزيراه: محكم بن الطفيل، والرَّجَّال بن عنفوة.

* وفد عمرو بن العاص فى أيام جاهليته على مسيلمة، فقال له مسيلمة: ماذا أُنزل على صاحبكم فى هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أُنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هى؟ قال: أُنزل عليه: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾[1]، قال: ففكر مسيلمة ساعة، ثم رفع رأسه، فقال: ولقد أُنزل علىَّ مثلها، فقال له عمرو: وما هى؟ فقال مسيلمة: يا وبر يا وبر، إنما أنت إيراد وصدر، وسائرك حفر نقر.

ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله، إنك لتعلم أنى أعلم أنك تكذب.

* وذكر علماء التاريخ أنه كان يتشبه بالنبى ﷺ ... فقد بلغه أن رسول الله ﷺ بصق فى بئر فَغَزُر ماؤه، فبصق فى بئر فغاض ماؤه بالكلية، وفى أخرى فصار ماؤه أُجاجًا.

وتوضأ وسقى بوضوئه نخلًا فيبست وهلكت.

وأتى بولدان يبرّك عليهم فجعل يمسح رؤوسهم، فمنهم من قرع رأسه، ومنهم من لثغ لسانه.

والجزاء من جنس العمل، فضوح الدنيا قبل الآخرة وتكذيب الناس له.

ويقال: إنه دعا لرجل أصابه وجع فى عينيه فمسحهما فعمى.

وجاء فى قرآن مسيلمة الكذاب مما يثير الضحك والعجب العجاب: يا

---

(١) سورة العصر: الآيتان: (١-٢).

ضفدع بنت الضفدعين، نَقِّى لكم تُنقين، لا الماء تكدرين، ولا الشارب تمنعين، رأسك فى الماء، وذَنَبُك فى الطين.

وكان يقول:

«والمبذرات ذرعًا، والحاصدات حصدًا، والذاريات قمحًا، والطاحنات طحنًا، والخابزات خبزًا، والثاردات ثردًا، واللاقمات لقمًا، إهالةً وسمنًا، لقد فضلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، رفيقكم فامنعوه، والمعتر فآووه، والناعى فواسوه».

لما مات رسول الله ﷺ زعم أنه استقلَّ بالأمر من بعده واستخف قومه فأطاعوه وكان يقول:

خذى الدف يا هذه والعبى ... وبُثِّى محاسن هذا النبى

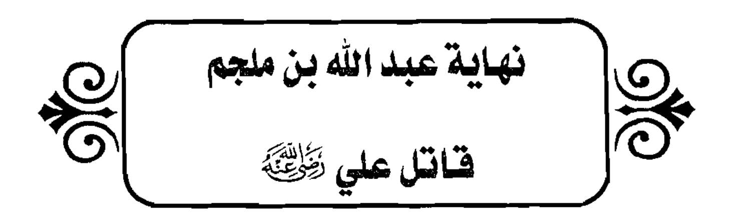
تولَّى نبى بنى هاشم ... وقام نبى بنى يَعْرُبِ

فلم يمهله الله بعد وفاة رسول الله ﷺ إلا قليلًا حتى سلط الله عليه سيفًا من سيوفه، وحتفًا من حتوفه فعَجَّ بطنه، وفلق رأسه وعجَّل الله بروحه إلى النار فبئس القرار ... قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[1].

فمسيلمة والأسود وأمثالهما لعنهم الله أحق الناس دخولًا فى هذه الآية الكريمة، وأولاهم بهذه العقوبة العظيمة. اهـ[2].

(١) سورة الأنعام: الآية: (٩٣).

(٢) البداية والنهاية (٦/ ٣٤٥-٣٤٦).



نهاية عبد الله بن ملجم قاتل علي رضي الله عنه

ذكر ابن جرير وغير واحد من علماء التاريخ والسير وأيام الناس: أن ثلاثة من الخوارج وهم: عبد الرحمن بن عمرو - المعروف بابن ملجم الحِمْيَرى ثم الكِنْدى، حليف بنى حنيفة من كِندة المصرى، وكان أسمر حسن الوجه، أبلج شعره مع شحمة أذنيه وفى وجهه أثر السجود، والبرك بن عبد الله التميمى، وعمرو بن بكر التميمى أيضًا - اجتمعوا فتذاكروا قتل على رضي الله عنه إخوانهم من أهل النهروان فترحَّموا عليهم وقالوا: ماذا نصنع بالبقاء بعدهم؟ كانوا لا يخافون فى الله لومة لائم،... قالوا: فلو شرينا أنفسنا فأتينا أئمة الضلال فقتلناهم، فأرحنا منهم البلاد وأخذنا منهم ثأر إخواننا؟ فقال ابن ملجم: أما أنا فأكفيكم على بن أبى طالب.

وقال البرك: وأنا أكفيكم معاوية، وقال عمرو بن بكر :وأنا أكفيكم عمرو بن العاص.

فتعاهدوا وتواثقوا أن لا ينكص رجل منهم عن صاحبه حتى يقتله أو يموت دونه، فأخذوا أسيافهم فسمُّوها -أي: وضعوها في النار حتى احمرَّت ثم غمسوها في السم- واتَّعدوا لسبع عشرة من رمضان أن يثب كل واحد منهم على صاحبه فى بلده الذى هو فيه، فأما ابن ملجم فسار إلى الكوفة فدخلها، وكتم أمره حتى عن أصحابه من الخوارج الذين هم بها، فبينما هو جالس فى قوم من بنى تيم الرباب يتذاكرون قتلاهم يوم النهروان إذ أقبلت امرأة منهم يقال لها: قطام بنت الشجنة، قد قتل على رضي الله عنه يوم

النهروان أباها وأخاها، وكانت فائقة الجمال مشهورة به، وكانت قد انقطعت فى المسجد الجامع تتعبد فيه، فلما رآها ابن مُلجم سلبت عقله ونسى حاجته التى جاء لها، وخطبها إلى نفسها فاشترطت عليه ثلاثة آلاف درهم، وخادمًا وقينة. وأن يقتل لها على بن أبى طالب.

قال: فهو لك ووالله ما جاء بى إلى هذه البلدة إلا قتل علىّ، فتزوجها ودخل بها، ثم شرعت تحرضه على ذلك، وندبت له رجلًا من قومها، من تيم الرباب يقال له: وردان، ليكون معه ردءًا.

واستمال عبد الرحمن بن مُلجم رجلًا آخر يقال له: شبيب بن بجرة الأشجعى الحرورى، قال له ابن ملجم: هل لك فى شرف الدنيا والآخرة؟ فقال: وما ذاك؟ قال: قتل علىٍّ، فقال: ثكلتك أمك، لقد جئت شيئًا إدًّا كيف تقدر عليه؟ قال: أكمن له فى المسجد. فإذا خرج لصلاة الغداة شددنا عليه فقتلناه، فإن نجونا شفينا أنفسنا وأدركنا ثأرنا، وإن قُتلنا فما عند الله خير من الدنيا وما فيها.

فقال: ويحك لو غير علىٍّ كان أهون علىَّ! قد عرفت سابقته فى الاسلام وقرابته من رسول الله ﷺ فما أجدنى أنشرح صدرًا لقتله.

فقال: أما تعلم أنه قتل أهل النهروان ؟ فقال: بلى قال: فنقتله بمن قتل من إخواننا. فأجابه إلى ذلك.

ودخل شهر رمضان فواعدهم ابن مُلجم ليلة الجمعة لسبع عشرة ليلة خلت، وقال: هذه الليلة التى واعدت أصحابى فيها أن يثأروا بمعاوية وعمرو بن العاص فجاء هؤلاء الثلاثة - وهم ابن ملجم، ووردان، وشبيب- وهم مشتملون على سيوفهم فجلسوا مقابل السدة التى يخرج منها على رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، فلما خرج جعل يُنهض الناس من النوم إلى الصلاة،

ويقول: الصلاة الصلاة فثار إليه شبيب بالسيف فضربه فوقع سيفه فى الطاق، فضربه ابن ملجم بالسيف على قرنه فسال دمه على لحيته رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولما ضربه ابن ملجم قال: لا حكم إلا لله ليس لك يا علىّ ولا لأصحابك، وجعل يتلو قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾(١)، ونادى علىٌّ: عليكم به، وهرب وردان فأدركه رجل من حضرموت فقتله، وذهب شبيب فنجا بنفسه وفات الناس، ومُسك ابن ملجم، وقدَّم علىٌّ جعدة بن هبيرة بن أبى وهب فصلى بالناس صلاة الفجر، وحُمل علىّ إلى منزله، وحُمل إليه عبد الرحمن بن ملجم فأُوقف بين يديه وهو مكتوف - قبحه الله - فقال له: أى عدو الله ألم أُحسن إليك ؟ قال: بلى؟ قال: فما حملك على هذا؟ قال: قَتْلُك أهل النهراوان فاشتريت هذا السيف وشحذته أربعين صباحًا وسألت الله أن يقتل به شر خلقه، فقال له علىٌّ: لا أراك إلا مقتولًا به، ولا أراك إلا من شر خلق الله، ثم قال: إن مِتُّ فاقتلوه، وإن عشتُ فأنا أعلم كيف أصنع به.

فلما مات على رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استدعى الحسن ابنَ ملجم، فقال له ابن ملجم: إنى أعرض عليك خصلة، قال: ما هى؟ قال: إنى كنت عاهدت الله عند الحطيم أن أقتل عليًّا ومعاوية أو أموت دونهما، فإن خليتنى ذهبت إلى معاوية على أنى إن لم أقتله أو قتلته وبقيت فلله علىَّ أن أرجع إليك حتى أضع يدى فى يدك، فقال له الحسن : كلا والله حتى تعاين النار، ثم قدَّمه فقتله، ثم أخذه الناس فأدرجوه فى بوارى ثم أحرقوه بالنار.

---

(١) سورة البقرة: الآية: (٢٠٧).

نهاية رأس الخوارج (ذو الخويصرة)

عَنْ أَبِى سَعِيدٍ الخُدْرِى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: بَينَا النَّبِى ﷺ يَقْسِمُ ذَاتَ يوْمٍ قِسْمًا، فَقَالَ ذُو الخُوَيصِرَةِ - رَجُلٌ مِنْ بَنِى تَمِيمٍ - يا رَسُولَ اللهِ اعْدِلْ، قَالَ: «وَيلَكَ، مَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ» فَقَالَ عُمَرُ: ائْذَنْ لِى فَلأَضْرِبْ، عُنُقَهُ، قَالَ: «لاَ، إِنَّ لَهُ أَصْحَابًا، يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيامَهُ مَعَ صِيامِهِمْ، يمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمُرُوقِ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيةِ، ينْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلاَ يوجَدُ فِيهِ شَىءٌ، ثُمَّ ينْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلاَ يوجَدُ فِيهِ شَىءٌ، ثُمَّ ينْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ فَلاَ يوجَدُ فِيهِ شَىءٌ، ثُمَّ ينْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلاَ يوجَدُ فِيهِ شَىءٌ، قَدْ سَبَقَ الفَرْثَ وَالدَّمَ، يخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ، آيتُهُمْ رَجُلٌ إِحْدَى يدَيهِ مِثْلُ ثَدْى المَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِى ﷺ، وَأَشْهَدُ أَنِّى كُنْتُ مَعَ عَلِىٍّ حِينَ قَاتَلَهُمْ، فَالْتُمِسَ فِى القَتْلَى فَأُتِى بِهِ عَلَى النَّعْتِ الَّذِى نَعَتَ النَّبِى ﷺ [١].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٦١٦٣) كتاب الأدب، ومسلم (١٠٦٤) كتاب الزكاة.

كسرى ملك الفرس

هنيئًا لمن فاز بدعاء النبى ﷺ له ... ويا شقاء من باء بدعاء النبى ﷺ عليه.

وها هو كسرى ملك الفرس الذى قاده الكبر والغرور إلى أن يمزق رسالة النبى ﷺ عندما وصلته فما كان من النبى ﷺ إلا أن قال: «**مزَّق الله مُلكه**» .. فكان ذلك وهَلَك الرجل وضاع مُلكه.

عن أبى هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، فوالذى نفسى بيده لتُنفقن كنوزهما فى سبيل الله**».

قال رسول الله ﷺ: «**عصبة من المسلمين يفتحون البيت الأبيض بيت كسرى**»[١].

وقال: «**لتفتحن عصابة من المسلمين كنزًا لكسرى الذى فى الأبيض**»[٢].

* وبالفعل .. فقد فُتحت بلاد فارس وتمزقت فى معركة القادسية.

روى محمد بن إسحاق عن أبى سلمة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله ابن حذافة السهمى بكتابه إلى كسرى، فلما قرأه مزَّقه، فلما بلغ رسول الله ﷺ قال: «**مزق ملكه**».

وعند ابن جرير: عن يزيدَ بْنِ أَبِى حَبِيبٍ قَالَ: وَبَعَثَ عَبْد الله بْنَ حُذَافَةَ ابْنِ قَيسٍ إِلَى كِسْرَى بْنِ هُرْمُزَ مَلِكِ فَارِسٍ، وَكَتَبَ مَعَهُ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرحيم.

---

(١) صحيح: رواه مسلم (١٨٢٢) كتاب الإمارة.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩١٩) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

من محمد رسول الله إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسٍ.

سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى وَآمَنَ بالله وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنَّ لا إِلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَدْعُوكَ بِدَاعِيَةِ اللهِ، فَإِنِّي أنا رَسُولُ اللهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، لأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَإِنْ تُسْلِم تَسْلَمْ، وَإِنْ أَبيتَ، فَإِنَّ إِثْمَ الْمَجُوسِ عَلَيكَ» .

قال: فَلَمَّا قَرَأه شَقَّهُ، وَقَالَ: يَكْتُبُ إِلَيَّ بِهَذَا وَهُوَ عَبْدِي.

قال: ثُمَّ كَتَبَ كِسْرَى إِلَى بَاذَانَ، - وَهُوَ نَائِبه عَلَى الْيَمَنِ - أَنِ ابْعَثْ إِلَى هَذَا الرَّجُلِ بِالْحِجَازِ رَجُلَينِ مِنْ عِنْدِكَ، جَلْدَينِ، فَلْيأْتِيانِي بِهِ، فَبَعَثَ بَاذَانَ قَهْرَمَانَهُ، وَكَانَ كَاتِبًا حَاسِبًا بِكِتَابِ فَارِسَ، وَبَعَثَ مَعَهُ رَجُلًا مِنَ الْفُرْسِ يُقَالُ لَهُ: فرخرة، وَكَتَبَ معهما إلى رسول الله ﷺ يأْمُرُهُ أَنْ ينْصَرِفَ مَعَهُمَا إِلَى كِسْرَى، وَقَالَ لباذويه: ائْتِ بِلَادَ هَذَا الرَّجُلِ، وَكَلِّمْهُ وَأْتِنِي بِخَبَرِهِ، فَخَرَجَا حَتَّى قَدِمَا الطَّائِفَ فَوَجَدَا رِجَالًا مِنْ قُرَيشٍ بِنَخْبٍ مِنْ أَرْضِ الطَّائِفِ فَسَأَلاهُمْ عَنْهُ، فَقَالُوا: هُوَ بِالْمَدِينَةِ، وَاسْتَبْشَر أَهل الطائف - يعني وقريش- بِهِمَا وَفَرِحُوا، وَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: أَبْشِرُوا، فَقَدْ نَصَبَ لَهُ كِسْرَى مَلِكُ الْمُلُوكِ، وَكُفِيتُمُ الرَّجُلَ! فَخَرَجَا حَتَّى قَدِما على رسول الله ﷺ، فكلمه باذويه، فقال: شاهانشاه مَلِكَ الْمُلُوكِ كِسْرَى، قَدْ كَتَبَ إِلَى الْمَلِكِ بَاذَانَ، يأْمُرُهُ أَنْ يبْعَثَ إِلَيكَ مَنْ يأْتِيهِ بِكَ، وَقَدْ بَعَثَنِي إِلَيكَ لِتَنْطَلِقَ مَعِي، فَإِنْ فَعَلْتَ كَتَبَ فِيكَ إِلَى مَلِكِ الْمُلُوكِ يكُفُّهُ عَنْكَ، وَإِنْ أَبيتَ فَهُوَ مَنْ قَدْ عَلِمْتَ! فَهُوَ مُهْلِكُكَ وَمُهْلِكُ قَوْمِكَ، وَمُخَرِّبُ بِلادِكَ، ... ودخلا على رسول الله ﷺ وَقَدْ حَلَقَا لِحَاهُمَا، وَأَعْفَيا شَوَارِبَهُمَا، فَكَرِهَ النَّظَرَ إليهما، وَقَالَ: «**وَيلَكُمَا، مَنْ أَمَرَكُمَا بِهَذَا؟**» قَالا: أَمَرَنَا بِهَذَا رَبُّنَا- يعْنيانِ كِسْرَى- فَقَالَ رَسُولُ اللهِ

ﷺ: «**لَكِنَّ رَبِّى أَمَرَنِى بِإِعْفَاءِ لِحيتِي وَقَصِّ شَارِبِى**». ثُمَّ قَالَ لَهُمَا: «**ارْجِعَا حَتَّى تَأْتِيانِى غَدًا**» . قال: وَأَتَى رَسُولَ اللهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ: بِأَنَّ اللهَ قَدْ سَلَّطَ عَلَى كِسْرَى ابْنَهُ شِيرَوَيهِ، فَقَتَلَهُ.

قَالَ: فَدَعَاهُمَا فَأَخبَرَهُمَا فقَالَا: هَلْ تَدْرِى مَا تَقُولُ؟ إِنَّا قَدْ نَقَمْنَا عَلَيكَ مَا هُوَ أَيسَرُ مِنْ هَذَا فَنَكْتُبُ عَنْكَ بِهَذَا وَنُخْبِرُ الْمَلِكَ باذان؟ قال: «نعم أخبراه ذاك عَنِّى وَقُولَا لَهُ: إِنَّ دِينِى وَسُلْطَانِى سَيبْلُغُ ما بلغ كسرى، وينتهى إلى الْخُفِّ وَالْحَافِرِ، وَقُولَا لَهُ إِنْ أَسْلَمْتَ أَعْطَيتُكَ مَا تَحْتَ يديكَ وَمَلَّكْتُكَ عَلَى قَوْمِكَ مِنَ الْأَبْنَاءِ». ثُمَّ أَعْطَى خُرْخَرَةَ مِنْطَقَةً فِيهَا ذَهَبٌ وَفِضَّةٌ كَانَ أَهْدَاهَا لَهُ بَعْضُ الْمُلُوكِ فَخَرَجَا مِنْ عِنْدِهِ حَتَّى قَدِمَا عَلَى بَاذَانَ، فَأَخْبَرَاهُ الْخَبَرَ فَقَالَ: وَاللهِ مَا هَذَا بِكَلَام مَلِكٍ، وَإِنِّى لَأَرَى الرَّجُلَ نَبِيًّا كَمَا يقُولُ وَلَيكُونَنَّ مَا قَدْ قَالَ، فَلَئِنْ كَانَ هَذَا حَقًّا فهو نَبِى مُرْسَلٌ، وَإِنْ لَمْ يكُنْ فَسَنَرَى فِيهِ رأيًا.

فَلَمْ ينْشَبْ بَاذَانُ أَنْ قَدِمَ عَلَيهِ كِتَابُ شِيرَوَيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّى قَدْ قَتَلْتُ كِسْرَى وما أَقْتُلُهُ إِلَّا غَضَبًا لِفَارِسَ لِمَا كَانَ اسْتَحَلَّ مِنْ قَتْلِ أَشْرَافِهِمْ وَنَحْرِهِمْ فِى ثُغُورِهِمْ، فَإِذَا جَاءَكَ كِتَابِى هَذَا فَخُذْ لِى الطَّاعَةَ مِمَنْ قِبَلَكَ، وَانْطَلِقْ إِلَى الرَّجُلِ الَّذِى كَانَ كِسْرَى قَدْ كَتَبَ فِيهِ فَلَا تُهِجْهُ حَتَّى يأْتِيكَ أَمْرِى فِيهِ.

فَلَمَّا انْتَهَى كِتَابُ شِيرَوَيهِ إِلَى بَاذَانَ قَالَ: إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ لَرَسُولٌ فَأَسْلَمَ وَأَسْلَمَتِ الْأَبْنَاءُ مِنْ فَارِسَ مَنْ كَانَ مِنْهُمْ بِالْيمَنِ.

قَالَ: وَقَدْ قَالَ بَاذَوَيهِ لِبَاذَانَ: مَا كَلَّمْتُ أَحَدًا أَهْيبَ عِنْدِى مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ بَاذَانُ: هَلْ مَعَهُ شُرَطٌ؟ قَالَ: لَا.

وكــــسرَى إذْ تَقَاســـمَهُ بَنـــوهُ بأَســـيافٍ كَمَـــا اقتـــسَمَ اللَّحـــامُ
تمَخَّـــضتْ المَنـــونُ لـــهُ بيـــومٍ أتـــى ولكـــلِّ حاملـــةٍ تمـــامُ

قَالَ الشَّافِعِي: وَلَمَّا أُتِي كِسْرَى بِكِتَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَزَّقَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**يمزق مُلْكُهُ**» وَحَفِظْنَا أَنَّ قَيصَرَ أَكْرَمَ كِتَابَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَوَضَعَهُ فِي مِسْكٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ثَبتَ مُلْكُهُ**». وَلَمَّا كَانَتِ الْعَرَبُ تَأْتِي الشَّامَ وَالْعِرَاقَ لِلتِّجَارَةِ فَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْهُمْ شَكَوْا خَوْفَهُمْ مِنْ مَلِكَي الْعِرَاقِ والشَّام إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**إِذَا هَلَكَ كِسْرَى فَلا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيصَرُ فَلا قَيصَرَ بَعْدَهُ**». فَبَادَ مُلْكُ الْأَكَاسِرَةِ بِالْكُلِّيةِ، وَزَالَ مُلْكُ قَيصَرَ عَنِ الشَّامِ بِالْكُلِّيةِ، وَإِنْ ثَبتَ لَهُمْ مُلْكٌ فِي الْجُمْلَةِ، بِبَرَكَةِ دُعَاءِ النبي ﷺ لَهُمْ حِينَ عَظَّمُوا كِتَابَهُ وَاللهُ أَعْلَمُ[1].

والجزاء من جنس العمل.

* * *

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٦٨-٢٧١)، نقلًا عن (الجزاء من جنس العمل) (١/ ٢٧٤-٢٧٦)، للدكتور سيد العفاني (حفظه الله).

نهاية الأسود العنسي

طارت الأخبار فى أرض الجزيرة أن رسول الله ﷺ قد مرض مرضًا شديدًا وذلك بعد عودته من حجة الوداع.

فما كان من الأسود العنسى إلا أن ارتد عن الإسلام وعاد إلى الكفر مرة أخرى... وفوق ذلك سوَّل له الشيطان أن يزعم بين قومه فى اليمن أنه نبى مُرسَل من عند الله (جل وعلا).

وكان يزعم أن ملكًا من السماء يأتيه بالوحى ويخبره بالغيب.

وفى سبيل تحقيق ادِّعائه وكذبه ادعَّى الرجل معرفة الغيب، واحترف السحر والشعوذة ليُغرر بالناس وينال من عقيدتهم، وقد كان من نِعم الله عليه، أن الله مَنَّ عليه بالقوة والسلطان، فسخَّر قوته للشر بدلًا من الخير، ورزقه ربه فصاحة اللسان، وروعة البيان، مما جعله يُسخِّر كل هذا فى سبيل تحقيق مآربه الشريرة، وبدأ يستميل أشراف قومه بعطايا المال الذى مَنَّ الله به عليه.

وساعد جهل الناس وبساطتهم على انتشار دعوة هذا الرجل الهدامة وكان على رأس أتباعه قبيلته التى كانت أكثر قبائل اليمن عددًا، وبالتالى فهى صاحبة نفوذ، وبأسٍ شديد على من حولها من القبائل، وكانت قبيلته تُسمَّى «بنى مَذحج».

* وكان يبث العيون بين الناس ليعرف أسرارهم ومشاكلهم فإذا جاءوه أخبرهم بأسرارهم وزعم أنه يعلم ذلك عن طريق الوحى وكان يختلق الأساطير والأكاذيب من أجل أن يؤمن الناس بنبوته فساعده ذلك كله على توسيع مكانته ومُلكه وسلطانه.

وبالفعل فقد اتسع مُلكه وتكاثر أتباعه الذين استطاع أن يخدعهم بالحيل والأكاذيب.

فاستطاع أن ينشر نفوذه على صنعاء وغيرها من البلاد الأخرى حتى دانت له كل البلاد التى بين البحرين وعدن وكذلك التى بين حضرموت والطائف.

* ولما اطمأن إلى أنه قد بسط نفوذه على تلك البلاد بدأ يتتبع مُعارضيه لينتقم منهم ويُذيقهم من العذاب ألوانًا.

وفى خضم هذه الأحداث كان التابعى الجليل أبو مسلم الخولانى من الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فثبت إيمانه، وقَوِى ولاؤه لدينه؛ فلم يرجع قيد أنملة عن كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، ولم يُكذب ما جاء به نبى الله ورسوله محمد ﷺ.

وكان بالطبع معارضًا عنيفًا لدعوة هذا الرجل الأسود العنسى، فاشتد الصدام بينهما، وكان صدامًا بين الشرك والإيمان، وبين الردة والثبات على دين الله، فقد كان أبو مسلم رجلًا صلبًا قويًّا، تقيًا، جَهورًا بالحق، زاهدًا فى دنياهم، مُقبلًا على الحياة الباقية، لا يشغله إلا طاعة الله والسعى لرضاه.

* فأراد الأسود العنسى أن ينتقم من أبى مسلم انتقامًا شديدًا وأن يجعله عبرة لمن يعتبر حتى لا يتجرأ أحدٌ على معارضته بعد ذلك.

فأمر أتباعه أن يجمعوا كميات هائلة من الحطب في ساحة من ساحات صنعاء وأن يُشعلوا النار فى الحطب.

وجاء رجاله بأكوام من الحطب، وجعلوه أكداسًا عالية كثيفة، وأمرهم أن يشعلوا النار فيها، وجاء الناسُ ليشهدوا هذا الموقف الكبير... إنه يوم

مشهود، أراد فيه الأسود العنسى أن يحرق أبا مسلم الخولانى بالنار.

وجاء فى موكب مهيب، يحفُّ به رجاله وأتباعه يتقدمهم جنده وحرسه، وجلس فى صدر هذا الحشد وجىء بأبى مسلم الخولانى مقيدًا أمامه.

فلما صار بين يديه نظر إليه الأسود العنسى بكل عجب وتكبر ثم نظر إلى تلك النار المشتعلة أمامه وقال له:

أتشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ.

قال أبو مسلم: نعم أشهد أن محمدًا رسول الله وأنه سيد ولد آدم (عليه السلام)... فاستشاط الأسود غضبًا وقال له: وتشهد أنى رسول الله.

فقال أبو مسلم: إن فى أُذنىَّ صممًا عن سماع ما تقول.

فقال «الأسود»: إذن أقذفك فى هذه النار.

فقال أبو مسلم: إن فعلت اتقيت بهذه النار التى وقودها الحطب نارًا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

فقال «الأسود»: إن كان داعيتكم على حق فسيُنجيه الحق وإن كان على غير ذلك فسترون، ثم أمر بنار عظيمة فأُضرمت ثم جاء بأبى مسلم الخولانى - عليه رحمة الله - فربط يديه وربط رجليه ووضعوه فى مقلاة ثم نسفوه فى لهيب النار ولظاها، ... إن هذه النار كما يقولون كان يمر الطير من فوقها من عِظَم ألسنة لهبها فتسقط الطيور فى وسطها.

وهو بين السماء والأرض لم يذكر إلا الله - جل وعلا - كان يقول: حسبى الله ونعم الوكيل،... كادت قلوب الموحدين أن تنخلع وكادت أن تنفطر، انتظروا والنار تخبو شيئًا فشيئًا، وإذا بأبى مسلم قد فكَّت النار وثاقه،

... ثيابه لم تحترق، رجلاه حافيتان يمشى بهما على الجمر ويتبسم،... ذُهل الطاغية وخاف أن يُسلم مَن بقى من الناس فقام يتهددهم ويتوعدهم.

فقال له أهل مملكته: إن تركت هذا فى بلدك أفسدها عليك، فأمره بالرحيل، فقَدِم المدينة.

فى مدينة الرسول ﷺ

وهنا توجَّه أبو مسلم الخولانى مباشرة إلى مدينة الرسول ﷺ.. وكان يتمنى من أعماق قلبه أن يرى الرسول ﷺ وأن يسعد بصحبته فهو الذى آمن به قبل أن يراه.

ووصل إلى مشارفها فلقى بعض الرعاة وقد أطرقوا صامتين، ومنهم من بدت على وجهه علامات حزن وتسليم لقضاء الله وقدره، فلما تحدث إليهم أبو مسلم عن رسول الله، جاء صمتهم مُجيبًا عن الحدث الجلل الذى أصاب قلوبهم برحيل رسول الله ﷺ إلا أنهم رددوا له قول أبى بكر الصديق فى أعقاب وفاة الرسول ﷺ: «من كان يعبد محمدًا، فإن محمدًا قد مات، ومنْ كان يعبد الله، فإن الله حى لا يموت».

وأضاف أحدهم يقرأ الآية الكريمة: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾[1].

استرجع أبو مسلم الخولانى وقال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وانطلق يُكْمِل مشواره إلى داخل المدينة حتى توارى خلف جذوع نخيلها عن أعين

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٤٤).

الراعى وصاحبه، وهناك أمام مسجد رسول الله فى وسط المدينة جلس أبو مسلم الخولانى تحت ساقَى بعيره يعقل عقالها، وما أن فرغ من عقاله حتى دخل إلى صحن المسجد، فسعى إلى الماء وتوضأ وسلم على رسول الله، وصلى ركعتين فى الروضة الشريفة، وجلس يسترجع ويستغفر الله العظيم، ويحمده أنْ نجَّاه من رِدَّة الأسود العنسى، وبينما هو فى استغفاره، وتسبيحه هذا، إذا برجل يربت على كتفيه ويقول: من أى بلد أنت؟

وقد كان السائل عمر بن الخطاب رضوان الله عليه.

فقال أبو مسلم: من اليمن.

فقال عمر: أتدرى ما فعل الله بصاحبنا الذى ألقاه الأسود العنسى فى النار وأنجاه الله منها؟

فقال: هو بخير والحمد لله.

فقال عمر: نشدتك الله ألست أنت أبو مسلم؟

فقال: بلى.

فبكى عمر بن الخطاب ﷺ وقبَّله بين عينيه ثم قال له: أتدرى ما فعل الله بعدو الله الأسود العنسى.

فقال أبو مسلم: لا أدرى فقد انقطعت أخباره عنى منذ أن تركت بلاد اليمن.

فقال عمر: لقد قتله الله على أيدى بعض المؤمنين الصادقين وأزال الله مُلكه ودولته وردَّ أتباعه إلى الإسلام مرة أخرى.

فقال أبو مسلم : الحمد لله الذى لم يُمتنى حتى أقرَّ عينى بمصرع هذا الظالم وعودة الناس إلى الإسلام مرة أخرى.

فقال له عمر: وأنا أحمد الله الذى أرانى فى أمة محمد من فُعل به كما فُعل بخليل الرحمن أبينا إبراهيم عليه السلام.

* * *

القرطاء البكريون

بعث رسول الله ﷺ إلى القرطاء البكريين، بناحية ضرية فى نجد شرقى المدينة، بكتاب يدعوهم فيه إلى الإسلام، فاستهزءوا به وبكتابه، فأخذوا الصحيفة التى تحمل دعوتهم إلى التوحيد، فغسلوها من الحبر، ثم رقَّعوا بها است دلوٍ لَهُم وأبوا أن يجيبوا الرسول ﷺ إلى ما دعاهم إليه، فأنكرت امرأة عاقلة منهم ما فعلوا بكتاب الرسول ﷺ، وهى أم حبيب بنت عامر بن خالد بن عمرو ابنة ابن أخى سيد القوم حارثة بن عمرو، واستهجنت ما صنعوا، فقالت وقولها يدل على أنها مسلمة:

إذا ما أتتهم آيةٌ من محمدٍ محوها بماء البئر فهى عصيرُ

فانظر كيف كان جزاؤهم من جنس عملهم:

يذكر أصحاب السير أن القرطاء لما فعلوا بكتاب رسول الله ﷺ ما فعلوا، فصاروا دائمًا أهل رعدة وعجلة وكلام مختلط وأهل سفه، وكان الذى جاءهم بالكتاب رجل من عرينة، يقال له: عبد الله بن عوسجة.

قال الواقدى: رأيت بعضهم عيِّيًا لا يبين الكلام[1].

جَرَّد رسول الله ﷺ حملة عسكرية بقيادة الضحاك بن سفيان الكلاب، فى شهر ربيع الأول سنة تسع هجرية، فهزمهم فى مكان بنجد يقال له: زجّ لاوة.

* * *

(١) الواقدى (٢/ ٧٥٤، ٣/ ٩٨٢) غزوة تبوك لباشميل (١٦-١٧).



نهاية بعض الكفار الذين أهدر النبي ﷺ دماءهم عند فتح مكة



ولقد أهدر النبى ﷺ دماء أربعة رجال وامرأتين بسبب ما كانوا قد ألحقوه من أذى شديد وتنكيل بالمسلمين فكان فى إهدار دمائهم عبرة للطغاة والمستهترين، ولكل من تُسوِّل له نفسه الظلم والطغيان.

* قال الإمام ابن القيم:

ولما استقر الفتح، أمَّنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ كلهم إلا تسعة نفر، فإنه أمر بقتلهم، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة، وهم: عبد الله بن سعد بن أبى السرح، وعكرمة بن أبى جهل، وعبد العزى بن خطل، والحارث بن نفيل ابن وهب، ومقيس بن صبابة، وهبَّار بن الأسود، وقينتان لابن خطل، كانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب.

فأما ابنُ أبى السَّرْح فأسلم، فجاء به عثمانُ بن عفان، فاستأمن له رسول الله ﷺ، فقبل منه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقوم إليه بعض الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك، وهاجر، ثم ارتد، ورجع إلى مكة.

وأما عكرمة بنُ أبى جهل، فاستأمنت له امرأته بعد أن فرَّ، فأمَّنه النبى ﷺ، فقَدِم وأسلم وحَسُن إسلامه.

وأما ابن خطل، والحارث، ومقَيس، وإحدى القينتين، فقُتلوا، وكان مقيسٌ، قد أسلم، ثم ارتد وقُتل، ولحق بالمشركين، وأما هبار بن الأسود، فهو الذى عرض لزينب بنت رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينها، ففرَّ، ثم أسلم وحسن إسلامه.

واستؤمن رسولُ الله لسارة ولإحدى القَينتين. فأمَّنهما فأسلمتا[١].

(وفى رواية) عن مصعب بن سعد عن سعد بن أبى وقاص قال: لما كان يوم فتح مكة أمَّن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال: «**اقتلوهم، وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة: عكرمة بن أبى جهل، وعبد الله بن خطل، ومقيس بن صبابة، وعبد الله بن سعد بن أبى السرح**».

فأما عبد الله بن خطل فأُدرك وهو متعلق بأستار الكعبة، فاستبق إليه سعيد بن حريث، وعمار بن ياسر، فسبق سعيد عمارًا، وكان أشب الرجلين، فقتله، وأما مقيس بن صبابة، فأدركه الناس فى السوق فقتلوه. وأما عكرمة، فركب البحر، فأصابتهم عاصف: فقال أصحاب السفينة أخلصوا فإن آلهتكم لا تغنى عنكم شيئًا ههنا. فقال عكرمة: والله لئن لم يُنجنى فى البحَر إلا الإخلاص لا ينجينى فى البر غيره، اللهم إن لك علىَّ عهدًا إن أنت عافيتنى مما أنا فيه أن آتى محمدًا ﷺ حتى أضع يدى فى يده، فلأجدنَّه عفوًّا كريمًا... فجاء فأسلم.

وأما عبد الله بن سعد بن أبى السرح فإنه اختبأ عند عثمان بن عفان فلما دعا رسول الله ﷺ إلى البيعة جاء به حتى أوقفه على النبى ﷺ قال: يا رسول الله بايع عبد الله قال: فرفع رأسه فنظر إليه ثلاثًا كل ذلك يأبى، فبايعه بعد ثلاث، ثم أقبل على أصحابه فقال: «**أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حيث رآنى كففت يدى عن بيعته، فيقتله**»، فقالوا:وما يدرينا يا رسول الله ما فى نفسك هلاّ أومأت إلينا بعينك، قال: «**إنه لا ينبغى لنبى أن يكون له خائنة أعين**»[٢].

* * *

(١) زاد المعاد (٣/ ٤١١).

(٢) رواه النسائي (٧/ ١٠٥)، والحاكم (٣/ ٤٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

الله يرسل صاعقة على رجل رفض الاستجابة لرسول الله ﷺ

فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: بعث رسول الله ﷺ رجلًا من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله تبارك وتعالى؛ فقال: أيش ربك الذى تدعونى إليه؟! من حديد هو؟! من نحاس هو؟! من فضة هو؟! من ذهب هو؟!

فأتى النبى ﷺ فأخبره فأعاده النبى ﷺ الثانية، فقال مثل ذلك فأتى النبى ﷺ فأخبره فأرسله الثالثة فقال مثل ذلك فأتى النبى ﷺ فأخبره فأرسل الله تبارك وتعالى عليه صاعقة فأحرقته فقال رسول الله ﷺ: «**إن الله تبارك وتعالى قد أرسل على صاحبك صاعقة فأحرقته**»، فنزلت هذه الآية: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[(١)] [(٢)].

* * *

(١) سورة الرعد: الآية: (١٣).

(٢) رواه البزار فى كشف الأستار (٣/ ٥٤) بإسناد صحيح.

قصة الصاعقة التى أصابت أحد الفراعنة

كان النبى ﷺ حريصًا كل الحرص على دعوة الناس جميعًا إلى عبادة الله وتوحيده فهو الذى قال الله عنه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وفى يوم من الأيام سمع النبى ﷺ بأحد فراعنة العرب الجبابرة فأراد أن يدعوه إلى الإسلام.. وخشى أن يدعوه أحد غيره فينفر ولا يستجيب فأرسل إليه أحد الصحابة وقال له: اذهب إلى هذا الرجل وادْعُه لى.

فقال هذا الصحابى: يا رسول الله إنه رجل جبار عنيد ولن يستجيب.

فقال له النبى ﷺ: **«اذهب إليه فادعه»**.

فسمع الصحابى كلام النبى ﷺ وذهب إلى هذا الرجل الجبار وقال له: رسول الله ﷺ يدعوك.

فسخر منه هذا الرجل الجبار وقال له: رسول الله!! وما الله؟ ومن أى شىء صُنع؟ أمن ذهبٍ هو؟ أم من فضة هو؟ أم من نُحاس هو؟

فلم يرد عليه الصحابى وعاد إلى النبى ﷺ وهو فى قمة الغضب وقال له: يا رسول الله لقد أخبرتك أنه رجل جبار عنيد ولن يستجيب .. ثم ذكر له ما قاله هذا الرجل.

فقال له رسول الله ﷺ: **«فارجع إليه فادعه»**.

فعاد إليه الصحابى مرة أخرى وقال له: رسول الله ﷺ يدعوك.

فأعاد عليه هذا الرجل الجبار نفس الكلمات البذيئة التى قالها أول مرة.

فعاد الصحابى إلى النبى ﷺ وأخبره بما قاله هذا الرجل الجبار.

فقال له النبى ﷺ للمرة الثالثة: **«ارجع إليه فادعه»**.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية: (١٠٧).

فعاد إليه الصحابى وقال له: إن رسول الله ﷺ يدعوك.

وبينما هما يتحدثان إذ بعث الله فى تلك اللحظة سحابة قريبة من رأس هذا الرجل الجبار فرعدت ووقعت منها صاعقة على رأسه ففلقتها وفصلتها عن جسده لتسبقه إلى النار.

فلما قُتل هذا الرجل الطاغية أنزل الله (ﷻ) قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[1] أى: شديد القوة أو شديد الأخذ.

* وهكذا تكون نهاية الطُّغاة والظالمين والكافرين والمتكبرين.

* ولقد وردت هذه القصة فى سُنة النبى ﷺ:

عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعث النبى ﷺ مرة رجلًا إلى رجل من فراعنة العرب أن «**ادعه لى**».

قال: يا رسول الله! إنه أعتى من ذلك.

قال: «**اذهب إليه فادعه**».

قال: فأتاه فقال: رسول الله ﷺ يدعوك.

قال: أرسول الله؟! وما الله؟! أمن ذهبٍ هو؟! أمن فضةٍ هو؟! أمن نُحاسٍ هو؟!

فرجع إلى النبى ﷺ فقال: يا رسول الله! قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك!! وأخبر النبى ﷺ بما قال.

قال: «**فارجع إليه فادعه**» فرجع، فأعاد عليه المقالة الأولى، فرد عليه مثل الجواب، فأتى النبى ﷺ فأخبره، فقال: «**ارجع إليه فادعه**»، فرجع إليه،

(١) سورة الرعد: الآية: (١٣).

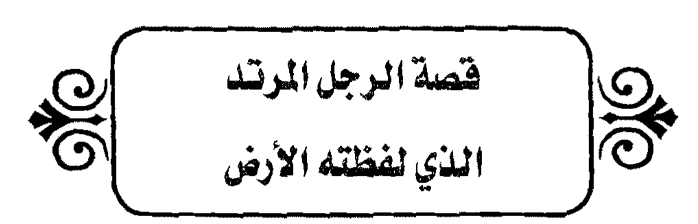
فبينما هما يتراجعان الكلام بينهما إذ بعث الله سحابة حيال رأسه[١] فرعدت، ووقعت منها صاعقة فذهب بقحف رأسه[٢]، وأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[٣].

* * *

(١) حيال رأسه: قُبالة رأسه.

(٢) قحف رأسه: الذي فوق الدماغ، وقيل: هو ما انفلق من جمجمته، وانفصل منه.

(٣) سورة الرعد: الآية: (١٣)، والحديث صحيح: رواه البزار في «كشف الأستار» (٢٢٢١).



قصة الرجل المرتد الذي لفظته الأرض

لقد أرسل الله نبينا محمدًا ﷺ رحمة للعالمين فأنار به العقول وهدى به القلوب وأشرقت الأرض كلها ببعثته ﷺ.

فقام النبى ﷺ يدعو الناس إلى عبادة الله وتوحيده بكل رحمة، فمنهم من استجاب ومنهم من أبَى.

وفى يوم من الأيام فتح الله قلب رجل نصرانى فأسلم وأصبح موحدًا وصحب النبى ﷺ وتعلم سورة البقرة وآل عمران .. بل كان يكتب للنبى ﷺ وأصبح من المقربين إليه ﷺ.

ولكن هذا الرجل لم يُسلم إسلامًا حقيقيًّا فقد كان يُظهر الإيمان ولكنه كان يحمل فى قلبه الكفر.

وفى يوم من الأيام ارتدَّ هذا الرجل وعاد كافرًا كما كان وبدأ يحارب النبى ﷺ ويقول للناس: إن محمدًا لا يعلم شيئًا بل إنه ليس نبيًّا كما يزعم ولا يُوحَى إليه من السماء بل أنا الذى كنت أكتب له كل هذا الوحى من عندي.

وتمر الأيام ويموت هذا الرجل الخبيث، فدفنه أصحابه من الكفار.

وفى اليوم التالى حدث شىء عجيب .. لقد لفظت الأرض جسد هذا الرجل، فأصبح على سطح الأرض بعد أن كان مدفونًا.

فقال أصحابه: إن هذا من فعل محمد وأصحابه فقد جاءوا ليلًا وحفروا الأرض وأخرجوا جسد هذا الرجل.

فما كان منهم إلا أنهم أعمقوا له فى الأرض ودفنوه.. وفى اليوم التالى

وجدوا الأرض قد لفظته على سطحها.

فلما تكرر هذا الأمر أكثر من مرة علموا أن هذا ليس من فعل النبى ﷺ وأصحابه، فتركوه كما هو.

* ولقد وردت هذه القصة كما حكاها الصحابى الجليل أنس بن مالك رضي الله عنه.

قال أنس رضي الله عنه: كان رجل نصرانيًا فأسلم، وقرأ «البقرة» و«آل عمران»، فكان يكتب للنبى ﷺ فعاد نصرانيًا، فكان يقول: ما يدرى محمد إلا ما كتبت له، فأماته الله، فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعل محمدٍ وأصحابه، نبشوا عن صاحبنا لما هرب منهم، فألقوه خارج القبر، فحفروا له وأعمقوا له فى الأرض ما استطاعوا، فأصبح قد لفظته الأرض، فعلموا أنه ليس من الناس، فألقوه»[1].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٦١٧) كتاب المناقب، ومسلم (٢٧٨١) كتاب صفات المنافقين.

اليهود مسخ الخنازير والقرود

وقبل أن نعرف من هم اليهود الذين مسخ الله بعضهم إلى قرود وخنازير .. فتعالوا بنا لنتعرف على طبيعة اليهود من خلال بعض الآيات المذكورة فى القرآن الكريم.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ

(١) سورة البقرة: الآية (٤٢).
(٢) سورة البقرة: الآية (٤٤).
(٣) سورة البقرة: الآية (٥١).
(٤) سورة البقرة: الآية (٥٥).
(٥) سورة البقرة: الآية (٥٨-٥٩).

أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّۦنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(٦).

(١) سورة البقرة: الآية (٦١).
(٢) سورة البقرة: الآية (٦٥).
(٣) سورة البقرة: الآية (٦٧).
(٤) سورة البقرة: الآية (٧٤).
(٥) سورة البقرة: الآية (٧٩).
(٦) سورة البقرة: الآية (٨٠).

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ (٨٣) وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٨٤) ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ (٨٨) وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٤].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٨٣-٨٥).

(٢) سورة البقرة: الآية (٨٨-٨٩).

(٣) سورة البقرة: الآية (٩١).

(٤) سورة البقرة: الآية (٩٣).

وقال تعالى: ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ ﴾[١].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[٣].

وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَـٰلَمِينَ (٢٠) يَـٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ (٢١) قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾[٥].

وقال تعالى: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَـٰتِلَآ إِنَّا هَـٰهُنَا قَـٰعِدُونَ ﴾[٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٧].

---

(١) سورة البقرة: الآية (٩٦).

(٢) سورة البقرة: الآية (١١١).

(٣) سورة البقرة: الآية (١٣٥).

(٤) سورة البقرة: الآية (١٤٦).

(٥) سورة المائدة: الآية (٢٠-٢٢).

(٦) سورة المائدة: الآية (٢٤).

(٧) سورة المائدة: الآية (٦٠).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾(٣).

وقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ﴾(٤).

وقال تعالى: ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٥).

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ

---

(١) سورة المائدة: الآية (٦٤).

(٢) سورة المائدة: الآية (٧٠).

(٣) سورة المائدة: الآية (٧٨-٧٩).

(٤) سورة المائدة: الآية (٨٢).

(٥) سورة النساء: الآية (٤٦).

(٦) سورة النساء: الآية (٥٤).

سَأَلُوا مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمْ وَقُلْنَا لَهُمُ ٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِى ٱلسَّبْتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿١٥٤﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾[1].

* * *

(١) سورة النساء: الآية (١٥٣-١٦١).

من هم اليهود؟[١]

اليهود منذ البداية هم نسل الأسباط[٢] الاثنى عشر ليوسف وإخوته، نزحوا إلى مصر بدعوة من نبى الله يوسف على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

أَبَوْا أن يندمجوا مع الشعب المصرى، وعزلوا أنفسهم عن المصريين على اعتبار أنهم من نسل الأنبياء، فتكاثر نسلهم، وهم يوصون بعضهم البعض بعدم الاختلاط، وبالعزلة، ليبقى لكل سبط من الأسباط نسله المتميز المعروف، فكرههم الشعب المصرى ونبذهم، وزادت الهوة بين الشعب المصرى وبين أبناء اليهود يومًا بعد يوم حتى سامهم فرعون مصر سوء العذاب، ... ولما أرسل الله نبيه موسى عليه السلام إلى فرعون مصر بقوله

(١) من كتاب (لا لن تضيع القدس) للشيخ محمد حسان.

(٢) الأسباط الاثنا عشر هم أبناء يعقوب عليه السلام، فقد تزوج يعقوب من بنتى خاله وهما: (ليئة)، و(راحيل) كما تزوج من (زلفة) جارية (ليئة) ومن (بلهة) جارية (راحيل) وأنجب من الأربعة اثنى عشر ولدًا هم: من ليئة: رأوبيل - شمعون- لاوى- يهوذا - يساكر- زبوون. ومن راحيل: يوسف وبنيامين. ومن زلفة: جاد، وأشير، ومن بلهة: دان -ونفغالى- ولكن يعقوب كان يحب يوسف بن راحيل حبًّا شديدًا مما نتج عنه حقد إخوته عليه ومحاولتهم قتله، ثم عدلوا إلى إلقائه فى الجب لعل بعض القوافل السيارة تمر عليه وتأخذه، وفعلًا مرت قافلة وأخذت يوسف وباعته لعزيز مصر، وكان ما كان من أمر محنته ودخوله السجن ظلمًا، ثم خروجه من السجن على المُلك حيث تولى منصبًا فى وزارة عزيز مصر: ﴿ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥] والقصة مفصلة فى سورة يوسف، والشاهد من القصة أن دخول يوسف إلى مصر كان هو السبب فى مجىء اليهود؛ لأن يوسف عليه السلام بعد أن تولى هذا المنصب أرسل فى طلب أبيه يعقوب وإخوته ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩]، ودخل يعقوب وبنوه وعاشوا فيها (١٦٥٠) قبل الميلاد تقريبًا، ومات يعقوب فى مصر، ولكنه طلب من يوسف قبل موته أن يُدفَن فى فلسطين، فذهب به يوسف وإخوته ودفنوه هناك، ثم عادوا مرة أخرى إلى مصر، واستقر المقام ببنى إسرائيل فى مصر. [العقيدة اليهودية وخطرها على الإنسانية ص ٥٥-٥٦ بتصرف. د. سعد الدين السيد صالح].

سبحانه: ﴿ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾(١).

رأى اليهود من بنى إسرائيل فى موسى حبل النجاة فآمن به بنو إسرائيل لعل الله أن ينجيهم من فرعون وملئه، فنجاهم الله (جل وعلا) وشقَّ لهم طريقًا فى البحر يبسًا، وأغرق فرعون وجنوده، وامتنَّ الله عليهم بهذه النعمة فقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ۝٤٩ وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾(٢).

ومع ذلك لما تركهم نبى الله موسى عليه السلام بعدما أكرمهم الله غاية الإكرام ورزقهم بالمنِّ والسلوى وذهب لمناجاة ربه (جل وعلا) كفروا بالله سبحانه وتمردوا على نبى الله هارون وعبدوا العجل الذهبى من دون الله (جل وعلا) فلما انطلق نبى الله هارون ليقول لهم:

﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوٓاْ أَمۡرِي ۝٩٠ قَالُواْ لَن نَّبۡرَحَ عَلَيۡهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرۡجِعَ إِلَيۡنَا مُوسَىٰ﴾(٣).

فلما رجع إليهم نبى الله موسى عليه السلام ردوا عليه باستعلاء واستكبار، وقالوا: لن نؤمن لك حتَّى نرى الله جهرة فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون، ثم بعثهم الله (جل وعلا) من بعد موتهم لعلهم يشكرون، ولعلهم يتوبون إلى الله (جل وعلا) ولكنهم عاندوا وأعرضوا وازدادوا كفرًا: ﴿وَإِذۡ قُلۡتُمۡ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ﴾(٤).

---

(١) سورة النازعات: الآيتان (١٧-١٨).

(٢) سورة البقرة: الآيتان (٤٩-٥٠).

(٣) سورة طه: الآيتان (٩٠-٩١).

(٤) سورة البقرة: الآية (٥٥).

فرفع الله ﷻ فوق رؤوسهم جبل الطور كأنه ظُلّة تهديدًا ووعيدًا، فارتعدت قلوبهم واضطربت نفوسهم فأعطوا العهود والمواثيق من جديد، ولكنهم سرعان ما نقضوا العهود فهذه طبيعتهم وجبلتهم التى لا تفارقهم، ولن تفارقهم إلى قيام الساعة.

واعتدوا يوم السبت فعاقبهم الله ﷻ فمسخهم قردة وخنازير كما قال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴾[١].

وقال: ﴿ فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[٢].

وقال سبحانه فى سورة المائدة: ﴿ قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾[٣].

ثم أمرهم الله أن يدخلوا الأرض المقدسة مع نبى الله موسى فكذبوا وعاندوا وأعرضوا ورفضوا أمر الله ﷻ فحكم الله عليهم بالتيه فى الأرض أربعين سنة، وبعد هذه المدة الطويلة مَنَّ الله عليهم فأدخلهم الأرض المقدسة، ولكنهم سرعان ما نقضوا العهد مرة أخرى مع الله (جل وعلا) فبدلوا قولًا غير الذى قيل لهم، فاليهود لا عهد لهم ولا ذمة ... نقضوا العهد مع الله، ونقضوا العهد مع نبى الله موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، ثم توالت عليهم الأنبياء تترى بعد نبى الله موسى، فكذبوا فريقًا من الأنبياء، وقتلوا فريقًا آخر، كما قال الله جل وعلا:

---

(١) سورة البقرة: الآية (٦٥).

(٢) سورة البقرة: الآية (٦٦).

(٣) سورة المائدة: الآية (٦٠).

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾[١].

ثم أرسل الله ﷻ إليهم بعد ذلك نبى الله عيسى عليه السلام، فاتهموه منذ اللحظات الأولى بأنه ولد زنا، وأجمعوا على قتله، بل وأعلنوا ذلك فى صراحة ووقاحة كما قال الله ﷻ حكاية عنهم فى سورة النساء: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ﴾[٢].

ولم يكتف اليهود المجرمون بما فعلوه مع نبى الله عيسى عليه السلام فى حياته معهم، بل دوَّنوا افتراءتهم عليه لأجيالهم المتلاحقة فى كتابهم الخبيث المسمى بـ«التلمود»[٣]، وأكتفى بذكر فقرة واحدة من هذا الكتاب الفاجر الجنسى الوقح فى حق نبى الله عيسى عليه السلام.

---

(١) سورة البقرة: الآيتان (٨٧-٨٨).

(٢) سورة النساء: الآية (١٥٧).

(٣) التلمود: هو الكتاب الذى يحتوى على التعاليم اليهودية وهو الذى يفسرها ويبسطها - والتلمود: اسم مأخوذ من كلمة (لامود) ومعناها (تعاليم) - ويزعم اليهود أنه كتاب مُنزَّل من عند الله مثل التوراة، ومنهم من يفضله عليها، وقد ورد فى صحيفة من التلمود: «من احتقر التوراة فلا جناح عليه، ومن احتقر التلمود استحق الموت) [تعصب اليهود، د. عمر عبد العزيز، بتصرف]، والتلمود ما يحتويه عبارة عن قصة اليهود وما عانوه فى مختلف مراحل حياتهم قديمًا، وما كانوا يأملونه فى ذلك الوقت، فهو ليس دينًا، ولكنه سياسة وتخطيطات لتحقيق أغراض دنيوية لليهود لا صلة لها إطلاقًا بوحى السماء، إذ ليس التلمود كتابًا دينيًّا - كما زعم اليهود- ولكنه وثيقة سياسية خطيرة صنعها مجلس حاخامات اليهود اتباعًا للخطة السرية الرهيبة التى وضعوها للانتقام من بنى البشر، وهى لا تختلف كثيرًا عن الخطة التى اكتشفت باسمهم حديثًا تحت عنوان: «بروتوكولات حكماء صهيون»، اللهم إلا أن التلمود هو الخطة الموسعة الشاملة التى تناولت كل شىء يخص اليهود، ويحدد علاقتهم بالله وبالرسل، وبكل بنى الإنسانية، والبرتوكولات هى الخطة المحددة لسيطرة اليهود على العالم». [العقيدة اليهودية وخطرها، د. سعد الدين السيد صالح، ص ١٩٢].

تقول الفقرة بالحرف الواحد: «يسوع النصارى فى لُجات الجحيم بين الزفت والقطران والنار، وأمه مريم قد أتت به من الزنا».

وأعلن اليهود الحرب على التوحيد الذى أتى به نبى الله عيسى عليه السلام، وأعلنوا الحرب على الموحدين من أتباع المسيح عليه السلام فسلط الله على اليهود من لا يرحمهم فسامهم الرومان سوء العذاب ومزقهم شر ممزق، فإذا هم أشتات وشراذم مبعثرة لا يخلو منهم مكان ... ساحوا فى الأرض بعد ضربات الرومان المتلاحقة، ... ومن الأراضى المباركة التى ابتُليت بشرذمة قذرة نتنة عفنة من هذه الشراذم الممزقة إلى المدينة الطيبة مدينة رسول الله ﷺ.

انطلق اليهود إلى المدينة وهناك فى المدينة أعلنوا أن الله (جل وعلا) قد وعدهم فى التوراة أنه سيبعث نبيًّا، وبيَّنت التوراة صفة هذا النبى، بل وبينت الأرض التى سيُبعث فيها هذا النبى، واستعلى اليهود بمبعثه، بل وتعالوا بذلك على الأوس والخزرج، وانتظروا مبعث النبى ظنًّا منهم أنه سيُبعث منهم، فهم شعب الله المختار - كما يدَّعون- وظلوا يتربصون هذه البعثة ليجمع لهم النبى المنتظر المُلك من جديد، فبعث الله نبيه المصطفى ﷺ من العرب، لا من اليهود، وقام النبى ﷺ يدعو الناس كافة إلى «لا إله إلا الله».

ومن هذه اللحظة كفر اليهود برسول الله ﷺ، بل وأعلنوا الحرب والعداء لدعوته منذ اللحظات الأولى...قال الله (جل وعلا): ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1].

وقال (جل وعلا): ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ

---

(١) سورة البقرة: الآية (٨٩).

فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[١].

هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة ليقيم للإسلام دولة وسط صحراء تموج بالكفر، وهنا انتقل اليهود من الحرب السرية للنبى ﷺ ودعوته، إلى الحرب العلنية إلى الحرب السافرة المجرمة، فأعلنوا العداء للإسلام، بل وعلى دعوة الإسلام ورسول الإسلام ﷺ.

ففى أول معركة كبرى بين الإسلام والشرك فى موقعة بدر الكبرى[٢] نصر الله المسلمين نصرًا مؤزرًا وأعز الله جند التوحيد وأذل الله جند الشرك، وتبعثر الجيش المشرك وسط الصحراء كتبعثر الفئران، وهنا غَلَتْ مراجل الحقد والغلِّ والحسد فى قلوب اليهود فى المدينة، فقاموا بحملة إعلامية - وهذه طبيعتهم وهذا أسلوبهم - خبيثة حقيرة للنيل والتقليل والتحقير من النصر الإسلامى فى غزوة بدر، بل وقاموا ليثيروا الفتن والقلاقل وليحرضوا المشركين فى مكة للثأر من محمد وأصحابه، فلما سمع النبى ﷺ بذلك انطلق إليهم وجمعهم فى سوق بني قينقاع، وقال لهم: «**يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم ما أصاب قريشًا**» فردَّ اليهود على النبى ﷺ باستعلاء واستهزاء شديدين، وقالوا: يا محمد لا يغرَّنَّك من نفسك أنك قاتلت أقوامًا من قريش كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، فإنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن القوم، وأنك لن تلقى مثلنا[٣]، فقام النبى ﷺ

---

(١) سورة البقرة: الآية (١٤٦).

(٢) فى السنة الثانية من الهجرة.

(٣) سنن أبى داود (٣٠٠١) كتاب الخراج - باب كيف كان إخراج اليهود من المدينة - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال الشيخ الألبانى رحمه الله: ضعيف الإسناد. والصحيح حديث أبى هريرة رضي الله عنه حديث رقم (٣٠٠٣) صحيح سنن أبي داود، الألباني.

عَنْ أَبِى هُرَيرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَالَ: بَينَا نَحْنُ فِي الْمَسْجِدِ إِذْ خَرَجَ إِلَينَا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَالَ: « **انْطَلِقُوا**

وتركهم، ثم حاصرهم فى شهر شوال من السنة الثانية للهجرة المباركة خمس عشرة ليلة حتى نزل اليهود المجرمون على حكم النبى ﷺ فغنم المسلمون أموال اليهود وأخرجوهم إلى أذرعات الشام.

وفى السنة الرابعة من الهجرة دَبَّر يهود بنى النضير مؤامرة حقيرة لاغتيال البشير النذير محمد بن عبد الله ﷺ يوم أن انطلق إليهم النبى ﷺ لتحصيل دية[1]، وجلس النبى ﷺ إلى جوار جدار من جدران اليهود، وخلا اليهود المجرمون ببعضهم البعض، وقالوا: لن تجدوا الرجل فى مثل هذه الحالة، مَن منكم يقوم إلى صخرة كبيرة من فوق سطح هذه الدار ليلقيها على رأس الرجل ليريحنا منه؟ فانبعث أشقى القوم عمرو بن جحاش بن كعب، وقال: أنا لها، فقام وصعد على سطح هذه الدار، وأتى بصخرة كبيرة ليلقيها على رأس سيد الرجال ﷺ ولكن: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾[2].

= إِلَى يهُودَ». فَخَرَجْنَا مَعَهُ حَتَّى جِئْنَاهُمْ فَقَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَنَادَاهُمْ فَقَالَ: «يا مَعْشَرَ يهُودَ أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا». فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يا أَبَا الْقَاسِمِ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا». فَقَالُوا: قَدْ بَلَّغْتَ يا أَبَا الْقَاسِمِ. فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ذَلِكَ أُرِيدُ». ثُمَّ قَالَهَا الثَّالِثَةَ: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الأَرْضُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنِّى أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الأَرْضِ فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ وَإِلاَّ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا الأَرْضُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ».

(١) دية الكِلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى، وكان عامر بن الطفيل أعتق عمرو بن أمية لما قتل أهل بئر معونة عن رقبة عن أمه، فخرج عمرو إلى المدينة فصادف رجلين من بنى عامر معهما عقد وعهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به عمرو، فقال لهما عمرو من أنتما؟ فذكروا له أنهما من بنى عامر، فتركهما حتى ناما فقتلهما عمرو، وظن أنه ظفر ببعض ثأر أصحابه فأخبر رسول الله ﷺ بذلك فقال: لقد قتلت قتيلين لأدينهما. قال ابن إسحاق وغيره: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير فى نفر من أصحابه وكلمهم أن يعينوه فى دية الكلابيين اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى، فقالوا: نفعل يا أبا القاسم، اجلس هاهنا حتى نقضى حاجتك وخلا بعضهم ببعض وسَوَّل لهم الشيطان الشقاء الذى كُتِبَ عليهم فتآمروا على قتله ﷺ.

(٢) سورة الأنفال: الآية (٣٠).

فأطلع المَلَك - جبريل عليه السلام- النبى على المؤامرة، فقام النبى ﷺ مسرعًا فى الحال، وقام معه أصحابه رضي الله عنهم، فلما أخبرهم بالخبر قالوا: يا رسول الله، والله لابد من إجلاء هؤلاء اليهود، فانطلق النبى ﷺ مع أصحابه البررة الأطهار، فحاصروا يهود بنى النضير فأخزاهم الله وقذف الله فى قلوبهم الرعب، فأجلاهم رسوله ﷺ، وفيهم أنزل الله (جل وعلا) سورة الحشر بأسرها وفيها يقول الحق (جل وعلا): ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴾[1].

وهكذا أجلاهم الله عز وجل ورسوله ﷺ[2].

وبعد ذلك لعب يهود بنى قريظة دورًا قذرًا حقيرًا داخل المدينة، فلقد حاصر الأحزاب المدينة من كل ناحية، وفى وقت خطير حرج نقض يهود بنى قريظة العهد، فشكلوا تحديا خطيرًا للجبهة الداخلية فى المدينة، فلما علم الرسول ﷺ بذلك والمسلمون، زُلزلوا زلزالًا عظيمًا، حتى قام النبى ﷺ يرفع يديه إلى الله، ويتضرع إليه بهذا الدعاء الحار: «**اللهمَّ مُنزل الكتاب سريع الحِسَاب، اهزم الأحزاب، اللهُمَّ اهزمهم وزلزلهم**»[3].

واستجاب الله دعاء حبيبه المصطفى، فأرسل الله جنودًا من عنده، ويا لها من قوة لا يعرف المسلمون إلى الآن قدرها!!!

---

(١) سورة الحشر: الآيتان (٢-٣).

(٢) البخارى (٨/ ٤٨٢) فى تفسير سورة الحشر.

(٣) متفق عليه: رواه البخارى (٤١١٥) كتاب المغازى، ومسلم (١٧٤٢) كتاب الجهاد والسير.

أرسل الله على الأحزاب جندًا من الريح فاقتلعت خيامهم، وكفأت قدورهم وأنزل الله الملائكة، فألقت الرعب فى قلوب الأعداء، فتبعثروا فى الصحراء تَبعثُر الفئران، ونصر الله عبده، وهزم الأحزاب وحده، وانتهت المؤامرة، ونزل جبريل على النبى ﷺ وهو يلبس لباس الحرب، وقال: يا رسول الله، أَوَقد وضعت لباس الحرب؟ فوالله إن الملائكة لم تضع لباس الحرب بعد، فإنى سائر أمامك الآن أُزلزل حصونهم وأُلقى الرعب فى قلوبهم.

فقام المصطفى ﷺ وأرسل مناديًا ينادى فى الناس: «**من كان طائعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا فى بنى قريظة**»، فانطلق الصادقون المؤمنون من أصحاب سيد النبيين ﷺ إلى بنى قريظة[1]، فحاصروا يهود بنى قريظة حصارًا طويلًا، وأخيرًا نزل اليهود المجرمون على حكم سعد بن معاذ الذى حكم فيهم بقتل الرجال وسبى الذرِّية، وبتقسيم الأموال، فلما حكم فيهم سعد بذلك، قال المصطفى ﷺ: «**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات**» والحديث فى الصحيحين.

وفى السنة السابعة انطلق النبى ﷺ إلى يهود خيبر المجرمين الذين تحصَّنوا بحصونهم المنيعة المنيفة، إلا أن الله ﷻ قد فتح الحصون على يد أسد الله الغالب على بن أبى طالب رضي الله عنه.

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال يوم فتح خيبر: «**لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يدَيهِ ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ**».

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٢٨١٣) كتاب الجهاد والسير، ومسلم (١١٧٠) كتاب الجهاد والسير.

قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يدُوكُونَ لَيلَتَهُمْ أَيهُمْ يُعْطَاهَا؟ فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ: «أَينَ عَلِيُّ بْنُ أَبِى طَالِبٍ؟». فَقَالُوا: يشْتكِى عَينَيهِ يا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «فَأَرْسِلُوا إِلَيهِ» فَأُتِى بِهِ. فَبَصَقَ رسول الله ﷺ فِى عَينَيهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايةَ. فَقَالَ عَلِىٌّ: يا رَسُولَ اللهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ:

«انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلاَمِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يجِبُ عَلَيهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَاللهِ لأَنْ يهْدِىَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[1].

وهكذا أجلى الله (جل وعلا) اليهود من مدينة النبى ﷺ ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، ومع ذلك لم يكتفِ اليهود بهذا، وإنما دبروا مؤامرة حقيرة لسَمِّ النبى ﷺ فى خيبر[2] إلا أن الله ﷻ قد نجَّا حبيبه ﷺ، ولم ينته العنكبوت اليهودى الوقح عن نسج خيوطه الدقيقة، وحبك مؤامراته الرهيبة التى بلغت أوجها فى العصر الحديث بإفراز هذه الغدة السرطانية الخبيثة، وبوضع هذا المولود اللقيط الذى يُعرف الآن بدولة إسرائيل، فوق

---

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٤٠٧) كتاب فضائل الصحابة.

(٢) وفى هذه الغزوة عمدت امرأة يهودية من أهل خيبر تُسمَّى زينب بنت الحارث امرأة سلام ابن مشكم إلى شاة فيها سم ثم أهدتها إلى رسول الله ﷺ فأخذ رسول الله ﷺ يأكل وَأَكَلَ رَهْطٌ مِنْ أَصْحَابِهِ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ارْفَعُوا أَيدِيكُمْ» وَأَرْسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى الْيهُودِيةِ، فَقَالَ: «أَسَمَمْتِ هَذِهِ الشَّاةَ؟» فَقَالَتِ: مَنْ أَخْبَرَكَ؟ قَالَ: «أَخْبَرَتْنِى هَذِهِ فِى يدِى» لِلذِّرَاعِ، قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا أَرَدْتِ إِلَى ذَلِكَ؟» قَالَتْ: قُلْتُ: إِنْ كَانَ نَبِيا فَلَنْ يضُرَّهُ، وَإِنْ لَمْ يكُنْ نَبِيا اسْتَرَحْنَا مِنْهُ، فَعَفَا عَنْهَا ﷺ، وَتُوُفِّى أَصْحَابه الَّذِينَ أَكَلُوا مِنَ الشَّاةِ، وَاحْتَجَمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى كَاهِلِهِ مِنْ أَجْلِ الَّذِى أَكَلَ مِنَ الشَّاةِ. رواه أبو داود رقم (٤٥١٠)، وهو فى صحيح البخارى بلفظ آخر برقم (٤٢٤٩) كتاب المغازى، باب الشاة التى سُمَّت للنبى ﷺ بخيبر (٧/ ٥٦٨ مع الفتح).

الثرى الطاهر للأرض المباركة، على مسرى الحبيب ﷺ وُضعت هذه الدولة غُصة «شوكة» فى قلب العالم الإسلامى، بعد أن نجح اليهود فى القضاء على الخلافة الإسلامية والقضاء على السلطان البطل عبد الحميد- طيَّب الله ثراه- ذلكم الرجل الذى شوهت الصهيونية العالمية صورته، فانطلقت الببغاوات العجماء لتحاكى ما يُمليه الأسياد من الشرق والغرب دون وعى أو إدراك، هذا الرجل العظيم الذى حاول معه اليهود بكل الوسائل والسُّبل أن يبيع لهم أرض فلسطين، فأبى وباءوا بالفشل الذريع، لقد أرسل اليهود للسلطان عبد الحميد أول الأمر اليهودى الماسونى الثرى «قرة صو»، ذهب إليه هذا اليهودى، وقال للسلطان - سلطان الخلافة التى ضاعت- إنى مندوب لجلالتكم عن الجمعية الماسونية وجئت لتقبل جلالتكم خمسة ملايين ليرة ذهبية إلى خزينتكم الخاصة، ولتقبل مائة مليون ليرة ذهبية لخزينة الدولة، على أن تمنحوا لنا بعض الامتيازات فى دولة فلسطين، فاستشاط السلطان غضبًا، ونظر إلى الجالسين معه فى مجلسه، وقال لهم قولة عجيبة، قال لهم: «أَوَ ما كنتم تعرفون ما يريده الخنزير، والتفت إليه بقوة، وقال: اخرج عن وجهى أيها السافل»، فخرج اليهودى، ولكن اليهود لا يَملُّون، فقرر أن يذهب إلى السلطان بنفسه مؤسس الصهيونية العالمية الأول «تيودر هارتزل»، ذهب إليه هارتزل بنفسه، وعرض عليه أن يبيع له فلسطين بأى ثمن، فردَّ عليه السلطان ردًّا عجيبًا، وقال: «إن هذه الأرض قد امتلكها المسلمون بدمائهم، وهى لا تُباع إلا بنفس الثمن»، ثم قال: «انصحوا الدكتور هارتزل بألا يتخذ خطوة جدية فى هذا الموضوع، فإنى لا أستطيع أن أتخلى عن شبر واحد من هذه

الأرض، فهى ليست ملكى، ولكنها ملك شعبى الذى ضحى فى سبيلها، وروى ترابها بدمائه، فليحتفظ اليهود بملايينهم، فإذا مُزقت امبراطوريتى يومًا فإنهم يستطيعون أن يأخذوا فلسطين بلا ثمن، أما وأنا حى فإن عمل المبضع فى بدنى أهون علىَّ من أن أرى فلسطين قد بُترت من إمبراطوريتى، فإنى لا أستطيع أن أوافق على تشريح أجسادنا ونحن ما زلنا على وجه الحياة».

هذا هو السلطان البطل الذى شوَّهوا صورته، ودَرَّسُوا صورته المقلوبة لأبنائنا وبناتنا، ولا زالت، وانطلقت الببغاوات العجماء لتنقل هذه الصورة المقلوبة فى حق هذا السلطان، فى حق خليفة المسلمين الذى أبقى الخلافة مدة طويلة لا يمكن أن تصدقونها الآن بحال من الأحوال. ولكنَّ اليهود استطاعوا من خلال إثارة النعرات القومية - وهذا خطر عظيم - عن طريق الجمعية الماسونية اليهودية العالمية والتى تُعرف بجمعية الاتحاد والترقِّى، استطاعوا عزل السلطان عبد الحميد لإخلاء الطريق!!!

وفى ٢ نوفمبر ١٩١٧م صدر وعد بلفور بإقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، وفى عام ١٩٤٨م استطاع اليهود بخيانة مفضوحة أن يحتلوا ما يزيد على ثمانية وسبعين فى المائة من أرض فلسطين، وهكذا أُسس لليهود دولة فى قلب العالم الإسلامى ساعدهم على ذلك الشرق الملحد، والغرب الكافر، والأنظمة العربية الخائنة الضالعة فى الخيانة، وأُسست هذه الدولة وأُفرزت هذه الغدة السرطانية فى قلب العالم الإسلامى،... هؤلاء هم اليهود دون تحريفٍ سياسى أو دجل إعلامى، فَمَا وعدهم «إستالين» بإنشاء وطن قومى لهم فى فلسطين إلا ليتخلص من شرهم، وما بحث «هتلر» عن صندوق قمامة عالمى إلا ليطهر ألمانيا من رجسهم وقذرهم، وأمريكا

تعانى منهم اليوم ما تعانى، ولكنها مغلوبة على أمرها، فاللوبى الصهيونى يخنق أنفاسها تمامًا، هؤلاء هم اليهود الذين أفسدوا العالم ودمروه، فاليهودى كارل ماركس كان وراء الشيوعية الملحدة التى أفسدت فطرة الإنسان، واليهودى دوركايم كان وراء علم الاجتماع الذى قوَّض الأسرة، واليهودى فرويد كان وراء علم النفس الذى أسس بنيانه على الجنس الفاضح، واليهودى سارتر كان وراء الوجودية الإباحية الملحدة.

هؤلاء هم اليهود الذين فضحهم القرآن وعرَّى نفسياتهم الخبيثة تعرية واضحة، وعدَّد القرآن صفاتهم الدنيئة، والقرآن لا زال بين أيدينا يُتلى، لكن أين من يتدبر القرآن؟ لقد وُضعت الأقفال على القلوب، ولا حول ولا قوة إلا بالله!!!

* وستكون نهاية اليهود في آخر الزمان على أيدي ثُلة مُخلصة من المسلمين .. فلقد قال النبي ﷺ:

«لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّى يختبئ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الحَجَرُ أو الشجر: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ إِلاَّ الْغَرْقَد فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»[1].

* * *

(١) صحيح: رواه مسلم (٢٩٢٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة.

يهود بني قريظة

* وها هى النهاية المؤلمة ليهود بنى قريظة .. والتى كانت فى غزوة بنى قريظة.

وكان سبب هذه الغزوة أن يهود بنى قريظة خانوا العهد مع رسول الله ﷺ وانضموا إلى الأحزاب وأرادوا أن يُدخلوهم من الأبواب الخلفية حتى يقضوا على النبى ﷺ وأصحابه.

* فجاء جبريل (عليه السلام) إلى النبى ﷺ وطلب منه أن يذهب هو وأصحابه إلى بنى قريظة ليحاصرهم ويحكم فيهم بحكم الله (جل وعلا) وأخبره جبريل أنه سيشاركهم فى هذه الغزوة وسيُلقى الرعب فى قلوب بنى قريظة.

* فقال النبى ﷺ لأصحابه: «**لا يُصلين أحدكم العصر إلا فى بنى قريظة**»[1] وذهب الصحابة إلى بنى قريظة رغم ما كان بهم من الجوع والتعب.

* وكان السبب فى غدر يهود بنى قريظة بعهدهم مع رسول الله ﷺ هو أن حُيى بن أخطب زعيم يهود بنى النضير هو الذى ذهب إلى كعب بن أسد زعيم يهود بنى قريظة وطلب منه أن يغدر بعهده مع رسول الله ﷺ وأن يفتح الأبواب للأحزاب لكى يقضوا على النبى ﷺ وأصحابه. فرفض كعب بن أسد فى بداية الأمر ولكنه وافق بعد إلحاحٍ شديد من حُيى بن أخطب واشترط عليه أن يكون معه فى الحصن فيصيبه ما أصابه.. فوافق على ذلك.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٩٤٦) كتاب الجمعة، ومسلم (١٧٧٠) كتاب الجهاد والسير.

فوافقوا على نقض العهد، والغدر بالمسلمين والانضمام إلى جيش الأحزاب، ولم يشذَّ إلا الزعيم القُرظى - عمرو بن سُعدى - وقال: والله لا أغدر بمحمدٍ أبدًا، وبقى على عهده وسانده فى موقفه النبيل هذا ثلاثة من اليهود وهم: ثعلبة، وأُسيد - ابنا سَعْيه- وأسد بن عبيد.

وأخذ كعب بن أسد الصحيفة ومزقها.

غدروا برسول الله ﷺ وجيوش الأحزاب توشك الفتك بالمدينة، وبلغت القلوب الحناجر.

أوفد إليهم النبى ﷺ وفدًا من الأنصار، على رأسه سعد بن معاذ، وسعد ابن عبادة، فقالوا للوفد، وقد تملَّكهم الغرور: الآن جئتم تطلبون منا الوفاء بالعهد الذى بيننا وبين محمد، وهو الذى كسر جناحنا، وأخرج إخواننا بنى النضير، اذهبوا لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد، من هو رسول الله هذا؟!

فغضب سيد الخزرج وأخذ يشاتم اليهود فشاتموه، وأغضبوه كثيرًا.

غير أن سيد الأوس سعد بن معاذ - وهو حليف هؤلاء اليهود- قد دخل فى الأمر وقال سعد بن عبادة: دَعْ عنك مشاتمتهم فما بيننا وبينهم أربَى من المشاتمة، وأقبل عليهم ناصحًا ومحذرًا: إنكم قد علمتم الذى بيننا وبينكم يا بنى قريظة، وأنا أخاف عليكم مثل يوم بنى النضير أو أمرّ منه. فقالوا لسعد: أكلت أير أبيك، فقال لهم سعد، وكان حليمًا: غير هذا من القول كان أجمل بكم وأحسن يا بنى قريظة، فتمادى بنو قريظة فى غيِّهم، وصاروا ينالون من النبى ﷺ ويقعون فيه، وهنا يئس سعد بن معاذ من عودة حلفائه إلى جادة الصواب، فعاد الوفد يحمل إلى النبى ﷺ بواسطة كلمة سر: (عَضَل والقَارّة)، أن القوم قد غدروا، دون أن يعلم أحد من المعسكر هذا الخبر المزعج.

وحين أخزى الله الأحزاب، أتى وقت حساب بنى قريظة:

وجاء جبريل إلى رسول الله ﷺ قائلًا: أَوَ قَدْ وضعت السلاح يا رسول الله؟ قال: نعم، فقال جبريل: ما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم. إن الله يأمرك بالمسير إلى بنى قريظة، فإنى عائد إليهم فمُزلزلهم.

ونادى رسول الله ﷺ: «**من كان سامعًا مطيعًا، فلا يُصلِّين العصر إلا فى بنى قريظة**. وعندما بلغ عمرو بن سُعدى انسحاب الأحزاب، جاء إلى قومه بنى قريظة ودعاهم إلى اجتماع عاجل، حضره كل زعماء بنى قريظة، وبعد أن أَنَّبَهُمْ ووبَّخهم على نقضهم العهد الذى بينهم وبين المسلمين، ونصحهم: يا بنى قريظة، لقد رأيت عبرًا، رأيت دار إخواننا خالية بعد العز والشرف والرأس الفاضل، تركوا أموالهم قد تملَّكها غيرهم، وخرجوا خروج ذُلٍّ.

ثم أكَّد لهم كعالم من علماء التوراة، أنه لا يعادى أحدٌ محمدًا ﷺ إلا كان مصيره الخسران، فقال: لا والتوراة، ما سُلِّط هذا[1] على قومٍ قط ولله بهم حاجة، وقد أوقع ببنى قينقاع وكانوا أهل عُدَّة وسلاح ونخوة، فلم يُخرج أحد منهم رأسه حتى سباهم، فكُلِّم فيهم فتركهم على إجلائهم من يثرب،.... ثم دعا عمرو بن سُعْدى قومه إلى الدخول فى الإسلام، ليحقنوا دماءهم، ويتبعوا الحق، قائلًا:

يا قوم، قد رأيتم ما رأيتم فأطيعونى وتعالوا نتبع محمدًا، فوالله إنكم لتعلمون أنه نبى، وقد بشَّرنا به علماؤنا، ثم لا زال ابن سُعدى يخوفهم بالحرب والسبى، وأقبل على سيدهم كعب بن أسد، وقال له: والتوراة التى

---

(١) يعنى: النبى ﷺ.

أُنزلت على موسى عليه السلام يوم طور سيناء، إنه العز والشرف فى الدنيا[1].

وبينما عمرو بن سُعْدَى يتحدث إلى قومه فى ذلك الاجتماع، إذ بطلائع الجيش النبوى تظهر عليهم زاحفة نحو حصونهم، وهنا قطع الزعيم اليهودى ابن سُعدى حديثه قائلًا: هذا الذى قلت لكم...

ومع هذا فقد رفض بنو قريظة نصيحة عمرو بن سعدى - الذى دعاهم إلى الدخول فى الإسلام - فتقدم إليهم بمحاولة أخيرة، باقتراح آخر، فقال لهم: لقد خالفتم محمدًا، ولم أشرككم فى غدركم، فإن أبيتم أن تدخلوا معه فى دينه، فاثبتوا على اليهودية، وأعطوا الجزية، فوالله، ما أدرى أيقبلها منكم أم لا؟ ولكنهم رفضوا أيضًا هذا الاقتراح، حيث كان جوابهم، والغرور لما يزل يشحن رؤوسهم: نحن لا نقرّ للعرب بخَراج فى رقابنا يأخذونه، القتل خير من ذلك.

وهنا أعلن عمرو بن سعدى مفارقته لقومه، وخرج من حصون قومه بنى قريظة، بعد أن طوَّقها الجيش الإسلامى من كل مكان، وكان خروجه ليلًا.

وعندما خرج هذا الزعيم اليهودى من حصون قومه، مفارقًا لهم - وكان خروجه ليلًا - التقى به رجال الحرس النبوى الذين كانوا يقومون بأعمال الدورية، فأتوا به إلى قائدهم محمد بن مسلمة الأنصارى.

قال ابن إسحاق: خرج عمرو بن سعدى القرظى، فمرَّ بحرس رسول الله ﷺ، وعليه محمد بن مسلمة الأنصارى تلك الليلة، فلما رآه قال: من هذا ؟ قال: أنا عمرو بن سعدى - وكان عمرو قد أَبَى أن يدخل مع بنى قريظة فى

(١) سلسلة معارك الإسلام الفاصلة لمحمد أحمد بشاميل، والبداية والنهاية.

غدرهم برسول الله ﷺ وقال: لا أغدر بمحمدٍ أبدًا -.

فقال ابن مسلمة - حين عرف أنه ابن سعدى -: اللهمَّ لا تحرمنى إقالة عثرات الكرام، ثم خلَّى سبيله فخرج على وجهه حتى بات -مستأمنًا- فى مسجد رسول الله ﷺ تلك الليلة بالمدينة، ثم خرج فلم يدر أين توجه من الأرض، ولقد وصف النبى ﷺ عمرو بن سعدى بالوفاء، وذلك أنه لما ذُكرت له قصة إلقاء الحرس القبض عليه، ثم إخلاء محمد بن مسلمة سبيله، قال: «**ذلك رجل نجَّاه الله بوفائه**».

وفَّى الله فوفَّى الله له، وكان جزاؤه من جنس عمله.

أما يهود بنى قريظة، فإنهم لما نظروا إلى طلائع الجيش النبوى تتقدم - بقيادة على بن أبى طالب - فاضت نفوسهم الشريرة ببعض ما تختزنه من خُبث ودناءة ووضاعة، وأسمعوا ابن عم رسول الله ﷺ فى نبى الله ﷺ ونسائه الطاهرات الطيبات من السب، والشتم، والقذف، ما لم يسمح أحد من المؤرخين لنفسه أن يورد نَصَّه، لفظاعته وبشاعته. وكل الجواب الذى سمعوه من علىٍّ: السيف بيننا وبينكم،... وأشفق علىٌّ - وهو أول من سبق باللواء إلى بنى قريظة- من أن يسمع الرسول ﷺ فى نفسه وفى نسائه ذلك السب القبيح.

وأناب علىٌّ فى حمل اللواء أبا قتادة الأنصارى، وانطلق مسرعًا نحو رسول الله ﷺ واستوقفه على بُعد من حصون اليهود، وطلب منه أن يقف بعيدًا عن هذه الحصون؛ لئلا يتأذى بسماعه ما فاه به اليهود من سبٍّ وقذع.

فقال علىٌّ: لا عليك يا رسول الله، أن تدنو من هؤلاء الأخابث.

فقال النبى ﷺ: «**لعلك سمعت منهم فىَّ أذى؟**» قال: نعم يا رسول الله.

فقال ﷺ: «**لو رأونى لم يقولوا من ذلك شيئًا**».

ثم واصل الرسول القائد ﷺ تقدُّمه نحو حصون اليهود حتى دنا من حصون قريظة الغادرة، نادى نفرًا من قادتهم، فلما ظهروا فى أبراج حصونهم، قال لهم: «**يا إخوان القردة وعبد الطاغوت، هل أخزاكم الله؟ لأُنزلن بكم نقمته**». وهنا أُسقط فى أيدى اليهود، فأنكروا أن يكونوا شتموه ونساءه وانطلقوا يحلفون كذبًا؛ أنهم ما فاهوا بشىء مما بلغه بهذا الشأن، ثم اندفعوا فى ليونة الأفاعى يُسمعون رسول الله ﷺ من لين القول وطيب الكلام وجميل الإطراء، ما ظنوا أنه سيُساهم فى تخفيف عقوبة خيانتهم العظمى، فقالوا: يا أبا القاسم، ما كنت جهولًا.

واشتد حصار المسلمين لليهود، وطلبوا المفاوضة والسماح لهم بالخروج من يثرب مع نسائهم وذراريهم وما تقدر الإبل على حمله من متاع - سوى السلاح- على أن يتركوا بقية كل ما يملكون فى يثرب للمسلمين،.. ورُفض طلبهم.

ولقد كان المسلمون المحاصرون لليهود فى حالة تعب شديد؛ نتيجة للجهد المضنى الذى بذلوه فى ليالى الخندق المخيفة، التى تحالف فيها البلاء على المسلمين، وأحاطهم من كل جانب طيلة أكثر من خمس وعشرين ليلة، حُرموا فيها حتى من النوم؛ لشدة الخوف، ودوام الحراسة والمرابطة فى وجه عدوهم المحاصر لهم، والذى ما كان يترك لهم فرصة يستريحون فيها، يُضاف إلى ذلك المجاعة الشديدة، والجو البارد النازل بالمسلمين بينما بنو قريظة يحتمون بحصونهم فى مأمنٍ من لفح البرد القارس، موفورًا لديهم كل ما يحتاجون إليه من الطعام لأشهرٍ طويلة، كما

أن الماء كان موجودًا لديهم بصفة دائمة. ومع هذا انهارت أعصاب اليهود وتحطمت معنوياتهم إلى درجة لم يحتملوا معها الحصار أكثر من خمسٍ وعشرين ليلة، وقذف الله فى قلوبهم الرعب، وقرر الصحابة اقتحام حصون اليهود مهما كان الثمن. وصاح على بن أبى طالب حامل لواء الجيش، وابن عمه الزبير بن العوام، صاح: والله لأذوقن ما ذاق حمزة ولأفتحن حصنهم.

ولما سمع اليهود هذا الإنذار من حامل لواء الجيش على بن أبى طالب، أيقنوا أن الهجوم على حصونهم أمرٌ لا مفر منه، طلبوا إيقاف الهجوم، وأعلنوا الاستسلام والنزول على حكم الرسول ﷺ دونما قيد أو شرط.

وسارع اليهود إلى فتح أبواب معاقلهم وحصونهم فورًا، بعد أن ألقوا سلاحهم، وأخذوا فى مغادرة الحصن مستسلمين،.. وأمر النبى ﷺ باعتقال الرجال ووضع القيود فى أيديهم، وقد تم ذلك تحت إشراف محمد بن مسلمة قائد الحرس النبوى، وقد حُبس الرجال من بنى قريظة وعددهم حوالىَ ثمانمائة مقاتل فى دار أسامة بن زيد[1]، أما النساء والأطفال فقد رأى النبى ﷺ بعد أن أوكل أمرهم إلى عبد الله بن سلام، أن يُحفظوا فى مكان ليس فيه صفة الحبس والتضييق وأُنزلوا دار الضيافة، وهى دار ابنة الحرث النجارية المعدة لنزول الوفود التى تقصد المدينة وكان عدد هؤلاء النساء والذرارى يناهز الألف.

وشفع الأوس لحلفائهم يهود بنى قريظة عند رسول الله ﷺ ففوض أمر هؤلاء اليهود إلى سيد الأوس سعد بن معاذ. قال رسول الله ﷺ: «ألا

(١) الكامل لابن الأثير (٢/ ١٢٧).

ترضون يا معشر الأوس أن يحكم فيهم رجل منكم؟»، قالوا: بلى، قال: «فذاك سعد بن معاذ».

روى الإمام أحمد فى مسنده عن جابر بن عبد الله أنه قال:

رُمِىَ يوْمَ الأَحْزَابِ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ فَقَطَعُوا أَكْحَلَهُ فَحَسَمَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالنَّارِ فَانْتَفَخَتْ يدُهُ فَحَسَمَهُ أُخْرَى فَانْتَفَخَتْ يدُهُ فَنَزَفَ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ قَالَ اللَّهُمَّ لاَ تُخْرِجْ نَفْسِى حَتَّى تُقِرَّ عَينِى مِنْ بَنِى قُرَيظَةَ. فَاسْتَمْسَكَ عِرْقُهُ فَمَا قَطَرَ قَطْرَةً حَتَّى نَزَلُوا عَلَى حُكْمِ سَعْدٍ فَأُرْسِلَ إِلَيهِ فَحَكَمَ أَنْ تُقْتَلَ رِجَالُهُمْ وَيُسْتَحْيى نِسَاؤُهُمْ وَذَرَارِيهُمْ لِيسْتَعِينَ بِهِمُ الْمُسْلِمُونَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « أَصَبْتَ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ ». وَكَانُوا أَرْبَعَمِائَةٍ فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَتْلِهِمُ انْفَتَقَ عِرْقُهُ فَمَاتَ.

رضى اليهود، ونزلوا على حكم الله أوَّلًا، ثم على حكم سعد بن معاذ ثانيا لما قال لهم: أترضون بحكمى، قالوا: نعم، قال سعد: فإنى أحكم فيهم أن تُقتل المقاتلة وتُسبى النساء والذرية، وأن تُقسَّم أموالهم[1].

فأخذهم من الغمّ ما أخذهم، وصعق اليهود لهذا الحكم الصارم، وعلاهم الذهول، وخيَّم عليهم الوجوم.

وأمر بحفر خنادق عميقة فى سوق المدينة، وأمر رسول الله ﷺ بإحضار الرجال المحكوم عليهم وأمر بإعدامهم، فأُعدِموا دفعة بعد دفعة، حتى لم يبقَ منهم أحد. وكان الصحابة كلما تم إعدام دفعة من هؤلاء اليهود قذفوا فى الخنادق، وواروهم بالتراب،... واختلف المؤرخون فى عدد اليهود الذين تم إعدامهم، فالبعض يقول: إنهم ما بين ستمائة إلى سبعمائة،

(١) صحيح: رواه أحمد، والترمذى، وصححه الألبانى رحمه الله فى الإرواء (١٢١٣).

والبعض الآخر يقول: إنهم ما بين الثمانمائة إلى التسعمائة[١].

ولقد أُعدم هؤلاء اليهود في ليلة واحدة، وجرت عملية الإعدام على ضوء مشاعل سعف النخيل[٢] وتولى عملية قتل اليهود الخونة على بن أبي طالب والزبير بن العوام، وكان بنو قريظة المحتجزون في السجن مع سيدهم كعب بن أسد كلما استدعى الحرس جماعة منهم لإعدامهم، لاذوا بسيدهم كعب يسألونه في جزع وارتباك، ما تراه يصنع بنا؟ فيجيبهم: أفي كل موطن لا تعقلون؟! هو والله القتل.

فكان جزاؤهم من جنس عملهم، من جنس ما أرادوا للمسلمين.

وأبى الله إلا أن يصلوا هم إلى النهاية المريبة التي أرادوا للمسلمين الوصول إليها.

﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[٣].

وهنا أمرٌ آخر: أن الحكم الذي أصدره سعد بن معاذ على يهود بني قريظة، وأقره النبي ﷺ وقام بتنفيذه، وقد جاء تمامًا وفق الشريعة الموسوية عند اليهود أنفسهم كما في التوراة عندهم، فقد نصَّ الإصحاح العشرون من سفر التثنية: «وإن لم تسالمك أي قرية، بل حاربتك فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورهم بحدِّ السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة كل غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك»[٤].

---

(١) سمط النجوم العوالي (٢/ ١٣٨).

(٢) السيرة الحلبية (٢/ ١٢٠).

(٣) سورة فاطر: الآية: (٤٣).

(٤) سفر التثنية (٢٠/ ١٣-١٤).

وهذا النص الصريح فى كتاب اليهود المقدس، يجعل هؤلاء اليهود يرون أن من حقهم تنفيذ حكم الإعدام فيمن وقع فى أيديهم من أعدائهم الرجال وسبى نسائهم وذراريهم، ومصادرة كل ممتلكاتهم. وهذا يعنى أن اليهود لو نجحوا فى مؤامرتهم، وتم لهم ولأحلافهم التغلب على المسلمين لما ترددوا لحظة فى إبادة المحاربين منهم وسبى نسائهم وذراريهم ومصادرة أموالهم تمشيًا مع حكم كتابهم المقدس الذى جاء صريحًا فى سفر التثنية.

وهكذا جاءت العقوبة التى أنزلها المسلمون باليهود هى نفس العقوبة التى كان هؤلاء اليهود ينوون إنزالها بالمسلمين لو وقعوا فى أيديهم.

فالحكم النازل باليهود إنما جاء وفقًا لشريعتهم، فهو إذًا جزاءً وفاقًا[١].

وهكذا كان جزاء يهود بنى قريظة من جنس عملهم[٢].

* * *

(١) موسوعة الغزوات الكبرى - بنو قريظة (١٥٢، ١٦٤، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٤٦).

(٢) الجزاء من جنس العمل (١/ ٣٣٠-٣٣٧).

بنو النضير

وها هي النهاية المؤلمة ليهود بني النضير كما سطَّرتها غزوة بني النضير.

وتفصيل ذاك الغزو أن النبى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ ذهب إلى منازل بنى النضير ليستعين بهم فى دية القتيلين اللذين قتلهما «عمرو بن أُمية» لدى مرجعه من بئر معونة، فلما فاوضهم الرسول ﷺ فى الأمر أظهروا الرضا بمعونته.

قال ابن إسحاق: ثم خرج رسول الله ﷺ إلى بنى النضير يستعينهم فى دية ذينك القتيلين من بنى عامر، اللذين قتلهما عمرو بن أمية الضمرى، للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقد لهما، وكان بين بنى النضير وبين بنى عامر عقد وحلف. فلما أتاهم رسول الله ﷺ يستعينهم فى ذينك القتيلين، قالوا: نعم يا أبا القاسم نُعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه، ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - ورسول الله ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد- فمَن رجلٌ يعلو على هذا البيت فيُلقى عليه صخرة فيُريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب (أحدهم) فقال: أنا لذلك فصعد ليلقى عليه صخرة كما قال، ورسول الله ﷺ فى نفر من أصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلىّ رضوان الله عليهم فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعًا إلى المدينة، فلما استلبث النبى ﷺ أصحابه، قاموا فى طلبه، فلقوا رجلًا من المدينة فسألوه عنه فقال: رأيته داخلًا المدينة، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ فأخبرهم الخبر بما كانت اليهود أرادت من الغدر

به،... وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم[١].

قال الواقدى: فبعث رسول الله ﷺ محمد بن مسلمة يأمرهم بالخروج من جواره وبلده،... فبعث إليهم أهل النفاق يثبتونهم ويحرضونهم على المقام ويعدونهم النصر، فقويت عند ذلك نفوسهم، وحمى حُيى بن أخطب، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ: أنهم لا يخرجون، ونابذوه بنقض العهود، فعند ذلك أمر الناس بالخروج إليهم.

قال ابن إسحاق: فسار حتى نزل بهم فحاصرهم ست ليالٍ. وتحصنوا فى الحصون. فأمر رسول الله ﷺ بالشروع فى إتلاف وإحراق اللينة، وهي أردأ أنواع نخيل اليهود الذى لا يقتاتون منه، وهو نوع يخالف العجوة والبرنى الذى كان الغذاء الرئيسى لأهل المدينة، ولم يكد اليهود يرون الدخان يتصاعد وفروع هذه النخيل تتساقط حتى دخلهم الذعر فنادوا أن يا محمد، قد كنت تنهى عن الفساد وتعيب مَن صَنعه، فما بال النخيل وتحريقها؟! فأنزل الله ﷻ: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾[٢].

ولم يستمر اليهود فى المقاومة طويلًا، فقد خارت قواهم؛ إذ لم يمضِ على ضرب الحصار أكثر من عشرين يومًا حتى بعثوا بمندوبهم إلى النبى ﷺ للتفاوض.

وكانت نهاية التفاوض اتفاقية الجلاء. أن يجلو يهود بنى النضير عن منطقة يثرب جلاءً تامًّا إلى أى مكان يشاءون.

---

(١) سيرة الرسول ﷺ للمصنف (ص/ ٣٥٥-٣٥٦).

(٢) سورة الحشر: الآية: (٥).

وأن يُسلِّم اليهود للمسلمين كل ما يمتلكون من سلاح بكافة أنواعه، ويكونوا ساعة جلائهم من يثرب مُجرَّدين من السلاح تمامًا.

لليهود أن يحملوا من أموالهم ما يقدرون على حمله ما عدا السلاح، مهما كانت قيمة أو نوع هذا المال.

بعد الذى يقدر اليهود على حمله من المال، يكون كل ما تبقَّى من أموالهم المنقولة وغير المنقولة فَيئًا للمسلمين، وملكًا من أملاكهم.

على القيادة الإسلامية فى اليهود أن تضمن ليهود بنى النضير سلامة أرواحهم، ما داموا فى داخل المنطقة الخاضعة لسلطان المسلمين.

وحملوا على الإبل ما يقدرون على حمله، حتى إن أحدهم صار يعمد إلى عتبة باب داره فيخلعها، ثم يضعها على ظهر البعير فينطلق.

أوقر اليهود ستمائة بعير من الأموال التى قدروا على حملها، خرجوا وكلهم رعب وغيظ ... يقول سلام بن أبى الحقيق، وقد حمل معه جلد ثور مملوء ذهبًا، فكان يضرب بيده على هذا الجلد، ويقول: هذا الذى أعددناه لرفع الأرض وخفضها، وإن كنا تركنا نخلًا، ففى خيبر النخل.

وكان اليهود يعمدون - عند مغادرتهم المدينة - إلى سقف بيوتهم وعُمُدها وجدرانها فينقضونها، لئلا يستفيد منها المسلمون.

يقول الله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾[١].

---

(١) سورة الحشر: الآية: (٥).

*** أما الذي أراد رمي الحجر:**

فقد ذكر ابن إسحاق: أن رسول الله ﷺ قال لليهودى الذى أسلم - يامين: ألم ترى ما لقيت من ابن عمك وما هَمَّ به من شأنى؟! فجعل يامين لرجل جُعلًا على أن يقتل عمرو بن جحاش، فقتله، لعنه الله. والجزاء من جنس العمل(١).

* * *

(١) الجزاء من جنس العمل (١/ ٣٤١-٣٤٣) بتصرف.

كعب بن الأشرف

* أما عن سبب قتله فقد جاء ذلك فى حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أنه قال:

إن كعب بن الأشرف اليهودى كان شاعرًا وكان يهجو رسول الله ﷺ ويحرض عليه كفار قريش فى شِعره، وكان رسول الله ﷺ قَدِم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة رسول الله ﷺ ومنهم المشركون الذين يعبدون الأوثان، ومنهم اليهود، وهم أهل الحلقة والحصون، وهم حلفاء للحيين الأوس والخزرج، فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم، وكان الرجل يكون مسلمًا وأبوه مشرك، والرجل يكون مسلمًا وأخوه مشرك.

وكان المشركون واليهود من أهل المدينة حين قدم رسول الله ﷺ يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أشد الأذى، فأمر الله تعالى رسوله والمسلمين بالصبر على ذلك، والعفو عنهم، ففيهم أنزل الله جلَّ ثناؤه:

﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا﴾[1].

وفيهم أنزل الله: ﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُوا۟ وَٱصْفَحُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾[2].

فلما أبى كعب بن الأشرف أن ينزع عن أذى رسول الله ﷺ وأذى

---

(١) سورة آل عمران: الآية: (١٨٦).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٠٩).

المسلمين، أمر رسول الله ﷺ سعد بن معاذ أن يبعث رهطًا ليقتلوه، فبعث إليه سعد..)[1].

النبي ﷺ يودعهم ويدعو لهم

* عن جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن لكعب بن الأشرف؟ فإنه قد آذى الله ورسوله**» فقام محمد بن مسلمة فقال: يا رسول الله أتحب أن أقتله؟ قال: «**نعم**» قال: فأذن لى أن أقول شيئًا -يعنى لخداع كعب بن الأشرف- قال: «**قل**» فأتاه محمد بن مسلمة فقال: إن هذا الرجل قد سألنا صدقة (يقصد النبى ﷺ)، وإنه قد عنَّانا -أتعبنا- وإنى قد أتيتك أستسلفك -أقترض منك- قال كعب: وأيضًا والله لتملُنَّ قال محمد بن مسلمة: إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أى شىء يصير شأنه، وقد أردنا أن تُسلفنا وسقًا أو وسقين، فقال: نعم ارهنونى قالوا: أى شىء تريد؟ قال: ارهنونى نساءكم، قالوا: كيف نرهنك نساءنا وأنت أجمل العرب؟ قال: فارهنونى أبناءكم.

قالوا: كيف نرهنك أبناءنا فيُسَبّ أحدهم، فيقال: رُهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا، ولكنا نرهنك اللأمة (يعنى السلاح).

فوعده أن يأتيه، فجاءه ليلًا ومعه أبونائلة -وهو أخو كعب من الرضاعة- فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته: أين تخرج هذه الساعة؟ فقال: إنما هو محمد بن مسلمة وأخى أبو نائلة -وفى رواية- قالت: أسمع صوتًا كأنه يقطر منه الدم. قال: إنما هو أخى محمد بن مسلمة ورضيعى أبو نائلة، إن الكريم لو دُعى إلى طعنة بليلٍ لأجاب.

---

(١) صحيح: رواه أبو داود، وصححه الألبانى فى صحيح أبى داود.

قال: ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين، فقال: إذا ما جاء فإنى قائل بشَعره فأشمه فإذا رأيتمونى استمكنت من رأسه فدونكم فاضربوه..

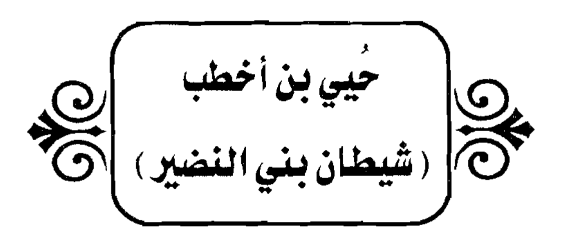
فنزل إليهم متوحشًا وهو ينفخ منه ريح الطيب، فقال: ما رأيت كاليوم ريحًا -أى أطيب- فقال: أتأذن لى أن أشم رأسك؟ قال: نعم. فشمَّه ثم أشم أصحابه ثم قال: أتأذن لى؟ قال: نعم. فلما استمكن منه قال: دونكم فقتلوه. ثم أتوا النبى ﷺ فأخبروه[1].

فيا له من موقف يظهر فيه الولاء والبراء جليًّا واضحًا كالشمس فى رابعة النهار. فهو يقتل قريبه من أجل أنه آذى الله ورسوله ﷺ.

قال الحافظ فى الفتح: قوله: (فائذن لى أن أقول شيئًا، قال: قل) كأنه استأذنه أن يفتعل شيئًا يحتال به، ومن ثم بوَّب عليه المصنف «الكذب فى الحرب» وقد ظهر من سياق ابن سعد للقصة أنهم استأذنوا أن يشكوا منه ويعيبوا رأيه، ولفظه «فقال له: كان قدوم هذا الرجل علينا من البلاء، حاربتنا العرب، ورمتنا عن قوسٍ واحدة» وعند ابن إسحاق بإسناد حسن عن ابن عباس أن النبى ﷺ مشى معهم إلى بقيع الغرقد ثم وجههم فقال: «انطلقوا على اسم الله، اللهم أعنهم»[2].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٤٠٣٧) كتاب المغازى، ومسلم (١٨٠١) كتاب الجهاد والسير.
(٢) فتح البارى (٧/ ٣٩٢).



حُيي بن أخطب (شيطان بني النضير)

وها هى نهاية شيطان بنى النضير الذى نجح فى أن يقنع زعيم يهود بنى قريظة كعب بن أسد أن يخون العهد مع النبى ﷺ وأن يغدر بالمسلمين.

* **وها هى تفاصيل تلك الخيانة:**

فقد انطلق حُيى بنُ أخطب إلى بنى قُريظة، فدنا من حصنهم، فأبى كعبُ بن أسد أن يفتَح له، فلم يزَلْ يكلِّمُهُ حتى فتح له، فلما دخل عليه، قال: لقد جئتُك بعزِّ الدهر، جئتُك بقريش وغَطَفَان وأسَد على قادتها لحرب محمد، قال كعب: جئْتَنى والله بذُلِّ الدهرِ، وبِجَهَامٍ[1] قد هراقَ مَاؤُه، فهو يرْعُد ويبْرُق ليس فيه شيء.

فلَم يزل به حتى نقض العهد الذى بينه وبين رسول الله ﷺ ، ودخل مع المشركين فى مُحاربته، فَسُرَّ بذلك المشركون، وشرط كعب على حُيى أنه إن لم يظفُروا بمحمد أن يجىء حتى يدخُلَ معه فى حصنه، فيصيبه ما أصابه، فأجابه إلى ذلك، ووفَّى له به.

وبلغ رسولَ الله ﷺ خبرُ بنى قُريظة ونَقْضِهم للعهد، فبعث إليهم السَّعْدين[2] ، وخوَّات بن جُبير، وعبدَ الله بن رواحة ليعْرفُوا: هل هم على عهدهم، أو قد نقضُوه؟ فلما دَنَوا منهم، فوجدُوهم عَلى أخبث مَا يكون، وجاهروهم بالسبِّ والعداوة، ونالُوا من رسول الله ﷺ ، فانصرفُوا عنهم، ولحنُوا إلى رسول الله ﷺ لحنًا يخبرونه أنهم قد نقَضُوا العَهد، وغدَرُوا،

---

(١) هو السحاب الرقيق الذى لا ماء فيه.

(٢) سعد بن معاذ وسعد بن عبادة.

فعظُمَ ذلك على المسلمين، فقالَ رسولُ الله ﷺ عند ذلك: «الله أكبرُ أبشرُوا يا معشر المسلمين».

النبي ﷺ يحاصرهم ... وكعب بن أسد يشاورهم

وحاصرهم رسول الله ﷺ خمسًا وعشرين ليلة، حتى جَهَدَهم الحصار، وقذَفَ الله فى قُلوبهم الرعبَ.

وقد كان حُيى بن أخطب دخل مع بنى قريظة فى حصْنهم، حين رجعت عنهم قريش وغَطفان، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه.

فلما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير مُنْصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد لهم: يا معشر يهود، قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإنى عارضٌ عليكم خلالًا ثلاثًا، فخُذوا أيها شئتم، قالوا: وما هى؟ قال: نُتابع هذا الرجل ونصدّقه فوالله لقد تَبينَ لكم أنه لنبىٌّ مُرْسَل، وأنه للذى تَجدونه فى كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم؛ قالوا: لا نُفارقُ حُكمَ التَّوراة أبدًا، ولا نستبدل به غيره، قال: فإذا أبيتم على هذه، فهلُمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالًا مُصْلِتين السيوفَ لم نترك وراءنا ثِقَلًا، حتى يحْكُم الله بيننا وبين محمد، فإن نَهْلك نهلك ولم نترك وراءنا نَسلًا نخشى عليه، وإن نَظهر فلعَمرى لنجدنَّ النساء والأبناء، قالوَا: نقتُل هؤلاء المساكين! فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عَلَى هذه فإن الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها، فانزلوا لعلَّنا نُصيب من محمد وأصحابه غِرَّة، قالوا: نُفْسد سبَتْنا علينا، ونُحْدِث فيه ما لم يحْدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخْفَ عليك من المسخ! قال: ما باتَ رجل منكم منذ ولَدته

أمه ليلة واحدة من الدهر حازمًا[١].

* تنفيذ الحكم:

ثم خرج الحبيب محمدﷺ إلى سوق المدينة وأمر بحفر أخاديد فيها، ثم أمر أن يُؤتَى بهم أرسالًا فتُضرب أعناقهم ويُلقَون فى تلك الأخاديد، وكانوا قرابة السبعمائة رجل من بينهم كعب بن أسد رئيسهم، وعدو الله حُيى بن أخطب النضرى مُحزِّب الأحزاب لحرب رسول اللهﷺ والمؤمنين وقد قالوا لكعب وهم يُساقون أرسالًا إلى رسول اللهﷺ إلى أين يُذهب بنا يا كعب؟ فقال لهم أفى كل موطن لا تعقلون؟ ألا ترون الداعى لا ينزع، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع؟ هو والله القتل!! وأخيرًا جيء بعدو الله حُيى بن أخطب عليه حلّة فقاحية[٢] قد شقَّها من كل جهاتها حتى لا ينتفع بها المسلمون جيء به مجموعة يداه إلى عُنقه فلما نظر إلى رسول اللهﷺ قال: أما والله ما لُمت نفسى فى عداوتك، ولكنه من يُخذَل الله يخذل ثم أقبل على الناس، وقال أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بنى إسرائيل، ثم جلس فضُربت عنقه[٣].

قصة المرأة العجيبة التي قُتلت من بني قريظة

عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: قالت: «لم يُقتل من نسائهم إلا امرأة واحدة قالت: والله إنها لعندى تتحدث معى تضحك ظهرًا وبطنًا[٤] ورسول اللهﷺ يقتل رجالهم بالسوق إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟

(١) السيرة النبوية/ لابن هشام (٣/ ٥٠٢).

(٢) موشاة بالحمرة كالورد.

(٣) هذا الحبيب يا محب/ الجزائرى (ص: ٣١٨، ٣١٩).

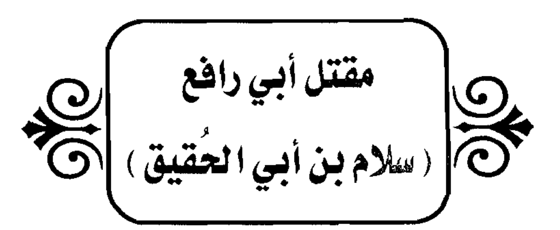
(٤) ظهرًا وبطنًا: لا يبدو على ملامحها أثر الحزن.

قالت: أنا والله، قالت: قلت: ويلك وما لك؟ قالت: أُقتل، قالت: قلت: ولِمَ؟ قالت: حدثًا أحدثته[1]، قالت: فانطلق بها، فضُربت عنقها، وكانت عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا تقول: والله ما أنسى عجبى من طِيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تُقتل»[2].

* * *

(١) الحدث الذى أحدثته، طرحت الرحا على خلاد بن سويد فقتلته، فقتلها رسول الله به.

(٢) أخرجه أحمد فى المسند: (٨/ ٢٧٧)، وأبو داود فى السنن رقم: (٢٦٧١)، والبيهقى فى السنن: (٩/ ٨٢)، وابن هشام فى السيرة: (٢/ ٢٤٢)، والحاكم فى المستدرك: (٣/ ٣٥، ٣٦)، وقال: صحيح على شرط مسلم: رلم يخرجاه، والطبرى فى التاريخ: (٢/ ٥٨٩)، جميعًا من طريق ابن إسحاق، وقد صرح بالسماع فسنده صحيح، وقال الساعاتى فى الفتح الربانى (٢١/ ٨٥): سنده صحيح ورجاله ثقات.



مقتل أبي رافع (سلام بن أبي الحُقيق)

ولم تنتهِ الخصومة بين المسلمين واليهود بانهزام قريظة وانكسار شوكتها، فإن بعض مؤلبى الأحزاب على الإسلام فرَّ إلى خيبر لائذًا بحصونها مستظهرًا بإخوانه فيها، مثل أبى رافع بن أبى الحقيق، وهو شريك (حُيى) فى التطواف بالقبائل يستجلبها إلى يثرب بغية الإتيان على الإسلام وأهله، وليس يُؤمَن لليهود شر ما بقيت لهم قدرة على فعله[1].

قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقد قدمنا أن أبا رافع كان ممن ألَّبَ الأحزاب على رسول الله ﷺ، ولم يُقتل مع بنى قريظة كما قُتل صاحبه حُيى بن أخطب، ورغبت الخزرج فى قتله مساواة للأوس فى قتل كعب بن الأشرف، وكان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قد جعل هذين الحيين يتصاولان بين يدى رسول الله ﷺ فى الخيرات، فاستأذنوه فى قتله، فأذن لهم، فانتدب له رجال كلهم من بنى سلمة، وهم عبد الله بن عتيك وهو أمير القوم، وعبد الله بن أُنيس، وأبو قتادة الحارث بن ربعى، ومسعود بن سنان، وخزاعى بن أسود[2].

وعن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «بعث رسول الله ﷺ رَهْطًا إلى أبى رافع، فدخل عليه عبد الله بن عتيك بيته ليلًا، وهو نائم فقتله»[3].

وعن البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: «بعث رسول الله ﷺ إلى أبى رافع اليهودى رجالًا من الأنصار، فأمَّر عليهم عبد الله بن عتيك، وكان أبو رافع

---

(١) فقه السيرة/ للغزالى (ص: ٣٥٩).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٢٧٥، ٢٧٦).

(٣) صحيح: رواه البخارى (٤٠٣٨) كتاب المغازى.

يؤذى رسول الله ﷺ، ويعين عليه، وكان فى حصن له بأرض الحجاز، فلما دنوا منه، وقد غربت الشمس، وراح الناس بسرحهم، فقال عبد الله لأصحابه: اجلسوا مكانكم، فإنى منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل، فأقبل حتى دنا من البواب، ثم تقنَّع بثوبه كأنه يقضى حاجة، وقد دخل الناس، فهتف به البواب: يا عبد الله إن كنت تريد أن تدخل فادخل، فإنى أريد أن أغلق الباب، فدخلت، فكمنت، فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الأغاليق[1] على عود.

قال: فقمت إلى الأقاليد[2] فأخذتها، ففتحت الباب، وكان أبو رافع يُسْمَرُ عنده، وكان فى علالى له، فلما ذهب عنه أهل سمره، صعدت إليه فجعلت كلما فتحت بابًا أغلقت علىَّ من داخل، قلت: إنْ القوم نذروا بى لم يَخلصوا إلىَّ حتى أقتله، فانتهيت إليه، فإذا هو فى بيت مظلم وسط عياله، لا أدرى أين هو من البيت، فقلت: أبا رافع؟ قال: من هذا؟ فأهويت نحو الصوت، فضربته ضربة بالسيف، وأنا دهش فما أغنيت شيئًا، وصاح، فخرجت من البيت، فأمكث غير بعيد، ثم دخلت إليه فقلت: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟

فقال: لأمك الويل، إن رجلًا فى البيت ضربنى قبل بالسيف، قال: فضربته ضربة أثخنته، ولم أقتله، ثم وضعت خبيب السيف فى بطنه حتى أخذ فى ظهره، فعرفت أنى قتلته، فجعلت أفتح الأبواب بابًا بابًا حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلى، وأنا أرى أنى قد انتهيت إلى الأرض فوقعت

(١) الأغاليق: جمع غلق - ما يُغلق به الباب وهو المفتاح.

(٢) الأقاليد: جمع إقليد وهو المفتاح.

فى ليلة مقمرة، فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامة، ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت: لا أخرج الليلة حتى أعلم أَقَتلته أم لا، فلما صاح الديك قام الناعى على السور، فقال: أنعى أبا رافع تاجر أهل الحجاز، فانطلقت إلى أصحابى فقلت: النجاء، فقد قتل الله أبا رافع، فانتهيت إلى النبى ﷺ فحدثته، فقال لى: «**ابسط رجلك**»، فبسطت رجلى فمسحها فكأنها لم أشتكها قط[1].

* وعاد القوم إلى المدينة يبشرون من وراءهم أنهم أزاحوا من طريق الدعوة شيطانًا من شياطين الإنس.

* * *

(١) صحيح: رواه البخارى (٤٠٣٩) المغازى.

أسير بن زارم (ملك خيبر)

نصَّبه اليهود مَلِكًا على خيبر خلفًا لأبى رافع، وجدَّ أسير لشنِّ حملة أحزاب جديدة على المسلمين فى المدينة، وحاول أن يصنع برسول الله ﷺ ما لم يصنعه قادة اليهود الذين سبقوه؛ فذهب إلى مناطق القبائل النجدية - غطفان وغيرها - وصار يتنقل بين مضارب البدو ومخيمات العشائر الوثنية، يحرضها على حرب رسول الله ﷺ ويجمعها لغزو المدينة، وأرسل رسول الله ﷺ ثلاثين من أصحابه على رأسهم عبد الله بن رواحة، لأسير بن زارم برسالة شفوية تتضمن دعوة ملك اليهود للذهاب إلى المدينة لمقابلة النبى ﷺ بنفسه، لينهوا حالة الحرب القائمة بين الفريقين على أن يُبقيه النبى ﷺ أميرًا على خيبر، حيث قال له ابن رواحة: يا أُسير، إن رسول الله ﷺ بعثنا إليك لتخرج إليه، فيستعملك على خيبر ويحسن إليك(١).

وخرج أُسير بن زارم فى ثلاثين من خُلصاء أصحابه، بصحبة عبد الله بن رواحة وصحبه، وقد أردف كل رجل من أصحاب عبد الله بن رواحة رجلًا من أصحاب أسير بن زارم، وكان سيد خيبر أُسير رديف عبد الله بن أُنيس.

وبينما كانوا سائرين فى اتجاه المدينة، حاول اليهود الغدر بالمسلمين، فأهوى أُسير بن زارم بيده إلى سيف عبد الله بن أنيس ليقتله، إلا أن ابن أُنيس كان أسرع منه؛ إذ فطن لذلك، فانتزع السيف من يده وقتله، ثم دارت معركة بين بقية الركب، تمكن فيها المسلمون من القضاء على ابن زارم وجماعته، ما عدا رجلًا واحدًا تمكن من الفرار.

وكان جزاؤهم من جنس عملهم، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله.

(١) ابن هشام (٢/ ٦١٨)، الحلبية (٢/ ٣٠٦).

نهاية المسيح الدجال

فى يوم من الأيام جاء الصحابى الجليل تميم الدارى (رَضِوَاللَّهُعَنْهُ) ودخل على النبى ﷺ وحكى له أنه كان فى رحلة طويلة وأنه ركب السفينة مع ثلاثين رجلًا.... وبينما هم فى تلك الرحلة إذ هاجت الأمواج شهرًا كاملًا وكادوا أن يغرقوا حتى كتب الله لهم النجاة ووصلوا إلى جزيرة فى البحر.

فلما نزلوا فى تلك الجزيرة وجدوا دابة كثيرة الشعر قد تغطَّى جسمها كله بالشعر حتى لا يدرى من يراها أين وجهها من ظهرها.

فسألوها: من أنت؟

وإذا بها تتكلم وتقول: أنا الجسَّاسة.

ثم قالت لهم: تعالوا معى ننطلق إلى هذا القصر فإن هناك رجلًا ينتظركم وهو فى شوقٍ شديد لرؤيتكم.

قال تميم: فانطلقنا حتى وصلنا إلى القصر فرأينا إنسانًا ضخمًا ما رأينا أحدًا فى مثل ضخامته أبدًا... ورأيناه مربوطًا ومُوثقًا بالحديد فقلنا له: من أنت؟.

فقال: أنا المسيح الدجال.

ثم أخذ يسألهم عن أشياء كثيرة فأجابوه.

ثم قال لهم: إنى قد أوشكت على الخروج من هذا الحبس الذى أنا فيه وإنى إذا خرجت فإنى أسير فى الأرض فلا أدع قرية إلا نزلت فيها إلا مكة والمدينة فهما مُحرمتان علىَّ.. كلما أردت أن أدخل وجدت ملكًا يستقبلنى بالسيف يصدنى عنها.

* فلما أخبر تميم الدارى رسول الله ﷺ بهذه القصة قال النبى ﷺ

للصحابة: «ألم أخبركم بخبر المسيح الدجال وقلت لكم مثلما قال لى تميم الدارى».

* قال الصحابة: بلى يا رسول الله.

فتنة الدجال أعظم الفتن

لقد كان النبى ﷺ يحذر الأمة تحذيرًا شديدًا من فتنة الدجال وحتى لا ينساه أحدٌ كان النبى ﷺ يوصى الصحابة والأمة أن يستعيذوا بالله فى آخر كل صلاة من فتنة المسيح الدجال.

وما زال النبى ﷺ يحذر من الدجال حتى قال يومًا للصحابة:

«إنه لم يكن فتنة فى الأرض منذ ذرأ الله تعالى آدم ﷺ أعظم من فتنة الدجال، وإن الله ﷻ لم يبعث نبيًّا إلا حذّر أمته الدجال، وأنا آخر الأنبياء، وأنتم آخر الأمم، وهو خارج عليكم لا محالة...».

ثم أخبرهم النبى ﷺ أنه إذا خرج الدجال فى زمن النبى ﷺ فإن النبى هو الذى سيتولى الدفاع عن كل مسلم... أما إذا خرج بعد زمن النبى ﷺ فعلى كل مسلم أن يعتصم بالله ويسعى للدفاع عن نفسه.

ثم أخبرهم بأنه يخرج من مكان بين الشام والعراق.

وأخبرهم النبى ﷺ بأن الدجال إذا ظهر فإنه يقول: أنا نبى الله ثم بعدها بفترة يقول: أنا الله... ثم يُعلق النبى ﷺ على هذا الكلام فيقول: **«وإنكم لن تروا ربكم حتى تموتوا... وإن الدجال أعور وإن ربكم ليس بأعور وإنه مكتوب بين عينيه: كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب، وإن من فتنته أن معه جنة ونارًا، (فناره جنة، وجنته نار)، فمن ابتُلى بناره فليستعذ بالله وليقرأ فواتح الكهف فتكون عليه بردًا وسلامًا كما كانت النار على إبراهيم، وإن من**

فتنته أن يقول للأعرابى: أرأيت أن (أبعث) لك أباك وأمك أتشهد أنى ربك؟ فيقول: نعم، فيمثل له شيطانان فى صورة أبيه وأمه، فيقولان: يا بُنى اتبعه فإنه ربك... وإن من فتنته أن يُسلَّط على نفس واحدة فيقتلها، فينشرها بالمنشار حتى يُلقى (شِقَّين)، ثم يقول: انظروا إلى عبدى فإنى أبعثه الآن، ثم يزعم أن له ربًّا غيرى فيبعثه الله فيقول له الخبيث: من ربك؟ فيقول: ربى الله، وأنت عدو الله، أنت الدجال والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك منى اليوم».

* وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تُمطر (فتمطر) ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، وإن من فتنته أن يمر بالحى فيصدقوه، فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت حتى تروح مواشيهم (فى يومهم) ذلك أسمن ما كانت وأنه لا يبقى شىء من الأرض إلا وطأه وظهر عليه إلا مكة والمدينة، فإنه لا (يأتيهما) من نقب من أنقابها إلا لقيته الملائكة بالسيوف المصلتة فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه، فينفى الخبث منها كما ينفى الكير خبث الحديد، ويُدعى ذلك اليوم يوم الخلاص»[1].

من أين يخرج الدجال؟

يخرج الدجال من جهة المشرق؛ من خُراسان، من يهودية أصبهان، ثم يسير فى الأرض، فلا يترك بلدًا إلا دخله؛ إلا مكة والمدينة، فلا يستطيع دخولهما، لأن الملائكة تحرسهما.

وعن أبى بكر الصديق رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «**الدجال**

---

(١) رواه أبو داود وابن ماجه بسندٍ صحيح.

يخرج من أرض بالمشرق؛ يُقالُ لها: خُراسان»(١).

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يخرج الدجال من يهودية أصبهان، معه سبعون ألفًا من اليهود**»(٢).

أعظم الناس شهادة عند رب العالمين

ثم أخبر النبى ﷺ أصحابه بأعظم الناس شهادة عند رب العالمين.

وهو شاب يسمع عن خروج الدجال فيذهب إليه فيقابله حراس الدجال ويقولون له: إلى أين أنت ذاهب؟

فيقول: إلى الدجال.

فيأخذوه إلى الدجال فإذا رآه هذا الشاب صرخ فى الناس وقال: أيها الناس هذا هو الدجال الذى حذرنا منه النبى ﷺ.

فيأمر الدجال أعوانه فيضربوه ثم يسأله: أما تؤمن بى؟

فيقول الشاب: أنت المسيح الكذاب.

فيأمر الدجال أعوانه فيشقوا هذا الشاب نصفين ثم يمشى الدجال بينهما.. ثم يقول للشاب بعد قتله: قُم... فيقوم سليمًا مُعافًى.

فيسأله الدجال: أتؤمن بى؟

فيقول الشاب: والله ما ازددت فيك إلا بصيرة.. أنت المسيح الكذاب.

ثم يصرخ الشاب ويقول: أيها الناس لا تخافوا فإنه لا يفعل ذلك بعدى بأحدٍ من الناس.

فيأخذه الدجال ليذبحه فيجعل الله رقبة هذا الشاب تنقلب إلى نحاس

---

(١) رواه الترمذى والحاكم وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٣٤٠٤).

(٢) رواه أحمد وقال ابن حجر: صحيح [فتح البارى (١٣/ ٣٢٨)].

فلا يستطيع الدجال ذبحه.

فيأخذ بيديه ورجليه ويقذفه فيظن الناس أن الدجال ألقى هذا الشاب فى النار... وإنما أُلقى به فى الجنة.

ثم قال النبى ﷺ: «**فهذا أعظم الناس شهادة عند رب العالمين**».

كم يمكث الدجال فى الأرض؟

ولما سأل الصحابة رسول الله ﷺ عن المدة التى يمكثها الدجال فى الأرض أخبرهم النبى ﷺ: «**أن الدجال يمكث فى الأرض أربعين يومًا: يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة وسائر أيامه كأيامهم**».

* فسألوه عن سرعته عندما ينتقل فى الأرض من مدينة إلى مدينة، فأخبرهم أنه فى سرعة الريح.

نزول عيسى عليه السلام

بعد أن يأذن الله للدجال بالخروج فيعيث فى الأرض فسادًا.

فعند ذلك ينزل عيسى عليه السلام إلى الأرض - بإذن ربه - فينزل عند المنارة البيضاء شرقى دمشق الشام، واضعًا كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قَطَر، وإذا رفعه تحدر منه جُمان كاللؤلؤ، ولا يحل لكافر يجد ريح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهى حيث ينتهى طرفه.

ويكون نزوله على الطائفة المنصورة، التى تقاتل على الحق، وتكون مجتمعة لقتال الدجال، فينزل وقت إقامة الصلاة، يصلى خلف أمير تلك الطائفة.

هلاك الدجال

يكون هلاك الدجال على يدى المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام؛ كما دلت على ذلك الأحاديث الصحيحة، وذلك أن الدجال يظهر على الأرض كلها إلا مكة والمدينة، ويكثر أتباعه، وتعمُّ فتنته، ولا ينجو منها إلا قلة من المؤمنين، وعند ذلك ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام على المنارة الشرقية بدمشق، ويلتف حوله عبادُ الله المؤمنون، فيسير بهم قاصدًا المسيح الدجال، ويكون الدجال عند نزول عيسى متوجهًا نحو بيت المقدس، فيلحق به عيسى عند باب (لُد)[1]، فإذا رآه الدجال؛ ذاب كما يذوب الملح، فيقول له عيسى عليه السلام: «إن لى فيك ضربة لن تفوتنى»، فيتداركه عيسى، فيقتله بحربته، وينهزم أتباعه، فيتبعهم المؤمنون، فيقتلونهم، حتى يقول الشجر والحجر: يا مسلم! يا عبد الله! هذا يهودى خلفى، تعال فاقتله؛ إلا الغرقد؛ فإنه من شجر اليهود[2].

* * *

---

(١) (لد): بلدة فى فلسطين قرب بيت المقدس.

(٢) النهاية فى الفتن والملاحم (١/ ١٢٨، ١٢٩).

معبد الجُهني

* عن أبى الزبير قال: كنا نطوف مع طاووس فمررنا بمعبد الجهنى.

قال: فقيل لطاووس: هذا معبد الذى يقول بالقدر.

قال: فقال له طاووس: أنت المفترى على الله بما لا تعلم؟

قال: فقال: يُكْذَب علىَّ.

قال: فدخلنا على ابن عباس، فقال له طاووس: يا أبا عباس، الذين يقولون فى القدر؟

فقال: أرونى بعضهم.

قال: صانعٌ ماذا؟

قال: أُدخل يدى فى رأسه ثم أدق عنقه.

وعنه: أُدخل يدى فى عينيه فأقلعهما ولا نصونه[1].

قال ابن عيينة: كل صاحب بدعة ذليل، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُفْتَرِينَ ﴾[2].

* * *

(١) شرح أصول الاعتقاد (٤/ ٧١٢).

(٢) سورة الأعراف: الآية: (١٥٢).

غيلان الدمشقي القدري

قال ﷺ: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»(١).

* عن رجاء بن حيوة أنه كتب لهشام بن عبد الملك أمير المؤمنين: بلغنى أنه دخلك من قبل غيلان وصالح، فأقر بالله، لقتلهما أفضل من قتل ألفين من الترك والديلم.

* قال أبو جعفر الخطمى: شهدت عمر بن عبد العزيز وقد دعا غيلان لشىء بلغه فى القدر، فقال له: ويحك يا غيلان، ما هذا الذى بلغني عنك؟

قال: يُكْذَب علىَّ يا أمير المؤمنين، ويُقال علىَّ ما لا أقول.

قال: ما تقول فى العلم؟

قال: نفد العلم.

قال: أنت مخصوم اذهب الآن، فقل ما شئت، يا غيلان، إنك إن أقررت بالعلم خُصمت، وإن جحدته كفرت، وإنك إن تُقِرَّ به فتُخصم خير لك من أن تجحد فتكفر.

ثم قال له: أتقرأ يس؟

قال: نعم.

قال: اقرأ.

قال: فقرأ: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ﴾ إلى قوله: ﴿لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾(٢).

---

(١) حسن: رواه أبو داود، والحاكم، وحسنه الألبانى فى صحيح الجامع (٤٤٤٢).

(٢) سورة يس: الآيات: (١-٧).

قال: قف، كيف ترى؟

قال: كأنى لم أقرأ هذه الآية يا أمير المؤمنين.

قال: زِدْ.

فقرأ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾(١).

فقال له عمر: قل: ﴿سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾(٢).

قال: كيف ترى؟

قال: كأنى لم أقرأ هذه الآيات قط، وإنى أعاهد الله ألا أتكلم فى شىء مما كنت أتكلم فيه أبدًا.

قال: اذهب.

فلما ولَّى قال: اللهمَّ، إن كان كاذبًا بما قال فأذقه حر السلاح.

قال: فلم يتكلم زمن عمر، فلما كان يزيد بن عبد الملك كان رجلًا لا يهتم بهذا، ولا ينظر فيه.

قال: فتكلم غيلان.

فلما ولى هشام أرسل إليه فقال: أليس قد كنت عاهدت الله لعمر لا تتكلم فى شىء من هذا أبدًا؟

قال: أقلنى فوالله لا أعود.

قال: لا أقالنى الله إن أقلتك، هل تقرأ فاتحة الكتاب؟

قال: نعم.

---

(١) سورة يس: الآيتان: (٨-٩).

(٢) سورة يس: الآيتان: (٩-١٠).

قال: اقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

فقرأ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2].

قال: قف. علام استعنته؟

على أمر بيده لا تستطيعه، أو على أمر فى يدك - أو بيدك؟

اذهبا فاقطعا يديه ورجليه، واضربا عنقه، واصلباه[3].

وفى رواية أخرى: ويحك يا غيلان، أرانى أبلغ عنك. ويحك يا غيلان، أرانى أبلغ عنك، ويحك يا غيلان، أرانى أبلغ عنك.

وقال له: ويحك، فإنك آمن، وأمره أن يجلس فجلس.

وجعل عمر يسأله، وغيلان يرفع بصره إلى السماء مرة، وإلى الأرض مرة، وانتفخت أوداجه.

فقال: ما يمنعك أن تتكلم وقد جعلت لك الأمان؟

فقال غيلان: أستغفر الله وأتوب إليه، ادع الله لى بالمغفرة.

فقال: اللهمَّ، إن كان عبدك صادقًا فوفقه وسدَّده، وإن كان كاذبًا أعطانى بلسانه ما ليس فى قلبه، بعد أن أنصفته، وجعلت له الأمان، فسلِّط عليه من يمثل به.

وفى رواية: اللهمَّ، إن كان صادقًا فتُب عليه، وإن كان كاذبًا فاجعله آية للمؤمنين.

---

(١) سورة الفاتحة: الآية: (٢).

(٢) سورة الفاتحة: الآيات: (٢-٥).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (٣/ ٤١٤-٤١٥) الأثر (١٣٢٥).

قال: فصار من أمره بعد أن قُطع لسانه وصُلب[١].

* ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية: أن المسلمين أقاموا الحجة على غيلان، وناظروه، وبيَّنوا له الحق، كما فعل عمر بن عبد العزيز واستتابه، ثم نكث بعد التوبة فقتلوه[٢].

وهو ثانى من تكلم فى القدر بعد معبد الجُهنى، ولقد ناظره الأوزاعى، وأفتى بقتله، فصُلب بعد سنة ١٠٥ هـ[٣].

* عن إبراهيم بن أبى عبلة قال: كنت عند عبادة بن نُسى، فأتاه آتٍ، فقال: إن أمير المؤمنين قد قطع يد غيلان ورجليه، وصلبه.

قال: ما تقول؟

قال: قد فعل.

قال عبادة: أصاب والله فيه القضية والسنة، ولأكتبن إليه، فلأُحسنن له.

* قال خالد بن اللجلاج لغيلان: ويحك يا غيلان، ألم يأخذك فى شبيبتك ترامى النساء فى شهر رمضان بالتفاح، ثم صرت حارثيًّا[٤] تحجب امرأة، وتزعم أنها أم المؤمنين، ثم تحولت من ذلك فصرت قدريًّا زنديقًا[٥].

* * *

(١) شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٧١٦-٧١٧).
(٢) درء التعارض (٧/ ١١٧٣).
(٣) تحقيق كتاب السنة للإمام عبد الله بن أحمد بن حنبل للدكتور القحطانى (ص ٣٨٦).
(٤) من أتباع الحارث بن سعيد الذى ادعى النبوة.
(٥) شرح أصول الاعتقاد (٣/ ٧١٨).

بِشْر المريسي

قال عنه ابن كثير: شيخ المعتزلة، وأحد من أضل المأمون[١].

وقال الذهبى: جرّد القول بخلق القرآن، ودعا عليه، حتى كان عين الجهمية فى عصره وعالمهم، فمقته أهل العلم، وكفَّره عدة، ولم يدرك جهم ابن صفوان بل تلقف مقالاته من أتباعه[٢].

قال رجل ليزيد بن هارون: عندنا ببغداد رجل يقال له: المريسى، يقول: القرآن مخلوق.

فقال: ما فى فتيانكم مَنْ يفتك به؟

قلت: قد أُخذ المريسى فى دولة الرشيد، وأُهين من أجل مقالته.

قال المروزى: سمعت أبا عبد الله، وذكر المريسى، فقال: كان أبوه يهوديًّا، أى شىء تراه يكون؟

وقال أبو عبد الله: كان بِشْر يحضر مجلس أبى يوسف، فيصيح ويستغيث، فقال له أبو يوسف مرة: لا تنتهى أو تُفسد خشبة[٣] يعنى: وتُصلب[٤]. فهو بِشْر الشر، وبشر الحافى بشر الخير، كما أن ابن حنبل أحمد السنة، وابن أبى دؤاد أحمد البدعة.

* * *

---

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٢٩٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٠٠).

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ٢٠١).

(٤) ميزان الاعتدال (١/ ٣٢٣)، وفى تاريخ بغداد (٧/ ٦٣) حتى تصعد خشبة.

اللهمَّ احبسه في جلده وأرِح الناس من شرِّه
(أحمد بن أبي دؤاد)

من الناس من هو مفتاح للخير مغلاق للشر، ومنهم من هو مغلاق للخير مفتاح للشر،... من الصنف الأخير أحمد بن فرج بن جرير بن مالك المعروف بأحمد بن أبى دؤاد، نال منزلة عالية فى الدنيا عند المأمون والمعتصم والواثق من خلفاء الدولة العباسية، وهو من رؤساء المعتزلة الذين ضيعوا الناس فى أخلاقهم وتعاملهم وعقائدهم، ويقولون بالمنزلة بين المنزلتين لا إيمان ولا كفر فماذا يكون إن لم يكن إيمان أو كفر؟ ضياع يدعون إليه.

وقد حرص هذا الرجل على إقناع الخلفاء الثلاثة السابق ذكرهم بأن القرآن مخلوق ووافقوه على ذلك بل وتسلطوا على من خالف هذا القول. وكان ابن ابى دؤاد يرى أن عدوَّه الأكبر هو الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ بل اتهم الإمام أحمد بن حنبل بقوله: إنه ضالٌّ مُضلٌّ وحرَّض الخلفاء على قتله، ولو تسنَّى لهم ذلك لفعلوا غير أنهم خشوا الفتنة وانقسام الناس وتفرقهم، وكل ما حصل من الأذى للإمام أحمد فهو بسبب ذاك اللئيم الذى نخصمه إلى الله ونطلب الإنصاف من الذى لا يظلم مثقال ذرة.

عاش فى دولة الثلاثة الخلفاء مُعظَّمًا مُبجَّلًا وخصوصًا فى دولة المعتصم والواثق، ولكن الله تعالى يُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته،... أُصيب هذا الرجل بمرض الفالج (الشلل النصفي) الذى قسم جسمه إلى قسمين: قِسم لو نُشر بالمناشير وقرض بالمقاريض لم يعلم بذلك، فقد الحياة والحركة فيه، والقسم الثانى على نقيضه إذ لو وقع عليه ذباب لآلمه

أشـد الإيـلام، فهـو فى عـذاب دائـم ومثلـه الجـاحظ وقيـل إن هـذا الـبلاء لأحدهما. ومع هذا فقد سلط الله عليه الخليفة المتوكل الـذى أطلـق الإمـام أحمـد وعـزَّزه وكرَّمـه وأجلَّـه ورفـع مكانتـه وأعلـى قـدره، فجـزاه الله عـن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ... سُلِّط المتوكل على أحمد بن أبى دؤاد فصادر أمواله حتى افتقر واحتاج إلى سؤال الناس، وتفرق من حوله أعوانـه الذين كانوا يعينونه على الظلم، وبقى مرتهنًا على فـراش المـوت يعـانى مـن الحسرة والكمد والضيق والشماتة من أعدائه ما الله به عليم.

دخل عليه عبـد العزيـز بـن يحيى الكنـانى أحـد تلاميـذ الإمـام الـشافعى وقال له: «والله ما جئتك يا عدو الله عائدًا، وإنمـا جئتـك لأحمـد الله الواحـد القهار الذى سجنك فى جلدك إذ هو أشد عليك عقوبة من كـل سـجن، ثـم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم زِده ولا تنقصه»[1].

فازداد مرضًا إلى مرضه، وقد مات ابنه الوليد محمود قبله بحوالى شهر بعد أن عاقبه الله بغضب المتوكل عليـه ونقمتـه عليـه وكانـت وفاتـه فى شـهر المحرم عام ٢٤٠ هـ.

فلله الحمد الذى يرينا قدرته وعظمته فى أعداء الـدعوة وأعـداء الـدعاة، ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾[2].

وقد ذكر الخطيب البغدادى عن أحمد بن الموفق أنه قال:

ناظرنى رجل من الواقفية فى خلق القرآن فأنكرت عليه وبينت أن القرآن غيـر مخلـوق، فنـالنى منـه مـا أكـره في نفـسي ، فلمّـا أمـسيت أتيـت امرأتـى

(١) سير أعلام النبلاء (جزء ١١).

(٢) سورة النحل: الآية: (١١٨).

فوضعت لى العشاء فلم أقدر أن أنال منه شيئًا، من الألم الذي أصابني من المعتزلي فنمت وأنا شديد الألم فرأيت رسول الله ﷺ فى المسجد الجامع، وهناك حلقة فيها أحمد بن حنبل وأصحابه، وحلقة فيها ابن أبى دؤاد وأصحابه، فجعل رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ﴾ ويشير إلى حلقة ابن أبى دؤاد: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾[1] ويشير إلى حلقة أحمد بن حنبل وأصحابه.

وقال بعضهم: رأيت فى المنام ليلة مات ابن أبى دؤاد كأن قائلًا يقول: هلك الليلة أحمد بن أبى دؤاد. فقلت له: وما سبب هلاكه؟ فقال: إنه أغضب الله عليه فغضب عليه من فوق سبع سماوات،... وقال آخر: رأيت ليلة مات ابن أبى دؤاد كأن النار زفرت زفرة عظيمة، فخرج منها لهب، فقلت: ما هذا؟ فقيل: هذا أُنجز لابن أبى دؤاد. وقد كانت فتنة ابن أبى دؤاد هى أساس ما بعدها من الفتن فنعوذ بالله من الفتن[2][3].

* * *

(١) سورة الأنعام: الآية: (٨٩).

(٢) البداية والنهاية (جزء ١٠).

(٣) اتق دعوة المظلوم (٨٥-٨٧).

محمد بن عبد الملك الزيَّات

وها هو محمد بن عبد الملك الزيات الذى كان من هؤلاء الشرذمة الذين كان لهم يد فى سجن علماء الأمة وتعذيبهم ... وعلى رأس هؤلاء جميعًا الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة والجماعة.

*** قال الذهبى فى ترجمته:**

وكان يقول بخلق القرآن، ويقول: ما رَحِمتُ أحدًا قط، الرحمة خَوَرٌ فى الطبع، فسُجن فى قفصٍ حَرِج، جهاته مسامير كالمَسالِّ، فكان يصيح ارحمونى، فيقولون: الرحمة خور فى الطبيعة[١].

*** روى الطبرى فى تاريخه، عنه:**

أُمر بتنور من خشب فيه مسامير حديد قيام، فذكر عن ابن أبى دؤاد وأبى الوزير أنهما قالا: هو أول من أمر بعمل ذلك، فعذَّب به ابن أسباط المصرى حتى استخرج منه جميع ما عنده، ثم ابتُلى به فعُذِّب به أيامًا[٢].

*** وتأمل معى كيف كان جزاؤه من جنس عمله:**

جَلَس - المتوكل- فِى مَجْلِسِهِ، عَنْ يمِينِهِ الْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ ، وَعُبَيدُ اللهِ ابْنِ خَاقَانَ ، وَعَنْ يسَارِهِ بَغَا الْكَبِيرُ ، وَوَصِيفٌ، وَأَنَا ، وَاقِفٌ فِى زَاوِيةِ الْبَيتِ، اليمنى مِمَّا يلِيهِ، وَخَادِمٌ آخِذٌ بَعَضَادَةِ الْبَابِ وَاقِفٌ، إِذْ ضَحِكَ الْمُتَوَكِّلُ فَأَرَمَّ الْقَوْمُ وَسَكَتُوا فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِى مِمَّا ضَحِكْتُ؟ فَقَالُوا: مِمَّا ضَحِكَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، أَضْحَكَ اللهُ سِنَّهُ؟ فَقَالَ: أَضْحَكَنِى أَنِّى ذَاتَ يوْمٍ وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِ الْوَاثِقِ، وَقَدْ قَعَدَ لِلْخَاصَّةِ فِى مَجْلِسِى الَّذِى كُنْتُ فِيهِ

---

(١) السير (١١/ ١٧٣).

(٢) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٩٥).

جَالِسًا، وَأَنَا وَاقِفٌ عَلَى رَأْسِهِ، إِذْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِهِ فَجَاءَ حَتَّى دَخَلَ هَذَا الْبَيْتُ الَّذِى دَخَلْتُهُ فَجَلَسَ فِى مَجْلِسِى هَذَا، وَرُمْتُ الدُّخُولَ فَمُنِعْتُ وَوَقَفْتُ حَيْثُ الْخَادِمُ وَاقِفٌ، وَجَلَسَ ابْنُ أَبِى دُؤَادَ فِى مَجْلِسِكَ يا فَتْحُ، وَجَلَسَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ الزَّياتِ فِى مَجْلِسِكَ يا عُبَيدَ اللهِ، وَجَلَسَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فِى مَجْلِسِكَ يا بَغَا، وَجَلَسَ نَجَاحٌ فِى مَجْلِسِكَ يا وَصِيفُ، إِذْ قَالَ الْوَاثِقُ: وَاللهِ لَقَدْ فَكَّرْتُ فِيمَا دَعَوْتُ النَّاسَ إِلَيهِ، مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ ، وَسُرْعَةِ إِجَابَةِ مَنْ أَجَابَنَا، وَشِدَّةِ خِلَافِ مَنْ خَالَفَنَا، حَتَّى حَمَلْنَا مَنْ خَالَفَنَا عَلَى السَّوْطِ وَالسَّيفِ وَالضَّرْبِ الشَّدِيدِ وَالْحَبْسِ الطَّوِيلِ، وَلَا يردعه ذلك وَلَا يردُّه إِلَى قَوْلِنَا، فَوَجَدْتُ مَنْ أَجَابَنَا رَغِبَ فِيمَا فِى أَيدِينا، وَأَسْرَعَ إِلَى إِجَابَتِنَا رَغْبَةً فِيمَا عِنْدَنَا، وَوَجَدْتُ مَنْ خَالَفَنَا مَنَعَهُ دِينٌ وَوَرَعٌ عَنْ إِجَابَتِنَا، وَصَبَرَ عَلَى مَا ينَالُهُ مِنَ الْقَتْلِ وَالضَّرْبِ وَالْحَبْسِ، فَوَاللهِ لَقَدْ دَخَلَ قَلْبِى مِنْ ذَلِكَ أَمْرٌ شَكَكْتُ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ، وَفِى مِحْنَةِ مَنْ نَمْتَحِنُهُ، وَعَذَابِ مَنْ نُعَذِّبُهُ فِى ذَلِكَ حَتَّى هَمَمْتُ بِتَرْكِ ذَلِكَ والكلام وَالْخَوْضِ فِيهِ، ولقد هممت أن آمر بالنِّداء فى ذلك وَأَكُف الناس بعضهم عن بعض، فَبَدَأَ ابْنُ أَبِى دُؤَادَ ، فَقَالَ: اللهَ اللهَ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ! أَنْ تُمِيتَ سُنَّةً قَدْ أَحْيَيتَهَا، وَأَنْ تُبْطِلَ دِينًا قَدْ أَقَمْتَهُ، فَلَقَدْ جَهِدَ الْأَسْلَافُ فَمَا بَلَغُوا فِيهِ مَا بَلَغْتَ، فَجَزَاكَ اللهُ عَنِ الْإِسْلَامِ وَالدِّينِ خَيرَ مَا جَزَى وَلِيًّا عَنْ أَوْلِيائِهِ.

ثُمَّ أَطْرَقُوا رُءُوسَهُمْ سَاعَةً يفَكِّرُونَ فِى ذَلِكَ، إِذْ بَدَأَ ابْنُ أَبِى دُؤَادٍ - وَخَافَ أَنْ يكُونَ مِنَ الْوَاثِقِ فِى ذَلِكَ أَمْرٌ ينْقُضُ عَلَيهِ قَوْلَهُ، وَيُفْسِدُ عَلَيهِ مَذْهَبَهُ.

فَقَالَ: وَاللهِ يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّ هَذَا الْقَوْلَ الَّذِى نَحْنُ عَلَيهِ، وَنَدْعُوا إِلَيهِ

النَّاسَ لَهُوَ الدِّينُ الَّذِى ارْتَضَاهُ اللهُ لِأَنْبِيائِهِ وَرُسُلِهِ، وَبَعَثَ بِهِ نَبِيهُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَلَكِنَّ النَّاسَ عَمُوا عَنْ قَبُولِهِ.

فَقَالَ الْوَاثِقُ: فَإِنِّى أُرِيدُ أَنْ تُبَاهِلُونِى عَلَى ذَلِكَ، فَقَالَ ابْنُ أَبِى دؤاد: ضَرَبَهُ اللهُ بِالْفَالِجِ فِى دَارِ الدُّنْيا قَبْلَ الْآخِرَةِ، إِنْ لَمْ يكُنْ مَا يقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ.

وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الزَّياتُ: وَهُوَ، فَسَمَّرَ اللهُ يدَيهِ بِمَسَامِيرَ مِنْ حَدِيدٍ فِى دَارِ الدُّنْيا قَبْلَ الْآخِرَةِ، إِنْ لَمْ يكُنْ مَا يقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ.

فَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: وَهُوَ، فَأَنْتَنَ اللهُ رِيحَهُ فِى دَارِ الدُّنْيا حَتَّى يهْرُبَ مِنْهُ حَمِيمٌ وَغَرِيبٌ، إِنْ لَمْ يكُنْ مَا يقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ.

وَقَالَ نَجَاحٌ: وَهُوَ، فَقَتَلَهُ اللهُ فِى أَضْيقِ مَجْلِسٍ إِنْ لَمْ يكُنْ مَا يقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ.

وَدَخَلَ عَلَيهِمْ إِيتَاخٌ ، وَهُمْ فِى ذَلِكَ فَأَخَذوهُ عَلَى الْبَدِيهَةِ وَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ فَقَالَ: وَهُوَ، فَغَرَّقَهُ اللهُ فِى الْبَحْرِ إِنْ لَمْ يكُنْ مَا يقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا مِنْ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ.

فَقَالَ الْوَاثِقُ: وَهُوَ، فَأَحْرَقَ اللهُ بَدَنَهُ بِالنَّارِ فِى دَارِ الدُّنْيا قَبْلَ الْآخِرَةِ، إِنْ لَمْ يكُنْ مَا يقُولُ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَقًّا مِنْ أَنَّ الْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ.

فَأَضْحَكُ أَنَّهُ لَمْ يدْعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ يوْمَئِذٍ بِدَعْوَةٍ عَلَى نَفْسِهِ إِلَّا اسْتُجِيبَتْ.

أَمَّا ابْنُ أَبِى دُؤَادٍ: فَقَدْ رَأَيتُ مَا نَزَلَ بِهِ، وَمَا ضَرَبَهُ اللهُ بِهِ مِنَ الْفَالِجِ.

وَأَمَّا ابْنُ الزَّياتِ: فَأَنَا أَقْعَدْتُهُ فِى تَنُّورٍ مِنْ حَدِيدٍ، وَسَمَّرْتُ يدَيهِ بِمَسَامِيرَ مِنْ حَدِيدٍ.

وَأَمَّا إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ فَإِنَّهُ مَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِى مَاتَ فِيهِ فَأَقْبَلَ يعْرَقُ عَرَقًا مُنْتِنًا حَتَّى هَرَبَ مِنْهُ الْحَمِيمُ وَالْغَرِيبُ، وَكَانَ يُلْقَى عَلَيهِ عِشْرُونَ غِلَالَةً فَتُؤْخَذُ مِنْهُ وَهِى مِثْلُ الْجِيفَةِ فَيُرْمِى بِهَا فِى دِجْلَةَ، لَا يُنْتَفِعُ بِهَا فَتَقَطَّعُ مِنْ شِدَّةِ النَّتَنِ وَالْعَرَقِ.

وَأَمَّا نَجَاحُ، فَأَنَا بَنَيتُ عَلَيهِ بَيتًا، ذِرَاعًا فِى ذِرَاعَينِ حَتَّى مَاتَ فِيهِ.

وَأَمَّا إِيتَاخُ: فَأَنَا كَتَبْتُ إِلَى إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، وَقَدْ رَجَعَ مِنَ الْحَجِّ، فَكَبَّلَهُ بِالْحَدِيدِ وَغَرَّقَهُ.

وَأَمَّا الْوَاثِقُ: فَإِنَّهُ كَانَ يحِبُّ النِّسَاءَ وَكَثْرَةَ الْجِمَاعِ، فَوَجَّهَ ذَاتَ يوْم إِلَى مِيخَائِيلَ الطَّبِيبُ، فَدَعَى لَهُ فَدَخَلَ عَلَيهِ وَهُوَ نَائِمٌ فِى مَشْرَبِهِ وَعَلَيهِ قَطِيفَةُ خَزٍّ فَوَقَفَ بَينَ يدَيهِ فَقَالَ: يا مِيخَائِيلُ أَبْغِنِى دَوَاءً لِلْبَاءة فَقَالَ: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بَدَنُكَ فَلَا تَهُدَّهُ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الْجِمَاعِ تَهُدُّ الْبَدَنَ وَلَا سِيمَا إِذَا تَكَلَّفَ الرَّجُلُ ذَلِكَ، فَاتَّقِ اللهَ فِى بَدَنِكَ وَأبق عليه، فَلَيسَ لَكَ مِنْ بَدَنِكَ عِوَضٌ.

فَقَالَ لَهُ: لَابُدَّ مِنْهُ، ثِمَّ دَفَعَ الْقَطِيفَةَ عَنْهُ فَإِذَا وَصِيفَةٌ ضَمَّهَا إِلَيهِ، ذَكَرَ مِنْ جَمَالِهَا وَهَيئَتِهَا أَمْرًا عَجَبًا، فَقَالَ: مَنْ يصْبرُ عَنْ مِثْل هَذِهِ؟ قَالَ: فَإِنْ كَانَ لَابُدَّ فَعَلَيكَ بِلَحْمِ السَّبْعِ فَأْمُرْ أَنْ يؤْخذَ لَكَ مِنْهُ رِطْلٌ فيغْلِى سَبْعَ غَلْياتٍ بِخَلِّ خَمرٍ عتيق، فَإِذَا جَلَسْتَ عَلَى شَرابك أَمَرْتَ أَن يوزَنَ لَكَ مِنْهُ ثَلَاثَةُ دَرَاهِمَ فَانْتَفَلْتَ عَلَى شَرَابكَ فِى ثَلَاثِ لَيالٍ، فَإِنَّكَ تَجِدُ فِيهِ بُغْيتَكَ، وَاتَّقِ اللهَ فِى نَفْسِكَ وَلَا تُسْرِفْ فِيهَا، وَلَا تُجَاوِزْ مَا أَمَرْتُكَ بِهِ.

فَلَهَى عَنْهُ أَيامًا، فَبَينا هُوَ ذَاتَ لَيلَةٍ جَالِسٌ عَلَى شَرَابِهِ إِذْ ذَكَرَهُ فَقَالَ: عَلَىَّ بِلَحْمِ السَّبْعِ السَّاعَةَ، فَأُخْرِجَ لَهُ سَبعٌ مِنَ الْجُبِّ وَذُبِحَ مِنْ سَاعَتِهِ وَكُبِّبَ لَهُ مِنْهُ ثَمَّ أَمر فَأُغْلِى له منه بِالْخَلِّ، ثُمَّ قُدِّدَ لَهُ مِنْهُ، فَأَخَذَ ينْتَفِلُ بِهِ عَلَى شَرَابِهِ،

وَأَتَتْ عَلَيهِ الْأَيامُ وَاللَّيالِى فسقى بَطْنَهُ، فَجُمِعَ لَهُ الْأَطِبَّاءُ فَأَجْمَعَ رَأيهُمْ عَلى أَنَّهُ لَا دَوَاءَ لَهُ إِلَّا أَنْ يُسَجَّرَ لَهُ تَنُّورٌ بِحَطَبِ الزَّيتُونِ، وَيُسَجَّرَ حَتَّى يمْتَلِئَ جَمْرًا، فَإِذَا امْتَلأَ كَسَحَ مَا فِى جَوْفِهِ فَأُلْقِى عَلَى ظَهْرِهِ وَحُشِى جَوْفُهُ بِالرَّطْبَةِ، وَيقْعُدُ فِيهِ ثَلَاثَ سَاعَاتٍ مِنَ النَّهَارِ، فَإِنِ اسْتَسْقَى مَاءً لَمْ يُسْقَ، فَإِذَا مَضَتْ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ كَوَامِلُ أُخْرِجَ مِنْهَا وَأُجْلِسَ جِلْسَةً مِنْتَصِبَةً على نحو ما أمروا به، فَإِذَا أَصَابَهُ الرَّوْحُ وَجَدَ لِذَلِكَ وَجَعًا شَدِيدًا يطْلُبُ أَنْ يُرَدَّ إِلَى التَّنُّورِ فَيُتْرَكُ عَلَى حَالِهِ، وَلَا يُرَدُّ إِلَى التَّنُّورِ حَتَّى تَمْضِى سَاعَتَانِ مِنَ النَّهَارِ، فَإِنَّه إِذَا مَضَتْ سَاعَتَانِ مِنَ النَّهَارِ جَرَى ذَلِكَ الْمَاءُ وَخَرَجَ مِنْ مَخَارِجِ الْبَوْلِ، وَإِنْ سُقِى مَاءً أَوْ رُدَّ إِلَى التَّنُّورِ كَانَ تَلَفُهُ .

فَأَمَرَ بالتَّنور فَاتُّخِذَ لَهُ وَعُرِّى وَأُجلسَ فِيهِ، وَأَقْبَلَ يصِيحُ وَيسْتَغِيثُ وَيقُولُ: أَحرقتمونى اسْقُونِى مَاءً، وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ مَنْ يمْنَعُهُ مِنَ الْمَاءِ وَلَا يدَعُهُ أَنْ يقُومَ مِنْ مَوْضِعِهِ الَّذِى أُقْعِدَ فِيهِ وَلَا يتَحَرَّكُ، فَتَنَفَّطَ بَدَنُهُ كُلُّهُ فَصَارَتْ فِيهِ نَفَّاخَاتٌ مِثْلَ أكبر الْبطِّيخِ وَأَعْظَمه، فَتُرِكَ عَلَى حَالَتِهِ حَتَّى مَضَتْ لَهُ ثَلَاثُ سَاعَاتٍ مِنَ النَّارِ، ثُمَّ أُخْرِجَ وَقَدْ كَادَ يحْتَرِقَ، أَوْ يقُولُ الْقَائِلُ فِى رَأى الْعَينِ: قَدِ احْتَرَقَ، فَأَجْلَسَهُ الْمُتطَبِّبُونَ فَلَمَّا وَجَدَ رَوْحَ الْهَوَى اشْتَدَّ به الْوَجَعُ وَالْأَلَمُ، وَأَقْبَلَ يصِيحُ وَيخُورُ خوار الثَّوْرِ .

وَيقُولُ: رُدُّونِى إِلَى التَّنُّورِ فإنى إن لم أُردّ مِتُّ فَاجْتَمَعَ نِسَاؤُهُ وَخَوَاصُّهُ لِمَا رَأَوْا بِهِ مِنْ شِدَّةِ الْأَلَمِ وَالْوَجَعِ وَكَثْرَةِ الصِّياحِ، فرجوا أن يكون له فرجة فِى أَنْ يُرَدَّ إِلَى التَّنُّورِ، فردُّوه إلى التنور ثَانِيةً، فَلَمَّا وَجَدَ مَسَّ النَّارِ سَكَنَ صِياحُهُ، وَتَفَطَّرَتِ النَّفَّاخَاتُ الَّتِى كَانَتْ خَرَجَتْ ببَدَنِهِ وخمدت، وبرد فى جوف التَّنُّورِ، فأُخرج من التنور وَقَدِ احْتَرَقَ، وَصَارَ أَسْوَدَ كَالْفَحْمِ ، فَلَمْ

تَمْضِ بِهِ سَاعَاتٌ حَتَّى قَضَى.

فَأَضْحَكُ أَنَّهُ لَمْ يدْعُ أَحَدٌ مِنْهُمْ عَلَى نَفْسِهِ فِى تِلْكَ السَّاعَةِ بِدُعَاءٍ إِلَّا اسْتَجَابَ اللهُ لَهُ فِى نَفْسِهِ[١].

* * *

(١) مناقب الإمام أحمد لابن الجوزى (٥٨٦-٥٩٠)، نقلاً عن (الجزاء من جنس العمل).

الجعد بن درهم

قال السيوطى فى كتاب الأوائل: أَوَّلُ مَنْ تَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ فِى الِاعْتِقَادِ - يعنى: فى الإسلام- الْجَعْدُ بْنُ دِرْهَمٍ مُؤَدِّبُ مَرْوَانَ الْحمَّارِ آخِرِ مُلُوكِ بَنِى أُمَيةَ، فَقَالَ: بِأَنَّ اللهَ لَا يتَكَلَّمُ.

وهو أول من قال بخلق القرآن، وأنكر أن يكون الله قد تكلم به، وأنكر أن يكون اتخذ إبراهيم خليلًا.

وهو أول من تكلم فى صفات الله ﷻ وأنكرها. ولما كثرت أسئلته عن صفات الله قال له وهب بن منبه: ويلك يا جعد! قصِّر المسألة عن ذلك إنى لأظنّك من الهالكين، لو لم يخبرنا الله أن له يدًا، وأن له عينًا ما قلنا ذلك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن أول من حُفظ عنه أنه قال هذه المقالة فى الإسلام -أعنى: أن الله ليس على العرش حقيقة، وأن معنى استوى بمعنى: استولى ونحو ذلك - الجعد بن درهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان وأظهرها، فنُسبت مقالة الجهمية إليه.

وقال ابن كثير: كان الجعد بن درهم قد تلقَّى هذا المبحث الخبيث عن رجل يقال له: إبان بن سمعان، وأخذه أبان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم عن خاله لبيد بن الأعصم اليهودى.

قال ابن القيم فى نونيته عن الجهمية وشيخهم الجعد:

وكذاك قالوا ما له من خلقه ... أحد يكون خليله النفسانى

وخليله المحتاج عندهم وفى ... ذا الوصف يدخل عابد الأوثانِ

فالكل مفتقر إليه لذاته ... فى أسر قبضته ذليل عانِ

ولأجل ذا ضحى بجعد خالد الـ ... ـقسرى يوم ذبائح القربانِ

إذ قـال إبـراهيم ليـس خليلـه كـلا ولا موسـى الكليـم الـدانى
شـكر الـضحية كـل صـاحب سـنة لله درك مـن أخـى قربـانِ

حرفوا الكَلِمَ عن مواضعه فقالوا: إن معنى الخليل فى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾[1] الفقير المحتاج، ولا شك فى فساد هذا التأويل، إذ لا يكون حينئذٍ لتخصيص إبراهيم بالخلة معنى، فإن الفقر والاحتياج لازم لجميع الخلق لزومًا ذاتيًا، وبذلك يكون وصف الخلة متناولًا لجميعهم حتى عَبَدة الأوثان الذين هم ألدُّ أعداء الرحمن.

وأى ذنب أعظم من هذا، وإهانة لخليل الرحمن عليه السلام،... فذُبح فى يوم شرف وعز الخليل فى سنة ١٢٤ هـ. ضحَّى به خالد بن عبد الله القسرى أمير العراق بواسط فى يوم الأضحى حيث قال:

أيها الناس، اذهبوا إلى أضاحيكم، يتقبل الله منكم، فإنى مُضَحٍّ بالجعد ابن درهم،... إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلًا، ولا كلم موسى تكليمًا. ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بفتوى أهل زمانه من التابعين، فشكر له صنيعه أهل السنة والجماعة[2].

* * *

---

(١) سورة النساء: الآية (١٢٥).

(٢) شرح النونية للهراس (١/ ٣٠).

ابن العلقمي الرافضي الخبيث

* قال ابن الجوزى:

إخوانى اسمعوا نصيحة من جرَّب وخبر:

إنه بقدر إجلالكم لله ﷻ يُجلكم، وبقدر تعظيم قدره واحترامه يعظم أقداركم وحُرمتكم[1] وبقدر الاستهانة بشرع الله والتطاول على كتابه وسنته، ونفى ما أثبته لنفسه، يلحق الهوان بالمبتدعة.

* فها هو ابن العلقمى الرافضى الخبيث الذى زالت - من أثر خيانته- الخلافة العباسية ببغداد سنة ستٍّ وخمسين وستمائة على يد هولاكو وقُتل الخليفة المستعصم بالله.

كان أول من برز إلى التتار هو، فخرج بأهله وأصحابه وخدمه وحشمه، فاجتمع بهولاكو لعنه الله، ثم عاد فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه لتقع المصالحة على أن يكون نصف خراج العراق لهم ونصفه للخليفة، وكان قدوم هولاكو لبغداد فى ثانى عشر المحرم ومعه نحو مائتى ألف مقاتل.

فاحتاج الخليفة إلى أن خرج فى سبعمائة راكب من القضاة، والفقهاء، والصوفية، ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، فلما اقتربوا من منزل هولاكو خان حُجبوا عن الخليفة إلا سبع عشرة نفسًا، فخلص الخليفة بهؤلاء المذكورين، وأُنزل الباقون عن مراكبهم ونُهبت وقُتلوا عن آخرهم، وأُحضر الخليفة بين يدى هولاكو، فسأله عن أشياء كثيرة، فيقال: أنه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى

---

(١) صيد الخاطر (ص: ١٩٤).

بغداد وفى صحبته خوجة نصير الدين الطوسى والوزير ابن العلقمى وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخليفة شيئًا كثيرًا من الذهب والحلى والمصاغ والجواهر والأشياء النفيسة، وقد أشار أولئك الملأ من الرافضة وغيرهم من المنافقين على هولاكو ألَّا يصالح الخليفة، وقال الوزير: متى وقع الصلح على المناصفة لا يستمر هذا إلا عامًا أو عامى، ثم يعود الأمر إلى ما كان عليه قبل ذلك، وحسَّنوا له قتل الخليفة، فلما عاد الخليفة إلى هولاكو أمر بقتله، ويقال: إن الذى أشار بقتله الوزير ابن العلقمى، والمولى نصير الدين الطوسى - وكان هولاكو قد انتخب النصير ليكون فى خدمته كالوزير المشير - فلما قَدِم هولاكو وتهيَّب من قتل الخليفة، هوَّن عليه الوزير ابن العلقمى ذلك فقتلوه رفسًا، وهو فى جوالق؛ لئلا يقع على الأرض شىء من دمه، وقيل: بل خُنق، وقيل: بل أُغرق، وقُتل معه ولده الأكبر أبو العباس أحمد، ثم ولده عبد الرحمن، وأُسر ولده الأصغر مبارك وأُسرت أخواته الثلاث: فاطمة وخديجة ومريم، وأُسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر. وقُتل أستاذ دار الخلافة محيى الدين يوسف ابن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى، وقُتل أولاده الثلاثة، وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة.

ومالوا على البلد فقتلوا جميع مَن قدروا عليه من الرجال والنساء، والولدان، والمشايخ والكهول، والشبان، وسادات العلماء، والقضاة، والأكابر، والرؤساء، والأمراء وأولى الحل والعقد.

ودخل كثير من الناس فى الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ، وكمنوا كذلك أيامًا لا يظهرون، وكان الجماعة من الناس يجتمعون إلى

الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فتفتحها التتار، إما بالكسر، وإما بالنار، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى الأمكنة، فيقتلونهم بالأسطحة حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة، وكذلك فى المساجد والجوامع والربط، ولم ينجُ أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى، ومن التجأ إليهم، وإلى دار الوزير ابن العلقمى، وطائفة من التجار أخذوا لهم أمانًا، بذلوا عليه أموالًا جزيلة، وعادت بغداد - بعدما كانت آنس المدن كلها- كأنها خراب ليس فيها إلا القليل من الناس، وهم فى خوف وجوع وذلة وقلة، وكان الوزير ابن العلقمى - قبل هذه الحادثة- يجتهد فى صرف الجيوش وإسقاط اسمهم من الديوان إلى أن لم يبق سوى عشر آلاف، كلهم قد صرفوا عن إقطاعاتهم حتى استعطى كثير منهم فى الأسواق وأبواب المساجد، ثم كاتب التتار، وأطمعهم فى أخذ البلاد وسهل عليه ذلك، وحكى لهم حقيقة الحال، وكشف لهم ضعف الرجال، وذلك كله طمعًا منه أن يُزيل السّنة بالكلية، وأن يُظهر البدعة الرافضة وأن يقيم خليفة من الفاطميين، وأن يبيد العلماء والمفتين ... والله غالب على أمره، وقد ردَّ كيده فى نحره، وأذلَّه بعد العزة القعساء، وجعله حوشكاشا للتتار بعد ما كان وزيرًا للخلفاء، واكتسب إثم من قُتل ببغداد من الرجال والنساء والأطفال، فالحكم لله العلى الكبير رب الأرض والسماء وقد اختلف الناس فى كمية مَنْ قُتِل ببغداد من المسلمين - فى هذه الوقعة - فقيل: ثمانمائة ألف، وقيل: ألف ألف وثمانمائة، وقيل: بلغت القتلى ألفى ألف نفس، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وما زال السيف يقتل أهلها أربعين يومًا.

وقُتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والجماعات والجُمعات مدة شهور ببغداد، وأراد الوزير ابن العلقمى - قبحه الله ولعنه - أن يعطل المساجد والمدارس والربط ببغداد، ويستمر بالمشاهد ومحال الرفض، وأن يبنى للرافضة مدرسة هائلة ينشرون عِلمهم وعَلَمَهم بها وعليها، فلم يُقدره الله تعالى على ذلك، بل أزال نعمته، وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة، وأتبعه بولده فاجتمعا، والله أعلم بالدرك الأسفل من النار.

ولما انقضى الأمر المقدر وانقضت الأربعون يومًا، بقيت بغداد خاوية على عروشها، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس، والقتلى فى الطرقات كأنها التلول، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت من جيفهم البلد، وتغير الهواء فحصل بسببه الوباء الشديد، حتى تعدَّى وسرى فى الهواء إلى بلاد الشام، فمات خلق كثير من تغير الجو، وفساد الريح، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون.

ولما نودى ببغداد بالأمان، خرج من تحت الأرض من كان بالمطامير والقنى والمقابر، كأنهم الموتى إذا نُبشوا من قبورهم، وقد أنكر بعضهم بعضًا فلا يعرف الوالد ولده ولا الأخ أخاه، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سبقهم من القتلى.

ورحل هولاكو إلى مقر مُلكه، وفوَّض أمر بغداد إلى الأمير على بهادر، فوض إليه الشحنكية بها وإلى الوزير ابن العلقمى، فلم يمهله الله ولا أهمله، بل أخذه أخذ عزيز مقتدر، فمات جهدًا وغمًّا وحزنًا وتدمًا إلى حيث ألقت رحلها أم قعشم، فولى بعده الوزارة ولده عز الدين بن الفضل

محمد، فألحقه الله بأبيه فى بقية هذا العام، ولله الحمد والمنَّة[١].

* ويقول عنه ابن كثير أيضًا:

مُحَمَّدُ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِى بْنِ أَبِى طَالِبٍ، الْوَزِيرُ مؤيد الدين أبو طالب بن العلقمى، وزير المستعصم، ثُمَّ صار وزير المستعصم وزير سوء على نفسه وعلى الخليفة وعلى المسلمين، وكان رافضيًّا خبيثًا ردىء الطَّوِيةِ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ، وَقَدْ حَصَلَ لَهُ مِنَ التَّعْظِيمِ وَالْوَجَاهَةِ فِى أَيام الْمُسْتَعْصِمِ مَا لم يحصل لغيره مِنَ الْوُزَرَاءِ، ثُمَّ مَالأَ عَلَى الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ الكفار هولاكو خان.

ثم حصل له بعد ذلك من الإهانة والذل على أيدى التتار الذين مالأهم وزال عنه ستر الله، وذاق الْخِزْى فِى الْحَياةِ الدُّنْيا، وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أشد وأبقى، وقد رأته امرأة وهو فى الذل والهوان وهو راكب فى أيام التتار برذونًا وهو مرسم عليه، وسائق يسوق به ويضرب فرسه، فوقفت إلى جانبه وقالت له: يا ابن الْعَلْقَمِى هَكَذَا كَانَ بَنُو الْعَبَّاسِ يعامِلُونَكَ؟ فَوَقَعَتْ كَلِمَتُهَا فِى قَلْبِهِ وَانْقَطَعَ فِى دَارِهِ إِلَى أن مات كمدًا وغبينة وضيقًا، وقلة وذلة. سَمِعَ بِأُذُنَيهِ، وَرَأَى بِعَينَيهِ مِنَ الْإِهَانَةِ مِنَ التَّتَارِ وَالْمُسْلِمِينَ مَا لَا يُحَدُّ وَلَا يوصَفُ. وَتَوَلَّى بَعْدَهُ وَلَدُهُ الخبيث الوزارة، ثم أخذه الله أخذ القرى وهى ظالمة سريعًا، وقد هجاه بعض الشعراء فقال فيه:

يـا فِرْقَـةَ الْإِسْـلَامِ نُوحُـوا وَانْـدُبُوا ... أَسَـفًا عَلَـى مَـا حَـلَّ بِالْمُسْتَعْـصِمِ

دَسْـتُ الْـوَزَارَةِ كَـانَ قَبْـلَ زَمَانِـهِ ... لِابْنِ الْفُرَاتِ فَصَارَ لِابْنِ الْعَلْقَمِى[٢]

---

(١) البداية والنهاية (١٣/ ٢١٣-٢١٧).

(٢) البداية والنهاية (١٣/ ٢٢٥-٢٢٦).

* وقال عنه الذهبى:

الوَزِيرُ الكَبِيرُ المُدبرُ المُبير مُؤَيد الدِّينِ مُحَمَّدُ بنِ مُحَمَّدُ بن عَلِى بن أَبِى طَالِبٍ ابْن العَلْقَمِى، أَفشَى الرَّفْض فَعَارضته السُّنَّة، وَأُكْبِتَ، فَتَنَمَّرَ، وَرَأَى أَنَّ هُولاَكو عَلَى قصد العِرَاق، فَكَاتَبَه وَحبَّرهُ، وَقوَّى عَزْمه عَلَى قصد العراق، ليتخذ عنده يدًا، وليتمكن مِنْ أَغرَاضِهِ، وَحَفَر لِلأُمَّةِ قَلِيبًا، فَأُوقع فِيهِ قَرِيبًا، وَذَاقَ الهوَانَ، وَبَقِى يركَبُ كديشًا وَحْدَهُ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ ركبته تُضَاهِى مَوْكِبَ سُلْطَان، فَمَاتَ غَبْنًا وَغَمًّا، بعد الكائنة بثلاثة أشهر وهلك... وَفِى الآخِرَةِ أَشدَّ خِزْيًا وَأَشَدَّ تنكيلًا»[1]. والجزاء من جنس العمل.

بقدر إجلالك لله يُجلك الله، وبقدر التطاول يذلك[2].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (٢٣/ ٣٦١-٣٦٢).

(٢) الجزاء من جنس العمل (١/ ٣٥٩-٣٦٣).

جهم بن صفوان

وها هو رأس الجهمية جهم بن صفوان الذى تبنَّى آراء الجعد بن درهم وزاد عليها الكثير والكثير من البدع ... ومنها:

الأولى: القول بالجبر، حيث زعم أن الإنسان لا يقدر على شىء ولا يوصف بالاستطاعة، وإنما هو مجبور على أفعاله.

الثانية: القول بأن الإيمان هو المعرفة، حيث زعم أن الإيمان وهو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط.

الثالثة: القول بفناء الجنة والنار بعد دخول أهلهما فيهما.

الرابعة: القول بأن علم الله حادث؛ حيث زعم أنه لا يجوز أن يعلم الشىء قبل خلقه[1].

* وتأمل معى ما قاله عنه الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ:

جَهْمُ بنِ صفوانٍ وشِيعَتِهِ الأُلَى ... جَحَدُوا صِفَاتِ الخالِقِ الديَّانِ

بل عَطَّلوا مِنْهُ السَّمواتِ العُلَى ... والعَرْشَ أخْلَوهُ مِنَ الرحمنِ

ونَفَوْا كَلامَ الرَّبِّ جَلَّ جَلالُهُ ... وَقَضَوْا لَهُ بالخَلْقِ والحَدَثَانِ

وَالعبْدُ عندهُمُ فَلَيسَ بِفَاعِلٍ ... بَلْ فعْلُهُ كَتَحرُّكِ الرَّجَفَانِ

وهبُوبِ ريحٍ أوْ تحرُّكِ نائمٍ ... وتحرُّكِ الأشْجَارِ للمَيلاَنِ

واللهُ يصْليهِ على مَا ليس مِنْ ... أفْعالِه حَرَّ الحَمِيمِ الآنِى!!

لَكِنْ يعاقِبُهُ عَلى أفعَالِهِ ... فيهِ - تعالَى اللهُ ذُو الإحسَانِ -!!

قَالُوا: «وإقْرَارُ العِبَادِ بِأَنَّه ... خلاَّقُهُمْ هُوَ مُنْتهَى الإيمَانِ

---

(١) الفرق بين الفِرق (٢١١، ٢١٢).

والنَّـاسُ فى الإيمـانِ شـىٌ واحـدٌ ... كالمِـشْطِ عِنْـدَ تَماثُـلِ الأَسْـنَانِ

فاسْـألْ أبـا جَهْـلٍ وشـيعتَهُ وَمَـنْ ... وَالاهُـمُ مِـنْ عَابِـدِى الأوثَـانِ

وسَـلِ اليهُـودَ وكُـلَّ أقْلَـفَ مُـشرِكٍ ... -عَبَـدَ المَـسِيحَ- مُقَبِّـلِ الـصُّلبَانِ

وَاسْـألْ ثَمُـودَ وعـادَ بـل سَـلْ قَبـلَهُم ... أعْـدَاءَ نُـوحٍ أُمَّـةَ الطُّوفَـانِ

واسألْ أبَا الجنِّ اللعينَ: أتعرفُ الـ ... ـخلاَّقَ أمْ أصْـبَحْتَ ذَا نُكْـرَانِ؟

وَاسـألْ شِـرارَ الخلـقِ أعنـى أُمـةً ... لُوطِيـةً هـمُ نـاكِحُو الـذُّكْرَانِ

وَاسـأل كَـذَاكَ إمَـامَ كُـلِّ مُعطِّـلٍ ... فِرْعَـونَ مَـعْ قَـارُونَ مَـعْ هَامَـانِ

هـل كـانَ فيهِـمْ مُنكِـرٌ للخـالِقِ الـرَّ ... بِّ العظيـمِ مُكـوِّنِ الأكْـوانِ؟

فَلْيبْـشرُوا مـا فيهِـمُ مِـنْ كـافِرٍ ... هُـمْ عنـدَ جَهْـمٍ كَـامِلو الإيمـانِ

وَقَـضَى: بِـأنَّ اللهَ كَـانَ مُعطَّـلًا ... والفِعْـلَ مُمتنِـعٌ بِـلا إمكَـانِ

ثُـمَّ اسْـتَحالَ وَصَـارَ مَقْـدُورًا لَـهُ ... مِـنْ غَيـرِ أمْـرٍ قَـامَ بالـدَّيانِ

وَقَـضَى: بـأنَّ النَّـارَ لَـمْ تُخْلَـقْ ولا ... جَنَّـاتِ عَـدْنٍ بَـلْ هُمَـا عَـدَمَانِ

فَـإذا هُمَـا خُلِقَـا ليـومِ مَعَادِنَـا ... فَهُمَـا عَلَـى الأوْقَـاتِ فَانِيتَـانِ

مَاذَا الـذِى فى ضِمْنِ ذَا التعطِيلِ مِنْ ... نَفـيٍ ومِـنْ جَحـدٍ وَمِـنْ كُفْـرَانِ؟!

وأتـى إلـى الكُفْـرِ العَظِيـمِ فَـصَاغَهُ ... عِجْـلًا لِيفْـتِنَ أمَّـةَ الثِّيـرَانِ،

وكَـسَاهُ أنْـوَاعَ الجـواهِرِ والحُلَـى ... مِـنْ لُؤلُـؤٍ صَـافٍ وَمِـنْ عِقْيـانِ

فَـرَآه ثيـرانُ الـوَرَى فَأصَـابَهُمْ ... كَمُـصَابِ إخْـوَتِهِم قَـديمَ زَمَـانِ

(عِجـلاَن قَـدْ فَتَنَـا العِبَـادَ) بـصوتِهِ ... إحْـدَاهُمَا، وَبحَرفِـهِ ذَا الثَّـانِى[1]

قال إبراهيم بن طهمان: ما ذكرته ولا ذُكر عندى إلا دعوت عليه، ما

---

(١) النونية / لابن القيم.

أعظم ما أورث أهل القبلة من منطِقهِ العظيم.

قُتل هذا الخبيث مع الحارث بن سريج ضد بنى أمية.

قال ابن كثير: فقتل منهم طائفة كثيرة منهم الجهم بن صفوان، طعنه رجل فى فيه فقتله[1].

والجزاء من جنس العمل... هذا الفم الذى أخرج زبالات الأذهان يُطعن.

ويقال: بل أُسر الجهم، فأُوقف بين يدى (سلم بن أحوز)، فأمر بقتله، فقال: إن لى أمانًا من أبيك، فقال: ما كان له أن يُؤمِّنك، ولو فعل ما أمَّنتُك، ولو ملأت هذه الملاءة كواكب، وأنزلت عيسى ابن مريم ما نجوت، والله لو كنت فى بطنى لشققت بطنى حتى أقتلك، وأمر ابن ميسر فقتله.

وفى رواية ابن جرير: وأبرأك إلىَّ عيسى ابن مريم ما نجوت[2].

وقال الذهبى: إن (سلم بن أحوز) قتل الجهم لإنكاره أن الله كلم موسى[3].

* * *

(١) البداية والنهاية (١٠/ ٢٨).

(٢) تاريخ الطبرى (٤/ ٢٩٥).

(٣) سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٧).

ابن هانئ الشاعر

وها هى نهاية أحد الشعراء الفجرة (ابن هانئ الشاعر) وهو شاعر المُعز العُبيدى الفاطمى.

* كان هذا الشاعر يقول للمعز:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وقال له أيضًا:

ندعوه منتقمًا عزيزًا قادرًا ... غفار مُوبِقَةِ الذنوب

وقال فيه أيضًا:

رأيتك من ترزقه يُرزقْ من الورى ... دراكًا ومَنْ تحرم من الناس يُحرمِ

وقال فيه أيضًا:

أدار كما شاء الورى وتحيرت ... على السبعة الأفلاك أنمله العشر

وقال فى هذا القزم أيضًا:

أرى مدحه كالمدح لله إنه ... قنوت وتسبيح يحط من الوزر[1]

* قال ابن كثير: اسصحبه المعز الفاطمى من بلاد القيروان حين توجه إلى مصر، فمات ببعض الطريق،... وُجد مقتولًا على حافة البحر فى رجب سنة ٣٦٢ هـ[2].

ومما قيل فى محمد بن هانئ أيضًا:

خرج من القصر فأُصيب بمرض، فكان يعوى كالكلب على فراشه،

---

(١) عصر الدول والإمارات/ شوقى ضيف (ص ٢٤٤، ٢٤٦).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ٢٩٢).

ويقول: أنت الواحد القهار، وأخذ يبكى ويقول:

أبعيـــن مفتقــر إليـــه نظــرت لــى فــأهنتنى وقــذفتنى مــن حــالق

لــست الملـوم أنـا الملـوم لأننـى علقــت آمــالى بغيــر الخــالق [1]

* * *

(١) احفظ الله يحفظك (٤٩).

الحلاج

هو الحسين بن منصور بن محمى الحلاج أبو مغيث، رأس أهل الحلول والاتحاد.

قال القشيرى فى رسالته فى باب حفظ قلوب المشايخ: إن عمرو بن عثمان دخل على الحلاج وهو بمكة وهو يكتب شيئًا فى أوراق، فقال له: ما هذا؟ فقال: هو ذا أعارض القرآن.

وقال عمرو بن عثمان المكى: كنت أماشى الحلاج فى بعض أزقة مكة، وكنت أقرأ القرآن، فسمع قراءتى فقال: يمكننى أن أقول مثل هذا، ففارقته.

صَحَّ عنه أنه دخل إلى الهند وتعلم بها السحر، وقال: أدعو به إلى الله، وكان أهل الهند يكاتبونه بالمغيث، ويكاتبه أهل سركسان بالمقيت، وأهل خراسان بالمميز، وأهل فارس بأبى عبد الله الزاهد، وأهل خوزستان بحلَّاج الأسرار، وكان بعض البغدادة يقولون له: المصطلم، وأهل البصرة يقولون له: المحير.

وكتب عمرو بن عثمان إلى الآفاق كتبًا كثيرة يلعنه فيها، ويحذر الناس منه، فشُرِّد الحلاج فى البلاد، فعاث يمينًا وشمالًا، وجعل يُظهر أنه يدعو إلى الله، ويستعين بأنواع من الحيل، ولم يزل ذلك دأبه وشأنه حتى أحلَّ الله به بأسه الذى لا يُرد عن القوم المجرمين، فقتله بسيف الشرع الذى لا يقع إلا بين كتفى زنديق، والله أعدل من أن يسلطه على صِدِّيق، فكيف وقد تهجَّم على القرآن العظيم، وقد أراد معارضته فى البلد الحرام حيث نزل به جبريل، وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ

أَلِيمٍ ﴾[١]، ولا إلحاد أعظم من هذا، وقد أشبه الحلاج كفار قريش فى معاندتهم، كما قال تعالى عنهم: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾[٢].

قال سفيان بن عُيينة: من فسد من علمائنا كان فيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا كان فيه شبه من النصارى، ولهذا دخل على الحلاج الحلول فصار من أهل الانحراف.

وقَالَ لَهُ الجُنَيد: أَى خَشَبَةٍ تُفْسِدُهَا؟ يريد أَنَّهُ يُصْلَب.

وقَالَ عنه إِبْرَاهِيمَ بنَ شَيبَان: مَنْ أَحَبَّ أَنْ ينظُر إِلَى ثمرَات الدَّعَاوى الفَاسِدَة فلينْظُرْ إِلَى الحَلاَّج وَمَا صَارَ إِلَيهِ.

وكان يقول: مَا انفصَلَتِ البشريةُ عَنْهُ، وَلاَ اتَّصلت بِهِ.

قال الذهبيُّ: وَكَانَ يصحِّح حَالَه ابنُ عَطَاءٍ، وَمُحَمَّدُ بنُ حفِيف، وَإِبْرَاهِيمُ أَبُو القَاسِمِ النَّصْر آباذِى.

وَتبرأَ مِنْهُ سَائِرُ الصُّوْفِية وَالمَشَايخ وَالعُلَمَاء لِمَا سترَى مِنْ سوء سِيرتِهِ وَمُروقه ... وَمِنْهُم مِنْ نَسَبَهُ إِلَى الحُلول، وَمِنْهُم مَنْ نَسبَهُ إِلَى الزَّنْدَقِةِ، وَإِلَى الشَّعْبَذَةِ وَالزَّوكرَة، وَقَدْ تَسْتَّر بِهِ طَائِفَةٌ مِنْ ذوِى الضَّلال وَالانحلاَل، وَانتحلُوهُ وَروَّجُوا بِهِ عَلَى الجُهَّال.

* لما أَحْضرَهُ الوَزِيرُ عَلِى بنُ عِيسَى فَلَمْ يجده يُحْسِنُ القُرْآن وَالفِقْه وَلاَ الحَدِيثَ، فَقَالَ: تعلُّمُكَ الفرضَ وَالطَّهور أَجدَى عَلَيكَ مِنْ رَسَائِلِ لاَ تَدْرِى مَا تَقُولُ فِيهَا، كَمْ تَكْتُبُ ... -وَيلَك- إِلَى النَّاس: تبَاركَ ذُو النُّوْرِ

(١) سورة الحج: الآية: (٢٥).

(٢) سورة الأنفال: الآية: (٣١).

الشَّعْشَعَانِى؟! مَا أَحْوَجَكَ إِلَى أَدب! وَأَمَرَ بِهِ فصُلب، وَوُجد فِى كُتُبِه: إِنِّى مُغْرِقُ قَوْم نوح، وَمُهْلِك عَادًا وَثمود.

وَكَانَ يقُوْلُ لِلْوَاحِد مِنْ أَصْحَابه: أَنْتَ نُوح، وَلآخر: أَنْتَ مُوْسَى، وَلآخر: أَنْتَ مُحَمَّد.

وَجَدُوا كِتَابًا لِلْحلاَّج عنوَانُهُ: مِنَ الرَّحْمَن الرَّحِيم إِلَى فُلاَن بن فُلاَن، فَوُجِّه إِلَى بَغْدَادَ فَأُحضرَ وَعُرض عَلَيهِ، فَقَالَ: هَذَا خَطِّى وَأَنَا كَتَبْتُهُ، فَقَالُوا: كُنْتَ تَدَّعِى النُّبُوَّة، صِرْتَ تَدَّعِى الرُّبوبية؟! قَالَ: لاَ، وَلَكِن هَذَا عينُ الجَمْعِ عِنْدنَا، هَل الكَاتِب إلَّا الله وَأَنَا؟ فاليد فِيهِ آلَة.

من كلمات هذا الزِّنديق: أُنزِّهك عَمَّا قَرفَكَ بِهِ عبَادُك، وَأبرأُ إِلَيكَ مِمَّا وَحَّدكَ بِهِ الموحِّدُوْنَ. قَالَ الذَّهَبِيُّ: هَذَا عينُ الزَّنْدَقَةِ.

وَرَد فى الطواسين للحلاج أنه قال:

ألَا أبلــغ أحبــائى بــأنى	ركبـت البحـر وانكسر السفينه
علـى ديـن الصليب يكـون مـوتى	فـلا البطحـا أريـد ولا المدينـه

فصُلب ... جزاءً وفاقًا.

مَاتَ الحَلَّاج فى جَامِعِ الدِّينَوَرِ وَمَعهُ جَمَاعَةٌ، فَسَأَلَهُ وَاحِدٌ مِنْهُم، فَقَالَ: يا شَيخُ! مَا تَقُوْلُ فِيمَا قَالَ فِرْعَوْنُ؟ قَالَ: كَلِمَةَ حَقٍّ. قَالَ: فَمَا تَقُوْلُ فِيمَا قَالَ مُوْسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ؟ قَالَ: قَالَ: كَلِمَة حَقٍّ؛ لأَنَّهُمَا كَلِمَتَانِ جَرَتَا فِى الأَبَدِ كَمَا أُجْرِيتَا فِى الأَزَلِ[١].

قَالَ: مَا وَحَّدَ اللهَ غَيرُ اللهِ. وقَالَ: الكُفْرُ وَالإِيمَانُ يفْتَرِقَانِ مِنْ حَيثُ الاسْمُ، فَأَمَّا مِنْ حَيثُ الحَقِيقَةُ، فَلاَ فَرْقَ بَينَهُمَا.

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٥٤).

وَعَنْ جُنْدُبِ بنِ زَاذَانَ -تِلْمِيذِ الحلَّاجِ- قَالَ: كتب الحسين إليَّ: السَّلاَمُ عَلَيكَ يا وَلِدِى، سَتَرَ اللهُ عَنْكَ ظَاهِرَ الشَّرِيعَةِ، وَكَشَفَ لَكَ حَقِيقَةَ الكُفْرِ، فَإِنَّ ظَاهِرَ الشَّرِيعَةِ كُفْرٌ، وَحَقِيقَةَ الكُفْرِ مَعْرِفَةٌ جَلِيةٌ، وَإِنِّى أُوصِيكَ أَنْ لاَ تَغتَرَّ بِاللهِ، وَلاَ تَيأَسْ مِنْهُ، وَلاَ تَرْغَبْ فِى مَحَبَّتِه، وَلاَ تَرضَى أَنْ تَكُونَ غَيرَ مُحِبٍّ، وَلاَ تَقُلْ بِإِثبَاتِه، وَلاَ تَمِلْ إِلَى نَفيهِ، وَإِياكَ وَالتَّوحِيدَ، وَالسَّلاَمَ[1].

كيف كانت نهايته

قال ابن عقيل: قد قُتل بإجماع فقهاء عصره، فأصابوا وأخطأ هو وحده.

*** صفة مقتل الحلاج:**

قَالَ الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِى وَغَيرُهُ: كَانَ الْحَلَّاجُ قَدْ قَدِمَ آخِرَ قَدْمَةٍ إِلَى بَغْدَادَ فَصَحِبَ الصُّوفِيةَ وَانْتَسَبَ إِلَيهِمْ، وَكَانَ الْوَزِيرَ إِذْ ذَاكَ حَامِدُ بْنُ الْعَبَّاسِ، فَبَلَغَهُ أَنَّ الْحَلَّاجَ قَدْ أَضَلَّ خَلْقًا مِنَ الْحَشَمِ وَالْحُجَّابِ فِى دَارِ السُّلْطَانِ، وَمِنْ غِلْمَانِ نَصْرِ الْقُشُورِى الْحَاجِبِ، وَجَعَلَ لَهُمْ فِى جُمْلَةِ مَا ادَّعَاهُ أَنَّهُ يُحْيِى الْمَوْتَى، وَأَنَّ الْجِنَّ يَخْدِمُونَهُ وَيحْضِرُونَ له ما شاء. وقال: إنه أحيا عدة من الطير، وسُلِّم إلى الوزير حامد بن العباس، فحبسه فى قيود كثيرة فى رجليه، وجمع له الفقهاء فأجمعوا على كفره وزندقته وأنه ساحر ممخرق.

ولما كان آخر مجلس، أحْضرَ الوزير حامد بن العباس، أبا عُمَرَ مُحَمَّدُ ابْنُ يوسُفَ وجىء بِالْحَلَّاجِ، وَقَدْ أُحْضِرَ لَهُ كِتَابًا مِنْ دُورِ بَعْضِ أَصْحَابِهِ، وَفِيهِ: وَمَنْ أَرَادَ الْحَجَّ وَلَمْ يتيَسَّرْ لَهُ، فليبن في داره بيتًا لا يناله شيء من النجاسة، ولا يُمكِّن أحدًا من دخوله فَإِذَا كَانَ فِى أَيام الْحَجِّ فَلْيصُمْ ثَلاَثَةَ أَيامٍ وَلْيطُفْ بِهِ كَمَا يُطَافُ بالكعبة ثُمَّ يفْعَلُ فِى دَارِهِ مَا يفْعَلُهُ الْحَجِيجُ بِمَكَّةَ،

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٥٢-٣٥٣).

ثُمَّ يسْتَدْعِى بِثَلَاثِينَ يتِيمًا فَيُطْعِمُهُمْ مِنْ طَعَامِهِ، وَيتَوَلَّى خِدْمَتَهُمْ بِنَفْسِهِ، ثُمَّ يكْسُوهُمْ قَمِيصًا قَمِيصًا، وَيعْطِى كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سَبْعَةَ دَرَاهِمَ، فإن فَعَلَ ذَلِكَ قَامَ لَهُ مَقَامَ الْحَجِّ، وَإِنَّ مَنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيام لَا يُفْطِرُ إِلَّا فِى الْيوْمِ الرَّابِعِ عَلَى وَرَقَاتِ هِنْدَبَا أَجْزَأَهُ ذَلِكَ عَنْ صِيام رَمَضَانَ.

وَمَنْ صَلَّى فِى لَيلَةٍ رَكْعَتَينِ مِنْ أَوَّلِ اللَّيلِ إِلَى آخِرِهِ أَجْزَأَهُ ذَلِكَ عَنِ الصَّلَاةِ بَعْدَ ذَلِكَ.

وَأَنَّ مَنْ جاور بمقابر الشهداء وبمقابر قُرَيشٍ عَشَرَةَ أَيام يصَلِّى وَيدْعُو وَيصُومُ ثُمَّ لا يفطر إلا على شىء مِنْ خُبْزِ الشَّعير وَالْمِلْحِ الْجَرِيشِ أَغْنَاهُ ذَلِكَ عَنِ الْعِبَادَةِ فِى بَقِيةِ عُمُرِهِ.

فَقَالَ لَهُ الْقَاضِى أَبُو عُمَرَ: مِنْ أَينَ لَكَ هَذَا؟ فَقَالَ: مِنْ كِتَابِ الْإِخْلَاصِ لِلْحَسَنِ الْبَصْرِى.

فَقَالَ لَهُ: كَذَبْتَ يا حَلَالَ الدَّمِ، قَدْ سَمِعْنَا كتاب الإخلاص للحسن بمكة ليس فيه شىء من هذا.

فأقبل الوزير على القاضى فَقَالَ لَهُ: قَدْ قُلْتَ يا حَلَالَ الدَّمِ فَاكْتُبْ ذَلِكَ فِى هَذِهِ الْوَرَقَةِ، وَأَلَحَّ عَلَيهِ وَقَدَّمَ لَهُ الدَّوَاةَ فَكَتَبَ ذَلِكَ فِى تِلْكَ الْوَرَقَةِ، وَكَتَبَ مَنْ حَضَرَ خُطُوطَهُمْ فِيهَا وَأَنْفَذَهَا الْوَزِيرُ إِلَى الْمُقْتَدِر.

فَجَاءَ الْجَوَابُ بِأَنْ يُسَلَّمَ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الصمد صاحب الشرطة.

وليضربه أَلْفَ سَوْطٍ، فَإِنْ مَاتَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ.

وبُعث به إليه وهو رَاكِبٌ عَلَى بَغْلٍ عَلَيهِ إِكَافٌ وَحَوْلَهُ جَمَاعَةٌ مِنْ أَعْوَانِ السِّياسَةِ، عَلَى مِثْلِ شَكْلِهِ، فَاسْتَقَرَّ مَنْزِلُهُ بِدَارِ الشُّرْطَةِ فِى هَذِهِ اللَّيلَةِ، فذكر أنه بات يصلى تلك اللَّيلَةِ وَيدْعُو دُعَاءً كَثِيرًا.

قَالُوا: وَلَمَّا أُخْرِجَ الْحَلَّاجُ مِنَ الْمَنْزِلِ الَّذِى بَاتَ فِيهِ لِيُذْهَبَ بِهِ إِلَى الْقَتْلِ أَنْشَدَ:

طَلَبْتُ الْمُسْتَقَرَّ بِكُلِّ أَرْضٍ فَلَمْ أَرَ لِى بِأَرْضٍ مُسْتَقَرَّا

وذُقت من الزمان وذاق منى وجدت مذاقه حلوًا ومُرّا

أَطَعْتُ مَطَامِعِى فَاسْتَعْبَدَتْنِى وَلَوْ أَنِّى قَنَعْتُ لَعِشْتُ حُرَّا

فلما أخرجوه للصَّلب مشى إليه وَهُوَ يتبَخْتَرُ فِى مِشْيتِهِ وَفِى رِجْلَيهِ ثَلَاثة عَشَرَ قَيدًا وَجَعَلَ ينْشِدُ وَيتَمَايلُ:

نَدِيمِى غَيرُ منسوب إلى شىء من الحيف

فلما دارت الكأس دعا بالنطع والسيف

سَقَانِى مِثْلَ مَا يشْرَبُ فِعْلَ الضَّيفِ بالضيف

كَذَا مَنْ يشْرَبُ الرَّاحَ مَعَ التِّنِّينِ فِى الصَّيفِ

ثم قدم فضُرب ألف سوط، ثم قُطعت يداه ورجلاه، وهو فى ذلك كله ساكت، ما نطق بكلمة ولم يتغير لونه.

ثُمَّ قُدِّمَ فَضُرِبَ أَلْفَ سَوْطٍ ثُمَّ قُطِعَتْ يدَاهُ وَرِجْلَاهُ وَهُوَ فِى ذَلِكَ كُلِّهِ سَاكِتٌ مَا نَطَقَ بِكَلِمَةٍ، وَلَمْ يتَغَيرْ لَوْنُهُ.

وقال الخطيب: قَالَ لَنَا أَبُو عُمَرَ بْنُ حَيوَيهِ: لَمَّا أُخرج الحسين بن منصور الْحَلَّاجُ لِيُقْتَلَ مَضَيتُ فِى جُمْلَةِ النَّاسِ، وَلَمْ أزل أزاحم حتى رأيته فدنوت منه فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: لَا يهُولَنَّكُمْ هَذَا الْأَمْرُ، فَإِنِّى عَائِدٌ إِلَيكُمْ بَعْدَ ثَلَاثِينَ يوْمًا. ثُمَّ قُتِلَ فما عاد.

قال الذهبى: هَذِهِ حِكَايةٌ صَحِيحَةٌ تُوضِّحُ لَكَ أَنَّ الحَلاَّجَ مُمَخْرِقٌ

كَذَّابٌ، حَتَّى عِنْدَ قتلِه[١]، ثم قطعت يدَاهُ وَرِجْلَاهُ وَحُزَّ رَأْسُهُ وَأُحْرِقَتْ جُثَّتُهُ وَأُلْقِى رمادها فِى دِجْلَةَ، وَنُصِبَ الرَّأْسُ يوْمَينِ بِبَغْدَادَ عَلَى الْجِسْرِ، ثُمَّ حُمِلَ إِلَى خُرَاسَانَ وَطِيفَ بِهِ فِى تِلْكَ النَّوَاحِى.

قال الإمام الفقيه المحدث بقية السلف - كما يقول الذهبى - ابن أيوب:

لا شك أن الحجَّاج قتل من العلماء خلائق يتعسر حصرهم، وشتَّت شملهم وأبادهم، وقتل سعيد بن جبير، وأهل الأرض محتاجون إلى علمه، وخلعه العلماء وخرجوا عليه، وقاتلوه، ومع هذا كله لم يقل أحد منهم: إنه كافر، بل قالوا: إنه من عصاة المسلمين، لا تحل إمرته لذلك.

والحلاج ما تعرض لأحد من أهل العلم بأذى فى دنياه، وأجمع جميع أهل زمانه منهم على كفره، واستباحة دمه، فلو كان العلماء يقولون بالهوى، لقالوا فى الحجاج الذى ما ترك نوعًا من الأذى حتى رماهم به، فثبت أنهم لا يقولون بالهوى. اهـ.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٣٤٦)، نقلًا عن (الجزاء من جنس العمل).

المختار بن أبي عُبيد الثقفي

وها هو المختار بن أبى عُبيد الثقفى الكذَّاب الذى كان فى بداية أمره ناصبيًّا يبغض عليًّا بُغضًا شديدًا، ثم ادَّعى التشيُّع، وتتبع قَتلة الحسين ومن شهد الوقعة بكربلاء، وطابت نفس المختار بالمُلك، وظن أنه لم يبقَ له عدوّ ولا منازع.

سلَّطه الله على قتلة الحسين، وهو الكذَّاب الذى قال فيه الرسول ﷺ: «**إنَّه سيكون فى ثقيف كذاب ومُبير**». فهذا هو الكذاب،... ولفظ مسلم: «**إن فى ثقيف كذابًا ومبيرًا**».

وقد ذكر العلماء أن المختار كان يُظهر التشيع ويُبطن الكهانة، وأسرَّ إلى أخصائه أنه يُوحَى إليه. وكان قد وضع له كرسى يعظم ويحفّ به الرجال، ويُستر بالحرير، ويُحمل على البغال، وكان يضاهى به تابوت بنى إسرائيل المذكور فى القرآن.

ولم يكن المختار فى نفسه صادقًا، بل كان كاذبًا يزعم أن الوحى يأتيه على يد جبريل.

وروى الإمام أحمد عن رفاعة القبانى قال: دخلت على المختار فألقى لى وسادة، وقال: لولا أن أخى جبريل قام عن هذه لألقيتها لك.

وروى الطبرانى من طريق أنيسة بنت زيد بن الأرقم أن أباها دخل على المختار بن أبى عبيد، فقال له: يا أبا عامر، لو شفت رأى جبريل وميكائيل، فقال له زيد: خسرت وتعست، أنت أهون على الله من ذلك، كذاب مُفترٍ على الله ورسوله.

وقد قيل لابن عمر: إن المختار يزعم أن الوحى يأتيه، فقال: صدق، قال

تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾[1].

وروى ابن أبى حاتم عن عكرمة قال: قدمت على المختار فأكرمنى وأنزلنى عنده، وكان يتعاهد مبيتى بالليل، قال: فقال لى: اخرج فحدّث الناس، قال: فخرجت، فجاء رجل فقال: ما تقول فى الوحى؟ فقلت: الوحى وحيان، قال الله تعالى: ﴿بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾[3]، قال: فهمُّوا أن يأخذونى، فقلت: ما لكم وذاك! إنى مفتيكم وضيفكم. فتركونى، وإنما أراد عكرمة أن يعرِّض بالمختار وكذبه فى ادعائه أن الوحى ينزل عليه.

وروى ابن جرير بإسناده إلى طفيل بن جعدة بن هبيرة قال: أَعْدَمْتُ مَرَّةً من الورق فإنى كذلك إذ مررت بباب رجل هو جَار لِى لَهُ كُرْسِى قَدْ رَكِبَهُ وَسَخٌ شديد، فخطر فى بَالِى أَنْ لَوْ قُلْتُ فِى هَذَا، فَرَجَعْتُ فَأَرْسَلْتُ إِلَيهِ أَنْ أَرْسِلْ إِلَىَّ بِالْكُرْسِى، فَأَرْسَلَ بِهِ، فَأَتَيتُ الْمُخْتَارَ فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّى كُنْتُ أَكْتُمُكَ شَيئًا وَقَدْ بَدَا لِى أَنْ أَذْكُرَهُ إليك، قَالَ: وَمَا هُوَ؟ قَالَ: قُلْتُ كُرْسِىّ كَانَ جعدة ابن هبيرة يجلس عليه كأنه كان يرَى أَنَّ فِيهِ أَثَرَةً مِنْ عِلْمٍ.

قَالَ: سبحان الله! ! فلِمَ أخرت هذا إلى اليوم؟ ابعثه إلىَّ، قَالَ: فَجِئْتُ بِهِ وَقَدْ غُسِلَ فَخَرَجَ عُودًا ناضرًا وقد شرب الزَّيتَ، فَأَمَرَ لِى بِاثْنَى عَشَرَ أَلْفًا، ثُمَّ نُودِى فِى النَّاس الصَّلاة جَامِعَةً، قَالَ: فَخَطَبَ الْمُخْتَارُ النَّاس فَقَالَ: إنَّه لَمْ يكُنْ فِى الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ أَمْرٌ إِلَّا وَهُوَ كَائِنٌ فِى هَذِهِ الْأُمَّةِ مِثْلُهُ، وَإِنَّهُ قَدْ كَانَ

---

(١) سورة الأنعام: الآية (١٢١).

(٢) سورة يوسف: الآية (٣).

(٣) سورة الأنعام: الآية (١١٢).

فِى بنى إسرائيل تابوت يستنصرون بِهِ، وَإِنَّ هَـذَا مِثْلُهُ، ثُـمَّ أَمَرَ فَكُشِفَ عنه أثوابه وقامت السبئية فَرَفَعُوا أَيدِيهُمْ وَكَبَّرُوا ثَلاثًا، فَقَامَ شَبَثُ بْنُ رِبْعِى فَأَنْكَرَ عَلَى النَّاسِ وَكَادَ أَنْ يُكَفِّر مَنْ يصْنَعُ بِهَذَا التَّابُوتِ هَذَا التَّعْظِيمَ.

وَأَشَارَ بأن يُكسر ويُخرج من المسجد ويُرمَى فى الخنس، فَشَكَرَهَا النَّاسُ لِشَبَثِ بْنِ رِبْعِى، فَلَمَّا قِيلَ: هَـذَا عُبَيْدُ اللهِ بْنُ زِيادٍ قَدْ أَقْبَلَ، وبعث المختار ابن الْأَشْتَرِ، بَعْثَ مَعَهُ بِالْكُرْسِى يُحْمَلُ عَلَى بَغْلٍ أَشْهَبَ قَدْ غُشِّى بِأَثْوَابِ الْحَرِيرِ، عَنْ يمِينِهِ سَبْعَةٌ وَعَنْ يسَارِهِ سَبْعَةٌ، فَلَمَّا تواجهوا مع الشاميين وغلبوا الشاميين وقتلوا ابن زياد ازداد تعظيمهم لهذا الكرسى حتى بلغوا به الكفر،... قال الطفيل بن جعدة: فقلت: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، وندمت على ما صنعت.

وقد قال فى هذا الكرسى أعشى همدان:

شهدت عليكم أنكم سبائية ... وأنى بكم يا شرطة الشركِ عارفُ
وأقسم ما كرسيكم بسكينة ... وإنْ كان لقد لُفّت عليه اللفائفُ
وأن ليس كالتابوت فينا وإنْ سعت ... شبام حواليه ونهد وخارفُ (١)
وإنى امرؤ أحببت آل محمد ... وتابعت وحيًا ضمنته المصاحفُ

وقال المتوكل الليثى:

أبلغ أبا إسحاق إن جئته ... أنى بكرسيكمْ كافر
تنزوا شبام -ـول أعواده ... وتحملُ الوحى له شاكر
محمّرة أعينهم حوله ... كأنهن الحمصُ الحادرُ

وهذا وأمثاله مما يدل على قلة عقل المختار وأتباعه، وضعفه وقلة

---

(١) شبام: رضع، نهد: الفتاة الناهد، خارف: عجوز.

علمه، وكثرة جهله، ورداءة فهمه، أو ترويجه الباطل على أتباعه، وتشبيهه الباطل بالحق، ليضل به الطغام، ويجمع عليه جُهّال العوام.

قال عبد القاهر البغدادى: لما تمت ولاية الكوفة والجزيرة والعراقين إلى حدود أرمينية تكهَّن بعد ذلك، وسجع كأسجاع الكهنة.

ثم إن المختار خدعته السبئية الغلاة من الرافضة، فقالوا له: أنت حجة هذا الزمان، وحملوه على دعوى النبوة، فادَّعاها عند خواصه، وزعم أن الوحى ينزل عليه.

ثم إن أهل الكوفة خرجوا على المختار لما تكهن، واجتمعت السبئية إليه مع عَبيد أهل الكوفة؛ لأنه وعدهم أن يعطيهم أموال ساداتهم، وقاتل بهم الخارجين عليه، فظفر بهم، وقتل منهم الكثير، وأسر جماعة منهم، وكان فى الأُسَرَاء رجل يقال له: سُراقة بن مرداس البارقى، فقُدِّم إلى المختار، وخاف البارقى أن يأمر بقتله، فقال للذين أسروه وقدّموه إلى المختار: ما أنتم أسرتمونا ولا أنتم هزمتمونا بعدَّتكم، وإنما هزمنا الملائكة الذين رأيناهم على الخيل البُلْق فوق عسكركم، فأعجب المختار قوله هذا، فأطلق عنه، فلحق بمصعب بن الزبير بالبصرة، وكتب منها إلى المختار هذه الأبيات:

ألا أبلغ أبا إسحاق عنى ... رأيت البُلْق دُهْمًا مُصْمتاتِ

أُرى عينىَّ ما لم تنظراه ... كلانا عالم بالترهاتِ

كفرت بوحيكم وجعلتُ نذرًا ... على قتالكم حتّى المماتِ

وفى هذا الذى ذكرناه بيان سبب كهانة المختار ودَعْواه الوحى إليه.

وأما سبب قوله بجواز البداء على الله؛ أنه قد وعد أصحابه بالنصر على

جيش مصعب، فلما هُزموا قال له: لماذا تعدنا بالنصر على عدونا؟!! فقال: إن الله كان قد وعدنى ذلك، لكنه بدا له.

ثم إن المختار باشر قتال مصعب بن الزبير بنفسه بالمذار من ناحية الكوفة، وقتل فى تلك الواقعة محمد بن الأشعث الكِندى. قال المختار: طابت نفسى بقتله أن لم يكن بقى من قَتَلة الحسين غيره، ولا أبالى بالموت بعد هذا. ثم وقعت بالهزيمة على المختار وأصحابه.

وأشار إليه جماعة من أساورته بأن يدخل القصر دار إمارته، فدخله وهو ملوم مذموم، وعن قريب ينفذ فيه بالقدر المحتوم، فحاصره مصعب فيه وجميع أصحابه حتى أصابهم من جهد العطش ما الله به عليم، وضيَّق عليهم المسالك والمقاصد، وانسدَّت عليهم أبواب الحيل، وليس فيهم رجل رشيد ولا حليم، ثم جعل المختار يجيل فكرته، ويكرر رويته فى الأمر الذى قد حلّ به، واستشار مَن عنده فى هذا السبب السيئ الذى قد اتصل سببه بسببه من الموالى والعبيد، ولسان الشرع يناديه: ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾[1].

ثم قوى عزمه قوة الشجاعة المركبة فيه، على أن أخرجته من بين من كان يحالفه ويواليه، ورأى أن يموت على فرسه، حتى يكون عليها انقضاء آخر نفسه، فنزل حمية وغضبًا، وشجاعة وكَلَبًا، وهو مع ذلك لا يجد مَناصًا ولا مَفرًّا ولا مَهربًا وليس معه من أصحابه سوى تسعة عشر، ولعله إن كان قد استمر على ما عاش عليه أن لا يفارقه التسعة عشر الموكلون بسقر، ولما خرج من القصر تقدم إليه رجلان شقيقان أخوان وهما طرفة وطراف ابنا

(١) سورة سبأ: الآية (٤٩).

عبد الله بن دجاجة من بني حنيفة، فقتلاه، واحتزَّا رأسه، وأتيا به إلى مصعب ابن الزبير وقد دخل قصر الإمارة، فوُضع بين يديه، كما وضع رأسه ابن زياد بن بيدى المختار، وكما وضع رأس الحسين بين يدى ابن زياد، وكما سيوضع رأس مصعب بين يدى عبد الملك بن مروان.

يقول أعشى همدان:

لقد نبئت والأنباء تَنْمى ... بما لاقى الكوارث بالمذارِ

وما إنْ سرنى إهلاك قومى ... وإن كانوا وحَقِّك فى خَسَارِ

ولكنى سُررت بما يلاقى ... أبو إسحاق من خزيٍ وعارِ

وأراح الله المسلمين من هذا الضال المضل، بعد ما انتقم به من قوم آخرين من الظالمين ... وذهب المختار إلى مزبلة التاريخ، بعد أن نُعت بالكذاب على لسان رسول الله ﷺ، ... وكل صاحب فرية ذليل فى الدارين[1].

* * *

(١) الجزاء من جنس العمل (١/ ٣٨٣ - ٣٨٦) بتصرف.

الخبيث صاحب الزنج

المُدَّعى أنه طالبى وهو كاذب. دخل جيش البصرة سنة ٢٥٧ هـ، فقَتل من أهلها خلقًا، وأحرق الزنج جامع البصرة ودورًا كثيرة وانتهبوها، ثم نادى فيهم إبراهيم بن المهلبى أحد أصحاب الزنجى: من أراد الأمان فليحضر، فاجتمع عنده خلقٌ كثير من أهل البصرة، فرأى أنه قد أصاب فرصة فغدر بهم، وأمر بقتلهم، فلم يفلت منهم إلا الشاذّ، كانت الزنج تحيط بجماعة من أهل البصرة، ثم يقول بعضهم لبعض: كيلوا - وهى الإشارة بينهم إلى القتل - فيحملون عليهم بالسيوف فلا يسمع إلا تشهدهم، وضجيجهم وهم يقتلون؛ أى: صراخ الزنج وضحكهم، فإنَّا لله وإنا إليه راجعون، وهكذا كانوا يفعلون فى كل محال بالبصرة فى عدة أيام نَحِسات، وهرب الناس منهم كل مهرب، وحرقوا الكلأ من الجبل إلى الجبل، فكانت النار تحرق ما وجدت من شىء من إنسان أو بهيمة أو آثار أو غير ذلك، وأحرقوا المسجد الجامع، وقتلوا جماعة كثيرة من الأعيان والمحدثين والعلماء.

روى ابن جرير عمَّن سمعه يقول: دعوت الله على أهل البصرة، فخوطبت، فقيل: إنما أهل البصرة خبزة لك تأكلها من جوانبها، فإذا انكسر نصف الرغيف خربت البصرة، فأولت الرغيف القمر وانكساره انكسافه، وقد كان هذا شائعًا فى أصحابه حتى وقع الأمر طبق ما أخبر به.

*** وقال ابن كثير:**

ولا شك أن هذا كان معه شيطان يخاطبه، كما كان يأتى الشيطان مسيلمة وغيره. قال: ولمَّا وقع من الزنج بأهل البصرة ما وقع، قال هذا

الخبيث لمن معه: إنى صبيحة ذلك دعوت الله على أهل البصرة، فرُفعت لى البصرة بين السماء والأرض، ورأيت أهلها يُقتلون، ورأيت الملائكة تقاتل مع أصحابى، وإنى لمنصور على الناس، والملائكة تقاتل معى، وتثبت جيوشى، ويؤيدونى فى حروبى.

وبعد أن عاث فى الأرض فسادًا وقتل من قتل، كتب إليه ولى عهد المسلمين الموفق أخو الخليفة المعتمد: ودعاه إلى الحق، فلم يُجبه استهانة به، فركب إليه من فوره فى جيوشٍ عظيمة، قريب من خمسين ألف مقاتل، قاصدًا إلى المختارة مدينة صاحب الزنج وجرت بينهم حروب عظيمة، وما زالت الحروب ناشبة حتى انسلخت السنة وهم محاصرون للخبيث صاحب الزنج، وظفر الموفق ببهبوذ بن عبد الله فقتله، وكان ذلك من أكبر الفتح عند المسلمين، وأعظم الرزايا عند الزنج، وخرَّب الموفق بالله مدينة صاحب الزنج، واحتاز ما كان بها من الأموال، وقتل من كان بها من الرجال، وسبى من وجد فيها من النساء والأطفال، ولما فرّ الخبيث وتحصن ببلدة أخرى أخرجوه منها ذليلًا، ثم بعث السرايا والجيوش وراء صاحب الزنج، فأسروا عامة من كان معه من خاصته وجماعته، منهم سليمان بن جامع، فاستبشر الناس بأسره، وكبروا الله وحمدوه فرحًا بالنصر والفتح، وحمل الموفق بمن معه حملة واحدة على أصحاب الخبيث، فاستحرَّ فيهم القتل، وما انجلت الحرب حتى جاء البشير بقتل صاحب الزنج وأتى برأسه مع غلام لؤلؤة الطولونى، فلما تحقق الموفق أنه رأسه بعد شهادة الأمراء الذين كانوا معه من أصحابه خَرَّ ساجدًا لله، وسجد ابن الموفق وقواده، ومواليه وغلمانه شكرًا لله، وأكثروا حمد الله والثناء عليه،

وأمر الموفق برفع رأس الخبيث على قناة، ونصبه بين يديه فتأمله الناس، وعرفوا صحة الخبر، فارتفعت أصواتهم بالحمد لله، وكان يومًا مشهودًا، وفرح المسلمون بذلك فى المغارب والمشارق، وجىء بولده بانكلانى وأبان بن على المهلبى مُسعِّر حربهم مأسورين، ومعهما قريب من خمسة آلاف أسير، فتم السرور.

وسار الموفق إلى بغداد، وقدّم ولده أبا العباس بين يديه، ومعه رأس الخبيث يُحمل ليراه الناس، وكان يومًا مشهودًا، وانتهت أيام صاحب الزنج المدعى الكذاب قبحه الله، وللشعراء فيما كان من أمر الموفق، وأمر المخذول أشعار كثيرة منها:

أقول وقد جاء البشير بوقعة ... أعزَّت من الإسلام ما كان واهيا
جزى الله خير الناس للناس بعدما ... أُبيح حماهم خيرَ ما كان جازيا
تفرّد إذ لم ينصر الله ناصرٌ ... بتجديد دين كان أصبح باليا
وتشديد ملك قد وهَى بعد عزِّه ... وإدراك ثاراتٍ تُبير الأعاديا
وردّ عمارات أُزيلت وأُخربت ... ليرجع فىء قد تُخرِّم وافيا
ويرجع أمصار أُبيحت وأُحرقت ... مرارًا فقد أمست قواءً عوافيا
ويشفى صدور المؤمنين بوقعة ... يقرُّ بها منا العيون البواكيا
ويتلى كتاب الله فى كل مسجدٍ ... ويُلقى دعاءَ الطالبين خاسيا

وقال آخر:

أين نجوم الكاذب المارقِ ... ما كان بالطِّبِّ ولا الحاذقِ
صبحه بالنحس سعدٌ بدا ... لسيدٍ فى قوله صادقِ

وذاق من كأس الرَّدَى شربةً   كريهة الطعم على الذائقِ

وقال آخر:

يهوى إلى حَرّ الجحيم وقعرها   بسلاسل قد أوهنته ثقالِ

هذا بما كسبت يداهُ وما جنى   وبما أتى من سيئ الأعمال[1]

والجزاء من جنس العمل[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) تاريخ الطبرى (٥/ ٢٧٥ - ٢٨٨)، البداية والنهاية (١١/ ٤٥ - ٤٨).

(٢) الجزاء من جنس العمل (٢/ ١٨٢ - ١٨٥).

ابن الراوندي الزنديق

وها هى نهاية زنديق آخر من الزنادقة:

* قال الذهبى عنه:

الملحد، عدو الدين، الرِّويندى، صاحب التصانيف فى الحط على الملة.

* وقال ابن الجوزى:

كنت أسمع عنه بالعظائم، حتى رأيت له ما لم يخطر على قلب، ورأيت له كتاب: نعت الحكمة، وكتاب: قضيب الذهب، وكتاب: الزمردة، وكتاب: الدامغ الذى نقضه عليه الجبائى، ونقض عبد الرحمن بن محمد الخياط عليه كتاب الزمردة.

* قال ابن كثير:

أحد مشاهير الزندقة، كان أبوه يهوديًا، فأظهر الإسلام، ويقال: إنه حرف التوراة، كما عادى ابنه القرآن بالقرآن، وألحد فيه، وصنَّف كتابًا فى الرد على القرآن سمَّاه: الدامغ، وكتابًا فى الرد على الشريعة، والاعتراض عليها سمَّاه: الزمردة، وكتابًا يقال له: التاج فى معنى ذلك.

قال الجبائى: قرأت كتاب هذا الملحد الجاهل السفيه ابن الراوندى، فلم أجد فيه إلا السَّفه والكذب والافتراء، قال: وقد وضع كتابًا فى قدم العالم، ونفى الصانع، وتصحيح مذهب الدهرية، والرد على أهل التوحيد، ووضع كتابًا فى الرد على محمد رسول الله ﷺ فى سبعة عشر موضعًا، ونسبه إلى الكذب (يعنى: النبى ﷺ) وطعن على القرآن، ووضع كتابًا لليهود والنصارى، وفضَّل دينهم على المسلمين والإسلام، يحتج لهم فيها على

إبطال نبوة محمد ﷺ إلى غير ذلك من الكتب التى تبين خروجه عن الإسلام،... نقل ذلك ابن الجوزى عنه.

وقد أورد ابن الجوزى فى منتظمه طرفًا من كلامه وزندقته، وطَعْنِه على الآيات والشريعة، وردّ عليه فى ذلك، وهو أقل وأخس وأذل من أن يُلتفت إليه، وإلى جهله وكلامه وهذيانه وسفهه وتمويهه، وقد أسند إليه حكايات من المسخرة والاستهتار والكفر والكبائر، منها ما هو صحيح عنه، ومنها ما هو مفتعل عليه ممن هو مثله، وعلى طريقه ومسلكه فى الكفر والتستُّر فى المسخرة، يخرجونها فى قوالب مسخرة، وقلوبهم مشحونة بالكفر والزندقة، وهذا كثير موجود فيمن يدَّعى الإسلام وهو منافق، يتمسخرون بالرسول ودينه وكتابه، وهؤلاء ممن قال الله تعالى فيهم:

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ﴾[١] الآية.

وقد كان أبو عيسى الوراق مصاحبًا لابن الراوندى - قبحهما الله - فلما علم الناس بأمرهما طلب السلطان أبا عيسى، فأُودع السجن حتى مات، وأما ابن الراوندى فلجأ إلى ابن لاوى اليهودى، وصنَّف له فى مدة مقامه عنده كتابه الذى سمَّاه: الدامغ للقرآن، فلم يلبث بعده إلا أيامًا يسيرة حتى مات - لعنه الله - ويقال: إنه أُخذ وصُلب.

* قال أبو الوفاء بن عقيل: ورأيت فى كتاب مُحقَّق أنه عاش ستًّا وثلاثين سنة، مع ما انتهى إليه من التوغل فى المخازى فى هذا العمر القصير، لعنه الله، وقبحه، ولا رحم عظامه[٢].

---

(١) سورة التوبة: الآيتان (٦٥-٦٦).

(٢) البداية والنهاية (١١/ ١٢٠/ ١٢١).

قال ابن الجوزى: كم من زنديق فى قلبه حقد على الإسلام، خرج فبالغ، واجتهد فزخرف دعاوى يلقى بها من يصحبه، وكان غور مقصده فى الاعتقاد الانسلال من الدين، وفى العمل نيل الملذات، واستباحة المحظورات.

ومنهم من لم يبرح على تعثيره، ففاتته الدنيا والآخرة، مثل ابن الراوندى، والمعرِّي.

عن التنوخي قال: كان ابن الراوندي ملازم الرافضة، وأهل الإلحاد، فإذا عوتب قال: إنما أريد أن أعرف مذاهبهم، ثم كاشَف وناظَر.

قال ابن الجوزي: من تأمل حال ابن الراوندي وجده من كبار الملاحدة، وصنَّف كتابًا سماه: الدامغ. زعم أنه يدمغ به هذه الشريعة، فسبحان من دمغه، فأخذه وهو فى شرخ الشباب.

وكان يعترض على القرآن، ويدَّعى عليه التناقض وعدم الفصاحة، وهو يعلم أن فُصحاء العرب تحيرت عند سماعه، فكيف بالألكن [(١)].

قال ابن عقيل: عجبى كيف لم يُقتل؟! وقد صنَّف الدامغ يدمغ به القرآن، والزمردة يزرى فيه على النبوات.

قال ابن الجوزى عن الزمردة: فيه هذيان بارد، لا يتعلق بشبهة!

يقول فيه: إن كلام أكثم بن صيفى فيه ما هو أحسن من سورة الكوثر! وإن الأنبياء وقعوا بطلاسم، وألَّف لليهود والنصارى يحتج لهم فى إبطال نبوة سيد البشر ﷺ.

قال أبو العباس بن القاص الفقيه: كان ابن الراوندى لا يستقر على مذهب ولا نِحلة، حتى صنف لليهود كتاب النصرة على المسلمين لدراهم

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزى ص ١١١ - ١١٢.

أُعطيها من يهود. فلما أخذ المال، رام نقضها، فأعطوه مئتى درهم حتى سكت.

قال فى بعض المعجزات: يقول المنجم كهذا.

وقال: فى القرآن لحن.

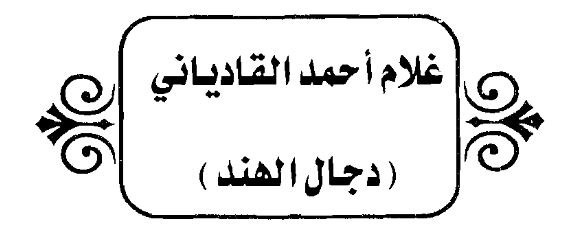
وقال: يقولون: لا يأتى أحد بمثل القرآن. فهذا إقليدس لا يأتى أحد بمثله، وكذلك بطليموس ... قيل: إنه اختلف إلى المبرد فقال المبرد: لو اختلف إلىَّ سَنة لاحتجت أن أقوم وأُجلسه مكانى.

لعن الله الذكاء بلا إيمان، ورضى الله عن البلادة مع التقوى [1].

فكان جزاء الزنديق من جنس عمله، ودمغه الله ولم يمهله بعد ما ألَّف الدامغ جزاءً وفاقًا.

❊ ❊ ❊

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/ ٥٩ - ٦٢).



عميل الإنجليز، الكذاب الدجال،... انظر إلى عقيدته، ثم انظر بعد ذلك إلى نهايته،... يقول المتنبى القاديانى غلام أحمد: قال لى الله: إنى أصلى وأصوم وأصحو وأنام[١] .

ويقول الكذاب: قال الله: إنى مع الرسول أجيب، أخطئ وأصيب، إنى مع الرسول محيط[٢] .

ويقول المتنبى القاديانى بنفسه: قد نُفخ فى روح عيسى، كما نُفِخ فى مريم، وحُبلتُ بصورة الاستعارة، وبعد أشهر لا تتجاوز عن عشرة أشهر، حُولتُ عن مريم، وجُعلتُ عيسى، وبهذا الطريق صرتُ ابن مريم[٣] ؟.

ويقول: إن الله سمَّانى بمريم التى حبلت بعيسى، وأنا المقصود من قوله فى سورة التحريم: ﴿ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا ﴾[٤][٥] .

وعلى هذا الأساس تعتقد القاديانية بأن غلام أحمد هو ابن الله، بل هو عين الله.

* وهؤلاء القاديانية المرتدون يعتقدون أن الله جامَع وباشَر نبيهم غلام

---

(١) البشرى (٢/ ٩٧) للغلام القاديانى.

(٢) البشرى (٢/ ٧٩).

(٣) سفينة نوح ص ٤٧ للغلام القاديانى.

(٤) سورة التحريم: الآية (١٢).

(٥) هامش حقيقة الوحى للغلام ص ٣٣٧.

أحمد، وليس هذا فحسب، بل هو النتيجة أيضًا لهذه المباشرة.

فأولًا: الذى باشره الله هو نبيهم غلام أحمد.

ثانيا: ثم وهو الحامل.

وثالثًا: وهو المولود.

قال القاضى يار محمد القاديانى: إن المسيح الموعود - أى الغلام - بيَّن مرة حالته فقال:إنه رأى نفسه كأنه امرأة وإن الله أظهر فيه قوته الرجولية[١].

يقول المتنبى الكذاب: قال لى الله: أنت من مائنا، وهم من فشل - أى الجبن[٢].

ويقول: خاطبنى الله بقوله: اسمع يا ولدى[٣].

وقال: قال لى الرب: أنت منى، وأنا منك، ظهورك ظهورى[٤].

تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ونريد أن نشير بأن الإله، الذى ادعى القاديانية بأن الغلام ابن له، كان إنكليزيًّا، كما صرح غلام أحمد فيقول: أنا أُلهمت عدة إلهامات فى الإنكليزية.

وفى المرة الأخيرة أُلهمت: «I can what I Will do» يعنى أنا أعمل ما أشاء، فظننت من اللهجة والتلفظ كأنه إنكليزى قائم على رأسى يتكلم[٥].

ويعتقد غلام أحمد أن النبوة ما خُتمت برسول الله ﷺ، فيقول هذا

---

(١) ضحية الإسلام ليار محمد ص ٣٤.

(٢) إنجام آتم للغلام ص ٥٥.

(٣) البشرى (١/ ٤٩) للغلام.

(٤) وحى المقدس ٦٥٠ للغلام.

(٥) براهين أحمدية للغلام القاديانى ص ٤٨٠.

الدجال: أحلف بالله الذى فى قبضته روحى، هو الذى أرسلنى وسمَّانى نبيًّا، ونادانى بالمسيح الموعود، وأنزل لصدق دعواى بينات، بلغ عددها ثلاث مائة ألف بينة (١).

ويقول: هو الإله الحق، الذى أرسل رسوله فى القاديان، وأن الله يحفظ القاديان، ويحرسها من الطاعون، ولو يستمر إلى سبعين سنة؛ لأنها مسكن رسوله، وفى هذا آية للأمم (٢).

الطاعون يقع بالقاديان، والجزاء من جنس القول والعمل.

ومن قدرة القهار الجبار أن وقع الطاعون فى هذه القرية التى أنجسها غلام أحمد؛ وعَمَّ القرى المجاورة، بل ودخل إلى بيت غلام أحمد نفسه، فيقول فى رسالة أرسلها إلى صهره: ودخل الطاعون حتى فى بيتنا.

والجزاء من جنس قول الكذاب، ففضحه الله فى حياته.

ويقول القاديانى: أنا وحدى أُعطيت كل ما أُعطى لجميع الأنبياء (٣).

ويقول: بنزول جبريل عليه السلام عليه، يقول الغلام: إن جبريل جاء إلىَّ واختارنى، وأدار أصبعه، وأشار إلىَّ بأن الله يحفظك من الأعداء (٤).

بل وحيه كوحى محمد ﷺ، وإلهامته كالقرآن، يقول الغلام: والله العظيم، أؤمن بوحيى كما أومن بالقرآن، وبقية كتب أنزلت من السماء، وأنا أؤمن بأن الكلام الذى ينزل علىَّ ينزل من الله، كما أؤمن بأن القرآن نزل من عنده (٥).

---

(١) تتمة الوحى للغلام ص ٦٨.

(٢) دافع البلاء للغلام ص ١٠ - ١١.

(٣) در ثمين ص ٢٨٧ لغلام أحمد.

(٤) مواهب الرحمن ص ٤٣ للغلام.

(٥) حقيقة الوحى ص ٢١١ للغلام القاديانى.

ويقول: إيمانى بالإلهامات التى تنزل علىَّ كالإيمان بالتوراة والإنجيل والقرآن[١].

ومن اعتقادات القاديانية أنه نزل على غلام أحمد الكتاب كما نزل على بعض الرسل، وأنه الذى أُنزل عليه أكثر مما أنزل على كثير من الأنبياء، واسم هذا الكتاب المُنَزَّل عليه: الكتاب المبين.

يقول غلام أحمد: نزل علىَّ كلام الله بهذه الكثرة، لو يُجمع لما يقل عن عشرين جزءًا.

ويعتقدون أن القاديان قرية الكذاب المخبول أفضل من مكة والمدينة، وفيه قطعة من قطعات الجنة.

يقول الغلام القاديانى: قد أنزل الله قوله فى القرآن: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾[٢]، وصفًا لمسجدى فى القاديان[٣].

وقال غلام أحمد: إن الذى لا يجىء إلى القاديان أخاف على إيمانه[٤].

ويقول محمود أحمد بن الغلام: قد انقطع ثمرة مكة والمدينة، ولكن ثمرة القاديان ما زالت طازجة[٥].

الحج: الحد عندهم هو حضور المؤتمر السنوى فى القاديان.

يقول ابن الغلام: إن مؤتمرنا السنوى هو الحج، وإن الله اختار المقام لهذا - الحج - القاديان[٦].

(١) تبليغ رسالت (٦/ ٦٤).
(٢) سورة آل عمران: الآية (٩٧).
(٣) إزالة الأوهام ص ٧٥ للقاديانى.
(٤) أنوار الخلافة ص ١١٧.
(٥) حقيقة الرؤيا ص ٤٦.
(٦) بركات الخلافة لمحمود أحمد ص ٥ - ٧.

وقال الغلام الكذاب: إن البقاء فى القاديان أفضل من الحج النفلى [١].

وفى قرآن القاديان الكتاب المبين آيات، ومن بعض آياته:

إن الله ينزل فى القاديان [٢].

يحمدك الله من عرشه ويمشى إليك [٣].

*** عقيدة الجهاد نجسة عند عميل الإنجليز:**

قال المتنبى الدجال: إن هذه الفرقة، (الفرقة القاديانية)، لا تزال تجتهد ليلًا ونهارًا؛ لقمع العقيدة النجسة، عقيدة الجهاد من قلوب المسلمين [٤].

*** المتنبي القادياني وإهانته للأنبياء والصحابة:**

يفضل نفسه على آدم فيقول: صار آدم ذليلًا مصغرًا، ثم خلقنى الله لكى أهزم الشيطان [٥].

*** ويفضل نفسه على نبي الله نوح:**

يقول: إن الله أنزل لصدق دعواى آيات وبينات بهذه الكثرة، لو أُنزلت على نوح لم يغرق أحد من قومه [٦].

*** ويفضل نفسه على نبي الله يوسف:**

فيقول: إن يوسف هذه الأمة يعنى أنا العاجز الحقير أفضل من يوسف بنى إسرائيل؛ لأن الله شهد لبراءتى بنفسه، وبآيات كثيرة، حينما احتاج

---

(١) مرآة كمالات الإسلام ص ٥٢ للغلام.

(٢) البشرى ص ٥٦ للغلام.

(٣) عاقبة آثم ص ٥٥ للغلام.

(٤) عريضة الغلام إلى الحكومة المندرجة فى ريويوآف ريليجنز نمرة ٥، ١٩٢٢ م.

(٥) ما الفرق فى آدم والمسيح الموعود للغلام.

(٦) تتمة حقيقة الوحى ص ١٣٧ للغلام.

يوسف بن يعقوب لبراءته إلى شهادة الناس [١].

*** ويفضل نفسه على نبي الله عيسى:**

فيقول: إن الله أرسل من هذه الأمة المسيح، الذى هو أعظم شأنًا من المسيح الأول بمراتب، والله الذى فى قبضته روحى، إن كان عيسى فى الزمن الذى أعيش فيه أنا، ما كان يستطيع أن يعمل ما أعمله أنا [٢].

*** يعتقد أنه أفضل من كل الأنبياء:**

يقول: جاء أنبياء كثيرون، ولكن لم يتقدم أحد علىَّ فى معرفة الله، وكل ما أُعطى لجميع الأنبياء أُعطيت أنا وحدى بأكمله [٣].

*** ويقذف الأنبياء:**

يقول: أنا أرى بأن المسيح ما كان يتنزه عن شرب الخمر [٤].

ويقول الكذاب: إن أسرة عيسى أسرة عجيبة، كانت جداته الثلاث فاجرات، ومن هذا الدم المطهر تكوَّن وجود عيسى... ولعله كان مَيَلان عيسى إلى المومسات لهذه النسبة، وإلا لا يسمح أحد من المتقين، أن يمس رأسه شابة زانية، وتعطره بمالها الحرام فليفهم الناس كيف كان أخلاق هذا المسيح [٥].

والحمد لله أن هذا الخبيث يرد على نفسه، فيقول: الذى يسب أو يشتم الأخيار المقدسين فليس إلا خبيث، ملعون، لئيم [٦].

---

(١) براهين أحمدية للغلام.

(٢) حقيقة الوحى ١٤٨ للغلام.

(٣) در ثمين ص ٢٨٧ - ٢٨٨ للغلام.

(٤) ريويو (١/ ١٢٣) ١٩٠٢م.

(٥) ضميمة آنجام آتهم ص ٧ للغلام.

(٦) البلاغ المبين ص ١٩.

* **تطاوله على الرسول الكريم ﷺ:**

يقول الدجال: إن النبى ﷺ له ثلاثة آلاف معجزة، ولكن معجزاتى زادت على مليون معجزة[١].

يقول ابنه وخليفته: إن الارتقاء الذهنى لإمامنا كان أزيد، وأكثر من النبى الكريم[٢].

ويقول غلام أحمد:

له خسف القمر المنير وإن لى غسا القمران المشرقان أتنكر[٣]

ويقول: إن الإسلام بدأ كالهلال، ثم قدر له أن يكون فى هذا القرن كالبدر، وإلى هذا أشار الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾[٤][٥].

وقال هذا الدجال: وأما تجليات كمالات رسول الله ما كانت راقية إلى منتهاها، بل هذه التجليات بلغت إلى ذروتها فى عهدى وفى شخصى[٦].

ويقول إن المراد فى قول الله ﷻ: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾[٧] هو أنا؛ لأن الله سمَّانى فى هذا الوحى محمدًا ورسولًا[٨].

ويقول: أنا هو المصداق لقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ

---

(١) تذكرة الشهادتين ص ٤١ للغلام.

(٢) ريويو القاديانى مايو سنة ١٩٣٩م.

(٣) إعجاز أحمدى ص ٧١ للغلام.

(٤) سورة آل عمران: الآية (١٢٣).

(٥) خطبة إلهامية ص ١٨٤ للغلام.

(٦) خطبة إلهامية ص ١٧٧ للغلام.

(٧) سورة الفتح: الآية (٢٩).

(٨) قول الغلام المندرج فى تبليغ رسالت (جـ ١٠/ ١٤) لقاسم القاديانى.

بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[(١)] [(٢)].

ويقول: أنا المراد في قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[(٣)] [(٤)].

ويقول: وأنا المقصود في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾[(٥)] [(٦)].

ويقول محمود أحمد خليفة القاديانية: لو أن أحدًا يريد أن يتقدم على رسول الله مرتبة وشأنًا يستطيع أن يتقدم.

فأي كفر وخبث ونجاسة أعظم من هذا، وهكذا يجترئ الأوباش على مقام رسول الله ﷺ.

وكتب أحد القاديانيين: أنه سمع من أحد مُبلغي القاديانية، الذي هو من أهل البيت - يريد أولاد الغلام - أنه يقول: أين أبو بكر وعمر من غلام أحمد؟ إنهما لا يستحقان أن يحملا نعليه.

ويقول الغلام الكذاب: أنا هو المهدي الذي سُئل عنه ابن سيرين، هل هو في مرتبة أبي بكر؟ فقال: أين أبو بكر منه؟ بل هو أفضل من بعض الأنبياء[(٧)].

ويقول: يوجد فيكم عليٌّ حي فتتركونه، وتبغون عليًّا ميتًا [(٨)].

ويقول: يقولون عني بأني أُفضِّل نفسي على الحسن والحسين، فأنا

---

(١) سورة الصف: الآية (٩).

(٢) إعجاز أحمدي ص ٧ للغلام ضميمة نزول المسيح.

(٣) سورة الأنبياء: الآية (١٠٧).

(٤) أربعين نمرة ٣ ص ٢٥ للغلام.

(٥) سورة الإسراء: الآية (٧٩).

(٦) أربعين ص ١٠٢ للغلام.

(٧) معيار الأخبار للغلام المندرج في تبليغ رسالت جـ ٩/ ٣٠.

(٨) ملفوظات أحمدية جـ١ / ١٣١.

أقول: نعم، أنا أُفضل نفسى عليهما، وسوف يُظهر الله هذه الفضيلة (١).

وقال ابنه: إن أبى قال: مائة حسين فى جيبى. فالناس يفهمون معناه، إنه يساوى مائة حُسين، ولكنى أقول أكثر من هذا، وهو: إن تضحية ساعة واحدة لخدمة الدين من أبى، أفضل من تضحيات مائة حسين (٢).

*** الغلام رجل أفيوني خمّار:**

يقول ابنه: كان أبى يقول: إن الأفيون نصف الطب، ولذا استعماله للتداوى يجوز ولا بأس به، وإنه صنع دواءً باسم ترياق إلهى بهدى الله وعونه وكان الجزء الأكبر فى هذا الدواء الأفيون، وكان يعطى هذا الدواء لخليفته الأول نور الدين، كما كان يستعمله هو أيضًا حينًا بعد حين لمختلف الأمراض.

وأرسل الغلام إلى أحد مريديه فى لاهور أن يرسل إليه: وائن، ويشتريه من دكان رجل يقال له: بلومر؟ وحينما سأل بلومر عن وائن ماذا هو؟ فقال: إن وائن قسم قوى مُسْكِر، من أقسام الخمر الذى يستورد من إنجلترا فى القوارير المختومة (٣).

*** جزاء الكذاب فضحه وإظهار كذبه:**

هذا الذى كذب على الله، وكذب على رسوله ﷺ أظهر الله كذبه وشهره بهذا.

يقول الكذاب: لا يوجد أى شىء أحسن وأفضل لاختبار صدقى وكذبى

(١) إعجاز أحمدى ص ٥٨ للغلام.

(٢) خطبة الجمعة فى القاديان المنشورة فى مجلة قاديانية «الفضل» الصادرة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٢٦م.

(٣) مكتوب الإمام باسم الغلام ص ٥ للطبيب القاديانى محمد حسين.

من تنبؤاتى [1] يداك أوكتا وفوك نفخ.

* النبوءة الأولى:

تناظر غلام أحمد مع عبد الله آثم المسيحى فى إحدى مدن الهند سنة ١٨٩٣، وبعد نقاش طويل ما وصلا إلى نتيجة، ولم يَفُزْ واحد منهما على الآخر، فما أصبح الصباح يوم ٥ يونيو سنة ١٨٩٣ إلا وقد أعلن بأنه أخبر عن الله بأن عبد الله آثم سيموت فى خمسة عشر شهرًا، أى إلى ٥ سبتمبر سنة ١٨٩٤ فعاش عبد الله آثم المذكور طويلاً، ونكس رأس الملعون، وأذلَّه الله فى هذه الدنيا أمام الملأ.

* النبوءة الثانية:

ذهب رجل من أقربائه يُسمى: أحمد بك إليه فى أمر كان يتعلق به، واستدعاه للمساعدة، فقال له: أساعدك بشرط أن تزوجنى ابنتك: محمدى بيجوم. فأبى أحمد أن يقبل هذا الشرط، فجُنَّ جنون غلام أحمد، وبدأ يهدده ويتوعده وبلغ به الولع بهذه البنت أن قال: إن الابنة الكبيرة لأحمد بك تُزَوَّج لى، مع أن أهلها يخالفون ويمانعون، ولكن الله يزوجها لى، ويرفع كل الحواجز، ولا يستطيع أحد أن يحول دون تحقيق هذا [2].

ويقول: قد قال الله ﷻ: زوجناكها نحن بأنفسنا، ولا يستطيع أحد أن يبدل كلماتى [3].

ويقول: إن لم يتحقق هذا النبأ فأكون أخبث الخبثاء، هذا ليس افتراءً من إنسان ولا لعبة خبيث، مفترى، بل هذا وعد الله الحق، الإله الذى لا تبديل

(١) مرآة الكمالات ص ٢٣٢ للغلام.
(٢) إزالة الأوهام ص ٣٩٦ للغلام القاديانى.
(٣) الحكم السماوى ص ٤٠ لغلام أحمد.

لكلماته، والرب الذى لا مانع لإرادته [1].

وظل يتذلل أمام أحمد بك، ويسترحمه: أنا أرجو منكم بكل أدب وعجز أن تقبلوا زواج ابنتكم منى.

وحرم غلام أحمد ابنه سلطان من الإرث وطلق أمه، وحرم ابنه فضلًا من إرثه أيضًا، لأنهم لم يساعدوه فى الزواج من هذه المرأة، وفضحه الله على رؤوس الأشهاد وتزوجت من غيره.

* النبوءة الثالثة:

وهى بموت زوج هذه المرأة وزواجها منه، ولكن الكاذب يموت، وتظل هذه المرأة حية مع زوجها حتى ماتت فى نوفمبر سنة ١٩٦٦، ومات هذا الكذاب سنة ١٩٠٨.

* النبوءة الرابعة:

فى سنة ١٨٦٦م وبتاريخ ٢٠ فبراير حينما كانت امرأة غلام أحمد حُبلى أعلن أنه أُلهم من الله ما نَصُّه: إن الله الرحيم الكريم، الذى هو قادر على كل شىء أخبرنى بأنه يظهر آيته، آية الرحمة، آية بينة، ولد جميل وجيه زكى مظهر الأول والآخر، مظهر الحق والعلاء كأن الله نزل من السماء، وهذا الولد يكبر عجلًا ويفك الأسارى ويتبرك به الأقوام.

فولدت امرأة الغلام بعد هذه الإعلانات الطنانة ابنة وليس ابنًا، وسُمّيت عصمت، ثم ماتت بعد خمس سنوات فقط أى سنة ١٨٧١.

* النبوءة الخامسة:

أعلن بتاريخ ٢٠ فبراير ١٨٨٦: إن الله بشرنى بأنه يكون لى ذرية كثيرة،

---

(١) ضميمة أنجام آتم ص ٥٤ لغلام أحمد.

من النسوة ذوات البركات اللاتى أتزوج بعضهن بعد هذا الإلهام، وكذبه الله فما تزوج بعد هذا لا النسوة بل ولا امرأة واحدة ... والأولاد؟!!

* النبوءة السادسة:

ولد له ولد بتاريخ ١٤ يونيو سنة ١٨٩٩ وسمَّاه: مبارك أحمد، وبعد ولادته بأيام أعلن الدجال: إن هذا الولد نور من نور الله، ومصلح موعود، وصاحب العظمة، ومسيحى النفس، ومشفى الأمراض، وكلمة الله، وسعيد الحظ، وهذا يشتهر فى أنحاء العالم وأطرافها، يفك الأسارى ويتبرك به الأقوام[١].

فمرض هذا الولد سنة ١٩٠٧ وفى تاريخ ٢٧ أغسطس سنة ١٩٠٧ حينما خف مرضه أعلن الدجال: ألهمنى الله بأنه قد قبل الدعاء، وذهب المرض. وما إن أعلن المتنبى القاديانى هذا الافتراء على الله حتى عاد المرض من جديد، وفى ١٦ سبتمبر سنة ١٩٠٧ مات هذا المصلح الموعود الذى يفك الأسارى، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم.

* النبوءة السابعة:

عن الطاعون وأنه لا يقع فى القاديان، فوقع، وقال: إن بيتى كسفينة نوح، من دخله حُفظ من كل الآفات والمصائب[٢]، فدخل الطاعون بيته، حتى أصابه هو.

* النبوءة الثامنة:

تنبؤه بمولود لأحد مُريديه، فولدت زوجة هذا المريد بنتًا ، وأخبره أنه لن تموت زوجة هذا المريد إلا أن تضع الابن، فماتت.

---

(١) ترياق القلوب ص ٤٣ للقاديانى.

(٢) سفينة نوح ص ٢٧ للغلام.

* النبوءة التاسعة:

تناقش مرة مع المتنبى رجل من المسلمين - دكتور عبد الحكيم - وتحداه بأنه كذاب، وأعلن أن عبد الحكيم يموت فى حياتى؛ لأنه يهيننى ويذلنى.

ويقول: لكن الله بشرنى بأنى أُعمَّر ثمانين سنة أو أكثر، فلم يمت عبد الحكيم فى حياته بل بقى حيًّا بعده، وعُمِّر، ومات وهو فى الثامن أو التاسع بعد الستين من عمره.

وكم كذب الدجال، وما تحققت نبوءة له واحدة، عقابًا من الملك القهار لهذا المفترى الكذاب، وألبسه الله رداء قوله فى الدنيا.

والجزاء من جنس القول والعمل.

*** عاقبته وموته:**

وموت الغلام كان فضيحة له، وجزاءً وفاقًا، فقد كان دجال القاديان يجلب اللعنات على نفسه؛ لافتراءاته على الله، والرسول والقرآن، والأنبياء، ونازَله العلماء وأفتوا بالإجماع بكفره ودجله، وكان على رأس هؤلاء العلماء الشيخ الجليل العلامة: ثناء الله الأمر تسرى، مناظر الإسلام، ومحامى المسلمين فى القارة الهندية، فقد جرى بينه وبين الغلام القاديانى عدة مناظرات، ومناقشات تحريرية، وتقريرية، ودومًا كان الانتصار حليفًا لرجل إلهى[1]، وبطل الإسلام، فاستشاط من ذلك المتنبى القاديانى غضبًا، وأصدر نشرة سنة ١٩٠٧م وبتاريخ أبريل بالضبط وكتب فيها ما يلى:

---

(١) هكذا سماه العلامة الشيخ رشيد رضا فى مجلته: المنار الشهيرة.

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمده ونصلى على رسوله الكريم، يسألونك أحقٌّ هو قل إى وربى إنه لحق.

إلى خدمة الأستاذ ثناء الله.

السلام على من اتبع الهدى، من زمان وأنا أكذب وأُفسق فى مجلتكم: أهل حديث. ودائمًا تسموننى فى مجلتكم هذه ملعونًا كذابًا، ودجالًا مفسدًا، وتشهروننى فى العالم بأنى مفترى كذاب دجال، وأفترى فى دعواى المسيحية، فأنا تأذيت منك كثيرًا وصبرت، ولكننى لما رأيت نفسى بأنى مأمور لنشر الحق، وأنت تمنع العالم من التوجه إلىَّ بسبب إفتراءاتك علىَّ، فادعو إن أنا كذاب ومفترى كما تذكرنى فى مجلتك فأهلك فى حياتك، لأنى أعلم أن عُمْر الكذاب والمفسد لا يكون طويلًا، بل هو يموت خائبًا فى حياة أشد أعدائه بالذلة والهوان، وتكون فى موته منفعة لعباد الله حيث لا يضلهم، فإن لم أكن كذابًا ومفتريًا بل أكون متشرفًا بمخاطبة الله والمكالمة معه وأكون مسيحًا موعودًا، فأدعو أن لا تنجو من عاقبة المكذبين، حسب سنة الله فأعلن: إن لم تمت أنت فى حياتى بعقاب الله، الذى لا يكون إلا من عند الله محضًا، مثل أن تموت بمرض الطاعون أو الكوليرا، فلن أكون مُرسَلًا من الله تعالى، وهذا لا أقول نبوءة، بل طلبت القضاء الفيصل من الله تبارك وتعالى، وأدعو الله يا مولاى البصير القدير العليم الخبير، يا عالم أسرار القلوب إن أنا كاذب ومفسد فى نظرك، وأفترى عليك ليلًا ونهارًا يا الله، فأهلكنى فى حياة الأستاذ ثناء الله، وسُرَّه وجماعته بموتى. آمين.

ويا الله إن أنا صادق، وثناء الله على باطل وكذاب فى التهم التى يلصقها

بى، فأهلكه يا رب العالمين فى حياتى بالأمراض المهلكة، مثل الطاعون أو الكوليرا أو غيره من الأمراض. آمين. يا رب أنا أوذيت وصبرت، ولكنى أرى الآن أنه قد تجاوز الحد، وأنه يظننى أفسق من السارقين والغاصبين الذين يضرون العالم، ويحسبنى أرذل خلق الله، وقد شهرنى فى البلدان النائية بأنى فى الحقيقة مفسد، ونهاب، وطماع، وكذاب، ومفترى، وخبيث، وإن لم يكن لهذه الكلمات صدى الكلمات كنت صبرت عليه، ولكنى أرى أن ثناء الله يريد بهذه التهم أن يفنى دعوتى، ويهدم عمارتى التى بنيتها أنت يا ربى، ويا من أرسلتنى ولذا ألتجئ إليك يا الله، آخذًا بذيل رحمتك وتقدسك، فاقضِ بينى وبين ثناء الله بالحق، وأهلك الكذاب والمفسد فى حياة الصالح، أو ابتليه فى آفة تكون مثل الموت فافعل هكذا يا ربى الحبيب. آمين ثم آمين: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْفَٰتِحِينَ﴾[١].

وأخيرًا، أرجو من الأستاذ ثناء الله أن ينشر هذه النشرة فى مجلته، ثم يعلق عليها ما يشاء، فالقضاء الآن بيد الله.

الراقم عبد الله الصمد غلام أحمد المسيح الموعود، عافاه الله وأيده[٢].

وبعد هذا الإعلان والدعاء بعشرة أيام نشر الغلام القاديانى فى جريدة قاديانية: إن كل ما قيل عن ثناء الله ليس من عند أنفسنا؛ بل من قبل الله، كما ألهمت الليلة عن الدعاء الذى دعوته ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ﴾ ومعنى هذا الإلهام أن دعوتى قد قُبلت[٣].

---

(١) سورة الأعراف: الآية: (٨٩).

(٢) إعلان الغلام القاديانى المنشور بتاريخ ١٥ أبريل سنة ١٩٠٧، المندرج فى تبليغ رسالت (١٠/ ١٢٠)، مجموعة إعلانات الغلام المرتبة من قاسم القاديانى.

(٣) جريدة بدر القاديانية الصادرة فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٠٧.

وفعلًا قُبلت دعوته هذه، وقضى بينة وبين ثناء الله بالحق، فبعد ثلاثة عشر شهرًا وعشرة أيام بالضبط جاءه قضاء الله وقدره، بصورة بشعة، كان يتمناها للشيخ الجليل ثناء الله، نعم بنفس الصورة وبنفس المرض الذى نص عليه هو؟ بالكوليرا، وإليك بيانه:

يكتب ابن الغلام القاديانى وزعيم القاديانية بشير أحمد فى سيرته:

أخبرتنى أمى أن حضرته - أى الغلام - احتاج إلى بيت الخلاء بعد الطعام مباشرة، ثم نام قليلًا، وبعد ذلك احتاج مرة أخرى إلى بيت الخلاء، فذهب مرة أو مرتين إليها بدون أن يشعرنى، ثم أيقظنى، فرأيت أنه ضَعُف جدًّا، وما استطاع الذهاب إلى سريره، فلذا جلس على سريرى أنا، فبدأت أمسحه وأمسجه، وبعد قليل أحس الحاجة مرة أخرى ولكن الآن ما استطاع الذهاب إلى بيت الخلاء، فلذا قضاها عند السرير، واضطجع قليلًا بعد القضاء، ولكن الضعف بلغ إلى منتهاه، فجاءته الحاجة مرة أخرى، فقضاها، ثم جاءه القىء، وبعد ما فرغ من القىء خَرَّ على ظهره، واصطدم رأسه بخشب السرير، وتغيرت حالته [1].

وكتب رحيمه - أبو زوجه -: الليلة التى مرضها حضرته - الغلام - كنت نائمًا فى غرفتى، ولما اشتد مرضه أيقظونى، فذهبت إلى حضرته، ورأيت ما يعانيه من الألم، فخاطبنى قائلًا: أُصبت بالكوليرا، ثم لم ينطق بعد هذا بكلمة صريحة، حتى مات اليوم الثانى بعد العاشرة من الصباح [2].

هذا، وقد نشرت الجرائد الهندية آنذاك: إن غلام أحمد المتنبى

---

(١) سيرة المهدى ص ١٠٩ لبشير أحمد بن الغلام.

(٢) حياة ناصر لرحيم الغلام القاديانى ص ١٤.

القادياني، لما ابتُلى بالكوليرا كانت النجاسة تخرج من فمه قبل الموت، ومات وكان جالسًا فى بيت الخلاء لقضاء الحاجة.

كما نشر بيان محمد إسماعيل القادياني في جريدة قاديانية: إن المخالفين يقولون: إن النجاسة كانت تخرج من فم حضرة المسيح الموعود وقت الموت (١).

يا لله ... النجاسة تخرج من الفم الذى طالما أخرج النجاسات، وافترى على الله وأنبيائه وأوليائه.

والجزاء من جنس القول والعمل.

مات غلام أحمد فى العاشرة والنصف صباحًا بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٩٠٨ م (٢)، فمات وكان ثناء الله حيًّا، وبقى حيًّا بعد موته قريبًا من أربعين سنة يهدم بنيان القاديانية، ويقمع جذورهم.

وهكذا كذَّب الله الكذَّاب، حتى آخر لحظة من حياته، وعذبه فى الدنيا، وعذاب الآخرة أشد وأنكى.

ومات غلام أحمد فى لاهور ثم نُقل نعشه إلى القاديان، وهكذا إلى بعد الموت أثبت أنه كان كذابًا فى دعواه النبوة فكل نبى يُدفَن حيث قُبض، فذهب الكذاب إلى مزبلة التاريخ، وصدق الله ورسوله (٣).

* * *

(١) بيان محمد إسماعيل القادياني فى جريدة قاديانية: بيغام صلح فى ٣ مارس سنة ١٩٣٩.

(٢) جريدة الحكم القاديانية ٢٨ مايو سنة ١٩٠٨، وسيرة المهدى.

(٣) بتصرف من كتاب (الجزاء من جنس العمل).

بهاء الله (مؤسس البهائية)

الكذَّاب الملعون، الذى أعلن على أتباعه بأنه الموعود الذى أخبر عنه الباب، وسمَّاه بمن يظهره الله، وأُسست الديانة الجديدة بدعوى أنه هو صاحب الشريعة المستقلة، كما كان الشيرازى صاحبها، وأنه ناسخ لشريعة البيان، كما كان الشيرازى ناسخًا لشريعة الفرقان، فقبله بعض البابيين وسُمُّوا بالبهائية، وأخيرًا ارتقى على عرش الربوبية والألوهية يدَّعى النبوة والرسالة ثم الألوهية.

فتعالوا إلى الكذاب حسين على المازندرانى بهاء الله:

انظر إلى دجال الدجاجلة الذى يقول: لا يُرى فى هيكلى إلا هيكل الله، ولا فى جمالى إلا جماله، ولا فى كينونتى إلا كينونته، ولا فى ذاتى إلا ذاته، ولا فى حركتى إلا حركته، ولا فى سكونى إلا سكونه، ولا فى قلمى إلا قلمه العزيز المحمود.

وقال: لم يكن فى نفسى إلا الحق، ولا يُرى فى ذاتى إلا الله [١].

ويقول فى أقدسة - الأنجس: والذى ينطق فى السجن الأعظم إنه لخالق الأشياء وموجد الأسماء [٢].

وقال الفاجر أيضًا عن نفسه: قد ظهر من لا يعزب عن علمه شيء [٣].

ويقول العباس الخناس - بن البهاء وخليفته-: إن الأيام التى ظهر فيها موسى كانت أيام موسى، والأيام التى ظهر فيها المسيح كانت أيام المسيح، وأيام إبراهيم وهكذا أيام الأنبياء كلها، وأما ذلك اليوم - يوم ظهور

(١) سورة الهيكل للمازندرانى.

(٢) مجموعة الأقدس ص ٣٢٥.

(٣) إشراقات ص ١٨.

المازندرانى - الكذاب - كان يوم الله [١].

ويقول أيضًا: إن الجمال الأقدس الأبهى - حسين المازندرانى - قد استوى ذلك اليوم - يوم دعواه الخبيثة - على عرش الربوبية الكبرى، وتجلَّى على أهل الأرض والسماء بكل أسمائه الحسنى وصفاته العليا.

هذا المجرم الأثيم هو قبلة البهائيين يقول: وإذا أردتم الصلاة وَلُّوا وجوهكم شطرى، الأقدس المقام المقدس الذى جعله الله مطاف الملأ الأعلى، ومقبل أهل مدائن البلقاء، ومصدر الأمر لمن فى الأرضين والسماء[٢].

*** انظر إلى الدين الذي أتى به دجال الدجاجلة:**

الصلاة: من يطالع كتبهم المقدسة - النجسة - لا يجد فيها طريقة أدائها، إلا ما كتبه البهاء فى كتابه: الأقدس الفقرة ١٩: قد فصَّلنا الصلاة فى ورقة أخرى، طوبى لمن عمل بما أُمر به من لدن مالك الرقاب.

فأين ذهبت هذه الورقة؟ قالوا: إن خصوم البهاء سرقوها منه، وهم لذلك يبكون ويتألمون!!

ويحرم الصلاة جماعة بقوله: كتب عليكم الصلاة فرادى، قد رُفع حكم الجماعة إلا فى صلاة الميت إنه لهو الآمر الحكيم[٣].

الصوم: قد كتب لكم الصيام فى شهر العلاء، صوموا لوجه ربكم العزيز المتعال[٤]، وشهر العلاء هو آخر الشهور البهائية التسعة عشر، ويشمل

---

(١) مفاوضات عبد البهاء للعباس.

(٢) الأقدس الفقرة ١٤.

(٣) الأقدس الفقرة ٣٠.

(٤) لوح كاظم للمازندرانى، وخزينة حدود وأحكام ص ٣٦.

على الأيام التسعة عشر، وأما فرضية الصوم، فقد عفى عنه المسافر والمريض والحامل والمرضع والهرم والكسول.

وعند التكسُّر والتكاسل لا يجوز الصلاة والصيام، وهذا حكم الله من قبل ومن بعد[١].

الزكاة: قال البهاء: سوف نفصل لكم نِصابها إذا شاء الله وأراد، إنه يفعل ما يشاء بعلم من عنده إنه لهو العلام الحكيم[٢].

والعلام الحكيم لم يستطع بيان نصابها وتفاصيلها.

بل قالوا: يعمل فى الزكاة كما نزل فى الفرقان[٣] أى القرآن، والمعروف لمن له أدنى إلمام بالإسلام أن تفاصيل الزكاة ونِصابها فى السنة لا فى القرآن.

الحج: الحج للبيت الأعظم فى بغداد، وبيت النقطة فى شيراز، وهو واجب على الرجال دون النساء.

الطهارة: رفع حكم دون الطهارة عن كل الأشياء - قذرة كانت أم نجسة- وعن ملل أخرى موهبة من الله إنه لهو الغفور الكريم[٤].

فهذه شريعة البهائيين منتنة خبيثة كأحكامها، وقذرة نجسة.

*** المحرمات عند البهائيين:**

لا يحرمون إلا زوجة الأب، وبقية نساء العالم حلال عندهم فى جميع كتبهم، ويحرمون تعدد الزوجات فوق الاثنتين.

---

(١) خزينة حدود وأحكام ص ٣٧.

(٢) الأقدس الفقرة ٣٥١.

(٣) لوح زين المقربين للمازندرانى.

(٤) الأقدس الفقرة ١٦١.

وانظر ما يقول الفاجر: ومن اتخذ بكرًا لخدمته لا بأس عليه، كذلك كان الأمر من قلم الوحى بالحق مرقومًا[1] - بل من قلم الشيطان أيها العربيد.

أما الزنا: فإنهم لا يعدون الزنا إلا ما لم يرضَ به أحد الطرفين، ومن اقترف هذه الجريمة بدون الرضا لا عقاب عليه، بل يؤخذ منه الأجرة؛ لأنها بالأجرة تنقلب السيئة الحسنة،... يقول المازندرانى: قد حكم الله لكل زانٍ وزانية دية مسلمة إلى بيت العدل، وهى تسعة مثاقيل من الذهب.

أما الزانى المُحصَن والزانية المحصنة فلا حكم عليهما إلا أن يحكم عليهما بيت العدل. هذا قول نبى البهائية عباس عبد البهاء.

هذا الفاجر البهاء قصته وفجوره مع قرة العين شيطانة البابية، وقد كانت متزوجة، والغريب أنها هى التى منحته هذا اللقب: بهاء الله ... فالطاهرة كما كانوا يلقبونها أسمته: بهاء الله، فهى أول المتفوهين بكلمة بهاء الله، وكفاه جزاءً هذا.

وهذا المأفون منع من الارتقاء على المنابر.

*** الكذاب يظهر الله كذبه ويفضحه:**

يقول البهاء فى رسالته إلى الشاه: قد جعل الله البلاد غادية لهذه الدسكرة الخضراء، وزُبالة لمصباحه الذى به أشرقت الأرض والسماء.

يقول أسلمنت داعية البهائية: وقد تنبأ بهاء الدين وعبد البهاء بأصرح وأوثق عبارة، عن النصر السريع للأمور الروحانية.

ولما سُئل عباس عبد البهاء: إذا كانت دولة من دول العالم العظيمة

---

(١) الأقدس الفقرة ١٤٢.

تؤمن بالديانة البهائية أجاب: سيؤمن جميع أهل العالم.

وصرح أيضًا: هذا القرن قرن شمس الحقيقة، وهذا القرن قرن تأسيس ملكوت الله على الأرض. بل وصرح أيضًا بأن سنة ١٩٥٧ م تتأسس وحدة الإنسانية،... وكذب الكذاب وابنه.

انظر عميل الروس الذى ادَّعى الألوهية كيف أظهر الله عجزه ومسكنته؟

*** الجزاء من جنس العمل:**

يقول وقد كتب إلى شاه إيران، يقول: ما وجدت فى أيامى مقرًّا من على قدر أضع رجلى عليه، كنت فى كل الأحيان فى غمرات البلايا التى ما اطلع عليها أحد، كم من أيام اضطربت فيها أحبتى لضُرِّى، وكم من ليالٍ ارتفع فيها نحيب البكاء من أهلى؛ خوفًا لنفسى، ولا ينكر ذلك إلا من كان عن الصدق محرومًا [(١)].

الكذاب الدجال يبكى، وينوح، ويشتكى، ويعلى العويل والصراخ، ويقول: كم من ليالٍ فيها استراحت الوحوش، والطيور فى أوكارها، وكان الغلام - الغلام والرب؟ فى السلاسل والأغلال، ولم يجد لنفسه ناصرًا ولا معينًا [(٢)].

إله يستصرخ، ورب يحتاج.. ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ [(٣)].

هذا الكذاب الذى افترى على الله، وزعم أن كتابه الأكبر - الذى يسمونه: الأقدس - ناسخ لجميع الكتب السماوية: وآية واحدة منه خير من

(١) الرسالة السلطانية للمازندرانى ص ٤

(٢) الرسالة السلطانية ص ٣.

(٣) سورة النساء: الآية (٧٨).

كتب الأولين والآخرين.

حاول فيه محاكاة القرآن فى فواصل آياته، وكذا بقية كتبه: الإيقان، ولوح البقاء.

هذا المجنون الذى اعتنق البابية، ثم ادَّعى النبوة والرسالة، ثم الألوهية ماذا كان جزاؤه فى دار الدنيا قبل أن يُذهب به إلى الهاوية؟

لقد جُنَّ.

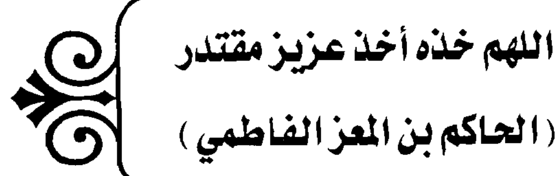
يُنقل عن أحد أبناء حسين على المازندرانى البهاء أنه جُنَّ فى آخر حياته، وقبل موته بمدة، كما ذكره عمر عنائت نقلًا عن ابنه: إن البهاء جُنَّ فى أواخر أيامه، وكان ابنه - عباس عبد البهاء - يعمل كحاجب له (١).

جُنَّ ... جزاءً وفاقًا.

* * *

---

(١) انظر: البهائية نقد وتحليل لفضيلة الشيخ إحسان إلهى ظهير رحمه الله، نقلًا عن (الجزاء من جنس العمل)

اللهم خذه أخذ عزيز مقتدر (الحاكم بن المعز الفاطمي)

أعظم الناس وزرًا فرعون الذى ادَّعى الربوبية والألوهية، وزعم أن الجنة تحت قدمه، فاقترن اسمه بالغضب واللعنة لتعدِّيه وطغيانه، وقد ورثه مَن لا خَلاق له ممن عاش عنيدًا ومات غريبًا أمثال الحاكم بن المعز الفاطمى صاحب مصر، والفاطميون تَسمَّوا بهذا الاسم وهو برىء منهم، وفاطمة بريئة منهم، وأبوها ﷺ برىء منهم، واسمهم الحقيقى العُبيديون نسبة إلى عُبيد بن سعد الجرمى وهم أول من بنى المساجد على القبور، ودعوا الناس إلى عبادتها،... شيَّدوا للحسين رضي الله عنه وبرأه الله منهم ومن شيعتهم ومحبيهم، شيدوا له قبرًا بالقاهرة، ورفعوا عليه قبة عظيمة وبنوا له المسجد المشهور الذى بالقاهرة يقام فيه من الأعمال الشركية ما يُغضب الله ورسوله وآل بيته، وكل من فى قلبه حب الله ورسوله والإيمان الصحيح. وقد صنَّف كثير من العلماء السالفين فى بيان كذب أولئك العُبيديين وبيان نِحلتهم الكافرة الفاجرة، وأنهم كانوا يُظهرون الرفض ويبطنون الكفر، وممن كتب فى ذلك الإمام أبو بكر الباقلانى فى كتاب نفيس سماه: «كشف الأسرار وهتك الأستار» وألَّف ابن الجوزى كذلك وغيرهم [١].

ومن هؤلاء الخلفاء الفجرة: الذين يظهرون موالاة آل البيت ويبطون الكفر الحاكم بن المعز الفاطمى كان جبارًا عنيدًا وشيطانًا مَريدًا صفته قبيحة، وسيرته ملعونة، أخزاه الله، كان كثير التلون فى أفعاله وأحكامه

---

(١) تعليق الشيخ عبد العزيز بن باز على فتح المجيد، باب ما جاء من التغليظ فيمن عَبَد الله عند قبر رجل صالح، البداية والنهاية لابن كثير جزء ١١ حوادث عام ٤٠٢.

وأقواله، جائرًا وقد كان يروم أن يدعى الألوهية كما ادعاها سلفه فرعون لعنه الله، وقد أمر الرعية إذا ذكر الخطيب اسمه على المنبر يوم الجمعة أن يقوم الناس على أقدامهم صفوفًا إعظامًا لذكره واحترامًا لاسمه، وعَمَّ ذلك حتى فى الحرمين وأمر أهل مصر خصوصًا إذا قاموا عند ذكره أن يَخِرُّوا سُجدًا له، حتى أنه ليسجد بسجودهم فى الأسواق من الرعاع وغيرهم، وكانوا يتركون السجود لله تعالى يوم الجمعة وغيره ويسجدون للحاكم، وأمر الناس بغلق الأسواق نهارًا وفتحها ليلًا ليغير سنة الله تعالى الذى جعل الليل لباسًا والنهار معاشًا، وقد امتثل الناس ذلك دهرًا طويلًا، وكان يطوف بالأسواق على حمار له ومعه غلام له اسمه مسعود ومن وجده قد خالف طاعته أمر العبد مسعود أن يعمل به الفاحشة العظمى، وهذا أمر منكر ملعون لم يُسبق إليه، وكانت العامة تبغضه كثيرًا ويكتبون له فى الأوراق بالشتيمة البالغة ولأسلافه فى صورة قصص فإذا قرأها ازداد غيظًا وحنقًا عليهم، ومن أفعاله الشنيعة وكل حياته سوء أنه أمر السودان أن يدخلوا إلى مصر وأن يحرقوها وينهبوا ما فيها من الأموال والمتاع والحريم، فذهبوا وامتثلوا أمره. فقابلهم المصريون وقاتلوهم قتالًا شديدًا حتى قُتل المئات من الناس، فاجتمع الناس فى الجوامع ورفعوا المصاحف وصاروا إلى الله ﷻ واستغاثوا به فرقَّ لهم الترك والمشارقة وانحازوا إليهم وقاتلوا معهم عن حريمهم ودورهم وتفاقم الحال جدًّا، ثم ركب الحاكم لعنه الله ففصل بين الفريقين وما انجلى الأمر حتى احترق من مصر ثلثها، ونُهب قريب من نصفها، وسُبيت نساء وبنات كثيرات، وفُعل معهن الفواحش والمنكرات، حتى أن منهن من قتلت نفسها خوفًا من العار والفضيحة.

قال ابن الجوزى: ثم ازداد ظلم الحاكم حتى عنَّ له أن يدعى الربوبية فصار قوم من الجهال إذا رأوه يقولون يا واحد يا أحد يا محيى يا مميت قبحهم الله جميعًا.

وكان الصالحون يدعون عليه ويسألون الله أن يكفيهم شره، ويرفعون ظلمهم إلى العدل الذى لا يظلم، والقوى الذى لا يُغلَب والذى قد وعد بالإجابة إذا استقام العبد على الطريقة المحمدية، فاستجاب الله دعاءهم وانتصر لهم وأخذ هذا الظالم أخذًا عزيزًا.

وقد جعل الله نهايته على يد أخته التى كانت تسكن معه: إذ الحراسة عليه شديدة، وكان يتهمها بالفاحشة، ويُسمعها أغلظ الكلام، فتبرمت منه وعملت على قتله، فراسلت أكبر الأمراء، أميرًا يقال له ابن دواس فاتفقت معه على قتله ودماره، فجهز ابن دواس من عنده عبدين أسودين شهمين وقال لهما: إذا كانت الليلة الفلانية فكونا فى جبل المقطم ففى تلك الليلة يكون الحاكم هناك فى الليل لينظر إلى النجوم، وليس معه أحد إلا ركابى وصبى فاقتلاه واقتلاهما معه، فلما كانت تلك الليلة قال الحاكم لأمه علىَّ فى هذه الليلة قطع عظيم فإن نجوت منه عُمرت نحوًا من ثمانين سنة، ومع هذا فانقلى حواصلى إليك فإن أخوف ما أخاف أختى وأخوف ما أخاف على نفسى منها، فنقل حواصله إلى أمه وكان له فى صناديق حوالى ثلاثمائة ألف دينار وجواهر أخرى.

فقالت له أمه: لا تخرج فى هذه الليلة فوافق على ذلك ثم خرج ودار حول القصر ورجع ونام إلى قريب من ثلث الليل الأخير فاستيقظ وقال: إن لم أركب الليلة فاضت نفسى، فثار وركب فرسًا وصحبه صبى وركابى

وصعد المقطم فاستقبله العبدان فأنزلاه عن مركوبه وقطعا يديه ورجليه وبقرا بطنه فأتيا به مولاهما ابن دواس فحمله إلى أخته فدفنته فى مجلس دارها، واستدعت الأمراء والأكابر فبايعوا لولد الحاكم أبى الحسن على ولُقِّب بالظاهر لإعزاز دين الله، وقالت للناس: إن الحاكم قال لى يغيب عنكم سبعة أيام ثم يعود فاطمأن الناس ثم بايعوا ابنه من بعده، وقد فرحوا فرحًا شديدًا لمقتل أبيه وأراحهم الله من شره[1].

* * *

(١) البداية والنهاية (جزء ١٢).

أبو العلاء المعري

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان سَمَّى نفسه: رهين المَحْبَسين.

* قال ابن كثير:

أبو العلاء المعرى التنوخى الشاعر المشهور بالزندقة، دخل بغداد سنة تسع وتسعين وثلاثمائة، فأقام بها سنة وسبعة أشهر، ثم خرج منها طريدًا منهزمًا، لأنه سأل سؤالًا بشعر يدل على قلة دينه وعلمه وعقله، فقال:

تنــاقُضٌ مــا لنــا إلا الــسكوت لــه وأن نعــوذ بمولانــا مــن النــار

يـد بخمـس مـئين عَـسْجَدٍ وُدِيـتْ مـا بالهـا قُطعـت فى رُبْـع دينـارٍ

وهذا من إفكه، وهذا من قلة عقله وعلمه، وعمى بصيرته، ولهذا قال بعضهم: كانت ثمينة لما كانت أمينة، فلما خانت هانت.

ولما عزم الفقهاء على أخذه بهذا وأمثاله هرب ورجع إلى بلده، ولزم منزله فكان لا يخرج منه.

وقد كان ذكيًّا ولم يكن زكيًّا، وفى بعض أشعاره ما يدل على زندقته، وانحلاله من الدين،... ومن الناس من يعتذر عنه ويقول: إنه كان يقول ذلك مجونًا ولعبًا، ويقول بلسانه ما ليس فى قلبه، وقد كان باطنه مسلمًا.

قال ابن عقيل لما بلغه: وما الذى ألجأه أن يقول فى دار الإسلام ما يكفره به الناس؟ والمنافقون مع قلة عقلهم وعلمهم أجود سياسة منه، لأنهم حافظوا على قبائحهم فى الدنيا وستروها، وهذا أظهر الكفر الذى تسلط عليه به الناس وزندقوه، والله يعلم أن ظاهره كباطنه.

وقال ابن الجوزى: وأما أبو العلاء المعرى فأشعاره ظاهرة الإلحاد، وكان يبالغ فى عداوة الأنبياء، ولم يزل متخبطًا فى تعثيره، خائفًا من القتل

إلى أن مات بخسرانه [١].

وكل صاحب فرية ذليل جزاءً وفاقًا،... أعثر الناس، وأخسأهم قدرًا، وأردأهم عيشًا.

وقال أيضًا: وقد رأيت لأبى العلاء المعرى كتابًا سمَّاه: الفصول والغايات، فى معارضة السور والآيات، على حروف المعجم فى آخر كلماته، وهو فى غاية الركاكة والبرودة، فسبحان من أعمى بصره وبصيرته، ثم أورد ابن الجوزى من أشعاره الدالة على استهتاره بدين الله أشياء كثيرة.

فمن ذلك قوله:

إن كان لا يحظى برزقك عاقل ... وترزق مجنونًا وترزق أحمقًا

فلا ذنب يا رب السماء على امرئٍ ... رأى منك ما لا يشتهى فتزندقا

وقوله:

ألا إن البرية فى ضلالٍ ... وقد نظر اللبيب لما اعتراها

تقدم صاحب التوراة موسى ... وأُوقع فى الخسار من اقتراها

فقال رجالُه: وحيٌ أتاه ... وقال الناظرون: بل افتراها

وما حجى إلى أحجار بيت ... كروس الخمر تشرفُ فى ذراها

إذا رجع الحليم إلى حجاهُ ... تهاون بالمذاهب وازدراها

وقوله:

هفت الحنيفة والنصارى ما اهتدت ... ويهود جارت والمجوسُ مضللهْ

اثنان أهل الأرض: ذو عقل بلا ... دينٍ وآخر دَيِّنٌ لا عقل لهْ

(١) تلبيس إبليس (ص ١١٢).

وقوله:

فـلا تحـسب مقـال الرسـل حقًّـا ... ولكـــن قـــول زور ســـطروهُ

وكـــان النـــاس فى عيـــش رغيـــدٍ ... فجـــاءوا بالمحـــالِ فكـــدَّروهُ

وقلت أنا معارضة عليه:

فـلا تحـسب مقـال الرسـل زورًا ... ولكـــنْ قـــولَ حَـــقٍّ بَلَّغُـــوهُ

وكـــان النـــاس فى جهـــلٍ عظيـــم ... فجـــاءوا بالبيـــان فأوضـــحوهُ

وقوله:

إن الـــشرائع ألقـــت بيننـــا إحَنًّـــا ... وأورثتنـــا أفـــانين العـــداواتِ

وهل أبيحتْ نساء الروم عن عُرُضٍ ... للعُـــرْبِ إلا بأحكـــامِ النبـــواتِ

وقوله:

ومـــا حمـــدى لآدم أو بنيـــه ... وأشـــهد أن كلهـــمُ خـــسيسُ

وقوله:

أفيقـــوا أفيقـــوا يـــا غـــواة فإنمـــا ... ديانـــاتكم مكـــرًا مـــن القـــدما

وقوله:

صـــرف الزمـــان مفـــرقُ الإلفيـــن ... فـــاحكم إلهـــى بيـــن ذاك وبينـــى

ونهيـتَ عـن قتـل النفـوس تعمُّـدًا ... وبعثـــت تقبـــضها مـــع الملكيـــن

وزعمـــت أن لهـــا معـــادًا ثانيـــا ... مـــا كـــان أغناهـــا عـــن الحـــالين

وقوله:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة ... وحُـقَّ لـسكان البـسيطة أن يبكـوا

تُحطَمنـــا الأيـــامُ حتَّـــى كأننـــا ... زجـاج ولكـن لا يعـودُ لـه سبكُ

وقوله:

أمـــور تـــستخفُّ بهـــا حلـــومٌ ... ومـا يـدرى الفتـى لمـن الثبـورُ [1]

كتـــاب محمـــدٍ وكتـــابُ موســـى ... وإنجيـــل ابـــن مـــريم والزبـــورُ

وقوله:

قالــت معاشــر لــم يبعــث إلهكــم ... إلــى البريــة عيــساها ولا موســى

وإنمــا جعلــوا الــرحمن مأكلــة ... وصـيَّروا ديـنهم فى النـاس ناموسـا

وذكر ابن الجوزى وغيره أشياء كثيرة تدل على كفره، بل كل واحدة من هذه الأشياء تدل على كفره وزندقته وانحلاله، ويقال: إنه أوصى أن يُكتب على قبره:

هـــذا جنـــاه أبـــى علـــىَّ ... ومـــا جنيـــت علـــى أحـــدْ

معناه أن أباه بتزوجه لأمه أوقعه فى هذه الدار، حتى صار بسبب ذلك إلى ما إليه صار، وهو لم يجن على أحد بهذه الجناية، وهذا كله كفر وإلحاد، قبحه الله.

وقد زعم بعضهم أنه أقلع عن هذا كله وتاب، وأنه قال قصيدة يعتذر فيها من ذلك كله، ويتنصل منه، وهى القصيدة التى يقول فيها:

يـا مـن يـرى مَـدَّ البعـوض جناحهـا ... فى ظلمـة الليـل الـبهيمِ الأليـلِ [2]

ويـرى نيـاط عروقهـا فى نحرهـا ... والمـخُّ فى تلـك العظـام النُّحَّـلِ

امـنُنْ علـىَّ بتوبـة تمحـو بهـا ... مـا كـان منـى فى الزمـان الأولِ

وأُنشدت عند قبره ثمانون مرثاة حتى قال بعضهم فى مرثاة له:

---

(١) الهلاك: وعند الذهبى أول البيت: عقول تستخف بها سطور.

(٢) الكثير الظلمة.

إن كنت لم تُرق الدماء زهادةً فلقد أرقت اليوم من جفني دمًا

قال ابن الجوزى: وهؤلاء الذين رثوه والذين اعتقدوه: إما جُهَّال بأمره، وإما ضُلال على مذهبه وطريقته.

وقد رأى بعضهم فى النوم رجلًا ضريرًا على عاتقه حيتان مدليتان على صدره، رافعتان رأسيهما إليه، وهما ينهشان لحمه، وهو يستغيث، وقائل يقول: هذا المعرى الضرير [1] الملحد.

وذكر ابن خلَّكان أنه أوصى أن يُكتب على قبره...

هذا جناه أبى علىَّ...

قال ابن خلكان: وهذا أيضًا باعتقاد الحكماء، فإنهم يقولون اتخاذ الولد وإخراجه إلى هذا الوجود جناية عليه، لأنه يتعرض للحوادث والآفات. قلت: وهذا يدل على أنه لم يتغير عن اعتقاده، وهو ما يعتقده الحكماء إلى آخر وقت، وأنه لم يقلع عن ذلك كما ذكره بعضهم، والله أعلم بظواهر الأمور وبواطنها [2]. اهـ.

قال الباخرزى: أبو العلاء ضرير ماله ضريب ومكفوف فى قميص الفضل ملفوف، ومحجوب خصمه الألد محجوج، وقد طال فى ظل الإسلام آناؤه، ورَشَحَ بالإلحاد إناؤه، وعندنا خبر بصره، والله العالم ببصيرته، والمطلع على سريرته، وإنما تحدثت الألسن بإساءته بكتابه الذى عارض به القرآن، وعنونه بـ: الفصول والغايات فى محاذاة السور والآيات.

وقال غرس النعمة محمد بن هلال بن المحسن: له شعر كثير، وأدب

---

(١) رأى هذا المنام أبو غالب بن نبهان من أهل الخير والفقه، انظر سير أعلام النبلاء (١٨/ ٣٤).

(٢) البداية والنهاية (١٢/ ٧٧ - ٨١).

غزير، ويُرمى بالإلحاد، وأشعاره دالة على ما يُزَنُّ به (١).

* **قال الذهبى**: ويظهر لى من حال هذا المخذول أنه متحير، لم يجزم بنحلة، اللهم فاحفظ علينا إيماننا.

* **وقال الذهبى**: قد طال المقال، وما على الرجل أُنسُ زُهَّاد المؤمنين، والله أعلم بما خُتم له... ومن خبيث قوله (٢):

أتى عيسى فبَطَّل شرعَ موسى (٣) وجاء محمدٌ بصلاةِ خمسِ

وقالوا لا نبى بعد هذا فَضَلَّ الناس بين غدٍ وأمسِ (٤)

ومهما عِشتَ من دنياك هذى فما تُخْليكَ من قمرٍ وشمسِ

إذا قلتُ المحالَ رفعتُ صوتى وإن قلتُ اليقين أطلت همسى (٥)

* **قال طه حسين فى تجديد ذكرى أبى العلاء:**

أبو العلاء كان منكرًا للنبوات، جاحدًا لصحتها، وقد نَصَّ على ذلك فى اللزوميات صراحة غير مرة، فطورًا يثبت أنها زور، وطورًا يجعلها مصدر الشرور، وافتنَّ فى ذلك افتنانًا عجيبًا، فلم يكتفِ بإنكار النبوات، حتى أنكر الديانات عامة في «الفصول والغايات فى محاكاة السور والآيات».

وأبو العلاء نفسه لم ينكر هذا الكتاب، بل أثبته فى ثبت كتبه، الذى رواه القفطى والذهبى، والناس يُكفرون أبا العلاء بهذا الكتاب، وبما فى رسالة

---

(١) ما يُرمى به ويُتهم.

(٢) اللزوم (٢/ ٥٥ - ٥٦).

(٣) فى اللزوم: دعا موسى فزال وقام عيسى.

(٤) فى اللزوم:

وقيل يجىء دين غير هذا وأودى الناس بين غدٍ وأمس

(٥) وإن قلت الصحيح ... سير أعلام النبلاء (١٨/ ٢٣ - ٣٩).

الغفران من سخرية، وبما فى اللزوميات من إنكار النبوات [١].

* **موقفه من البعث:**

فيقول طه حسين: اضطرب رأى أبى العلاء فى البعث اضطرابًا شديدًا فمرة أثبته، فقال:

قال المنجم والطبيب كلاهما ... لا تُحشرُ الأجسامُ قلت إليكما

إن كان رأيكما فلستُ بخاسرٍ ... أو صح قولى فالخسار عليكما

وتارة ينكره نصًا، بل نفاه أكثر من ستين مرة فى اللزوميات، ومن أشنع قوله فى ذلك:

وزعمت أن لها معادًا ثانيا ... ما كان أغناها عن الحالين

وتارة يقف في أمر البعث موقف الشك فيقول:

يا مرحبًا بالموت من مُتَنَظَّر ... إن كان ثَمَّ تعارفٍ وتلاقِ [٢]

* **موقفه من الجن والملائكة:**

وقال طه حسين: أبو العلاء أنكر الجنَ والملائكة فى اللزوميات نصًا فقال:

قد عشت عمرًا طويلًا ما علمت به ... حسًّا يُحَسّ لجنيٍّ ولا مَلَكِ

وقال:

فاخشَ المليك ولا توجَد على رَهَب ... إن أنتَ بالجنِّ فى الظلماء خُشِّيتا

فإنما تلك أخبار ملفَّقةٌ ... لخدعة الغافل الحشوىّ حوشيتا

ورسالة الغفران مملوءة بالسخرية المؤلمة من الجن والملائكة جميعًا،

(١) المصدر السابق ص ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٢) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٢٧٤ - ٢٧٦.

وقد نظم الشعر فى رسالة الغفران على ألسنة الجن الذين دخلوا الجنة، فقال - وإنما يريد الهزء والسخرية:

مكةُ أقوتْ من بنى الدردبيس ... فما لجنىّ بها من حسيس [1]

*** أصل الإنسان:**

شك فى أصل الإنسان فقال:

جائز أن يكون آدم هذا ... قبله آدمٌ على إثر آدمْ

ثم جزم بذلك فقال:

وما آدم فى مذهب العقل واحدٌ ... ولكنه عند القياس أوادمُ

وتمنى أبو العلاء لو أن الإنسان لم يوجد؛ لأنه شرير مفسد فى الأرض فقال:

يا ليت آدم كان طلق أمهم ... أو كان حرَّمها عليه ظِهارٌ

ولدتهُم فى غير طهر عاركا ... فلذاك تفقد فيهم الأطهارُ

وهو لا يفرق فى حكم العقل بين ابن الحرة وابن الزانية فيقول:

وسيان من أمه حرّة ... حَصانٌ ومن أُمّه زانية

وجازاه الله بنحلته، وبما قال عن ملته بحبس الدنيا قبل الآخرة، فحبسه فى جسده، وهذا أشد الحبس.

واللفظ الذى اختاره لنفسه، وكان يحب أن يُنَادَى به رهين المحبسين وإنما أراد بالمحبسين منزله الذى احتجب فيه، وذهاب بصره، على أنه ذكر لنفسه فى اللزوميات سجونًا ثلاثة: أحدها منزله، والآخر ذهاب بصره. والثالث: جسمه المادى الذى احتبست فيه نفسه أيام الحياة، وذلك حيث يقول:

---

(١) تجديد ذكرى أبى العلاء ص ٢٦٩.

أرانــى فى الثلاثــة مــن ســجونى فــلا تــسأل عــن الخبــر النَّبيــثِ[١]

لفقــدى نــاظرى ولــزوم بيتــى وكــون الـنفس فى الجـسم الخبـثِ

فهذه صورة الأديب الفيلسوف الذى خُدع الناس به طويلًا، الذى أنكر النبوات، عرَّض بالتكليف، وعارض القرآن، وهزئ بشىء من أحكامه:

سيسأل قــوم مــا الحجيــج ومكــةٌ كما قال قوم ما جَديس وما طَسَمْ

هذا الذى رأى التقية:

لا تخبــرنَّ بكنــه دينــك معــشرًا شُــطرًا وإن تفعــل فأنــت مُغــرَّرُ

وقال:

فــاكتم حــديثك لا يــشعر بــه أحــدٌ من رهط جبريل أو من رهط إبليس

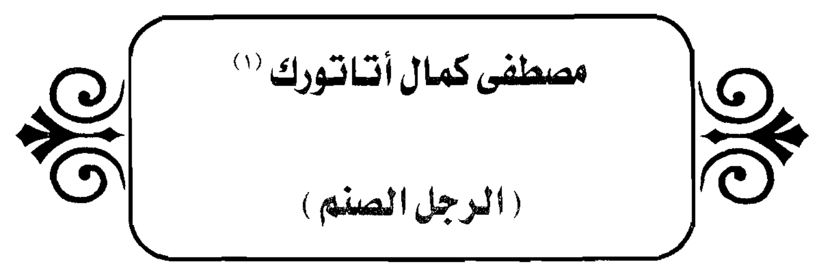
لقد حُبس فى جسده ذليلًا فى دار الدنيا، والله الموعد، ويكفيك أنه رأى أن من الظلم أن يضاف إلى التصعيد والعلو، وإنما العدل أن يضاف إلى السقوط والهبوط، وبها نطق جزاءً وفاقًا، فقال:

دُعيــت أبــا العــلاء وذاك ميــنٌ ولكــن الـصحيح أبــا النــزول[٢]

* * *

(١) انظر تجديد ذكرى أبى العلاء.

(٢) بتصرف من كتاب الجزاء من جنس العمل، للدكتور سيد حسين العفانى (حفظه الله).



مصطفى كمال أتاتورك[1]

(الرجل الصنم)

لا تعجب من قول كثير من المؤرخين: إن أتاتورك كان صربيًّا أو بلغاريًّا لم يتحدث عن والده يومًا، وروايات كثيرة لا تقلّ نسبتها عن تسعين فى المائة من الروايات أنه كان من سِفاح.

إنه مصطفى أتاتورك الذي ألغى الخلافة العثمانية سنة ١٩٢٢، وقال عن الذين يقولون: إن الخلافة والسلطنة وحدة لا يمكن تجزئتها قال: إنها سفسطة معهودة.

وفي اليوم الأول من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٢٣ تُعلن الجمهورية انتخاب مصطفى كمال أتاتورك رئيسًا للجمهورية التركية.

وبعد ٤ أشهر من انتخابه رئيسًا يوفِّى لأسياده الإنجليز وللحاخام نعوم، منفذ الخطة اليهودية لهدم الخلافة العثمانية، فيعطى قراره:

لقد آن وقت إلغاء الخلافة، وتُلغَى معها وزارة الشرعية، ووزارة الأوقاف ولن ندع هناك مدرسة دينية.

يتقرر إخراج الخليفة مع جميع أفراد عائلته من البلاد، وبعد ذلك يُجبَر الأتراك على ارتداء القبعة، وهى العلامة الثالثة عند النصارى بعد الصليب والزنَّار، كانت علامة دينية وُضعت من قِبَل المسيحين أثناء المعارك الصليبية، ثم أصبحت قومية، وقد اعتبرت القبعة كعلامة للكفر بفتوى من

---

(١) هذه الترجمة مأخوذة بتصرف من كتاب الرجل الصنم تأليف ضابط تركى سابق، ترجمة عبد الله عبد الرحمن «مؤسسة الرسالة».

الإمام النووى، وتُنصَب المشانق من أجل المعارضين لارتدائها، ويفرض العلمانية على تركيا، ويقول عنها: إنها تعنى أن نكون آدميين آدميين، ويغير أحرف الكتابة إلى الأحرف اللاتينية.

مصطفى أتاتورك الذى باع أذربيجان للروس، عندما طلب من الأذربيجانيين السماح بدخول الجيوش الروسية بحجة أنها متوجهة إلى مساعدة تركية، وبعد أن دخل البلاشفة إلى أذربيجان لم يخرجوا منها ولم يرسلوا جيوشًا إلى تركيا.

مصطفى أتاتورك الذى على مائدة الخمر، وسط الدعارة والفجور، يشير إلى راقصة داعرة نبيلة هانم، فتقرأ أذان الفجر .

عدوه الأكبر رسول الله ﷺ.

كان فى فندق «بارك»، وكان المؤذن يقرأ الأذان فى المسجد الصغير الكائن أمام الفندق مباشرة، يلتفت أتاتورك لمن حوله قائلًا: من قال بأننا مشهورون؟ وما شهرتنا نحن؟ انظروا إلى هذا الرجل(١) كيف أنه وضع اسمًا وشهرة بحيث أن اسمه يتكرر فى كل لحظة، وفى جميع أنحاء العالم إذا أخذنا فرق الساعات بنظر الاعتبار؛... ليهدموا هذه المنارة.

مصطفى أتاتورك الذى أراد أن تكون لغة الصلاة التركية.

مصطفى أتاتورك الذى من على مائدة الخمر يصدر أمرًا بتحويل مسجد أيا صوفيا إلى متحف.

أمَّا فُحشه وشذوذه وعربدته وسُكْره ومُجونه، فحدِّث ولا حرج، وحدث عن ليالى جانقايا ولا حرج.

---

(١) يقصد رسول الله ﷺ.

يقول شاعره:

لا عنكبـــوت ولا ســـحر...

لتبقـى الكعبـة لـدى العـرب...

لأن جانقايـــا تكفينـــا...

يتزوج من لطيفة هانم، وتجده رجلًا سِكيرًا، ويشاء الله أن يفضحه على لسان زوجته، فهو عديم الرجولة وعِنِّين، بل وشاذ وشذوذه مع وداد بن خالد ضياء معروف، وكان سببًا لطلاق زوجته منه، قالت له: لقد رأيت كل شيء فيك، وتحملت كل شيء ولكنى لا أستطيع تحمل هذا! بعد ما رأته مع هذا الشاب الأمرد.

كانت حياته شرابًا شرابًا للخمر وللعرق، لا يكاد يفيق منه.

يقترب من صبى ويسأله، لو وُضع أمام حمار دلوان فى أحدهما ماء، وفى الآخر عرق[1] فمن أيهما يشرب؟ فقال له الصبى: من العرق يا سيدى.

وكان يقول: إن هذا العرق يعطى النشوة للإنسان.

الغازى أتاتورك الذى كان يذهب إلى دار المعلمات، ويأخذ جَبرًا بنات الأمة البريئات؛ ليفسق بهن، إنه يخطف البنات مثل قُطاع الطريق.

وكان يستعمل وزير خارجيته توفيق رشدى سمسارًا لشهواته.

أما عشيقاته فحدِّث ولا حرج.

أتاتورك الذى ألغى أعياد الفطر والأضحى، وجعل يوم الأحد يوم العطلة الأسبوعية بدلًا من الجمعة، ومنع الحج، بل وأغرب من هذا أن الذى رمرم من فتات الغرب قوتًا ، له واقعة مثيرة تنقلها جريدة الأهرام التى قامت بنقلها من جريدة صنداى تايمز في يوم الخميس ١٥ فبراير سنة

(١) خمر.

١٩٦٨، تحت عنوان: كمال أتاتورك رشح سفير بريطانيا ليخلفه فى رئاسة الجمهورية التركية!!! هل بعد هذا تبعية وولاء لبريطانيا التى أسقطت دولة الخلافة على يد عميلها أتاتورك.

وأخيرًا: لم تظهر الفاحشة فى قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التى لم تكن فى أسلافهم.

وأى ظهور للفاحشة أكثر من الرقص، والعهر، والاغتصاب، والعشيقات والبنات بالتبنى للممارسة الرذيلة ... ورقص النساء عاريات، وسط موائد الخمر.

أراد أتاتورك أن يمتع نفسه بالشهوة الحرام، فابتلاه الله بالأوجاع والأسقام والجزاء من جنس العمل.

وحرمه الله من الرجولة ونعمة الأولاد، لأنه كان عقيمًا بسبب إصابته بالزهرى وبسببه أُصيبت زوجته بالسيلان المزمن.

ولم تتورع امرأته عن إذاعة سر عقمه.

والجزاء من جنس العمل.

وفى مرض موته، فى قصره ابتلاه الله بحشرات صغيرة حمراء لا تُرى بالعين، حتى اضطرته إلى الحكِّ والحك الشديد أمام زُوَّاره، حتى ظهرت على وجهه، وأمر بتعقيم البيت بأقوى الأدوية وأكثرها فاعلية.

ويكتب مستشار وزارة الصحة ما يلى: نعم صحيح أنه وُجد نمل فى بعض أرجاء القصر، حتى إن المختصين أثبتوا أنه نوع من النمل المهاجر من الصين إلى أوروبا، ولم يكن يخطر ببال أحد احتمال أن هناك وراء الحكة سببًا آخر لذلك فقد روجعت هيئة الأركان العامة، حيث أحيل الأمر إلى متخصصين من القوة البحرية ، ويحضر طاقم من مدمرة ياووز، لتصيد

النمل الذى فى القصر، مدمرة ياووز الموجودة فى ميناء أزميت يا للجنون!!
فلِمَ لم يطلبوه من حامية أنقرة، جنود ومدمرة لسحق النمل!!
﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ (١).

وانظر إلى حكمة الله؛ فإنه بالرغم من كونه مُحاطًا بالأطباء والأخصائيين وأساتذة الطب، لم يكتشفوا أنه كان مريضًا بالكبد، وذاق مر العذاب من سنة ١٩٣٦ حتى اكتشفوا المرض سنة ١٩٣٨ الذى يعرفه أقل الأطباء معرفة بالطب. وابتلاه الله بتليف الكبد الذى أدى إلى الاستسقاء، واحتاج إلى سحب الماء من بطنه بالإبر، وكان يصيح بمن حوله والأطباء: اسحبوا المياه (٢) حالًا .. اسحبوها كلها... لا تدعوا شيئًا منها.

وفى يوم الخميس العاشر من أكتوبر يرحل إلى مزبلة التاريخ .. يرحل عن هذا العالم ويدور جدال حول الصلاة عليه، وكان من رأى رئيس الوزراء ألَّا يُصلَّى عليه، وحدث خلاف مع قائد الجيش الأول، وأخيرًا وبعد جدل وافقوا أن يُصلَّى عليه، ولكن مَن الذى أَمَّ الناس؟

إذا كان الغراب دليلَ قوم فلا فلحوا ولا فلح الغرابُ

إنه مدير الأوقاف شرف الدين أفندى الذى أصبح رئيسًا للشئون الدينية فى عهد أينونو؛... حاول إقناع أينونو بالقيام بكفر لم يستطع أتاتورك نفسه القيام به، وهو جعل الترجمة التركية للقرآن الكريم لغةً للعبادة، وفرض قراءتها فى الجوامع، بقوة القانون... ويالله أتاتورك يصلى عليه شرف الدين هذا، وافق الشن الطبق، وعرضوا جثمانه لزيارة الناس ثلاثة أيام بلياليها، ومات نتيجة الأزدحام الشديد أربعة عشر شخصًا...وهكذا كانت نهايته.

---

(١) سورة المدثر: الآية: (٣١).

(٢) أى من بطنه.

حمزة البسيوني

قائد السجن الحربى من سنة ١٩٥٤ حتى سنة ١٩٦٥:

يقول فيه القرضاوى وفى سجنه:

هذا هو الحربى معقل ثورة ... تدعو إلى التحرير والتكوينِ
فيه زبانية أُعدوا للأذى ... وتخصصوا فى فنِّه الملعونِ
متبلدون عقولهم بأكفهم ... وأكفهمْ للشرِّ ذاتُ حنينِ
بالرجل بالكرباج باليد بالعصا ... وبكل أسلوبٍ خسيسٍ دونِ
لا يعبؤون بصالح ولو أنه ... فى زهد عيسى أو تُقى هارونِ
لا يرحمون الشيخ وهو مُحطَّمٌ ... والظَّهر منه تراه كالعرجونِ
لا يشفقون على المريضِ وطالما ... زادوا أساهُ بقسوةٍ وجنونِ
كم عالمٍ ذى هيبة وعمامةٍ ... وطَئوا عمامته بكل مجونِ
لو لم تكن بيضاء ما عبثوا بها ... لكنها هانت هوان الدين
من ظن قانونًا هناك فإنما ... قانوننا هو حمزة البسيونى
جلاد ثورتهم وسوط عذابهم ... سَمُّوه زورًا قائدًا لسجونِ
وجهٌ عبوسٌ قمطريرٌ حاقدٌ ... مستكبرُ القسمات والعِرنينِ
في خدِّه شجٌّ ترى من خلفه ... نفسًا معقدة وقلب لعين[1]
متعطش للسوء فى الدم والغٍ ... فى الشرِّ منقوع به معجونِ

---

(١) الراجح من مذهب أهل السنة والجماعة عدم نسبة المعين إلى اللعن ما دام فى دار الدنيا. ولا يعلم أحد بمَ خُتم له بالإسلام أم بغيره.

ومن اشتكى الظلم وآثار التعذيب فى المحاكم الصورية:

سيعود للحربى يأخذ حظَّه وجزاءه الأوفى من البسيونى

ويقول القرضاوي:

أنا إن نسيتُ فلستُ أنسى ليلةً فى ساحة الحربى ذاتَ شجونِ

عُدنا المساء من المحاكمة التى كانت فصول فكاهة ومجونِ

ما كاد يعرونا الكرى حتى دعا داعى الرَّدَى وكفاك صوت أمينِ[1]

وإذا بقائدنا المظفر حمزة فى عسكرٍ شاكى السلاح حصينِ

حشد الجنودَ وصفَّها بمهارةٍ وكأنه عمرو بأجنادينِ

وأحاطنا ببنادقٍ ومدافع فغرت لنا فاهًا كَفِيِّ التنينِ

طابور تكدير ثقيل مرهق فى وقت أحلام وآن سكونِ

نعدو كما تعدو الظباءُ يسوقُنا لَهَبُ السياط شكتْ من التسخينِ

ومضت علينا ساعتان وكلنا عرق تصبَّب مثل فيضِ عيونِ

مَنْ خَرَّ إغماءً يَفِقْ عَجَلًا على ضربات صوتٍ للعذاب مهينِ

ومن ارتمى فى الأرض من شيخوخةٍ أو عِلَّةٍ داسوه دَوْس الطينِ

لم يكفِ حمزةَ كلُّ ما نؤنا بهِ من فرط إعياءٍ ومِن تهوينِ

فأتى يوزع بالمفرَّق دفعةً بالسوط من عشرين للخمسينِ

كُلٌّ ينالُ نصيبه بنزاهةٍ فى العد والإتقان والتحسينِ

وإذا نسيتُ فلستُ أنسى خطبة ما زال صوت خطيبها يشجينى

(١) أمين السيد رقيب أول السجن الحربى، كانت فى يده سلطات مطلقة، ويستطيع أن يعذب إلى حد الموت، وكان يرى نفسه كأنه أحد قادة الثورة.

إذ قــال حمــزة وهــو منــتفخٌ فَلَــم ... يتــــرك لفرعــــونٍ ولا قـــارونِ
أين الألى اصطنعوا البطولـة وادَّعَـوا ... أنــى أعــذبهم هنــا بــسجونى؟!
أظننتمـــو هـــذا يخفـــف عـــنكم ... كـــلا فـــأمركم انتهـــى وسـلونى
أم تحـسبون كـــلام ألـــفٍ مـــنكمُ ... عـــنكم وعـــن تعـــذيبكم يُثنينـــى؟
إنـــى هنـــا القـــانون أعلـــى سـلطةٍ ... مـــن ذا يحاســـب ســـلطة القـــانونِ
متفـــرد فى الحكـــم دون معقـــبٍ ... مـــن ذا يخـــالفنى ومـــن يعـــصينى؟
فـــإذا أردتُ وهبـــتكم حريـــةً ... أو شـئت ذقـتم مـن عـذابى الهـونِ
مـــن مـــنكُم ســـامحته فبرحمتـــى ... وإذا أبيـــت فـــذاك طـــوع يمينـــى
ومـــن ابتغـــى موتًـــا فهـــا عنـــدى لـــه ... مـــوتٌ بـــلا غُـــسلٍ ولا تَكفيـــنِ!!

هذا الزنديق؛ قال مرة للإسلاميين أثناء تعذيبهم: هـاتوا لـى ربكـم وأنـا أضعه فى الحديد ... أحطه فى زنزانة.

فماذا كان جزاؤه؟

أماته الله شر ميتة.

حيث صَدم بسيارته شـاحنة كبيـرة مـن الخلـف مُحملـة بأسياخ الحديد فدخلت الأسياخ فى جسمه، وأخـذ يـصيح، ولا منقـذ، واجتمـع النـاس مـن حوله فى طريق الإسكندرية - القاهرة [١].

جزاءً وفاقًا ... حديد بحديد

والجزاء من جنس العمل

ولعذاب الآخرة أشد وأنكى [٢].

---

(١) انظر التعليق على ديوان نفحات ولفحات للقرضاوى.

(٢) الجزاء من جنس العمل (١/ ٤١٣ - ٤١٥).

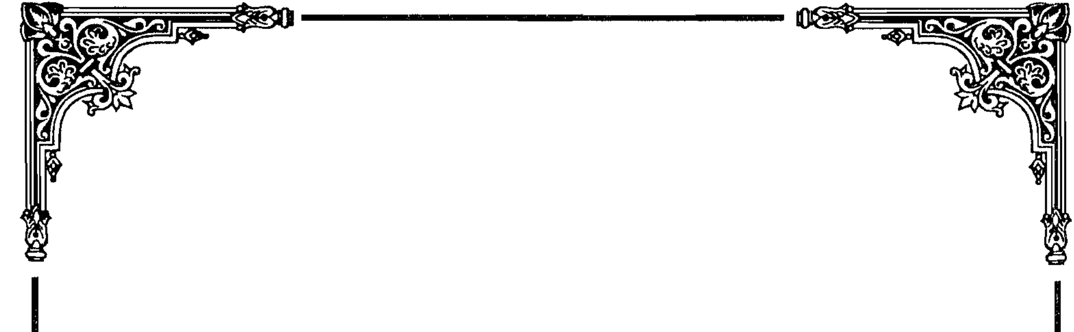
كلبٌ يقتل رجلاً نصرانيًّا لأنه يسب الرسول ﷺ

كان النصارى ينشرون دُعاتهم بين قبائل المغول من أجل تنصيرهم، وقد مكَّن لهم الطاغية هولاكو طريق الدعوة بسبب زوجته الصليبية (ظفر خاتون)، وذات مرة توجه جماعة من كبار النصارى لحضور حفل مغولى كبير عُقد لسبب تنصُّر أحد أمراء المغول، فجعل واحد منهم يتنقص النبى ﷺ ويسبه، وكان هناك كلب صيد مربوط، فلما أكثر الصليبى الخبيث من ذلك زمجر الكلب ووثب عليه فخمشه فخلصوه منه بعد جهد، فقال بعض مَن حضر: هذا بكلامك فى حق محمد ﷺ، فقال: كلا، بل هذا الكلب عزيز النفس؛ رآنى أشير بيدى فظن أنى أريد أن أضربه، ثم عاد إلى ما كان فيه من سب النبى ﷺ فأطال، فوثب الكلب مرة أخرى على عنق الصليبى وقلع زوره فمات من حينه، فأسلم بسبب ذلك نحو أربعين ألفًا من المغول[1].

* * *

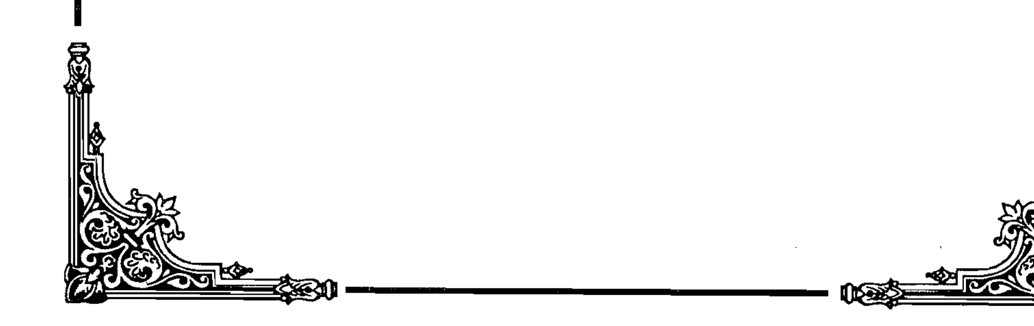
(١) الدرر الكامنة لابن حجر (٣/ ٢٠٢).





قصص وعبر

من نهاية الظالمين



قصص وعبر من نهاية الظالمين

وها أنا أسوق لحضراتكم تلك الباقة من القصص التى توضح لنا كيف تكون نهاية الظالمين فى الدنيا وكيف أن الله ﷻ يُملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته ... وكل هذا غير ما يدّخره الله للظالم من النكال والعذاب فى الآخرة.

أسأل الله ﷻ أن يُجيرنى وإياكم من الظلم ... إنه ولى ذلك والقادر عليه.

* * *

جزاء أول من سَنَّ القتل

* وها هو جزاء قابيل الذى قتل أخاه هابيل حينما تقبل الله قُربان هابيل ولم يتقبل قُربان قابيل فقام قابيل وقتل أخاه هابيل ليكون بذلك أول مَن سَنَّ جريمة القتل فى هذا الكون .... وها هى قصة قابيل وهابيل:

* لما استقر آدم وزوجته حواء فى الأرض بدأت الحياة الزوجية تكتمل فكان لابد من وجود ذرية لتعمر الأرض وليستمر نسل آدم عليه السلام إلى يوم القيامة.

* لقد بدأت حواء تحمل وتلد لآدم أولادًا كثيرين .. فكانت تلد فى البطن الواحدة ولدًا وبنتًا.

وكبر أولاد آدم عليه السلام وتزوجوا وامتلأت الأرض بذريته .. وكان دائمًا يدعوهم إلى الله ويحضهم على طاعته ويحذرهم من معصيته.

* وفى يوم من الأيام ولدت حواء ذكرًا وأنثى وبعد فترة وضعت ذكرًا وأنثى فسمى آدم أحدهما قابيل والآخر هابيل.

وكان فى شرع آدم عليه السلام لا يجوز للابن أن يتزوج أخته التى وُلدت معه فى بطن واحدة ولكن يجوز له أن يتزوج من أخته التى وُلدت قبله أو بعده .. المهم ألا تكون معه فى بطن واحدة.

* وفى يوم من الأيام جاء هابيل يريد أن يتزوج من أخت قابيل وكانت أجمل من أخت هابيل فوافق آدم عليه السلام ؛ ولكن قابيل رفض بكل شدة وأراد أن يتزوج من توأمه لأنها كانت أجمل من توأم هابيل.

وأخذ إبليس يزرع الحقد والحسد فى نفس قابيل على أخيه هابيل.

* فقام آدم عليه السلام وأمرهما أن يقدما قُربانًا إلى الله (جل وعلا) فمن تقبل

الله قربانه يتزوج أخت قابيل.

* فخرج قابيل إلى زرعه وأخرج بعض الأعواد من أسوأ وأردأ أنواع الزروع وقدمها قُربانًا لله (جل وعلا).

* وأما هابيل فإنه أسرع إلى غنمه واختار كبشًا سمينًا من خيار ماشيته وقدمه قُربانًا لله (جل وعلا).

ووقف الاثنان ينتظران ماذا يحدث فى شوق ولهفة.

فنزلت نار من السماء فأكلت الكبش ولم تأكل قربان قابيل فلقد تقبل الله قربان هابيل.

* هنا غضب قابيل غضبًا شديدًا وذلك لأن الله تقبل قربان هابيل ولم يتقبل قربانه .. وامتلأت نفسه بالحقد والحسد وقرر فى لحظة - من نزغات الشيطان - أن يقتل أخاه هابيل.

* وكان هابيل قويًّا شديدًا يستطيع أن يدافع عن نفسه بل ويقتل قابيل ولكنه كان يخاف من الله ويعلم يقينًا أنه لو قتل أخاه فإن الله سيغضب عليه غضبًا شديدًا.

قال تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

وأراد هابيل أن ينبه أخاه إلى أن جزاء من يقتل أخاه النار، فقال له: ﴿إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

(١) سورة المائدة: الآيتان: (٢٧، ٢٨).

(٢) سورة المائدة: الآية: (٣٩).

* وفى هذا الكلام الذى قاله هابيل أكبر دليل على أن آدم عليه السلام كان يدعو أولاده إلى الله ويُعلمهم الحلال والحرام ويُعرفهم بالجنة والنار والجزاء والحساب ويحذرهم من الوقوع فى الظلم لأن الظلم ظلمات يوم القيامة.

* ذكر أهل العلم أن آدم كان مباشرًا لتقريبهما القربان والتقبل من هابيل دون قابيل، فقال قابيل لآدم: إنما تقبل منه لأنك دعوت له ولم تدع لى،... وتوعَّد أخاه فيما بينه وبينه. فلما كان ذات ليلة أبطأ هابيل فى الرعى، فبعث آدم أخاه قابيل لينظر ما أبطأ به، فلما ذهب إذ هو به، فقال له: تقبل منك ولم يتقبل منى.

فقال هابيل: إنما يتقبل الله من المتقين.

فغضب قابيل عندها وضربه بحديدة كانت معه فقتله.

وقيل: إنه إنما قتله بصخرة رماها على رأسه وهو نائم فشدخته.

وقيل: بل خنقه خنقًا شديدًا وعضه كما تفعل السباع، فمات.. والله أعلم[1].

قابيل يتعلم الدفن من الغراب

ولما قتل قابيل أخاه هابيل جلس أمامه عاجزًا لا يدرى ماذا يصنع ولا يدرى ماذا يقول لأبيه آدم عليه السلام .. ولو أنكر أنه هو الذى قتل هابيل فأين يوارى جثته؟

وكانت هذه أول جريمة قتل تُرتكب على وجه الأرض.. ولم يكن أحدٌ على وجه الأرض يعلم شيئًا عن دفن الموتى لأن هذا كان أول ميت على الأرض.

(١) قصص الأنبياء/ للحافظ ابن كثير (ص: ٥١، ٥٢).

* حمل قابيل جثة هابيل وأخذ يمشى بها فى الأرض لا يدرى أين يذهب، وفجأة أحس بالتعب فجلس يستريح قليلًا .. وبينما هو جالس إذ أرسل الله غرابين يقتتلان فقتل أحدهما الآخر ثم قام الغراب القاتل وأخذ يحفر فى الأرض حفرة كبيرة ثم وضع فيها الغراب المقتول ودفنه وغطاه بالتراب فعلم قابيل كيف يدفن أخاه هابيل وكان فى تلك اللحظة نادمًا أشد الندم على قتل أخيه هابيل.

فحفر حفرة فى الأرض ودفن أخاه هابيل وهو يبكى حزنًا عليه.

﴿قَالَ يَـٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَٰرِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ﴾[1].

قال ﷺ: «ما من نفسٍ تُقتَل ظُلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كِفلٌ من دمها؛ لأنه أول مَن سَنَّ القتل»[2].

* وهكذا .. فكل من قُتل من زمن آدم عليه السلام وإلى قيام الساعة فهو فى ميزان سيئات قابيل.

* * *

(١) سورة المائدة: الآية: (٣١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٣٣٦) كتاب أحاديث الأنبياء، ومسلم (١٦٧٧) كتاب القسامة.

عدالة السماء

يُحكى أنه: كان في بني إسرائيل رجل يعمل بالقضاء، وكانت زوجته جميلة، وطيبة ومؤمنة وصابرة.

وأراد ذات يوم أن يسافر لزيارة أقاربه، فنادى أخاه وقال له: سوف أترك لك العمل - يقصد عمله كقاضٍ - وإنني أوصيك بالناس فإذا حكمت بينهم في شأن لهم فكن يا أخي عادلًا تقيًّا، ولا يغرنك الباطل وزيفه فتضيع حقوق الله أو المظلومين.

فقال له أخوه: أفعل إن شاء الله.

فقال القاضي لأخيه: وإن هذه زوجتي أوصيك بها.

ثم سلم عليه وخرج في رحلته.

وما كاد الجمل الذي يركب عليه القاضي يختفي عن الأنظار حتى جاء الأخ إلى زوجة أخيه التقية المؤمنة وأخذ يراودها عن نفسها، ويحدثها عن جمالها ويغريها بالمال تارة وبالذهب أخرى.

والزوجة الصالحة ترفض أن تخون زوجها، وتُغضب ربها.

فجلس الأخ يفكر ماذا يفعل قبل أن يفتضح أمره عند أخيه وعند الناس أنه خائن للأمانة، فدبر لها مكيدة، فقام في الناس وصاح فيهم: إن زوجة القاضي خائنة، وإنه ضبطها متلبسة مع عشيق لها... وجاء بشهود زور دفع لهم بعض الذهب ليشتري شهادتهم.

وشهادة الزور من أكبر الكبائر،... وشهد شهود الزور على الزوجة الصالحة بالزنا، ورفع أمرها إلى الملك، فأمر الملك برجمها.

فحفروا لها حفرة ورُجمت حتى غطتها الحجارة، ولكنها لم تكن قد

ماتت بعد، فأخذت تئن من الألم، فسمعها رجل طيب كان يعلم أن هذا الأخ شرير وأن السيدة بريئة وطاهرة فحملها فى ظلام الليل إلى بيته وطلب من زوجته أن تهتم بأمرها وأن تعالجها مما بها من جروح.

وبعد أن شُفيت أعطت زوجة الرجل الطيب ابنها للمرأة الصالحة المظلومة لتربيه لها، وذات ليلة هجم عليها أحد اللصوص ليسرقها، فلما رأته صرخت فقام بضربها بالسكين، فجاءت فى الطفل المسكين فسقط قتيلًا.

فحملته وذهبت تبكى وتحكى لأمه ما حدث، فلم تصدقها وظلت تضربها وحبستها وأخذت كل يوم تعذبها وتحرقها بالنار.

ولكن الرجل الصالح أطلق سراحها وقال لها: اخرجى يا أمة الله من هذه القرية، لعل الله أن ينجيك - وأعطاها بعض الدراهم.

وأثناء سيرها شاهدت المرأة المظلومة رجلًا مصلوبًا على جذع شجرة، فسألت عن قصته؟

فقيل لها: إنه قتل بطريق الخطأ رجلًا، وكان عليه أن يدفع ديته إلى أهله، ولم يكن معه فكان الحكم بصلبه حتى الموت، فأعطتهم الدراهم التى معها فخلوا سبيله.

فشكر لها الرجل صنيعها ودعا لها وأخذ يحتطب ويبيع الحطب ويأتيها بين الحين والآخر بطعامها، وكانت قد بنت عشة صغيرة وأخذت تتعبد إلى ربها، وأصبح الناس يأتونها لتدعو لهم، فإذا جاءها مريض دعت الله له فيشفى بإذن الله، واشتهرت هذه المرأة بالصلاح، وأن دعاءها مستجاب.

وشاء الله أن يمرض شقيق زوجها الظالم الذى اتهمها ورجمها مرضًا

شديدًا، كما أصيبت المرأة التى اتهمتها بقتل ولدها، وكذلك السارق الذى قتل الطفل أصيب أيضًا بالمرض، وقيل لهم: اذهبوا إلى العابدة المستجابة الدعاء لتدعو لكم جميعًا.

وكان زوجها قد عاد من سفره، فسأل عنها فقيل له: إنها رُجمت ودُفنت بما فعلت من إثم، فحمد القاضى ربه على حاله.

وبعد تسلمه عمله بالقضاء قال له الناس: إن هناك امرأة صالحة، احمل أخاك إليها لتدعوَ له الله ليشفيه، فحمله وسار به إليها، واصطحب معه المرأة التى كانت تعذبها، والسارق القاتل، وشهود الزور الذين كانوا قد أصيبوا أيضًا بالمرض، وعندما وصلوا إليها فلما رأتهم عرفتهم فقالت لهم: إن شفاءكم جميعًا فى أن يعترف كلٌّ منكم بذنبه ويستغفر ربه ويطلب السماح ممن ظلمهم.

فقال شقيق القاضى: لقد ظلمت زوجتك ورجمتها ظلمًا.

وقال شهود الزور: لقد شهدنا بالزور فأصابنا المرض.

فقال القاضى: سامحك الله يا أخى وعفا عنك إن شاء الله.

وقالت المرأة: لقد ضربت وعذبت تلك المرأة واتهمتها أنها قتلت ابنى، وها هو القاتل أمامى طليق.

فقال السارق: لقد قتلت الطفل وكنت أقصد المرأة وسرقتها.

فقالت المرأة العابدة: اللهم كما أريتهم جزاء الظلم، اللهم فإن المرأة المظلومة الصابرة قد سامحتهم جميعًا.

فنظر إليها القاضى وقال: أأنك يا زوجتى التقية الصالحة لا زلت على قيد الحياة؟

قالت له: نعم، إن الله يدافع عن الذين آمنوا، وقد أنجاني وبرأني، فالحمد لله على ذلك.

فطلب منها الجميع أن تسامحهم، وأن تعفو عما فعلوا بها.

فسامحتهم جميعًا وأخذوا يبكون ويستغفرون الله.

وشفاهم الله بفضل استغفارهم وتوبتهم، ثم بدعاء المرأة الصالحة لهم.

* * *

جزاء الفجور في الحرم

كان من الأصنام الموضوعة حول الكعبة فى الجاهلية: إساف ونائلة. وكان لهما قصة عجيبة فتأملها:

قال هشام[١]: حدث الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس أن إساف رجل من جُرْهُم يقال له: إساف بن يعلى، ونائلة بنت زيد من جرهم، وكان يتعشقها فى أرض اليمن فأقبلا حُجَّاجًا فدخلا البيت فوجدا غفلة من الناس وخلوة من البيت ففجر بها فى البيت، فمُسخا فأصبحوا فوجدوهما ممسوخَين فأخرجوهما موضعهما.

قال هشام: لما مُسخا حجرين وُضعا عند البيت ليتعظ الناس بهما.

* * *

(١) تلبيس إبليس/ للإمام ابن الجوزى.

قَتلةُ عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، فإنها لا تدع آمنًا إلا خوَّفته، ولا صحيحًا إلا أتعبته، ولا جمعًا إلا فرَّقته، ولا خيرًا إلا شتَّتته، وهى مرض عضال ينخر فى أوصال المجتمع حتى يتركه أشلاءً ممزقة وأوصالًا مفرقة.

وقد تعلَّم الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ من معلمهم، ﷺ التعوذ من الفتن واللجوء والاعتصام بالله العظيم منها،... ولا يثير الفتن إلا أهل النفاق والشقاق، ولقد كان للفتنة التى كانت فى عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أبلغ الأثر فى نفوس المسلمين، ولست كاتب سيرة أستوفى ما ورد فيها، لكنى أريد أن أنبه على تأثير دعوة المظلوم، إذ عاقب الله تعالى كل من اشترك فيها عاجلًا، وقَدِموا على ما قَدِموا وأمرهم إلى الله الذى لا تخفى عليه خافية، ومثيرها هو عبد الله بن سبأ (قاتله الله وأخزاه)، وقد حرض الخوارج المارقين من الإسلام مروق السهم من الرمية على حصاره، فحاصروه من أواخر ذى القعدة إلى يوم الجمعة الثامن عشر من ذى الحجة سنة ٣٥ هـ، وقد دخلوا داره وخيَّروه بين ثلاثٍ أحلاها مُرٌّ، إما أن يخلع نفسه عن إمرة المؤمنين وإما أن يقتص لهم من نفسه، وإما أن يقتلوه، فقال: أما خلع نفسى فما كنت لأخلع سربالًا سربلنيه الله تعالى.

وأما القصاص فما كنت لأفعل ذلك لعدم وجود جناية تستحق ذلك، وأما قتلِى فأمرى لله وحده، فدخل عليه محمد بن أبى بكر وأخذ بلحيته فقال له: مهلًا يا ابن أخى فوالله لقد أخذت مأخذًا ما كان أبوك ليأخذ به فخجل وتركه، ثم تتابع القوم عليه والمصحف فى يده يقرأ وهو صائم يوم جمعة، وقد رأى فى المنام رسول الله ﷺ، وهو يقول: «ارجع فإنك مفطر

عندى غدًا» وكانت أول قطرة دم على قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ ولما بلغ سعد بن أبى وقاص قتله قال: «اللهم أندمهم ثم خذهم» وقد أقسم بعض السلف بالله العظيم أنه ما مات أحد من قتلة عثمان إلا مات مقتولًا، ذكره ابن جرير،... وقد قال السلف: ما مات أحد من قتلة عثمان إلا وقد أصابه الجنون، وذكر الواقدى أن عمير بن ضابى قفز ووثب على سرير عثمان وهو موضوع للصلاة عليه فكسر ضلعًا من أضلاعه، وقال أحبست ضابيًا حتى مات فى السجن، فسلط الله على عمير هذا أظلم منه إذ تتبعه الحجاج حتى ظفر به فحبسه ثم قتله.

❊ ❊ ❊

يبَّس الله يدك وأعمى بصرك ولا غفر ذنبك

تهون بعض النفوس عند أصحابها فتتدنس بدنس المعصية وتتلوث بقبح السريرة، وأصحاب هذه النفوس كالخفافيش التى لا تخرج إلا فى الليل لتعمل فى الظلام كل قبيح، وتترك كل مليح، وتعيب كل فصيح، وما حب هؤلاء للظلام، إلا للظلام الذى فى قلوبهم، والظلام الذى فى جوارحهم، وفى مناهجهم، وفى حياتهم كلها فهم فى ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورًا فما له من نور، والله تعالى يتولى أولياءه فيُخرجهم من الظلمات إلى النور، والطاغوت يغوى أتباعه فيخرجهم من النور إلى الظلمات.

وقد ابتلى أمير المؤمنين الخليفة الراشد الذى تستحى منه الملائكة، السابق لكل خير، والمحذر من كل شر، المنفق لماله فى سبيل الله، والصارف لوقته فى رضوان الله، الذى نصر الله ورسوله وجاهد بنفسه وماله وولده فى سبيل الله، المحبوب للقلوب المؤمنة، عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ابتُلى بمن لا خلاق لهم، ممن أطاعوا الهوى والشيطان، وأغضبوا الرحمن فآذوا هذا الولى من أولياء الله الذى بُشِّر بالجنة وهو لا يزال فى الدنيا فقد روى شداد الأعمى عن بعض أشياخه من بنى راسب قال: كنت أطوف بالبيت فإذا رجل أعمى يطوف بالبيت ويقول فى طوافه: اللهم اغفر لى وما أراك تفعل.

قال: فقلت له ألا تتقى الله أيها الرجل، فإن عفو الله أعظم من ذنبك ورحمة الله وسعت كل شىء، ولو جئت بملء الأرض ذنوبًا ثم تبت واستغفرت وأنبت وصدقت مع ربك قَبِل الله توبتك، وما كان الله ليعذبك

وأنت تستغفر .. ألم تسمع لقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[1]، ألم تسمع قول رسول الله ﷺ في حديث شداد بن أوس: سيد الاستغفار أن تقول: «**اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت، خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علىَّ، وأبوء لك بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، من قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يُمسى فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة**»[2].

فقال الرجل: إن لى شأنًا ... آليت أنا وصاحب لى لئن قُتل عثمان بن عفان لنلطمن وجهه، فدخلنا عليه وإذا برأسه فى حجر زوجته ابنة الفرافصة، فقال لها صاحبى: اكشفى عن وجهه، قالت: ولِمَ. قال لألطم وجهه، قالت: أما تذكر ما قال فيه رسول الله ﷺ، قال فيه كذا وكذا، وأخذت تعدد مناقبه، قال: فاستحى صاحبى ورجع فقلت لها اكشفى عن وجهه.

قال: فذهبت تدعو علىَّ وتسأل الله أن يكفيه شرى، قال: فلطمت وجهه بعد كشفى عن وجهه فقالت: ما لك: يبَّس الله يدك، وأعمى بصرك، ولا غفر لك ذنبك. قال: فوالله ما خرجت من الباب حتى يبست يدى، وأعمى الله بصرى، وما أراه يغفر لى ذنبى[3]، ولا يؤذى الناس إلا صاحب قوة فى يده وقوه فى بصره، فمن شل الله يده سلم المسلمون من يده، ومن أعمى الله بصره قعد فى بيته لا يتعرض لأحد ولا يبصر أحدًا، وعثمان صاحب

(١) سورة الأنفال: الآية: (٣٣).

(٢) صحيح: رواه البخاري (٦٣٠٦) كتاب الدعوات.

(٣) مجابو الدعوة.

سابقة فى الإسلام، لو أنفق أحدنا مثل أُحدٍ ذهبًا ما بلغ مُدَّ عثمان ولا نصيفه، ويكفى أنه من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، وهو الذى بايع الرسول ﷺ عنه بيعة الرضوان وهو الذى نفَّس عن كثير من المسلمين عُسرهم ولسنا فى معرض ذكر مناقبه وصفاته فهو أشهر من نار على جبل رضي الله عنه

وقد روى حميد بن هلال أنه لما حُصر عثمان رضي الله عنه أتته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فجاء رجل واطلع عليها فى خِدرها وجعل يصفها للناس، فقالت: ما له يفعل هكذا ويقول هكذا قطع الله يده وأبدى عورته، فدخل عليه داخل فى داره وضربه بالسيف فاتقى بيمينه فقطعها الجانى. فانطلق هذا الرجل هاربًا بعد قطع يده آخذًا إزاره بفيه وقد بدت عورته [١].

فالحذر ثم الحذر من أذية الصالحين والويل لمن أذاهم أو وقع فى أعراضهم فإن العقوبة قد تكون عاجلة وقد تكون آجلة، والحذر من تتبع عورات المسلمين أو الاطلاع على محارمهم، فإن ذلك عمل شنيع، ومنكر فظيع، لا يعمله إلا الخاسرون [٢].

* * *

(١) مجابو الدعوة.

(٢) اتق دعوة المظلوم (١٠٤ - ١٠٦).

جزاء من شتم علي بن أبي طالب رضي الله عنه

عن مصعب بن سعد، عن سعد أن رجلًا نال من (عليٍّ) رضي الله عنه فدعا عليه سعد بن مالك [١]، فجاءته ناقة أو جمل فقتله فأعتق سعد نسمة وحلف ألَّا يدعو على أحد [٢].

وفى رواية: عن قيس بن أبى حازم قال: كنت بالمدينة فبينا - فبينما - أنا أطوف فى السوق إذ بلغت أحجار الزيت فرأيت قومًا مجتمعين على فَارِسٍ قد ركب دابة وهو يشتُم على بن أبى طالب والناس وقوف حواليه إذ أقبل سعد بن أبى وقاص فوقف عليهم فقال: ما هذا؟ فقالوا: رجل يشتم على بن أبى طالب فتقدم سعد فأفرجوا له حتى وقف عليه فقال: يا هذا عَلَامَ تشتم على بن أبى طالب؟ ألم يكن أول من أسلم؟ ألم يكن أول من صلَّى مع رسول الله ﷺ؟ ألم يكن أزهد الناس؟ ألم يكن أعلم الناس؟ وذكر حتى قال: ألم يكن ختن رسول الله على ابنته؟ ألم يكن صاحب راية رسول الله ﷺ فى غزواته؟ ثم استقبل القبلة ورفع يده وقال: اللهم إن هذا يشتم وليًّا من أوليائك فلا تُفرق هذا الجمع حتى تريهم قدرتك. قال قيس: فوالله ما تفرقنا حتى ساخت به دابته فرمته على هامته فى تلك الأحجار فانفلق دماغه ومات [٣].

* * *

(١) هو سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الحاكم فى المستدرك (٣/ ٤٩٩) وقال العدوى: إسناده حسن.

(٣) أخرجه الحاكم (٣/ ٤٩٩)، وقال: هذا الحديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ووافقه الذهبى.

اللهم أعم بصرها وألقها في بئرها

يحلو لبعض الناس أن يتشدق بالكذب ليشفى غليله ويُرضى شيطانه فيتهم البرىء بأفظع التهم، ويلصق به أشنع الافتراءات، وهذا ما حصل من المرأة الظالمة أروى بنت أويس مع الصحابى الجليل سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل، إذ اتهمته بما هو برىء منه وادَّعت عليه ما كذبت فيه ولكن الله يملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفلته.

ففى زمن بنى أمية وقعت لسعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حادثة عظيمة ظل أهل يثرب يتحدثون بها زمنًا طويلًا، وقد ذكرها البخارى فى صحيحه ومسلم فى صحيحه وغيرهما، وذكرتهما كتب السير وذلك أن أروى بنت أويس زعمت أن سعيدًا قد غصب شيئًا من أرضها وضمَّها إلى أرضه وجعلت تتحدث بذلك بين الناس، ثم تطاولت فى شرها فرفعت أمرها إلى والى المدينة مروان بن الحكم فأرسل مروان إلى سعيد أُناسًا للإصلاح فصعب الأمر على سعيد، وقال: يرَوننى أظلمها، وكيف أظلمها وقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من ظلم قيد شبر طُوِّقه يوم القيامة من سبع أراضين**» رواه البخارى ومسلم. ثم دعا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذ هو مظلوم وقال: اللهم إنها قد زعمت أنى ظلمتها فإن كانت كاذبة فأعم بصرها وألقها فى بئرها التى تنازعنى فيها، وأظهر من حقى نورًا يبين للمسلمين أنى لم أظلمها، فلم يمض على ذلك غير زمن يسير حتى سال العقيق بالمدينة سيلًا عظيمًا كشف الله به الحد الفاصل بينهما وظهر للمسلمين أن سعيدًا كان صادقًا.

ولم تلبث المرأة بعد ذلك إلا شهرًا حتى عميت وبينما هى تطوف فى أرضها تلك سقطت فى بئرها التى تنازع سعيدًا فيها.

قال **عبد الله بن عمر**: فكنا ونحن غلمان نسمع الإنسان يقول للإنسان أعماك الله كما أعمى الأروى.

ولا عجب فى ذلك فالرسول ﷺ يقول: «**واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» فكيف إذا كان المظلوم سعيد بن زيد المُبشَّر بالجنة رضي الله عنه[1]

ولو أن أهل المظالم والخصومات وقفوا على هذه الحادثة وأمعنوا النظر فيها لتركوا المظالم واحتكموا إلى الإنصاف، ورضوا بالحلال وتركوا الحرام، وعلموا أن الله بالمرصاد لكل من تُسوِّل له نفسه لأخذ حقوق المسلمين والتسلط عليهم بالبهتان والزور،... فليعلم الظالم أن الله تعالى لا يتركه وليعلم المظلوم أن الله لا يخذله.

يقول أبو العتاهية يوم أن سجنه الرشيد ظلمًا فخاطبه بقوله:

أما والله إن الظلم شؤم ... وما زال المسيئ هو الظلوم

ستعلم يا ظلوم إذا التقينا ... غدا عند المليك مَن الملوم

فأطلقه الرشيد من السجن ثم أعطاه ألف دينار واستباحه من ظلمه له[2][3].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء جزء ١، صفة الصفوة جزء ١، الإصابة جزء٤، الاستيعاب جزء ٤ وغيرها.

(٢) البداية والنهاية جزء ١٠.

(٣) اتق دعوة المظلوم (ص ٥٣ - ٥٤).

اللهم انصر خبَّابًا

إذا دخل النور إلى القلب فقد انفسح وانشرح، وعلامة ذلك الإنابة لدار الخلود، والتجافى عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل نزوله، وقد حفظ الله هذا الدين بفتية آمنوا بربهم وزادهم الله هدى، صحبوا رسوله ﷺ وضحّوا فى سبيله بكل غالٍ ونفيس.

وهانت عليهم أنفسهم فى سبيل الله ﷻ فما وجدوا لذة إلا فى طاعة الله، ولا أُنسًا إلا فى القرب منه، عُذِّبوا فى سبيل الله فهانت عليهم أنفسهم، وأرخصوها من أجل الله، وأُهينوا وصودرت أموالهم وأُحرقت أجسادهم وغُربوا عن أوطانهم فقالوا: إن لم يكن بك يا رب علينا غضب فلا نبالى.

ومن هؤلاء النماذج المؤمنة الذين سطَّر التاريخ حياتهم بمدادٍ من ذهب وذكَّرنا الرب تعالى إياهم مع رسوله وحوله يجاهدون فى الله حق الجهاد الصحابى الجليل خبَّاب بن الأرت .... سُبى فى أحد غارات العرب على بعضهم وبيع فى سوق العبيد وهو حرّ، غير أن الظلم الذى خيم على العرب وغيرهم فى الجاهلية كان وراء ذلك، والذى اشترته امرأة اسمها أم أنمار وكان يقوم بخدمتها ويقضى متطلباتها ولا يرد لها طلبًا.

ولما بُعث رسول الله ﷺ سمع خباب برسالته فأحبها من الثناء عليها ورغب فيها لما تدعو إليه، فذهب إلى الرسول ﷺ وسمع منه وأسلم، فأحب الإسلام ووقر الإيمان فى قلبه، فكان من السابقين قبل دخول دار الأرقم بن أبى الأرقم، وكان يتردد على مجلس الهداية يومًا بعد يوم حتى تضلَّع من الإسلام.

وسمعت سيدته أم أنمار بإسلامه فغضبت عليه ودعته قائلة: يا خباب

إنى لا أرضى بدخولك فى دين محمد ولا أرغب لك إلا دين الآباء والأجداد وإنى سأُمهلك حتى تراجع نفسك، قال لها بصرامة المؤمن وشجاعة المحسن وإقدام الصادق: اسمعى يا سيدتى، اعلمى أننى لن أترك هذا الدين الذى جاء به محمد لأن السعادة فيه والخير فى اتباعه، ولو أُعطيت لى الدنيا وما فيها على تركه ما تركته، فافعلى ما تشائين، فهدَّدته بالكلام وشددت عليه فيه فما زاده ذلك إلا قوة، قالت: إنى سأحبسك، قال: افعلى ما تريدين، فكل شىء فى ذات الله هين.

فلما رأت إصراره على الإسلام قيدته بالحديد وحبسته ثم شبَّت النار ووضعت الحديد فيها فلما تحول الحديد إلى نار أخذته ثم كَوَتْ به خبابًا فى رأسه وهو يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لتطفئ هذه الكلمة حرارة النار، وأعادت ثانية وثالثة، وعدة أيام وأسابيع وشهور حتى خاف خباب على عقله، فشكى إلى الرسول ﷺ، ما يعانى ويخشى من تعطيل جوارحه على العبادة فقال: «**اللهم انصر خبابًا**»[1]، واستجاب الله تعالى لرسوله ﷺ، إذ أصيبت المرأة بصداع فى رأسها كان يمنعها النوم فتبيت طوال الليل تعوى كما يعوى الكلب، وفى الصباح يشتد عليها الصداع، وقد طلبت العلاج من كل مكان فما تزداد إلا مرضًا، وخافت على نفسها فوُصف لها الكى وقيل لا يسكن الألم إلا بكىِّ الرأس بالنار، فوافقت على ذلك تريد الراحة والنوم والعيش الهنىء، وطلبت من غلامها خباب أن يشب النار كالنار التى كانت تشبها هى له، وأن يضع الحديد يحمى فيها حتى يتحول إلى جمرة، وطلبت منه أن يضع الحديد فى رأسها ليخفف

---

(١) أسد الغابة جزء ١.

الألم. فيسكن الألم مدة قصيرة ثم يعود فتعود إلى النار حتى أهلكها الله بالنار، وعافى عبده خبابًا [١].

وإننا نثق بما عند الله تعالى، ونؤمن أنه يجيب دعوة الداع إذا دعاه، وقد تكون هذه الدعوة من الرسول ﷺ، بنصر خباب إن صح حديثها، وقد تكون من خباب ذاته، فإن الله قريب يعطى السائل سؤله، والداعى دعوته، فكيف إذا كان الداعى مثل خباب الذى كان يُجر على الجمر فلا يطفئ النار إلا دهن جسده.

وسبحان مَن جعل الجزاء من جنس العمل، ولا يصيب الإنسان إلا بما كسبت يداه، وما بغى الإنسان إلا على نفسه [٢].

❊ ❊ ❊

(١) أسد الغابة جزء ١.

(٢) اتق دعوة المظلوم (٧٣ - ٧٥).

جزاء قتلة الحسين بن علي رضي الله عنه

يجتهد الإنسان وقد يصيب وقد يخطئ فى اجتهاده، ويكفى أنه بشر، والبشر محل النقص:

ومن ذا الذى تُرضَى سجاياه كلها   كفى المرء نُبلًا أن تُعَدَّ معائبه

وسبحان مَن تَفرَّد بالكمال المطلق الذى لا يعتريه نقص، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[1]، وسيدنا الحسين بن على رضي الله عنهما تعرض لفتنة عظيمة، حَلَّ به كربٌ وبلاء فى كربلاء، وذلك أن أهل العراق أرادوا الوقيعة بين الحسين بن على ويزيد بن معاوية، فكتبوا إلى الحسين بأن يخرج إليهم، ووعدوه أن ينصروه وأن يؤازروه وأن يؤمِّروه عليهم حتى لا يترك الأمر ليزيد الذى اتُهم فى دينه، والله يتولاه. ورأى الحسين رضي الله عنه أن هذا العرض قد يحقق خيرًا يريده للناس ولا يريده لنفسه، إنه يعلم أن رسول الله ﷺ قال: «**يا عبد الرحمن بن سمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أُعطيتها عن مسألة وُكِّلت إليها، وإن أُعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها**»[2].

فمضى رضي الله عنه وقد أشار عليه بعض الصحابة بعدم الخروج فأبى إلا الخروج ليقضى الله أمرًا كان مفعولًا، ووثق الحسين بعهود ومواثيق أهل العراق، وأقبل يسير نحو الكوفة حتى إذا نزل بكربلاء رفع يديه إلى السماء ثم قال: اللهم أنت ثقتى فى كل كرب، ورجائى فى كل شدة، وأنت لى من كل أمر نزل ثقة وعده فكم من هم يضعف فيه الفؤاد وتقل فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق ويشمت فيه العدو ... فأنزلته بك وشكوته إليك رغبة

---

(١) سورة الشورى: الآية: (١١).

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٦٦٢٢) كتاب الأيمان والنذور، ومسلم (٦٦٢٢) كتاب الإمارة.

فيه إليك عما سواك، ففرجته وكشفته وكفيتنيه فأنت ولى كل نعمة وصاحب كل حسنة ومنتهى كل غاية [١].

ولما نزل فى كربلاء قال: ما هذه الأرض؟ قالوا: كربلاء، قال: إنَّا لله وإنا إليه راجعون، كرب وبلاء،... وعلم الأعداء بقدومه فأحاطوا به من كل مكان وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقوم الليل هو ومن معه يصلون ويستغفرون ويدعون ويتضرعون ويقرأون قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾[٢] وتحرَّش به الأعداء ونالوا منه سبًّا وشتمًا وما كان له إلا أن يدافع عن نفسه وأهله الذين اصطحبهم معه، وقد وقف لهم وقوف الجبال الراسية حتى قُتل جميع من معه وبقى وحده يقاتل حتى قُتل، وقُطع رأسه فى يوم عاشوراء سنة ٦١ هـ، وكان ذلك بأمر من عُبيد الله بن زياد، فلما أُحضر بين يديه أخذ عودًا ينكت به فى ثنايا الحسين، ويقول: لقد كان جميلًا، قال زيد بن أرقم: ارفع القضيب فوالله الذى لا إله إلا هو لقد رأيت شفتى رسول الله ﷺ على هاتين الثنيتين يُقبلهما، وأُرسل رأس الحسين إلى يزيد فلما رآه حزن حزنًا شديدًا وقال: لعن الله ابن مرجانة - يعنى عُبيد الله بن زياد - لو قبل طلبه فى عدم القتل وأعطاه سؤاله، لقد بغَّضنى إلى الناس بقتل الحسين وزرع لى فى قلوبهم العداوة والبغضاء، وكان الذى رمى الحسين رجل اسمه حصين بن تميم رماه بسهم فى حنكه حتى سال الدم فتلقَّاه الحسين وهو يقول رافعًا يديه إلى السماء مملوءتان دمًا: اللهم أحصهم عددًا واقتلهم بددًا ولا تذر على الأرض منهم أحدًا، ودعا عليهم دعاءً بليغًا وقد استجاب الله دعاءه

---

(١) البداية والنهاية جزء ٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية: (١٧٨).

فما مكث الرامى إلا يسيرًا حتى صَبَّ الله عليه الظمأ فجعل لا يُروى ويُسقَى الماء مبردًا فلا يطفئ عطشه ولا يروى ظمأه لأن النار تشتعل فى فؤاده، فما لبث إلا قليلًا حتى مات من شدة العطش والماء البارد بين يديه.

ومرت الأيام وابن مرجانة يفتخر بقتل الحسين ويتعالى بسفك دمه ويحسب أن الدنيا ستخلو له، وأن الحياة ستبقى له، وأن يزيد سيمنعه من عذاب الله ويحول بينه وبين الموت ونسى قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَـٰرُ ﴾[1]، وفى اليوم الذى قُتل فيه الحسين وهو يوم عاشوراء سلط الله على ابن مرجانة المختار بن أبى عبيد الثقفى الذى أرسله إبراهيم بن الأشتر فالتقوا فى أول سنة سبع وستين بالخازر قريبًا من الموصل وقُتل ابن زياد يوم عاشوراء وأرسل ابن الأشتر برأس ابن زياد إلى المختار فلما وضع بين يديه جاءت حية عظيمة ثم تخللت الرؤوس حتى دخلت فى فم ابن زياد وخرجت من منخره ودخلت من منخره وخرجت من فمه وهكذا ترددت عدة مرات.

وهكذا ينتقم الله لأوليائه من كل ظالم عنيد، والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدًا[2].

ونحن نعوذ بالله من إمارة السفهاء، فإن عُبيد الله بن زياد كان سفيهًا جبارًا عنيدًا ...

قال الذهبى فى سيرته: روى السرى بن يحيى عن الحسين قال: قدم علينا

---

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٤٢).

(٢) البداية والنهاية جزء ٨، تاريخ الطبرى جزء ٣، سير أعلام النبلاء جزء ٣.

عبيد الله بن زياد أمَّره معاوية وهو غلام سفيه سفك الدماء سفكًا شديدًا فدخل عليه عبد الله بن مغفل رضي الله عنه فقال له: انتهِ عما أراك تصنع فإن شر الرِّعاء الحُطمة قال: ما أنت وذاك إنما أنت من حثالة أصحاب محمد ﷺ، قال: وهل كان فيهم حثالة لا أم لك.

وكانت أمه مرجانة من بنات ملوك الفرس تقول له: قتلت ابن بنت رسول الله ﷺ لا ترى الجنة، وقد أفضى إلى ما قدم ويتمنى أنه ما فعل فعله كيف وخصمه يوم القيامة ريحانة رسول الله ﷺ وسيد شباب أهل الجنة، فبأى جواب يجيب؟ وبأى عمل يقدم؟[1].

*** جزاء قتلة الحسين في الدنيا:**

* يقول ابن كثير:

أمَّا ما روى من الأحاديث والفتن التى أصابت مَن قتله فأكثرها صحيح، فإنه قَلَّ مَن نجا من أولئك الذين قتلوه من آفة وعاهة فى الدنيا، فلم يخرج منها حتى أصيب بمرض، وأكثرهم أصابهم الجنون[2].

وقال أيضًا:

لا شك أن قتل قتلته كان متحتمًا، والمبادرة إليه كان مغنمًا، ولكن إنما قدَّره الله على يد المختار الكذاب الذى صار بدعواه إتيان الوحى إليه كافرًا،... وقد قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر**»، وقد قال تعالى فى كتابه الذى هو أفضل ما يكتبه الكاتبون: ﴿**وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ** ﴿١٢٩﴾﴾[3].

---

(١) اتق دعوة المظلوم (٦٥ - ٦٨).

(٢) البداية والنهاية (٨/ ٢٠٣).

(٣) سورة الأنعام: الآية: (١٢٩).

وقال بعض الشعراء:

وما من يد إلا يدُ الله فوقها ولا ظالم إلا سيبلى بظالم [١]

فهذا شمر بن ذى الجوشن - قبحه الله - هذا الأبرص الذى أغرى الناس بقتل الحسين، يقتله أبو عمرة أمير حرس المختار ومن معه من الجنود ... شرع المختار يتتبع قتلة الحسين من شريف ووضيع فيقتله.

قال ابن كثير:

خطب المختار أصحابه فقال: ما ذنبنا نترك أقوامًا قتلوا حُسينًا يمشون فى الدنيا أحياء آمنين، بئس ناصرو آل محمد، إنى إذًا كذَّاب كما سميتمونى أنتم، فإنى بالله أستعين عليهم، فالحمد لله الذى جعلنى سيفًا أضربهم، ورمحًا أطعنهم، وطالب وترهم [٢]، وقائمًا بحقهم، وإنه كان حقًّا على الله أن يقتل من قتلهم، وأن يذلَّ مَن جَهِل حقهم، فسمُّوهم، ثم اتَّبعوهم حتى تقتلوهم، فإنه لا يسيغ لى الطعام والشراب حتى أطهر الأرض منهم، وأنفى مَن فى المصر منهم، ثم جعل يتتبع مَن فى الكوفة - وكانوا يأتون بهم حتى يوقفوا بين يديه فيأمر بقتلهم على أنواع من القتلات ما يناسب ما فعلوا - ومنهم مَن حرقه بالنار، ومنهم من قطع أطرافه وتركه حتى مات، ومنهم من يُرمَى بالنبال حتى يموت، فأتوه بمالك بن بشر فقال له المختار: أنت الذى نزعت برنس الحسين عنه؟ فقال: خرجنا ونحن كارهون فامنن علينا، فقال: اقطعوا يديه ورجليه، ففعلوا به ذلك ثم تركوه يضطرب حتى مات، وقتل عبد الله بن أسيد الجهنى وغيره شر قتلة [٣].

---

(١) البداية والنهاية (٨/ ٢٧٧).

(٢) الوتر: الثأر.

(٣) البداية والنهاية (٨/ ٢٧٥).

والجزاء من جنس العمل

وأما خولى بن يزيد الأصبحى الذى احتزَّ رأس الحسين[١] فقد بعث إليه المختار أبا عمرة صاحب حرسه، فكبس بيته، فخرجت إليهم امرأته، فسألوها عنه، فقالت: لا أدرى أين هو، وأشارت بيدها إلى المكان الذى هو مُختفٍ فيه - وكانت تبغضه من ليلة قَدِم برأس الحسين معه إليها وكانت تلومه على ذلك - فدخلوا عليه فوجدوه قد وضع على رأسه قوصرة[٢]، فحملوه إلىٰ المختار فأمر بقتله قريبًا من داره، وأن يُحرَق بعد ذلك.

وقتل حكيم بن فضيل السبنسى الذى سلب العباس بن على بن أبى طالب.

وقتل يزيد بن ورقاء، وكان قد قتل عبد الله بن مسلم بن عقيل.

وقتل فيما بعد سنان بن أنس. والجزاء من جنس العمل.

وعمر بن سعد بن أبى وقاص أمير الذين قتلوا الحسين.

عمر هذا الذى دعا عليه سعد بن أبى وقاص والده وكان مستجاب الدعوة: اللهم اقتله وأسِلْ دمه، لما أسال دم غلامٍ لسعد[٣].

* * *

(١) قال هذا ابن كثير فى البداية والنهاية (٨/ ٢٧٥)، وورد عنده أيضًا أن فاعل ذلك هو سنان بن أنس.

(٢) وعاء من قصب يجعل فيه التمر.

(٣) الجزاء من جنس العمل (٢/ ١٧١ - ١٧٣).

اللهم ظمِّنه اللهم ظمِّنه

فعل المعروف لا يضيع عند الله تعالى، ولا يضيع عند الكرماء من الناس، وقد مدح الله أهل المعروف فقال تعالى: ﴿ لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾ ﴾[(١)].

وروى جابر بن سليم الهجيمى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**اتق الله ولا تحقرن من المعروف شيئًا ولو أن تفرغ من دلوك فى إناء المستسقى، وأن تَلْقى أخاك ووجهك إليه منبسط**» [(٢)].

وكم من المحرومين حُرموا من هذا الفضل لانطواء قلوبهم على الحقد والبغض للصالحين فعاقبهم الله فى الدنيا بالهم الذى لا ثواب له، وبالغم الذى لا ينقطع فيحرقون أنفسهم بنار الدنيا قبل الآخرة، وفى قصة قتل الحسين بن على رضي الله عنه ما يوضح ذلك ... فقد روى العباس بن هشام بن محمد الكوفى عن أبيه عن جده قال: كان رجل من بنى أبان بن دارم يقال له: زرعة شَهِد قتل الحسين، فرمى الحسين بسهم، فأصاب حنكه فجعل يتلقى الدم ويقول هكذا إلى السماء، فترميه به أى العطش الذى أصاب الحسين إذ دعا رضي الله عنه بماء للشرب قبل قتله فأبوا أن يعطوه وتركوه يصيح عطشان فلا يسقوه، فدعا ربه وقال: اللهم مَن حال بينى وبين الماء فظمئه اللهم ظمئه، فاستجاب الله دعوة المظلوم فكيف إذا كان المظلوم هو سيد شباب أهل الجنة، وريحانة رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة النساء: الآية: (١١٤).

(٢) رواه الطيالسى وابن حبان وصححه الألبانى فى صحيح الجامع (٩٨).

فلما حضرت الوفاة ذلك الرجل الذى منع الحسين من الماء سلط الله عليه العطش الذى لا ينطفئ ولو شرب مياه الدنيا كلها، إذا كان يصيح من الحرارة الشديدة فى بطنه من أثر العطش ويصيح من أثر البرد الشديد فى ظهره، فكانوا يضعون المراوح والثلج بين يديه لتطفئ الحرارة والعطش والكانون من خلفه وهو يقول: اسقونى أهلكنى العطش، فيُؤتَى بعسٍّ عظيم فيه السويق أو الماء واللبن لو شربه خمسة لكفاهم، قال فيشربه ثم يعود فيقول: اسقونى أهلكنى العطش، قال: فانقدَّت بطنه كانقداد البعير[1].

وكأن هذا الظالم ما قرأ قول الله تعالى ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2]، وما كان يعلم أن فى كل كبدٍ رطبة أجر ولكن إذا استعر العصيان فى القلوب والحقد فى الصدور فلا تُطفئه مياه الدنيا وهو أول شرار الآخرة والله بخلقه عليم والأمر إليه لا لأحدٍ سواه[3].

* * *

---

(١) مجابو الدعوة.

(٢) سورة البقرة: الآية: (١٩٥).

(٣) اتق دعوة المظلوم (١٠٧ - ١٠٨).

اللهم أسهِر ليله وانزع النوم من عينه

ما أعظم أن تكون علاقة المؤمن بربه يتوجه إليه فى جميع أموره، إن أصابه هم فرَّجه، وإن نزل به كرب كشفه، وإن تعسَّر عليه عُسرٍ يسَّره، فهو يدعو ربه آناء الليل وأطراف النهار، ليجمع بين دعاء العبادة ودعاء المسألة، والدعاء سلاح قوى مع المؤمنين الصادقين، ومن ذلك ما روى عن جعفر ابن سليمان قال: سمعت ثابت البنانى يقول: أخذ عبيد الله بن زياد ابنَ أخٍ لصفوان بن محرز فحبسه فى السجن وسَلْسَله بالقيود وآذاه أشد الإيذاء، وكيف لا يؤذيه ابن زياد وقد آذى ابن بنت رسول الله ﷺ الحسين بن على وقتله ومنعه الماء ومنعه العودة لمكة، ومنعه الذهاب ليزيد، وقتل أعوانه ومن معه وآذى آهله وتجرأ على الله، والله عزيز ذو انتقام، وما علم ابن مرجانة - عُبيد الله بن زياد - أن القوة لله وأن الأمر لله من قبل ومن بعد، وأن العزة لله وأن التصرف لله وحده، وأن قوة الإنسان ستضعف ولا تدوم، ولكن الهوى والشيطان يقودان الإنسان إلى ميدان الغفلة والإعراض.

متى ينسى الإنسان ربه فيُنسيه الله نفسه ومن أنساه الله نفسه نسى كل خير ووقع فى كل شر، وزين الشيطان له سوء عمله.

ولم يترك صفوان بن محرز شريفًا بالبصرة ليشفع له شفاعة مشروعة عند ابن زياد، إلا أن ذلك لم يجد لقسوة قلب ابن زياد وحنقه على الصالحين وضراوة الحقد التى فى قلبه أراد أن يفرغها بالسخط على هؤلاء المساكين، فلما سُدَّت الأبواب فى وجه صفوان مِن قِبَل الناس وبذل السبب المشروع وخير الناس أنفعهم للناس، طرق باب الله وهو الباب الذى يجب أن لا نغفل عنه وأن نتصل به على الدوام، وأن نعلم يقيناً وفاء الله بوعده إذا

وفَّينا بوعدنا له،... بات صفوان فى مُصلاه حزينًا، وبينما هو قاعد يغالبه النعاس ويمنعه الحزن والأسى إذ أتاه آتٍ فى منامه فقال: يا صفوان قم فاطلب حاجتك من وجهها، قال: فانتبه فزعًا فقام فتوضأ ثم صلى ثم دعا على الظالم ابن زياد الذى ظلم ابن أخيه وظلم غيره، فسرت تلك الدعوة ووصلت لربها الذى سمعها منذ نطقها قائلها وعلمها قبل قولها وأجابها الرب تعالى إذ سلط الله الأرق والسهر على ابن زياد وكلما أراد النوم ما وجده، وكان يتقلب على فراشه كالعير، ثم قال علىَّ بابن أخى صفوان بن محرز.

فجاء الحرس وجىء بالنيران ففُتحت تلك الأبواب الحديد فى جوف الليل فقيل أين تريدون؟ قالوا: نريد ابن أخى صفوان أخرجوه فإن الأمير مُنع النوم منذ الليلة، فأُخرج من محبسه وفُكَّت قيوده فكلمه ثم قال له: انطلق بلا كفيل ولا شىء، فما شعر صفوان إلا والباب يطرق، فلما فتح إذا به ابن أخيه قال: ما خبرك فأخبره بالقصة فحمد الله وأثنى عليه، وازداد من شكره،... وهذه كرامة الله تعالى لأهل القرآن وأهل الصلاة الذين يتحدثون بأحسن الحديث ويتصلون بأعظم صلة ويتاجرون بأعظم تجارة [١].

* * *

(١) مجابو الدعوة لابن أبى الدنيا، حلية الأولياء جزء ٢، صفة الصفوة جزء ٣.

اللهم اقلب القصر على أهله

لا ييأس المسلم من رحمة الله تعالى، ولا يقنط من عطائه وجوده، بل هو متفائل بكل خير، راغب فى كل بر، يوقن بأن الأمر لله من قبل ومن بعد، تقوى عزيمته إذا تذكر عظمة الله، ويزداد إيمانه إذا رأى آيات الله فى الكون، لا ينهزم قلبه أمام الغرور ولا يفر من المقدور، ويعلم أن الأيام تدور، مَن سَرَّه زمنٌ ساءته أزمان.

ورب المستضعفين هو مالك الملك الذى يؤتى الملك من يشاء وينزعه عمَّن يشاء، فلا يُغرّ بطيب العيش إنسان، فكم من صاحب قوة أمسى قويا وأصبح ضعيفًا، وكم من صحيح أمسى معافى وأصبح مريضًا، وكم من ملك أمسى له الملك وأصبح وقد انتزعه الله منه، فتدبير الأمور لله وحده ليس لأحدٍ سواه، ولذلك يعيش المسلم فى طمأنينة يرضى بقضاء الله وقدره، فلا يفرح بما آتاه الله ولا يحزن على ما فاته، بل هو بكل حالٍ راضٍ.

وقد ذكر المؤرخ الإسلامى الكبير شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبى فى كتابه الكبائر، وبالذات عند الكلام عن كبيرة الظلم، أن وهب بن منبه اليمانى قال: إن جبارًا من الجبابرة بنى قصرًا وشيَّده وزخرفه وأنفق فيه الأموال الكثيرة، والجواهر النفيسة، وأراد أن يجعله قرة عينه، ظانًّا أن حياته ستطول، ومُلكه لا يزول، وما علم أن كل ما على الأرض فانٍ، ولا يبقى إلا وجه الله، ومثل هذا القصر سيفنى ويخرب ولو بعد حين، وصاحبه سيموت بخلاف قصور الجنة فإنها لا تزول، بل هى لأهلها أبد الآبدين، لا يزولون عنها ولا يحولون، فلما أكمل بناءه أخذ يطوف به فى كِبر وعجب، وزهو وخُيلاء فرأى قريبًا منه كوخًا صغيرًا من القش وعسب

النخل وأوراق الشجر، فقال لمن هذا الكوخ؟ قالوا: لامرأة عجوز بَنته لتسكن فيه وهى امرأة منقطعة ليس لها ولد ولا قرابة وأرادت القرب من الملك لعلها تنال من عطائه.

قال: اذهبوا واهدموه وأزيلوه من مكانه، فلا ينبغى أن يكون بجانب قصرى حتى لا يشوه منظره، ولا يتننا برائحته، فذهب الجنود إلى كوخ المرأة العجوز ثم هدموه وأزالوه من مكانه، حتى أصبح أثرًا بعد عين، ورجعت العجوز إلى كوخها آخر النهار وقد خرجت من الصباح لطلب العيش، وقد تجد وقد لا تجد، ومضت إلى كوخها فما رأته مكانه فقالت: ضللت الطريق بعد التعب والجهد.. وبحثتْ عنه يَمنة ويَسرة فما وجدته فقالت لأحد الناس: هل تعلم أين الكوخ الذى كان فى هذه الأماكن؟ قال: نعم، قالت: أين هو: قال: أمر الملك بإزالته من مكانه؟ فنظرت إلى السماء ورفعت أَكُفها وقالت: اللهم يا رب المستضعفين ويا مغيث المستغيثين ويا أرحم الراحمين لا يُعجزك شىء فى الأرض ولا فى السماء يا جبار السموات والأرض ويا من يقول للشىء كن فيكون اللهم إنى غبت عن كوخى وذهبت لحاجتى وقد استودعتك ذاك الكوخ فاعتدى عليه هذا الظالم، اللهم فاقلب قصره عليه، وخذه أخذًا عزيزًا وانتصر لعبدك الضعيف من الجبار العنيف، فأمر الله جبريل أن يقلب القصر على الملك ومن فيه، فقلبه حتى سوَّى به الأرض وأزال الله المَلك ومَن معه، وخرب القصر وما فيه، وهذه قصة عن بنى إسرائيل نحدث بها لأخذ العبرة والعظة منها لا للجزم بصحتها وصدقها، والله من وراء القصد [١].

---

(١) الكبائر للإمام الذهبى – بتصرف – نقلًا من (اتق دعوة المظلوم) (ص ١١٩ – ١٢٠).

دعوة لا تُرد

تضيق الأنفاس وتكثر الأحباس، فلا يجد الإنسان فرجًا إلا من عند ربه الذى يملك الوجود ويتصرف فى الموجود،... شَقَّ الحجر للعطشان ليُخرج ماءً زُلالًا وأنبت الحبة اليابسة فى الأرض اليابسة، ورزق الإنسان من حيث لا يحتسب، وجعل له من أمره يسرًا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ومما يروى عن أبى بكرة بن أمية قال: كان لنا فى بلاد بنى ضمرة جار من جهينة فى أول الإسلام، ونحن على شركنا وكان منا رجل محارب خبيث يقال له ريشة، وكنا قد خلعناه لخُبثه، فكان لا يزال يعدو على جارنا ذلك الجهنى فيأخذ من ماله البكرة والناب والشارف من إبله، فيأتينا الجهنى ويشكو إلينا فنقول له: والله ما ندرى ما نصنع به، قد خلعناه وتخلينا عنه وتبرأنا منه لسوء فعله، وخُبث طويته وليس لك إلا أن تقتله، قتله الله وأراح المسلمين من شره فهذا شيطان من شياطين الإنس لا يريد إلا المعاصى وأذية الآمنين.

وقلنا له لو قتلته لا يتبعك من دمه شيء تكرهه أبدًا ... حتى عدا مرة من المرات على ذاك المظلوم فأخذ من ماله ناقة له من أجود إبله، فأقبل بها إلى شعبة الوادى ثم نحرها، فأخذ سنامها ومطايب لحمها ثم تركها، وخرج الجهنى فى طلبها حين فقدها يلتمسها، فاتبع أثرها حتى وجدها حيث نحرها، فجاء إلى نادى بنى ضمرة وهو متألم أشد الإيلام تكاد الحسرة تفتت قلبه وقال لهم:

أصادق ريشة يا آل ضمرة ... أن ليس لله عليه قدرة

ما إن يزال شارف وبكره ... يطعن منها فى سواء الثغره

بـــصارم ذى رونـــق أو شـــفره   لا هـــم إن كـــان معـــدا فجـــره

فاجعـل أمـام العيـن منـه جـدره   تأكلـــه حتـــى تـــوافى الجهـــره

قال: فاستجاب الله دعاء المظلوم ونصره على ظالمه إذ أخرج الله أمام عينيه في مآقيه حيث طلب بثرة مثل ثمرة السدرة، وخرج الناس إلى الحج لأداء الطاعة واللجوء إلى الله تعالى، وبقى هذا الظالم يعانى من هذه البثرة التى جعلت الليل نهارًا والنهار ليلًا، وضاقت عليه نفسه، وأخذت تكبر يومًا بعد يوم حتى أكلت رأسه كله، وما أبقت فيه شيئًا من الحياة، فما إن رجع الناس من الحج إلا وقد مات، وطهر الله الأرض من رجس ذاك الظالم وعطل ذلك الرأس الذى كان يفكر بالمعاصى ويجرأ بالسيئات ولا يرتدع عن المخالفات ... والله بكل شىء محيط [١].

❊ ❊ ❊

(١) مجابو الدعوة لابن أبى الدنيا – نقلًا عن (اتق دعوة المظلوم) (ص ١٠٢ – ١٠٣).

اللهم اصرفه عني

قال أبو القاسم إبراهيم بن علي الصفَّار: خرجت من نصيبين بسيفٍ نفيس كنت ورثته من أبى أقصد به العباس بن عمرو السلمى أمير ديار ربيعة، وهو برأس عين لأهديه له وأستجديه بذلك.

فصحبنى فى الطريق شيخ من الأعراب: فسألنى عن أمرى فأَنِست به وحدثته الحديث، وكنا قربنا من رأس عين، مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة، ودخلناها وافترقنا وكان يتردد علىَّ ويُظهر أنه يُسلِّم علىَّ ويودنى ليُدخل الأنس إلى قلبى، قال: فلما أمَّنته واطمأننت له أخبرته أن الأمير قَبِل هديتى وأجازنى بألف درهم وثياب، وإنى أريد الخروج فى يوم كذا وكذا، فلما كان يوم الخروج خرجت وحدى ولا أريد مصاحبة أحد، فلما دخلت فى الصحراء إذا بالأعرابى على دويبة ضعيفة متقلدًا سيفه فلما رأيته أنكرته ورأيت الشر فى عينيه، فقلت له: ماذا تريد؟ قال: أريد أن أصحبك فصُحبتك خير من صحبة غيرك.

فمضى معى وأنا متحرز منه حتى قصرت به دابته فحثثت حمارى لأسبق، فما أحسست إلا بركضه فالتفتُّ فإذا هو قد جرَّد سيفه وقصدنى فرميت بنفسى عن الحمار وعدوت لأسبقه فلا يدركنى فلما خاف أن أفوته صاح يا أبا القاسم إنما أمزح معك فقف فلم أصدقه، فظهر لى ناووس، وهو الموضع الذى ينقر فى الصخر ليكون مدفنًا للموتى، قال: فدخلت فى الناووس ووقفت وراء بابه قال: ومن صفات تلك النواويس أنها مبنية بالحجارة وباب كل ناووس حجر واحد عظيم قد نُقر وخُفِّف حتى أصبح ملسًا فلا تستمكن اليد منه، وله فى وجهه حلقة وليس للباب من داخل شيء

تتعلق اليد به، وإنما يُدفع من خارجه فيُفتح فيدخل إليه وإذا خرج منه وجذبت الحلقة انغلق الباب وتمكن هذا من ورائه فلا يمكن فتحه من داخل أصلًا.

قال: فحين دخلت الناووس وقفت خلف بابه وجاء الأعرابى فشدَّ الدابة فى حلقة الباب ودخل يريدنى مخترطًا سيفه والناووس مظلم فلم يرنى ومشى إلى صدر الناووس، فخرجت من خلف الباب وجذبته ونفرت الدابة فحدبته معى حتى صار الباب مردومًا محكمًا وحصلت الحلقة فى رزة هناك وحللت الدابة وركبتها.

فجاء الأعرابى إلى باب الناووس فرأى الموت عيانًا فقال: يا أبا القاسم اتق الله فى أمرى فإننى سأموت، فقلت له: تموت أنت ولا أموت أنا، مع أن أجلى إذا جاء لا يؤخَّر لكن هذا سبب، قال: فأخرجنى وأعطيك أمانًا واستوثق منى بالأيمان أن لا أعرض لك بسوء أبدًا، واذكر الأخوة والحرمة التى بيننا فقلت له: لم ترعها وأنت فاجر فى يمينك، قال: ثم ذهبت وتركته وهو يصيح لأنه مكر بى وخاننى، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، فأخذ يبكى ويصيح ويستغيث ويقول: قتلنى،... وتركته ومضيت لحاجتى وبعد عام كامل عدت إليه فوجدته قد صار رمة فحمدت الله على السلامة وحركته فوجدت هميانًا فيه خمسمائة درهم، وأخذت سيفه وبعته وعلمت أن الحفظ هو حفظ الله، والعناية عناية الله تعالى[1].

* * *

(١) الفرج بعد الشدة للقاضى التنوخى، الفرج بعد الشدة والضيق، إبراهيم الحازمى.

نهاية الحجّاج بن يوسف الثقفي

من أعظم الأمراض وأشد الأدواء مرض الإعجاب بالنفس والتسلط على عباد الله وعدم مراقبة الرب، والاغترار بالدنيا والتدنُّس ببهرجها وزخارفها حتى تكون معبودة كل جاهل... من أجلها يحب، ومن أجلها يبغض، ومن أجلها يبذل، ومن أجلها يحيا، ومن أجلها يموت،وما علم أن الدنيا متاع الغرور، كم غرَّت من الناس وتركتهم قبل أن يتركوها، ولا أحد أضل ممن اتبع هواه ووافق شهوته من غير تقييدها بقيود الشرع.

والحجَّاج بن يوسف رجل تجرأ على الدماء، وأحب الاعتداء، وقد لا يمر به يوم لا يؤذى فيه أحدًا إلا ما ندر، وأمره إلى ربه لا نقول إلا كما يقول الذهبى: «نَسُبُّه ولا نُحبه، ونبغضه فى الله فذلك من أوثق عرى الإيمان، له حسنات انغمرت فى بحر سيئاته وأمره إلى الله تعالى»[١].

وقد ذكر ابن كثير يرحمه الله - عند إيراده لسيرة الحجَّاج أنه لم يرتضع أيامًا عند ولادته فسقوه دم جَدْى فكان أول ما دخل جوفه الدم[٢]، وكان يحب سفك الدماء، وممن سُلط عليهم التابعى الجليل سعيد بن جبير - يرحمه الله - ولست فى معرض الحديث عن سيرته وإن كانت سيرته شيقة لأهل القلوب الحية، ولكنى سأقتصر على دعوته على الحجَّاج ألا يسلطه الله على أحد بعده. وسبب تصادمه مع الحجاج[٣].

فى خلافة بنى أمية ظهر الجوَر، وأُخرت الصلاة، وتبدلت بعض السنن،

(١) سير أعلام النبلاء جزء ٤.

(٢) البداية والنهاية جزء ٩.

(٣) اتق دعوة المظلوم (ص ٥٥).

فثار العلماء والقُرَّاء على بعض الخلفاء، فى محاولة لردهم إلى منهاج النبوة، وسُفكت الدماء، وتناثرت الأشلاء، وكانت فتنة عظيمة.

وقد كانت «الكوفةُ» حين اتخذها سعيد بن جبير دار إقامة له، خاضعة للحجاج بن يوسف الثقفى...

فقد كان الحجَّاج واليًا على العراق والمشرق وبلاد ما وراء النهر وذلك بعد أن قَتل عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما واستطاع أن يُخضع العراق لسلطان بنى أمية..

* وكان الحجاج سفَّاكًا للدماء... فلقد أشاع الرعب فى البلاد وفى قلوب العباد.. وأعمل السيف فى رقابهم.

* ولكن شاء الله (جل وعلا) أن يَحدث صِدام بين الحجاج بن يوسف الثقفى وبين رجل من أكبر قُواده (ألا وهو: عبد الرحمن بن الأشعث).

وكان سبب ذلك الصدام أن الحجاج كان قد أرسل ابن الأشعث بجيش كبير لغزو «رتبيل» ملك «الترك» على المناطق الواقعة وراء سجستان - وهى بلاد واقعة بين إيران وأفغانستان -.

فاستطاع ابن الأشعث أن يحتل شطرًا كبيرًا من بلاد (رتبيل) وأن ينتصر انتصارًا هائلًا وأن يغنم غنائم كثيرة.

ثم أرسل إلى الحجاج من يزف إليه بشائر النصر ويحمل إليه خُمس الغنائم ليضعها فى بيت مال المسلمين.

ثم أرسل معه رسالة إلى الحجاج يستأذنه فيها بأن يتوقف عن القتال فترة من الزمن من أجل أن يختبر مداخل البلاد ومخارجها وذلك قبل أن يخوض معركة أخرى ويُعرض جيشه للمخاطر.

فإذا بالحجاج يرفض أن يتوقف القتال ... ويرسل رسالة إلى ابن الأشعث يصفه فيها بالجُبن والضعف والذل ويهدده بإقالته من قيادة الجيش الإسلامى.

فقام ابن الأشعث وجمع القادة وأكابر جنوده وقرأ عليهم رسالة الحجاج ابن يوسف واستشارهم فى هذا الأمر.

فأشاروا عليه بالخروج على الحجاج وخلع طاعته.

فقال لهم عبد الرحمن بن الأشعث: أتبايعوننى على ذلك وتجاهدون معى هذا الطاغية حتى نُطهر أرض العراق منه؟!

فقالوا: بلى... وبايعوه على ذلك.

* قام عبد الرحمن بن الأشعث بذلك الجيش وذهبوا لقتال الحجاج ابن يوسف.

* ونشبت بينه وبين جيوش الحجاج معارك طاحنة انتصر فيها ابن الأشعث واستطاع أن يستولى على سجستان وأكثر بلاد فارس.. ثم أراد أن ينتزع الكوفة والبصرة من الحجاج بن يوسف.

* وبينما كانت المعارك الطاحنة تدور بين الفريقين إذ حدث للحجاج أمرٌ عجيب زاد من قوة خصمه ومنافسه ابن الأشعث وذلك أن وُلاة الأمصار كتبوا إلى الحجاج ليُخبروه بأن أهل الذمة أخذوا يدخلون فى الإسلام من أجل أن يتخلصوا من دفع الجزية.. وأنهم بعد أن أسلموا هاجروا من القرى التى كانوا يعملون فيها واستقروا فى المدن ولذلك فقد قَلَّ المال الذى يؤخذ منهم وأفلست الجبايات.

فكتب الحجاج إلى الوُلاة فى البصرة وغيرها ليأمرهم بأن يجمعوا كل

من انتقل من القرى إلى المدن من أهل الذمة من أجل أن يردوهم إلى القرى مرة أخرى.

فقام الولاة بتنفيذ الأمر وردُّوا أعدادًا كبيرة من هؤلاء الناس إلى القرى التى كانوا فيها... وبذلك فقد أبعدوهم عن موارد أرزاقهم.

فأخذ النساء والشيوخ والولدان يبكون ويصرخون ويستغيثون بمن يردهم مرة أخرى إلى المدن حيث موارد أرزاقهم.

فخرج إليهم فقهاء البصرة وقُراؤها من أجل أن يشفعوا لهم ويغيثوهم فلم يستطيعوا أن يفعلوا أى شىء.

* وهنا اغتنم عبد الرحمن بن الأشعث هذه الفرصة ودعا الفقهاء والقُراء إلى الوقوف بجانبه ضد الحجاج بن يوسف.

وبالفعل فقد استجاب له عدد كبير من الفقهاء وأئمة المسلمين... وكان على رأس هؤلاء سعيد بن جُبير والشعبى وعبد الرحمن بن أبى ليلى وأبو البخترى وغيرهم.

* ودارت حربٌ طاحنة بين ابن الأشعث والحجاج بن يوسف وكان النصر فى بداية الأمر لابن الأشعث ومن معه على الحجاج وجنوده.

وفجأة تغير الأمر وبدأت كفة الحجاج ترجح شيئًا فشيئًا حتى انتصر على ابن الأشعث وهزمه هزيمة منكرة.

واستطاع ابن الأشعث أن يفرَّ لينجو بنفسه من بطش الحجاج واستسلمت جيوش ابن الأشعث للحجاج.

وعلى أثر ذلك أمر الحجاجُ جنود عبد الرحمن بن الأشعث أن يبايعوه مجددًا واليًا على العراق بما فيه الكوفة والبصرة وسائر بلدان ما وراء النهر.

فبايع أكثرهم خوفًا من بطش الحجاج؛ أما الذين نذروا أنفسهم للجهاد والقضاء على الباطل أينما كان؛ فقد تواروا عن جند الحجاج وعيونه؛ وكان ممن توارى سعيد بن جبير.

وبدأ الحجاج يسمع البيعة من أفواه الجنود، فيقف رجل من أتباعه يقول للجندى: اشهد على نفسك بأنك قد كفرت بنقض بيعتك لأمير المؤمنين؟

فإن قال نعم أجازه.

وإن اعترض على هذا أُمِر به فقُتل.

وكثيرًا ما اعترض الجنود على رميهم بالكفر بنقضهم البيعة، فكان الثمنُ رقابهم ودماءهم.

وكان هناك مشهد تقشعر له الأبدان يوم البيعة هذه، التى تمخضت عن سبعة آلاف جندى شهدوا على أنفسهم بالكفر. ولننظر فى هذا المشهد الخطير.

جاء رجل عجوز من قبيلة تسمى «خثعم» كان مبتعدًا عن الفريقين غير موالٍ لأى منهما. فلما دخل على الحجاج قال:

ما زلتُ يا أمير المؤمنين منذ شبَّت نارُ الحرب مبتعدًا وراء هذا النهر، أنتظر نهاية القتال، فلما انتصرت أتيتك مبايعًا.

فقال الحجاج: تبًّا لك.. أتقعد متربصًا ولا تقاتل مع أميرك؟! أتشهد على نفسك بأنك كافر.

فقال الرجل: بئس الرجل أنا إن كنت عبدتُ الله ثمانين عامًا ثم أشهد على نفسى بالكفر.

فقال الحجاج: إذن نقتلك.

فقال الرجل: وإن قَتَلتنى؟! فوالله ما بقى من عمرى إلا ظِمءُ حمار[١]، فإنه يشرب فى غُدوة ويموت فى عشية. وإنى لأنتظرُ الموت صباح مساء فافعل ما بدا لك.

فقال الحجاج لجندى من جنوده: اضرب عُنقه... فلم يبق أحدٌ ممن كانوا فى مجلس الحجاج إلا حَزِن من أجل هذا الشيخ العجوز وترحَّم عليه[٢].

وصلت أخبار هذه المذبحة التى قُتِلَ فيها آلافُ المؤمنين الثابتين على إيمانهم، القابضين على دينهم بثبات ورسوخ إلى سعيد بن جبير، فبدأ يتملكه شعور أنه لا محالة من مثوله أمام الحجاج يومًا ما وفى موقف كهذا.

شتَّان بين هذا الرجل المؤمن وبين من يخافون البطش فيشهدون على أنفسهم بالكفر، عند ذلك أخذ سعيد بن جبير بالأسباب عملًا بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[٣].

وتوارى عن الأنظار بعيدًا، وظل على حاله هذه يضرب فى الأرض متخفيًا عن عيون الحجَّاج وجواسيسه، حتى لجأ إلى قرية بعيدة منعزلة، قريبة من مكة.

وبقى متخفيًا عن عيون الحجاج عشر سنوات.

وكانت تلك الفترة الطويلة كافية لأن تُطفئ نار الحقد التى فى قلب الحجاج بن يوسف الثقفى تجاه العالم الجليل سعيد بن جبير.

(١) ظِمْءُ حمار: أى: قدر يسير، لأن الحمار قليل الصَّبْر على الظمأ.
(٢) عصر التابعين/ أ. عبد المنعم الهاشمى (ص: ٣١٨-٣١٩).
(٣) سورة البقرة: الآية: (١٩٥).

* لكن حدث ما لم يتوقعه أحد... فقد جاء إلى مكة والٍ جديد من ولاة بنى أمية اسمه خالد بن عبد الله القسرى.

وكان رجلًا سيئ السيرة والسريرة.. فخاف أصحاب سعيد بن جبير عليه من هذا الرجل الشرير... فجاءوا إلى سعيد بن جبير وأخبروه بمقدم خالد بن عبد الله القسرى وطلبوا منه الرحيل من مكة حتى لا يظفر به هذا الرجل فيُسلمه إلى الحجاج.

فقال سعيد بن جبير: والله لقد فررت حتى استحييت من ربى... فسأبقى مكانى وليفعل الله ما يشاء.

* وما هى إلا أيام حتى استطاع خالد بن عبد الله القسرى أن عرف مكان سعيد بن جبير وأرسل إليه جنوده ليقبضوا عليه وليأخذوه مباشرة إلى الحجاج بن يوسف فى مدينة واسط.

* وبالفعل فقد استطاع الجنود أن يقبضوا على سعيد بن جبير ووضعوا القيد فى يديه أمام بعض أصحابه وأخبروه بأنهم سيذهبون به إلى الحجاج.

فما كان منه إلا أن رضى بقضاء الله وتلقَّى هذه المصيبة بنفسٍ هادئة وقلبٍ مطمئن ثم نظر إلى أصحابه وقال لهم: ما أرانى إلا مقتولًا على يدى هذا الظالم.

فلقد كنت أنا وصاحبان لى فى ليلة عبادة.. واستشعرنا حلاوة الإيمان وحلاوة الدعاء.. فسألنا الله أن يرزقنا الشهادة فى سبيله.... فاستُشهد صاحباى وبقيت أنا أنتظر الشهادة. وهنا خرجت إليه ابنته الصغيرة التى كان يحبها حبًّا شديدًا فرأته مقيدًا بالحديد والجنود يسوقونه فتعلقت به وأخذت تبكى فمسح على رأسها برفق ورحمة وقال لها: قولى لأمك يا ابنتى: إن موعدنا الجنة إن شاء الله... ثم مضى فى طريقه إلى الحجاج.

* وأخذه أحد الجنود ليسوقه إلى الحجاج فلما سار به ثلاثة أيام رآه يصوم النهار ويقوم الليل، فقال الرسول: والله إنى لأعلم أنى أذهب بك إلى مَن يقتلك فاذهب إلى أى طريقٍ شئت.

فقال له سعيد: إنه سيبلغ الحجاج أنك أخذتنى، فإن خليت عنى خفتُ أن يقتلك، ولكن اذهب بى إليه.

* **قال الأعمش:** لما جىء بسعيد بن جُبير وطلق بن حبيب وأصحابهما؛ دخلت عليهم السجن، فقلتُ: جاء بكم شرطى من مكة إلى القتل، أفلا كتفتُموه وألقيتُموه فى البرية؟! فقال سعيد: فمن كان يسقيه الماء إذا عطش!»(١).

* ووصل الجُند بالإمام الكبير سعيد بن جبير إلى هذا الظالم الحجاج ابن يوسف الثقفى فى مدينة واسط... وفى التو واللحظة أدخلوه على الحجاج فلما رآه نظر إليه بكل حقد وقال له: ما اسمك؟

فقال: سعيد بن جُبير.

فقال: بل شقى بن كُسير.

سعيد: بل كانت أمى أعلم باسمى منك.

الحجاج: ما تقول فى محمد؟

سعيد: تعنى محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه؟!

الحجاج: نعم.

سعيد: سيد ولد آدم، النبى المصطفى..

خير من بقى من البشر، وخير من مضى...

---

(١) السير (٤/ ٣٤٠).

حمل الرسالة، وأدى الأمانة...

ونصح لله، ولكتابه، ولعامة المسلمين، وخاصتهم.

الحجاج: فما تقول في أبي بكر؟

سعيد: هو الصدِّيق خليفة رسول الله ﷺ، مضى حميدًا، وعاش سعيدًا...

ومضى على منهاج نبيه ﷺ لم يُغير ولم يبدل.

الحجاج: فما تقول في عمر؟!

سعيد: هو الفاروق الذي فرق الله به بين الحق والباطل...

خيرةُ الله وخيرةُ رسوله، ولقد مضى حميدًا على منهاج صاحبيه...

وقُتل شهيدًا.

الحجاج: فما تقول في عثمان.

سعيد: هو المُجهز لجيش العُسرة... المقتول ظُلمًا.

الحافرُ بئر رومة...

المُشترى بيتًا في الجنة...

صهرُ رسول الله ﷺ على ابنتيه.

زوَّجه النبي بوحي من السماء.

الحجاج: فما تقول في عليٍّ؟!

سعيد: ابن عم رسول الله ﷺ، وأول من أسلم من الفتيان...

زوج فاطمة.

وأبو الحسن والحسين سيدي شباب أهل الجنة.

الحجاج: فما تقول في معاوية؟

سعيد: شغلتنى نفسى عن تصريف هذه الأمة وتمييز أعمالها - وفى رواية قال: - وهو كاتب رسول الله ﷺ.

الحجاج: فما تقول فىَّ؟

سعيد: أنت أعلم بنفسك.

الحجاج: بل أريد علمك أنت فىَّ.

سعيد: إذن يسوءك ولا يسرك.

الحجاج: بُثَّ فىَّ علمك.

سعيد: إنى لأعلم أنك مُخالف لكتاب الله تعالى... ترى من نفسك أمورًا تُريدُ بها الهيبة، وهى تُقحمك فى الهلاك فلقد ظهر منك جَورٌ فى حدِّ الله وجُرأة على معاصيك بقتلك أولياء الله.. وستَرِدُ غدًا فتعلم.

الحجاج: أما والله لأقتلنَّك قِتلة لم أقتلها أحدًا قبلك ولا أقتلها أحدًا بعدك.

سعيد: إذن تفسد علىّ دنياى، وأُفسد عليك آخرتك.

الحجاج: اختر لنفسك أى قتلة تريد أن أقتلك؟

سعيد: بل اخترها أنت لنفسك يا حجاجُ...

فوالله ما تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخرة.

الحجاج: أفتريد أن أعفو عنك؟

سعيد: إن كان العفو فمن الله تعالى...

أما أنت فلا براءة لك ولا عُذر.

فقال الحجاجُ: السيف والنطع[1] يا غُلام.

فتبسم سعيد، فقال لهُ الحجاج: ما أضحكك.

---

(١) النطع: بساط من الجلد يُفرش تحت المحكوم عليه بالقتل.

قال: عجبتُ من جُرأتك على الله وحلم الله عنك.

فقال الحجاج: اقتله يا غُلامُ.

فقام سعيد واستقبل القبلة وقال: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[1].

فقال: احرفُوا وجههُ عن القبلة.

فقال سعيد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ﴾[2].

فقال: كُبُّوهُ على وجهه.

فقال سعيد: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾[3].

فقال الحجاج: اذبحوا عدو الله.

فرفع سعيد كفيه وقال: اللهم لا تُسلط الحجاج على أحدٍ بعدى[4].

* بعد وفاة سعيد بن جبير، تحولت حياة الحجاج إلى جحيم، فلم يعد يعرف النوم، كان كلما نام، جاءه سعيد بن جبير فى المنام وأخذ برجله، فيفيقُ الحجاجُ مذعورًا وهو يصيح قائلًا: هذا سعيد بن جبير آخذٌ برجلى.

ومرة أخرى ينهض صائحًا: هذا سعيد بن جبير آخِذٌ بخناقى.

ومرة ثالثة يقوم فزعًا يقول: هذا سعيد بن جبير يقول: فيم قتلتنى؟ فيم قتلتنى؟

ثم يبكى ويقول:

مالى ولسعيد بن جبير!

---

(١) سورة الأنعام: الآية: (٧٩).

(٢) سورة البقرة: الآية: (١١٥).

(٣) سورة طه: الآية: (٥٥).

(٤) المختار من مناقب الأخيار / لابن الأثير (٤/ ٥١٣-٥١٤).

رُدُّوا عنى سعيد بن جبير

وقال الناس: إن الحجاج كان يمشى ويكلم نفسه بهذه العبارة:

مالى ولسعيد بن جبير.. ما لى ولسعيد بن جبير!

ولم يمضِ على مصرع سعيد بن جبير غير خمسة عَشَرَ يومًا حتى أصابت الحجاج الحمى، واشتد عليه المرض ومات.

قال الذهبى: ويروى أن الحجاج رُئى فى النوم، فقيل: ما فعل الله بك؟ فقال: قتلنى بكل قتيل قتلة، وقتلنى بسعيد بن جبير سبعين قتلة.

* ولما أهلك الله الحجاج، وطار خبر موته بكى إبراهيم النخعى من الفرح! وسجد الحسن البصرى شكرًا لله، وقال: اللهم أمتَّه فأذهب عنا سُنته، ولما أُخبر «طاووس» بموته قال: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[1].

وهكذا رحل سعيد بن جبير (رَحِمَهُ اللهُ) عن دنيا الناس لكن لم ولن ترحل سيرته العطرة وستبقى دماؤه الزكية نورًا على الدرب لتضىء للأمة طريق البذل والتضحية والفداء.

* رحم الله سعيد بن جبير وجمعنا به فى الفردوس الأعلى.

* * *

(١) سورة الأنعام: الآية: (٤٥).

اللهم من أفسد عليَّ زوجتي فأعمِ بصره

حياة السلف حياة مليئة بالإيمان مفعمة بالإذعان، لا تفتر ألسنتهم من ذكر الله تعالى ولا جوارحهم من طاعته والاستسلام له، يرى الواحد منهم وكأنه يُنادَى للموت ويُطلَب للحشر، باعوا أنفسًا تموت غدًا بأنفس لا تموت أبدًا.

حتى لو قيل لأحدهم إن القيامة يوم غد ما وجد للعمل الصالح مزيدًا، وما نحن معهم إلا كاللصوص، وحياتنا مع واقعهم الذى كانوا يعيشونه خيال، صدقوا مع الله فصدقهم، وعملوا له مخلصين فسددهم، إذا ضاقت عليهم الضائقة دعوا الله فيجيبهم، ومن هؤلاء الأفذاذ العالم الحبر والإمام الهمام عبد الله بن ثوب المُكنَّى بأبى مسلم الخولانى.

ابتلاه الله واختبره بطاغية من الطغاة، وكذاب من الكذابين، ودجال من الدجالين، ألا هو الأسود العنسى (سوَّد الله وجهه)، ادَّعى الأسود النبوة، واستخدم السحر فى التمويه على الناس، وادَّعى علم الغيب فأنكر عليه أبو مسلم رَحِمَهُ اللهُ وحذر الناس من شره، فما كان من الأسود إلا أن جمع له حطبًا عظيمًا ثم أضرم فيه النار ثم ألقاه فى النار وقد نجَّى الله أبا مسلم كما نجَّى خليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان أبو مسلم كثير الذكر، قال له أحد الناس: أريد منك نصيحة: قال: اذكر الله، قال: ثم زدنى: قال: اذكر الله، قال: زدنى: قال: اذكر الله حتى يقال إنك مجنون. كان إذا دخل داره يقول من عند الباب: الله أكبر، فتقول زوجته: الله أكبر من داخل البيت، ثم يقول إذا دخل الحجرة الله أكبر، فتقول زوجته: الله أكبر، وفي يومٍ من الأيام عاد إلى منزله فكبَّر على عادته فما ردت عليه المرأة ثم كبر لما دخل فما ردت عليه، ثم

كبَّر الثالثة فما ردَّت عليه فأيقن أن من الأشرار من أفسد عليه زوجته إذ ما تعود منها هذا العمل ولا هذا الإعراض. فدخل عليها وهى تفور غضبًا عليه فسألها فما أجابته فرفع يده إلى السماء ثم قال: اللهمَّ مَن أفسد علىَّ زوجتى فأعمِ بصره.

وكانت امرأة قد جاءت إلى زوجة أبى مسلم وقالت: إن لزوجك مكانة عند معاوية فلو طلبتِ منه أن يطلب من معاوية خادمًا يخدمك فصدقتها المرأة وأبدت غضبها لزوجها ليحقق مطلبها، فدعا على من أفسدها، وقد استجاب الله دعاءه، فبينما تلك المرأة بين أهلها فى ليلة من الليالى والسراج بينهم إذ طمس الله بصرها وأعمى عينها، فقالت لأهلها: لماذا أطفأتم السراج؟ قالوا: ما أطفأناه. قالت: فإنى والله لا أبصر شيئًا، فعلمت أن معصيتها أحاطت بها وأن مكرها حاق بها، وأن بغيها على نفسها، فطلبت منهم أن يذهبوا بها إلى أبى مسلم الخولانى فذهبوا بها فطلبت منه أن يعفو عنها وأن يدعو الله لها أن يرد بصرها ففعل فردَّ الله بصرها [١].

وكم يوجد اليوم من المفسدات بين الأحبَّة والمدمرات للبيوت أمثال هذه المرأة وأن ما أصاب هذه من ذلك الصالح سيحيق بمثيلاتها ... والمسلم يسعى لإصلاح ذات البين ويجتهد فى ترابط الأسرة الواحدة أما المرجفون فإنهم يحيكون المؤامرات لتدمير الأسر وتشتيت المجتمع [٢].

* * *

(١) سير أعلام النبلاء جزء ٤، صفة الصفوة جزء ٤.

(٢) اتق دعوة المظلوم (ص ٦٣ - ٦٤) بتصرف.

يا أرحم الراحمين برحمتك أستغيث

إن الله تعالى لا ينظر إلى الصور ولا إلى الأجساد ولكن ينظر إلى القلوب وإلى الأعمال، ورُبَّ أشعث أغبر ذى طمرين لو أقسم على الله لأبرَّهُ، وربما يكون صاحب شارة وجاه وعظمة لا يزن عند الله جناح بعوضة، ومحبة الله تعالى لأوليائه ثابتة وتزداد تلك المحبة إذا ترك العبد أهله وولده وماله وبلده وترك دنياه لإعلاء كلمة الله تعالى، يتشوق للقاء الله، ويوقن بموعود الله، ولسان حاله يقول:

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وباردٌ شرابها

والروم رومٌ قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

علىَّ إن لاقيتها ضِرابُها

ومن هؤلاء النماذج حاتم بن عنوان الأصم الذى يقول: بنيت أمرى فى التوكل على الله تعالى على خصالٍ أربع: علمت أن رزقى لا يأكله غير فاطمأنت به نفسى، وعلمت أن عملى لا يعمله غيرى فأنا مشغول به، وعلمت أن الموت يطلبنى فأنا أبادره، وعلمت أنى لا أخلو من عين الله تعالى حيث كنت فأنا مُستحٍ منه.

قال عبد الله بن سهل: سمعت حاتمًا يقول: اختلفت إلى شقيق البلخى ثلاثين سنة وتعلمت منه أنى رأيت أن رزقى من عند ربى فلم أشتغل إلا به، ورأيت أن الله تعالى وكَّل بى ملكين يكتبان علىَّ كل ما تكلمت به، فلم أنطق إلا بالحق، ورأيت أن الخلق ينظرون إلى ظاهرى والرب ينظر إلى باطنى فرأيت مراقبة الله أوجب وأولى فسقطت عنى رؤية الخلق، ورأيت أن الله يدعو الخلق إليه فاستعددت لذلك متى جاءنى الأجل لا أحتاج إلى

مزيد عمل... قال له معلمه شقيق: ما خاب سعيك يا حاتم ... وكان يقول: ما من صباح إلا والشيطان يقول لى: ما تأكل وما تلبس وأين تسكن؟ فأقول: آكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبر.

يقول حاتم: لقينا الترك فى حرب بين الكفر والإسلام، بين جند الله تعالى وجند إبليس، وكان بيننا وبينهم جولة، فرمانى تركى بوهق «وهو الحبل الذى فى طرفه أنشوطة يطرح فى عنق الإنسان حتى يؤخذ» فقلبنى عن فرسى ونزل عن دابته فقعد على صدرى وأخذ بلحيتى هذه الوافرة ثم أخرج من خُفِّه سكينًا ليذبحنى بها، فتذكرت ربى الذى لا أنساه ولجأت إلى خالقى الذى يدفع الضُّرَّ ويجلب النفع ويتصرف فى الوجود ... فوالله ما كان قلبى عند التركى ولا عند سكينه، بل طار قلبى إلى ربى أدعوه وأتضرع إليه، وأطمئن بذكره، وأعلم بكشفه لضُرِّى فلا حول ولا قوة إلا بالله وحده، وكنت أنتظر القضاء الذى قضاه الله بى، وأقول: يا أرحم الراحمين برحمتك أستغيث، أنا لك وملكك، وبينما أنا أخاطب ربى بالدعاء والتركى على صدرى آخذ بلحيتى والسكين فى يده ليذبحنى إذ رماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حَلْقَه فسقط عنى فقمت إليه فأخذت السكين من يده وركبت على صدره وذبحته، فما هو إلا أن تكون قلوبكم عند ربكم حتى تروا من عجائب لطفه ما لم تروا ... فإن الله بالمؤمنين رحيم ولقلوبهم المؤمنة حافظ [1].

* * *

---

(١) صفة الصفوة جزء ٣ نقلًا من (اتق دعوة المظلوم) (ص ١٢٦ - ١٢٧).

الله يقتص للإمام البخاري

قيَّض الله للسنة من يحفظها ويخدمها ... أبلى شبابه وأفنى عمره من أجلها، وصرف وقته لها، فحفظه الله تعالى فى سمعه وبصره ولسانه وقدمه ويده، وفى جميع شئون حياته، وحفظ له دينه الذى هو عصمة أمره، وحفظ له آخرته التى إليها معاده.

ومن أعظم الناس خدمة للسنة أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى الذى تربَّى على حلقات القرآن منذ نعومة أظفاره، فحفظه عن ظهر قلب، ثم أخذ يتتبع مجالس العلماء فيجلس فيها ويسمع من أهلها، وأحب الحديث أعظم حب فحفظه وكتبه، وجمعه من مصادر كثيرة، وسأل عنه أكثر العلماء، واهتم أعظم الاهتمام بصحة الحديث، فما كان يكتب حديثًا حتى يغتسل ويصلى ركعتين وقد رزقه الله تعالى القبول فى الأرض ونرجو له المحبة فى السماء، فتلقَّت الأمة كتابه الصحيح فى الحديث بالقبول بل واعتبرته أصح كتاب بعد كتاب الله تعالى.

وقد تعرض هذا الإمام لفتنة كما يُفتن أمثاله زيادة فى الإيمان: ومضاعفة فى الأجر، ورفعة فى الدرجة، وتأهيلًا للنفس حتى تصبر على ما هو أعظم من ذلك، وهذه الفتنة هى أن أمير خُراسان خلف بن أحمد بن خالد حقد على الإمام البخارى أعظم حقد وتأججت فى فؤاده نار الغضب ليفتك به إلا أنه يعلم مكانة الشيخ عند الناس وحبهم له، فعمل على مضايقته والإضرار به، فأخرجه من بلده الذى ولد فيه وتربَّى على ترابه «بخارى» وطرده عنها ليكون بعيدًا عن أهله، وبعيدًا عن عشيرته، وعن طلابه وأحبابه ومعارفه.

فحزن الإمام البخارى لذلك لأنها جناية ليس لها مبرر، ولأن معارفه الذي يتلقون عنه سيتأثرون بهذا الانقطاع، ويتأثر هو لقلة معارفه فى البلد المُخرَج إليه، فلما غادر بلده رفع يديه إلى السماء فى وقت خلوة غفل عنها الكثير ونامت فيها العيون وعجزت فيها القوى إلا قوة الله تعالى ثم أخذ يدعو ويقول: «اللهم عليك به فإنه لا يُعجزك» وكأن لسان حاله يقول: أشكو إليك ضعفى وقلة حيلتى أنت وليى من دون الناس، وناصرى من دونهم وأنت القادر العظيم فاجعله عبرة لغيره،... ومن حكمة الله تعالى أن جولة الباطل مرة، وأما الحق فجولته إلى قيام الساعة، استجاب الله تعالى دعوة هذا الإمام المظلوم ورفعها فوق الغمام وقال: لأنصرنَّكِ ولو بعد حين، فما مضى عليها إلا عدة أيام وإذا بهذا الأمير يُطرَد من الإمارة ويُودَع السجن وتوضع القيود فى قدميه والأغلال فى عنقه ويُغرَّب عن أهله فى سجنٍ مظلم، كما غَرَّب الإمام عن أهله وقومه، وصودرت أمواله، وأُركب على حمار يطاف به على البلاد لِيُشهَّر به بعد تسويد وجهه والتحذير منه، وانقلبت الموازين وأصبح العزيز ذليلًا والذليل عزيزًا، واستمر مُعذَّبًا فى السجن مدة طويلة حتى مات سنة ثلاث وسبعين ومائتين.

قال الإمام ابن كثير: هذا جزاء مَنْ تعرَّض لأهل الحديث والسنن[1][2].

* * *

(١) البداية والنهاية جزء ١١.

(٢) اتق دعوة المظلوم (ص ٩٠ - ٩١).

اللهم لا تجمع بيني وبينه

هاجت فى عهد المأمون بن هارون الرشيد فتنة عظيمة أكلت الأخضر واليابس، وفُتن بها الكثير من الناس، وما ثبت إلا أهل الإخلاص والصدق الذين نذروا حياتهم لله تعالى، يعيشون للآخرة ويزهدون فى الدنيا.

وقد خُلق المسلم قويًّا فى حياته، لا يميع مع الأهواء والشهوات، قوته فى عقيدته وإيمانه وروحه، يثبت أمام الفتن التى تموج كالجبال، وهل يُعرف المسلم إلا بالابتلاء والاختبار ... يُختبر كل إنسان على قدر إيمانه، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾[1].

وأعظم الفتن أن يُفتن الإنسان فى دينه وخصوصًا أمور العقيدة التى لا تقبل المساومة ولا المجاملة، والحياة الحقة لا تقوم إلا على العقيدة، ولا يُعرَف صلاح العبد من فساده إلا بعقيدته.

وفى عام ٢١٨ هـ كتب المأمون إلى نائبه على بغداد بأن يمتحن القضاة والمحدثين بالقول بخلق القرآن وأن يرسل إليه جماعة منهم، والحق أن القرآن الكريم كلام الله تعالى منه بدأ وإليه يعود، وإنه غير مخلوق بل هو مُنزَّل ومكتوب، وهذا هو الثابت من القرآن والسنة، وعليه أهل السنة والجماعة، وقد تأثر المأمون بأقوال المعتزلة الذين يقولون بأن القرآن مخلوق وأراد الخليفة أن يحمل الناس جميعًا على هذا القول لينتصر لرأيه وليعزز مذهب أتباعه.

فأمر بامتحان العلماء رجلًا رجلًا: وقد تزعزعت عقائد الكثير من الناس

---

(١) سورة العنكبوت: الآيات: (١-٣).

أمام هذه الفتنة، وما ثبت أمامها إلا الإمامان، أحمد بن حنبل، ومحمد بن نوح - رحمهما الله تعالى - فلما علم المأمون بمخالفتهما له أمر بترحيلهما إليه فى طرسوس من بغداد مُقيدين، فقُيِّدا وجُعلا على ظهر جمل فى عدلتين، وأُخرجا من بغداد إلى الخليفة، واستكان الإمامان لأمر الله وعلما أنها فتنة لا بد من الثبات أمامها ليلقوا ربهم وهو عنهم راضٍ، وليثبت الناس على المنهج الصحيح، ولما غادرا بغداد رفع الإمام أحمد يده ثم قال: «اللهم إنك تعلم أننا ذاهبان إلى المأمون وإننا لا نريد إلا الحق، اللهم لا تجمع بيننا وبينه واقضِ بيننا وبينه إنك على كل شىء قدير» ومضيا وهما على ثقة بنصر الله وإجابته، وفى أثناء الطريق وصل الخبر أن المأمون قد مات من علة به، وما جمع الله بينهما وبين المأمون ولا كلَّماه ولا حدثهما، ولكن الله كفاهما شره، فأُعيدا إلى بغداد، وقد طلب بعض الناس من الإمام أحمد أن يتأول فى كلامه ويُظهر خلاف ما يبطن من باب التورية الجائزة، كما حصل من إبراهيم الخليل ﷺ، عندما قال: إنى سقيم، وكما كان رسولنا ﷺ، يفعل فى غزواته يُورِّى فإذا أراد الجنوب سأل عن الطريق إلى الشمال وهكذا، فقال بعض طلاب العلم للإمام أحمد: افعل ذلك أى التورية فى الكلام، فقال لهم: اخرجوا وانظروا من وراء هذا الباب، ما الذى ترون وما الذى تنتظرون وما الذى فى أيديهم فخرجوا فوجدوا الناس قد ازدحموا على بابه وبأيديهم الأقلام ينتظرون ماذا يقول أحمد، فيكتبونه فعذروه رَحِمَهُ اللهُ، وقد لقى فى تلك الفتنة أذى كثيرًا فما زاده إلا صبرًا واحتسابًا[1].

---

(١) البداية والنهاية جزء ١٠، تاريخ الطبرى جزء ٥.

الله يُجيرني منك

يجب على الإنسان أن يوقن بأنه لا يبقى على حال واحدة إلا الله العظيم الذى يُغير ولا يتغير، والذى بيده ملكوت السموات والأرض لا تأخذه سنة ولا نوم، ومما يُذكَر أن محمد بن يزيد أمره عمر بن عبد العزيز - رحمه الله وأسكنه جنته - أن يُخرج قومًا من السجن فقام بإخراجهم إلا واحدًا منهم اسمه يزيد بن أبى مسلم وكان كاتبًا للحجَّاج على ظلمه ومعينًا له على بطشه، وما كان يرحم أحدًا ولا يرتدع أو ينزجر بحادثة تحدث بل يلهو مع اللاهين ويلعب مع اللاعبين، ولا يراقب رب العالمين.

فلما رأى يزيد بن أبى مسلم السُّجناء يخرجون إلا هو أضمر الحقد فى قلبه على محمد بن يزيد ونذر الانتقام منه وتمنَّى أن يتمكن منه ليشفى غليله، فلما توفى عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ وتولى يزيد بن عبد الملك عزل بعض أمراء عمر، وكان ممن عزل محمد بن يزيد وهو على أفريقية، وولى مكانه يزيد بن أبى مسلم ... يقول محمد بن يزيد: فهربت منه واستخفيت فى كل مكان ولكنه يلاحقنى حتى علم بمكانى، فطلبنى وأرسل الرسل إلىَّ حتى ظفروا بى ووجدونى، فأحضرونى مقيدًا له فلما دخلت عليه قال: لطالما سألت الله أن يمكننى منك، فقلت: وأنا والله لطالما سألت الله عَزَّ وَجَلَّ أن يعيذنى ويجيرنى منك، قال: ما أعاذك ولا أجارك منى والله لأقتلنك ولو سابقنى ملك الموت إلى قبض روحك لسبقته.

ثم دعا بالسيف والنطع فأُتى بهما وأمر بى فأقمت فى النطع وكُتفت وشُدَّ رأسى وقام ورائى رجل بسيف مُصْلَت يريد أن يضرب عنقى، وبينما هو كذلك إذ أُقيمت الصلاة، فعلمت أن هذا فرج من الله، لأن الصلاة أمن

للخائفين وقوة للضعفاء والمساكين، وأن الله تعالى سيشغله عنى وإلا فنار الغضب تغلى فى قلبه، والحقد يتفجر من شرايينه، فلما سمع الإقامة قال: أمهلوه واتركوه حتى أصلى، وخرج إلى الصلاة ليصلى مع الناس، فلما خرج وأقيمت الصلاة صلى، ولما سجد سلط الله عليه من يقتله إذ أخذته السيوف من كل مكان وكنت أقول اللهم أجرنى منه، اللهم إنى أعوذ بك من شره، وكان يستهزئ بى ويقول: لم يُعذك منى ولم يُجرك منى، وإنى لك لبالمرصاد، وإننى على ثقة أن الله لن يضيعنى وإن انتهى أجلى فلن أستأخر ساعة ولن أستقدم.

فلما ضربوه بالسيوف قُتل وهو فى صلاته ودخل علىَّ مَن حَلَّ كتافى وفك قيدى وأطلق وثاقى وخلى سبيلى، فانصرفت سالمًا، وإن كان هذا الظالم يصلى إلا أن أذية الناس لا تجوز لأن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، فكيف يصلى وهو يعذب عباد الله وينكل بهم بل ويسومهم سوء العذاب، ويكون ملك الموت قد سبق إلى هذا الظالم قبل أن يسبق إلى المظلوم والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين [١].

* * *

(١) الوزراء والكتاب لابن عيدروس، الفرج بعد الشدة للحازمى.

أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه

يغتر بعض الناس بالمظاهر التى يتلبس بها مَن لا خَلاق له، ونحن لا نعلم ببواطن البشر، ولكن الله تعالى يُظهر تلك البواطن على فلتات اللسان، وقسمات الوجه، ويخرج ما يكتمون، وقد روى عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: مَن أسرَّ سريرة كساه الله جلبابها، وقد ذكر ابن كثير فى تفسيره عند قول الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[1]، أن الحافظ ابن عساكر ذكر فى ترجمة أبى بكر محمد بن داود الدينورى أنه قال: كنت أُكارى على بغلٍ لى -أي: أستأجر البغل- من دمشق إلى بلد الزيدانى، فركب معى ذات مرة رجل فمررنا فى بعض الطريق على طريق غير مسلوكة، فقال لى: خذ مع هذه الطريق فإنها أقرب، فقلت لا خيرة لى فيها، فقال: بل هى أقرب فسلكناها حتى انتهينا إلى مكانٍ وعرٍ، ووادٍ عميق وفيه قتلى كثير، فقال لى: أمسك رأس البغل حتى أنزل فنزل وتشمَّر وجمع عليه ثيابه وسَلَّ سكيناً معه وقصدنى ففررت منه فتبعنى فناشدته الله تعالى وقلت له: خذ البغل وما عليه فقال هو لى وفى يدى ولا أشاورك فيه.

فقلت له: فماذا تريد؟ قال: أريد قتلك، فخوَّفته الله وذكَّرته العقوبة فلم يقبل منى فاستسلمت بين يديه وقلت له: إن رأيت أن تتركنى حتى أصلى ركعتين؟ قال: نعم، عَجِّل فيهما ... وهكذا يعرف الصالحون يتعاملون مع الرب ويحسنون الاتصال به ويقدمون العمل الصالح ويلجؤون إليه ويوقنون أن الاتصال البشرى لا يُجدى، فهم فى مناجاة مع الرب وصاحب هذا العمل لا يخسر بل إن قُتل فيكون قد ودَّع الدنيا بأفضل الأعمال، وإن

(١) سورة النمل: آية ٦٢.

بقى فيكون قد تسلَّح بسلاحٍ قوى وزادت علاقته وصلته بربه ولو عرف الناس هذا الخير ما تركوه، ولقُضيت حاجاتهم فى كل وقت، وفى كل حين، ونسأل الله أن يلهمنا رشدنا وأن يقينا شر أنفسنا.

قال اللص للدينورى عجِّل علىَّ فقام المكروب يصلى فارتجَّ عليه القرآن ونسيه كله من هول الموقف، إذ السيف على رأسه واللص يقول عجِّل قبل أن يكبر وعند التكبير وبعد التكبير وفى كل لحظة فما تذكر من القرآن شيئًا حتى الفاتحة يقول: فبقيت واقفًا متحيرًا وهو يقول هيه أفرغ، فبينما أنا فى هم وضيق ألقى الله على لسانى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ فقرأتها فإذا بفارس قد أقبل من فم الوادى وبيده حربة فرمى بها الرجل، فما أخطأت فؤاده فخرَّ صريعًا فتعلقت بالفارس وقلت بالله من أنت؟ قال: أنا رسول الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، قال: فأخذت البغل والحمار ورجعت سالمًا[1].

وما أشبه هذه القصة بقصة أبى معلق الصحابى الجليل: وقد تقدم جزء منها، الذى كان يتاجر بماله وكان ناسكًا ورعًا فخرج مرة بتجارته فلقيه لص مُقنَّع فى السلاح فقال: ضع ما معك فإنى قاتلك، قال: خذ المال، قال: سآخذه ولكنى أريد روحك، قال: إذًا اتركنى أصلى أربع ركعات، فقال: صَلِّ ما بدا لك، فتوضأ أبو معلق وأحسن وضوءه ثم استقبل القبلة وصلى أربع ركعات من أحسن ما صلى خشوعًا وخضوعًا فلما سجد السجدة الأخيرة من الركعة الرابعة دعا وقال: يا ودود يا ذا العرش المجيد، يا فعالًا لما تريد، أسألك بعزك الذى لا يُرام، وبملكك الذى لا يُضام، وبنورك

---

(١) تفسير ابن كثير جزء ٣.

الذى ملأ أركان عرشك، أن تكفينى شر هذا اللص، يا مغيث أغثنى، يا مغثيث أغثنى، يا مغيث أغثنى، يا مغيث أغثنى، فإذا بذاك الفارس قد أقبل وبيده حربة قد وضعها بين أذنى فرسه فلما بصر به اللص أقبل نحوه فطعنه الفارس فقتله ثم أقبل إليه فقال: قم فقام وأتم صلاته ثم سلَّم وقال: من أنت فقد أغاثنى الله بك اليوم؟ قال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة، دعوت بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة ثم دعوت بدعائك الثانى فسمعت لأهل السماء ضجة ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل لى دعاء مكروب،، فسألت الله أن يولينى قتله [1].

* وذكر ابن عساكر فى ترجمة فاطمة بنت الحسن أم أحمد العجلية قالت: هزم الكفار يومًا المسلمين فى غزاة فوقف جواد جيد بصاحبه وكان من ذوى اليسار، ومن الصُّلحاء، فقال للجواد مالك ويلك إنما كنت أعدك لمثل هذا اليوم فقال له الجواد: وما لى لا أقصر وأنت تَكِل العلوفة إلى السواس فيظلموننى ولا يطعموننى إلا القليل، فقال: لك علىَّ عهد الله ألا أعلفك بعد هذا اليوم إلا فى حجرى فجرى الجواد عند ذلك ونجى صاحبه وكان لا يعلفه بعد ذلك إلا فى حجره، واشتهر أمره بين الناس وجعلوا يقصدونه ليسمعوا منه ذلك.

وبلغ ملك الروم أمره فقال: ما تضام بلدة يكون هذا الرجل فيها، واحتال ليحصله فى بلده فبعث إليه رجلًا من المرتدين عنده فلما انتهى إليه أظهر له أنه قد أسلم، ودعا قومه للإسلام حتى أمَّنه واستوثق منه ثم خرجا يومًا يمشيان على جنب الساحل وقد واعد شخصًا آخر من جهة ملك الروم

(١) الجواب الكافى لابن القيم، الإصابة فى تمييز الصحابة لابن حجر.

ليتساعدا على أَسْرِه فلما اكتنفاه ليأخذاه رفع طرفه إلى السماء وقال: اللهم إنه إنما خدعني بك فاكفنيهما بما شئت، فخرج سبعان فأخذا الرجلين ورجع الرجل سالمًا آمنًا بعد أن فرج الله همه ويسر أمره وحفظه الله بحفظه[1].

* * *

(١) تفسير ابن كثير لسورة النمل: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾.

ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله

كم رأينا أُناسًا يسعى الواحد منهم ليدبر لأخيه المكائد والمصائب؛ ولكن يشاء الله (جل وعلا) أن من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

حُكى أن خدم بعض الملوك وجدوا طفلًا فى الطريق؛ فالتقطوه فأمر الملك بتربيته وضمه إلى أهل بيته وسماه (أحمد اليتيم)، فلما نشأ ظهرت عليه أمارات النجابة والذكاء فهذبه وعلمه ولما حضرته الوفاة أوصى به ولى عهده فضمه إليه واصطفاه وأخذ عليه العهد أن يكون له وفيًّا وخادمًا أمينًا وبعد ذلك قدمه فى أعماله فصار حاكمًا على جميع حاشية الأمير ومتصرِّفًا فى شؤون قصره. وفى أحد الأيام أمره أن يحضر شيئًا من بعض حجراته فذهب ليحضرها فرأى بعض جوارى الأمير الخاصة به مع شاب من الخدم يفسقان ويزنيان، فتوسلت إليه الجارية أن يكتم هذا الخبر ووعدته بكل ما يطلب وراودته عن نفسه لتأمن شره فقال لها: معاذ الله أن أخون الأميز أزنى وقد أحسن إلى؟! ثم تركها وانصرف على أن يكتم السرّ ولكن الجارية أوجست فى نفسها خيفة وتوهمت أن أحمد اليتيم سيفشى أمرها للأمير فما كان إلا أن انتظرت الأمير حتى حضر إلى قصره، ثم ذهبت إليه باكية شاكية فسألها ما خبرها؟ فقالت: إن أحمد اليتيم راودها عن نفسها وكان يريد أن يقهرها على الزنا فلما سمع الأمير ذلك غضب واشتد غضبه وعزم على قتله ثم دبر قتله فى الخفاء حتى لا يعلم الناس بقتله وبسبب هذا القتل.

فقال لكبير خدمه: إذا بعثت إليك أحدًا بطبق يطلب منك كذا وكذا فاقطع رأسه وضع الرأس فى الطبق وابعث بها إلى فأجاب الخادم بالسمع

والطاعة وفى يوم من الأيام أحضر الأمير أحمد اليتيم، وقال له: اذهب إلى فلان الخادم وقل له: يعطيك كذا وكذا. فامتثل الأمر وذهب إلا أنه لقى فى طريقه بعض الخدم فأرادوا أن يحكموه بينهم فى أمر فاعتذر وقال: إنه مكلف بقضاء أمر الأمير فقالوا: نبعث فلانًا الخادم نائبًا عنك ليحضر ما تطلبه حتى تفصل فى شأننا فأجابهم إلى ما طلبوا فأرسلوا واحدًا منهم هو الشاب الذى سبق له الزنا بالجارية فلما ذهب أخذه رئيس الخدم إلى المكان الذى أعده ثم قطع رأسه على غرة ثم وضعها فى الطبق وغطاها وجاء بها إلى الأمير فلما أبصر الطبق رفع الغطاء فرأى رأسًا غير رأس أحمد اليتيم فأحضر الأمير أحمد اليتيم فسأله عما فعل فأخبره بما كان فقال الأمير: أتعرف لهذا الخادم ذنبًا؟ فقال: نعم إنه فعل كذا وكذا مع الجارية وعاد وقد سألانى بالله أن أكتم الخبر فلما سمع الأمير ذلك أمر بقتل الجارية وعاد إلى ما كان عليه من محبة أحمد وإكرامه، وكانت هذه عاقبة الوفاء ونهاية الخيانة ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾[1].

* * *

(١) سورة فاطر: الآية: (٤٣).

اللهم سلط عليه جندك

كان رجلًا معدمًا ولكنه كان سعيدًا.

وكانت له عائلة من زوجة وخمسة أولاد وأختين ووالدة طاعنة فى السن، له حانوت يبيع فيه الخضروات .. اليقطين، والباذنجان، والسلق، والفجل، والطماطم .. إلخ.

حانوته هذا فى طريق فرعية، يبيع فيه سلعته على جيرانه من الفقراء، فلم يكن له من المال ما يؤجر به حانوتًا فى موقع ممتاز أو يشترى به سلعة ممتازة.

أما داره الخربة فتسمى من باب المجاز دارًا، وهى فى حقيقتها غرفة واحدة حولها ركام من الأنقاض، وفى هذه الغرفة ينام أفراد العائلة يطبخون ويستحمون.

وإذا ما عاد الرجل إلى داره بعد غروب الشمس، ومعه الخضرة، واللحم، والخبز، تستقبله العائلة كلها بالفرح والتصفيق، والأغانى، والأهازيج، ويتناولون منه ما بيديه من طعام، ويهرعون إلى القِدر لإعداد العشاء.

ولم يكن فى كل يوم يحضر اللحم، فإذا كان مبيعه اليومى رابحًا استطاع أن يشترى لحمًا، وإلا فعشاء عائلته من بقايا ما كسد من خضرة حانوته.

وكانت تلك العائلة تسكن إلى جوار حاكم فى المحكمة العليا، وكان ذلك الحاكم يعطف على تلك العائلة ويزورها بين حين وآخر.

وهذا الحاكم كثيرًا ما حدَّثنى عن عائلة جاره، قائلًا: «لم أرَ فى حياتى عائلة سعيدة مثل هذه العائلة، ولم أرَ فرحًا غامرًا كالفرح الذى يشيع فى

العائلة عندما يعود رَبُّها من عمله مساء، وكنت كثيرًا ما أحب أن أعيش وقتًا سعيدًا بينها حين يصل جارى إلى داره فتستقبله العائلة كلها بالتهليل والتكبير، ثم يبدأ عملها الدائب فى إعداد العَشاء، فإذا نضج الطعام بدأوا يتناولونه من إناء كبير فإذا انتهوا من عشائهم، حمدوا الله وشكروه، وأكثروا من حمده وشكره، ثم آووا إلى فراشهم الخلق البسيط فرحين قانعين، لا يتمنون على الله غير الستر والعافية وألاَّ يحتاجوا إلى إنسان».

وفى يوم من أيام الخريف، كانت العائلة تنتظر عائلها مساءً على باب الدار، فإذا بهم يرون بعض الشرطة يحملون نعشًا، فلما تبينت العائلة الأمر وجدت معيلها الوحيد هو المحمول فى النعش.

كان قد أغلق حانوته، وقصد القصَّاب - الجزار- المجاور فاشترى لحمًا، وقصد الخباز القريب فاشترى خبزًا، وحمل بقايا خضرته من دكانه، فلما أراد عبور الشارع دهسته سيارة طائشة، فمات الرجل فورًا، وتبعثر ما كان معه من زاد.

وتجمَّع الجيران حول النعش، وجمعوا من سراتهم بعض المال، وأنفقوا على تجهيز الجثة الهامدة ما جمعوه، وقدموا ما تبقى من مال زهيد إلى العائلة، وفى صباح اليوم التالى واروا الفقيد إلى قبره.

وكان أكبر أولاده فى سن الخامسة عشرة، يدرس فى الصف الثانى فى المدرسة المتوسطة الشرقية؛ ليُعد نفسه ليكون موظفًا صغيرًا بعد تخرجه من الإعدادية فيعاون أهله.

وبعد يومين من موت والده، نفد آخر ما جمعه الجيران من مال للعائلة، وفى اليوم الثالث قصد حانوت والده.

وبدأ يعمل فيه كل يوم بعد غروب الشمس كما كان يفعل والده ..

ولكن الابتسامات غاضت إلى غير رجعة .. والفرح مات إلى الأبد .. وكان الطعام الذى تتناوله العائلة ممزوجًا بالدموع .. لقد دفنت العائلة سعادتها مع فقيدها الحبيب ..

ومرت الأيام ثقيلة، بطيئة، ودار الزمن دورته، فانقضت ثلاث سنوات، ودُعى الولد الكبير إلى الخدمة فى الجندية بعد أن استكمل الثامنة عشرة من عمره.

واجتمعت العائلة تتداول الرأى هل يترك الابن الثانى مدرسته وقد أصبح فى الصف الرابع الإعدادى ولم تبق له غير سنة؛ ليتخرج من الإعدادية؛ ليتولى إدارة حانوت أخيه؟ وإذا لم يفعل فمن يعيل أهله؟

واستقر رأى العائلة على بيع الدار، ولو أن الخروج منها كخروج الشاة من جلدها، لا يُسمَّى إلا موتًا أو سلخًا..!

والتحق الابن الأكبر بالجندية فى بلد مجاور يتدرب على استعمال السلاح، وكان معلم التدريب العسكرى يلاحظه فيجد فيه ذهولًا وانصرافًا عن التدريب، فكان ينصحه تارة، ويعاقبه بالتعليم الإضافى تارة أخرى .. دون جدوى.

لقد كان حاضرًا كالغائب، وكان جسمه فقط مع إخوانه الجنود فى التدريب، ولكن عقله كان بعيدًا .. بعيدًا .. هناك عند عائلته.

واستدعاه معلمه يومًا، وسأله عن مشكلته، ففتح له قلبه وأخبره بأمره، فبادله المعلم الإنسان حزنًا بحزن، وأسى بأسى، وكفَّ عن ملاحقته فى أمر إتقان التدريب.

وعرض المعلم مشكلته على آمر الفصيلة، فأمر بتعيينه فى مطبخ الجنود يغسل القدور، ويقطع اللحم، ويوقد النار ويوزع الطعام، أما أمه .. فكانت هى أيضًا حاضرة كالغائبة.

استقرضت بعض المال من أحد سماسرة بيع الدور؛ لتطعم العائلة به، ورهنت سند الدار عند السمسار وعرضت الدار للبيع.

واستمر عرض الدار أيامًا على الراغبين بشرائه، وأخيرًا وبعد مرور عشرين يومًا، باعت الدار بأربعمائة دينار، ثم قضت تسعة أيام فى معاملات حكومية رتيبة لنقل ملكيتها إلى المالك الجديد.

وبقى يوم واحد على موعد إعطاء البدل النقدى عن ولدها، وكان عليها أن تسافر إلى المدينة التى استقر فيها ولدها فى الجندية مساء اليوم التاسع والعشرين؛ لتسلم البدل النقدى صباح اليوم الثلاثين، فإذا تأخرت عن ذلك الموعد ساعة فلن يُقبل من ابنها البدل النقدى.

وقصدت الأم مأوى السيارات التى تنقل الركاب من بلدتها إلى بلدة ولدها، فوجدت السيارات ولم تجد الركاب.

كان الوقت قبيل الغروب من أيام الصيف، وانتظرت ساعة فى مأوى السيارات دون أن يحضر مسافر واحد.

وانتظرت على أحر من الجمر، وقد غابت الشمس، والمسافة بين المدينتين حوالى أربعين ومائتى كيلو مترًا تُقطع بالسيارات فى ساعتين ونصف فإذا لم تسافر ليلًا، ضاع عليها الوقت ولن تصل إلى مدينة ولدها إلا فى صباح اليوم التالى.

وعرضت على سائق إحدى السيارات أن تستأجر - وحدها - سيارته

على أن يسافر بها فورًا.

وقبض السائق أجرة سيارته كاملة من المرأة وتحركت السيارة فى طرق جبلية وفى الطريق تحدَّث السائق إلى المرأة، فعلم منها قصة بيع الدار، وقصة دفع البدل النقدى عن ولدها.

وتدخل الشيطان بينهما، فلعب دوره فى تخريب ضمير السائق، فعزم على تنفيذ خطة لاغتصاب المال من المرأة المسكينة.

وفى إحدى منعطفات الطريق، حيث يستقر إلى جانب الطريق الأيمن وادٍ صخرى سحيق، أوقف السائق سيارته فجأة، وسحب المرأة قسرًا من السيارة إلى خارجها، ونزلا إلى مسافة عشرين مترًا فى الوادى السحيق، وهناك طعن المرأة بخنجره عدة طعنات، فلما تراخت وظن أنها فارقت الحياة، سلبها مالها، وعاد إلى سيارته تاركًا المرأة فى مكانها تنزف الدماء من جروحها.

وقصد المدينة التى كان متجهًا إليها فقد خشى أن يعود إلى المدينة التى خلَّفها وراءه؛ لئلا ينكشف أمره، إذ يعود إليها بدون مسافرين، وقبل الوقت المعقول لذهابه وإيابه ..! وعندما وصل إلى المدينة، آوى إلى مأوى السيارات، فزعم لأصحابه أن المسافرين الذين كانوا معه قد غادروا سيارته بعد عبور الجسر، ووجد ركابًا ينتظرون السفر إلى البلدة التى غادرها مساءً، فسافر بهم عائدًا من نفس الطريق.

وحين وصل إلى المكان الذى ارتكب فيها جريمته الشنعاء، أوقف سيارته، وادَّعى لركابها بأنه يريد أن يقضى حاجته ثم يعود إليهم فورًا ..! وانحدر إلى الوادى، فسمع أنينًا خافتًا، فقصد المرأة السابحة ببركة من

الدم، وقال لها: ملعونة ألا تزالين على قيد الحياة حتى الآن!

وجمدت المرأة فى مكانها، وانتظرت مزيدًا من الطعنات..!

وانحنى السائق إلى صخرة ضخمة ليحطم بها رأس المرأة الجريح، وما كاد يضع يديه تحت الصخرة إلا وصرخ صرخة عظيمة هزت الوادى الصخرى السحيق، ورددتها جنباته الخالية إلا من الوحوش والأفاعى والهوام، وسمعها ركاب السيارة، فهرعوا لنجدته.

كانت تحت تلك الصخرة الضخمة التى أراد السائق المجرم رفعها؛ ليقذف بها رأس المرأة الجريح، حية سامة لدغته حين كان يهم بحمل الصخرة العاتية، فسقط إلى جانب المرأة يستغيث ويتألم .. !

وحمل المسافرون السائق، وحملوا المرأة، وانتظروا حتى قدمت سيارة أخرى فاستوقفوها وطلبوا من سائقها حمل المرأة والسائق إلى المستشفى التى كانت فى المدينة التى يستقر فيها ولد المرأة الجريحة.

وفى الطريق فارق الحياة ذلك السائق المجرم متأثرًا بالسم الزعاف.

وفى المستشفى، قدم الشرطة والمحققون العدليون، فعرفوا القصة كاملة، وانتزعوا مال المرأة من طيات جيوب السائق اللعين، وطلبت المرأة حضور ولدها، فحضر فى الهزيع الأخير من الليل .. وراحت المرأة فى غيبوبة عميقة، فظن الأطباء والممرضون أنها تعانى سكرات الموت .. وعمل الطبيب على نقل الدم إليها.

وفى ضحى اليوم التالى فتحت عينيها لتقول لولدها: «ادفع البدل النقدى سريعًا»، ثم أغمضت عينيها وراحت فى سبات عميق، ودفع الولد بدله النقدى، وسُرِّح من الجيش .. وتحسنت صحة أمه يومًا بعد يوم، حتى

تماثلت للشفاء حيث غادرت المستشفى إلى أهلها.

وذهبت قصة نجاتها، وقصة موت السائق، وقصة الحية المنقذة، شرقًا وغربًا، وأصبح حديثها حديث الناس جميعًا .. ولقد كان الوادى الذى ارتكب السائق فيه جريمته، والذى قذف بين صخوره المرأة الجريحة، من الوديان الموحشة الخالية من الماء والكلإ، فلا يسلكه الناس ولا يطرقونه، حتى الرعاة لا يجدون فيه ما يفيد ماشيتهم فأصبح موطنًا آمنًا للذئاب والأفاعى.

وما كانت المرأة الجريحة لتسلم من الموت الأكيد، لو لم يعد إليها الجانى مدفوعًا بغريزة حب الاستطلاع.

وما كان المسافرون مع الجانى ليعرفوا موضع المرأة، لو لم يصرخ الجانى صرخة مدوية بدون شعور ولا تفكير متألمًا من لدغة الأفعى السامة.

وما كان ولدها ليدفع البدل النقدى لو قدمت أول سيارة من المدينة التى كان فيها؛ لأنها ستنقل أمه، ولضاع عليه الوقت المحدد لدفع البدل النقدى، لقد كان ذلك كله من تدبير العلى القدير ..

قال الحاكم الذى هو جار لتلك العائلة: سمعت قصة جارتنا كما سمعها الناس، فاشتركت مع الجيران الآخرين لجمع ثمن دارها؛ حتى تستعيدها من صاحبها الجديد.

وسمع صاحب الدار الجديد هو الآخر بقصتها، فأعاد إليها سند الدار وملكيتها، وبقى المبلغ الذى جمعه لها الجيران مع ثلاثمائة دينار من أصل ثمن الدار، فجددت بذلك المبلغ بناء الدار، وأقبل الناس على حانوت

ولدها، يشترون سلعته ويتسابقون على معاونته .. وفى خلال سنة واحدة تضخم عمله، وأقبلت عليه الدنيا، فانتقل إلى حانوت كبير فى شارع عام فى موقع محترم ..

ومرت السنون، وفى كل عام كان فى الدار بناء جديد ..

وتخرج الأولاد من مدارسهم واحدًا بعد الآخر، فأصبح أحدهم مهندسًا، والآخر طبيبًا، والثالث ضابطًا فى الجيش .. ولم يعد طعامهم اليومى من الشاى والخبز، أو من الخبز والخضرة بل كان لهم لحم فى كل يوم مع ألوان شهية أخرى من الطعام وفتح الله عليهم باب بركاته، وأغدق عليهم رعايته، وجعلهم مثالًا للخلق الكريم بين الناس، متعاونين فى السراء والضراء.

وعلى ضفاف دجلة قرب الجسر الكبير فى بغداد، دار عامرة بالخير، والوفاق، والسعادة، هى الدار الجديدة التى انتقلت إليها العائلة الصابرة المحتسبة عام (١٣٨٥)، وقد تضاعف عدد العائلة فأصبحت أربع عائلات، فقد تزوج الأولاد الكبار الثلاثة وأخصبوا، ولكن رباط العائلة مازال قويًّا، وأم الأولاد لا تزال سيدة البيت بدون استثارة أو إزعاج.

لقد سمعت قصة هذه العائلة من صديقى الحاكم الكبير، فأردت أن أسمعها من أحد أفرادها.

وسألت الابن الأكبر الذى كان خُضريًّا فقيرًا فأصبح تاجرًا كبيرًا، أن يحدثنى حديث أمه، فقال: ولماذا لا تسمع حديثها منها؟

وكنت ذات مساء فى دارهم العامرة على ضفاف دجلة أسرح النظر فى انعكاس نور القمر على الماء الرائق المتدفق، وأنا أصغى إلى أغانى ملاحى

السفن الشراعية والسفن التجارية وترديد ركابها، منتظرًا انقضاء صلاة الوالدة.

وجاءت الأم وقد أحاطت شعرها الأبيض بغلالة بيضاء، وفى وجهها نور، وعلى قسماته ابتسامة، وعلى لسانها ذكر الله .. وروت لى قصتها كاملة، فقلت لها: «وماذا كان شعورك حين تركك الجانى وحيدة تشخب جروحك دمًا فى بطن الوادى السحيق؟».

فقالت - والإيمان الصادق يشع من كلماتها - : «كنت أخاطب الله ﷻ بقولى: يا جبار السماوات والأرض أنت أعلم بحالى ... فهيئ لى بقدرتك القادرة أسباب دفع البدل النقدى عن ولدى؛ ليعود إلى أهله ويعيلهم .. يا رب ..».

واستجاب الله دعاءها وأعاد إليها مالها وولدها، وانتقم لها من خصمها، وبدّل حال العائلة الفقيرة إلى أحسن حال.

تلك قصة من الواقع .. ولكن حوادثها أغرب من الخيال.

إن الناس يغفلون وينامون، والله وحده لا يغفل ولا ينام.

﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزۡقُهَا﴾[1] .. والله لا ينسى رزق النملة فى الصخرة القاسية وسط عباب المحيط،فكيف ينسى أرزاق الأرامل واليتامى؟! والناس يخشون الناس، والله أحق أن يخشوه .. والله يمهل... ولكن لا يهمل ..

ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب[2].

---

(١) سورة هود: الآية: (٦).

(٢) عدالة السماء .. للواء الركن / محمود شيت خطاب، والأولى أن يقول: عدالة الله.

فعليك أيها المسلم أن تبتعد عن الظلم ودوافعه وتذكَّر قدرة الله عليك. تذكَّر من لا تخفى عليه غائبة فى السماء ولا فى الأرض.. تذكَّر أن الظلم ظلمات فى الدنيا والآخرة .. اللهم جنبنا الظلم وأهله واكفنا شر الأشرار وعمل الفجار .. اللهم آمين.

* * *

دعوة مظلوم سَرت بليلٍ

الأيام دول ... مَن سرَّهُ زمن ساءته أزمان، وأحوال الناس متقلبة، ونسأل الله أن يثبتنا على الحق حتى نلقاه، ويجب أن لا يغتر أحد بالدنيا فلقد رحل عنها الكثير، وخلَّفوها وراءهم، ومن لم يتركها تركته، ورحم الله يحيى بن معاذ الذى يقول: ثلاث يجب العمل بهن: ترك الدنيا قبل أن تتركك، والاستعداد لقبرك قبل أن تنزله، والعمل بما يرضى الله تعالى قبل الوقوف بين يديه.

وفى قصة البرامكة أعظم عبرة: وفيها ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

وكان أول أمرهم وزارة خالد بن برمك الفارسى للخليفة أبى جعفر المنصور، ثم منزلة ابنه يحيى بن خالد عند الخليفة المهدى إذ ضم إليه ابنه الرشيد ليربيه ويعلمه، فقام بمطلوب الخليفة على الوجه الذى يريده، فلما أفضت الخلافة إلى الرشيد سلَّم ليحيى مقاليد الأمور، ورفع محله، وكان يخاطبه فيقول يا أبى، ودخل يحيى فى مملكة الرشيد دخولًا عظيمًا حتى كان من أعظم الوزراء ونشأ أولاده نشأة الملوك، لا سيما جعفر ، وما أدراك ما جعفر، الذى كان له نبأ عجيب وشأن غريب بقى فى الارتقاء حتى وصل إلى رتبة شرك الخليفة فى أمواله ولذاته، وتصرفه فى الممالك ولربما بطش بالناس أو أخذ أموالهم أو تسلط على حقوقهم الخاصة والعامة ولربما ضيق على إنسان لم يجد له من يدافع عنه إلا الله، وكفى بالله نصيرًا، ولم يجد له من يأخذ حقه إلا الله وكفى بالله قديرًا، وليس للإنسان قدرة مطلقة

بل له قدرة مقيدة لا يتعداها ولن يستطع تجاوزها بل لربما عجز أمام قوة أعظم من قوته، ولا متصرف فى الوجود إلا الله، يقول للشىء كن فيكون، والبرامكة أنستهم وزارتهم وأمارتهم وقربهم من الخليفة حقوق الخلق ولكن الخالق لم ينسها،... كم من كلمة أوذى بها مسلم شكى أمره إلى ربه بقوله يا ولى نعمتى وملاذى عند كربتى ارحم ضعفى وفرِّج عسرى ويسِّر أمرى.

وحسب البرامكة أن اللذة ستدوم وأن رضوان الخليفة سيبقى فأخذتهم العزة بالإثم، وتكبروا على عباد الله، ونظروا للدنيا وما نظروا للآخرة، واسترضوا المخلوق متناسين الخالق، فأمهلهم الله ولكنه لم يهملهم، إذ انقلبت الأمور وساءت الأحوال بين الرشيد والبرامكة، فى لحظة من اللحظات فقتل الرشيد جعفر وسجن أباه وإخوته إلى الممات، وصودرت أموالهم فما بقى لهم شىء.

قال يحيى بن خالد: الدنيا دول والمال عارية، ولنا بمن قبلنا أسوة، وفينا لمن بعدنا عبرة[1].

قيل لما حُبس خالد بن برمك وولده قال: يا أبت بعد العز صرت فى القيد والحبس، فقال له: يا بُنى الذى حبسنا دعوة مظلوم ظلمناه سَرَتْ بليلٍ ونحن عنها فى غفلة، ولكن الله تعالى لم يغفل عنها.

ورحم الله يزيد بن حكيم إذ يقول: ما هِبْتُ أحدًا هيبتى رجلًا ظلمته، وأنا أعلم أنه لا ناصر له إلا الله، يقول حسبى الله، والله بينى وبينك، وإذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس فتذكر قدرة الله عليك،... يقول الشاعر:

---

(١) سير أعلام النبلاء جزء ٩.

لا تظلمــن إذا مــا كنــت مقتــدرًا فــالظلم ترجــع عقبــاه إلــى النــدمِ
تنــام عينــاك والمظلــوم منتبــهٌ يــدعو عليــك وعيــن الله لــم تــنمِ

والله تعالى يسلط من يشاء على الظالم ليقتص منه للمظلوم، فينقفل باب الظلم ويفتح باب العدل.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: بعد ذكر قتل جعفر الذى أرسل له الرشيد من يأتى برأسه من غير مراجعة ... فلما أُحضر بين يديه بعث برأسه وجثته فنصب الرأس عند الجسر الأعلى وشُقَّت الجثة إلى نصفين فنصب نصفها عند الجسر الأسفل والنصف الآخر عند الجسر الآخر، وسجن يحيى بن خالد فى منزله لا يغادره، وفُرضت عليه الإقامة الجبرية.

وهذا من أشد النكاية أن يعيش فى ذلٍّ بعد عز، وأن يتقلب فى شظف عيش بعد سعة، وأن يتجول فى منزل كان مليئًا بالأموال فلا يرى فيه إلا الفقر والفاقة .

وحبس الرشيد الفضل بن يحيى فى منزل آخر وصادر جميع ما يملكون من الدنيا، ونودى فى الناس بأمر الخليفة فى جميع إمارات الخلافة بمرسوم أميرى من أمير المؤمنين أنه لا أمان للبرامكة ولا لمن آواهم.

فكان الناس ينبذونهم بعد التسابق على أبوابهم: ويعتزلونهم بعد الاستئناس بهم، فهل من مُدَّكر بما حصل؟ وهل يعرف الناس قدر الدنيا فيتقوا الله تعالى فى أنفسهم وفى أهليهم وفى جيرانهم وفى مجتمعهم ويتورع القوى من ظلم الضعيف؟

تَــوَقَّ دُعَــا المظلُــومِ؛ إنَّ دُعــاءَهُ لَيُرفَــعُ فَــوقَ الــسُّحبِ، ثُــمَّ يجــابُ
تَــوَقَّ دُعَــا مَــنْ ليــس بيــن دُعائــهِ وبيــنَ إلــهِ العَــالَمينَ حجَــابُ

ولا تحـــسبن الله مطرحًـــا لـــه ... ولا أنـــه يخفـــى عليـــه خطـــابُ

فقـــد صَـــحَّ أنَّ الله قـــالَ: وعزَّتـــى ... لأنْـــصُرنَّ المظلُـــوم وهـــو مُثَـــابُ

فمـن لـم يُـصدِّق ذا الحـديث، فإنَّـه ... جَهُـــولٌ وإلَّا عَقلُـــهُ فمُـــصابُ[1]

* * *

(١) البداية والنهاية جزء ١٠، تاريخ الطبرى جزء ٤، سير أعلام النبلاء جز ٩، الكبائر للذهبى، نقلًا عن (اتق دعوة المظلوم) (ص ٨٠ - ٨٢).

اللهم سلِّط على الكاذب ما يشغله

الصدق يهدى إلى البر، والبر يهدى إلى الجنة، والكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صِدِّيقًا، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور، وإن الفجور يهدى إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا**»(١).

وقد ينال الكاذب عقوبته فى الدنيا وقد يُمهَل إلى يوم القيامة، والله حكيم عليم، فقد روى أبو إسحاق الآدمى قال: سمعت مسلم بن إبراهيم أن رجلًا أتى حبيب الفارسى أبا محمد فقال له: يا حبيب اسمع مقالتى: قال: أسمع. قال: إن لى عليك مبلغًا من المال قدره ثلاثمائة درهم لا بد من الوفاء بها وإلا رفعت أمرك للقاضى لأفضحك بين الناس، قال له حبيب: يا أخى من أين صارت هذه الدراهم لك علىَّ وما تعاملت معك بمعاملة ولا طلبت منك قرضًا، إنما تريد أخذها ظلمًا وعدوانًا، قال: نعم، لى عليك ثلاثمائة درهم، أنذرك إلى يوم غد فإن جئت بها وإلا رفعت أمرك قال حبيب: اذهب عنى إلى يوم غد أراجع نفسى، وأتفقد أوراقى فلعلنى نسيت، فرجع إلى منزله وبحث فى مثبتاته فلم يجد شيئًا، فلما كان من الليل توضأ وصلى فى الثلث الأخير من الليل الذى يغفل عنه كثير من المسلمين، بل ولا يجدون لذته لانشغالهم بالنوم بعد السهر على المحرمات والمعاصى، ورحم الله

(١) متفق عليه: رواه البخاري (٦٠٩٤) كتاب الأدب، ومسلم (٢٦٠٧) كتاب البر والصلة.

طاوس بن كيسان اليمانى الذى يقول: ما كنت أظن أن أحدًا من أمة محمد ﷺ ينام وقت السَّحَر، ورضى الله عن لقمان الحكيم الذى يقول لولده: يا ولدى لا تنم وقت السَّحَر فإن الديك لا ينام وقت السحر، فلا يكون الديك أزكى منك.

قام حبيب الفارسى آخر الليل ورفع يديه بعد صلاته وقال: اللهم إن كان صادقًا فأدِّ إليه، وإن كان كاذبًا فابتله فى يده ليعلم الناس صدقى ويعرفون كذبه، ولتكون درسًا لغيره من الظلمة الذين يبهتون الناس ويظلمونهم بأخذ حقوقهم، فلما أصبح الصباح جىء بالرجل وقد حُمل على الأعناق إذ أصيب بمرض الفالج الذى عطل نصف جسمه فنصف حى ونصف ميت، فقال لحبيب: أما عرفتنى أنا الذى جئتك بالأمس وظلمتك بادعائى أن لى عندك ثلاثمائة درهم، ووالله ما كان لى عندك شيئًا وإنما أردت إحراجك لتستحى من الناس فتعطينى فقال له: هل تعود مرة ثانية وتبتلى مسلمًا بمثل هذه البلوى؟ قال: لا. فرفع يديه إلى السماء ثم دعا وقال: اللهم إن كان صادقًا فألبسه العافية، فقام الرجل على الأرض يمشى وكأنه لم يكن به شىء [١].

وقد يعتبر بعض الناس مثل هذا الأمر خيالًا، ولكنه حقيقة مع من جعلوا الأعمال حقائق ثابتة يُصلحون بها قلوبهم وأنفسهم وجوارحهم وتعاملهم ويتصلون بربهم وما ذلك على الله بعزيز [٢].

❊ ❊ ❊

---

(١) مجابو الدعوة، صفة الصفوة جزء ٣.

(٢) اتق دعوة المظلوم (ص ١١٣ - ١١٤).

شهدت الحمامتان [1]

خرج التاجر الصالح من الموصل ليبيع بعضًا من الأغنام والأبقار والإبل فى حلب واستقر فى أحد الفنادق حتى الصباح، ثم خرج إلى سوق المواشى وعرض ما معه على تجار الجملة، ويسَّر الله عليه بيعها وقبض ثمنها نقدًا، وفى طريق عودته ... خرج عليه لص خطير وقاطع طريق، فسَلَّ خنجره وأخذ ما معه من مال، واستغاث التاجر ولا مغيث فقد أراد اللص أن يذبحه بخنجره ... فتوسل التاجر إليه أن لا يقتله وليأخذ جميع ما يملك... ولكن خنجر القاتل كان يعمل عمله فى جسد التاجر حتى سقط جثة هامدة ... وكان التاجر فى استغاثته وتوسله ينظر يمينًا وشمالًا لعله يجد من يغيثه، ويستجيب لتوسله... ولكنه لم يجد أحدًا من الناس ووجد فوق الشجرة التى ذُبح تحتها حمامتين ... فقال وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة «أيتها الحمامتان : اشهدا...» وقهقه قاطع الطريق وهو ينهض عن فريسته بعد أن فارقت الحياة قائلًا: «أيتها الحمامتان؛ اشهدا».

ومضى إلى سبيله وهو يضحك كأنه سمع نكتة تستحق القهقهة والضحك.

وانتظر أولاد التاجر وأهله في الموصل عودة أبيهم من رحلته التجارية.. وطال انتظارهم دون جدوى .. وسافر ولده الأكبر إلى مدينة حلب ليسأل عن أبيه فقيل له: إن والده نزل في فندق كذا وباع أغنامه في اليوم الفلاني، ووُجد مقتولًا في اليوم الذي باع فيه ما معه، ودُفن في مقابر الغرباء وقاتله

(١) تدابير القدر، لمحمود شيت خطاب «بتصرف واختصار».

وسالب أمواله مجهول، ودَقَّ باب الوالي، وباب القاضي، وأبواب من يعرف من الناس ومن لا يعرف، فكان جواب الجميع: القاتل السارق مجهول الهوية، وبذل جهودًا كبيرة ليعرف شيئًا عن سر مقتل أبيه، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، وعاد الفتى إلى الموصل فطرق باب الوالي والقاضي يسألهما العون، فكتبا إلى والي حلب وقاضيها فكان الجواب: القاتل السالب: مجهول الهوية.

وانتهت قضية التاجر القتيل إلى بابٍ مسدود، فتقبَّل أولاده التعازي وأوكلوا قضيته إلى الله ... وتعاقبت السنون وتبدل الولاة والقضاة مرات ونسى الناس قصة الاغتيال والسلب ونسوا القتيل السليب، ولكن رجلًا واحدًا لم ينس تلك القضية: هو القاتل السالب ... ظل يذكرها وبخاصة حين يرى الحمام مرفرفًا أو على الشجر فيتخيل شبح القتيل أمامه وهو ينادي «أيتها الحمامتان: اشهدا».

وفى يوم من الأيام لبَّى دعوة من دعوات العشاء على مائدة أحد أقربائه... وكانت الوليمة تضم أشتاتًا وألوانًا من الناس ... ونظر إلى أطباق الطعام فوجد أمامه مباشرة طبقًا فيه حمامتان ... وحملق الرجل فيهما طويلًا وتذكَّر قصة القتيل الذى استنجد بالحمامتين لتشهدا له .... فأطرق رأسه يستعيد تفاصيل جريمته ثم قهقه قهقهة لا إرادية يستعيد بها قهقهته وهو يُجْهِز على القتيل... كأنه نسى الوليمة والمدعوين، ولفت بوجومه الطويل ثم قهقهته الطويلة المدعوين من حوله، فليس هناك ما يدعو للضحك ولاحقته الأنظار المستغربة وبشكل لا إرادى تنهَّد طويلًا ثم انطلق يحدث من حوله قصة المنكوب القتيل كأن قوة خفية قاهرة تحرك

لسانه بشكل لا إرادى، فلم يترك شاردة ولا واردة إلا وأفشاها للحاضرين، ولم يكد يتم حديثه إلا وشعر بأن عبئًا ثقيلًا قد تخلى عنه، ولكن حديثه أذهل الحاضرين ... وثاب إلى رشده وندم على إفشاء سره ولكن بعد فوات الأوان ... وأصبحت القصة بعد ساعات من إذاعتها حديث المجالس فى كل مكان من مدينة حلب ... وسمعها والى حلب ... فأمر بتوقيف المتهم على ذمة التحقيق، وأمر قائد الشرطة أن يبدأ التحقيق الرسمى فاستقدم الذين سمعوا القصة من المتهم مباشرة وهم على مائدة العشاء فسجل أقوال الشهداء، واستدعى قائد الشرطة المتهم وأطلعه على أقوال الشهود فانهار المتهم واعترف بجريمته النكراء، وأُحيلت أوراق القاتل إلى قاضى المدينة فحكم عليه بالإعدام شنقًا حتى الموت.

وقال والى المدينة: لقد شهدتا ... وقال قاضى المدينة: لقد شهدتا.... وقال قائد الشرطة: لقد شهدتا .... وقال الناس: لقد شهدتا...

وفى ليلة تنفيذ الإعدام بالقاتل سألته زوجته: كيف أبحت بسرك المكنون بعد أن كتمته سنين طويلة، فكان جوابه: «إن إرادة قاهرة شلَّت إرادتى وأجبرتنى على الكلام»، وفى فجر اليوم التالى اقتيد القاتل السالب إلى ساحة الإعدام، وهمهم حين وضع الحبل حول عنقه «لم أتكلم بلسانى، بل بلسان الحمامتين اللتين كانتا فى الطبق المستقر أمامى فى دعوة العشاء»، واجتمعت حشود الناس حول جثة المصلوب وهى تهزج فرحة بإنقاد المجتمع من مجرم شرير ... وفجأة انقلب هزيج الحشود الضخمة إلى تهليل وتكبير، فقد استقرت حمامتان فوق رأس المصلوب لا تتحركان... وهدرت الحشود بصوتٍ واحد... لقد شهدتا ....

عجزت عدالة الأرض عن اكتشاف سر القتيل فبقى القاتل طليقًا سنين طويلة ولكن عدالة الله كانت للقاتل بالمرصاد فكشفت سره وساقته إلى القضاء، وأمهله الله ساعة ولكن لم يمهله إلى قيام الساعة .... وشهدت الحمامتان فساقته شهادتهما إلى مصيره المحتوم.

❊ ❊ ❊

اللهم أرني فيه عجائب قدرتك

كم يغلب الهوى على العقل وتطغى الشهوة على العلم، ويبقى الإنسان أسير هواه من أجل لذة عابرة يذوق مرارتها ويصطلى بنارها، إذا انقاد أمام شهوات نفسه، وعنفوان شيطانه، ويتحسر أعظم الحسرة إذا وقع فى الهلاك، وهذا من سمات المفلسين عن المراقبة فيحسب القوى أن قوته باقية، ويظن الغنى أن غناه دائم، ونسى أو تناسى أن الله بالمرصاد [1].

وقد أورد الإمام الذهبى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى كتابه الكبائر عند ذكر كبيرة الظلم خبرًا مُفاده أن أحد العارفين يقول: رأيت رجلًا مقطوع اليد من الكتف وهو ينادى فى الأسواق والاجتماعات: من رآنى فلا يظلم أحدًا،... يقول هذا العارف فقدمت إليه وسألته عن قصته التى يعظ بها الناس، ويحذرهم من الظلم، فقال: يا أخى قصتى عجيبة، وعبرة عظيمة من لم يعتبر بها فما أظنه يعتبر، ومن لم يتذكر بها فما أظنه يتذكر، فقال: اشرحها لى وقُصها علىَّ:

فقال: إنى كنت من أعوان الظلمة، فتأثرت بهم وقسى قلبى كقسوة قلوبهم، وساء طبعى كسوء طباعهم، وكنت أتعامل مع الناس كتعامل الوحوش مع المخلوقات الآمنة المطمئنة، وقد خرجت يومًا من منزلى كعادتى فرأيت فى طريقى صيادًا معه سمكة فأعجبتنى أعظم إعجاب وتمنيتها لى ولولدى فذهبت للصياد وطلبت منه السمكة فقال: أنا فى حاجة إليها وأولادى ينتظروننى ليأكلوها، فحاولت أن يعطينى فأبى فضربته ضربًا شديدًا مستغلًّا قوتى وضعفه وسلطتى وخوفه، ثم أخذتها منه بالقوة.

---

(١) اتق دعوة المظلوم (ص ١١٥).

فنظر إلىَّ ودموعه على وجنتيه: وأرى شفاهه تتحرك ولا أدرى ماذا يقول وأنسانى الشيطان مراقبة الله تعالى، وأنسانى قوة الله، وأنسانى كل خير، وذكَّرنى بكل شر فمضيت بها إلى أولادى ومعهم غيرها، وليس مع أولاد ذلك المظلوم سواها، وبينما أنا أمشى فى الطريق إذ تحركت السمكة فى يدى، وعضَّت إبهامى وآلمتنى ألمًا شديدًا فألقيتها على الأرض فعاد إليها الموت، والله قادر على كل شىء، وقد أحيا الحوت الذى كان مع موسى لما ذهب للخضر واتخذ سبيله فى البحر سَرَبا، وهو الذى يحيى الموتى وهو على كل شىء قدير.

قال: وكنت متساهلًا بالأمر فقلت عضة سمكة لا تؤثر، فأحسست فى يدى مثل دبيب النمل ينتشر فى عروقى حتى عَمَّ بدنى وأجد ألمًا شديدًا فى إبهامى لم أنم منه تلك الليلة، إذ كنت أتقلب بالأنين والصياح على فراشى وأسهر طوال الليل، وكانت اللحظة من تلك الليلة كالساعة والساعة كاليوم والأسبوع، وكنت أتمنى أذان الفجر حتى أجد علاجًا لهذا الألم، فلما جاء الصباح أتيت الطبيب وشكوت إليه الألم وقلت لم أذق لذة النوم هذه الليلة، أريد علاجًا أيها الطبيب، فكشف على يدى وعمل لها التحاليل اللازمة، ثم قال لى: وما سبب هذا، فأخبرته أنها عضة سمكة قال: لا يُعقَل هذا، ومتى؟ قلت له بالأمس، قال: أمر عجيب إن الذى فى يدك هو مرض الآكلة (كالسرطان) يجرى فى البدن حتى يقضى على صاحبه، ولا أرى علاجًا لها إلا أن نقطع الإبهام حتى يستريح الجسد وحتى يسكن الألم، وإنى ألاحظ سرعة سريانها فى الجسد فعليك أن تتدارك وضعك قبل استفحال الأمر، فقلت له: يا طبيب هذا شىء لا يُعقل، عضة سمكة تقطع

إبهامى، أريد أن تتأكد وتتيقن لأن قطع الإبهام لا يتعوض بإبهام أخرى، وأود أن أنفق الدنيا كلها مقابل بقاء هذا الإبهام، لأن قوة الأصابع فى وجود الإبهام، ولن تؤدى الأصابع عملها إلا إذا وجد الإبهام،... وكم هى نعمة أغفلها الكثير، وكم هى منة أهدرها اللئام، وأتمنى أن يتفكر أصحاب الأصابع فى أصابعهم، ويطلعوا على أهمية الإبهام فى اليد، ودوره فى أداء الأعمال، حتى يعرفوا فضل الله عليهم ويؤدوا حقه الواجب عليهم، ويقدروه حق قدره، ويعظموه حق تعظيمه، فإن نعم الله لا تُعد ولا تُحصى، وما هذه النعمة إلا نزر يسير من بحر غزير من النعم.

قال الطبيب لهذا الظالم: لا بد من قطعها إن أردت السلامة، قال: إذن فاقطعها، فإنى والله ما ذقت النوم البارحة وإن لذة النوم من تمام النعيم. فأحضر الطبيب مَباضعه ليبضع اللحم ومناشيره لينشر العظم ومخدراته ليخدر البدن ثم قطع الإبهام وتصور الرجل أن الألم قد انتهى، وما علم أن السمكة جمرة فى قلب المظلوم لم تنطفئ إذ بات أولاده جياعًا يصيحون من ألم الجوع، فجعل الله الظالم يبيت يصيح من ألم المرض والجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحدًا.

وانتشر المرض فى كف الرجل: وزاد الألم بعد قطع الإبهام، ورجع للطبيب فأخبره أنه لا بد من قطع الكف، فوافق على ذلك فقُطعت الكف ولكن المرض لم يتوقف بل زحف إلى الساعد ليتلفها، فقُطعت من المرفق، ثم زاد الألم فى العضد أشد من الأول فأمر بقطعها من الكتف حتى استُئصلت من أصلها وما بقى لها أى أثر،... يقول هذا الرجل: فقال لى بعض الناس ما سبب ألمك، فذكرت له قصة السمكة وأخذها من صاحبها

بالقوة ظلمًا، فقال لى: لو كنت رجعت فى أول ما أصابك الألم إلى صاحب السمكة واستحللت منه وأرضيته لما قطعت من أعضائك عضوًا فإن الذى أفنى أعضاءك هو بإذن الله دعاء ذاك المظلوم، ولكن اذهب له الآن واطلب رضاه قبل أن يصل الألم إلى بدنك، قال: فلم أزل أطلبه فى البلد وأبحث عنه فى كل مكان حتى وجدته، فقبَّلت رجليه وأنا أبكى من مرارة الألم، إذ قابلته الآن بيدٍ واحدة، وأخذت منه السمكة بيدين اثنتين وقلت له: أسألك بالله العظيم أن تعفو عنى، فقال لى: ومن أنت؟ قلت: أنا الذى أخذت منك السمكة غصبًا وذكرت ما جرى وأريته يدى المقطوعة فبكى حين رآها ثم قال: قد أحللتك وعفوت عنك، قال: فانكفَّ الألم وزال البلاء بإذن الله تعالى.

فقلت له: هل دعوت علىَّ لما أخذت منك السمكة؟ قال: نعم، قلت: اللهم أرنى فيه عجائب قدرتك، قال: فقد أجاب الله دعوتك ها أنت ترى عجائب قدرة الله فىَّ إذ لا أملك إلا يدًا واحدة، وأما اليد التى أخذت مالك بغير حق فقد فرَّق الله بينى وبينها، ولله علىَّ ألا أظلم مسلمًا بعد اليوم وألا أُعين ظالمًا وأن أكون مع المظلوم فسبحان من لا تخفى عليه خافية[1].

❊ ❊ ❊

(١) الكبائر للذهبى، كبيرة الظلم. بتصرف.

إنما بغيكم على أنفسكم

كان تاجرًا متوسط الثراء، وكان يعمل بشراء الأبقار من العراق، أو من إيران، ثم ينتقل بها هو ورجاله مرحلة مرحلة حتى يصل إلى سوريا ولبنان، وقد يصل إلى مصر؛ ليبيع ما لديه من الأبقار، ثم يشترى بثمنها أقمشة ومصنوعات أخرى. ويعود بها إلى العراق.

وكان الرجل مسلمًا حقًّا، قوامًّا صوّامًا، منفقًا على الفقراء، قائمًا بواجباته نحو ربه ونحو الناس، ورعًا تقيًّا نقيًّا، ماله ليس له وحده، بل للمحتاجين من أقربائه وأهل بلدته ولكل طالب محتاج.

وفى إحدى سفراته بتجارته، وكان ذلك قبل الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)، هطل ثلج كثير، فسد الطرق، وقتل الأعشاب فماتت أبقاره عدا أربعة منها، فصرف رجاله، وأخذ يتنقل بها من مكان إلى آخر، وكان فى نيته أن يصل إلى حلب الشهباء؛ ليؤدى ما عليه من ديون هناك حسب طاقته، ويطلب تأجيل ما بقى عليه منها إلى العام القادم؛ لأن تجارته فى هذا العام لم تربح، وإن مع العسر يسرًا.

وفى مساء ذات يوم وصل إلى قرية صغيرة فى طريقه من الموصل الحدباء إلى حلب الشهباء، فطرق باب أحد بيوتها، فلما خرج إليه رب الدار، أخبره بأنه ضيف الله، وأنه يريد أن يبيت ليلته فى داره، فإذا جاء الصباح سافر إلى قرية أخرى.

ولم تكن حينذاك فنادق يأوى إليها المسافرون، ولم تكن يومئذٍ مطاعم يتناول الغرباء فيها طعامهم .. لقد كان الغريب، أو المسافر يطرق أى دار من دور المكان الذى يصل إليه، ثم يحل ضيفًا بين ظهرانى أهله، ينام كما

ينامون، ويتناول من طعامهم دون أجر أو مقابل..

ورحب صاحب الدار بضيفه، وأدخل أبقاره إلى صحن داره، وقدم الطعام للضيف والعلف للأبقار.

كان صاحب البيت معدمًا، وكان قد أصابه ما أصاب الناس من هطول الثلج بكثرة ولمدة طويلة، فماتت مواشيه وتضرر زرعه.

وكان متزوجًا وله ولد واحد فى العقد الثانى من عمره.

وكان فى داره غرفتان: غرفة يأوى إليها هو وزوجه، وغرفة يأوى إليها ولده.

واجتمعت العائلة حول الضيف الجديد، وابتدأ السمر شهيًّا طليًّا، عرف المضيف من خلاله أن ضيفه يحمل مبلغًا من المال ..

وفى الهزيع الثانى من الليل، آوى المضيف مع زوجه إلى غرفتهما، وأوى الضيف إلى غرفة ولد المضيف، فنام الولد على فراشه فى الزاوية اليمنى من الغرفة، وأوى الضيف إلى فراشه فى الزاوية اليسرى من الغرفة.

وبعد أن سأل المضيف ضيفه عما إذا كان يحتاج إلى شيء ما، واطمأن إلى راحته، وتأكد حتى من وجود الماء لديه، غادر إلى غرفته لينام هو أيضًا.

وفى غرفته همست له زوجته: يا فلان! إلى متى نبقى فى عوز شديد؟ هذا الضيف غنى، ونحن بأشد الحاجة إلى ماله وأبقاره.

إننا مُقبلون على مجاعة، لا يستطيع الأغنياء أن يتغلبوا عليها إلا بمشقة بالغة، وسنموت نحن بدون ريب، إننا الآن نأكل يومًا ونجوع أيامًا، فكيف بنا إذا حلت بالقرية المجاعة المرتقبة ولا مال عندنا ولا طعام؟

إن الفرصة سانحة اليوم، ولن تعود مرة أخرى فى يوم من الأيام! هلُمَّ

إلى الضيف فاسلبه ماله، وخذ أبقاره، حتى تُبقى على حياتنا وحياة ولدنا الوحيد».

وقال لها الرجل: كيف وهو ضيفنا؟ كيف أسلبه ماله وأبقاره؟ كيف يسمح لنا بسلبه؟!

قالت زوجته: اقتله، ثم نرميه فى حفرة قريبة فى بطن هذا الوادى ومن يعرف بخبره؟ من؟!!

وتردد الرجل، وألحت المرأة، وكان الشيطان ثالثهما، فزين للرجل قول امرأته، وألحَّ هو أيضًا فى الإقدام على قتل الضيف .. ولكى تقطع المرأة على زوجها داء تردده، ولكى يقطع عليه الشيطان، قالت المرأة لزوجها: إن ما تفعله ضرورة لإنقاذنا من الموت الأكيد، والضرورات تبيح المحرمات!»..

واقتنع الرجل أخيرًا، وعزم على قتل الضيف وسلب ما لديه من مال ومتاع.

كان الوقت فى الثلث الأخير من الليل، وكان كل شىء هادئًا ساكنًا، وكانت الأنوار مطفأة، ولم تكن أنوار المنازل فى حينه غير سراج يوقد بالزيت.

وقصد الرجل خنجره، وشحذه، ثم يمم شطر غرفة الضيف وابنه ومن ورائه زوجه تشجعه ..

ومشى رويدًا رويدًا، على رؤوس أصابع رجليه، واتجه شطر الزاوية اليسرى من الغرفة حيث يرقد الضيف، وتحسس جسمه حتى تلمس رقبته، ثم ذبحه، كما يذبح الشاة.

وجاءت إلى الرجل زوجه، وتعاونا على سحب الجثة الهامدة إلى

خارج الغرفة، حيث اكتشفا هناك أنهما ذبحا ابنهما الوحيد.

وشهق الرجل شهقة عظيمة، وشهقت المرأة، فسقطا مغشيًّا عليهما، وعلى صوت الجلبة استيقظ الضيف، واستيقظ الجيران، ليجدا ابن الرجل قتيلًا، وليجدوا أمه وأباه مغشيًّا عليهما راقدين إلى جانب الجثة الهامدة على الأرض.

وسارع الضيف وسارع الجيران إلى الرجل وامرأته بالماء البارد يرشونه على وجهيهما، فلما أفاقا أخذا يبكيان بكاءً مرًّا، وطلبا إلى الجيران إبلاغ الحادث إلى الشرطة، فجاءت على عجل وألقت القبض على الجانيين.

* ما الذى حدث فى غرفة نوم الضيف وابن المضيف؟

لقد قام الابن إلى فراش الضيف بعد أن غادر أباه الغرفة، وأخذ الرجلان يتجاذبان أطراف الحديث، وكان الحديث ذا شجون، فطال أمده، حتى نام الولد على فراش الضيف بعد أن غلبه النعاس.

ولم يشأ الضيف أن يوقظ ابن مضيفه، فترك فراشه له بعد أن أحكم عليه الغطاء، ثم أوى إلى فراش ابن المضيف.

وحين قدم المضيف إلى غرفة الضيف وابنه، كان متأكدًا من موضع فراش كل واحد منهما، فذبح ابنه وهو يريد الضيف، فكان كالخارجى الذى أراد اغتيال عمرو بن العاص فى عماية الفجر، فاغتال بدله خارجة بن حذافة، فلما علم بالخبر، هتف من صميم قلبه: «أردتُ عَمرًا وأراد الله خارجة».

ودفن الجيران الولد القتيل، واستقر والداه فى السجن.

لا يَطعم ولا يشرب حتى ينصر المظلوم

أوصى الله تعالى كل حاكم تولى إمرة المسلمين بأن يعدل فى حكمه وأن ينصف رعيته ... قال تعالى: ﴿ يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴾ قال العماد بن كثير فى تفسيره: «هذه وصية من الله ﷻ لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق المُنَزَّل من عنده تبارك وتعالى، ولا يعدلوا عنه فيضلوا عن سبيل الله، وقد توعد تبارك وتعالى مَنْ ضَلَّ عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والعذاب الشديد»[(١)].

والعدل أمان لأهل الأرض من الفتن والمنازعات، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾[(٢)]، وقد تعاقب على إمرة المسلمين حكام عدل كُثُر منهم الملك العادل محمود بن سبكتكين أبو القاسم المُلَقَّب بيمين الدولة، وأمين الملة، وصاحب بلاد غزنه، قام فى نصر الإسلام قيامًا تامًّا وفتح فتوحات كثيرة فى بلاد الهند وغيرها، وعظم شأنه واتسعت مملكته وامتدت رعاياه وطالت أيامه على العدل والإنصاف وهو الذى هدم صنم سومنات فى بلاد الهند، وغنم المغانم الكثيرة، ومع هذا فكان فى غاية الديانة والصيانة وكراهة المعاصى وأهلها لا يحب منها شيئًا ولا يألفه ولا يجرأ أحد أن يُظهر معصية ولا خمرًا فى مملكته، ولا يحب الملاهى ولا أهلها وكان يحب العلماء والمحدثين ويكرمهم ويجالسهم، ويحب أهل الخير والدين والصلاح.

---

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) سورة الأنعام: الآية (٨٢).

وكان عادلًا جيدًا اشتكى إليه رجل أن ابن أخته يهجم عليه فى داره وعلى أهله فى كل وقت، فيُخرج صاحب المنزل ويخلو بأهله وقد حار فى أمره وشكاه إلى كل أمير ووزير وصاحب شأن فى الدولة، فما أنصفوه، فلما سمع محمود بذلك غضب غضبًا شديدًا وقال للرجل: ويحك متى جاءك فائتنى فأعلمنى ولا تسمعنَّ من أحد منعك الوصول إلىَّ ولو جاءك فى الليل وأحضر حرسه وحُجَّابه وجنوده وقال لهم لا تمنعوا هذا الرجل إذا جاءنى فى ليل أو نهار واتركوه يدخل علىَّ قالوا: سمعًا وطاعة، فذهب الرجل مسرورًا داعيًا للملك بحسن تجاوبه وشدة غيرته، ومضى اليوم الأول وما جاءه الفاجر ومضى اليوم الثانى ولما جاء الليل وإذا بالفاجر قد دخل بعد العشاء فخرج الرجل إلى الملك ليخبره فلما وصل لمنزله ردَّه الحُراس قال: ألم يقل لكم لا تمنعونى قالوا: نعم، فأذنوا له فدخل وهو نائم فأيقظه فقام معه وحده ومضى معه إلى منزله، فلما دخل المنزل نظر للغلام مع المرأة فى فراشٍ واحد وعندهما شمعة تتقد فتقدم الملك فأطفأ السراج ثم احتز رأس الغلام وقال للرجل ويحك ألحقنى بشربة ماء، فأتاه بالماء فشرب ثم انطلق الملك ليذهب فقال له الرجل: بالله لِمَ أطفأت الشمعة قال: ويحك إنه ابن أختى وإنى كرهت أن أشاهده حالة الذبح فأرحمه فأردت ألا تأخذنى فى الحق لومة لائم، فقال: ولِمَ طلبت الماء سريعًا قال: إنى آليت على نفسى منذ أخبرتنى أنه يؤذيك أن لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أنصرك وأقوم بحقك فكنت عطشانًا هذه الأيام كلها، حتى كان ما كان مما رأيت. فدعا له الرجل وانصرف الملك راجعًا إلى منزله ولم يشعر بذلك أحد[١].

---

(١) البداية والنهاية جزء ١٢.

فرحمه الله وجزاه الله خيرًا على قطع دابر الأذى وإعطائه الحق ولو من نفسه وتعاليه على العواطف التى تَحُول دون الحق، ولله دره من ملك عادل. يُرجَى أن يُظَل بظل عرش الله يوم القيامة يوم لا ظل إلا ظله فهو من السبعة الذين يستحقون ذلك.

وكأنه تتلمذ على يد عمر الفاروق ﷺ الذى لا ينام حتى يتجول فى المدينة المنورة، ويطمئن على شئون رعيته، وذات ليلة من الليالىَ يطوف بالطرق ويتلمس الأحوال وإذا بتلك المرأة توقد نارًا وفوق النار قدرًا والأطفال حول المرأة يبكون، وآلم أمير المؤمنين بكاء الأطفال فأمر أمهم بأن تُسكتهم وألا تُزعج الناس بصياحهم فسكتت ثم أعاد عليها فسكتت ثم أعاد عيها فقال: سمعتك من أول مرة، ولكنى مشغولة بهؤلاء قال: وما الذى يبكيهم؟ قالت: الجوع، قال: وما الذى فى القِدر؟ قالت: ماء يغلى يتسلون به، والله بيننا وبين عمر فبكى بكاءً شديدًا ثم رجع إلى بيت المال وأخذ دقيقًا وزيتًا ثم مضى به إليها وكان هو الذى يذر الدقيق ويشب النار ودخان النار يتخلل لحيته حتى إذا نضج الطعام طلب وعاءً ثم صبَّه فيه ثم أخذ السراج يضيءَ لهم حتى إذا شبعوا خرج من عندهم واختفى وراء شجرة حتى ناموا.

ثمَّ قال للذى معه أتدرى لماذا انتظرت حتى ناموا؟ لأننى لا أجد نومًا حتى أعلم أنهم ناموا، انظر يا فلان كيف أسهرهم الجوع وناموا بعد الشبع، فرحمه الله ورضى عنه، ونسأل الله أن يولِّى على المسلمين خيارهم، وأن يجعل الولاية فيمن يخافه ويتقيه ويتبع رضاه.

ونسأله تعالى أن يصلح ولاة أمر المسلمين، وأن يوفقهم للعمل بكتابه

والأخذ بسنة نبيه ﷺ، وأن يرزقهم البطانة الصالحة الذين يعينونهم على الحق وبه يعدلون[١].

* * *

(١) اتق دعوة المظلوم (ص ٩٩ - ١٠١).

الله ينتقم منك

آذنت الشمس بمغيب، وتجمعت الأُسر حول المائدة لتناول وجبة الإفطار فى يوم من أيام رمضان، ينتظرون الأذان، وفى زاوية من زوايا القرية الجاثمة قرب الترعة بيت يَدُلُّك مظهره على ما يعانيه أهله من بؤس وضيق، ولو اطلعت على الطعام الجاف القاسى الذى استقر أمام تلك الأسرة لرثيت لحالهم، ومع ذلك فقد كان الكل يقول الحمد لله، الحمد لله، فهو الذى يعطى من يشاء ويمنع من يشاء لحكمة يعلمها، وقد كان رب الأسرة البائسة شارد الفكر يستعيد فى قلبه الحديث الذى دار بينه وبين ذلك الطاغية الجبار، لقد تهدده وتوعده إن لم يعد له المبلغ الذى اقترضه منه اليوم قبل الغد ليُعذبنَّه عذابًا شديدًا، ومن أين لهذا المسكين أن يعيد هذا المبلغ وهو لا يستطيع أن يجد لأولاده لقمة العيش.

ولكن كيف يواجه ذلك الطاغية الذى أُعطى بسطة فى الجسم وقلة فى العلم، رافقها قسوة فى القلب، وفظاظة فى القول، وأفاق على خيالاته وتأملاته وإذا بصوت مزعج خارج المنزل يُرغى ويُزبد،... اقترب الصوت وفتح الباب بعنف من دون استئذان، ثم دخل فنظر المسكين وإذا به الشقى الجبار يقف كالمارد أمام الأب المسكين الذى تحيط به أسرته البائسة، ومن غير كلام ولا مقدمات تناول الطاغية ذلك المسكين وأخذ يضربه بيده ويركله برجله ويسبُّه ويشتمه.

وارتفعت أصوات أسرة المسكين تبكى وتنوح وتقول: حسبنا الله ونعم الوكيل وبعد ألم شديد ألحقه الجبار العنيد بالمسكين خرج متكبرًا متبخترًا تاركًا أب الأسرة الفقيرة كالميت على فراشه، وانطلق صوت المؤذن

لصلاة المغرب وهو يقول: الله أكبر، وبعد الأذان اجتمع المسكين وأولاده وقت إجابة للدعاء، أحدهما بعد الأذان، والثانى عند الإفطار، فنظر المضروب إلى الضارب فى هذين الوقتين ورفع يديه إلى السماء ثم قال: الله ينتقم منك، الله ينتقم منك، ومرت عشرة أيام فقط وإذا بذلك الظالم يشكو من ألم فى ساقه، فنُقل إلى المستشفى وعُملت له الإجراءات الطبية من الكشف والتحليل والأشعة، وحار الأطباء فى مرضه، فنُقل إلى مستشفى أكبر وأكثر عناية وقرر الأطباء أن الألم نتيجة مرض السرطان الذى أخذ ينتشر فى قدمه، ولا علاج إلا ببترها، وقال أيها الأطباء مهلًا تأكدوا قالوا عملنا جميع الاحتياطات، وبذلنا كل الجهود، وما وجدنا إلا السرطان.

قال: أتقطعون قدمى؟ قالوا: نعم، قال: اقطعوها لأنام وأستريح وخرج من المستشفى بقدم واحدة، لا يستطيع المشى عليها وقد دخل بقدمين.

إنها دعوة المظلوم قطع الله بها تلك القدم الآثمة التى ضرب بها هذا المسكين الذى لا حول له ولا قوة إلا بالله، وقد جاءه النصر من عند الله، وأصبحت قصته حكاية تروى ممثلة عاقبة الظلم، ومصير الظلمة، فإن الله يمهل ولا يهمل[1] ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾[2].

* * *

(١) مواقف ذات عبر للدكتور عمر الأشقر.

(٢) سورة ق: الآية: (٣٧).

من حفر حفرة لأخيه وقع فيها

قال بكر بن عبد الله: كان رجل يغشى بعض الملوك، فيقوم بحذاء الملك، فيقول: أَحسِن إلى المحسن بإحسانه، فإن المسيء سيكفيكه إساءته، فحسده رجل على ذلك المقام والكلام، فسعى به إلى الملك.

فقال: إن هذا الذى يقوم بحذائك ويقول ما يقول، زعم أن الملك أبخر[1]، فقال له الملك: وكيف يصح ذلك عندى؟

قال: تدعوه إليك، فإنه إذا دنا منك وضع يده على أنفه لئلا يشم ريح البَخر فقال له: انصرف حتى أنظر.

فخرج من عند الملك، فدعا الرجل إلى منزله فأطعمه طعامًا فيه ثوم، وقال له: إذا اقتربت من الملك فضع يدك على فمك حتى لا يشم الملك رائحة الثوم فخرج الرجل من عنده، وقام بحذاء الملك على عادته.

فقال: أحسن إلى المحسن بإحسانه، فإن المسيء سيكفيكه إساءته.

فقال الملك: ادن منى.

فدنا منه، فوضع يده على فيه مخافة أن يشم الملك منه رائحة الثوم.

فقال الملك فى نفسه: ما أرى فلانًا إلا قد صدق.

قال: وكان الملك لا يكتب بخطه إلا بجائزة أو صلة. فكتب له كتابًا بخطه إلى عامل من عُماله: إذا أتاك حامل كتابى هذا فاذبحه، واسلخه، واحش جلده تبنًا وابعث به إلىَّ، فأخذ الكتاب وخرج، فلقيه الرجل الذى سعى به.

فقال: ما هذا الكتاب؟

---

(١) أى: متغير رائحة الفم.

فقال: خط الملك لى بصلة.

فقال: هَبْهُ لى.

فقال: هو لك.

فأخذه ومضى به إلى العامل.

فقال العامل: فى كتابك أن أذبحك وأسلخك.

قال: إن الكتاب ليس هو لى، فالله الله فى أمرى حتى تراجع الملك.

فقال: ليس لكتب الملك مراجعة، فذبحه، وسلخه، وحشا جلده تبنًا وبعث به ثم عاد الرجل إلى الملك كعادته، وقال مثل قوله فعجب الملك.

وقال: ما فعلتَ بالكتاب؟

فقال: لقينى فلان فاستوهبه منى فوهبته له.

قال الملك: إنه ذكر لى أنك تزعم أنى أبخر.

قال: ما قلتُ ذلك.

قال: لِمَ وضعتَ يدكَ على فيك؟

قال: لأنه أطعمنى طعامًا فيه ثوم، فكرهت أن تشمه.

قال: صدقت، ارجع إلى مكانك قد كفى المسىء إساءته.

* * *

نهاية الخليفة العباسي (المنتصر بالله)

قال ﷺ: «ما من ذنب أجدر أن يُعجِّل الله تعالى لصاحبه العقوبة في الدنيا - مع ما يدخره له في الآخرة - من قطيعة الرحم، والخيانة، والكذب، وإنَّ أَعجل الطاعة ثوابًا لصلة الرحم، حتى إن أهل البيت ليكونوا فجرة، فتنموا أموالهم، ويكثر عددهم إذا تواصلوا»[1].

قال الذهبي في ترجمة (المنتصر بالله) الخليفة العباسي:

ورد عنه أنه قال في مرضه: ذهبت يا أماه مني الدنيا والآخرة، عاجلت أبي فعوجلت، وكان يُتهم بأنه واطأ على قتل أبيه، فما أُمهل.

وجلس مرة للهو، فرأى في بعض البُسط دائرة فيها فارس عليه تاج، وحوله كتابة فارسية، فطلب من يقرأ، فأُحضر رجل، فنظر، فإذا فيها: ... فقطب وسكت، وقال: لا معنى له. فألحَّ المنتصر عليه، قال: فيه: أنا شيرويه ابن كسرى بن هرمز، قتلت أبي، فلم أُمتَّع بالملك سوى ستة أشهر، قال: فتغير وجه المنتصر، وقام.

قال جعفر بن عبد الواحد: قال لي المنتصر: يا جعفر، لقد عُوجلت، فما أُذني بأُذني، ولا أُبصر بعيني.

وقال الذهبي أيضًا عن المنتصر بالله: تحيلوا[2] إلى أن دَسُّوا إلى طبيبه ابن طيفور ثلاثين ألف دينار عند مرضه، فأشار بفصده، ثم فصده بريشة مسمومة، فمات منها.

---

(١) رواه الطبراني في الكبير وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٧٠٥).

(٢) أي الأتراك.

ويقال: إن ابن طيفور نسي ومرض، وافتصد بتلك الريشة، فهلك[١] والجزاء من جنس العمل.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٤٣ - ٤٥).

نهاية الخليفة العباسي القاهر بالله

قال الصولى: كان أهوج، سفَّاكًا للدماء، كثير التلون، قبيح السيرة، مدمن الخمر ولولا جودة حاجبه سلامة لأهلك الحرث والنسل، وكان قد صنع حربة يحملها فلا يطرحها حتى يقتل إنسانًا.

وعنه قال الذهبى: كان فيه شر وجبروت وطيش، بايعوه بعد المقتدر، فصادر حاشية أخيه وعذبهم، وضرب أم المقتدر بيده، وهى عليلة، ثم ماتت معلقة بحبل وعذب أم موسى القهرمانة، وبالغ فى الإساءة، فنفرت منه القلوب، وقبض على شيخ الحنابلة البريهادى.

ونهب القاهر دور مخالفيه، وطيَّن على ولد أخيه المكتفى بين حيطين، ونادى بتحريم الغناء والخمر، وكسر الملاهى، وهو مع ذلك يشرب المطبوخ والسلاف، ويسكر ويسمع القينات (المغنيات من الجوارى)، وقتل أبا السرايا بن حمدان، وإسحاق النوبختى ألقاهما فى بئر، وطمت، لكونهما زايداه فى جارية قبل الخلافة.

❊ فماذا كانت العاقبة:

خُلع من الخلافة وأُكحل بمسمار فى عينيه لسوء سيرته وسَفْكِه الدماء، وقيل إنه آلت به الحال أن صار يستجدى الناس.

❊ ❊ ❊

نهاية الأمير الظالم

ورد في سير أعلام النبلاء: أن سالم بن حامد نائب دمشق للمتوكل كان ظَلومًا عسوفًا، شَدَّ عليه طائفة من أشراف العرب، فقتلوه بباب دار الإمارة يوم الجمعة سنة بضع وثلاثين ومائتين، فبلغ المتوكل فتنمَّر، وقال: من للشام في صولة الحجاج؟ فندب أفريدن التركي، فسار في سبعة آلاف فارس، ورخص له المتوكل في بذل السيف ضحوتين، وفي نهب البلد، فنزل ببيت لهيا - قرية بدمشق - فلما أصبح قال: يا دمشق أيش يحل بك اليوم مني، فقُدمت له بغلة دهماء ليركبها فضربته بالزوج على فؤاده فقتلته، ورُدَّ عسكره إلى العراق فهذه عاقبة الظالمين.

* * *

أبو مسلم الخُراساني

وانظر إلى أبى مسلم الخراسانى الذى قتل من عباد الله ما قتل، وكان فاتكًا سفَّاكًا.

ذكر ابن جرير أن أبا مسلم قَتل فى حروبه، وما كان يتعاطاه لأجل دولة بنى العباس ستمائة ألف صبرًا زيادة عن مَن قَتل بغير ذلك.

وسُئل عبد الله بن المبارك عن أبى مسلم أهو خير أم الحَجَّاج؟ فقال لا أقول إن أبا مسلم كان خيرًا من أحد، ولكن كان الحجاج شرًّا منه.

كتب إليه المنصور: احذر البغى أبا مسلم، فإنه من بغى واعتدى تخلى الله عنه، ونصر عليه من يصرعه لليدين والفم، واحذر أن تكون سنة فى الذين خلوا من قبلك، ومثلة لمن يأتى بعدك.

وكتب **أبو مسلم إلى المنصور**: إن أخاك السفاح ظهر فى صورة مهدى وكان ضالًّا، فأمرنى أن أجرد السيف، وأقتل بالظِّنَّة، وأُقدم بالشبهة، وأرفع الرحمة، ولا أقيل العثرة، فوترت أهل الدنيا فى طاعتكم، وتوطئة سلطانكم، حتى عَرَّفكم الله من كان جهلكم، ثم إن الله سبحانه تداركنى منه بالندم، واستنقذنى بالتوبة، فإن يعف عنى ويصفح فإنه كان للأوابين غفورًا، وإن يعاقبنى فبذنوبى وما ربك بظلام للعبيد.

وكتب **إليه المنصور**: أما بعد أيها المجرم العاصى، إنه لم يسنح لك أمران إلا كنت لأَرشدهما تاركًا، ولأغواهما راكبًا، تقتل قتل الفراعنة، وتبطش بطش الجبابرة، وتحكم بالجور حكم المفسدين، وتبذر المال وتضعه فى غير مواضعه فعل المسرفين.

ولما أدخلوه على المنصور جعل يعاتبه فى أشياء صدرت منه، فيعتذر

عنها جيدًا، حتى قال له: فلِمَ قتلت سليمان بن كثير، وإبراهيم بن ميمون، وفلانًا وفلانًا؟ قال: لأنهم عصونى وخالفوا أمرى. فغضب عند ذلك المنصور وقال: ويحك! أنت تقتل إذا عُصيت، وأنا لا أقتلك وقد عصيتنى؟ وصفق بيديه وكانت إشارة بينه وبين المرصدين لقتله، فتبادروا إليه ليقتلوه، فضربه أحدهم فقطع حمائل سيفه، فقال: يا أمير المؤمنين، استبقنى لأعدائك. فقال: وأى عدو لى أعدى منك؟! ثم زجرهم المنصور فقطعوه قطعًا، ثم أُلقى فى دجلة .

ويروى أن المنصور لما قتله وقف عليه، فقال: رحمك الله أبا مسلم، بايعتنا فبايعناك، وعاهدتنا وعاهدناك، ووفيت لنا فوفينا لك، وإنا بايعناك على أن لا يخرج علينا أحد فى هذه الأيام إلا قتلناه، فخرجت علينا فقتلناك، وحكمنا عليك حكمك على نفسك لنا.

ويقال إن المنصور قال: الحمد الله الذى أرانا يومك يا عدو الله.

قال ابن جرير: وقال المنصور عند ذلك:

زعمت أن الدَّين لا يقتضى — فاستوفِ بالكيل أبا مجرمِ

سُقيت كأسًا كنت تسقى بها — أمرَّ فى الحلق من العلقمِ

وفى ذلك يقول أبو دلامة:

أبا مسلم ما غيَّر الله نعمة — على عبده حتى يغيرها العبدُ

أبا مسلم خوفتنى القتل فانتحن — عليك بما خوفتنى الأسد الوردُ

ثم إن المنصور خطب فى الناس بعد قتل أبى مسلم فقال: يا أيها الناس، لا تُنفروا أطيار النعم بترك الشكر، فتحل بكم النقم، وإن هذا الغمر أبا مسلم، بايع على أنه من نكث بيعتنا وأظهر غشنا فقد أباحنا دمه، فنكث

وغدر، وفجر وكفر، فحكمنا عليه لأنفسنا حُكمه على غيره لنا.

وقال: فحكمنا فيه حكمه فى غيره ممن شق العصا [١] والجزاء من جنس العمل [٢].

* * *

(١) البداية والنهاية (٧٠ - ٧٣)، سير أعلام النبلاء (٦/ ٧٢).

(٢) الجزاء من جنس العمل (٢/ ١٧٦ - ١٧٨).

المعتز والمعتمد على الله

قال الذهبى فى ترجمة المعتمد على الله:

عقد له أخوه بولاية عهد الخلافة من بعده، ودعى له فى الأمصار، ثم بلغ المعتز عنه أمر فضربه، وخلعه فى العهد، وحبسه يومًا، ثم أُخرج ميتًا، فقيل: أُجلس فى الثلج حتى مات بردًا، وبعث به إلى أمه، فبعثت تقول لقبيحة (أم المعتز): عن قريب ترين المعتز ابنك هكذا.

قال الذهبى: كذا وقع، وما أمهله الله [١].

وقال الذهبى فى ترجمة المعتمد على الله: وأما الصولى. فقال: بل عذبوه فى حمام، كما هو فعل بالمعتز، حتى أقر بالأموال ثم خنق [٢].

قُتل المعتز بعد أن أهانه الأتراك، ولطموا وجهه، وساموه سوء العذاب بأنواع المثلات، وكانت أمه تدعو على صالح بن وصيف (قاتله) وتقول: اللهم اخز صالح بن وصيف كما هتك سترى، وقتل ولدى، وبدَّد شملى، وأخذ مالى، وغربنى عن بلدى، وركب الفاحشة منى، وكان قد تزوَّج بها.

ثم يكون جزاء صالح بن وصيف من جنس عمله، فقُتل بعد سنة ٢٥٦ بعد طول اختفاء، ورُفع رأسه على رمح، ونودى عليه فى أرجاء البلد: هذا جزاء من قتل مولاه.

* * *

(١) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٣٣٣).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٢/ ٥٤١).

ثلاثة بثلاثة

روى أن الوزير ابن حصير الملقب بالنظام أن المقتفى غضب عليه، وأمر بأن يؤخذ منه عشرة آلاف دينار، فقال: ما يؤخذ منى عشرة ولا خمسة، ولا أربعة.

قالوا: من أين لك؟ قال: إنى ظلمت رجلًا فألزمته ثلاثة آلاف دينار، فما يؤخذ منى أكثر منها، فلما أدى ثلاثة آلاف دينار، وقَّع الخليفة بإطلاقه ومسامحته فى الباقى.

* * *

نهاية أهل العقوق

إن العقوق عاقبته وخيمة ... فكل ذنب قد يؤخر الله عقابه إلى الآخرة إلا العقوق.

يقول الشيخ حسن أيوب:

ولم يعلم أهل العقوق أن دمعة الأبوين بسبب ظلم الأولاد يجعلها الله عليهم نارًا، وأن أية دعوة منهما مستجابة ولو كانا كافرين، ومهما ظلم الأبناء آباءهم وأمهاتهم فإن غضب الله عليهم لا يفارقهم، وكنوز الدنيا كلها لن تنفعهم، ولا بد من أن يلقى العاق لوالديه من أبنائه مثل ما فعل بأبويه، والله غالب على أمره، ودعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب ولو كان المظلوم كافرًا، فما بالك إذا كان أمًّا أو أبًا مسلمًا؟![1].

أيها العاق! إن والدك يقول لك بلسان الحال والمقال:

غذوتك مولودًا وعِلتُك يافعًا	تُعَلّ بما أجنى عليك وتنهلُ
إذا ليلةٌ ضاقتك بالسّقمم لم أبت	لسقمك إلا ساهرًا أتململُ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى	طُرقت به دونى فعيناى تهملُ
تخاف الرَّدى نفسى عليك وإنها	لتعلم أن الموت وقت مؤجلُ
فلما بلغت السن والغاية التى	إليها مدى ما كنت فيك أُؤملُ
جعلت جزائى غلظة وفظاظة	كأنك أنت المُنعمُ المتفضلُ
فليتك إذا لم ترعَ حق أبوتى	فعلت كما الجار المجاور يفعلُ

(١) السلوك الاجتماعى فى الإسلام/ الشيخ حسن أيوب (ص: ٢٢٤).

صور ومواقف من العقوق

روى ابن أبى الدنيا عن أبى قَزَعة،- رجل من أهل البصرة- قال: مررنا ببعض المياه التى بيننا وبين البصرة، فسمعنا نهيق حمار، فقلنا لهم: ما هذا النهيق؟ قالوا: هذا رجل عندنا، فكانت أمه تكلمه بالشىء، فيقول: انهقى نهيقك. فكانت أمه تقول: جعلك الله حمارًا، فلما مات، نسمع هذا النهيق عند قبره كل ليلة[1].

*** وها هى قصة النضيرة بنت الساطرون:**

(الساطرون) هو الضيزن بن معاوية صاحب الحضر، وهو حصن على حافة الفرات، وبداخله مدينة عظيمة.. أغار عليه (سابور) وحصره سنتين، فأشرفت النضيرة بنت الساطرون فنظرت إلى سابور وعليه ثياب ديباج وعلى رأسه تاج من ذهب مكلل بالزبرجد والياقوت واللؤلؤ وكان جميلًا، فدسّت إليه: أتتزوجنى إن فتحت لك باب الحضر؟ فقال: نعم، فلما أمسى ساطرون شرب حتى سكر وكان لا يبيت إلا سكران، فأخذت مفاتيح باب الحضر من تحت رأسه وبعثت بها مع مولى لها ففتح الباب -ويقال: بل دلتهم على نهر يدخل منه الماء متسع- فولجوا منه إلى الحضر، فدخل سابور فقتل ساطرون واستباح الحضر وخرّبه، وسار بها معه فتزوجها، فبينا هى نائمة على فراشها ليلًا إذ جعلت تململ لا تنام، فدعا لها بالشمع ففتش فراشها فوجد عليه ورقة آسٍ، فقال لها سابور: أهذا الذى أسهرك؟! قالت: نعم. قال: فما كان أبوك يصنع بك؟ قالت: كان يفرش لى الديباج، ويُلبسنى الحرير، ويُطعمنى المخ، ويسقينى الخمر. قال: أفكان جزاء أبيك ما

---

(١) مجابو الدعوة/ لابن أبى الدنيا (ص: ٨٤).

صنعت به؟ أنت إلىَّ بذلك أسرع، فرُبطت قرون رأسها بذَنَب فرسٍ ثم ركض الفرس حتى قتلها.

كما كانت سببًا فى مقتل أبيها..

*** وها هى قصة الشاعر جرير بن عطية:**

كان جرير بن عطية الشاعر أعقّ الناس بأبيه، وكان بلال ابنه كذلك، فراجع بلالًا فى الكلام، فقال له بلال: الكاذب بينى وبينك فاعل بأمه، فأقبلت أمّه عليه، وقالت: يا عدو الله! تقول هذا لأبيك فقال جرير: فكأنه سمعها منى وأنا أقولها لأبى[1].

*** وها هى قصة مُنازل:**

وعن أبى عبد الرحمن الطائى قال: كان رجل من بنى نهد قد كَبُرَ وضعُف، يكنى أبا منازل، وله ابن يقال له: مُنازل، وكان له ولد صغار، فكان إذا أصاب شيئًا أعطاهم إياه، وكان يقبض عطاء أبيه، وكان شيخًا كبيرًا، فوُلد للشيخ بنون صغار، فكان منازل يستأثر عليهم، فلما خرج العطاء، خرج منازل يقود أباه، حتى أجلسه لقبض عطائه، فلما نودى باسمه، قام منازل فقال: أعطونى عطاءه، فقام الشيخ فقال: أعطونى عطائى فى يدى، ففعلوا، فحمل عطاءه، ثم قام يتوكأ على مُنازل، فقال مُنازل: هلم أحمله عنك قال: دعه، فلما خلا له الطريق، فكّ يد أبيه، ثم أخذ العطاء، فذهب به، فانصرف الشيخ، وليس معه فى يده شىء فقال له أهله وولده: ما صنعت؟ قال: أخذ منازل عطائى، ثم أنشأ يقول:

جَزَت رحِمٌ بينى وبين منازلٍ ... جزاء كما يستجزُ الدَّين طالبهُ

---

(١) شرح مقامات الحريرى/ للشربينى (٤/ ٢٢٩).

وربيتـه حتـى إذا مـا هـو استوى ... كبيـرًا وسـادى عامـل الـرمح غاربُـه

تَظلَّمنـى مـالى كـذا ولـوى يـدى ... لـوى يـده الله الـذى هـو غالـبُه

فأصبح منازل ملويًّا يده[1].

* وها هى قصة الحطيئة الشاعر:

كان عاقًّا لأمه وأبيه، كثير الهجاء حتى إنه هجا أباه وأمه، وخاله وعمه، ونفسه وعروسه، فمما قال فى أمه قوله:

تنحَّـى فاقعـدى عنـى بعيـدًا ... أراح الله منـك العالمينـا

أغربـالًا إذا استُودعتِ سـرًّا ... وكانونًـا علـى المتحـدثين

جـزاك الله شـرًّا مـن عجـوزٍ ... ولقـاك العقـوق مـن البنينـا

وقال فى أبيه وعمه وخاله:

لحـاك[2] الله ثـم لحـاك حقًّـا ... أبًـا ولحـاك مـن عـمٍّ وخـالِ

فـنعم الـشيخ أنـت لـدى المخـازى ... وبـئس الـشيخ أنـت لـدى المعـالى

جمعـت اللـؤم لا حيّـاك ربـى ... وأبـواب الـسفاهة الـضلالِ

ومما قاله فى عروسه:

أطـوف مـا أطـوف ثـم آوى ... إلـى بيـت قعيدتـه لكـاعِ

فلما كان عاقًّا لوالديه، سلطه الله على نفسه فهجاها، وهذه والله أقذع من عقوق ولده له.

---

(١) مجابو الدعوة/ لابن أبى الدنيا (ص: ١٠٤، ١٠٥) والإصابة لابن حجر (٣/ ٢١٢).

(٢) قبحك ولعنك.

يقول فى نفسه يذمها:

أبـــت شـــفتاى اليـــوم أن تتكلمـــا بـــشرٍّ فمـــا أدرى لمـــن أنـــا قائلـــه؟

أرى لـــى وجهًـــا شـــوَّه الله خَلقـــهُ فقُبـــِّح مـــن وجـــهٍ وقُـــبِّح حاملـــه

ويقال: أن عمر أراد أن يقطع لسانه، فشفعوا فيه حتى أطلقه.

والجزاء من جنس العمل[1].

* * *

(١) بتصرف من (الجزاء من جنس العمل) د. سيد حسين.

انفصل رأسه عن جسده بدعوة أمه

شابٌ فى العشرين من عمره، دخلت سيارته تحت شاحنة كبيرة فى حادث شنيع، فتجمع الناس لإنقاذه فلما أخرجوه من سيارته إذ برأسه منفصل عن جسده، فبحث الضابط عن اسمه، ثم اتصل على البيت فردت امرأة، فقال: هذا منزل فلان (والد صاحب الحادث)؟ قالت: نعم قال: أين هو؟ قالت: غير موجود ولا يوجد أحد فى البيت قال: وما قرابتك من فلان؟ قالت: أنا أمه فقال: بتمهيد وأسلوب لقد حصل لابنك حادث بسيط ونريد من يحضر للقسم لإكمال الإجراءات، فلما سمعت الأم اسم ابنها الذى وقع عليه الحادث دعت الله تعالى عليه بالهلاك والموت، ففوجئ الضابط بردها وتعجب، ثم أخبرها بما حصل لابنها وسألها عن سبب دعائها فقالت: إنه خرج من عندى وقد شتمنى وضربنى ودائمًا يهددنى حتى سئمت منه، لقد أتعبنى وكأنِّى لم أسهر عليه ولم أتعب فى تربيته فدعوت الله تعالى أن يهلكه ويريحنى منه[١].

* * *

(١) بتصرف من شريط (ففوجئت بردها) للشيخ عبد الرحمن الهاشمى.

بصمة فى قبر

* قصة هذا العنوان أن رجلًا غنيًّا يملك ثروة كبيرة جاءته سكرات الموت التى لم ينجُ منها أحد حتى رسول الله ﷺ، فلما حضرته الوفاة جاء أولاده واجتمعوا عند رأسه، وإذا بالرجل فى تلك اللحظة يوصيهم بأن يحب بعضهم بعضًا، وألا يجور أخٌ على أخيه، وإذا بهم يعاهدون هذا الوالد على أن يمتثلوا تلك الوصية، ودخل عليه ملك الموت فقبض روحه.

وبدءوا فى تجهيز جثة هذا الوالد الكريم، فغسَّلوه، وكفَّنوه، وصلوا عليه، وذهبوا به إلى المقبرة، وبعد أن دفنوه، وخرجوا من قبره، وإذا بولد من أولاده يستأذن بقية إخوانه وأقاربه بأن ينزل مرة أخرى إلى قبر أبيه من أجل أن يطمئن على أنه قد دُفن ووُجِّه إلى القبلة، فأذنوا له، فنزل الشاب الغنى إلى قبره والده.

وفجأة! تغيب هذا الولد أكثر من ربع ساعة فى قبر والده؛ فأصاب إخوانه القلقُ، فنزل واحد منهم إلى قبر أبيه لينظر ماذا يصنع أخوه فى هذا القبر، وإذا به يجد أخاه قد أُلقى فى القبر ميتًا بجوار أبيه - وليس هذا الأمر بعجيب، لكن الأعجب هو الذى ستعلمه الآن- لقد وجد أن أخاه قد خلع الكفن عن جسد أبيه وأخرج يده من الكفن وجعله يبصم بأصبعه على عقد بيع لعمارة من أملاك الوالد.

فلقد نزل الولد إلى قبر أبيه من أجل أن يحصل على عمارة من تلك العقارات التى كان يمتلكها الوالد فنزل وفى جيبه مَحبرة وفى الجيب الآخر عقد بيع، نزل وفك الكفن، وأخذ أصبع والده ووضعه فى المبصمة على

المحبرة ووضع يد والده على العقد، وجعل يُبصمه على عقد بيع لإحدى العمارات التى يمتلكها هذا الوالد، وقبل أن يخرج بالعقد من أجل أن ينتفع به وأن يستمتع بتلك العمارة جاءه ملك الموت فى القبر فطرحه ميتًا بجوار والده- ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

بصمة فى قبر! عنوان عجيب لكن القصة أعجب بكثير، وكما قلت: ما أكثر العجائب التى نسمعها، بل ونراها فى كل يوم، بل وفى كل لحظة، يوم أن خربت الضمائر، وماتت القلوب، وابتعد كثير من الناس عن طاعة علاَّم الغيوب، وتعلقت أكثر القلوب بالدنيا ونسوا جنة عرضها السماوات والأرض أعدها الله - جلَّ وعلا- لعباده الصالحين فقال - جَلَّ فى عُلاه- كما فى «الصحيحين»-: «**أعددت لعبادى الصالحين فى الجنة: ما لا عين رأت، ولا أُذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخارى (٣٢٤٤) كتاب بدء الخلق، ومسلم (٢٨٢٤) كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها.

*** قصة الشاب الذي ذبح أباه!!!**

وذُكِر أن رجلًا كان عنده والد كبير، فتأفف فى خدمته ومن القيام بأمره، فأخذه وخرج به إلى الصحراء ليذبحه، فلما وصل إلى صخرة أنزله هناك، فقال: يا بُنى ماذا تريد منى؟ قال: أريد أن أذبحك، قال: إن أبيت إلا ذبحى فاذبحنى عند الصخرة التالية، أنا كنت قبلك عاقًّا لوالدى، وذبحته عند تلك الصخرة، ولك يا بنى مثلها.

فالله تعالى قد يمهل الظالمين ولكن لا يهملهم مطلقًا لا دنيا ولا أخرى ويا حظ من عاقبه الله فى الدنيا ويا بؤس من أخَّر الله عذابه إلى الآخرة.

*** سأصنع بك يا أبي مثلما صنعت بجدّي!!!**

وهذا ابن من الأبناء يكبر والده وينحنى ظهره ويسيل لعابه، فتشمئز الزوجة من والد زوجها وتقول: جنِّب والدك فإن أبنائى يشمئزون منه فنحَّى الابن العاق والده عن أحفاده فقال له ابن صغير وهو يحب جده: لِمَ تصنع ذلك بجدى يا أبى؟ قال: حتى لا تشمئزون منه، فبكى الولد الصغير والتفت لأبيه وقال: حسنًا يا أبى، سوف أصنع بك ذلك حينما تكبر كما صنعت بجدى.

*** إنما هو دَينٌ أقضيه!!!**

وهذا ابن آخر يمسك به الناس ليفتكوا به فى إحدى قرى مركز السنبلاوين وانقضَّ عليه الناس بالضرب والإهانة وإلى جواره والده يبكى وهو يقول: اتركوه دعوه اتركوه ثم قال: والله منذ عشرين سنة فى هذا المكان صفعت أبى على وجهه، كما صفعنى ولدى الآن، فإنما هو دَينٌ أقضيه.

* وهذا هو ابنٌ آخر يجر أباه بقدميه ورجليه؟ ليطرده خارج شقته

فيبكى الوالد حينما وصل إلى الباب يقول الوالد لولده: يا بنى إلى الباب فقط إلى الباب فقط ثم بكى وقال: فوالله ما جررت أبى منذ كذا من السنين وأنا أطرده من بيتى إلا إلى الباب فقط، فاكتفى بالباب فقط، فإنما هو دَينٌ أقضيه.

فالبر دَينٌ ستجنى ثمرته الحلوة، سيرزقك الله ابنًا بارًّا لتذوق على يديه حلاوة البر.

والعقوق دَينٌ ستجنى ثمرته المُرة فى الدنيا قبل الآخرة، سيبتليك الله بابنٍ عاق تشرب على يده كؤوس العقوق ألوانًا وأشكالًا، هذا حق الوالدين وهذا والله قليل من كثير.

❊ ❊ ❊

قصة الملاح القاتل

نشأ هذا الشاب فى عائلة فقيرة جدًّا، لا تكاد تحصل على قوتها اليومى إلا بشقِّ الأنفس، فى حى من أحياء (الرصافة) من بغداد.

وفى السادسة عشرة من عمره، عمل فى قارب من قوارب العبور ملاحًا فى نهر (دجلة) بين جانبى بغداد: الرصافة والكرخ.

ومرّت عليه ست سنوات فى عمله الدائب الذى قد يستمر فى بعض الأحيان ليلًا ونهارًا، لا يعرف للراحة طعمًا إلا حين يأوى إلى فراشه لينام قليلًا، وكان ما يجمعه يوميًّا لا يكاد يسدّ رمق عائلته الكبيرة المؤلفة من أبوين شيخين وخمسة إخوة وست أخوات، وكان هو بِكر والديه.

وذات صباح من أيام الصيف فى بغداد، كان على ضفة (دجلة) اليمنى حيث جانب (الكرخ) من بغداد، جاءته فتاة مع أمها، يبلغ عمر الفتاة ست عشرة سنة، فى غاية الحسن والجمال.

ونقل الأم وابنتها إلى جانب (الرصافة)، فتحرك قلبه للفتاة من أول نظرة ولأول مرة فى حياته، فلم يُبق له الفقر وإعالة أبويه وأشقائه وشقيقاته قلبًا يخفق، حتى ظن أن قلبه أصيب بالشلل المزمن، فلا تحركه العواطف بقدر ما يحركه الخبز.

والظاهر أن دقات قلبه حركت لا إراديًّا دقات قلب الفتاة، فبادلته النظرات، فلما وصلت ضفة دجلة اليسرى حيَّته بابتسامة مشرقة جعلت قلبه ينهار لوعة وحبًّا، وبمرور الوقت عرف أنها تصاحب أمها من جانب (الكرخ) لزيارة خالتها فى جانب (الرصافة) صباح يوم الخميس من كل أسبوع، فأخذ ينتظر قدومها وينقلها إلى الجانب الآخر، وينتظر عودتها

فيعيدها إلى (الكرخ).

وكان الشاب ذا هامة وقامة، مفتول العضلات، حلو اللفتات، عذب الابتسامات، يقطر نخوة وشهامة، كالأسد فى غابته والنمر فى عرينه.

وفى كل مرة تمتطى الفتاة وأمها قاربه ذهابًا وإيابًا، يرفض تقاضى الأجور الزهيدة، فتأبى والدة الفتاة إلا أن تدفع الأجر كاملًا، فيسَّر هذا التنازل والرفض التعارف بين الطرفين وتبادل الكلمات القصيرة، كالتحية والسؤال عن الصحة والعافية.

وهمس مرة فى أذن الفتاة، منتهزًا فرصة مغادرة الأم القارب أولًا إلى اليابسة قائلًا: «أحب أن أتزوجك»، فقالت: «اطرق باب والدى، فتسمع الجواب»، ومضت الأم والفتاة إلى سبيلهما.

* وبقى الفتى يفكر فى أسلوب عرض زواجه بالفتاة على أبويه، وفى طريقة إقناعهما بهذا العرض.

ومرت أسابيع عدة وهو غارق فى تفكيره، يقدم رِجلًا ويؤخر أخرى، وكان يلاقى فتاته كل خميس رائحة غادية، تلاحقه بنظرات العتاب، وعتاب العينين أبلغ من عتاب الشفتين، فكان يغض الطرف خجلًا تارة، ويقابل نظراتها بالابتسام تارة أخرى.

وهمست فى أذنه ذات صباح: «طرق باب والدى غيرك»، ثم مضت متعثرة الخطوات، خجلة متلعثمة، كأنها اقترفت ذنبًا عظيمًا.

وعاد الفتى إلى أهله مساءً، فأخبر أمه بقصته وفتاته، فوعدته أن تحمل له الجواب وشيكًا.

وكلمت أمه أباه بالدموع، فليس فى دارها كساءً ولا غذاءً، ولولا حب

الوطن لهجرته فئرانه، إذ ليس فيه ما تأكله، وليس لديهم درهم ولا دينار، وفى الدار غرفة واحدة يطلق عليها اسم الغرفة مجازًا، لأنها لا تقى من مطر الشتاء ولا من شمس الصيف، ويدخلها الريح من مواضع وشقوق شتى بدون استئذان.

كان قلب الأم والأب مع ولدهما، ولكن عقليهما كانا بعيدين عنه، فقد كانت لدى الوالدين أسباب كثيرة تحول بين ولديهما والزواج، لعل من تلك الأسباب الفقر والفاقة وغياب المال، وضيق المسكن، والعروس لابد لها من غرفة تخلو فيها إلى زوجها ويخلو بها.

واختلت الأم بولدها، تحدثه بالبكاء لا باللسان، ففهم الفتى منطلق الدموع والعبرات، ومضى إلى سبيله دون أن يبسط عذره أو يحتج.

وجاء يوم الخميس من جديد، فعاتبته نظراتها عتابًا مرًّا، فلما عادت من زيارة خالتها قبيل المغرب، عاد بها إلى جانب (الكرخ)، ثم تعقبها خلسة إلى دار أهلها، وكانت تلتفت إليه كلما استطاعت إلى ذلك سبيلًا، ومع التفاتتها ابتسامة مشجعة.

ووصلت إلى دار أبيها، فدخلته وأوصدت خلفها الباب، وحيته قبل أن تتوارى، وتوقعت أن يزور أباها بصحبة أهله، وطال انتظارها لزيارته دون أن يفعل ما توقعته.

وأصيبت الفتاة بيأس قاتل، كما أصيب الفتى.

يئست الفتاة من إقدام الفتى على خطبتها، فقد طال انتظارها، فماذا بعد تنتظر؟!

ويئس الفتى من الزواج بالفتاة التى أحبها من كل قلبه، فقد وجد أن

أهلها على درجة من الغنى والثراء، وهو المعدم الفقير.

وطرق باب الفتاة طارق، فاستجاب له أهلها وتزوجت.

وسلا قلب الفتاة بعد زواجها ونسى، ولكن قلب الفتى لم يسل ولم ينس، وانزاح قنوط الفتاة عن نفسها رويدًا رويدًا، وبقى قنوط الفتى فى نفسه وأصبح شيئًا بعد شىءٍ حقدًا.

وعلم الفتى بزواج فتاته، فلم تعد ترافق والدتها يوم الخميس من كل أسبوع لزيارة خالتها فى جانب (الرصافة).

ولم يعد الفتى ينتظر الفتاة وأمها يوم الخميس من كل أسبوع، ليحملهما من جانب النهر إلى الجانب الآخر فى غدوّهما ورواحهما.

ومضى عامان، حسبهما الفتى قرنان، فقد ظل حزينًا ساهمًا يفكر فى فتاته... لم يستطع الزواج بها لظروفه الاقتصادية القاسية.

وفى يوم من الأيام، حمل فى قاربه فتاة وطفلًا، وكان الضباب كثيفًا، والجو غائمًا.

وشرع يحرك مجدافيه، وابتعد بقاربه عن جانب الرصافة، حتى أصبح فى وسط النهر.

وفجأة رأى فتاته تحمل طفلها الرضيع من زوجها الذى زُفَّت إليه، قبل سنتين، فأمعن النظر فى وجهها طويلًا، حتى تأكد من أنها فتاته التى هام بها.

وكانت فى شغل شاغل عنه بطفلها، فناداها وذكرها.

ولم تكن ناسية، فقالت له: «لست لك اليوم، فأنا بذمة زوج، وهذا طفلى».

ولكنه تمادى فى غيه، وقد تقمصه الشيطان، فأصبح نسخة طبق الأصل

منه، وزاد عليه ما يعتلج فى نفس الإنسان الأمَّارة بالسوء.

وراودها عن نفسها فاستعصمت، وهددها بإغراق طفلها فى النهر فما استكانت، ونفذ وعيده فأغرق طفلها فى النهر حتى ابتلعه اليم فما هانت، وهاجمها بخنجره فاستأسدت، وطعنها بضع طعنات فما ضعفت، وجرجرها ليضمها إلى صدره فقاومت، وغلب عليها النزيف فما استسلمت.

ولفظت أنفاسها الأخيرة، وهى تدافع عن شرفها وعرضها، فحمل الجانى جثتها وقذفها فى الماء الجارى.

وانحدر إلى ركن قصى من ساحل دجلة، وغسل قاربه من الدماء، وتخلص من آثار الجريمة بهدوء وروية.

وذهبت الجريمة، وسُجِّل بأن المجرم مجهول الهوية.

ولكن المجرم لم يصبر على عمله ملاحًا فى قاربه، فقد كان يُخيل إليه كلما مر فى وسط النهر بالقرب من الموضع الذى ارتكب فيه جريمته، بأن الطفل الذى أغرقه فى اليم يبكى ويستغيث، ويسمع الصوت الذى انطلق منه باكيًا حين جذبه من بين أحضان أمه قبل أن يقذفه فى اليم، يسمع صوت أمه تهدد وتتوعد وتزمجر، وكأنها وهى فى جوار الله تهاجم قاربه، هجومًا لا هوادة فيه، فيعلو الموج لبكاء الطفل، واستغاثته وتهديد أمه وتوعدها.

فإذا أقبل الليل أصبح من المستحيل على الملاح المجرم أن يعبر النهر، فإن شبح الطفل وأمه يطاردانه فى الظلام، ومعهما أشباح لا تُعد ولا تُحصى.

وهجر الملاح قاربه، وأصبح جزارًا.

لقد كان يعمل جزارًا، وكالعادة قصد المجزرة فى الهزيع الأخير من الليل، وذبح فى تلك المجزرة أغنامه قبل الفجر، وأوكل أمر نقلها إلى حانوته التى يبيع فيها الأغنام المذبوحة إلى شريكه.

وعاد مع الفجر إلى داره، التى تقع على جانب طريق ضيقة متعرجة مسدودة من تلك الطرق التى كانت شائعة فى الأحياء القديمة من بغداد قبل أربعين عامًا.

وفى طريق عودته من المجزرة إلى داره، وعلى بعد أمتار معدودات منها، فى تلك الطريق الضيقة المتعرجة المسدودة، سمع صرخة مستغيث، فهرول مسرعًا باتجاه الصوت المستغيث.

وعثر الرجل وهو يهرول بجثة قتيل يلفظ أنفاسه الأخيرة، يَسبح ببركة من دمه النازف، فتلطخت يداه وثيابه بالدماء وسقطت سكينه من وسطه على صدر القتيل، فتلوثت هى الأخرى بالدماء.

وأصيب بصدمة عنيفة، ولكنه لم يكد يصحو من هول هذه الصدمة، إلا وأصيب بصدمة أخرى أشد هولًا من سابقتها، فقد أحاطت به جماعة من الحرَّاس الليليين المسلحين بالهراوات والبنادق والمسدسات، فأمروه بالنهوض ورفع يديه، فنهض عن جثة القتيل ورفع يديه وهو فى حالة يُرثى لها من الفزع والهلع، فالتقط أحد الحرَّاس الليلى سكين الجزار الملوثة بالدماء والتى سقطت على جثة القتيل.

واجتمع عدد من الناس حول الحرَّاس، وتطلع قسم من الجيران ليعرفوا حقيقة الأمر، واقتيد الجزار إلى مخفر من مخافر الشرطة القريبة.

وبدأ فورًا التحقيق فى قضية مقتل الرجل، وشهد الحرَّاس الليليون بأنهم

قبضوا على الجزار وهو على صدر القتيل، وأن سكينه التُقطت من فوق القتيل، ولم يجدوا غيره بالقرب من مصرع القتيل فى ذلك الوقت المبكر من الفجر.

وأيد قسم من الشهود الذين تجمعوا أو تطلعوا، شهادة الحرَّاس الليليين، فاقتنعت المحكمة بأن الجزَّار هو القاتل، فحكمت عليه بالإعدام شنقًا حتى الموت.

ولم يسمع أحد لإنكاره بأنه ليس القاتل، ولم يصدق أحد قصته الحقيقية بأنه عثر بالقتيل وهو فى طريقه إلى داره فجرًا، وذهبت أقواله وتشبثاته أدراج الرياح، ولكنه بعد صدور الحكم عليه، قال لقُضاته الذين تولوا محاكمته، على مسمع من الحاضرين: «إن أقوالى صادقة، وأقوال الشهود كاذبة، ولكننى أستحق الحكم علىَّ بالإعدام، لأننى قتلت طفلًا رضيعًا وأمه قبل سنوات، ففتشوا عن القاتل الأصلى الذى ارتكب جريمة القتل وأفلت من العقاب....».

ونُفذ فيه حكم الإعدام شنقًا حتى الموت.

وكان بالإمكان أن يمر إعدام الجزار كما مر إعدام غيره من المجرمين دون أن يترك أثرًا فى المجتمع، أو يترك أثرًا محدودًا فى المجتمع يزول بمرور الأيام، ولكن إعدام هذا الجزار ترك أثره العميق فى المجتمع بحيث لا يزال يتردد حديثه حتى اليوم.

وسرُّ هذا الأثر يكمن فى أنه كان بريئًا من دم القتيل الذى أُعدم بسببه، ولكنه لم يكن مظلومًا فى الحكم عليه بالإعدام، لأنه كان مدينًا بقتل طفل ووالدته، عجز البشر فى حينه عن اكتشاف قاتلهما، ولكن الله كان له

بالمرصاد.

* وطالت جلسة الليلة الأخيرة من حياة الملاح القاتل، وهو يحدِّث أباه وأمه وإخوانه وأخواته حديثه الأخير.

واقترب موعد تنفيذ حكم الإعدام بالملاح، فانضم إلى أهله جماعة من الرسميين الذين جاؤوا يشهدون تنفيذ الحكم فيه شنقًا حتى الموت.

وجاء من يُذكر الأهل والموظفين بأن الوقت قد آن للتنفيذ.

وكان الجميع مأخوذين بما سمعوا، يتمنون أن تطول حياة الملاح، ولو دقائق معدودات.

وجاء من يضع فوق رأس ووجه المحكوم عليه كيسًا أسود، ويقوده إلى المشنقة.

وصاح المجرم قبيل أن تُسحب اللوحة من تحت رجليه: «فتشوا عن قاتل صاحبكم، فأنا أُشنق لقتلى الطفل الرضيع وأمه، والحكم الذى صدر بحقى ليس من عدل البشر بل من عدل رب البشر».

وانتهى أمره، ولكن قصته بقيت عبرة لمن يعتبر[1].

* * *

(١) تدابير القدر (ص: ٤٦)، لمحمود شيت خطاب بتصرف والقصة أصلها فى كتاب نشوار المحاضرة للقاضى التنوخى.

هذا عذاب الدنيا ... فكيف بعذاب الآخرة(١)

أمضت دارين قرابة خمس سنوات تحلم باليوم الذى ستصبح فيه أمًّا، فكانت تدعو ربها وهى تبكى تسأله أن يرزقها بالولد الصالح، وبعد فترة طويلة من الدعاء والعلاج لاحظت على نفسها تغيرًا كبيرًا، وشعرت بعوارض غريبة، فأعلمت زوجها بالأمر الذى ذهب بها على الفور إلى الطبيب، وبعد الفحص بشَّره الطبيب بأن زوجته حامل، فلم تسعه الفرحة فذهب وبشر أمه وأمها وأهلها، وتمت الأفراح والتباشير بحمل دارين بعد انتظار دام سنوات طويلة، وبعد الشهر التاسع ولدت دارين بحمد الله ولدًا أسمته محمدًا، ولكن كانت الولادة قيصرية وتعبت دارين بالولادة، وكانت بعيدة عن أهلها فلم يكن لها من أحد يخدمها، فطلبت من زوجها خادمة، وكان بالحى امرأة كبيرة فقيرة الحال تخدم بالبيوت، فأتى بها لتخدم زوجته، وبعد أسبوع من خدمتها قالت المرأة لدارين: أرجو أن تسمحى أن آتى بابنتى كى تساعدنى لكبر سنى، فلم تعترض دارين، ومضى على وجود البنت والأم عشرون يومًا، ثم صارت تأتى البنت وحدها، وكان عمرها سبعة عشر عامًا، وكانت جميلة، وكانت تأتى وهى فى كامل زينتها، فاستنكرت دارين ذلك وطلبت منها عدم المجىء، فاعترض زوجها وقال: دعيها تخدمك إلى الأربعين وبعد ذلك تنهضى بالسلامة، وطلب زوج دارين من الخادمة أن تنام فى البيت كى تكون قريبة من دارين، فوافقت البنت، وبعد مُضى سبعة وثلاثين يومًا، أصيبت دارين بحمى النفاس، وفى

---

(١) بتصرف من عقد اللالئ والعبر لمريم الفوزان.

الصباح الباكر ذهب زوجها دون أن يسأل عن زوجته أم محمد ويتفقدها مثل كل يوم، وهى طول الليل ترتعد من الحمى... والصغير يبكى.

وفى الصباح نادت على الخادمة جمالات فلم تسمعها فتحملت على نفسها، وذهبت إلى الغرفة التى تنام بها الخادمة فلم تجدها، فقالت فى نفسها لعلها تنظف فى الدور الثانى، وصعدت الدرج وهى متعبة جدًّا ونادتها فلم تسمعها، فقالت لعلها تنظف غرفة النوم، فوجدت الباب مغلقًا وعندما فتحته وجدت الخادمة بملابس النوم على سريرها، فصرخت بها ألا تستحى، تنامى هكذا وبغرفة نومى وببيت رجل غريب، فقالت لها: لاحظى على كلامك ولا تخطئى فهذا زوجى تزوجنى منذ أسبوع، فحصل نقاش حاد ومضاربة بينهما، وبعد ساعات حضر الزوج فوجد الخادمة جمالات والتى هى زوجته الثانية حاملة الصغير محمد على كتفها تُهدئه، فسألها عن دارين فقالت له جمالات: إنها بالطابق العلوى، فصعد إليها وهو ينادى أم محمد، وعندما وصل إلى الغرفة وجدها ملقاة على الأرض يتدفق من بطنها دم غزير، ويد باب الغرفة ملطخ بالدم، فصرخ فى ذهول وحملها بين يديه وهو مذهل من المنظر، ورجع وهو يصرخ: جمالات تعال، وعندما حضرت وشاهدت دارين بهذه الصورة صارت تصرخ وتولول، وقالت لزوجها: إننى نصحتها بأن لا تصعد للطابق العلوى ولكنها رفضت، وأكيد أنها تعبت ووقعت على الباب وحدث لها ذلك، وهجمت عليها وهى تقول: أم محمد، أم محمد، وبعد ذلك نقلها زوجها للمستشفى وأخبره الطبيب بأنها توفيت وسأله الطبيب كيف توفيت فقال أبو محمد: إنها وقعت على يد الباب ودخلت يد الباب بشق العملية ببطنها، فقال

الطبيب: أيوجد عندها أحد، قال زوجها: لا غير صغيرها محمد، فسُجل الحادث قضاء وقدرًا، ودُفنت دارين، ودُفن السر معها.

وبعد دفنها بثلاثة أيام أرسل أبو محمد إلى أخواتها وأعلمهم بوفاتها، وكانت دارين يتيمة الأب، ولما علمت والدتها قالت لولدها: يجب أن نذهب ونأخذ الصغير محمدًا ونربيه، ولنرى كيف توفيت ابنتى، وعندما وصلوا رحب بهم أبو محمد، ووجدوا فى البيت هذه البنت «جمالات».

سألت أم دارين: من هذه البنت؟ فقال لها أبو محمد: إنها زوجتى تزوجتها فى حياة دارين، فشكَّت الأم بموت ابنتها قضاءً وقدرًا، بعد أن سمعت بالحكاية من أبى محمد، وقالت: لا يا أبا محمد وهى تلتفت إلى زوجته جمالات وتقول: اسمع يا أبا محمد إذا كانت الحقيقة اختفت عن المخلوق فلن تختفى على الخالق، فلم يُعرها أبو محمد أى اهتمام، وقال: كل إنسان يأخذ نصيبه.

وأراد أبو محمد أن يقوم بواجب الضيافة، ولكن أم دارين وولدها رفضا ذلك وطلبا منه ولده محمدًا لكى تربيه والدة دارين، فلم يعترض أبوه بل رحب بذلك وقال لهم: سوف يأتيكم مصروفه فى أول كل شهر، فرد خاله وقال: إنه مثل ولدى ولن يضيق به بيتى ورزقه على الله فلا ترسل شيئًا، فشكرهم أبو محمد وسافرت الجدة والخال بالولد، وبقيت جمالات بهذه الفيلا الواسعة واستمتعت بهذه النعمة بعد الفقر، وأصلحت من حال أهلها.

ومرت السنون وجمالات من حسن إلى أحسن، وكل سنة تنجب ولدًا حتى أصبح عندها ثمانية أولاد وثلاث بنات، وهى تزداد جمالًا، ومرت

السنوات وهى تحس كأنها فى حلم جميل، وطلبت من زوجها يومًا أن يذهبوا إلى أحد المصايف، فرحب زوجها، وتجهز الجميع للرحلة والفسحة وذهبوا فرحين، وعند منحدر بالطريق اصطدمت سيارتهم بشاحنة كبيرة، فانقلبت بهم السيارة ولم ينجُ من الحادث إلا جمالات وولدها الكبير، حيث أصيبت بكسور شديدة بالحوض، وأصيب ولدها بكسور طفيفة، وعندما أفاقت جمالات من الحادث وعرفت بوفاة زوجها وأولادها إلا واحدًا سقطت مغشيًّا عليها، وأصيبت بالشلل النصفى وبقيت ثلاث سنوات بالمستشفى، وبينما خرج ولدها بعد شهرين، ومرت عليها الأيام وكأنها جبل ثقيل فقد خرجت من المستشفى بعد هذه السنوات وهى على كرسى متحرك، وهى مُقعدة، وجاء ولدها ليأخذها وفى طريق حضوره إليها انقلبت به السيارة فتوفى فى الحال، وعندما عرفت جمالات بالأمر صُرعت من هول الفجيعة، وبقيت وحيدة فى هذه الدنيا، واتصلت إدارة المستشفى بأهلها بالمدينة التى يقطنون بها فجاء أبوها وأخوها واستلموها.

وحضر محمد ابن زوجها وحصل على إرثه من أبيه، وكانت معه جدته أم دارين، ولما رأتها جمالات بكت وقالت: أتذكرين يا خالة قولتك: «إذا الحقيقة اختفت عن المخلوق فلن تختفى عن الخالق».

فقالت: نعم.

فقالت جمالات: سامحينى أنا التى قتلت دارين، فعندما صعدت دارين للدور العلوى كانت ترتعد من السخونة والحمى وفتحت علىّ الباب فتعاركنا وبحكم أنها مريضة لم تقدر أن تقاومنى فانتهزت أن عمليتها لم تلتئم بعد فضغطتها على يد الباب، فانفجرت العملية وارتمت على الأرض

وعندما تأكدت من وفاتها نزلت إلى الصغير محمد واحتضنته وكأن شيئًا لم يكن، ومرت السنون، وها أنا ألقى جزاء فعلتى، ولقد انتقم الله منى أشد الانتقام، فقدت زوجى وفقدت أولادى جميعهم، وفقدت شبابى وصحتى، أما الآن فأرجوك سامحينى يا خالة.

فقالت لها أم دارين: حسبى الله ونعم الوكيل،... هذا جزاء الدنيا وأدعو الله أن يأخذ منك جزاء الآخرة وينتقم منك.

وبقيت جمالات عند أهلها، وتوفى والدها وبقى لها أخوها وطلب وكالة على أموالها بحكم أنه الوصى عليها، فأعطته الوكالة وعندما استلم كل شىء منها بدده على اللهو والملذات والملاهى، ولم يهتم بأخته جمالات، وهاجر خارج المدينة، وبقيت هى رهينة الصدقات والحسنات عند أبناء الحلال حتى توفاها الله فى غرفتها وحيدة، فلم يُكتشف موتها إلا بخروج رائحة النتن من جثتها وتعفنها من غرفتها، وبهذا ينال الظالم جزاءه فى الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأبقى.

* * *

فهل من معتبر[١]

اقترض السيد «...» من الحاج إبراهيم مبلغًا من المال على أن يرده إليه في نهاية العام المقبل...وسجَّل المبلغ في دفاتر الحسابات، وأبدى السيد «...» شكره وامتنانه وأصر على كتابة كمبيالة، ولكن الحاج إبراهيم الرجل الصالح قال له: لا شكر على واجب وبيني وبينك الله فهو نعم الوكيل ونعم الشهيد، وبعد سنة تقريبًا مات الحاج إبراهيم بالسكتة القلبية...وترك زوجة وأربعة أطفال أكبرهم في الثالثة عشرة من عمره، وراجعت الزوجة دفاتر زوجها المتوفى وسجلاته التجارية فعرفت ما لزوجها من ديون على الناس، فبعثت إلى السيد «...» تطالبه بما لزوجها عليه من دَين، ولكن السيد «..» أنكر أنه مدين بشيء لزوجها، وزعم أنه دفع ما كان عليه من دين لزوجها..وتسامع الناس بما حدث وانقسم الناس إلى قسمين: قسم يؤيد ورثة الحاج إبراهيم ويذكرون أنه كان رجلًا صالحًا يقرض النقود حسبة لله بدون مستند أو كمبيالة وقسم يؤيد السيد «..» بأنه ليس من المعقول أن يدفع الحاج إبراهيم مبلغًا من النقود للسيد «..» بدون مستند أو كمبيالة، والتجأت زوج الحاج إبراهيم إلى بعض أهل الخير ليحملوا السيد «...» على تبدل موقفه والاعتراف وسداد ما أخذ، ولكنه أعرض وأصر وتمادى واستكبر كأنه صخرة عاتية، فقامت الزوجة بعرض شكواها على المحاكم... وجاء يوم المحاكمة، وحضر المتهم إلى ساحة المحكمة ... يقول الحاكم في القضية «كنت في قرارة نفسي مقتنعًا بأن السيد «...» مدين

---

(١) عدالة السماء، محمود شيت خطاب بتصرف واختصار.

للحاج إبراهيم بهذا المبلغ، ولكن لم يكن هناك دليل مادى غير تسجيل هذا المبلغ بخط الحاج إبراهيم فى سجل ديوان ديونه على الناس، وهذا الدليل وحده لا يكفى لإثبات التهمة، وأفاد السيد «...» بأنه أعاد المبلغ إلى صاحبه بعد سنة، وشهد أحد الرجال بأنه سمع السيد «...» يثنى على الحاج إبراهيم ويذكر أنه انتشله من الفقر والحرمان بإقراضه بعض المال حسبة لله.

ويقول الحاكم: كانت القضية كلها كريشة فى مهب الريح، فحاولت أن أَجُرَّ المتهم إلى الاعتراف بالدَّين لكنه كان يفلت من الاستجواب...إن المحاكم فى مثل هذه القضية تطبق المبدأ القضائى البِّينة على من ادعى، واليمين على من أنكر.. وقلت للمتهم: هل تُقسم بالقرآن الكريم بأنك لست مدينًا للحاج إبراهيم ولا بغيره، وإنك دفعت ما كان له عليك من دين؟.

وقال المتهم: أُقسم... ثم أقسم.. ونطقت بالحكم: البراءة.

وخرج المتهم مرفوع الرأس شامخًا من المحكمة وكان قوى البنية صحيح البدن سليمًا معافى فى ريعان الشباب، وما كاد يغادر المحكمة إلا وسمعت ضجة فأسرعت لأتبين الأمر، فإذا السيد «...» قد سقط على الأرض ميتًا على عتبة المحكمة وهتف الناس من حوله: لقد مات.. لقد مات..يقول راوى القصة كانت زوجة الحاج إبراهيم تسكن قريبًا من دارى، واشتقتِ أن أسمع الخبر منها، فكان مما قالته، «كان المرحوم الحاج إبراهيم بارًّا بجيرانه خاصة، وبالناس عامة، وكان يقرض المحتاجين ويكتفى بتسجيل قرضه فى سجل خاص، وكنت ألومه على ذلك فيقول:

المال مال الله وقد كنت فقيرًا فأغنانى الله ...وشهدت محاكمة السيد «...» وحكم القاضى بالبراءة، فلما أقسم اليمين اقشعر بدنى، فقد كنت مؤمنة بأنه كاذب وأنه اجترأ على كتاب الله تعالى وقلت أخاطب الله: اللهم إنك تعلم السر وأخفى وإنك علام الغيوب اللهم إن كان السيد «...» كاذبًا فى قسمه ويمينه فاجعله عبرة للناس يا قوى يا جبار.

وخرج المتهم من المحكمة وأنا أنظر إليه ولكنه سقط ميتًا على عتبة المحكمة لقد نجا السيد «..» من حكم الأرض ولكنه لم ينج من حاكم الأرض والسماوات.

وفى ليلة من ليالى الشتاء حيث كان الناس يأوون إلى مضاجعهم وفى ساعة متأخرة من الليل كان جرس دار الحاج إبراهيم يرن قويًا، وكان على الباب امرأة متحشمة بالسواد يرافقها طفل فى السادسة من عمره...وفتحت زوجة الحاج إبراهيم الباب لترى من الطارق فوجدت زوجة السيد «...» ومعها ولدها الوحيد.

وقالت زوج السيد «...» للسيدة زوج الحاج إبراهيم: «لقد أنكر زوجى بأنه مدين للحاج إبراهيم وكنت أعرف بأنه كاذب ورجوته أن يسدد ما عليه من دين وألححت عليه ولكنه مضى فى غيه.. لقد دفع زوجى ثمن كذبه غاليًا، وهذا هو المبلغ الذى كان مدينًا به لزوجك،... وألقت إليها بالمبلغ وانصرفت».

وكانت القصة عبرة وعظة، فهل من معتبر؟!!.

* * *

إن ربك لبالمرصاد [1]

باع بقرته التى لا يمتلك سواها بثلاثة آلاف ليرة وقبض الثمن ووضعه فى كيس ثم دسَّه فى وسطه .... وتوجَّه إلى منزله وعليه علامات الحزن والحسرة وعلمت زوجته ببيع البقرة التى يمتلكونها فأخذت تُعزِّيه عن فقدها وتُمنيه بأن الله سيعوض عليهم بأحسن منها ... وجاء الليل وآوى الناس إلى منازلهم من شدة البرد.

وجلس الرجل (أبو حسن) وزوجته فى غرفتها المتواضعه، وبينما كانت أم حسن تعلل طفلها بالرضاع الكاذب لتحمله على الفطام إذا بطرقات خفيفة على باب الدار.

وفتح أبو حسن الباب فإذا برجل يرتجف من شدة البرد والمطر يقول: غريب ألجأنى البرد إلى قريتكم ولا أعرف بها أحدًا، وأنا فى طريقى إلى حِمْص، فقال: أبو حسن: ماذا نستطيع أن نقدم لك ونحن أسرة فقيرة وبيتنا ضيق لا يساعدنا على استقبال الضيوف... فقال الغريب: أرجوكم البرد شديد اسمحوا لى فقط بالمبيت عندكم حتى الصباح ولا أريد أن أكلفكم أية نفقة، فقال أبو حسن: ليس لدينا سوى هذه الغرفة أنام بها أنا وزوجتى وطفلنا الصغير، فاعذرنا لعدم وجود مكان لك، فقال الغريب: أنام فى هذه الزاوية وتنامون أنتم فى الجانب الآخر ويمكنكم أن تضعوا بيننا حاجزًا وأجركم على الله... رقَّ قلب أم حسن لهذا الغريب وقالت: يعيننا الله يا أبا حسن ولعله يرد عنا المصائب بحسنة هذا الضيف الغريب ... ورحَّبا

(١) بتصرف واختصار من «قصص هادفة من واقع الحياة» لمحمود درويش.

بالضيف ثم قام كُلٌّ إلى فراشه بعد أن أعدوا للضيف ما وجدوا لديهم من غطاء وفراش، وما لبث أبو حسن وزوجته أن غَطُّوا فى نومهم فقد أجهدهم التعب والسهر.

كان الغريب يراقب أهل الدار حتى تيقين أنهما استغرقا فى نومهم وإلى جانبهم طفلهم الرضيع، فقام الغريب من فراشه على أطراف أصابعه وراح يتحسس موضع الطفل فحمله وخرج به من الغرفة ووضعه بعيدًا فى فناء الدار وعاد إلى فراشه وتظاهر بالنوم وأحسَّ الطفل بلسع البرد فراح يبكى فاستيقظت أم حسن على بكائه وتحسست فراش الطفل فلم تجده فيه فأيقظت زوجها وقالت له لقد حبا الطفل إلى فناء الدار قُم بنا نُعيده إلى فراشه قبل أن يضره البرد، فقاما حتى وصلا إلى الطفل وانحنت عليه أمه وضمَّته إلى صدرها وهى تقول: لهفى عليك يا ولدى ما الذى أخرجك من فراشك فى هذا البرد الشديد، وما كان أبو حسن وزوجته يتجهان بطفلهما نحو الغرفة حتى خَرَّ السقف وانهدمت الدار فوقفا واجمين وسمع الجيران فرقعة الخشب وسقوط السقف فجاءوا ليسهموا بالإنقاذ، فقال أبو حسن: يا ناس عندنا ضيف فى داخل الدار يجب أن ننقذه قبل كل شىء، ودخل أبو حسن بصحبة بعض الجيران وسعوا إلى موضع الضيف فلم يجدوه، فأخذوا يرفعون الأنقاض حتى وصلوا إلى سرير أبي حسن وإذا بالضيف ميتًا تحت الأنقاض وبيده كيس النقود وقد أخرجه من تحت الوسادة التى ينام عليها صاحب الدار، كان هذا اللص قد حضر السوق ورأى أبا حسن وهو يبيع البقرة ويضع ثمنها فى الكيس فقرر سرقة الثمن ورسم الخطة لاختلاس المال وتبع أثر صاحب البقرة من بعيد حتى رآه يدخل الدار،

فلما أذنوا له بالمبيت حمل الطفل ليلًا إلى خارج الدار وتركه يبكى ليخرج أهله، وعندها يتسنى له أخذ الكيس الذى فيه ثمن البقرة، وقد رأى أبا حسن يدسه تحت الوسادة،... كان اللص يضع الخطة وكان الله له بالمرصاد، فما كاد ينفذ خطته حتى تأذَّن الله أن يتعجل بالعقاب لهذا الماكر الشرير منكر الجميل، وأن ينقذ الطفل وأهله من سوء المصير.

فلقد سقط السقف على اللص فقضى نحبه تحت الأنقاض فلئن غفل الإنسان لا تغفل يد الله ... وانصرف الناس وهم يقولون: هذا مثل الجزاء السريع للذنب الفظيع .... وحقًّا إن فى ذلك لعبرة لمن كان له قلب.

* * *

أعانه على الشر فجنى ثماره المريرة(١)

كان يعيش مع زوجته عيشة شجار دائم وكان يعامل زوجته بقسوة، فقد كان قاسى القلب حاد الطبع، وكانت زوجته تعانى من شدته ومعاملته القاسية لها وفى يوم من الأيام وكالعادة نشب شجار بين الزوجين، فعمد الزوج القاسى إلى عصا غليظة فضرب بها زوجته ومن شدة الضرب ماتت الزوجة من دون أن يقصد الزوج قتلها بل كان غرضه تأديبها، فلما رآها ماتت خاف واحتار، ماذا يصنع وأخذ يفكر فى كيفية الخلاص من هذه الورطة، ولم يجد حيلة للخلاص، فخرج من منزله متوجهًا إلى أحد أقاربه وقص عليه القصة عَلَّه يجد عنده حلًا لهذه الورطة.

فقال له قريبه: اسمع يجب أن تبحث عن شاب جميل الصورة وتدعوه إلى منزلك للضيافة، ثم اقتله واقطع رأسه وضع جسده بجانب جثة زوجتك وقل لأهلها إنك وجدت هذا الشاب مع زوجتك فلم تتحمل فعلهما السيئ فقتلتهما معًا وتكون بذلك قد خلصت نفسك من هذه الورطة وظهرت لهم بصورة الرجل الشريف.

وحين سمع الزوج كلام قريبه أحس براحة وأسرع إلى منزله لينفذ الحيلة وجلس على باب منزله علّه يعثر على مبتغاه، وبعد مدة أقبل شاب جميل الصورة وسيم، تبدو عليه النعمة، فقفز الزوج قائمًا مستقبلًا الشاب مُرحبًا به، والشاب مستغرب لما يحدث، ولكن الزوج أصر على الشاب بأن يدخل معه المنزل كى يضيفه وجرَّه إلى داخل المنزل وأغلق الباب

(١) قصص واقعية من واقع الحياة، سيد عبد الله الرفاعي ج ٤.

والشاب المسكين فى ذهول ودهشة، أسرع الزوج وفعل فعلته الشنعاء وقتل الشاب المذهول ثم قطع رأسه وألصق جسده بجسد زوجته ولما جاء أهل الزوجة وشاهدوا الجثتين وقص عليهم الزوج القصة المختلقة فذهبوا وهم يلعنون ويشتمون ابنتهم على فعلتها القبيحة، وهدأت نفس الزوج وأحس أنه قد أنقذ نفسه من موت محقق وأخذ يدعو لقريبه الذى دله على هذه الحيلة الماكرة.

وبينما الزوج جالس فى منزله فرحان مسرورًا إلى ما آلت له الأمور سمع طرقات على الباب، ولما فتح الباب فإذا بقريبه فاحتضنه الزوج وأخذ يُقبله ويشكره وأدخله المنزل كى يقوم بالواجب نحوه، فقال له قريبه: هل نجحت الخطة؟ فقال له الزوج: لقد نجحت نجاحًا باهرًا وانطلت الحيلة عليهم، وكل هذا من حسن تفكيرك وسلامة تدبيرك.

فقال له قريبه: وهل وجدت بغيتك؟

قال الزوج: أجل... لقد وجدت الشاب الجميل بهى الصورة.

فقال له قريبه: أرنى ذلك الشاب الجميل الذى قتلته... فلما رآه شهق شهقة وسقط مغمى عليه، لقد كان هذا الشاب الجميل القتيل ولده...

والجزاء من جنس العمل[1].

* * *

(١) جريدة الرأى العام بتصرف.

حينما تُنزع الرحمة من قلوب العباد [1]

استيقظت عبير على أصوات العصافير فوق أغصان الشجر والتفتت من حولها فوجدت أخواتها من أبيها مُمدات على سريرهن بملابس النوم الزاهية سابحات بأحلام سعيدة وكل واحدة منهن تزهو وجنتاها بالحُمرة، وهى البنت الوحيدة التى ليس لها سوى أبيها صالح هو لها مكان الأم والأب يحنو عليها وهى أحب إلى قلبه من بين بناته وكانت زوجة أبيها تغار منها، ومن أجل غيرتها كانت متسلطة على عبير فلم تتم لعبير الحياة السعيدة كما تمنى لها والدها ...

لقد توفيت والدة عبير وهى بالسابعة من عمرها إثر حادث سيارة أليم ولم ينجُ من الحادث إلا عبير وأبوها، وعاشت عبير مع أبيها وكان هو كل شىء بحياتها ويهتم بها ويحبها حبًّا شديدًا ولكونها فقدت والدتها لا يوجد أحد لها سواه بهذه الدنيا فهو دائم التفكير بها ... وبعد سنة من الحادث تزوج من فتاة اسمها سعاد، وفى صباح زواجهما صار يوصى زوجته سعاد لتهتم بعبير ويوصيها بها لما يراه منها من عدم اعتناء بابنته أمامه، ولاحظت سعاد أن حبه لابنته عبير ليس له مثيل، وحاولت أن توهمه وأن تجعله يقتنع بأنها تحبها وتعتبرها مثل ابنتيها وبهذا اطمأن لها لأن كل أعمالها معه ومع ابنته تدل على الطيبة والإخلاص، وانتهى الشهر الأول وعبير مسرورة بزوجة أبيها وكلما أتى أبوها من العمل تتلقاه عبير وهى تضحك مبسوطة وتقول له كما توصيها سعاد، ومرت شهور أيضًا وسعاد تحاول أن تغرس

---

(١) عقد اللالئ والعبر، لمريم الفوزان.

بقلب صالح حبها وإخلاصها إلى أن تبين أنها حامل وأعلمت صالح بهذه المفاجأة السعيدة وفرح صالح على أن يكون له طفل تلهو معه عبير وتنسى أخويها اللذين توفيا بالحادث مع والدتها والتى هى دائمة السؤال عنهم وعن والدتها، وأصبحت سعاد متمكنة من قلب زوجها بإظهار الطيبة وخبر حملها، وعندما أتت عبير كالعادة تتدلل على زوجة أبيها وتنام على حجرها وتقول لها يا ماما أنا تعبانة ورأسى يؤلمنى، فنهرتها سعاد وقالت لها: ابتعدى أنا لست أمك، فجفلت عبير من سعاد ولم تعهد هذا منها فماذا حدث ونظرت إلى زوجة أبيها وكأنها تسألها بعيونها ولكنها لم تتكلم فضربتها على وجهها وقالت لها: لا تنظرى لى هكذا، ولا تشخصى بعيونك مرة أخرى، هيا اذهبى وائتى لى بماء للشرب، فذهبت عبير إلى المطبخ وهى تبكى بكاء المحروم وهى تسأل نفسها ماذا جرى لماما سعاد وتأخرت عبير بالمطبخ سارحة بما جرى ولكنها ظنت أن زوجة أبيها بها ضيق أو هناك شىء يغضبها فدخلت عليها سعاد وهى واقفة أمام الثلاجة وصرخت بها هيا استعجلى بالماء أيتها الجبانة، ورمتها بالكلام الوقح وعبير تنظر باستغراب من ذلك، وعندما أعطتها الماء نهرتها سعاد وأمرتها وقالت لها: اسمعى أيتها اللئيمة سوف أنزع دلالك هذا وأعلمك كيف تصبحين خادمة لدى، هيا نظفى المطبخ، فوقفت عبير محتارة كيف ستنظفه وهى لا تعرف أن تعمل فى البيت أبدًا وبعمرها هذا لم تُمسك آلة التنظيف، فنظفته على قدر معرفتها، وجاءت لكى تجلس فنهرتها زوجة أبيها مرة أخرى وقالت لها: لا تجلسى عندى هيا اذهبى ونظفى الحمام فبكت وقالت: أنا لا أعرف وإن أمى لم تعلمنى: وأنا الآن صغيرة ووالدى

لا يرضى أن أعمل وأنا بالعمر هذا، فضربتها على رأسها وقالت لها:

اذهبى وإلا حبستك به، فذهبت عبير ودموعها تنحدر على ثيابها مثل المطر الغزير وتقول: أمى أمى أين أنت، وظلت واجمة بالحمام لا تعرف كيف تغسله وتأخرت وهى تغسل فيه وعندما أتتها سعاد رفستها بقدمها وقالت لها: أريد أن أغسله أمامك لكى تتعلمى ووقفت عبير تنظر إليها وهى تبكى فالتفتت إليها سعاد وقالت: ألا تَكُفِّين عن البكاء وإذا أتى والدك وأنت تبكين، سوف ألهبك بالكبريت، فخافت عبير وكفكفت دمعها من الخوف وذهبت وجلست بغرفتها ونامت على سريرها وهى تبكى وعندما جاء والدها سأل عنها فقالت له سعاد: إنها نامت بعد أن طالعت دروسها وتناولت العشاء، فقال لها: هل استحمَّت، إن غدًا السبت، فقالت: نعم وارتدت قميصها وتدفأت ونامت، فلم يذهب إليها ويتفقدها لأنه مطمئن لسعاد بأنها كأمها ومرَّت الشهور وهو لم يلاحظ شيئًا ولا يرى ابنته إلا قليلًا، ولحكم عمله يخرج فى الصباح ولا يأتى إلا بساعة متأخرة من الليل.

وفى ذات يوم جاء إنذار من مدرسة عبير يخبرون والدها بأنها متأخرة بالدراسة وكثيرة الغياب، وإهمالها بهندامها وجاء الإنذار إلى عنوان مكتبه وعندما قرأه استغرب كثيرًا ولم يصدق ما به فقرأه مرة أخرى، ثم قام فزعًا مذعورًا إلى البيت ودخل دون أن تشعر به سعاد، وذهب إلى غرفة ابنته عبير وفتحها فلم يجدها فخرج من الغرفة فوجد سعاد أمامه فجفلت من دخوله وجحوظ عينيه فقال لها: أين عبير، فقالت له: إنها بالمدرسة، فقال إن طفلتى بحالة سيئة وأنا لا أدرى، فقالت له كيف هذا فأعطاها الإنذار وقرأته وهى مذعورة، وأثناء ما هم على هذا الحال دخلت عبير وهى تبكى

فلم تعرف أن والدها هنا ولم تره أيضًا، وقالت لخالتها إن بالحمام حشرة وأنا أخاف أن أدخله فقامت سعاد وضمَّتها إلى صدرها وهى تصطنع الحنان وتقول: لا تخافى يا حبيبتى أنا أدخل معك، وأخذتها وعندما دخلت معها ضغطت على كتفها وهى تقول: اسمعى أيتها الغبية إذا قلت لأبيك أنك كنت تنظفين الحمام سوف أسجنك به وأكويك، سمعتى، فخافت عبير من التهديد ثم أمرتها سعاد وقالت لها: هيا اغسلى وجهك واذهبى إلى غرفتك واستبدلى ثوبك، فذهبت عبير وهى كابتة عَبرتها فى صدرها وهى تجرى، فصرخ أبوها وهو ينادى يا سعاد ما الأمر، إن عبير هنا ولم تذهب إلى المدرسة فأتت سعاد وهى تضحك وتقول: وهل خربت الدنيا، ماذا يعنى، فقال: أجل الإنذار صحيح، فقالت: لا ليس بصحيح: إن ابنتنا لم تغب إلا يومين وجعلوها قصة بدون قصة، فقال: ادعيها لى لكى أراها، وأعرف ما بها، لِمَ لم تذهب للمدرسة...

فذهبت سعاد لغرفتها ودعتها وضغطت على كتفيها تحذرها وعندما حضرت عبير عند أبيها سألها فانفجرت بالبكاء فربتت عليها سعاد وقالت له لماذا أخفت البنت يا رجل، اذهبى يا حبيبتى إلى غرفتك فانصاعت عبير إلى أوامر سعاد، وذهبت لغرفتها فلم يستطع والدها أن يحدثها، وصدق مكر سعاد وكيدها فنبَّه على سعاد وقال لها: أرجو ألا يتكرر هذا مرة أخرى وحرَّضها على أن تهتم بالبنت وذهب لعمله، ومرت الشهور وعبير والحمد لله علاماتها فى المدرسة جيدة مع عمل البيت وواجبات المدرسة، وسعاد مستغربة من تفوقها وتقدمها، ودائمًا تسأل نفسها، كيف تكون بهذا الذكاء وهى بهذا العمر، ولكن سوف أجعلها تكره نفسها...

وكانت سعاد تغار من عبير لأن أبا عبير يحبها وقد قال لسعاد أنها تشبه أمها، ومن هنا حقدت عليها، وفى أثناء ذلك كانت سعاد بأشهرها الأخيرة من الحمل، وكانت دائمًا تترك على هذه الصغيرة أعمال البيت ولكن عبير أصبحت أكبر من عمرها بهذه الشهور، وأنجبت سعاد ابنة أسمتها داليا، وفرح بها صالح، وقال بنفسه لقد أتى من يؤنس وحدة عبير ومرت شهور والصغيرة تكبر وعبير متمنية أن تراها ولكن سعاد لا تُخرجها من غرفة نومها أبدًا، ولاحظ صالح هذا الشىء وتعمد يومًا بأن يحملها ويدخلها غرفة عبير، فصرخت سعاد وقالت له: لا ... لا تُدخلها إن عبير تقول أنا لا أحبها لأنها سوف تأخذ مكانى فى قلب أبى، وأنا أخاف على ابنتى منها، فالتفت صالح إلى سعاد وهو يقول: لا بالله، خذى ابنتك إن حب عبير مالك قلبى وصار ينادى عبير عبير فلم تسمع نداء أبيها، فذهب يبحث عنها فوجدها فى المطبخ أمام الحوض وأما قنطار من الأوانى تغسلها، فلم يتكلم بل تصلَّب بمكانه وذُهل من هول ما رأى، وصار يصرخ سعاد هَلُمّى يا ظالمة ... فعندما أتت سعاد لطمها على وجهها، وقال ألا يوجد بك ذرة حياء، لا رأفة ولا رحمة حتى توقفى هذه الطفلة على الحوض لتغسل لك أوانيك، يا ظالمة ثياب البنت كلها ماء، هيا انزلى من على الكرسى يا حبيبتى، وحملها بين ذراعيه وذهب بها إلى غرفتها وبدَّل ثيابها ووضعها بسريرها وغطاها وذهب إلى سعاد وقال لها: منذ متى يا مجرمة وأنت تستخدمى هذه الطفلة، لو أنها ابنتك لما رضيت بأن تغسل لك وأنت مرتاحة، فبكت أمامه لتستعطفه عليها، ولكنه رجل ذكى لا يهمه دموع التماسيح، وركلها بقدمه وقال: سأطلقك إن جعلتها تخدمك مرة ثانية،

فلاحقته سعاد فى الكلام وقالت: هذا من مصلحتها، فصرخ بها إنها صغيرة ولا تتحمل ظلمك يا ظالمة، وعندما تصبح بالثانية عشرة من عمرها دعيها تساعدك، أما الآن فأمريها بأشياء بسيطة مثلًا تلتقط الورق، أو أى شىء خفيف ... وتركها وذهب إلى عبير وضمَّها إلى صدره وهو يبكى ويقول: لو أنها أمك لما رضيت لك هذا، فرفعت عبير رأسها وهى خائفة وقالت لأبيها: لماذا فعلت هكذا يا أبى، إن ذهبت سوف تضربنى وتحرقنى بالكبريت وتحبسنى بالحمام، أرجوك يا أبى لا تذهب وأعلمها يا أبى بأن لا تجعلنى أنظف الحمام، أنا أخاف من الحشرات، فقال لها هى تعمل هكذا، فقالت عبير: أجل يا أبى، فَجُنَّ جنونه وترك عبير بسريرها وذهب لسعاد فوجدها نائمة، فركلها بقدمه وقال هيا انهضى أيتها المجرمة، أين حنانك وتمثيلك أول زواجنا، لماذا تفعلين بعبير هكذا وأنا أظنك أمًّا ثانية لها؟ لماذا تأمريها أن تغسل الحمام وتهدديها بالنار والحبس، هيا اذهبى إلى أهلك، اخرجى من بيتى، هيا اخرجى ولا أريد أن أرى وجهك، واتصل بأبيها وقال له: تعالَ خذ ابنتك، فلم يأتِ والدها فأخذها هو بسيارته ووضعها عند باب أهلها وتركها ورجع لابنته عبير، وأيقظها من نومها وقال لها: هيا انهضى يا حبيبتى وتعالِ عندى بالصالة فخرجت عبير من الغرفة وهى خائفة من سعاد فتبسم لها أبوها وقال لها: لا تخافى يا نور عيونى، إنها ذهبت إلى غير رجعة، فتبسمت عبير وفرحت وقالت لأبيها: أبى لا تأتِ بها إنها تضربنى، فتألم من كلام ابنته عبير وعرف أن سعاد كانت تقسو عليها من مدة وعرف أن الإنذار صحيح.

ومرت شهور وصالح لا يسأل عن سعاد وعبير مبسوطة مع أبيها تذهب

إلى المدرسة صباحًا وفى المساء تذهب معه إلى المؤسسة واستمر الحال كما هو عليه، وذات مساء سمعت عبير جرس تليفون المؤسسة يرن فردَّ عليه والدها وبعد ساعة من الزمن حضر والد سعاد، فانزعجت عبير من رؤيته وخرجت من الغرفة التى هو فيها، فلاحظ ذلك والدها، لحقها وقال لها: ما بك يا حبيبتى فقالت: هذا والد سعاد فقال ماذا يعنى فقالت أخاف أنها ستأتى فانتفض أبوها وحملها بين ذراعيه وذهب بها إلى أبى سعاد، وقال: انظر كيف حال البنت خائفة حتى منك، فقال وماذا عملت بها فقال: لا شىء ولكن خائفة بأنك ستأتى بسعاد، فاقترب أبو سعاد من عبير ومسح على رأسها وقال لها: لا تخافى يا طفلتى سوف أؤنب سعاد وأجعلها تندم على فعلتها هذه، هيا اذهبى والعبى وذهبت عبير لتشاهد التليفزيون وبقى والدها مع والد سعاد وتباحثا بالأمر وشرح له أبو عبير أفعال ابنته وقال: هذه يتيمة ويجب أن تعطف عليها بدل أن تعاملها هكذا، فتعهد أبو سعاد أن يصلح من حالها وأنها لن تأتى بطباعها الأولى ورجعت سعاد لزوجها صالح، وسارت الأمور صافية وسعاد تدفن حقدها ولا تظهر إلا كل مودة وحب، وصالح على حذر من سعاد دائمًا يتفقد ابنته ولا يعتمد على زوجته بشىء يخص عبيرًا.

ومرت ثلاث سنين وأنجبت سعاد خلالها ثلاث بنات وأصبح عمر عبير أحد عشر عامًا وصارت بالصف الخامس الابتدائى وأصبحت بنتًا جميلة وأبوها دائمًا يفضلها على أخواتها بكل شىء وهذا شىء لا يخفى على سعاد أنه يحب بناته جميعهن ولكن يرحم ابنته عبير لأنها يتيمة الأم، وذات يوم وهو عائد إلى البيت انتابه دوران فى رأسه وأُغمى عليه داخل

السيارة، ولاحظ ذلك أحد زملائه وكان مارًّا من جانبه فأسرع إليه وحاول إخراجه من السيارة، وحمد الله أنه لم يُدر السيارة بعد، ونقله إلى سيارته ثم نقله إلى المستشفى وبعد الاعتناء الطبى استرد صالح وعيه وأعلمه الطبيب أن حالته تريد عناية لأجل الجلطة التى فى الصدر وضغطه مرتفع وطبعًا ذلك من أثر زعل حصل بينه وبين سعاد والنقاش من أجل عبير لأن سعاد تحاول أن تتحكم بها وترجع إلى سيرتها الأولى فى التعامل معها وفى استعبادها، ولكن صالح واقف لها بالمرصاد وتحدث المشاكل من أجل ذلك، وكانت عبير المسكينة دائمًا منزوية بغرفتها ولا تخرج منها إلا عندما يأتى والدها، ودخل أبوها المستشفى وحتم عليه المرض أن يرقد على السرير ويخضع للفحص.

وبهذا أتيح لسعاد الفرصة لكى تُبدى سلطتها على عبير وعندما سمعت عبير بدخول والدها المستشفى أحست بالضياع، ودخلت غرفتها وصارت تبكى بكاءً مُرًّا وعندما رأتها سعاد لحقتها إلى غرفتها ودفعت الباب بقوة فجفلت عبير من ذلك وهجمت عليها سعاد وانهالت عليها ضربًا بدون ذنب اقترفته، وتركتها بغرفتها تبكى وأغلقت الباب عليها وذهبت وبعد مدة وجيزة اتصلت سعاد بأخيها وقالت له: أريدك أن توصلنى إلى المستشفى لأزور صالحًا فأتى أخوها وعندما وصلت إلى صالح وجدته مُتْعَبًا فصارت تصب دموع التماسيح فوق قلب صالح وشكرها على حنانها ورأفتها وسألها عن بناتها وسألها عن عبير، وقال: أين هى فقالت: إنها بخير، وإنها عند بيت أهلى مع بناتى وعدم مجيئها للمستشفى لحكم سنها، فنظر إليها أخوها واستغرب من نفاقها ولكنه كتم استغرابه ولم يُبد شيئًا.

فقال صالح لزوجته: أرجوك يا سعاد أن تحافظى على عبير، إنها يتيمة وليس لها إلا أنت، وأنا بالمستشفى فقالت: لا يكن بالك مشغولًا عليها هى بعيونى انتبه إلى نفسك وإلى صحتك، نحن نريدك والبنات ما لهم أحد غيرك وودعته هى وأخوها ورجعا إلى البيت وأثناء ما هم بالطريق سألها أخوها،أين عبير، فقالت: بالبيت، فقال لها: كيف تتركيها بالبيت وحدها وفى هذا الوقت حول الغروب إنها صغيرة وتخاف وحدها؟ فقالت له: أنت ليس لك دخل، هيا لنأتى بالبنات الصغار من عند أمى ونرجع لبيتنا، فقال لها: أرجوك أن تهتمى بهذه اليتيمة كما وصاك أبوها إنها أمانة فى عنقك، وإذا حفظت الأمانة سوف تنالين ثواب الله الذى هو أحسن ثواب فى الدنيا وعند وصولهما إلى البيت دخل أخوها البيت وسمع صوت عبير تبكى، فذهب إليها بغرفتها فوجدها مغلقة فطرق الباب ... وردَّت عليه عبير وقال لها: افتحى، فقالت ماما سعاد أغلقت الباب علىَّ، فصرخ بأخته وقال لها: أعطنى المفتاح، أنا لم أعهدك ظالمة هكذا، وأعطته المفتاح وفتح للصغيرة وطيَّب خاطرها وقال لأخته إذا لم ترحمى هذه الصغيرة سوف أذهب إلى أبيها وأخبره عن أعمالك التى لا ترضى الله ولا عباده!!

فخافت سعاد من التهديد ووعدته فذهب أخوها وهو يوصيها أن تنتبه لنفسها وترحم هذه الطفلة، قال سوف آتى كل يوم أتفقدها ومضى شهر وصالح راقد بالمستشفى وسعاد تكتفى بعض الأيام بأن تسأل عنه بالهاتف متحججة بالصغار وكأن إحساسه يُعلمه أن ابنته فى عذاب، لأنه دائم السؤال عنها، وطاف شهر آخر وصالح بالمستشفى وعبير تحت سيطرة زوجة أبيها المتسلطة لدرجة أنها بدأت فى حرمانها من الطعام، وإن أعطتها طعامًا فيكون غير طازج، وصارت سعاد تكلف عبيرًا بكل أعمال البيت، وفى أحد

الأيام قالت سعاد لعبير هيا اصنعى لى شايًا، فقالت عبير: إننى لا أعرف كيف أشعل البوتجاز، فقالت لها هيا اذهبى وإلَّا، فذهبت عبير من الخوف إلى المطبخ وحاولت عبير فتح مفتاح البوتجاز وتسرب الغاز بالمطبخ وعندما أشعلت عبير الكبريت اشتعل المطبخ وهى فيه، فصارت تصرخ فلم تسمعها سعاد وحاولت عبير الخروج والنار عالقة بثيابها، وفى هذه اللحظة حضر أخو سعاد فذهبت سعاد لتفتح له وسمع الصياح فى ملحق البيت ومن المطبخ، ورأى اللهب يتصاعد من البيت فجرى نحوه هو وسعاد وهى مفجوعة من ذلك الصوت، وعندما وصلا وجدا عبير تصرخ والنار ملتهبة بثيابها، فركض طارق «أخو سعاد» داخل البيت وحمل بطانية وأتى بها ولفَّها فيها وقال لأخته: اتصلى برجال الإطفاء وأعطهم عنوان البيت، وحمل طارق البنت وأراد أن يذهب بها إلى المستشفى، فصادفه أحد الجيران أتى على الصوت فأعطاه عبير وقال له: أرجوك اذهب بها إلى المستشفى، وذهب بها الرجل وطارق عاد لأخته وبناتها وأخرجهم من البيت وعند وصول سيارة الإطفاء قامت باللازم وبعد أن اطمئن على أخته ذهب إلى الإسعاف ليرى ما جرى لعبير فوجدها بالعناية المركزة، فسأل عن الطبيب المشرف عليها وعندما وجده سأله عن صحتها، فقال الطبيب: إن شاء الله ستكون بخير، ولكن الجروح عميقة ببطنها وخدِّها الأيسر، والآن هى نائمة لأننا أعطيناها مهدئًا، والذى نفع عبير بأن النار لم تلتهم ملابسها القطنية ... الحمد لله على السلامة وإن شاء الله نرجو خيرًا فغدًا تعالَ لتراها، هل أنت أخوها قال: لا ... وسكت قليلًا وقال ابنة زوج أختى، وودَّع طارق الطبيب بعد أن أوصاه كثيرًا عليها ورجع إلى أخته وبرأسه كلام كثير يريد أن يقوله لها، ودخل بيتها وهو غاضب ووجهه متغير

فخافت سعاد من هيئته تلك وسألته مباشرة هل عبير بخير، وقال لها: الحمد لله أن قدر الله ولطف ولكن هى بين الحياة والموت وأرجو أن تشرحى لى كيف حدث ذلك، فقالت سعاد: إن عبير تحب أن تلعب بالكبريت وهى شقية وأذت نفسها بعبثها فقال طارق مصدقًا كلامها: الأطفال يريدون انتباهًا كثيرًا وليس قليلًا، الله يهديك يا أختى لماذا لم تهتمى بهذه البنت ووالدها مستأمنك عليها فقالت له: قدر الله ومكتوب، فصمت قليلًا وأخرج الورقة وقرأها وفجأة صرخ بأخته وهو يقول يا ظالمة إن التقرير يقول: هذا بسبب تسرب الغاز من المفتاح، أتتركين مفتاح البوتجاز مفتوحًا دون انتباه، واحترقت هذه الطفلة البريئة فكانت إحدى أخواته جالسة مع أختها سعاد فقالت: لا يا أخى إن أختى أمرت عبير بذلك وقالت لعبير هيا اذهبى واعملى لى شايًا، فقالت عبير: لا أعرف أن أشعل البوتجاز فضربتها أختى وقالت لها: هيا اذهبى وتعلَّمى وحدث بعبير ما حدث، فنظر طارق إلى أخته سعاد ولم يشعر إلا وهو يضربها ويصرخ أنت مجرمة مجرمة لو أنا مكان صالح لطلقتك وبعد وهلة استرد وعيه وذهب من عندها وخرج إلى المستشفى ليتفقد عبير وبعد سؤاله عنها وجدها نائمة، وأخذ رقم الهاتف بالعناية المركزة ليسأل عنها وعندما ذهب إلى بيت أهله قابله والده وهو غاضب وقال له: لماذا تأخرت يا بنى إلى هذه الساعة؟ إن السهر ليس من عادتك ووالدتك قلقة عليك، فسرد طارق على والده القصة فتأثر أبوه من ذلك وذهب إلى ابنته سعاد وهو متحامل عليها غاضبًا.

وعندما وصل وسأل عنها قالت له بناتها إنها بالصالة تبكى وعندما رآها صارت تشكو له من طارق وما عمله فيها، فقال لها أبوها هيا اخرجى وإلا

أشبعتك أنا ضربًا أيضًا، كيف ترضين لطفلة أن تدخل المطبخ وتعمل لك شايًا يا ظالمة، الآن ماذا تقولى لوالدها، فقالت: أرجوك يا والدى لا تُعلم والدها إلا بعد أن تشفى تمامًا فقال لها والدها والله إن طارق فعل الذى أريد أن أفعله وإلا لكنت رأيت شيئًا أعظم مما فعل، هيا انهضى وائتى أنت وبناتك معى، فنهضت سعاد وهى تشعر بالخطأ الذى ارتكبته ولكن بعدما فات الأوان.

وفى الصباح الباكر ذهب طارق إلى المستشفى ليتفقد عبير وعندما وصل حاول الدخول لغرفة العناية المركزة فوجد السرير فارغًا فذهب ليبحث عن الطبيب فى حيرة، وعندما وجده سأله فقال له الطبيب: الحروق التى فى البطن كانت عميقة كما تعلم يا أخى فساءت حالتها ومهما كان فالقدر أقوى منى ومنك ولكونها صغيرة لم تتحمل أعضاؤها فتوفيت، وعندما سمع طارق هَزَّ رأسه وجلس على الأرض حزينًا يبكى على هذه الطفلة البريئة ... ورجع إلى البيت مسرعًا وهو لا يرى الطريق أمامه وأعلم والده بالأمر لكى يتصرف مع والد عبير ولكنه هو أيضًا أصابته الدهشة وحزن ولم يخبر سعاد لأنها كانت فى حزن شديد على عبير وقد حاسبت نفسها على فعلتها وظلت تستغفر ربها وتبكى.

ومرت الأيام وسعاد لا تأكل ولا تشرب ودائمًا تسأل عن عبير، ولم تستطع أن تذهب لتراها لأنها مؤنبة نفسها على فعلتها، وسمعت سعاد رنين الهاتف فرفع طارق سماعة الهاتف وإذا بأبى عبير يحادثه فاعتذر طارق عن الاستمرار فى المحادثة بعد أن سلم على أبى عبير وقال: سوف أنادى لك أبى، وترك السماعة من يده كأنه ما صدق، وولى هاربًا إلى غرفة جلوس

أبيه وقال له: يا أبى هذا عم صالح على سماعة الهاتف فقام الوالد من مكانه وهو لا يعرف ماذا يقول وطلب من الله أن يهون المسألة عليه وعندما كلمه سلم عليه وسأل صالح عن أسباب عدم مجىء سعاد وعدم مجيئهم جميعًا، فقال له إن سعاد عندنا بشأن عبير، فقال: ماذا بها عبير؟ فقال: والد طارق أنها مُتعبَة قليلًا وعندها نزلة برد، فقال له: أرجوك أعطنى إياها لأتحدث معها، فقال له إنها بالمستشفى مع سعاد للمراجعة ويجوز أن ترقد لمدة قصيرة فلم يصدق وانشغل باله على ابنته ورجع إلى طبيبه وطلب منه أن يأذن له لمدة قصيرة ليذهب ويطمئن على ابنته ولكن الطبيب لم يأذن له لظروفه الصحية فلم يهتم صالح لكلام طبيبه وخرج عندما حان وقت الزيارة، وذهب إلى المستشفى التى ذكرها والد سعاد، وسأل عن المريضة عبير فلم يجد اسمًا بهذا الاسم فقال فى نفسه يجوز أنها لم تدخل المستشفى، ورجع إلى بيت أهل سعاد وطرق الباب وفتح له الوالد، وفوجئ به ورحب به وهو يقول: لماذا خرجت؟ هل كتب لك الطبيب خروجًا أم ماذا؟ فقال له صالح: إن بالى انشغل على ابنتى عبير، أين هى فلم يعرف والد سعاد ماذا يقول له، وردَّ عليه بصوت مخنوق استرح استرح، حتى تأتى سعاد بابنتك عبير، فاطمئن صالح من كلامه وجلس وذهب والد طارق وأتى بالقهوة وعندما جلس قال: أتصدق يا صالح أننى كنت أفكر بك لأستشيرك بشىء لأنك لم تعطنى وقتًا على الهاتف لأكلمك بصراحة، هذا الأمر بشأن مؤسستى، يوجد واحد من أصدقائى عزيز علىَّ فأودعت عنده أمانة، وعندما أتيت أطلبها منه رفض أن يعطينى إياها، وحاولت معه ولكنه رفض وحاول ضربى وشتمنى، فقال صالح: هذا لئيم،

اشْكُه يا عمى واطلب يمينه إذا لم تأخذ عليه إيصالاً، فقال والد سعاد: يا ولدى هذا الذى فاتنى لم آخذ منه شيئًا، فقال صالح أقم عليه دعوة واطلبه لليمين فقال: أيردها لى، فقال صالح: يا عمى إن كان رجلًا به خوف من الله فإنه يخاف من اليمين ويعطيك أمانتك، وإن كان لا يخاف الله فإنه يحلف ويأخذها، فقال والد طارق: ولو أنت مكانه وعندك أمانة لإنسان وجاءك وطلبها منك هل تعطيه إياها؟ فقال له: نعم يا عمى بالتأكيد، فقال الرجل: أجل يا ولدى عبير ابنتك أمانة عندك والله أخذ أمانته منك، والآن جئت بالوقت المناسب لنقوم جميعًا بدفنها، وقال له: كن رجلًا صالحًا واعرف أن الله حق وكُلنا إليه ذاهبون وانتبه لنفسك، ولا يؤثر عليك الشيطان، إنك رجل مريض وكل شىء يؤثر عليك، فصمت صالح قليلًا ثم تعوَّذ من الشيطان، وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، كيف حصل هذا قال: إن الأطفال أشقياء، وهى تعبث بالكبريت اشتعلت النار بثيابها، وكانت فى الملحق واشتعل المطبخ كله، وهذا عمرها، ولكن الأسباب تتعدد والموت واحد يا بنى والأعمار بيد الله سبحانه ...

فخرج صالح من المجلس وهو فى ذهول من هول الفجيعة، ولحقه طارق وأوصله إلى المستشفى وعندما وصل لغرفته وجد أطباء المستشفى يبحثون عنه فعندما رآه الطبيب أسرع بإسعافه وهو يقول له: ألم أنهك عن الخروج فحدث طارق الطبيب وشرح له الأمر وأعطاه الطبيب حقنة مهدئة ونام صالح نومًا هادئًا عميقًا وهو مستسلم ومؤمن بالقدر والمكتوب وبعد أن أفاق ذهب ودفن ابنته وهو حزين، وصورتها لم تذهب من أمام عينيه وقال هذه الخاطرة التى خطرت على باله وهى عبارة عن كلمات رثى بها

ابنته العزيزة:

لمـــاذا رحلـــت وتركتينـــى ولـــم تـــودعينى
لم يسمح لك الموت يا صغيرتى أن تُقبلينى

إن عينـــى بكـــت علـــى فراقـــك لا تعجبـــى
يـــا سـلوتى بعـــد فـــراق الأهـــل والأقـــربين

مـا هـو عزائى بعـد فراقـك يـا حلـوة الحلـوين
لمـاذا ذهبـت يـا مهجتـى يـا زهـرة الريـاحين

هــل سأسـلى بعـدك أم أكـن مـن الـضائعين
أم أبـــق ســـائحًا حتـــى ألتقـــى بـــالمحبين

أأحـــسد القبـــر الـــذى ضـــمَّك ضـــم الحـــنين
أم أحـسد الأرض التـى أنـت عليهـا مـن النـائمين

يـــا مهجتـــى مـــا ســـلواى بكـــل حيـــن
القـــرآن والتـــسبيح دعـــواى لـــرب العـــالمين

حيـــاتى لا تـــسوى بـــدونك ذرة تـــراب
الحلـــو فيهـــا بعـــدك مـــرٌّ لمـــاذا تـــذهبين

يـــا دار بمـــن تزهـــى بعـــد حـــور العيـــن
يـا دار لا تنـسى خطاهـا وفرقيهـا بيـن الماشـين

يـــا دار أصـــبحت غبـــراء بعـــد عبيـــر الطيـــبين
يا دار احفظى ذكراها وإن بعتك يا دار لا تطيعينى

ومضى صالح شهرًا فى المستشفى وهو حزين على ابنته ولكن سلواه الوحيدة هو ذكر الله سبحانه وإيمانه القوى بأن الموت حق ... وخرج من المستشفى إلى بيت أهل زوجته وطلب مقابلة زوجته سعاد ليصطحبها معه إلى البيت ولكنها أبت بأن تذهب معه وسأل أخاها عن السبب فقال: إنها مريضة ودائمة الصمت، فذهب إلى بيته وحيدًا دون زوجته وبناته، وبعد يومين عاود الكَرَّة وسأل عنها فى بيت أبيها وطلب مكالمتها، وذهب والدها لها فى غرفتها وأعلمها بسؤال زوجها عنها ولكنها لم ترد ولا أى كلمة وبقيت صامتة وبلَّغ والدها زوجها فتعجب من ذلك وكان هو أيضًا يحب الصمت وجلوسه بغرفة عبير ودائمًا ينظر إلى صورتها وبعد أسبوع من ذلك ذهب إلى بيت أبى سعاد وطلب من أبيها بأن يدخل عليها بغرفتها وعندما دخل عليها وجدها قد تغيرت كُليًّا فسألها فلم ترد عليه ولا تتكلم مع أحد، فالتفت صالح إلى أبيها وقال له ما بها؟ فقال له: من يوم وفاة عبير وهى على سجادتها ولا تتكلم مع أحد ودائمة الذكر لله والاستغفار وتلاوة القرآن الكريم حتى بناتها لم تهتم بهن، إن والدتها وأخواتها هن اللاتى يهتممن بهن، فأطرق صالح رأسه وصمت قليلًا وقرب منها وواساها بكلمات طيبة ووعظها بها ولكنها دمعت عيناها ولم ترد عليه بكلمة واحدة ... إلا أنها نطقت بالشهادة ثم توفيت وانحنى عليها أبوها وتفحصها، وعرف الجميع أنها توفيت فغطاها، وطلب من صالح أن يسامحها.

* * *

قصة مؤثرة

* وهذه قصة واقعية من أيامنا هذه، ترسلها زوجة إلى جريدة الأهرام، ونشرها محرر «بريد الجمعة» الأستاذ عبد الوهاب مطاوع فى مقاله تحت عنوان «الضوء الأخير!».

تقول صاحبة القصة: دفعنى للكتابة إليك بيتا الشعر اللذان قرأتهما فى ردك على إحدى الرسائل ويقولان:

إنما الدنيا هبات ... وعوار مُستردَّه

شدة بعد رخاء ... ورخاء بعد شده

فأردت أن أروى لك قصتى عسى أن تكون عبرة لغيرى. فأنا زوجة وأم لفتاة بالسنة النهائية بإحدى الكليات النظرية ولابن شاب متزوج ولديه طفلان، وزوجى ضابط عسكرى بالمعاش، ونعيش فى أحد أحياء القاهرة، ومنذ أن بدأت حياتى مع زوجى ونحن نعيش حياة رغدة، وقد استعنت طوال حياتى الزوجية على تربية أولادى بمربيات عديدة، لا أتذكر عددهن من كثرتهن، ولا عجب فى ذلك، فقد كانت كل واحدة منهن لا تمكث عندى أكثر من شهرين، ثم تفر من قسوة زوجى العدوانى بطبعه، والذى لا أعرف هل اكتسب عدوانيته هذه خلال رحلة حياته أم إنها وراثية فيه، فقد كان يتفننُ فى تعذيب أى مربية تعمل عندنا، ولا أنكر أنى شاركته فى بعض الأحيان جريمته.

ومنذ خمسة عشر عامًا، وابنتى فى السابعة من عمرها، وابنى فى المرحلة الإعدادية جاءنا مزارع من معارف زوجى، ومن أبناء بلدته، يصطحب معه ابنته الطفلة ذات الأعوام التسعة، فاستقبله زوجى بكبرياء وتَرفُّع.

وقال المزارع البسيط: إنه أتى بابنته لتعمل عندنا مقابل عشرين جنيهًا فى الشهر ووافقنا، وترك المزارع المكافح طفلته الشقراء، فانخرطت الطفلة فى البكاء، وهى تمسك بجلباب أبيها، وتستحلفه ألا يتأخر عن زيارتها، وألا ينسى أن يسلم لها على أمها وإخوتها، وانصرف الرجل دامع العينين، وهو يعدها بما طلبت. وبدأت الطفلة حياتها الجديدة معنا، فكانت تستيقظ فى الصباح الباكر قبل أن يستيقظ طفلاى لتساعدنى فى إعداد طعام الإفطار لهما، ثم تحمل الحقائب المدرسية، وتنزل بها إلى الشارع، وتظل واقفة مع ابنتى وابنى حتى يحملهما أتوبيس المدرسة، وتعود للشقة فتتناول طعام إفطارها وكان غالبًا من الفول بدون زيت، وخبز على وشك التعفن، وفى بعض الأحيان قد نجود عليها بقليل من العسل الأسود أو الجبن، ثم تبدأ فى ممارسة أعمال البيت من تنظيف وشراء الخضروات والمسح، وتلبية النداءات حتى منتصف الليل، فتسقط على الأرض كالقتيلة وتستغرق فى النوم. وعند أى هفوة أو نسيان أو تأجيل أداء عمل مطلوب ينهال عليها زوجى ضربًا بقسوة شديدة، فتتحمل الضرب باكية صابرة، ورغم ذلك فقد كانت طفلة فى منتهى الأمانة والنظافة والإخلاص لمخدوميها، تفرح بأبسط الأشياء، وتغنى غناءً حزينًا خافتًا يعبر عن شوقها لبلدتها وأمها وإخوتها وهى تغسل الأطباق، ورغم اعترافى بأنى كنت شريكة لزوجى فى قسوته على الخادمات، وتفننه فى تعذيبهن، حتى أنه كان أحيانًا يختلق الأسباب لضرب أى خادمة تعمل عندنا، إلا أنه كانت تأخذنى الشفقة فى بعض الأحيان بهذه الفتاة، لطيبتها، وانكسارها وإخلاصها، فأناشد زوجى ألا يضربها، وأقول له: إنها قد كبرت وتعوّدت على طباعنا، وتحمّلتنا كثيرًا فلا

داعى للاستمرار فى ضربها، فكان يقول لى مقهقهًا: إنه لو لم يضربها فإنها ستطلب منه أن يضربها؛ لأنها قد تعوّدت عليه، وأن هذا الصنف من الناس لا تجدى معه المعاملة الطيبة، واستمرت الفتاة تتحمل العذاب فى صمت وصبر، وأتذكر الآن بأننى حين كان العيد يأتى ويخرج طفلاى مبتهجين مهللين، بينما تبقى هذه الطفلة التى تماثلهما فى العمر تنظف وتغسل دون شفقة، وبعد أن تنتهى من أعمالها الشاقة ترتدى فستانًا قديمًا لكنه نظيف، لأنها كانت تحرص على نظافة ملابسها البسيطة، أما أبوها فلم تره تلك الطفلة إلا مرات معدودة بعد عملها عندنا، فقد انقطع عن زيارتها بعد شهور، وبدأ يرسل أحد أقاربه لاستلام أجرتها الشهرية، كما لم تر أمها وإخوتها إلا فى ثلاث مناسبات محددة، الأولى حين مات شقيقها الأكبر فى حادث عند عودته من الأردن، وكانت الفتاة المحرومة تُعلق أملًا كبيرًا على عودته، وتحلم بأن ينتشلها من العذاب الذى تعانيه عندنا، فإذا به يلقى مصرعه، وتفقد آخر أمل لها فبكته بحرقة وسرًّا حتى لا يراها زوجى، فتلقى عقابًا علىٍ يديه.

والمرة الثانية لم تكن تعطفًا منا عليها، وإنما كانت تخلصًا منها فى الحقيقة فقد كانت مريضة بمرضٍ مُعدٍ، وخشينا على طفلينا من انتقال العدوى إليهما، فأبعدناها إلى بلدتها بحجة أن ترى أمها وإخوتها.

وكانت المرة الثالثة عند وفاة أبيها بعد أن دخلت مرحلة الصبا، واستقر الحزن والانكسار فى قلبها.

وأرجو أن تصدقنى يا سيدى، إذ ليس لدىّ ما يبرر أن أدعى شيئًا غير صادق، وأنا كتبت لك بإرادتى، إذا قلت إنى أبكى الآن كلما تذكرت قسوة

عقابنا لها إذا أخطأت أى خطأ، وكان لا بد أن تخطئ، كأى طفلة، وكأى إنسان، فقد كان زوجى يصعقها بسلك الكهرباء! وكثيرًا ما حرمناها من وجبة العشاء فى ليالى البرد القاسية، فباتت على الطوى جائعة. ولا أتذكر أنها نامت ليلة لمدة سنوات طويلة دون أن تبكى!

وسوف تتساءل ولماذا تحملت كل هذا العذاب ولم تهرب بجلدها من جحيمكم؟ وأجيبك بأن الفتاة حين قاربت سن الشباب خرجت ذات يوم لشراء الخضروات ولم تعد، فسأل زوجى البواب عنها، وعرف إنها كانت تتحدث لفترات طويلة مع شاب يعمل لدى جزّار بنفس الشارع، وأنه من المحتمل أن تكون قد اتفقت معه على أن يتزوجها وينتشلها من هذه الحياة، فلم يمض أسبوع حتى كان نفوذ زوجى قد تكفل بإحضارها من مخبئها، واستقبلناها عند عودتها استقبالًا حافلًا بكل أنواع العذاب، فقام زوجى بصعقها بالكهرباء، وتطوّع ابنى بركلها بعنف، بينما بكت ابنتى وهى تقول لأبيها: حرام يا بابا حرام.. حرام.. ففقد سيطرته على نفسه واستدار إليها وضربها هى أيضًا، وكانت المرة الأولى فى حياتها التى يضربها فيها أبوها!

وعادت الفتاة لحياتها الشقية معنا، واستسلمت لمصيرها، واستمر الوضع كما كان عليه، تخطئ أو تؤجل عمل شىء بعض الوقت، فيضربها زوجى ضربًا مبرحًا، ونخرج فى الأجازات إلى منطقة الأهرامات لنستمتع بشىء من اللحم، ونترك لها بقايا طعام الأسبوع لتأكله.. إلخ ثم. شيئًا فشيئًا بدأنا نلاحظ عليها أن الأكواب والأطباق تسقط من يديها، وأنها تتعثر كثيرًا فى مشيتها، فعرضناها على الطبيب فأكّد لنا أن نظرها قد ضعف جدًا، وأنه

ينسحب تدريجيًا، وأنها لا ترى حاليًا ما تحت قدميها، أى أنها أصبحت شبه كفيفة، ورغم ذلك فلم نرحمها، وظلت تقوم بكل أعمال نظافة المسكن، وتخرج لشراء الخضر كما كانت تفعل، بل وكثيرًا ما صفعتها إذا عادت من السوق بخضروات ليست طازجة وكثيرًا ما كانت تفعل لضعف بصرها الشديد، فأشفقت عليها زوجة البواب، فكانت تُجلسها فى مدخل العمارة وتذهب هى لشراء الخضروات لها، حتى تنقذها من الإهانة والضرب، واستمر الحال هكذا لفترة من الزمن، ثم خرجت الفتاة ذات يوم من البيت بعد أن أصبحت كفيفة تقريبًا، ولم تعد إليه مرة أخرى، ولم نهتم بالبحث عنها هذه المرة.

ومضت السنوات فأحيل زوجى للتقاعد، واستقبل حياة الفراغ ـ وفقد المنصب والنفوذ ـ أسوأ استقبال فتضاعفت عصبيته وثوراته، وانفلاتاته إلى حد غير محتمل، ومع ذلك فقد تحملته بسبب عشرة السنين.

وتخرَّج ابنى فى الجامعة وعمل، ثم أراد أن يخطب إحدى زميلاته، فخطبناها له، وهى فتاة رائعة الجمال، وتزوجها وسعدنا بها واكتملت سعادتنا حين عرفنا أنها حامل، ثم جاءت اللحظة السعيدة، ووضعت مولودها فإذا بنا نكتشف لصدمتنا القاسية أنه كفيف لا يبصر، وتحوّلت الفرحة إلى سحابة كثيفة من الحزن القاتم، وبدأنا الرحلة الطويلة مع الأطباء بلا فائدة، واستسلم ابنى وزوجته للأمر الواقع، وانطفأ الأمل فى قلبيهما، وأدخلنا حفيدنا الموعود بالعناء حضانة للمكفوفين، وقررت زوجة ابنى ألا تحمل مرة أخرى خوفًا من تكرار الكارثة، لكن الأطباء طمأنوها إلى أن هذا مستحيل؛ لأنه لا توجد صلة قرابة بينها وبين زوجها

تؤكد العوامل الوراثية، وشجعوها على الحمل وإنجاب طفل آخر يعيد البسمة إلى حياتها وزوجها، وشجعناها نحن أيضًا على ذلك على أمل أن يُرزق ابننا بطفل طبيعي يخفف من حزنه وصدمته فى طفله الأول. وحملت زوجة ابنى، وأنجبت طفلة جميلة شقراء نزلت إلى الحياة، فتوقفت قلوبنا حتى زفّ الطبيب البُشرى بأنها ترى وتبصر، كالأطفال العاديين، وسعدنا بها سعادة مضاعفة، وانهالت عليها وعلى شقيقها اللعب والملابس والهدايا، وبعد سبعة شهور، لاحظنا عليها أن نظرها مُركَّز فى اتجاه واحد لا تحيد عنه، فعرضناها على أخصائى عيون للاطمئنان على سلامة عينيها، فإذا به يصدمنا بحقيقة أشد هولًا، وهى أنها لا ترى إلا مجرد بصيص من الضوء، وأنها معرضة أيضًا لفقد بصرها، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ورأى زوجى ذلك، فأصيب بحالة نفسية فسدت معها أيامه، وكره كل شىء، ثم تطورت حالته حتى نصحنا الطبيب بإدخاله مصحة نفسية لعلاجه من الاكتئاب، وانقبض قلبى، وأحسست بهموم الدنيا تطأ صدرى بقسوة، وفى ضيقى وأحزانى تذكرت فجأة الفتاة الكسيرة التى هربت من جحيمنا كفيفة بعد أن أمضت معنا عشر سنوات ذاقت خلالها أهوال الصعق بالكهرباء والضرب والهوان والحرمان، وساءلت نفسى فى جزع هل هذا عقاب السماء لنا على ما فعلنا بها؟

وأصبحت صورة هذه الفتاة اليتيمة التى أهملنا علاجها وتسببنا فى كف بصرها تطاردنى فى وحدتى،... وتعلَّق أملى فى عفو ربى عما جنينا فى أن أجد هذه الفتاة، وأكفر عما فعلنا بها، ورحت أسأل الجميع حتى دلنا أحد الجيران إلى مكانها، وعلمنا أنها تعمل خادمة بأحد المساجد، فذهبت إليها

وأحضرتها لتعيش معى ما بقى لى من أيامى، ورغم كل قسوة الذكريات فقد فرحت بسؤالى عنها وسعيى إليها لإعادتها، وحفظت العشرة التى لم نحفظها، وعادت معى تتحسس الطريق وأنا أمسك بيدها. وفرحت بسماع صوت ابنتى الشابة التى طالما أحبتها هذه الفتاة الطيبة فى طفولتها وصباها، وبسماع صوت ابنى الذى عرف الهمّ طريقه إلى قلبه، واستقرت الفتاة معنا، وأصبحت أرعاها بل وأخدمها هى وحفيدىّ الكفيفين.. وأملى ودعائى لربى أن يغفر لى ما كان، وأن أقول لمن نضبت الرحمة من قلوبهم: إن الله حىّ لا ينام، فلا تقسوا على أحد فسوف يجىء يوم تطلبون فيه الرحمة من أرحم الراحمين،وتندمون على ما فعلتم فى قوتكم وجبروتكم.

هذه هى قصتى يا سيدى التى دفعنى بيتا الشعر اللذان قرأتهما فى ردك لأن أرويها لك، وأرجو أن يقرأها الجميع ويعتبروا بما فيها والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته[1].

ثم رد المحرر عبد الوهاب مطاوع على هذه معلقًا:

وهكذا كان الجزاء دائمًا من جنس العمل، ومع ذلك فما أكثر الخطايا والآثام، وما أقل الاعتبار.

* * *

(١) جريدة الأهرام - بريد الجمعة الصفحة ١٦ تاريخ ١٥/ ١/ ١٩٩١م.

الانتقام الرهيب

قبل ثلاثة أعوام، وُجدت طفلة في الرابعة من عمرها، غارقة في مستودع المياه القذرة لدار من دور محلة (الصليخ) في بغداد.

رُوِّعت بغداد لهذه المأساة، وأصبحت حديث المجالس، ونشرت الصحف والمجلات تفصيلاتها.

كانت الطفلة جميلة جدًّا، بيضاء البشرة ذات شعر أصفر اللون جعد، كأنها صورة من صور فينوس.

كانت أمها معلمة في مدرسة ابتدائية، وكان أبوها مديرًا لإحدى الإعداديات، ولم يكن في الدار غير خادمة عمرها اثنتى عشرة سنة، تلاعبها حين تكون أمها بعيدة عن الدار في المدرسة.. أو في السوق.

وكانت الطفلة وحيدة أبويها، وكانت سلوتهما في هذه الدنيا فهي التي تملأ الدار بِشرًا ومرحًا.

وعادت الأم من مدرستها ظهرًا، فلم تستقبلها طفلتها المدللة بالصخب المعتاد، فدلفت إلى صحن الدار مسرعة، فوجدت الخادمة في المطبخ تنظف المواعين، فسألتها عن طفلتها، فزعمت أنها كانت معها قبل لحظات...!!

ودخلت الأم غرف الدار، وفتشت مسالكها، فلم تجد أثرًا لطفلتها، فخرجت إلى الشارع فاقدة الوعى تسأل الجيران والغادين والرائحين من الناس دون جدوى.

وجاء أبوها، فلم يترك محلًا يشتبه بوجودها فيه إلا وطرقه مستغيثًا مستنجدًا دون جدوى أيضًا.

واتصل الوالدان بالشرطة ورجال الأمن، فقلبوا بغداد رأسًا على عقب دون أن يجدوا للطفلة أثرًا.

ومضت الساعات، وتعاقبت الأيام، والطفلة مجهولة المكان والمصير.

وهطلت الأمطار غزيرة، وتدفقت المياه من سطوح المنزل وشرفاته، ففاض مستودع المياه القذرة.

وفتح عامل التنظيف غطاء المستودع، فوجد الطفلة البريئة طافية فوق سطح الماء.

وأسرع رجال الأمن إلى المنزل، وبدأوا التحقيق مجددًا.

كان غطاء المستودع ثقيلًا بدرجة لا تقوى الطفلة على رفعه، فأشارت أصابع الاتهام إلى الخادمة.

ولكن لماذا أقدمت الخادمة على فعلتها الشنيعة؟

قال والد الطفلة: إن الخادمة كأنها ابنته يرعاها كما يرعى الطفلة سواءً بسواء.

وقالت أم الطفلة: إن الخادمة أمينة مستقيمة السيرة ولم تجد عليها ما يمسّ سيرتها من قريب أو بعيد.

وقال الجيران: إن العائلة كانت ترعى الخادمة رعاية مثالية، تتناول الطعام مع العائلة يدًا بيد، وترتدى الثياب نفسها التى كانت ترتديها الطفلة وتنام فى الغرفة التى تأوى إليها الأم والطفلة.

وكانت الأم تحرص على أن تجلس معها الخادمة عندما تزور أو تُزار.

وقال الوالدان: إنهما لا يَشُكَّان فى الخادمة ولا يمكن أن تَقْدُم على إغراق الطفلة عمدًا وعن سبق إصرار!!

لم يكتفِ رجال الأمن بما سمعوا، وأصروا على التعمق فى التحقيق.

وسأل أحدهم الخادمة: لماذا أغرقتِ الطفلة؟ فانفجرت الخادمة باكية منتحبة، وأصرت على الإنكار؟.

وكان الوالدان يحميان الخادمة ويصران على براءتها.

وطالب رجال الأمن أن يستصحبوا الخادمة إلى مقر الشرطة، ليدققوا فى التحقيق.

وامتنعت الخادمة ولاذت بأم الطفلة تتمسك بأهداب ثيابها، فَرَجَتْ الأم أن يتركوا الخادمة وشأنها، لأنها لا تشك بنفسها ولا تشك بالخادمة مطلقًا.

وأيد الأب رجاء الأم وقال: أنه يتنازل عن حقه الشخصى.

ولكن رجال الأمن أصروا على استصحاب الخادمة إلى مقرهم وقالوا: إنكم إن تنازلتم عن حقكم الشخصى، فإن الحق العام لا يمكن التنازل عنه.

وابتدأ الرد والبدل بين رجال الأمن من جهة، وبين الأبوين من جهة أخرى، وأخيرًا اضطر رجال الأمن إلى خطف الخادمة خطفًا وهى تصرخ بأعلى صوتها وتنوح.

وفى مقر رجال الأمن، اعترفت الخادمة بأن أباها قد أمرها بإغراق الطفلة فى مستودع المياه القذرة.

وأنكر أبو الخادمة أقوال ابنته، وزعم أنها اعترفت خوفًا من الضغط والتعذيب، وأنها صغيرة لا تُقدر خطورة أقوالها.

وبذل رجال الأمن محاولات كثيرة، واستعملوا كل أساليبهم فى التحقيق دون أن يتزحزح أبو الخادمة عن إنكاره.

وعند عرض القضية على المحاكم، حُكم على الخادمة بالسجن خمس سنوات تقضيها فى سجن الأطفال غير البالغين، حيث تُقَوَّم أخلاقها وتتعلم حرفة من الحرف.

وصدر الحكم ببراءة والدها، فغادر التوقيف بعد قضاء شهرين فيه.

وفى السجن اعترفت الخادمة بكل شىء.

لقد قبض والدها مائة دينار من شابين شقيقين فُصِلا من الإعدادية لأنهما مهملان فى الدروس وغير مستقيمى السيرة.

وكان السبب فى فصلهما من المدرسة والد الطفلة الغريقة، الذى هو مدير تلك المدرسة ... لقد أراد والد الطفلة أن يطبق النظام نصًّا وروحًا، وكان يشعر شعورًا كاملًا بمسؤوليته أمام رجال التربية والتعليم، وأمام أمته ووطنه، وعقيدته، وكان يشعر قبل كل ذلك وفوق كل ذلك بمسؤوليته أمام الله سبحانه وتعالى، لهذا أصر على فصل الشقيقين غير ملتفت إلى رجاء الراجين والتماس الملتمسين.

وحين يئس الطالبان من عودتهما إلى المدرسة أغريا والد الخادمة بالمال وأمراه أن يحرق قلب أبى الطفلة كما حرق قلبيهما.

وكان أبو الخادمة فَرَّاشًا فى المدرسة نفسها، وكانا يعرفان أن ابنته تعمل فى دار المدير، وهى قادرة على القضاء على حياة ابنة المدير، وأن قتلها يحرق قلب المدير أكثر مما يحرقه شىء آخر.

ولكن المحاكم قضت ببراءة الخادمة، والمحاكم تحكم استنادًا إلى أقوال الشهود واعتراف المتهم.

وفى تلك القضية بالذات، لم يكن شهود، والمتهم لا يعترف بجريمته،

وكيف يعترف وهو يعرف أن الاعتراف يقوده إلى المشنقة؟

قال القضاء الأرضى كلمته، فلم يبق غير عدل الله - وانتقامه من الظلمة - وخرج أبو الخادمة من السجن يستنشق عبير الحرية، وفى أمله أن يتمتع بالمال الحرام...

فما الذى حدث؟

أقيم حفل عائلى فرحًا بخروج والد الخادمة من السجن، استمر حتى الهزيع الأخير من الليل.

وبددت العائلة فى الحفل شطرًا من المال طعامًا وشرابًا.

وفى صباح اليوم التالى، سقط والد الخادمة مريضًا لا يقوى على الحركة.

ولجأت الأسرة إلى الأطباء يدفعون أجرة العيادة، كانت الهمسات تصادفه فى كل مكان، وكان كل من يراه يشير إليه بأنه قاتل الطفلة، وأنه لا يستحق العطف والحنان.

وفى المستشفى فحصه الطبيب المختص وأعطاه الدواء اللازم، وكان من ضمن الدواء إبرة بنسلين.

وأعطته الممرضة الإبرة، فغادر المستشفى مع زوجه إلى الدار.

وفى الطريق شعر بخدر فى جسمه، وبارتباك فى نبضات قلبه، ثم صرخ فجأة: الطفلة ... الطفلة ...

وسألته زوجه: أين الطفلة؟

وقال الرجل: ألا ترينها؟ إنها تشد بكلتا يديها كلتيهما على عنقى.

ومال رأسه على كتف زوجه رويدًا رويدًا واحتقنت عيناه وخَفَتَ صوته الذى كان يردد: الطفلة ... الطفلة...

وطالت مدة مرض الرجل، حتى امتدت إلى أربعة أشهر، كانت كافية لتبديد المال الحرام، فاضطرت العائلة إلى الاقتراض، وقصد والد الخادمة المستشفى الحكومى الذى يعالج بالمجان، لأنه بدَّد ماله ولم يعد قادرًا على استدعاء الأطباء.

كان يشكو مرض السكر، والضغط العالى، والتدرن الرئوى، ثم أصيب بالزكام الحاد إضافة إلى كل هذه الأمراض.

وارتفعت حرارته، وانهارت قواه، وكان كما يبدو فى المستشفى شبحًا من الأشباح.

وفى المستشفى انتقل من طبيب إلى طبيب، ومن ممرضة إلى ممرضة، محمولًا على النقالة.

وكان كل مريض يلقى عطفًا خاصًّا من الناس ولكن هذا الرجل يلقى التشفِّى والاشمئزاز ثم فارق الحياة...

الخادمة لا تزال فى السجن الإصلاحى لتقضى فيه عامين آخرين.

ووالدها استقر فى القبر مصحوبًا باللعنات...

وأمها فى الدار حائرة بإعالة طفل وثلاث بنات...

وبناتها الثلاث فى سن الزواج، ولا أحد يتقدَّم لخطبتهن.

لقد علل أبو الخادمة نفسه بنعمة المال الحرام، ولكن الله كان له ولأمثاله بالمرصاد.

نسأل الله العافية والسلامة(١) .

* * *

(١) عدالة السماء - بتصرف.

وحان وقت القصاص

عن محمد بن أحمد بن إسحاق بن البهلول التنوخى، قال: حدثنى صاحب الربع، بباب الشام [١]، وأسماه لى، وقال:

كنت أعمل فى أصحاب الشُّرَط، مع أبى الحسن الأبزاعجى، صاحب الشرطة ببغداد [٢]، فأخرج لصوصًا من الحبس، واستأذن مُعز الدولة فى صلبهم، وقَتْلِهم عند الجسر، فأذن فى صلبهم عشيًّا، وكانوا عشرين رجلًا، ووكل بهم جماعة كنت فيهم، والرئيس علينا فلان.

وقال: كونوا عند خشبهم بقية يومكم وليلتكم، حتى إذا كان من غد، ضربت أعناقهم هنا.

وقضينا الليل نومًا، فثقل رئيسنا من نومه، وجماعتنا فاحتال بعض اللصوص، فى أن قطع الحبل، ونزل من الخشبة، فما انتبهنا إلا بصوت وقعه، وعَدْوِه.

فعدا رئيسنا خلفه، وأنا معه، فما لحقناه.

وخفنا أن يتشوش الرحالة الباقون، فيفلت إنسان آخر، فرجعنا مُسرعين، وجلسنا مغمومين، مفكرين ماذا نعمل.

فقال رئيسنا: إنَّ الأبزاعجى لا يقبل لى عثرة، ولا يقبل منى عذرًا، وقد يظن أننى قد أخذت من أحد اللصوص مالًا وأفلته، فيضربنى، إلى أن أتلف، فما الرأى؟

---

(١) باب الشام: محلة بالجانب الغربى من بغداد (معجم البلدان ١/ ٤٤٥)..

(٢) فى السنة ٣٤٥ قلد معز الدولة الأبزاعجى شرطة واسط (تجارب الأمم ٢/ ١٦٢) وقد لُقِّب بذلك لأنه كان يخدم قائدًا تركيًّا يسمى أبزاعج.

فقلت: تهرب.

قال: فمن أين أعيش؟

فقلت: هذا نصف الليل، ولم يعلم بما جرى أحد، فقم حتى نطوف، فلا يخلو أن يقع بأيدينا مشؤوم، قد حانت منيته، فنوثقه، ونصلبه، ونقول له: سلّمت إلينا عشرين رجلًا، فإنه ما أثبت أوصافهم.

فقال: هذا صواب.

فقمنا نطوف، وسلكنا طريق الجسر، لنعبر [إلى] الجانب الغربى، فرأينا فى أسفل كرسى الجسر رجلًا يبول، فعدلنا إليه، فقبضنا عليه.

فصاح: يا قوم ما لكم؟ أنا رجل ملَّاح، صعدت من سميريتى أبول، وهذه سميريتى - وأومأ إليها - أى شىء بينى وبينكم؟

فضربناه، وقلنا: أنت اللص الذى هرب من الخشبة، وأخذناه، ورقيناه إلى الخشبة، وصلبناه مكان اللص الهارب، وهو يصيح طول الليل، ويبكى.

فتقطعت قلوبنا رحمة له، وقلنا: مظلوم، ولكن ما الحيلة؟

فلما كان من الغد، ركب الأبزاعجى إلى الحبس، وجاء وقد اجتمع الناس، ليضرب أعناق القوم.

فصاح به الملاح: أيها الأستاذ - وكذا كان يخاطب، وهو رسم لكل من يتقلد رئاسة الشرطة ببغداد - بوقوفك بين يدى الله، ادعنى، واسمع منى كلامى، فلست من اللصوص الذين أخرجتهم، وأمرت بصلبهم، وأنا مظلوم، وقد وقعت بى حيلة.

فأنزله، وقال: ما قصتك؟

فشرح له حديثه على حقيقته.

فدعا بنا، وقال: ما هذا الرجل؟

فقلنا: ما نعرف ما يقول ... سلَّمت إلينا عشرين رجلًا، وهؤلاء عشرون رجلًا.

فقال: قد أخذتم من أحد اللصوص دراهم، وأطلقتموه، واعترضتم هذا من الطريق، رجلًا غريبًا، بريئًا، فأخذتموه.

فقلنا: ما فعلنا هذا، اللص الذى سلمته إلينا، هو هذا.

فضرب أعناق الجماعة، وترك الملاح، وقال: أَحضروا السَّجَّانين، والبوابين.

فجاءوا، فقال لهم: هذا من جملة العشرين الذين أخذناهم؟

فتأملوه، وقالوا: لا.

ففكر ساعة، ثم أمر بإطلاقه.

ثم قال: هاتموه إلىَّ، فرددناه.

فقال: اشرح لى قصتك، فأعاد عليه الحديث.

فقال له: فى نصف الليل، أى شىء كنت تعمل هناك، فى ذلك الموضع؟

فقال: كنت قد بِتُّ فى سماريتى، فأخذتنى بولة، فصعدت أبول.

قال: ففكر ساعة، ثم قال له: أصدقنى على الحقيقة، حتى أُطلقك، أى شىء كنت تعمل هناك؟

فلم يخبره بغير ذلك.

قال: وكان من رسمه، إذا أراد أن يقرر إنسانًا، قرره وهو قائم بين نفسين، ووراءه جماعة بمقارع، فإذا حك رأسه، ضُرب المقرر، واحدة [1]

(١)يعنى ضربة واحدة.

جيدة عظيمة، فيقول للذى ضربه: قطع الله يدك ورجلك، يا فاعل يا صانع، من أمر بضربه؟ ولِمَ ضربته؟ تقدم يا هذا، لا بأس عليك، أصدق، فقد نجوت.

فإن أقرَّ، وإلا حَكَّ رأسه ثانية، وثالثة، أبدًا على هذا، وكذا كانت عادته فى جميع الجناة، وهو رسم له معروف، عن المتصرفين بحضرته.

قال: فلما أطال عليه الملاح، حَكَّ رأسه، فضرب قفاه بعض القائمين، بمقرعة ضربة عظيمة.

فصاح الملاح.

فقال الأبزاعجى: من أمرك بهذا، يا فعال يا صانع، قطع الله يديك.

ثم قال للملاح: اصدق، وانجُ بنفسك.

فقال له الملاح: أيها الأستاذ، الله شاهد عليك، أننى آمِن على نفسى وأعضائى، حين أَصْدُق؟

فقال له: نعم.

قال: أنا رجل ملاح، أعمل فى المشرعة الفلانية، يعرفنى جيرانى بالستر، وقد كنت سرحت سماريتى إلى سوق الثلاثاء البارحة بعد العتمة، أتفرج فى القمر، فنزل خادم من دار لا أعرفها.

فصاح: يا ملاح؟

فقدمت[1].

فسلم إلىَّ امرأة، نظيفة، حسنة، ومعها صبيتان، وأعطانى دراهم صحاحًا، وقال: احمل هؤلاء إلى المشرعة الفلانية، بباب الشماسية.

---

(١) قدمت: يعنى ألصقت سميريتى بالشاطئ، اصطلاح بغدادى لم يزل مستعملًا.

فصعدت بهم قطعة من الطريق، فكشفت المرأة وجهها، فإذا هى من أحسن الناس وجهًا كالقمر، فاشتهيتها، فعلقت مجاذيفى فى الكرك[1]، وأخرجت السفينة إلى وسط دجلة، وتقدمت إلى المرأة فراودتها عن نفسها، فأخذت تصيح.

فقلت لها: والله، لئن صِحْتِ لأُغرقنك الساعة.

فسكتت، وأخذت تمانعنى عن نفسها، واجتهدت بأن أقدر عليها، فما قدرت.

فقلت لها: من هاتان الصبيتان منك.

فقالت: بناتى.

فقلت لها: أيما أحب إليك، تمكنينى من نفسك، أو أغرق هذه؟ وقبضت على واحدة منهن.

فقالت: أما أنا، فلا أطيعك، اعمل ما شئت.

فرميت إحدى الصبيتين فى الماء، فصاحت، فضربتُ فاها.

فسكتت، وأخذت تبكى، ثم تركتها ساعة، وقلت لها: دعينى أفعل بك وإلَّا غرَّقت الأخرى.

فقالت: والله، لا فعلت .

فأخذت الصبيَّة الأخرى، فرميت بها فى الماء، فصاحت، وصحت معها، ثم قلت لها: ما بقى الآن إلا قتلك، فدعينى، وإلَّا قتلتك، وأخذت بيدها، وحملتها لأرمى بها إلى الماء.

---

(١) الكرك: بغدادية، يراد بها حلقة من الحديد مفتوحة الأعلى على شكل الهلال، تثبت فى جانب القارب، ويثبت فى وسطها المجذاف عند التجذيف.

فقالت: أَدَعُك.

فرددتها إلى السماريّة، فمكَّنتنى من نفسها، فوطئتها.

وسرت، لأمضى بها إلى المشرعة، فقلت فى نفسى: هذه الساعة تصعد إلى دارها، أو إلى الموضع الذى تأوى إليه، فتُنذر بى، فأؤخذ، وأُقتل، وليس هناك حَلٌّ إلَّا تغريقها، فجمعت يديها، ورجليها، ورميت بها إلى الماء، فحين غرقت، فكّرت فيما ارتكبته، وعظم ما جنيته، فندمت، وكنت كرجل كان سكرانًا، فأفاق.

فقلت: أيّ شىء أعمل؟ ليس إلَّا أن أنحدر إلى البصرة، وأغوص فى أنهارها، فلا أُعْرَف.

فانحدرت، فلما صرت حذاء الجسر، أخذتنى بطنى، وقلت: أصعد، وأتفسَّح، وأعود إلى سماريّتى.

فصعدت، فأنا جالس أتغوّط، فما أحسست حتى قبض هؤلاء علىَّ.

قال: فقال له الأبزاعجي، مطايبًا: يا هذا، أيّ معاملة بين مثلك وبينى، انصرف بسلام.

فظنّ لجهله، أنَّ ذلك حقيقة، فولَّى لينصرف.

فصاح به، وقال: يا فتى، هو ذا تنصرف، وتَدَعنا؟ فلا أقلَّ من أن ترجع لنُحلّفك، أنَّك لا تعود إلى مثل هذا.

فرجع.

فقال: خذوه، فأخذوه.

فقال: اقطعوا يده.

فقال: يا سيدى، أليس قد أمَّنتنى؟

فقال: يا كلب، وأى أمان لمثلك؟ قد قتلت ثلاثة أنفس، وزنيت، وأخفت السبيل.

قال: فقُطعت يداه، ورجلاه، ثم ضُربت عنقه، وأُحرق جسده بالنار فى مكانه [1].

* * *

(١) نشوار المحاضرة تحقيق عبود الشالجى، والتعليقات له (٣/ ٢١٥).



العقيد

قال اللواء محمود شيت خطاب:

اضطرتنى ظروفى الصحية إلى دخول أحد المستشفيات فى بيروت لإجراء الفحوص الطبية خلال صيف سنة ١٩٧٢.

وقد حرصت على كتمان أمر استشفائى، ولكن الأخبار السيئة لا تلبث أن تنتشر بسرعة، أما الأخبار الحسنة فلا تنتشر إلا بصعوبة.

وعادنى قسم من أصدقائى معاتبين، وكان معهم هدايا تقدم عادة للمرضى، كالورد والحلوى.

وكان جيرانى من المرضى قسم من الضباط المتقاعدين وغير المتقاعدين، فآثرت أن أتعرف بهم فأعودهم وأواسيهم وكان سبيلى إلى ذلك تقديم ما كان لدىَّ من هدايا إليهم، مع الممرضين والممرضات، ومع كل هدية كلمة لطيفة أتمنى لهم الشفاء العاجل وأعدهم بزيارة قريبة.

وحرصت أن أبعث باقة من باقات الزهور إلى ضابط لا ينام الليل ولا يُنيم أحدًا، وحين سألت الممرضة: ألك معرفة سابقة به؟ قلت: «لا، ولكنه لا ينام الليل ولا يتركنى أنام، فلعله يحن على نفسه ويرفق بى بعد استلام هديتى!».

قالت الممرضة: «هيهات ..!» وعلمت منها أنه فى المستشفى منذ شهور، وهو زبون دائم للمستشفى، لا يخرج منه أيامًا ليمكث بين أهله، إلا ويعود إليه شهورًا ليمكث فيه.

وقالت: «ولكن الظاهر أنه سينتهى قريبًا فيريح ويستريح».

وزرت العقيد المريض، وكان يسمى نفسه: الكولونيل، وكان أهله

يسمونه: الكولونيل، وكان الأطباء والممرضون والممرضات يسمونه: الكولونيل.

كان ضابطًا قديمًا، عمل فى الشرطة الفرنسية، يوم كان الفرنسيون يحتلون لبنان، ولم تكن المصطلحات العسكرية قد عُرِّبت، وكانت المصطلحات الفرنسية هى السائدة، وكانت المصطلحات العربية هى المسودة.

كان عقله حاضرًا، وكان منطقه سليمًا، وكانت ذاكرته واعية، وكان قلبه ينبض، وهذا كل ما بقى له فى الحياة.

أمراضه التى ابتلى بها كثيرة: الضغط، والسكر، وتصلب الشرايين، وتسمم الدم، وتلف الكبد، والكلى، وتهرى لحم الرجلين والجسم ... إلخ.

وكان يصحو نهارًا، حتى ليخيل أنه معافى، ولكنه كان ينهار ليلًا، حتى ليخيل إليك أنه لا يعيش ساعات الليل.

وكان فى الليل يصرخ من الألم تارة، ويصرخ طالبًا أحد الممرضين أو الممرضات تارة أخرى، وكان يستعمل سلاحين فى صراخه: صوته والجرس الكهربائى.

فإذا جاء الممرض أو الممرضة، لم يجدوا عنده مطلبًا، فيعودون من حيث أتوا، ولكن لا يكادون يصلون إلى مكانهم إلا ويستدعيهم العقيد ثانية وثالثة ورابعة .. إلخ.

حتى تشرق الشمس.

وكان إذا خَفَت صوته، استعمل الجرس الكهربائى، فيضعه فى جيبه

ويضغط على زِرِّه بإلحاح شديد، وتبقى يده على زر الجرس حتى بعد قدوم الممرضة أو الممرض.

كان يريد أن تبقى الممرضة معه الليل كله، وكان يريد أن يبقى الممرض معه الليل كله، فإذا بقيا تلبية لطلبه نسى بعد لحظات وجودهما فى غرفته، وانطلق ينادى وانطلق جرسه يرن.

وحين زُرته أجهش بالبكاء، وحدثنى بقصته، فقال: كنت فى شرطة الفرنسيين، وكنت برتبة عقيد، أقود الشرطة المحلية، وكانت بيروت تخافنى، وكان اسمى يخيف أشجع الشجعان.

وكان الفرنسيون يعتمدون علىَّ، وكنت أخلص لهم كل الإخلاص، وكنت أؤدى واجبى على أحسن ما يرام.

فإذا عجز الفرنسيون عن اكتشاف جريمة من الجرائم، أحالوا المجرم إلىَّ، فكنت أستخلص منه الاعترافات بالقوة!

كنت لا أرحم أحدًا، وكنت أمارس أنواع التعذيب، وكان المجرمون ينهارون فيعترفون بما أريد أو يريد الفرنسيون، فيساقون إلى المحاكم لينالوا ما يستحقونه من عقاب.

ومضى يسرد على مسمعى أربعة وثمانين نوعًا من التعذيب كان يمارسه مع المتهمين، فاقشعر بدنى من هول سرده وتعذيبه.

ثم قال: «وما أعانيه اليوم عذاب من الله، فقد سُقت إلى المحاكم كثيرًا من الأبرياء، وعذَّبت كثيرًا من الصالحين إرضاءً لأسيادى الفرنسيين».

مضى الفرنسيون إلى غير رجعة، وبقى العقيد تلاحقه اللعنات.

حتى زوجه وأولاده وذوى قرباه، لا يحبونه ويتمنون على الله أن

يموت، لأنه يعذبهم بصراخه وزعيقه.

ولكنه يعذب نفسه أكثر مما يعذب الآخرين.

رحل أسياده وبقى مكروهًا من الناس، مكروهًا من أهله.

كان يعذب ضحاياه فى الليل، ويعذبه الله اليوم فى الليل أيضًا.

وكانت أعضاء المعذبين تتساقط من تعذيبه، واليوم تتساقط أعضاؤه عضوًا عضوًا.

أبقى الله لسانه، ليحدِّث الناس عن أعماله الإجرامية.

وأبقى ذاكرته واعية، ليعدد على الناس ما اقترف من آثام.

وأبقى قلبه ينبض، حتى يتحمل عذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أشد وأقسى.

هل يعتبر الناس؟[1].

وصدق الله العظيم: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[2].

* * *

---

(١) عدالة السماء.

(٢) سورة إبراهيم: الآية: (٤٥).



٤٠ هندوسيًّا أصيبوا بالعمى بعد هدمهم المسجد البابرى

أُصيب حوالى أربعون هندوسى ممن شاركوا فى الهجمة البربرية لهدم المسجد البابرى فى ٦ ديسمبر ١٩٩٢م بالعمى بعد أن فشلت محاولات العلاج التى قام بها كبار أطباء العيون فى الهند لمعالجتهم.

جاء ذلك فى تقرير نشرته مؤخرًا جريدة أنصارى إكسبريس الهندية الأسبوعية والتى أضافت بأن حملة الهندوس لهدم المسجد ضمَّت أعدادًا كبيرة من المتعصبين الهندوس من جميع أنحاء الهند الذين تلقوا تدريبات طويلة لهذا الغرض.

وذكرت الصحيفة أن ٣١ شخصًا ممن فقدوا أبصارهم يسكنون فى حيٍّ واحد فى مدينة مهارينور وسبق لهم أن حاولوا تدمير المسجد ولكنهم لم ينجحوا فى ذلك الحين.

وتعيش هذه المجموعة الآن على المعونات التى تقدمها لهم المنظمات الهندوسية.

وإلى جانب هذه المجموعة يوجد تسعة أفراد آخرين من منظمة غازى بور فى أتار براديش ممن فقدوا أبصارهم بعد مشاركتهم فى عملية الهدم.

وذكرت الصحيفة عن هؤلاء أنهم فى ندم وأن إلههم قد غضب عليهم؛ لأنهم دمروا المسجد البابرى وأنهم فقدوا أبصارهم عقابًا لهم.

كما ذكر والد أحد هؤلاء الأشخاص من أن ابنه قد تلقى تدريبًا من أجل المشاركة فى عملية تدمير المسجد، ولكنه لم يكشف عن هوية من قاموا بتدريب ابنه ..

ويعتقد سكان المنطقة والمناطق المجاورة أن هؤلاء قد ارتكبوا إثمًا كبيرًا بتدمير المسجد ولذا فقدوا أبصارهم نتيجة لهذا العمل[١].

* * *

(١) جريدة الرياض العدد ٩٠٦٩ عام ١٤١٣ هـ.

كلب يكشف عن قاتل سيده

عن مبشّر الرومي أنَّه سمع مولى كان له يُعرف بأبي عثمان، زكريّا المدنيّ وكان تاجرًا جليلًا، عظيمًا، كثير المال، مشهورًا بالجلالة، والثقة، والأمانة، يحدّث أنَّه كان في جواره ببغداد، رجل من أصحاب العصبيَّة، يلعب بالكلاب.

فأسحر يومًا في حاجة، وتبعه كلب كان يختصّه من كلابه، فردَّه، فلم يرجع، فتركه.

ومشى، حتى انتهى إلى قوم كانت بينه وبينهم عداوة، فصادفوه بغير حديد[1]، فقبضوا عليه، والكلب يراهم، فأدخلوه، فدخل معهم، فقتلوه، ودفنوه في بئر في الدار، وضربوا الكلب، فسعى، وخرج وقد لحقته جراحه، فجاء إلى بيت صاحبه يعوي، فلم يعبأوا به.

وافتقدت أمَّ الرجل ابنها، يومه وليلته، فتبيَّنتْ الجراحة بالكلب، وأنَّها من فعل مَن قتل ابنها، وأنَّه قد تلف، فأقامت عليه المأتم، وطردت الكلاب عن بابها.

فلزم ذلك الكلب الباب، ولم ينطرد، فكانوا يتفقدونه في بعض الأوقات.

فاجتاز يومًا، بعض قَتَلة صاحبه بالباب، وهو رابض، فعرفه الكلب، فخمش ساقه، ونهشه، وعلق به.

واجتهد المجتازون في تخليصه منه، فلم يمكنهم، وارتفعت ضجَّة، وجاء حارس الدرب، فقال: لم يتعلّق هذا الكلب بالرجل، إلَّا وله معه

(١) بغير حديد: يعني بغير سلاح.

قصة، ولعلّه هو الذي جرحه.

وخرجت أمّ القتيل، وحين رأت الرجل، والكلب متعلّقًا به، وسمعت كلام الحارس، تأمّلت الرجل، فذكرت أنّه كان أحد من يعادي ابنها ويطلبه، فوقع في نفسها أنّه قاتل ابنها، فتعلّقت به، وادّعت عليه القتل، وارتفعا إلى صاحب الشرطة، فحبسه، بعد أن ضُرب، ولم يقرّ ولزم الكلب باب الحبس.

فلما كان بعد أيّام، أُطلق الرجل، فحين أُخرجَ من باب الحبس، علق به الكلب، كما فعل أوّلًا، فعجب الناس من ذلك.

وأسرَّ صاحب الشرطة، إلى بعض رجالته، أن يفرّق بين الكلب والرجل، ويتبع الرجل ويعرف موضعه، ويترصّده، ففعل ذلك.

فما زال الكلب، يسعى خلف الأول، والرجل يتبعه، إلى أن صار في بيته.

فكبس صاحب المعونة، الدار، فلم يجد أثرًا.

وأقبل الكلب يصيح، ويبحث في موضع البئر التي طُرح فيها القتيل.

فقال الشرطيّ: انبشوا موضع نبش الكلب، فنُبش، فوُجد الرجل قتيلًا.

فأُخذ الرجل، وضُرب، وأقرّ على نفسه، وعلى جماعة بالقتل، فقُتل هو، وطُلب الباقون، فهربوا.

* * *

وهذه عاقبة الظالمين

قال الشيخ أنس بن سعيد بن مسفر - حفظه الله-: (هذه قصة أرويها عمن رأى وسمع ذلك الموقف وهو ثقة يقول: كان هناك رجل من كبار التجار وعنده عامل يشتغل له لكنه لم يعطه راتبه لأكثر من ثمانية أشهر (ما يقارب ستة آلاف ريال) فطلب العامل المسكين أن يعطيه المبلغ، وذكر له حاله وحال أهله وأولاده وأنه تغرَّب لكسب العيش وألح فى ذلك، فغضب التاجر وذهب للجوازات واستخلص له شهادة خروج مغادرة، ثم حجز له بالطائرة وسفَّره لبلاده فى إحدى الليالى ولم يعطه حقه:

جرىءٌ على أكل الحرام وَيدَّعى ... بأنَّ له فى حلِّ ذلك محمل
فيا آكل المال الحرام أَبِن لنا ... بأىٍّ كتاب حِلَّ ما أنت تأكل
ألم تدر أنَّ الله يدرى بما جرى ... وبين البرايا فى القيامة يفصل

ذهب الرجل لبلاده، وكان التاجر الظالم يسكن فى مكة وبعد سنين عاد العامل المظلوم إلى مكة لأداء العمرة، وبدأ يبحث عن هذا القصر الذى كان يشتغل فيه حتى وجده ووجد صديقه حارس البيت فسلم عليه وجلس معه يتحدث، وفجأة خرج صاحب القصر فلما وقعت عينه على العامل أرغى وأزبد وهدد وتوعد وقال: لأسجننك. فقال العامل: أنا لم آت للمال وإنما أتيت لحرم الله - تعالى- لأدعو عليك.

عندها ضحك التاجر ضحكات مستهتر مستهزئ ولكن الله تعالى بالمرصاد فبعد أيام شبَّ حريق كبير فى منطقة كانت مهيأة للحريق وفى لحظات جاء الرجل التاجر. وكان لديه مبلغ من المال حول المكان المحترق وعدده (ثلاثون ألف ريال) وحيث إن الحريق لم يصل لذلك

المكان أراد أن يدخل ليأخذ ماله فمنعه رجال الدفاع المدنى من الدخول فرفض وتفلت منهم وتحايل عليهم وقال: الحريق بعيد وما إن وصل ليأخذ ماله وهو فى ذلك المكان إذا بشىء لم يتوقعه لقد سقط عليه البناء الذى هو فيه وشب فيه الحريق فاحترق وأصبح كالفحم، أما المال فهو بجانبه لم يحترق. فتعجبوا وسألوا الحارس بماذا دعا ذلك العامل المسكين قال: لما ضحك الرجل وقهقه قال العامل وهو ينظر إلى القصر: اللهم إنى أسألك أن لا تُهنِّيه بهذا القصر ولا يدخله. فلم يدخله ولم يتهنَّ به... وهذه عاقبة الظالمين[١].

❊ ❊ ❊

(١) من شريط له بعنوان (سهام الليل).

حكاية ذئب بشري

اعلم أيها الأخ الحبيب أن ما تفعله مع أخيك فإنه سلفٌ ودَينٌ فاحذر من أن تفعل مع أخيك ما لا تحب أن يفعله هو معك فإنه كما تدين تُدان وما تزرعه اليوم تحصده غدًا.

* وإليك هذه القصة التى تؤكد لك هذا الكلام .... وبالمثال يتضح المقال:

كانت هناك طالبة جامعية فى عمر الزهور فى العشرين من عمرها ... جميلة وعاطفية ومن عائلة متواضعة ذات أخلاق كريمة، وكانت لها صديقة تحبها حبًّا شديدًا وكانت تلك الصديقة لها أخٌ ليس عنده أى رصيد من الدين أو الخُلق فاستطاع بمكره أن يستميل قلب تلك الفتاة وأخذ يداعبها بكلامه المعسول حتى أخذت تلك الفتاة تذوب من كلامه.

وأخذ يخطط للإيقاع بتلك الفتاة البريئة فى مصيدته ... وبعد مراوغة وتخطيط ووعود كاذبة استطاع أن يوقع تلك الفريسة السهلة وأن يسلبها أعز ما تملكه أى فتاة فى هذه الحياة.

وأحست تلك الفتاة بضياع مستقبلها، بل وضياع دينها بعد أن أصبحت حاملًا من الزنى ... وظلت تتصل بهذا الذئب لكى ينفذ وعوده لها بالزواج، ولكنه كان يتهرب منها ... وبدأت أعراض الحمل تظهر عليها وأحست الفتاة بأن الأرض ضاقت عليها بما رحبت وضاقت عليها نفسها فماذا تصنع فى تلك المصيبة.

وأخذت تطارده فى كل مكان حتى استطاعت أن تكلمه، وأن تطلب منه أن يتزوجها، فما كان منه إلا أن فكر فى فكرة لا تخطر على قلب إبليس...

فيا ترى ما هى تلك الفكرة؟

قال لتلك الفتاة: أنا على استعداد لأن أتزوجك، ولكن بشرط أن تأتى غدًا الساعة الرابعة إلى الشاليه الذى أمتلكه فى المكان الفلانى لتقابلى أمى فإن رأتك أمى ووافقت على زواجى منك فسوف أتزوجك.

وفى نفس الوقت اتفق هذا الذئب مع مجموعة من الذئاب البشرية لكى يذهبوا إلى الشاليه فى نفس الموعد، ليغتصبوا تلك الفتاة ثم يدخل عليها بعد ذلك ليقول لها: أنا لا أستطيع أن أتزوج من فتاة فُعل بها كل هذا.

ووافقت الفتاة على الذهاب إلى الشاليه فى الموعد المحدد ظنًّا مَنها أن الله هداه وأنه سيستر عرضها ... لكنها لم تكن تعلم ماذا يدبر لها.

وفى الموعد المحدد قامت تلك الفتاة لتذهب إلى الشاليه للقاء والدته -كما كان يزعم- وإذا بأخيها يصاب بألم شديد فى بطنه فكانت بين نارين... بين أن تذهب إلى الشاليه وبين أن تذهب بأخيها الوحيد إلى المستشفى فما كان منها إلا أن اتصلت بصديقتها - أخت ذلك الذئب - وقالت لها: إننى على موعد الآن مع والدتك فى الشاليه ولكن أخى مريض وسأذهب معه إلى المستشفى فأرجو منك أن تذهبى إلى الشاليه لتخبرى والدتك أننى سأحضر إليها بعد ساعة فوافقت أخت هذا الشاب وهى لا تعرف ما يدبره أخوها لتلك الفتاة.

وذهبت أخت هذا الذئب إلى الشاليه ظنًّا منها أن أمها هناك وهى لا تعرف لأن أمها فى هذا الوقت كانت خارج البيت، المهم أنها ذهبت إلى الشاليه وبمجرد أن دخلت حتى انقض عليها الذئاب وانتهكوا عرضها وسلبوها أغلى ما تملكه أى فتاة وتركوها جثة هامدة ... وبعد ساعة من

الزمن جاء هذا الذئب ليرى ما صنعوه بتلك الفتاة، وليكون هذا المشهد مبررًا له؛ لأن يرفض الزواج منها ... ولكن كانت أكبر مفاجأة فى انتظاره !!

دخل الذئب وسأل أصحابه: ماذا صنعتم؟ قالوا: فعلنا كل ما طلبت منا وزيادة .. وها هى بالداخل جثة هامدة من شدة الاعتداء عليها.. فدخل ونظر إلى الفتاة وإذا بها أخته مُلقاة فى حالة يرثى لها فلم يستطع أن يتكلم كلمة واحدة بل خرج صامتًا وأصحابه يكلمونه وهو لا يرد عليهم حتى وصل إلى سيارته وفتح الباب ثم دخل السيارة، وفتح التابلوه وتناول مسدسًا وأطلق الرصاص على نفسه فمات فى التو واللحظة ...﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (١).

أهدى هذه القصة لكل شاب يعيش علاقة محرمة مع أى فتاة: أقول له: اتق الله فى أعراض المسلمات واعلم أنه كما تدين تدان والجزاء من جنس العمل (٢).

* * *

(١) سورة فاطر: الآية (٤٣).

(٢) قصص وعبر (الجزء الثانى)/ للمصنف (ص: ٤٠-٤٢).

الثورات العربية ... ونهاية الظالمين

* **لقد قال تعالى لدعوة المظلوم: «وعزتى وجلالى لأنصرنَّك ولو بعد حين»** .. فظلت البشرية وما زالت ترى نُصرة الحق (جل وعلا) لكل مظلوم على مَرِّ العصور والأزمان.

* لقد وُلدنا وخرجنا إلى الدنيا ونحن نرى الظلم قد ملأ أكثر بلاد المسلمين ... لكنه كان فى أسوأ صورة عرفها العالم على مدى التاريخ فى مصر وليبيا وتونس وسوريا واليمن ... وظلت الشعوب تعانى من ظلم هؤلاء الظالمين الذين أذاقوا شعوبهم من العذاب ألوانًا ... فقد سرقوا أموالهم وتركوهم يصرخون من الفقر والحرمان .. ونفَّذوا كل مخططات الصهيونية العالمية من أجل تجهيل الأمة فدمروا مناهج التعليم، وأفسدوا وسائل الإعلام ... وجلبوا للأمة كل الأمراض المستعصية (كالسرطان والفشل الكلوى والكبدى) من خلال غرس تلك الفيروسات فى الأراضى الزراعية... حطموا أحلام الشباب وقهروهم من خلال التصفية الجسدية والنفسية فى السجون والمعتقلات، وبخاصة لكل من كان من أهل الصلاح والتدين.

* وهكذا لمدة سنوات طويلة ... سرقة أموال ... وكبت حريات ... وسجون ومعتقلات .. وأمراضٌ حُبس الناس بين جدرانها ... وإرهاب فكرى لكل من يريد أن يقول كلمة الحق ..

* وفى المقابل رأينا أهل الفساد والإفساد ممن يسمونهم بالنخبة يُحملون فوق الأعناق وتحتفى بهم الأنظمة الفاسدة فى الوقت الذى تم فيه تشويه الصالحين والمصلحين.

* وظلت البلاد على ذلك زمانًا طويلًا حتى ظَنَّ أكثر الناس أن الأمل قد انتهى ... وإذا بالشعب التونسى يثور فجأة فى تونس ويستطيع خلال أيام أن يُسقط هذا الطاغوت الذى حارب الإسلام حربًا ما سمعنا عنها فى تاريخ الإسلام أبدًا ... ثم قامت الثورة المباركة فى مصر يوم ٢٥ يناير سنة ٢٠١١ وما هى إلا أيام حتى تم خلع الرئيس السابق محمد حسنى مبارك، وتم تقديمه للمحاكمة وحُكم عليه بالسجن المؤبد .. وتم إيداع ولديه (علاء وجمال) فى السجن ... وكذلك وزير داخليته حبيب العادلى الذى ليس له من اسمه حظٌّ ولا نصيب.

فقد كان أشد الناس إيذاءً للشعب المصرى.

* وما زالت الثورة المصرية لم تجنِ ثمارها كاملة حتى تاريخ كتابتى لتلك الكلماتِ .. وأسأل الله (جل وعلا) أن يحفظ شعب مصر وكل الشعوب الإسلامية وأن يعوضهم خيرًا وأن يرزقنا جميعًا بحاكمٍ عادلٍ يتقى الله فينا.

* ثم قامت الثورة الليبية واستمرت لمدة شهورٍ استُشهد فيها خمسون ألف شهيد فى ليبيا - نحسبهم كذلك ولا نزكى على الله أحدًا - إلى أن جاءت اللحظة الحاسمة التى تم فيها القضاء على هذا الطاغوت (القذافى) ووجدوه مختبئًا فى ماسورة للصرف الصحى - وهذا هو أنسب مكان لهذا الطاغية - فقتلوه وأسدلوا الستار على هذا التاريخ الأسود.

* وقامت ثورة اليمن فى تلك الآونة وسقط فيها الكثير من الشهداء - نحسبهم كذلك ولا نزكى على الله أحدًا - إلى أن استطاعوا أن يزيلوا هذا الطاغية (على بن عبد الله صالح).

* ثم قامت الثورة السورية ضد طاغية ما عرف التاريخ مثله فى كفره وطغيانه .. فهو محارب للقرآن والسنة وهو امتداد لأبيه المجرم (حافظ الأسد) الذى أقام المجازر لأهل السنة فى سوريا حتى أنه فى مذبحة (حَماة) قتل أربعين ألفًا فى ٢٧ يومًا.

وجاء ابنه بشَّار الأسد - عليه من الله ما يستحقه - ليسحق أهل السنة فى سوريا ... فها هو حتى يومنا هذا يقتل النساء والأطفال والشباب والشيوخ، ولم يترك أحدًا ... بل سلَّط جنوده فاغتصبوا النساء والأطفال وما زالت جرائمه تقشعر لها الأبدان.

أسأل الله أن يأخذه أخذ عزيز مقتدر.

* وأرجو الله (جل وعلا) أن يزيله وأن ينتقم منه شر انتقام وأن يحقن دماء إخواننا فى سوريا لأُهنئ الكون كله (فى الطبعة القادمة) بنهاية هذا المجرم الذى ملأ الأرض فسادًا وإفسادًا.

* هكذا كانت نهاية هؤلاء الظالمين ... رأيناها بأعيننا ... فبعد كل هذا المُلك والثراء والمنصب والجاه والكبر والخُيلاء ... ها نحن نرى نهايتهم وعقابهم فى الدنيا ما بين السجن والقتل .. ولن يرحمهم التاريخ فسوف يذكرهم باللعنة على كل ما فعلوه.

وكل هذا غير العقاب الذى ينتظرهم فى الآخرة حينما يقفون بين يدى الحق (جل وعلا) فيسألهم عن كل واحدٍ كان تحت إمرتهم ... بل سيسألهم الحق (جل وعلا) حتى عن الدواب التى عانت من ظلمهم.

* وكل الذى حدث لهم كان بسبب دعاء المظلومين الذين كانوا يدعون عليهم ليل نهار بسبب ما وقع عليهم من الظلم الذى لا يخطر على

قلب بشر ... فكم من أمٍّ بكت على ولدها الذى اعتقلوه بلا ذنب حتى ماتت الأم كمدًا .. وكم من شاب مات فى السجن وفقدته زوجته وأصبح أولاده أيتامًا من بعده ... وكم من أُناسٍ ماتوا من الفقر والمرض .. وكم من جرائم ارتُكبت بسبب القهر والظلم والجهل الذى سُلِّط على الأمة.

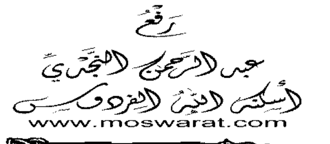
* فيا ويل كل ظالم يوم يلقى ربه (جل وعلا) فيسأله عن كل صغيرة وكبيرة فقد قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾[2].

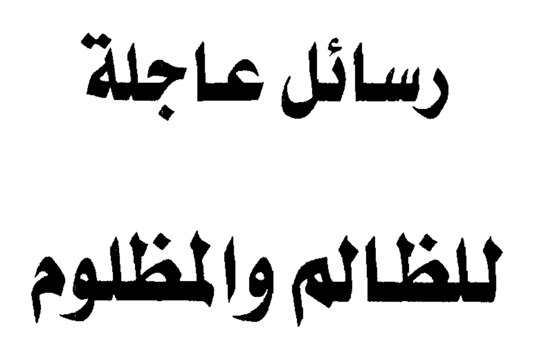
* إنها عظة وعبرة لكل إنسان على وجه الأرض حتى لا يظلم أحدًا .. وإن كان قد وقع فى ظلم أحدٍ فليسارع إلى التوبة والتحلل من المظالم قبل أن يلقى الله ﷻ.

لا تظلمنَّ إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم ترجع عُقباه إلى الندمِ
تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ يدعو عليك وعين الله لم تنمِ

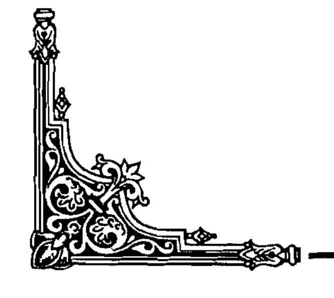
* * *

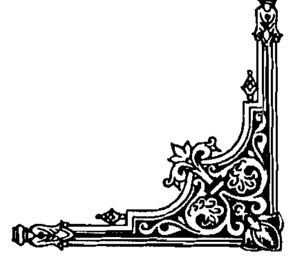
(١) سورة طه: الآية: (١١١).
(٢) سورة الشعراء: الآية: (٢٢٧).





رسائل عاجلة للظالم والمظلوم







ذهبت لذات الظالمين بما ظلموا

* للظالمين يقول الإمام ابن الجوزى - رحمه الله -:

أما سمعتم منادى ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾[1].

أما ينذركم إعلام ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ﴾[2].

أما يفصم عُرى عزائمكم ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً﴾[3].

أما يقصر من قصوركم ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾[4].

أما سمعتم هاتف العِبر ينادى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾[5].

يا هذا، ظُلمك لنفسك غاية فى القبح، ألا إنّ ظُلمك لغيرك أقبح، ويحك إن لم تنفع أخاك فلا تؤذِه، وإن لم تُعطه فلا تأخذ منه، لا تشابهنّ الحية، فإنها تأتى إلى الموضع الذى قد حفره غيرها فتسكنه، ولا تتمثلنّ بالعقاب... فى الحيوانات أخيار وأشرار كبنى آدم، فالتقط خير الخلال وخَلِّ خسيسها[6].

ذهبت لذات الظالمين بما ظلموا وبقى العار، وداروا إلى دار العقاب ومَلَك الغيرُ الدار، وخلوا بالعذاب فى بطون تلك الأحجار، فلا مغيث ولا أنيس، ولا رفيق ولا جار.

أما علموا أن الله جار المظلوم ممن جار، فإذا قاموا يوم القيامة زاد

---

(١) سورة الكهف: الآية: (٥٩).

(٢) سورة هود: الآية: (١٠٢).

(٣) سورة الأنبياء: الآية: (١١).

(٤) سورة الحج: الآية: (٤٥).

(٥) سورة العنكبوت: الآية: (٤٠).

(٦) المدهش لابن الجوزى (ص: ٥٥٠-٥٥١).

البلاء على المقدار ﴿ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ ﴾[١].

لا يغرنك صفاء عيشهم كل الأخير أكدار ﴿إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾[٢].

* قال الشاعر:

إذا جار الأمير وكاتباه ... وقاضى الأرض داهن فى القضاء

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ ... لقاضى الأرض من قاضى السماء

وقال أبو العتاهية:

أما والله إن الظلم لؤم ... وما زال المسيء هو الظلوم

إلى ديان يوم الدين نمضى ... وعند الله تجتمع الخصوم

ستعلم فى الحساب إذا التقينا ... غدًا عند الإله مَن الملوم[٣]

* * *

(١) سورة إبراهيم: الآية: (٥٠).

(٢) سورة إبراهيم: الآية: (٤٢).

(٣) الآداب الشرعية (١١ / ١٨١).

من مغبة الظلم

إن الظالم يجنى ثمرات ظلمه فى الدنيا والآخرة، فقد قال ﷺ: «ما من ذنبٍ أجدر أن يُعجل الله تعالى لصاحبه العقوبة فى الدنيا مع ما يدخره له فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم»(١).

* **ومضار الظلم كثيرة ولكن حسبُنا أن نقف على بعضها:**

(١) يجلب غضب الرب وسخطه ويتسلط على الظالم بشتى أنواع العذاب.

(٢) قبول دعاء المظلوم فيه.

(٣) يخرب الديار وبسببه تنهار الدول.

(٤) تحاشى الخلق عن الظالم وبعدهم منه لخوفهم من بطشه.

(٥) معصيته متعدية للغير.

(٦) دليل على ظلمة القلب وقسوته.

(٧) عدم الأخذ على يد الظالم يفسد الأمة.

(٨) يجلب كره الرسول ﷺ.

(٩) صَغار الظالم عند الله وذلته.

(١٠) الظالم يُحرم شفاعة رسول الله ﷺ (٢).

* بل وفوق ذلك كله فإن الله ﷻ يحرمه من نعمة الهداية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِى ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٣)؛ لأن المعصية لو كانت فيما بين العبد وبين ربه ﷻ

---

(١) **صحيح**: رواه أبو داود، والترمذى، وابن ماجه، وأحمد، وصححه العلامة الألبانى رحمه الله فى صحيح الجامع (٥٧٠٤).

(٢) نضرة النعيم (١٠/ ٤٩٢٦).

(٣) سورة المائدة: الآية (٥١).

فإن الله يقبل توبته بل ويبدل سيئاته إلى حسنات... أما مظالم العباد فلا بد للعبد أن يتحلل منها.

* بل إن الله ﷻ يحرم الظالم من محبته ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[1]... ولنا أن نتخيل إنسانًا يعيش فى أرض الله... والله يبغضه ولا يحبه.

* ولذا قال الشاعر:

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا فالظلم ترجع عُقباه إلى الندمِ

تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ يدعو عليك وعين الله لم تنمِ

* فأسأل الله - جل وعلا- أن يرزقنا نعمة العدل مع كل من حولنا وأن يحفظنا من أن نَظلم أو نُظلم، وأن يجمعنا بالنبى ﷺ فى جنته التى فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلب بشر.

* * *

(١) سورة آل عمران: الآية (١٤٠).

واجب المسلم تجاه الظالم والمظلوم

إن من الواجب على كل مسلم أن ينصر المظلوم قدر استطاعته وأن يحرص كل الحرص على نُصح الظالم والأخذ على يديه حتى يَكُفَّ عن الظلم.

ففي «صحيح مسلم»[(١)] من حديثِ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يقُولُ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيرْهُ بِيدِهِ، فَإِنْ لَمْ يسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**».

وَفِى «صحيح البُخارى»[(٢)] من حديثِ أَنَس بْنَ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا**»، قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، هَذَا نَنْصُرُهُ مَظْلُومًا، فَكَيفَ نَنْصُرُهُ ظَالِمًا؟ قَالَ: «**تَأْخُذُ فَوْقَ يدَيهِ**».

قالَ النَّووى رحمه الله: «وأمَّا نصر الْمَظْلُوم فَمِنْ فُرُوضِ الْكِفَايةِ وَهُوَ مِنْ جُمْلَةِ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْى عَنِ الْمُنْكَرِ وَإِنَّمَا يتَوَجَّهُ الْأَمْرُ بِهِ عَلَى مَنْ قَدَرَ عَلَيهِ وَلَمْ يخَفْ ضَرَرًا»[(٣)].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لا يَظْلِمُهُ وَلا يخْذُلُهُ، وَلا يَحْقِرُهُ»[(٤)].

قالَ النَّووى رحمه الله: « قَالَ الْعُلَمَاءُ الْخَذْلُ تَرْكُ الإِعَانَةِ وَالنَّصْرِ.

وَمَعْنَاهُ: إِذَا اسْتَعَانَ بِهِ فِى دَفْعِ ظَالِمٍ وَنَحْوِهِ لَزِمَهُ إِعَانَتَهُ إِذَا أَمْكَنَهُ وَلَمْ

(١) صحيح: رواه مسلم (٤٩) كتاب الإيمان.

(٢) صحيح: رواه البخارى (٢٤٤٤) كتاب المظالم والغصب.

(٣) «شرح النَّووى على مسلم» (١٤/ ٣٢).

(٤) صحيح: رواه مسلم (٢٥٦٤) كتاب البر والصلة.

يكُـنْ لَـهُ عُـذْرٌ شَـرْعِي وَلَا يحْقِـرُهُ ... أَى لَا يحْتَقِـرَهُ فَـلَا يُنْكِـرُ عَلَيـهِ وَلَا يسْتَصْغِرُهُ»[١].

ففى «مسند أحمد» بسندٍ صحيح[٢] من حديث أبى بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه قال: «أَيُّهَا النَّاس إِنَّكُم تَقْرَأُونَ هَـذِهِ الآيَـة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ ﴾[٣].

وإِنِّى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِم وَلَـمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدِيهِ، أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابِهِ».

وَفى «الـصحيحين»[٤] مـن حـديث البَـرَاءِ بْـنِ عَـازِبٍ رضي الله عنهما، قَـالَ: «أَمَرَنَـا النَّبى ﷺ بِسَبْعٍ، وَنَهَانَـا عَـنْ سَبْعٍ فَـذَكَرَ: عِيـادَةَ المَـرِيضِ، وَاتِّبَـاعَ الجَنَـائِزِ، وَتَشْمِيتَ العَاطِسِ[٥]، وَرَدَّ السَّلاَمِ، وَنَصْرَ المَظْلُومِ، وَإِجَابَةَ الـدَّاعِى، وَإِبْـرَارَ المُقْسِمِ».

وأَمَّا متى يكونُ نصرُ المظلُوم، فيكون قبل وقوع الظُّلم، وبعد وقُوعه.

قال الحافظُ ابنُ حجر رحمه الله: «وَيقَعُ النَّصْرُ مَعَ وُقُوعِ الظُّلْمِ وَهُـوَ حِينَئِذٍ حَقِيقَةٌ وَقَدْ يقَعُ قَبْلَ وُقُوعِهِ كَمَنْ أَنْقَذَ إِنْسَانًا مِنْ يدِ إِنْسَانٍ طَالَبَهُ بِمَـالٍ ظُلْمًـا وَهَدَّدَهُ إِنْ لَمْ يبْذُلْهُ وَقَدْ يقَعُ بَعْدُ وَهُوَ كَثِيرٌ»[٦].

(١) «شرح النَّووى على مسلم» (١٦/ ١٢٠).
(٢) صحيح: رواه أحمد، وصححه الألبانى رحمه الله فى المشكاة (٥١٤٢).
(٣) سورة المائدة: الآية: (١٠٥).
(٤) متفق عليه: رواه البخارى (٢٤٤٥) كتاب المظالم والغصب، ومسلم (٢٠٦٦) كتاب اللباس والزينة.
(٥) تشميت العاطس: الدُّعاء له بالرَّحمة.
(٦) «فتح البارى» (٥/ ٩٩).

لا تحزن أيها المظلوم فإن الله ناصرك

لا تحزن أيها المظلوم ولا تيأس فالله -جل وعلا- معك وسينصرك .. فإن لم تأخذ حقك فى الدنيا؛ فسوف يضاعف لك الأجر فى الآخرة وستأخذ من حسنات من ظلمك حتى ترضى.

* وحسبُك أنك تنتظر يومًا يجمع الله فيه الأولين والآخرين ... والحَكَم العدل هو الله -جل وعلا- ... والشهود الملائكة.

قال تعالى: ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾(١).

وقال تعالى تسلية للمظلومين: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾(٢).

قال أبو الدرداء: إياك ودمعة اليتيم، ودعوة المظلوم، فإنها تسرى بالليل والناس نيام.

أتهزأ بالدعاء وتزدريه ... وما تدرى بما صنع الدعاء

سهام الليل نافذة ولكن ... لها أمد وللأمدِ انقضاء

فيمسكها إذا ما شاء ربى ... ويرسلها إذا نفذ القضاء

* مرَّ رجل برجل قد صلبه الحجاج فقال: يا رب إن حِلْمك على الظالمين قد أضرَّ بالمظلومين!!

فنام تلك الليلة فرأى فى منامه أن القيامة قد قامت، وكأنه قد دخل

(١) سورة الأنبياء: الآية: (٤٧).

(٢) سورة إبراهيم: الآيتان: (٤٢، ٤٣).

الجنة، فرأى ذلك المصلوب فى أعلى عِلِّيين، وإذا منادٍ ينادى: حلمى على الظالمين، أحلَّ المظلومين فى أعلى عِلِّيين.

* * *

أيها الظالم .. تُب إلى الله ونحلل من المظالم

* يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[١]:

«يجب على كل مسلم البدار إلى محاسبة نفسه، كما قال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا وزِنُوها قبل أن تُوزَنوا، وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحًا ويتدارك ما فرط من تقصير فى فرائض الله عَزَّوَجَلَّ، ويرد المظالم إلى أهلها حبة حبة، ويستحل كل من تعرض له بلسانه ويده وسطوته بقلبه، ويُطيب قلوبهم حتى يموت، ولم يبقَ عليه فريضة ولا مظلمة، فهذا يدخل الجنة بغير حساب، فإن مات قبل رَدِّ المظالم أحاط به خصماؤه، فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يتعلق برقبته، وهذا يقول ظلمتنى، وهذا يقول شتمتنى، وهذا يقول استهزأت بى، وهذا يقول ذكرتنى فى الغيبة بما يسوءنى وهذا يقول جاورتنى فأسأت جوارى، وهذا يقول عاملتنى فغششتنى، وهذا يقول بايعتنى وأخفيت عنى عيب متاعك، وهذا يقول كذبت فى سعر متاعك، وهذا يقول رأيتنى محتاجًا وكنت غنيًّا فما أطعمتنى، وهذا يقول وجدتنى مظلومًا وكنت قادرًا على دفع الظلم عنى فداهنت الظالم وما راعيتنى.

فبينما أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك مخاليبهم وأحكموا فى تلابيبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبقَ فى عمرك أحدٌ

(١) «التذكرة» (١/ ٣١١).

عاملته على درهم أو جالسته فى مجلس إلا وقد استحق عليك مظلمة بغيبة أو جناية أو نظر بعين استحقار، وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخلصك من أيديهم إذ قرع سمعك نداء الجبار.

﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ۚ﴾[(١)].

فعند ذلك ينخلع قلبك من الهيبة، وتوقن نفسك بالبوار، وتتذكر ما أنذرك الله به على لسان رسوله ﷺ حيث قال:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَـٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ۚ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[(٢)].

فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم، وما أشد حسرتك فى ذلك اليوم إذا وُقف بك على بساط العدل، وشُوفهت بخطاب السيئات، وأنت مفلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقًّا أو تُظهر عذرًا، فعند ذلك تؤخذ حسناتك التى تعبت فيها عمرك وتُنقل إلى خُصمائك عِوضًا عن حقوقهم، كما ورد فى الأحاديث المذكورة.

فانظر إلى مصيبتك فى مثل هذا اليوم إذ ليس لك حسنة قد سَلِمت من آفات الرياء ومكائد الشيطان، فإن سَلِمت حسنة واحدة فى مدة طويلة ابتدرها خصماؤك وأخذوها.

ويقال: لو أن رجلًا له ثواب سبعين نبيًّا وله خصم بنصف دانق لم يدخل الجنة حتى يرضى خصمه.

---

(١) سورة غافر: الآية: (١٧).

(٢) سورة إبراهيم: الآيتان: (٤٢، ٤٣).

ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل، لعلمت أنه لا يمضى عليك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفى جميع حسناتك، فكيف ببقية السيئات من أكل الحرام والشهوات والتقصير فى الطاعات؟

وكيف ترجو الخلاص من المظالم فى يوم يُقتص فيه للجمَّاء من القرناء؟

أي: يُقتص للشاة التي ليس لها قرون من الشاة التي لها قرون فنطحتها في الدنيا ثم يُقال لهم: كونوا تُرابًا.

﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ تُرَٰبًا﴾(١).

فكيف بك يا مسكين فى يوم ترى فيه صحيفتك خالية من حسنات طال فيها تعبك؟

فتقول: أين حسناتى؟

فيقال: نُقلت إلى صحيفة خُصمائك، وترى صحيفتك مشحونة بسيئات غيرك.

فتقول: يا رب هذه سيئات ما قارفتها قط!!

فيقال: هذه سيئات الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم فى المعاملة والمبايعة والمجاورة والمخاطبة والمناظرة والمذاكرة والمدارسة وسائر أصناف المعاملة.

فاتقِ الله فى مظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وأبشارهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق فى معاشرتهم، فإن ما بين العبد وبين الله

(١) سورة النبأ: الآية: (٤٠).

خاصة المغفرة إليه أسرع.

ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعَسُر عليه استحلال أرباب المظالم من حيث لا يطَّلع عليه إلا الله فليُكثر من الاستغفار لمن ظلمه، فعساه أن يقربه ذلك إلى الله فينال به لُطفه الذى ادَّخره لأرباب المؤمنين فى دفع مظالم العباد عنهم بإرضائه إياهم.

* **فعن عبد الرحمن بن أبى بكرة قال:**

يجىء المؤمن يوم القيامة قد أخذه صاحب الدَّين فيقول: دَينى على هذا، فيقول الله تعالى: أنا أحق من قضى عن عبدى.

قال: فيرضى هذا من دَينه، ويغفر لهذا[1].

* * *

(١) الظلم والظالمون (ص ١١١-١١٤).

تحلَّل من المظالم ليُرفع البلاء عنك

أذكر أن أحد الأصدقاء من طلبة العلم وحفظة القرآن.. كان رجلًا صالحًا.. يأتيه بعض الناس أحيانًا يقرأ عليهم شيئًا من القرآن كرقية شرعية.. وقد شفى الله تعالى على يده من شاء..

دخل عليه يومًا من الأيام رجل تبدو عليه علامات الثراء..

جلس بين يدى الشيخ وقال: يا شيخ.. أنا عندى آلام فى يدى اليسرى تكاد تقتلنى.. لا أنام فى ليل.. ولا أرتاح فى نهار..

ذهبت إلى عدد كبير من الأطباء.. أجروا لى الفحوصات.. عملوا تمارين.. فما وجدت فائدة أبدًا.. الألم يزيد ويشتد حتى انقلبت حياتى عذابًا..

يا شيخ.. أنا تاجر وعندى عدد من المؤسسات والشركات.. فأخشى أن أكون أُصبت بعين حاسدة.. أو وضع لى أحد الأشرار سحرًا..

قال الشيخ:

قرأت عليه سورة الفاتحة.. وآية الكرسى.. وسورة الإخلاص والمعوذتين..

لم يظهر عليه تأثُّر!!

خرج من عندى شاكرًا.. رجع إلىَّ بعد أيام يشكو الألم نفسه..

قرأت عليه.. ذهب ورجع.. وقرأت عليه.. لم يظهر عليه أى تحسُّن..

قلت له لما اشتد عليه الألم:

قد يكون ما أصابك هو عقوبة على شىء فعلته.. من ظلم أحد الضعفاء.. أو أكل حقوقهم..

أو ظلمت أحدًا فى ماله فمنعته حقه.. أو غير ذلك.. فإن كان هناك شىء من ذلك فسارع إلى التوبة مما جنيت.. وأَعِدْ الحقوق إلى أهلها.. واستغفر الله مما مضى..

التاجر لم يَرُقْ له كلامى.. وقال - بكِبر -: أبدًا.. ما ظلمت أحدًا.. ولم أعتدِ على شىء من حقوق الناس.. وأشكركَ على نصيحتك..

وخرج.. مرَّت أيام وغاب الرجل عنى.. خشيت أن يكون وَجَدَ علىَّ فى نفسه.. ولكن لا علىَّ فهى نصيحة أسديتها إليه..

تفاجأت به يومًا فى مكانٍ ما.. لقينى فأقبل إلىَّ مُسلِّمًا مسرورًا..

سألته: هاه.. ما الأخبار؟

قال: الحمد لله.. الآن يدى بخير.. بغير طب ولا علاج!!

قلت: كيف؟

قال: لما خرجت من عندك.. جعلت أفكر فى نصيحتك.. وأستعيد شريط ذكرياتى فى ذهنى.. وأفكر!!

ترى هل ظلمت أحدًا؟!

هل أكلت حق أحد؟!

فتذكرت أنى قبل سنوات لما كنت أبنى قصرى.. كان بجانبه أرض رغبت فى ضمِّها إليه ليكون أجمل.. كانت الأرض ملكًا لامرأة أرملة توفى زوجها وخلَّف أيتامًا..

أردتها أن تبيع الأرض فأبت.. وقالت: وماذا أفعل بقيمة الأرض.. بل تبقى لهؤلاء الأيتام حتى يكبروا.. أخشى أن أبيعها ويتشتت المال..

أرسلت إليها مرارًا لشرائها.. وهى تأبى على ذلك..

قلت: فماذا فعلت؟

قال: انتزعت الأرض منها بطرقى الخاصة..

قلت: طرقك الخاصة!!

قال: نعم.. علاقاتى الواسعة.. ومعارفى.. استخرجت ترخيصًا ببناء الأرض وضممتها إلى أرضى..

قلت: وأم الأيتام؟!!

قال: سمعت بما حصل لأرضها فكانت تأتى وتصرخ بالعمال الذين يعملون لتمنعهم من البناء.. وهم يضحكون منها يظنونها مجنونة..

وفى الواقع أننى أنا المجنون ليس هى..

كانت تبكى وترفع يديها إلى السماء.. هذا ما رأيته بعينى.. ولعل دعاءها فى ظلمة الليل كان أعظم..

قلت: هاه.. أكمل..

قال: رُحت أسأل وأبحث عنها.. حتى عثرت عليها.. فبكيت واعتذرت.. ولا زلت بها حتى قبلت منى تعويضًا عن تلك الأرض.. ودعت لى وسامحتنى..

فوالله ما إن خفضت يديها.. حتى دبَّت العافية فى بدنى..

ثم أطرق التاجر برأسه قليلًا.. ثم رفعه وقال: ونفعنى دعاؤها – بإذن الله – نفعًا عجز عنه طب الأطباء..[1]

* * *

(١) استمتع بحياتك / د. محمد العريفى (ص ٣٥٢-٣٥٤).

دعوة المظلوم والمضطر لا تُرد

احرص أيها المظلوم على الدعاء فإن دعوة المظلوم والمضطر لا تُردُّ أبدًا.

أجل .. إن دعاء المظلوم مُستجاب ولو كان فاجرًا أو كافرًا إذا دعا على مَن ظَلَمه: والأحاديث الواردة فى التحذير من دعوة المظلوم تُرهبُ الفؤاد، وتمنع من كان له قلبٌ من الظلم:

قال رسول الله ﷺ: «اتَّقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب»[(١)].

وقال ﷺ: «اتَّقوا دعوة المظلوم، وإن كان كافرًا، فإنه ليس دونها حجاب»[(٢)].

وقال ﷺ: «دعوة المظلوم مُستجابةٌ، وإن كان فاجرًا ففجوره على نفسه»[(٣)].

تَوَقَّ دُعَا المظلُومِ؛ إنَّ دُعاءَهُ ... ليُرفَعُ فَوقَ السُّحبِ، ثُمَّ يُجابُ
تَوَقَّ دُعَا مَنْ ليس بين دُعائهِ ... وبينَ إلهِ العَالَمينَ حجَابُ
فقد صَحَّ أنَّ الله قالَ: وعزَّتى ... لأنْصُرنَّ المظلُوم وهو مُثَابُ
فمن لم يُصدِّق ذا الحديث، فإنَّه ... جَهُولٌ وإلَّا عَقلُهُ فمُصابُ

ومن دُرَر العلَّامة ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ قوله: سبحان الله! كم بكت فى تنعُّم الظالم عين أرملة واحترقت كبدُ يتيم وجَرَتْ دمعة مسكين: ﴿كُلُواْ وَتَمَتَّعُواْ

(١) متفق عليه: رواه البخارى (١٤٩٦) كتاب الزكاة، ومسلم (١٩) كتاب الإيمان.
(٢) حسن: أخرجه أحمد، وأبو يعلى، وحسنه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (١١٩).
(٣) حسن: رواه الطيالسى، وحسنه العلامة الألبانى فى صحيح الجامع (٣٣٨٢).

قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴾[١]، ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينِۭ ﴾[٢].

ما ابيضَّ لون رغيفهم حتى اسودَّ لون ضعيفهم وما سَمِنَت أجسامهم حتى انتحلت أجسام ما استأثروا[٣] عليه. لا تحتقر دعاء المظلوم فشرر قلبه محمولٌ بعجيج صوته إلى سقف بيتك. ويحك[٤]! نبال أدعيته مصيبة وإن تأخر الوقت ... قوسه قلبه المقروح[٥]، ووتره سواد الليل، وأستاذه صاحب: «**لأنصرنَّك ولو بعد حين**».

وقد رأيتَ، ولكن لست تعتبر. احذر عداوة من ينام وطرفُهُ[٦] باكٍ، يُقلِّب وجهه فى السَّماء، يرمى سِهامًا ما لها غَرضٌ سُوى الأحشَاء منك، فرُبَّما ولعلَّها إذا كانت راحة اللَّذَّة تُثمر ثمرة العقوبة لم يَحْسُن تناوُلها.

ما تُساوى لذَّةُ سنةٍ غمَّ ساعةٍ فكيف والأمر بالعكس؟!»[٧].

* **وكذلك فإن من الأدعية التى لا تُرد:**

دعوة المضطر صاحب الحاجة والفاقة، الذى صدق فى دعائه ولجوئه ووحَّد الله فى القصد والتوجُّه ... قال الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ﴾[٨].

---

(١) سورة المرسلات: الآية (٤٦).

(٢) سورة ص: الآية: (٨٨).

(٣) استأثر بالشَّىء على غيره: خصَّ به نفسهُ واستبدَّ به.

(٤) ويح: كلمة ترحُّم وتوجُّع، تُقال لمن تنزل به بَليَّةٌ، إن أُضيفت وجب نصبُها بإضمار فعل، والتقدير: ألزمَه الله ويحا ونحو ذلك، وإن لم تُضَفْ جاز النصب على المصدر، والرَّفع على الابتداء.

(٥) المقروح: المجروح، وقد قرحه من باب قطع.

(٦) الطرف: العين لا يُثنَّى ولا يُجمع لأنه فى الأصل مصدر.

(٧) بدائع الفوائد (٣/ ٧٦٢) نقلًا عن ظلمات الظلم.

(٨) سورة النمل: الآية: (٦٢).

* فما عليك أيها المظلوم إلا أن تواصل الليل بالنهار فى الدعاء واللجوء إلى الله .. واعلم علم اليقين أن الله ناصرك ومؤيدك لأنه هو الذى أقسم على ذلك وقال لدعوة المظلوم: «**وعزتى وجلالى لأنصرنَّك ولو بعد حين**»(١).

* فاللهم ارفع الظلم عن المظلومين .. فما أشد مرارة الظلم على قلب المظلوم ... وما أشد وقع الظلم على قلب المظلوم الضعيف الذى لا يستطيع أن يدفع الظلم على نفسه.

* **أيها المظلوم**: حسبُك الله .. ومن كان الله حسبُه فقد كفاه: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾(٢).

أما سمعت وصف الحق (جل وعلا) للنبى ﷺ وأصحابه حينما قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل، وكيف أن الله أعطاهم مقابل كل كلمة هدية عظيمة لا توازيها الدنيا بما فيها.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾(٣).

* نعم.. إنه اليقين فى الله بأنه هو وحده القادر على رفع الظلم عن المظلومين .. وبأنه هو وحده القادر على أن ينصر المظلوم على كل مَن ظلمه فى الدنيا والآخرة.

- ففى الدنيا ينال الظالم بُغض الحق (جل وعلا) وبُغض الناس وأما

---

(١) حسن: رواه أحمد، وحسنه العلامة الألبانى رَحِمَهُ ٱللَّهُ فى السلسلة الصحيحة (٨٧٠).

(٢) سورة الزمر: الآية: (٣٦).

(٣) سورة آل عمران: الآيتان: (١٧٣-١٧٤).

المظلوم فيفوز بحب الخالق (جل وعلا) وحب الناس.

- وكذلك فإن الله ينصر المظلوم ويعوّضه خيرًا مما أُخذ منه ويفتح له أبواب الخير ويُنعم عليه بمعيته ونصره وتأييده ويرزقه نعمة الهداية والتوفيق إلى كل خير.

- وأما فى الآخرة فإن المظلوم يأخذ من حسنات الظالم حتى يصبح الظالم مفلسًا ويصبح المظلوم غنيًّا بالحسنات التى ترفعه فى الجنَّة إلى أعلى الدَّرجات.

* فاللهمَّ انصر كل مظلوم واربط على قلبه يا أرحم الرَّاحمين.

سبحانك اللهمَّ وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

وكتبه الفقير إلى عفو الرحيم الغفار





الفهرس

فهرس الموضوعات

عاقبة الظلم في الدنيا والآخرة

نهاية المشركين والكفار (فكلاً أخذنا بذنبه)

قصص وعبر من نهاية الظالمين

رسائل عاجلة للظالم والمظلوم


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


من إصداراتنا
مواقف إيمانية للمرأة المسلمة
موسوعة الحقوق الإسلامية
فقه المسلم
فقه المسلم


فقه المسلم
أسباب النزول
محمود المصري


تحذير الساجد
من أخطاء
العبادات والعقائد


عالم الجن
والشياطين


ليلة في
بيت النبي


ساعة
و
ساعة
نوادر وعجائب


لا تحزن
وابتسم للحياة


يوم
في
الجنة

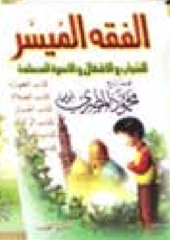

مسك
الختام


الزواج
الإسلامي
السعيد

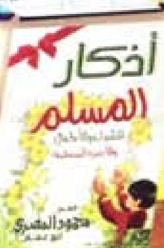

يوسف
الأحلام


صحابيات
حول الرسول
أصحاب الرسول


عقيدة المسلم


الفقه الميسر


منهاج
المسلم

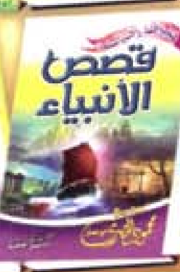

أذكار
المسلم
محمود المصري


رحلة إلى
الدار الآخرة
سيرة
الرسول


تفسير
جزء عم


الآداب
الإسلامية

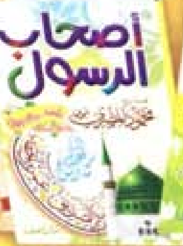

قصص
القرآن

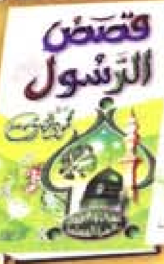

قصص
الأنبياء


حكايات
عمو محمود
حكايات
عمو محمود
للأطفال




معجزات الأنبياء
وكرامات الصحابة
أمهات
المؤمنين
زوجات الرسول
محمود المصري


أصحاب
الرسول


قصص
الرسول


أخلاق
الرسول
سيرة
الرسول